المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى

كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا العربية



معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في آيات غزوتي بدْرٍ وأُحد

دراسةٌ تحليليَّة بلاغيَّة في الخصائص والمزايا

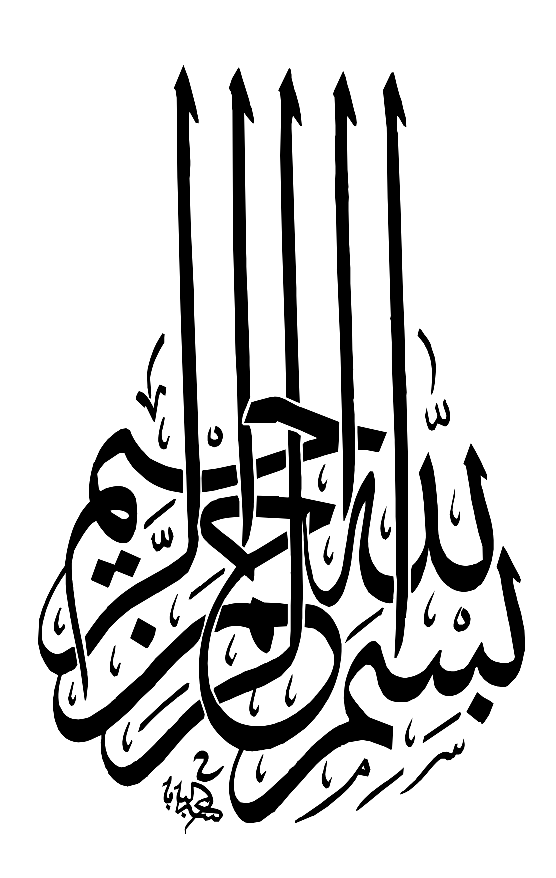
بحثٌ مقدَّمٌ لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنَّقد

إعداد الطالب:
وائل بن عمر بن عبد الله العُمري
الرقم الجامعي (٤٢٨٨٠٠٩٨)

إشراف:
أ.د/ محمود توفيق محمد سعد

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

طباعة الفطاني


بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

«معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في آيات غزوتي بدْرٍ وأُحُدٍ، دراسةٌ تحليليَّة بلاغيَّة في الخصائص والمزايا»

دراسةٌ مقدَّمةٌ لنيل درجة الماجستير في البلاغة والنقد بقسم الدِّراسات العليا العربيَّة بكليَّة اللغة العربيَّة بجامعة أمِّ القُرى لعام١٤٣٢هـ / ٢٠١١م. تتناول الدِّراسة مفهوم التَّثقيف النَّفسيِّ في القرآن الكريم مِن خلال الأساليب البلاغيَّة بالتَّطبيق على آيات غزوتي بدْرٍ وأُحُدٍ، للموازنة بين التَّثقيف في الغزوتين، إذْ يمثِّلان نموذجين مُتقابلين، الأوَّلى تُقَدِّم نموذجًا للانتصار والرِّيادة، والأخرى تُقدِّم نموذجًا للهزيمة والانكسار، فتهدف الدِّراسة إلى الوقوف على أبرز معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في الغزوتين؛ سعيًا لاستنهاض الأمَّة مِن حال الانْكسار والضعف إلى حال الانتصار والرِّيادة. واقتضتْ طبيعة الموضوع أنْ تشتمل الرِّسالة على بابين، الباب الأوَّل:معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في آيات غزوة بدْرٍ، والباب الثَّاني:معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في آيات غزوة أُحُدٍ، واشتمل كلُّ بابٍ على أربعة فصولٍ:

الفصل الأول:أثر السِّياق والموقع في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ، ويدرسُ موقع السُّورة على مدْرجة البيان القرآنيِّ، والمقصد الكليَّ مِن السُّورة، وعلاقات المقاصد الجزئيَّة، وأثر كلِّ ذلك على تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الثاني:أثر اختيار الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ، ويدرسُ أسباب اصطفاء كلمةٍ على أخرى مِن جهة مادَّتها الدَّلاليَّة، أو هيئتها، ومايترتَّب على الاصطفاء مِن تحقيقٍ للتَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الثالث:أثر منهاج التَّركيب في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ، ويدرس الأساليب التَّركيبيَّة كالعطْف، والنَّفي، والتَّأكيد، والنَّهي، والتَّقديم والتَّأخير،والذِّكْر والحذْف، والتَّقابل، والشَّرط، واسميَّة الجملة وفعليَّتها، وتنوُّع أداء المعنى بين الإنشاء والخبر، والأمر، وأثرها في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الرَّابع: تخييل المعنى للسَّامع، ويدرس أساليب تخييل المعنى، واستحضار الموقف، بأسلوب التَّخييل الزَّمنيِّ، والأساليب التَّصويريَّة، وأثر ذلك في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

ثمَّ قدَّمتْ الدِّراسة مجموعةً مِن النَّتائج، وأبرز معالم التثقيف في الغزوتين والتَّوصيات.

الباحث	المشرف على الرسالة	عميد الكليَّة
وائل بن عمر العمري	أد. محمود توفيق	أد. صالح الزهراني

ABSTRACT

«Psychological features of education in the verses of invasions of Badr and Uhod, an analytical study in the rhetorical features and benefits»

Study submitted to obtain a master's degree in Rhetoric, Department of Arabic Graduate Studies, Faculty of Arabic Language at the University of Umm Al-Qura in 1432 AH / 2011 AD. This study discusses the concept of psychological education in the Holy Quran through rhetorical methods application in the verses of invasions of Badr and Uhod, to balance the education in both invasions, as representing the two models facing one another, the first provides a model for victory and pioneering, and the other provides a model for defeat and crumpling, the aim of the study is to determine the main features of psychological education in both invasions; an effort to rally the nation from the case of crumpling and vulnerability to another victory and leadership. necessitated the nature of the topic that includes the message on two parts, Part I: Features of psychological education at the Battle of Badr, and Part II: Features of psychological education at the battle of Uhod, and each included four chapters:

Chapter I: the impact of the context and location in the achievement of psychological education, and study Sura site listed on the Quranic statement, and the overall purpose of the sura, and the partial relations purposes, and the impact of each on the achievement of psychological education.

Chapter II: the impact of word choice to achieve psychological education, and examines the reasons for singling out the word by its indicative substance or structure, and what results from the selection in the achievement of psychological education.

Chapter III: The Impact of the Platform for installation in achieving education psychological, and examines the methods of synthetic connective, and exile, and the emphasis, prohibit, moving forward and backward, presenting, deletions, juxtaposition, condition, a nominal and verbal sentence, and the diversity of the performance of meaning between initiation and predicate, command, and their impact on achieving the education psychological .

Chapter IV: describes imaginary meaning to the listener, and study methods of describing imaginary meaning, and bring the situation, in a manner illusions calendar, and imaging methods, and the impact of the attainment of psychological education.

Then, the study provided a set of results, and highlights of education methods in the two invasions and recommendations.



المقدمـــــة

الرسالة

المقدمـــة

الحمد لله كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، لـهُ الحمـد في الأولى والآخـرة، لانُحصي ثناءً عليه، والصَّلاة والسَّـلام عـلى نبيِّنـا محمَّـدٍ، خـاتمِ رُسـله، وصـفيِّ خلقـه، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فكتـاب الله ﷻ منهـاجُ حيـاةٍ، أنزلـه الحـقُّ سبحانه لإخـراج النَّـاس مِـن ظُلـمات الجهل والضَّـلالة؛ لينقلهم إلى رحـاب النُّـور والهـدى، فأحْـدَثَ هـذا الكـلام العـليُّ في حقْبةٍ وجيزةٍ أثرًا عميقًا في النُّفوس التي تلقَّته، ونقلتهم مِن مجتمعٍ تسود فيـه الأعـرافُ والعاداتُ بما فيها مِن صحيحٍ وقبيحٍ إلى رجالٍ صـدقوا مـا عاهـدوا الله عليـه، فحملـوا رايةَ الدِّين ونَشْرِ كلمة الحقِّ على عواتقهم، جـاعلين كتـاب الله ﷻ مـنهج حيـاتهم، منـه ينْطلقون، وإليه يعودون، ولأجله يأتلفون ويفترقون.

واقتضتْ كلمة الحقِّ أنْ ينُاضِلَ حَمَلَتُها لإعلائها، والتَّصدِّي للباطل الـذي يحـولُ بين الحقِّ وبـين النَّـاس، واقتضـتْ حكمـة المـولى ﷻ الصِّر-اع بينهما؛ وأن يتـدافع الحـقُّ والباطل؛ ليتميَّزا فلا يلْتَبِسا، تمييزًا ترخص لأجله الدِّماء، وتُبـذل في سـبيل الـذَّود عنـه الأرواح.

وفي سبيل تعزيـز الجانـب النَّفسيِّ- للمـؤمن؛ ليقـوم بواجـب إعـلاء كلمـة الحـقِّ، ومايتبعُها مِن التَّكاليف الشَّرعيَّة جاء الخطاب الربَّانيُّ محقِّقًا حاجات النَّفس الإنسـانيَّة، بما تتمتَّع به اللغةُ مِن إيحاءاتٍ في مكنون كلماتها وتراكيبهـا وصُـورها، تُسفر عـن معـانٍ تستجيش مشاعرَ المؤمن ترغيبًا وترهيبًا، لإرشاده إلى مافيه صلاحُه في الدُّنيا والآخـرة، فتنفث اللغة التي أُنْزل بها الوحي في رُوع المؤمن ورُوحه مايستنهضُه للإقبال على تلقِّي التَّكاليف بالتَّنفيذ والعمل. ومِن هنُا كان التَّثقيف النَّفسيُّ وسيلةً مِـن وسـائل التَّرغيـب والتَّرهيب.

والأمَّة اليوم احتلَّتْ موقع التَّابع بعد أنْ كانتْ متبوعةً، وتراجعـتْ عـن سـيادتها وقيادتها بقدر تراجعها عن التَّمسُّك بشرع الله ﷻ، وصـار لزامًـا عليهـا أنْ تبحـث عـن

موقعها بين الأُمم، وأنْ تصنع مجْدها مِن جديدٍ، وأنْ تهيِّء لهذا الشأن جيلًا قادرًا على تحقيق النَّصر، وهي في سبيل ذلك تستمدُّ منهجها وقوَّتها مِن كتاب الله ﷻ.

وفي القرآن الكريم عرضٌ لموقفين تاريخيين، يُمثِّلان صورتين مُتقابلتين، إحداهُما تُمثِّل نموذج النَّصْر والرِّيادة، والأخرى تُمثِّل نموذج الهزيمة والانْكسار. وعرضُ القرآن الكريم لهاتين الصُّورتين وما تخللتهما مِن تعقيباتٍ ودروسٍ وعِبَر جديرٌ بالاهتمام والملاحظة، والموازنة بين التَّعقيب في الغزوتين، واللغة التي كانت عنصرًا فاعلًا في التَّأثير والتَّغيير.

عنوان الموضوع:

تتناول الدِّراسة آياتٍ مِن كتاب الله ﷻ نَزَلَتْ في شأن غزوتين مِن غزواتِ الرَّسول ﷺ هما غزوة بدْرٍ الكُبرى التي تمثِّل نموذج النَّصْر، وغزوة أُحُدٍ بما تُمثِّله أحداثُها مِن الانْكسار، وتوزَّعتْ آيات غزوة بدْرٍ بين سُورة آل عمران، وسُورة الأنْفال، وإشارةٍ للواقعة في سُورة القمر، بينما جاء تفصيل أحداث غزوة أُحُدٍ في سُورة آل عمران.

ويُقدِّم البحث دراسةً بلاغيَّةً تتلمَّسُ المزيَّة والمعالم التَّثقيفيَّة اللتين غَرَسَهُما القرآن الكريم في نفوس الفئة المؤمنة التي تلقَّت البيان العليَّ بدراسة الخصائص التَّركيبيَّة في مستويات النَّظم، واستحضار تجليَّات المواقف، والصُّور التي خُيِّلت في أذهان السَّامعين عن أحداث الغزوتين. وعنوان الدِّراسة: **معالمُ التَّثقيف النَّفسيِّ في آيات غزوتي بدْرٍ وأُحُدٍ "دراسةٌ تحليليَّةٌ بلاغيَّةٌ في الخصائص والمزايا".**

والمقصود بالخصائص هيئات التَّراكيب وكيفيَّاتها المثمرةُ المزايا التي تتحقَّقُ بها الفُروق. يقول الإمام عبد القاهر:" وجمُلة الأمر أنَّه لا يَرى النَّقص يدخل على صاحبه في ذلك إلَّا مِن جهة نقصه في علم اللغة، لا يَعلم أن ها هنا دقائقَ وأسرارًا، طريقُ العلم بها الرَّويَّة والفِكْرُ، ولطائف مُسْتَقَاها العقل، وخصائصُ معانٍ ينفرد بها قومٌ قدْ

هُدُوا إليها، ودُلُّوا عليها، وكُشِفَ لهم عنها، ورُفعت الحُجُب بينهم وبينها، وأنَّها السَّبب في أنْ عَرَضَتْ المزيَّة في الكلام، ووجب أنْ يَفْضُل بعضه بعضًا، وأنْ يبعد الشأؤ في ذلك، وتمتدَّ الغاية، ويعلو المرتقَى، ويعزَّ المطلب، حتَّى ينتهي الأمرُ إلى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر"[(١)].

ففي كلامه تمييزٌ واضحٌ بين الخصائص والمزايا، فالخصائص هي الأسباب في وجود المزايا، وعلاقة المزايا بالخصائص علاقة الثَّمرة بالأفنان والأغصان. أمّا المزيَّة فهي مناط المفارقة، ومحلُّ المباينة، وبها يفضل الكلامُ الكلامَ.

أهميَّة الموضوع :

١- استثمار المعرفة في حقولها المتنوِّعة للخروج بفهْمٍ أكثر شموليَّةً، فالموضوع تتجاذبُه حقولٌ معرفيَّةٌ متنوِّعةٌ تاريخيَّةٌ ونفسيَّةٌ ولغويَّةٌ وبلاغيَّةٌ وتفسيريَّةٌ.

٢- الكشفُ عن أساليب القرآن الكريم في استثمار فاعليَّة الكلمة البليغة في سياقها، والبناء المحكم في التَّأثير على النَّفوس وتهذيبها وتزكيتها.

٣- دراسة الخطاب الرَّبَّانيِّ بفهمٍ أعمق للتَّكاليف الشَّرعيَّة، وذلك أنَّ الخطاب الرَّبَّانيَّ العليَّ يُوقع في النَّفس أثرًا بليغًا، فيمتدُّ ذلك الأثر ليُحيل التَّكليف في نفس المرء المتدبِّر هذا البيان إلى مننٍ يمنُّ الله ﷻ بها على عباده، وهذا يجعل إقبال المرء عليها إقبال محبَّةٍ واسترواحٍ، وتلك غايةٌ إنْ تحقَّقت تحقَّق بها مِن الله تعالى العزَّة في الدُّنيا والسَّعادة في الآخرة، وتلك هي غاية الغايات لكلِّ مسلم.

(١) دلائل الإعجاز: (٧)، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجي، مصر- القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

أسباب اخْتيار الموضوع:

١-الرَّغبة في المشاركة بالانتقال بالدَّرس البلاغيِّ مِن حيِّز التَّنظير العلميِّ إلى مجال التَّطبيق في البيان العليِّ، واستكناه أسرار الكتاب المعجز، والوقوف على نكات التَّعبير القرآنيِّ؛ وصولًا إلى الكشف عن جانبٍ مِن جوانب الإعجاز.

٢-تقديم نموذجين متقابلين لتأمُّل أسباب النَّصر والهزيمة؛ فالعبرة لا تكتمل صورتها إلَّا بمقابلة وموازنة النَّتائج في الغزوتين، فغزوة بدْرٍ الكبرى ذات العتاد المتواضع حقَّق الله فيها للأمَّة نصْرًا مجيدًا، وغزوة أُحُدٍ ذات العتاد والعُدَّة لمْ يحُقِّق فيها المسلمون النَّصر المؤمَّل؛ فكان عتاب الله ﷻ آمرًا المسلمين بالعودة إلى أنفسهم ﴿**قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ**﴾ [آل عمران:١٦٥]، فتقديم هذين النَّموذجين المتقابلين فيه حثٌّ للأمَّة على تأمُّل أسباب النَّصر ودواعيه، وأسباب الهزيمة ودواعيها، وسبب الرَّبط بين الأثر النَّفسيِّ وهاتين الغزوتين تحديدًا؛ لما أشار إليه البيان العليُّ مُجملًا بتفقُّد النُّفوس التي تغيَّرتْ، فتغيَّر النَّصر المؤزَّر في بدْرٍ إلى تراجعٍ في أُحُدٍ؛ لتعرض الأمَّة نفسها بعد ذلك على هاتين الصُّورتين، فتسلك الطَّريق الذي يحقِّق لها سؤددها.

٣-جدَّة الموضوع، فالدِّراسات التي تناولتْ موضوع البحث - فيما اطَّلعت عليه - لمْ تتناوله مِن هذا البُعد، فهي إمَّا دراساتٌ تناولتْ الجانب البلاغيَّ الاصطلاحيَّ في الآيات، أو دراساتٌ أخرى تناولت الأبعاد المعرفيَّة الأخرى كالبُعد التَّاريخيِّ أوالشَّرعيِّ، وأرجو أنْ يُقدِّم الموضوع إضافةً في بُعده البلاغيِّ النَّفسيِّ.

قضيَّة الدِّراسة وتساؤلاتها:

تقوم قضيَّة الدِّراسة على أمرين كليين:

١-البحث في الخصائص التَّركيبية والتَّصويريَّة للوقوف على المزايا التي مِن شأنها صقل النُّفوس وتهذيبها، وفي هذا سعيٌ حثيثٌ للوقوف على العوامل الفاعلة في نفوس الصحابة في غزوة بدْرٍ، فصنعتْ منهم أدوات تغييرٍ جوهريٍّ في مسيرة الأمَّة

دعوةً ودولةً، وجعلت مِن هذه الغزوة بداية حقْبةٍ جديدةٍ في حياة الدَّعوة الإسلاميَّة ليس لها نظيرٌ فيما قبلها وفيما بعدها، وكذلك فيه سعيٌ حثيثٌ للوقوف على العوامل التي جعلت مِن أولئك الذين حقَّقوا النَّصر في غزوة بدْرٍ طائفةً كانت سببًا في هزيمة الصَّحابة، وانتصار الرَّسولﷺ. والوقوف على معالم الموقفين معًا الأسباب والنَّتائج والآثار القريبة والبعيدة يشْرق منه العلمُ المحقَّقُ بما يمكن أنْ يُغيِّر الواقع المعاصر لهذه الأمَّة، وهي في سياق الانكسار النَّفسي والمادِّيِّ.

٢- الموازنة بين الموقفين، وتصوير القرآن الكريم للواقع النَّفسي للصَّحابة في كلٍّ، ومِن خلال هذا تقدِّم الدِّراسة نموذجين لاستخلاص ما يمكن أنْ يحقق اجتياز النَّموذج الثَّاني نموذج الانكسار الذي نعيش الآن في سياقٍ إلى النَّموذج الأول الأمثل، ومِن خلال هذه الموازنة يمكننا أنْ نرسم المعالم الكُبرى لطريق العزَّة والرِّيادة.

ويثير الموضوع العديد من التساؤلات عن علاقة مستويات النَّظم بالتَّثقيف النَّفسي، فكيف يكون لسياق السُّورة المديد والقريب أثرٌ تثقيفيٌّ، وما أبرز معالم ذلك الأثر؟وكيف تحقِّق الكلمة في سياقها أثرها التَّثقيفي؟ومامناط النَّظر في الكشف عن أسرار اختيار الكلمة في سياقها؟وهل لها علاقة بالسِّياق؟وكيف يكون لمنهاج التَّركيب أثره في تحقيق التَّثقيف؟وما أثر السِّياق عليه؟وما أدوات تخييل المعاني والمواقف في أذهان السّامعين؟وما أثر ذلك؟.

الدِّراسات السَّابقة:

هناك العديد من الدِّراسات التي تناولت موضوعاتٍ مقاربةٍ تتقاطع مع هذه الدِّراسة في بعض الآيات، خاصةً آيات القتال والجهاد، غير أنَّ أغلب تلك الدِّراسات تناولته مِن جوانب أخرى غير اللغة والبلاغة، ولذلك أوجزت ما يتقاطع مع موضوع الدِّراسة مِن وجهةٍ لغويَّةٍ أو بلاغيَّةٍ، وهي:

١- **النَّظم القُرآنيُّ في آيات الجهاد، للباحث: ناصر بن عبد الرحمن الخنين**. رسالةٌ علميَّةٌ مطبوعةٌ، أُجيزت مِن كليَّة اللغة العربيَّة بجامعة الإمام محمد بن سعودٍ الإسلاميَّة بالرِّياض. حصل بها الباحث على درجة الدكتوراة عام ١٤٠٩هـ. وتناول الباحث فيها آيات الجهاد في جميع الغزوات المذكورة في القرآن، معتمدًا التصنيف بالأسلوب، ودَرَسَها دراسةً بلاغيَّة تحليليَّةً.

وموضوع البحث مُغايرٌ لهذه الدِّراسة مِن جوانب:

أ- الغَرَضُ: فالدِّراسة تهدف إلى غايةٍ مختلفةٍ، ففي حين تهدف دراسة الباحث ناصر الخنين إلى البحث عن أسرار بلاغة آيات الجهاد، والتَّأمُّل في دقائق نظمها؛ للتَّنبيه إلى عظم أهميَّة الجهاد، يهدف موضوع الدِّراسة إلى الموازنة بين غزوتين محدَّدتين لغايةٍ أُخرى، هي تتبُّع الأثر النَّفسيِّ- والمزيَّة التي تحُدثها الخصائص التَّركيبيَّة والتَّصويريَّة؛ وصولًا إلى الأسباب التي تحقِّق للأمَّة النُّهوض مِن كبوتها الرَّاهنة.

ب- المجال: فموضوع الدِّراسة يطرق مجالًا أرْحبَ في التماس مواقع الآيات وسياقها، وربْطها بمقاصد السُّورة. مع الأخذ بمبدأ الاستقصاء في النَّظر في مناطات الخصائص ومزاياها، والاستقصاءفي التَّحصيل والتَّفصيل، ووضع اليد على الخصائص وعدِّها واحدةً واحدةً.

٢- **أسلوب القرآن في عرض مواقف الحرب والسَّلام، للباحث: محمد علي حسن أحمد**. بإشراف الأستاذ الدُّكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، رسالةٌ

علميَّةٌ أجيزت من كليَّة اللغة العربيَّة بجامعة الأزهر بأسيوط، حصل بها الباحث على درجة الدَّكتوراة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م. وتناول البحث مواقف الحرْب والسَّلام سواء كانت ضمن إطار الغزوات أو خارجها، كالمعاهدات والمواثيق. واعتمد في تصنيفه على الجانب الموضوعيِّ.

وموضوع البحث مغايرٌ لهذه الدِّراسة مِن جوانب:

أ. مجال الدِّراسة: كما يظهر من عنوانه ومضمونه، فنطاق دراسته يشمل كل الغزوات علاوة على حالة السَّلام.

ب. خطَّة البحث: فدراسته كما أشرت موضوعيَّةٌ تبرز الصُّورة الأدبيَّة للحالتين، ولذا جاءت أبواب الرِّسالة وفصولها وفق هذا التصنيف، فتناولت فصوله الجوانب المعادية للدَّعوة، وإعداد المحارب، والحرب غير المسلَّحة في القرآن المكيِّ، والمواجهة الحربيَّة، ثمَّ تناول المعاهدات ودلالتها السلميَّة، والطَّريق إلى السَّلام الدَّائم.

٣- نصوص التَّرغيب والتَّرهيب في القرآن الحكيم من وجهةٍ بلاغيَّةٍ، للباحث: يوسف بن عبد الله الأنصاري، بإشراف الدُّكتورعبد العظيم المطعنيّ، رسالةٌ علميَّةٌ أُجيزت مِن قسم الدِّراسات العليا العربية بكليَّة اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكَّة المكرَّمة، حصل بها الباحث على درجة الدُّكتوراة عام ١٤١٣هـ. وتناول الباحث في دراسته النُّصوص القرآنيَّة في التَّرغيب والتَّرهيب، وصنَّفها تصنيفًا موضوعيًّا، فتناول التَّرغيب في الإيمان والتَّرهيب من الكفر، والتَّرغيب في الاعتصام والتَّرهيب من التَّفرُّق واتِّباع السُّبُل، والتَّرغيب في الجهاد والتَّرهيب مِن التَّثاقل عنه، والتَّرغيب في الإنفاق والتَّرهيب مِن البُخْل، والتَّرغيب في الآخرة والتَّرهيب مِن الرُّكون إلى الدُّنيا، والتَّرغيب في الطَّاعات والتَّرهيب مِن المعاصي.

ودراستي تتقاطع مع هذه الدِّراسة في فصل التَّرغيب في الجهاد، والتَّرهيب مِن التَّثاقل عنه، لكنَّها مغايرةٌ مِن جوانب:

أ. نطاق البحث: فموضوع دراستي محدَّدٌ بالغزوتين، وهذه الدِّراسة تتناول

نصوص التَّرغيب في الجهاد كلِّه.

ب. خطَّة البحث: فدراسة الباحث تمحورتْ حول النُّصوص المصنَّفة حسب الفصول، ثمَّ تحليلها بلاغيًّا، أمَّا هذه الدِّراسة فتمحورت حول السُّورة والسِّياق.

٤-خصائص التَّراكيب اللغويَّة لآيات الحرب والسَّلام في القرآن الكريم، للباحث: رجب عبد القادر بدوي حجَّاج. رسالةٌ علميَّةٌ أُجيزتْ مِن قسم اللغة العربيَّة بكليَّة الآداب بجامعة طنْطا، منُح الباحث بها درجة الماجستير ١٩٩٠م.

وموضوع البحث مغايرٌ لهذه الدِّراسة مِن جوانب:

أ- المجال: ويتَّضح مِن عنوان البحث أنَّ الدِّراسة تناولتْ آيات الجهاد في جميع الغزوات، مضيفًا الآيات التي تحدَّثت في شأن الصُّلح والعهود، وكلُّ ذلك يبدو بعيدًا عن مجال بحثي المحدَّد بنطاق غزوتي بدرٍ وأُحدٍ.

ب- مادة البحث والتَّصنيف: فالبحث يُصنَّف ضمن البحوث النَّحوية الدَّلالية، فهو يدرس تصنيف الآيات حسْب الأساليب النحويَّة جاعلًا مِن (الجملة) محورًا للبحْث.

وقد اعتمد الباحث المنهج الوصفيَّ، مُعتمدًا على قراءةٍ واحدةٍ وهي قراءة (حفْصٍ عنْ عاصمٍ).

منهج الدِّراسة:

▪ اعتمدتُ على المعاجم الموضوعيَّة للقرآن الكريم في حصر آيات الغزوتين، ثمَّ أعدتُ النَّظر في بعض السياقات وألحقتُ ما لا يستغني سياق الآيات عنه.

▪ رجَّحتُ فيما كان الخلافُ فيه قائمًا بين المفسِّرين في تصنيف بعض آيات الغزوتين أفي بدْرٍ نزلت أم أُحدٍ؟اعتمادًا على المقصد والسِّياق، والنصوص الموازية مِن آثار الصَّحابة والتَّابعين.

▪ استقرأت كلام المفسِّرين بالتَّرتيب التَّاريخي مِن الأقدم للأحدث. ودوَّنت عبارتهم وإشاراتهم للخصائص والمزايا، ثمَّ أضفت إليها مالم يتوقَّفوا عنده.

▪ صنَّفتُ تلك الإشارات والعبارات وماتيسَّر استدراكه لمستويات تحليليَّة: السِّياق والموقع، الكلمة، التَّركيب، التَّخييل.

▪ تعاملتُ مع النُّصوص المنقولة إمَّا للاستدلال على ما أشرتُ إليه، أو لشرحٍ أو تحليلٍ أو استدراك، ثم استنبطتُ الأثر التَّثقيفيَّ.

▪ اعتمدتُ في ترتيب الأبواب على فصل الغزوتين كلٌ في بابٍ مستقلٍّ، ثم زاوجتُ بينهما للموازنة في النَّتائج.

▪ اعتمدتُ على التَّصنيف الأسلوبيِّ في الفصول.

▪ ابتدأت بغزوة بدْر لسياقها التَّاريخي، ونزول القرآن، وابتدأت بفصل السِّياق والموقع لأحلِّل الفصول اللاحقة كالكلمة والتَّركيب والتَّخييل في ضوئه.

▪ رجّحتُ مايسوغ التَّرجيح فيه، واكتفيتُ بذكر بعض الأوجه دون ترجيح لما في الاختلاف فيه من تنوُّعٍ يحتمله السِّياق، ولايمكن القطع فيه.

▪ في فصل الموقع والسِّياق اعتمدتُ على الكتب التي اعتنت بالمقاصد ككتاب نظم الدرر للبقاعيِّ، مع إدامة النَّظر في الآيات وسياقها وابتدأت بسياق الآيات المديد

ثمَّ القريب ثمَّ المقصد الكلِّي وعلاقات المقاصد الجزئيَّة به انتقالا من العلاقة الكبرى للصُّغرى.

▪ في فصل اختيار الكلمة اخترتُ للتَّحليل الكلمات التي ألمس في اختيارها تثقيفًا نفسيًّا.

▪ اعتمدتُ في الكشف عن الأصل اللغوي للكلمة على معجم لسان العرب لابن منظور، ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، ولم أحد عنهما إلَّا للإضافة عليهما.

▪ في مبحث اختيار الكلمة لمادَّتها اعتمدتُ ترتيب الآيات إلَّا إذا استدعت الكلمة نظائرها. أمَّا مبحث هيئة الكلمة فقد اعتمدتُ فيه على بنية الكلمة ودلالتها.

▪ في فصل منهاج البناء اعتمدتُ في تصنيفه على ماتبيَّن لي أنَّه مناط التَّثقيف الرئيس، باعتبار أن الآية لها مناط للتَّثقيف يؤدِّيه أسلوبٌ بلاغيٌّ رئيسٌ، ثم تكون أساليبٌ مساعدةٌ للتَّحفيز والتَّهييج، فالتصنيف فيها تصنيفٌ وظيفيٌّ للأسلوب، وقد أجمع بعض الآيات إلى بعض إذا كان السِّياق واحدًا، أو كانت تمهيدًا للأسلوب الرئيس، أو تعقيبًا وتذييلًا.

▪ في تصنيف فصل منهاج التَّركيب صنَّفت الأساليب بالقيمة الوظيفيَّة؛ وأثر الأساليب على بعضها البعض؛ لذا فقد أُدرج أسلوبًا ضمن أساليب أخرى مراعاةً للبعد الوظيفيِّ للأسلوب كإدراج القصر في أساليب التَّوكيد.

▪ قد أعيد بعض ما قلته في اختيار الكلمة في فصولٍ كالتَّركيب والتَّخييل وذلك لاقتضاء الأسلوب الوقوف على دلالة الكلمة، وحينها يكون الغرض مختلفًا فيوظَّف في سياق مايرد فيه.

▪ ختمتُ البحثَّ بنتائج وتوصياتٍ كليَّة لتركيب ما حلَّلته في الدِّراسة.

▪ وثَّقت المعلومات من مصادرها الأصليَّة، فالقراءات من كتب القراءات،

واعتمدتُ في ذلك على التّيسير في القراءات السَّبع، والنشر في القراءات العشر، واعتمدت من القراءات ماتبيَّن لي فيه مناط التَّثقيف، على أن تكون من القراءات الثابتة، واستأنست بالشاذ في معرض الاستدلال. كما وثَّقتُ أسباب النُّزول من مظانِّها ككتب الحديث الصِّحاح وأسباب النُّزول، فإنْ لمْ أجده فيما ذكرتُ أحلتُ على كتب التَّفسير، وقليلًا مايكون. كما خرَّجتُ الشواهد الشِّعرية من الدَّواوين، فإن لم يتوفَّر للشاعر ديوان، خرَّجته من كتب اللغة والأدب والأخبار.

▪ وثَّقت الأحاديث من كتب الحديث وذكرتُ تخريجها، وحكمها، وقد أشير إلى الحكم دون توثيقٍ خاصةً للألبانيِّ، بغية الإيجاز، وعدم الإحالة على مرجعين.

▪ صحَّحت الأخطاء المطبعيَّة الظَّاهرة في النُّصوص المنقولة، وأضفتُ علامات التَّرقيم تسهيلًا لفهم المعنى.

▪ ذكرتُ معلومات المصادر والمراجع عند أول ورودٍ لها، ثمَّ أحلت بعد ذلك على اسم الكتاب، إلّا إذا اشتبه اسم الكتاب مع غيره.

▪ ذكرتُ اسم الشّهرة للمؤلِّف، واسم الكتاب الموسوم به، دون إحالة الكتاب على مؤلِّفه إلّا إذا لم يُعرف إلَّا به.

▪ عرَّفتُ بالمصطلحات والأعلام اللذين يغلبا على ظنِّ الباحث وأقرانه الجهل بهما.

▪ اعتمدتُ في التَّوثيق على رقم الصَّفحة والجزء، وإذا كانت أجزاءً في مجلَّدٍ واحدٍ، نظرتُ فإن كان ابتداء الجزء الجديد بترقيمٍ جديدٍ، أحلت على رقم الجزء، وإن كان التَّرقيم متَّصلًا أحلت على رقم المجلَّد.

▪ لجأتُ إلى المصادر الوسيطة عند فقدان الكتاب الأصليِّ، أو صعوبة الحصول على المخطوط.

▪ رتّبتُ المصادر والمراجع وفق التَّرتيب الهجائيِّ.

۞ خِطَّة الدِّراسة :

تناولت الدِّراسة الموضوع من خلال تمهيدٍ وبابين لكل باب أربعة مباحثٍ وخاتمة يليها فهرس لمصادر البحث وفهرس للموضوعات، وتفصيله على النحو الآتي:

تمهيد: تناولت فيه مفهوم التَّثقيف النَّفسيِّ، لغة وإجراءً، وعرضت فيه ارتباط الجانب البلاغيِّ بالجانب النَّفسيِّ، وتفطُّن العلماء السَّابقين لهذا الملمح في حديثهم عن الإعجاز في القرآن.

الباب الأوَّل: معالم التَّثقيف النَّفسي في آيات غزوة بدر.

الفصل الأوَّل: أثر السّياق والموقع في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث الأوَّل: موقع سورة الأنفال على مدْرجة البيان القرآني.

المبحث الثَّاني: أثر مقصد السُّورة وعلاقات المعاني الجزئيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الثَّاني: أثر اختيار الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الأوَّل: أثر اختيار مادَّة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث الثَّاني: أثر اختيار هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

الفصل الثَّالث: أثر منهاج التَّركيب في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الأوَّل: أثر أساليب العطف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الثَّاني: أثر أساليب النَّفي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الثَّالث: أثر أساليب التَّقابل في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الرَّابع: أثر أساليب التَّأكيد في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الخامس: أثر أساليب النَّهي في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث السّادس: أثر أساليب الذِّكر والحذف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث السَّابع: أثر أساليب التَّقديم والتَّأخير في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الثَّامن: أثر أساليب الأمر في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث التَّاسع: أثر أساليب الشَّرط في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الرَّابع: أثر تخييل المعنى للسَّامع في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الأوَّل: التخييل بالزَّمن.

المبحث الثَّاني: التَّخييل بالأساليب التَّصويريَّة.

الباب الثَّاني: معالم التَّثقيف النَّفسي في آيات غزوة أحد.

الفصل الأوَّل: أثر السّياق والموقع في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث الأوَّل: موقع سورة آل عمران على مدْرجة البيان القرآني.

المبحث الثَّاني: أثر مقصد السُّورة وعلاقات المعاني الجزئيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الثَّاني: أثر اختيار الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الأوَّل: أثر اختيار مادَّة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث الثَّاني: أثر اختيار هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

الفصل الثَّالث: أثر منهاج التَّركيب في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الأوَّل: أثر أساليب العطف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الثَّاني: أثر أساليب النَّفي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الثَّالث: أثر أساليب التَّقابل في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الرَّابع: أثر أساليب التَّأكيد في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الخامس: أثر أساليب النَّهي في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث السّادس: أثر التَّعبير بالجملة الاسميَّة أو الفعليَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث السَّابع: أثر التَّعبير عن المعنى بالجملة الخبريَّة أو الإنشائيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

الفصل الرَّابع: أثر تخييل المعنى للسَّامع في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

المبحث الأوَّل: التخييل بالزَّمن.

المبحث الثَّاني: التَّخييل بالأساليب التَّصويريَّة.

الخاتمة: وتشتمل على خلاصة الدِّراسة، والنتائج، والتوصيات.

فهرس المصادر والمراجع: للمخطوطات، والكتب، والرسائل العلميَّة. والبحوث العلميَّة

فهرس للموضوعات.

وقد أفدتُ مِن مصادر متنوِّعةٍ كان مِن أهمِّها كُتُبُ التَّفسير التي اعتنت بالجانب البلاغيِّ، ومنها الكشَّاف للزَّمخشريِّ، ومفاتيح الغيب للرَّازيِّ، ونظم الدُّرر للبقاعيِّ، وإرشاد العقل السَّليم لأبي السُّعود العماديِّ، وروح المعاني للألوسيِّ، وأخيرًا التَّحرير والتَّنوير لابن عاشور. إضافةً إلى الكُتُبِ البلاغيَّة المتقدِّمة والمتأخِّرة.

وختامًا أرفع أكفَّ الضَّراعة إلى المولى القدير حمدًا وشكرًا وعرفانًا أن منحني مِن العمر ما أقضيه بين آيات كتابه أتفيَّأ ظلالها، وأعيش في أكنافها، فليس لي مِن الفضل في هذا العمل إلّا بتوفيقه وتيسيره، ومافيه مِن الصَّواب فهو بتسديده، وما فيه مِن قصورٍ فمن نفسي.

ثمَّ أتوجَّه ببليغ الشُّكر لوالديَّ الكريمين اللذين كانا يحفَّاني بدعواتهما، فألمس في عملي منهما الفَرَجَ بعد الشِّدَّة، كما أشكر زوجتي وابنيَّ وإخوتي على تحمُّلهم معاناة

البحث، وتهيئة الأجواء المناسبة.

كما أتقدَّم بالشُّكر الجزيل إلى المشرف على البحث الأستاذ الدكتور محمود توفيق الذي رعى الفكرة بذرةً، ثمَّ تعاهدها بالتَّثقيف والصَّقل، وتحمَّل كثرة سؤال الباحث ومراجعته، فكان رحْب الصْدر، يعطي السَّائل فوق ما يُؤمِّل، فجزاه الله عنِّي خيرًا.

كما أشكر جامعة الملك عبد العزيز بجدة ممثَّلةً في قسم اللغة العربية الذي أذن لي في الابتعاث، ولجامعة أمِّ القرى ممثَّلةً في عمادة الدِّراسات العليا، وقسم الدِّراسات العليا العربيَّة رئيسًا وأساتذةً لقبولي للدِّراسة في مرحلة الماجستير.

ولا يفوتني أنْ أشكر كلَّ مَن كان له أثرٌ في إرشادي وتوجيهي في هذا الطَّريق، وأخصُّ بالشكر منهم شيخنا الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى الذي كان له الأثر البليغ في تكوين عقولنا، والدكتور ياسر بابطين الذي فتح لي مكتبته وعقله وفكره، كما أشكر أساتذتي الذين تتلمذتُ على أيديهم في السَّنة المنهجيَّة، وأشكر أقراني وزملائي وكلَّ مَن كانتْ له يدٌ بيضاءُ على الباحث، وهُمْ كُثُرٌ فجزاهم الله عني خيرًا.

وأختم بالشكر الجزيل لسعادة الأستاذين المناقِشَين لتفضلهما بقبول الرِّسالة، وما سيقدمانه مِن ملاحظ.

الرسالة

اللهم هذا الجهد، ومنك وحدك نستمد حولنا وقوَّتنا، فلا تكلْنا إلى أنفسنا طرفة عين، والحمد لله رب العالمين.



التمهيـــد

الرسالة

مفهوم التَّثقيف النَّفسيُّ

التَّثقيف مصدر ثقَّف بتضعيف عينه، والثِّقاف حديدةٌ يُقوِّم بها الرِّماحُ أو القوَّاسُ ما اعْوجَّ لتكون صالحةً للاستعمال والرَّمي والإصابة، وتثقيفها تسويتها[1]، وفي الأثر عن عائشة -رضي الله عنها- تَصِفُ أَباها: (وأَقامَ أَوَدَه[2] بِثِقافِه)[3] كنايةً عن عن تسوية عِوَجِ المسلمين[4]، فالتَّثقيف لغةً تدلُّ معانيه على التَّهيئة والتَّسوية والإعداد والعناية بالشَّيء، وقالوا مجازًا ثقّفه أيْ هذَّبه[5]؛ لما في التَّهذيب والتَّربية مِن العناية بالنَّفس الإنسانيَّة بغرس القيم الفاضلة، وتحفيز النَّفس إليها، وانتزاع العادات السَّيئة والقبيحة، وتنفير النَّفس منها.

ومفهوم التَّثقيف النَّفسيِّ في هذه الدِّراسة هي المحفِّزات والمهيِّئات التي تلفت المستمع أوالقارئ إلى أوامر الله ﷻ ونواهيه وأخباره، فتحثُّه أوتحذِّره لترغِّبه أوترهِّبه بما انطوت عليه مِن الخصائص والكيفيَّات البلاغيَّة، وصُور المعنى، وما يترتَّب عليها مِن مزايا. والرَّبط بين المعاني والتَّحفيز النَّفسيِّ جارٍ على منهج العناية بالجانب النَّفسيِّ في أساليب البلاغة العربيَّة في مستوياتها المختلفة التَّركيبيَّة والدَّلاليَّة. كما أنَّ ارْتباط الأساليب البلاغيَّة بالنَّفس وأحوالها ارتباطًا عضويًّا لَمْ يَفُت البلاغيين؛ فظهر في

---

(١) ينظر: لسان العرب لابن منظور المصري: (ثقف)، نشر دار صادر ودار بيروت، لبنان - بيروت، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

(٢) الأود: الاعوجاج.

(٣) بغية الرَّائد في تحقيق مجمع الزوائد ومنبع الفوائد لنور الدين الهيثمي: تحقيق: عبد الله محمد الدرويش: كتاب المناقب :باب ما جاء في أبي بكر الصديق -رضي الله عنه-، حديث رقم: (١٤٣٣٦) (٩/ ٣٤)، نشر دار الفكر، لبنان - بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٤) ينظر: لسان العرب: (ثقف).

(٥) ينظر: أساس البلاغة لجار الله الزمخشري: (ثقف)، تحقيق الأستاذ: عبد الحليم محمود، نشر مطبعة أولاد أورفاند، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م. (عن نسخة دار الكتب المصرية).

كلامهم ما يدلُّ على وعيهم بالبحث في مدى مطابقة الكلام لمقتضى الحال[1].

وقد أنزل الله ﷻ كتابه الكريم لإصلاح النَّفس الإنسانيَّة، واقتلاعها مِن الأهواء والرَّذائل للتَّسامي في مراقي العبوديَّة الحقَّة، فلا جدال في أن "للمخاطبة الربَّانيَّة أعمق الأثر في نفس الإنسان وحسِّه ووجدانه وفكره وعقله وسلوكه"[2]؛ لأنَّه عليمٌ بحاجات النَّفس وأغوارها وخفاياها، فجاء الكلام وفق تلك المقتضيات؛ ولذلك كان لهذا الكلام أثرٌ وجدانيٌّ عميقٌ في النُّفوس لاتملك معه القلوب إلَّا أنْ يتكسَّر صَلَفُها، وتنقض الأسوار المنيعة التي حرمتها لذَّة ريِّ الكلام العذب، مع سماعها البيان العليّ كما في قصَّة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه[3]. وهذا الوجه مِن التَّأثير عدّه أهل العلم مِن وجوه الإعجاز القرآنيِّ. يقول الخطَّابيُّ: "قلتُ في إعجاز القرآن وجهًا آخر ذهب عنه النَّاس فلا يكاد يعرفه إلَّا الشَّاذ مِن آحادهم. وذلك صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النُّفوس"[4]، وكذلك جعله القاضي عياض مِن وجوه الإعجاز بقوله: "ومنها الرَّوعة التي تلحق قلوب سامعيه وأسماعهم عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته؛ لقوَّة حاله، وإنافة خطره، وهي على المكذِّبين به أعظم، حتَّى كانوا يستثقلون سماعه، ويزيدهم نفورًا"[5]. ولكنَّهما جعلا تأثيره في النُّفوس وجهًا آخر غير البلاغة، وهو مِن حيثُ كونه وجهًا مِن وجوه الإعجاز لاشكَّ أنَّه وجهٌ متفرِّدٌ، لكنَّه

---

(١) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية للدكتور مجيد عبد الحميد ناجي: (٥)، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

(٢) القرآن وعلم النفس " النفس في المنهج القرآني " للدكتور عبد العلي الجسماني: (٤/ ٢٣٠)، نشر الدار العربية للعلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

(٣) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام:(٣٤٣)، حققه وضبطه وشرحه ووضع فهارسه: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، نشر دار المعرفة، بيروت، دون ت. ط.

(٤) رسالة بيان إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني: (٧٠)، تحقيق: محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، نشر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

(٥) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى: (١/ ٢٧٣) نشر دار الكتب العلمية، بيروت. دون ط. ت.

في وجوده مترتِّبٌ على الإعجاز البلاغي في نظمه وصُوره؛ لأنَّ مِن أبرز عوامل تأثيره في النُّفوس حساسيَّة العربيِّ لوقع ألفاظه وتراكيبه وصُوره في النَّفس. والذي ثنى عمر بن الخطاب ﷺ، وأبْدى حيرة الوليد بن المغيرة، وأثار إعجاب الجنِّ هو نظمه البديع الذي حرَّك جلاله وجماله النُّفوس؛ ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر:٢٣] فجعل الأثر: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ مسبَّبًا عن الكتاب المنزَّل الموصوف بقوله: ﴿أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ ووجه حسنه في نظمه وإعجازه؛ لأنَّ صفة ذلك المنزَّل ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾ هي صفات معاني ناتجةٌ عن نظمه وتركيبه، يقول ابن عاشور: "وقد اقتضى قوله: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أنَّ القرآن يشتمل على معانٍ تقشعر منها الجلود وهي المعاني الموسومة بالجزالة التي تُثير في النُّفوس روعةً وجلالةً ورهبةً تبعث على امتثال السَّامعين له، وعملهم بما يتلقونه مِن قوارع القرآن وزواجره"(١).

وهذا التأثر ليس خاصًّا بالمؤمنين، بلْ يعتري الجاحدين، وتأثيره في المؤمن يختلف عن تأثيره في الجاحد، فإنَّ"سامعه إنْ كان مؤمنًا به يداخله روعةٌ في أوَّل سماعه وخشيةٌ، ثمَّ لا يزال يجد في قلبه هشاشةً إليه ومحبةً له. وإنْ كان جاحدًا وجد فيه مع تلك الرَّوعة نفورًا وعيًّا؛ لانقطاع مادَّته بحسن سمعه"(٢). مع ما لجرس القرآن الكريم مِن تأثيرٍ في النُّفوس، حتَّى مع غياب فهمه، وإدراك دلالاته، وإنَّما الشَّأن الأعلى فيما تُحدثه معانيه وتراكيبه مِن أثرٍ فاعلٍ في القلوب.

---

(١) التحرير والتنوير :(٢٣/ ٣٨٨)، نشر الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

(٢) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي: (٢/ ١٠٦)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، نشر مكتبة دار التراث، مصر – القاهرة.

وأصبح تفسير بلاغة الخطاب يُبنى على ما تقتضيه الحالة النَّفسية للمخاطَب، أوطبيعة الموقف، ويكشف ذلك سرَّ تعابيره وأساليبه مِن تقديمٍ وتأخيرٍ، وتفصيلٍ وإجمالٍ وتكرارٍ؛ ليُعالج القرآن مظاهر الاعتقاد، ومسارب الانفعال بما يساير شؤون النَّفس الإنسانيَّة(١)، وقد اعتنى الإمام عبد القاهر بهذا الاتِّجاه بردِّ الأسرار البلاغيَّة إلى الأصول النَّفسيَّة، واعتماد هذا الأساس للتَّفسير والتَّعليل(٢).

جاءت آيات كتاب الله ﷻ متضمِّنةً التَّكليف والتَّثقيف، بلْ يمتزج التَّثقيف بالتَّكليف تحفيزًا وحثًّا على فعل المأمور، أو تحذيرًا وتنفيرًا مِن المحظور، ونستطيع أنْ نقول إنَّ تثقيف النَّفس في القرآن الكريم يدور حول محوري التَّرغيب والتَّرهيب، فآيات التَّرغيب تدفع إلى التَّقوى والإخلاص في العبادة والجهاد في سبيل الله وعمل ما يرضي الله ورسوله؛ ليكونوا مِن أهل الجنَّة، وآيات التَّرهيب تبعث في النُّفوس رهبةً تحثُّهم على الابتعاد عن مواطن غضب الله؛ ليقيموا أنفسهم في مواطن الرِّضا(٣)، كما أنَّ كلَّ ترغيبٍ للمؤمنين فيه جانبٌ لدعوة الكفَّار للإيمان، وكلَّ ترهيبٍ للمنافقين والكفَّار فيه جانب تحذيرٍ للمؤمنين.

وجانب التَّثقيف في الغزوتين يتمحور حول محورين أساسيين هما العقيدة والجهاد، ويربط بينهما ربطا وثيقًا، إشارة إلى أنَّ من مزايا هذا الدِّين، قيام الجانب السُّلوكيِّ فيه على مبدإ إيمانيٍّ روحيٍّ يمنح النُّفوس الثَّبات؛ لوضوح الغاية والهدف.

---

(١) ينظر: القرآن وعلم النفس للدكتور عبد الوهاب حمودة: (٩٤)، نشر مجلة الأزهر لشهر محرم ١٤٢٩هـ.

(٢) ينظر: الجانب النفسي من التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني للدكتور إبراهيم الخولي: (٥)، نشر دار الأدب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) ينظر: القرآن وعلم النفس للدكتور محمد عثمان نجاتي: (١٦٩) نشر دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

الباب الأول

الرسالة

الباب الأول

معالمُ التَّثقيفِ النَّفسيِّ في آياتِ غزوةِ بدْر

ويشتمل على أربعة فصول:

- ۞ **الفصل الأوَّل: أثر السِّياق والموقع في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.**
- ۞ **الفصل الثَّاني: أثر اختيار الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.**
- ۞ **الفصل الثَّالث: أثر منهاج التَّركيب في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.**
- ۞ **الفصل الرَّابع: أثر تخييل المعنى للسَّامع في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.**

الرسالة

مدخــــل

توزَّعت آيات غزوة بدر في سياقين:

سياقٍ رئيسٍ: في سورة الأنفال، وجاء فيها تفصيل الواقعة والأحداث، وعتاب الله ﷻ لعباده المؤمنين في قضيَّة الأنفال، واستبقاء الأسرى، وهو سياقٌ تذكيريٌّ بالمنن والعطايا التي منحها الله ﷻ لعباده في هذه الغزوة التي حقَّق المسلمون فيها نصرًا مؤزَّرًا.

وتخلَّل هذا السِّياق سياقاتٌ تفريعيَّةٌ اشتملتْ على توجيهاتٍ وتعقيبات ذات اتصال بالمقصد الكلِّيِّ من السُّورة.

سياق ثانويٌّ: في سورة آل عمران مرَّة بإشارة موجزة في سياق الوعيد والتَّهديد وهي الآية (١٣)، ومرَّة أخرى في سياق التَّذكير في أعطاف الحديث عن غزوة أحد تذكيرًا بما سبق لهم من النَّصر والوعد من الآية (١٢٣) إلى الآية (١٢٧)، وأخيرًا إشارة في سورة القمر لما توعَّد الله ﷻ به المشركين في غزوة بدر من الهزيمة والتَّنكيل في الآية (٤٥).



الفصل الأول

أثرُ السِّياقِ والموْقعِ في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه مبحثـــــان : –

۞ **المبحث الأوَّل**: موقع سورة الأنفال على مدْرجة البيان القرآني.

۞ **المبحث الثَّاني**: أثر مقصد السُّورة وعلاقات المعاني الجزئيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

* * * ** * * *

المبْحثُ الأوّل: موقعُ سورةِ الأنْفالِ على مَدْرجةِ البيانِ القُرآنيِّ

السِّياق الرَّئيس

أثر السِّياق المديد لسورة الأنْفال في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ:

سورةُ الأنْفالِ السُّورةُ الثَّامنةُ في كتابِ الله تَرتيلًا، وقدْ جاءتْ السُّورةُ في خطٍّ منْهجيٍّ يُوضِّحُ الغايةَ التي أُنزلَ القرآنُ لأجلها، وهي إخراج النَّاس من ضلالات الكفر والزيْغ والهوى إلى فطْرة التَّوحيد والإيمان[1]، جاء ذلك جليًّا في سياقِ السُّورِ السَّابقةِ، فسورة الفاتحة جاءت لتُعرِّف العباد بربِّ العباد، عرَّفتهم برحمانيَّته ورحيميَّته، وأنَّه مالك يوم الدِين ليجعلهم بين الرجاء والخوف، ثمَّ تأتي سورة البقرة للتَّعريف بكتاب الله ﷻ، ودعوة النَّاس إلى الاعتصام بهذا الكتاب والاستمساك به، وجاء فيها تفصيل كثيرٍ من التَّشريعات، فتَحقَّقَ تعريف العبد بربه، ودعوته إلى سبيل الاهتداء إليه، ثمَّ تأتي سورة آل عمران لتعرِضَ القدرات الإلهيَّة المعجزة الدَّالة على كمال تفرُّده واستحقاقه للتَّوحيد والعبوديَّة، وبعد تثبيت الجانب الاعتقاديِّ، تأتي سورة النِّساء لتنظِّم بعض العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم تحقيقا للتَّوحيد، وتعقبها سورة المائدة لإرساء قواعد العدْل والوفاء بالمواثيق، وسورة الأنْعام تنصب الدَّلائل الحسيَّة

---

(١) قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة] وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم] وقال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق].

المشاهدة لتأكيد وحدانيَّته وتفرُّده بالقدرة، ثمَّ تأتي سورة الأعراف لتنْذر من أعرض عن دعوة الكتاب المبين؛ ترهيبًا لمن زاغ عن المنهج، ثمَّ تأتي سورة الأنفال لتنقلهم إلى الجانب الميداني في المنهج(١)، ولتحثهم على التسليم لأمر الله، وصدق التوكل عليه؛ ليُثمر النَّصر فيتحقق المنهج تنظيرًا وتطبيقًا.

يقول البقاعي: " لَمَّا ثبت بالسور الماضية وجوب اتِّباع أمر الإله والاجتماع عليه لما ثبت من تفرُّده واقتداره، كان مقصود هذه [أي: سورة الأنفال] إيجاب اتِّباع الدَّاعي إليه بغاية الإذعان والتسليم والرضى والتبرُّؤ من كلِّ حوْلٍ وقوةٍ إلى من أنعم بذلك ولو شاء سلبه "(٢) .

ونلحظ أنَّ البقاعيَّ هنا نظر إلى وجه المناسبة من جهتين، الأولى: المناسبة بين سورة الأنفال وبين ماقبلها من السور مُلاحظًا امتداد المعنى، والثَّانية: نظر في المناسبة إلى المأمور به فالمأمور به في السُّور السَّابقة هو اتِّباع الحقِّ ﷻ، والمأمور باتِّباعه هُنا هو الدَّاعي إلى هذا الحقِّ ﷺ.

فلاشك أنَّ هذا التكامل العجيب، والتناسب الدقيق في مستوى ترتيب السور دالٌّ على أنَّ ترتيب سور القرآن توقيف من الله ﷻ(٣) .

---

(١) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: (١/ ١٢ – ٢٤ و٢/ ٣ – ٢٠٤ – ٣٨٤ – ٥٧٨ و٣/ ٣ – ١٨١) خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: عبد الرزاق المهدي، نشر دار الكتب العلمية لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) السابق (٣/ ١٨١).

(٣) اختلف العلماء – رحمهم الله – في مسألة ترتيب سور القرآن على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن ترتيب سور القرآن اجتهادي واستشهدوا بأثر ابن عباس مع عثمان – رضي الله عنه – الذي سأل فيه ابن عباس عن الجمع بين الأنفال والتوبة.

القول الثاني: أن من سور القرآن ماكان ترتيبه توقيفيا وهو ماثبت فيه من صحيح الأحاديث ومنه ماكان اجتهاديا

=

والأثر التثقيفيّ لموقع سورة الأنفال جاء ليؤكِّد للمسلمين أنَّ لهذا المنهج واقعا حركيًّا ميدانيًّا. نزلت سورة الأنفال لتحدد لهم ضوابط هذا الطريق، ولتغرس في نفوسهم كيفيَّة صناعة النَّصر والثبات عليه.

وحين ننظر إلى تسلسل هذه السُوَر نجد الانتقال إلى الميدان جاء بعد تقرير العقيدة في النُّفوس، وتصفيتها من كل الشَّوائب " فكلُّ مرحلة لها وسائل مكافِئة لمقتضياتِها وحاجاتها الواقعيَّة، وكلُّ مرحلة تسلم للمرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجرَّدة.. كما أنَّه لا يُقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمِّدة "(١).

ونظرا لما تحمله هذه السورة من أبعاد ميدانيَّة، وقواعد قتاليَّة، وكذلك ما تحمله من أبعاد إيمانيَّة تشحن النفوس للمواجهة فقد سُنَّ قراءة سورة الأنفال عند لقاء

= القول الثالث: أن ترتيب سور القرآن توقيفي وهو القول المنسوب إلى جمع غفير من أهل العلم.

أما الزركشي فقد جعل الخلاف في مسألة الترتيب خلافا لفظيا وأن التوقيف إما بالقول الصريح من الرسول ﷺ أو بإسناد منه إليهم.

وقد ضعف الشيخ أحمد شاكر خبر ابن عباس الذي استشكل مسألة سورتي الأنفال والتوبة بل ذكر أنه لا أصل له. ينظر تعليق المحقق في: المسند للإمام أحمد بن حنبل: (مسند عثمان بن عفان، حديث رقم (٣٩٩) (١/ ٣٣٢ وما بعدها)، تحقيق: أحمد شاكر، نشر دار الحديث، مصر - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥ م.

وينظر: البرهان في علوم القرآن: (١/ ٢٥٧ - ٢٦٠) وينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد بن عبد العظيم الزرقاني: (٢٤٩ إلى ٢٥٤)، اعتنى به: أمين الكردي، نشر دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م، وينظر: من هدي سورة الأنفال لمحمد أمين المصري: (١٧ إلى ٢٢)، نشر مكتبة دار الأرقم، الكويت.

(١) في ظلال القرآن لسيِّد قطب:(٣/ ١٤٣٢)، نشر دار الشروق، مصر - القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

العدوِّ(١).

كذلك فسورة الأنفال تبدو وثيقة الصِّلة بآياتٍ من سورة البقرة(٢)، وهذا يقوّي القول بأنَّ سُوَرَ الطِوالِ وحدةٌ موضوعيَّةٌ واحدةٌ، وهي شرْحٌ للمعاني الأساسية في سورة البقرة فالله تعالى يقول في سورة البقرة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ وسورة الأنفال والتوبة تتناولان هذا المحور من السورة فآية البقرة

(١) روى الطبراني بسنده في المعجم الكبير: (أَنّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْرَأُ فِي الرَّكْعَتَيْنِ مِنَ الْمَغْرِبِ بِسُورَةِ الأَنْفَالِ) انظر: مسند خالد بن زيد بن كليب (أبو أيوب): حديث رقم: (٣٨٩٢) (٤/ ١٣٠)، حققه وأخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السلفي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة. وذكر ابن جرير، قال في خبر معركة اليرموك: " وكان القارئ المقداد ومن السنة التي سن رسول الله ﷺ بعد بدر أن تقرأ سورة الجهاد عند اللقاء وهي الأنفال ولم يزل الناس بعد ذلك على ذلك". تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر الطبري: (٣/ ٣٩٧)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف، مصر - القاهرة، الطبعة الثانية، وينظر: تفسير سورة الأنفال للدكتور محمد أبو فارس (١٠)، نشر مكتبة المنار، الأردن - الزرقاء، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م.

(٢)ذكر ذلك الشيخ سعيد حوى يقول: " وهكذا وجدنا أن السور السبع التي جاءت بعد البقرة، وهي التي تشكل مع سورة البقرة القسم الأول من أقسام القرآن... هذه السور التي جاءت بعد سورة البقرة مباشرة أتت على تسلسل معين هو نفس التسلسل الذي جاءت به المعاني في سورة البقرة، وأن لكل سورة منها محورا موجودا في سورة البقرة " الأساس في التفسير: (١/ ٢٢) نشر دار السلام، مصر - القاهرة، الطبعة السادسة ٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ﴾ وفي سورة الأنفال ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥﴾ وفي سورة البقرة صُدِّرت الآية بـ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ﴾ وصُدِّرت سورة الأنفال بها كذلك. وفي سورة البقرة ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾ وجاء في سورة الأنفال ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣٩﴾ وجاء في سورة البقرة ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ وفي سورة الأنفال ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ۝٧٥﴾[(١)] فإذا كان الحديث عن القتال في سورة البقرة جاء عَرْضًا مُجملًا ففي سورة الأنفال جاء مُفصَّلًا.

ومن علاقات السور كذلك ما ذكره البقاعي في سورة الماعون وهي السورة المُناظرة لها في الترتيب من أوَّل القرآن، وكذلك السورة المناظرة لها في ردِّ المقطع على المطلع على أتمِّ وجه، وأن كلا السورتين فيهما تحذير من سفساف الأخلاق، والرياء، والتَّكذيب بالمعاد، وزادت سورة الأنفال بالدعوة إلى الأخلاق[(٢)]، ولهذا عدت علاقة سورة الماعون بالأنفال ردَّ عجزٍ على صدْرٍ[(٣)] ولكنها تتجاوز مستوى الجُمل والآيات

---

(١) ينظر: الأساس في التفسير: (٤/ ٢١٠٠).

(٢) ينظر: نظم الدرر (٨/ ٥٤٥).

(٣) رد العجز على الصدر: " هو كل كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظية غالبا، أو معنوية نادرا، تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمي كل كلام " بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري: (٣٦)، تحقيق: حفني محمد شرف، نشر مكتبة نهضة مصر، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٧ م وقد أشار التعريف إلى جوهر الأسلوب ووظيفته فقوله: " هو كل كلام بين صدره وعجزه رابطة لفظية غالبا، أو معنوية نادرا " إيضاح لماهية الأسلوب وجوهره، وقوله: " تحصل بها الملاءمة والتلاحم بين قسمي كل كلام " إيضاح لوظيفته ومزيته في الكلام. ورد العجز على الصدر يشترك مع مجموعة من الفنون البلاغية في التوازي وتعادل =

إلى مستوى السُوَر.[1]

وقد أشار البقاعيُّ كذلك إلى الطباق[2] بين سورتي الفيل والأنفال فسورة الفيل أكرم الله فيها قُريشا بالانتصار على أهل الإنْجيل وإهلاكهم وفي سورة الأنفال أكرم الله المؤمنين بالانتصار على كفَّار قريشٍ وإهلاكهم[3].

وهكذا المعنى القرآني تمتد خيوطه ليرتبط كل منها بالآخر في وحدة دقيقة منسجمة، ومن هنا كان القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا، فيجد المؤمن نفسه أمام منهج متكامل في الحياة لا تتعارض مواقفه، بل تتكامل، تتنوَّع معانيه، وتتوحَّد

= البناء والإيقاع الجملي. ينظر: البديع والتوازي للدكتور عبد الواحد حسن الشيخ: (٣٥) وما بعدها، مكتبة الإشعاع الفنية، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ/ ١٩٩٩م. والقول بهذا الفن البديعي في هذه العلاقة هو من توسيع نطاق الدرس البلاغي ليشمل تطبيق فنونه على علاقات النصوص والسياقات وعدم الاكتفاء بحصره على المفردات والجمل. ونلحظ مزية هذا الأسلوب في ارتباط أجزاء القرآن وسوره وشد بعضها إلى بعض، وتلك مزية تعلي شأن الكلام البليغ.

(١) ينظر: الإمام البقاعي " جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم " للدكتور محمود توفيق: (١٨١ و٢٢٢)، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

(٢) في الاصطلاح: " الجمع بين المتضادين أي معنيين متقابلين في الجملة " الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني: (٤/ ٤)، بشرح " البغية " لعبد المتعال الصعيدي، نشر مكتبة الآداب، مصر – القاهرة، طبعة ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م. وشأن الطباق كشأن رد العجز على الصدر يجب أن تتسع دائرة الدرس البلاغي لتشمل جميع مستويات النص بدءا من المفردة وانتهاء بالنص والسياق المديد، وفي هذا الإطار يمكننا النظر إلى علاقات السور، واكتشاف مسالك جديدة للمعنى القرآني. ومزية هذا الأسلوب في الموضع المشار إليه الكشف عن علاقات المعاني الكلية بين سورتي الفيل والأنفال مع ما يحققه التضاد من التمييز الكامل بين الموقفين، وعموما فإن النفس تأنس حين تتضح معالم الأشياء بجمع النقائض في سياق واحد. ويتضح ذلك باستعراض الطباق الفكري والفلسفي عند شعراء كالمتنبي وأبي العلاء المعري وغيرهما ينظر: البديع تأصيل وتجديد للدكتور منير سلطان: (١١٧)، نشر منشأة المعارف، مصر – الاسكندرية، ١٩٨٦ م.

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٨/ ٥٣٨).

مقاصده الكليَّة وغاياته.

أثر السِّياقِ القبْليِّ والبعديِّ لسورةِ الأنفال في تحقيق التثقيف النفسي:

من وجوه مناسبة سورة الأنفال لسورة الأعراف أنَّ ما ذُكر من القصص في سورة الأعراف مثل قصة إبليس وبلعام كانت توضِّح أثر اتِّباع الهوى؛ ولذلك قال الله ﷻ في شأن بلعام ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الأعراف:١٧٦] فأشار ﷻ إلى سبب هذا الضلال وعاقبته، فناسب هذا التحذير قصة الأنفال حضًّا لهم على ترك حظوظ النَّفس، والتَّسليم المطلق لأمر الله ﷻ ولرسوله ﷺ(١).

ولهذا الربط أثره النفسيُّ؛ لأنَّه قدم لهم الشواهد السابقة، فأصبحت تلك القصص قائمة في النُّفوس لأخذ العِظَة والعِبرة من أحوال تلك الأمم، وهو ما يدفع المخاطَب إلى التَّسليم المطلق لله ﷻ.

كما أنَّ الله ﷻ حينما ذكر قصص الأمم السابقة في سورة الأعراف فصَّل في قصة موسى عليه السلام مع قومه، ولكي لا يُتوهَّم من هذا التَّفصيل التَّفضيلُ أفرد المولى لقصة الرسول ﷺ مع قومه سورتين كاملتين مع اختلاف حال الأمتين مع رسلهم.(٢) وفي هذا تكريمٌ للنَّبي ﷺ، وإرشادٌ للمخاطَبين إلى مكانة الرَّسول ﷺ عند ربه؛ ليكون تنبيهًا إلى وجوب طاعته، والتزام أمره، والبعد عمَّا نهى عنه.

وذكر البقاعي وجها آخر للمناسبة أنَّه لَّمَا خُتمت سورة الأعراف بقصة بلعام وأنَّ ما بعده إنَّما كان تَتِمات لما تقدم وتَتِمات لتلك التَّتِمات أخبر أنَّ مَن عنده لا يستكبرون عن عبادته خاضعين له مذعنين؛ فاستحقوا بذلك أن يضافوا إليه ﷻ، ثمَّ

---

(١) ينظر: البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي: (٢١٤ - ٢١٦)، دراسة وتحقيق: الأستاذ محمد شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠ م.

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ١٨٢).

اقتضى ذلك سؤالًا عن حال الذين عند المخاطَب ﷺ فجاء استفتاح السورة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ فيتجلّى الفرق بينهما، فالذين عند ربك هم الذين نصروا المسلمين في غزوة بدر وهذا حالهم، والذين لم يكونوا إلا آلة ظاهرة هذا حالهم.[1]

وبهذا يتحقق وجه عتاب الله ﷻ للمؤمنين في اختلافهم في شأن الأنفال بالربط وتحقيق المناسبة بين السورتين، وتأمل الحالين كما مرّ.

ويذكر الألوسي أوجُهًا للمناسبة بين السورتين:

١ في سورة الأعراف أمر بالمعروف، وفي سورة الأنفال كثير من أفراد المأمور به.

٢ فُصِّلت في سورة الأعراف قصة فرعون، وأُجملت في سورة الأنفال القِصَّة.

٣-ذُكر في الأعراف أنَّ القرآن الكريم هدىً ورحمةٌ، وأُمِر بالاستماع والإنصات إليه، وفي سورة الأنفال ذُكر حال المؤمنين عند سماع آيات الله ﷻ[2].

ولموقع السورة على هذا النسق بعد اختتام سورة الأعراف أثران:

الأثر الأول: ترهيبيٌّ؛ لأنَّ الله ﷻ قصَّ في سورة الأعراف عاقبة عدم التَّسليم لأمر الله، وفي سورة الأنفال جعل شأن الأنفال لله ورسوله، فكان في ذلك إشارةٌ إلى أنَّ عاقبة عدم التَّسليم لأمره أن يُحلَّ بهم ماحَلَّ بالأمم السابقة.

الأثر الثاني: عتاب من الله ﷻ إلى تلك النُّفوس التي اختلفت في شأن الأنفال، فكان لزاما أن يعيد القرآن إلى تلك النفوس صفاءها، وأن يشحنها بشحنةٍ وجدانيَّةٍ إيمانيَّةٍ حتى يعود الجميع يحملون وجدانًا واحدًا ويشعرون شعورًا واحدًا[3].

أما عن وجه اتصال سورة الأنفال بما بعدها فسورة الأنفال وسورة التَّوبة تناولتا

(١) الموضع السابق.

(٢) ينظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٥/ ١٤٧) ضبطه وصححه: علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

(٣) ينظر : من هدي سورة الأنفال: (٦١).

موضوع القتال، فقال الحقُّ في الأنفال: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ وفصَّل ذلك في صدر سورة التَّوبة وفي الأنفال تولَّى قِسمة الأنفال وفي التَّوبة تولى قِسمة الصَّدقات[1]. وكما أن النّكات لا تتزاحم فالمناسبات لا تتزاحم، فلا مانع من أن نجد أكثر من مناسبة[2].

نلحظ إذن هذا التناسب الدقيق بين مواقع السور، حتَّى أصبحَ موقعُ السُّورةِ مِن مَدْرجةِ البيانِ القرآنيِّ مستوىً مِن مستوياتِ السِّياقِ الذي يَجِبُ أنْ يُفهَمَ التَّفسيرُ في سياقِها لأنَّها مُعينةٌ على تحديدِ المقاصدِ وأغراضِ السُّورِ. وحركةُ المعنى القرآنيِّ كما تتصاعدُ على مستوى السُّورةِ الواحدةِ فإنَّها تتصاعدُ على مستوى السُّورةِ والسُّورةِ.



(١) ينظر: تناسق الدرر في تناسب السور لجلال الدين السيوطي: (١٠٧)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الاعتصام، الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ/ ١٩٧٨م.

(٢) ينظر: علم المناسبات في السور والآيات للدكتور محمد بن عمر بازمول: (٥٤)، نشر المكتبة المكية، السعودية – مكة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

المبحثُ الثَّاني: أثر مقصدِ السُّورة وعلاقات المعاني الجزئيَّة في تحقيق التَّثقيفِ النَّفسيِّ

أثر مقصد السُّورة والمعنى الكليِّ في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

المقصود الرئيس لسورة الأنفال[1] والأمر الكليُّ فيها هو التَّسليم لمن تفرَّد بالقدرة، والدعوة إلى صدق التَّوكل عليه، وقد اتَّخذ السِّياق القرآنيُّ من قضيَّة الأنفال محورًا أساسيًّا لتحقيق هذا المغزى، ونظرًا لما تحمله هذه القضيَّة من أهميَّةٍ في تحقيق الأمر الكليِّ المقصود قُدِّم الحدث على جميع أحداث المعركة رغم أنَّ الاختلاف في شأن الأنفال كان آخر أحداث المعركة[2].

أمَّا ارتباط مقدِّمة السورة بخاتمتها ففي صدْر السورة قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾﴾ وفي خاتمتها قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنفال عدد آياتها ست وسبعون آية جميع آياتها مدنية على الصحيح، وإنما توهم أن قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ مكي لأن الحدث بمكة، ولا يلزم من مكية الحدث مكية النزول، وقد رد السيوطي ذلك بالأثر الوارد عن ابن عباس في مدنية هذه الآية. ينظر: لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي: (١٢٥)، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م وأما قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ فإن الأثر الوارد في نزولها في إسلام عمر إن سلم سندا لا يسلم متنا ولذا ضعف الحديث. ينظر: " هامش " أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي: (٢٣٧ - ٢٣٨)، تخريج وتدقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، نشر دار الإصلاح، السعودية - الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) بدلالة مضمون الأحاديث الواردة في ذلك كأحاديث أسباب النزول التي وردت، وترتيب مؤلفات السيرة النبوية للأحداث. ينظر مثلا: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي: (٤/ ٨٩)، تحقيق: إبراهيم الترزي وعبد الكريم العزباوي، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م.

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ وهذا ظاهر تناسبه ظهورًا لا يخفى على ناظر.

يقول السيوطي:" ولما تقدم هناك وصفهم بأعمال القلوب من الخوف والزيادة في الإيمان والتَّوكل زاد في الوعد﴿دَرَجَاتٌ﴾، ولَّما لم يكن هنا سوى الأفعال البدنية والمالية، اقتصر على المغفرة والرزق الكريم المذكور من أول السورة في مقابلتها "[1].

والملاحظ أنَّ وجه المناسبة لفظيٌّ؛ ولذلك اتجه السيوطيُّ إلى كشف سر اختلاف التَّركيب بالحذف في الآية الأخيرة.. ويكشف السيوطيُّ عن وجه آخر من المناسبة أنَّه لما ذُكر اختلافهم في الأنفال وحثهم على إصلاح ذات البين في أول السُّورة؛ خُتمت بأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض فلا ينبغي تنازعهم.[2] وبهذا يتحقق ردُّ العجْز على الصدْر على مستوى السورة الواحدة. وهذا يؤكِّد أنَّ سورة الأنفال سورة تامَّةٌ وليست هي والتوبة سورةً واحدةً.

وسياق السورة يؤكد حقيقة النصر وأنه يقوم على السُّنن الإلهيَّة والقوانين الربانيَّة، ثمَّ يقوم على الاستعداد الماديِّ[3]، و" يبرز في سياق السُّورة بصفةٍ خاصةٍ - إلى جانب خطِّ العقيدة - خطٌّ آخر هو الجهاد، وبيان قيمته الإيمانيَّة والحركيَّة. وتجريده من كل شائبةٍ شخصيَّةٍ؛ وإعطاؤه مبرراته الذاتيَّة العليا التي ينطلق بها المجاهدون في ثِقَةٍ وطمأنينةٍ واستعلاءٍ إلى آخر الزمان "[4] ولذلك غالبا ما تكون التعقيبات القرآنيَّة على مستوى الآية أو على مستوى المعقد مُبرزةً ارتباط أحداث المعركة والتوجيهات

(١) قطف الأزهار في كشف الأسرار: (٢/ ١١٢٧ و ١١٢٨)، تحقيق ودراسة: د. أحمد الحمادي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤م.

(٢) ينظر: السابق: (١١٢٦).

(٣) ينظر: أهداف كل سورة من القرآن لفؤاد زيدان: (٤٩)، نشر دار الحافظ، سوريا - حلب، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٤) في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٣٢).

القتاليَّة بمقصد السُّورة الذي يتعلَّق بالجانب العقديِّ.

ولهذا التَّناسب أثره التَّثقيفيُّ، فالتأكيد على قضيَّة الإيمان في المطْلع والخاتمة- وهي قضيَّةٌ اعتقاديَّةٌ-في سورة تتناول الجانب الحركيَّ من المنهج يؤسس في تصور الجيل الباحث عن النَّصر والسؤدد أنَّ الجانب الماديَّ والعسكريَّ يجب أن يُبنى في ضوء توجيه تربويٍّ يعنى بالجانب الإيماني، وأنَّ مدار الثباتِ على الأرض بمقدار ثبات العقيدةِ في النُّفوس.

أثر علاقاتِ معاني السُّورة الجزئيَّةِ في تحقيق التَّثقيفِ النَّفسيِّ

المعقد الأوّل:

○ من آية (١) إلى آية (٦) مطلع السورة:

نتتبَّع سياق السورة فنجد أنّ قضيَّة الأنفال قُدِّمت وهي آخر أحداث المعركة، وأُخِّر حديث الخروج إلى المعركة، وجعل بين هذا وذاك حديث مفصَّل عن الإيمان.

أمّا تقديم قضيّة الأنفال؛ فلأنَّ هذه الحادثة أوثق اتصالًا بمقصد السورة الكريمة الذي ذُكر سابقًا وهو صرف التَّوكل إلى الله ﷻ وتسليم الأمور إليه، فكان محور قضيَّة الأنفال أشدَّ التئامًا مع هذا السياق، وبه سُمِّيت السُّورة، ثمَّ جاء الحديث عن الخروج لغزوة بدر في سياق تابع لهذا السِّياق بدليل عقد الصِّلة بين الكلامين بإلحاق قضيَّة الأنفال بقضيَّة الخروج على وجه من وجوه التَّشبيه.

وفي تقديم قضيَّة الأنفال كذلك استهلال بلازم من لوازم النَّصر، ففيه إشارةٌ إلى انْتصار المسلمين وظفرهم في قصَّة غزوة بدر[١].

وجاء موقع آيات الخروج إلى الغزوة بعد سياق آيات الإيمان التي هيأ الله ﷻ فيها نفوس المؤمنين لتلقي التعقيبات الإلهيَّة على أحداث الغزوة. والملاحظ في هذا

(١) ينظر: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا: (٩/ ٥٩٦ و ٥٩٧) نشر دار المنار، مصر، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ.

السياق ورود كلمة الإيمان أربع مراتٍ ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ بصيغٍ مختلفةٍ.

ففي الموضع الأول جاء بتعليق الطَّاعة، وتنفيذ الأوامر الربانيَّة بتوفُّر صفة الإيمان، وفي الموضع الثاني جاء بقصر الإيمان على من توافرت فيهم صفاتٌ إيمانيةٌ باطنةٌ قلبيَّةٌ وظاهرةٌ بالجوارح، فنلحظ التَّرقي في المعنى من الإجمال إلى التَّفصيل، ففُصِّل الحديث في مسألة الإيمان بأنَّ له باطنًا قلبيًّا متعلِّقًا بأفعال الخشية والوجل والخوف والتَّوكل، ثمَّ ظاهرًا بالجوارح بإقامة الصَّلاة والإنفاق في سبيل الله ﷻ[1]، وقُدِّم سياق أفعال القلوب على أفعال الجوارح لأنَّها أشدُّ اتصالًا بمسألة المعتقد والإيمان، ولأنَّ العمل إذا افتقد التَّصديق القلبيَّ لا قيمة له، سواءٌ كانت علاقة العمل بالإيمان علاقةً جزئيَّةً أو علاقةً لُزوميَّةً على الخلاف المشهور[2]، فالإيمان المطلوب له مَخْبرٌ ومَظْهرٌ، والمَظْهرُ لا يقلُّ أهميَّةً عن المَخْبر، بلْ هو منه، وتحقيق الإنسان لإيمان المَخْبر يتوجَّب منه إيمان المَظْهر فالتَّرتيب بين الإيمان هو ترتيب الوجود كما أنَّه ترتيب المنْطق والعقل.

وجاء الإيمان في الموضع الثالث أثرًا يُفضي إليه وجلُ القلوب، وجاء في الموضع الرابع بأسلوب القصْر[3] بضمير الفصل زيادةً في التَّأكيد باختصاص أولئك الذين توفرت فيهم هذه الصفات بالإيمان، ثمَّ تأكيده أخرى بصفةٍ دالَّةٍ على المصْدر

(١) ينظر: البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي: (٤ / ٤٥٨)، نشر دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م. وإرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي: (٤/ ٤) نشر دار إحياء التراث العربي، لبنان - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(٢) يقترن الإيمان بإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله في مواضع من كتاب الله ولعل في ذلك إشارة إلى أن أعلى العبادات القلبية الإيمان بالغيب، وأفضل عبادات الجوارح الصلاة والإنفاق والله أعلم.

(٣) القصر: "تخصيص شيء بشيء بطريق معهود ". المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني: (٢٠٤)، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، دون ت. ط.

المحذوف؛ ليكون تقدير الكلام (أولئك هم المؤمنون إيمانا حقًّا).

ونلحظ في السِّياق هيْمنة أسلوب القصْر في ثلاثة مواضع، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأنفال:٢] والكلام موجَّهٌ لمن لا يغفل عن حقيقة الإيمان، ولذلك فاصطفاء السياق له جاء وفْق مقتضَى الظَّاهر، وهو قصْرٌ مجازيٌّ لأنَّه بُنِيَ على المبالغة في حصْر صفة الإيمان على الإتيان بهذه الصفات، ولا شكَّ أنَّ التَّقصير في بعضها لا يُخلُّ بالإيمان كما يدلُّ على ذلك أدلَّةٌ كثيرةٌ من الكتاب والسُّنَّة[1]، ثمَّ جاء في السِّياق الثَّاني ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ قصْرٌ تحْقيقيٌّ بتقديم المتَعلِّق؛ لقصْر التَّوكل على الله ﷻ دون ما سواه، ثمَّ جاء في السِّياق الثالث ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:٤] بتعريف الطَّرفين، وجاء القصْر مستفادًا من دلالة الاستِغراق[2] فهو من قصْر الصِّفة (الإيمان بالحق) على الموصوف (المشار إليه) قصْرًا مجازيًّا، فكأنَّ مَن توفَّرت فيه هذه الصفات التي في المشار إليه هو المؤمن كامل الإيمان. وتوالي هذه الأساليب بدلالتها على الإثبات والنَّفي دالٌّ على تخليص مفهوم الإيمان في صورةٍ نقيَّةٍ واضحةٍ.

وقضيَّة الإيمان وتحقيق مفهومه تصورًا وواقعًا من أهمِّ دعائم النَّصر، وهي الغاية العُظْمى التي يُنافح الإنسان لأجلها؛ لأنَّ الفعل يجب أنْ يسبقه معتقد، فإذا حقَّق المعتقد الصحيح الذي يُجلِّي له المبدأ والغاية؛ كان عمله على بصيرة، والسِّياق حين يحصُر الإيمان بين سياق الأنفال الدَّالِّ على الظَّفَر وسياق الخروج يجعل المعركة من مُبتدئها إلى مُنتهاها تدور حول الإيمان.

الاعتناء بمسألة الإيمان في هذا السياق من ركائز المعنى في هذه السَّورة الكريمة؛ لأنَّ الارتباط بين الإيمان والتَّوكل والتَّسليم ارتباط لُزوم، فالتَّوكل لازمٌ من لوازم الإيمان، فإذا تحقَّق الإيمان تحقَّق التَّوكل فهو لون من ألوان بلاغة ترتيب المعنى في السَّورة، ثمَّ جاء الحديث بعد ذلك عن الخروج إلى الغزوة في سياق التَّذكير بنعمة الله

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٥٥).

(٢) الاستغراق: هو أن يكون المراد باسم الجنس المعرف باللام شاملا كل أفراده. ينظر: الإيضاح: (١/ ٧٣).

ﷻ، وإرادة الخير لعباده المؤمنين وإنْ خَفيت عليهم جهة الخيريَّة، وللنَّظم بهذه الكيفيَّة أثره التثقيفي، فابتداء سياق الآيات بجهاد النَّفس وهو ميدان الجهاد الأوَّل بتحقيق التَّقوى والإصْلاح والطَّاعة والإيمان في هذه المعركة الصغرى مع النَّفس يحمل على تحقيق النَّصر والظَّفر في المعركة الكبرى على أرض الواقع وساحة المعركة. وهكذا ينتقل النَّصر من النَّصر الفرديِّ إلى النَّصر الجماعيِّ.

○ **من الآية (٧) إلى الآية (١٤) النعم والمنن الإلهية لطمأنة القلوب:**

بعد أنْ أخبر المولى ﷻ في بداية السَّورة عنْ شأن الإيمان، وكيفيَّة تحقيقه ثمَّ أخبر ﷻ عن ملابسات الأمر بالخروج، وما حصل من كراهة فريق من المؤمنين حين تغيَّرت خُطَّة القتال من الاسْتيلاء على العِيْر إلى النَّفِير.

وفي هذا السَّياق استؤنف الحديث عن الغزوة بذِكْر جميل صنع الله ﷻ بالمؤمنين وما أنعمه عليهم من التَّثبيت والوعْد بالنَّصر والظَّفَر مع قلَّة حزم بعضهم(١)، فمنْبع المعنى هُنا جاء من ذِكْر الكراهية؛ لأنَّ السَّياق جعل الإنعام في مقابل الكراهية، وجعل تظافر أمارات النَّصر والتَّمكين بالوعد من الله في مقابل ميل بعض النَّفوس إلى العير ابتداءً؛ ولذلك رُوِيَ أنَّ هذه الآيات نزلت قبل قوله تعالى ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾.(٢)؛ ليجعل الحقَّ مقابل الحقِّ أيْ حقَّ الخروج مقابل الحقِّ الذي أراده المولى ﷻ؛ وليجعل كراهية فريقٍ من المؤمنين مقابل كراهية المجرمين(٣).

فالسِّياق له أثره التَّثقيفيُّ؛ لأنَّ الوعد جاء بعد ذِكْر كراهيتهم، ففيه من التَّلطف بهم، وإيْناس قلوبهم ما يغرس في نفوسهم تَذَكُّرَ نعمة الله عليهم، ومؤازرته لهم،

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٦).

(٢) ينظر: النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي (٢٩٧/ ٢)، راجعه وعلق عليه: السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر دار الكتب العلمية ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٣) ينظر: البحر المحيط (٤/ ٤٦٤).

وعنايته بهم؛ حتى حين يكون من بعضهم شيءٌ من الكراهية، فلَمْ يُؤاخذهم الله بما اعْترى نفوسهم وطباعهم، بل جاء السِّياق مؤكِّدا للوعد والظَّفَر.

وتقديم سياق الوعد على سياق التَّحقيق فيه طمْأنةٌ لنفوسهم؛ لأنَّ الوعْد هُنا صادرٌ من الله ﷻ القائل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] فكان ذلك كفيلًا لأنْ يُقْبِل المؤمنون على المعركة ونفوسهم مطمئنةٌ مُوقنةٌ بالظَّفَر، وهو أسلوبٌ من أساليب تقْوية الجبْهة الدَّاخليَّة لصفوف المؤمنين[١].

ويسوق الله ﷻ لعباده جُملةً من المنن التي طمْأن بها النَّفوس، وينتقل إلى أرض المعركة حين ارتفعت أَكُفُّ الرسول ﷺ والمسلمون بالضَّراعة والابْتهال، فيُذَكِّرهم الله ﷻ بتلك اللحظات التي ثبَّت الله فيها قلب رسوله والمؤمنين معه، وأنْزل إليهم بشائر النَّصر بمددٍ من الملائكة لطمأنة قلوبهم[٢] في إشارة بديعةٍ إلى أنَّ تهيئة النَّفوس، ورفع المعنويات بالتَّثبيت والتَّبشير من دعائم النصر في المعركة.

ويَظهر ارتباط المقطع بمقصد السُّورة بالتأكيد على تخْليص القلوب من التَّعلُّق بغير الله، وتوجيه التَّعلُّق بالاستغاثة، وطلب المدد والنَّصر والظَّفَر بالله وَحده، وفي هذا تحقيق لأمرين عظيمين:

تحقيق التوحيد الخالص لله ﷻ وصرف التَّوكُّل والتَّعلُّق إليه وحده دون ما سواه، وهو ما يتَّفق مع مقصد السُّورة الأعظم، ومع تأكيد هذه القضيَّة بأساليب مختلفة.

(١) ينظر: الحرب النفسية في ضوء القرآن الكريم وتطبيقاتها في العصر الحديث لفهد العايد: (٨٤)، نشر الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر: صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم حديث رقم: (١٧٦٣) (٣/ ١٣٨٣) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المكتبة الإسلامية، تركيا – استانبول. والمحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة: (١/ ٥٥٥) للدكتور خالد المزيني، نشر دار ابن الجوزي، السعودية – الدمام، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ.

تعليق طلب النَّصر والظَّفَر بالله ﷻ يُذكي عزائم المؤمنين للقتال؛ لأنَّهم يقاتلون لأجل إرضاء الله، فهو معهم. واستشعار هذه المعيَّة عاملٌ من عوامل النَّصر والظَّفَر، كما أنَّ تعليقها بالله ﷻ ثباتٌ؛ لأنَّ تعليق النَّصر والظَّفَر بالأشخاص عُرضةٌ للزوال في أيِّ لحظةٍ وإنْ كان يُفهم هذا من السِّياق في مستوياتٍ بعيدةٍ من مستوياتٍ المعنى فقد وَرَدَ بالعبارة صريحًا في سياق غزوة أُحد(١).

ويَبرز أثر الموقع في مجيء آيات الاستغاثة والدعاء والتضرُّع بعد الآيات التي تحدَّثت عن إصلاح النَّفس وتحقيق معنى الإيمان، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ على الإنسان أنْ يعمل ويستعين بالله على تحقيق ما يُريد، أمَّا الدُّعاء دون عملٍ وتحقيقٍ للأسباب فهو من التَّواكل لا التَّوكُّل.

كما أنَّ من حِكَم القتال أنْ يَبُثَّ القائد في نفوس المؤمنين الأمل والبشرى والطمأنينة، فهو أدْعى للثَّبات والإقبال في المعركة، وهذا ما جاء في سياق الآيات قُبيل المعركة حين نزلتْ البشرى بالمَدد وقتال الملائكة، فكان عاملًا منْ عوامل التَّثبيت والتَّمكين في القتال حسًّا ومعنًى؛ ذلك أنَّ الملائكة شاركت المؤمنين في قتال المشركين، ومعنى لأنَّ وجودها مرسلةً من عند الله كان عامل تثبيت وطمأنة لتلك النُّفوس.

ويَظهر التَّثقيف النَّفسيُّ جليًّا في التَّعقيب القرآنيِّ في هذا المقطع حين جاء بأسلوب القصْر ليؤكِّد قضيَّة التَّعلُّق بالله ﷻ، وصرف التَّوكُّل إليه؛ لأنَّ كلَّ ما هو مُقدَّرٌ من مَددٍ ونصْرٍ وظَفَرٍ فهو منْ عنْد الله، وهو الأحقُّ أنْ يُصرف إليه التَّوكُّل والاعتماد، أمَّا ما دونه فلا حوْل لهم ولا قوَّة إلا بإذن الله.. وجاء التَّعقيب في هذا الخطِّ العقديِّ الذي يأتي ممتزجًا بالحديث عن القتال في سياقٍ يؤكِّد عليه القرآن كثيرًا في هذه السُّورة تحديدًا.

---

(١) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤].

ويتصل الحديث عن تعداد النِّعم التي أنعم الله على المؤمنين في سياق من المعاتبة لطيفٍ شفيفٍ، إذ تحدَّثت الآيات السابقة عن نوعٍ من الإمداد الغيْبيِّ غيرِ المشاهد وهو الوعد، ونزول الملائكة للقتال. وبَيَّنَ السِّياقُ الغايةَ من هذا الإمداد، وأنَّها غايةٌ روحيَّةٌ، فتحقيق هذه الغاية في الجزء الأوَّل من الإنعام تمَّ بالوعْد الغيْبيِّ. أمَّا الجزء الثاني من الآيات فهو يؤدي هذه الغاية الروحيَّة ويوليها العناية والاهتمام بوسيلةٍ أخرى وهي إنزال النُّعاس راحةً للأجساد، وإنزال المطر، وكلاهما يحقِّق في نهاية المطاف الغاية الروحيَّة من الثبات والاطمئنان في القتال. وانتقل السِّياق من البيان القوليِّ إلى البيان الفعليِّ. يقول البقاعي: "ولما ذكر البشرى والطمأنينة بالإمداد، ناسب أنْ يذكر لهم أنَّه أَتْبَع القولَ الفعلَ فألقى في قلوبهم بعزَّته وحكمته الطمأنينة والأمن والسكينة بدليل النُّعاس الذي غشيهم في موضع هو أبعد الأشياء عنه وهو موطن الجِلاد ومصاولة الأنداد والتيقُّظ لمخاتلة أهل العناد، وكذا المطر وأثره"(١)

وقد جاء موقع الآيات بعد سياق التهيئة النفسيَّة والروحيَّة للمعركة؛ دلالةً على أنَّ العامل الأهمَّ في هذه المعركة هو الإعداد الروحيُّ الذي يستمد ثوابته من العقيدة بالتَّوكُّل على الله وتفويض الأمور إليه مع الأخذ بأسباب النَّصر. ثمَّ الاستعداد الروحيُّ الذي يوطِّن هذه النُّفوس في أرض المعركة، ويجعلها قادرةً على الثَّبات والمواجهة، ثمَّ يأتي توجيه الآيات بعد الدخول في عُمق المعركة بـ﴿إذ﴾ لينتقل السِّياق من الصورة العامَّة للأحداث قُبيل المعركة إلى قَلْب المعركة ليصوِّر لنا كيفيَّة الإقدام بضرب الأعناق وضرب البنان. ونجد السياق يعتني بالمدد الروحيِّ حتى في أشدِّ لحظات الحسم في المعركة؛ ليذكرهم بمعيَّة الله ﷻ ليكون المُوقد والمُذكي لعزائم المؤمنين، وهذا الابتداء المحْكم ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ فيه حسمٌ لموضوع النُّصرة وأنَّه من قِبَل الله، وأنَّه وإنْ كان ظاهرًا من الملائكة إلا أنَّ الآمر والمُوحي لها هو الله جلَّت قدرته. وقد ترتَّب على هذا التوجيه في كيفيَّة الضرب انتقال السِّياق بعد ذلك

(١) نظم الدرر: (٣/ ١٩٢).

إلى إرشاد المؤمنين إلى شيءٍ من أحكام القتال

ومن معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في السِّياق حرصه على إعداد الجانب الروحيِّ والنَّفسيِّ في القتال بأنْ يبثَّ في نفوسهم الوعد بالنصر والبشارات بالظَّفَر؛ ليَشعُر المؤمنون بالطمأنينة، فيكون ذلك حافزًا للثَّبات والصُّمود كما أنَّ الجانب الروحيَّ يُعضِّده جانب حسيٌّ مشاهدٌ جريًا على السُّنَّة الكونيَّة، فالتَّأهُّب الروحيُّ يجب أنْ يكون جنْبًا إلى جنبٍ مع التَّأهُّب القتاليِّ والإعداد للحرب، كما أنَّ إرهاب الكافرين يكون روحًا بالإرهاب النَّفسيِّ، ويكون حسًّا بالإثخان في العدوِّ. وفي السِّياق تأكيدٌ على أنَّ المدبِّر الأوَّل هو الله ﷻ فهو المُنعم المُتفضِّل بهذه المنن، ولذلك كان لزامًا على المؤمنين أنْ يُفوِّضوا كلَّ أمورهم إلى الله ﷻ، ثمَّ يتفرَّع عن هذا السياق إيضاحُ الغاية بنبرةٍ تعلو فيها معاني الجلال الإلهيِّ؛ تعنيفًا للكافرين وتبشيرًا للمؤمنين، والله ﷻ إنَّما يقضي ذلك بعدله وحكمته تحقيقًا لقوله ﷻ: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾[الأنفال:٨] فجاء على إثر ذلك تعليلُ ما تقدَّم من العقاب؛ ليشدَّ العقوبة إلى أسبابها بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ ثم عَقَّب على العلَّة بربْطها بالسُّنَّة والقاعدة العامَّة بقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾. فنلحظ المعاني يأخذ بعضها بعِناق بعضٍ في إحكامٍ بديع.

كما أشار قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بمفهوم المخالفة(١) إلى قوله تعالى في صدْر السُّورة: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١] "والتصريح بسبب الانتقام تعريضٌ للمؤمنين ليستزيدوا من طاعة الله ورسوله، فإنَّ المشيئة لَمَّا كانت سبب هذا العقاب العظيم فيوشك ما هو مخالفة للرسول بدون مشاقة

(١) مفهوم المخالفة هو: " ما يكونُ مدلولُ اللّفظِ في محلِ السكوتِ مخالفًا لمدلولهِ في محلِ النُطق، ويُسمّى دليلَ = الخطابِ أيضًا" الإحكام في أصول الأحكام للإمام علي الآمدي: (٣/ ٨٨)، علق عليه العلامة: عبد الرزاق عفيفي، نشر دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

أن يُوقع في عذاب دون ذلك، وخليقٌ بأنْ يكون ضدها وهو الطاعة موجبًا للخير"[1].

ونلحظ كذلك أنَّ سِمَة التَّعليل سِمَةٌ بارزةٌ في السِّياق؛ ليُحقِّق لها الانْسجام والترابط بين المعاني؛ نلمح هذا التَّعليل كنبرةٍ هادئةٍ تجيء بعد المواقف العصيبة: كقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال:١٠]، وقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾[الأنفال:١١]، ثمَّ أخيرًا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

وفي هذا السِّياق معلمٌ من معالم التَّثقيف أنَّ مِن سُنن الله أينما حلَّت العصبة المسلمة لتقرير ألوهيَّة الله ﷻ وإقامة منهجه ثم وقف عدوُّ الله لصدِّها فإنَّ النَّصر يكون لأولياء الله، والرعب والهزيمة لأعدائه إنْ توكَّل المؤمنون على الله ﷻ حقَّ توكُّله.[2] كما أنَّ جمع السِّياق القَبْلِيِّ وهذا السِّياق مابين عذابي الدُّنيا والآخرة فيه ترهيبٌ شديدٌ للكافرين.

○ **من الآية (١٥) إلى الآية (١٦) التوجيهات الميدانية:**

جاء أوَّل نداءٍ في السُّورة للمؤمنين - بعد حَسْم قضيَّة الأنفال - مُتبعًا بالتَّوجيه بعد أربع عشرة آيةٍ، وهو يُثير سؤالًا عن موقع هذا النِّداء من المقصد الكليِّ للسُّورة؟ ثم موقع هذا النداء من سياق ما تقدَّم من الآيات؟ ثمَّ علاقة الآية بالسِّياق القريب؟.

موضوع هاتين الآيتين الحثُّ على الثَّبات، والتَّحذير من النُّكوص والفرار والانْهزام. وحين نبحث عن علاقة مَعْلم الثَّبات ومَعْلم التَّوكُّل وتفويض الأمور إلى الله ﷻ بالمقصد الكليِّ من السُّورة نجد أنَّ الثَّبات لازمٌ من لوازم حصول التَّوكُّل على الله ﷻ، وأنَّ السِّياق القرآنيَّ حَرص على تأصيل الثَّبات في النُّفوس ليصل إلى ثمرة التَّوكُّل، ونلحظ أنَّ السِّياق مِن بداية السُّورة حتى موضع هذه الآية غَرَس مبدأ الثَّبات

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٨٦).

بطريقين: ابتدأ بتأصيل القضيَّة في النُّفوس، وجعلها متعلِّقةً بالإيمان، وتأصيل القضيَّة باعتبارها معتقدًا، ومحورًا تتمحور حوله النَّفس المؤمنة الصادقة، ثمَّ انطلق السِّياق بعد تقرير هذا المعنى في النُّفوس إلى الثَّبات في الأرض، وفي هذا السِّياق تنْهمر فضائلُ الله على عباده، فيُلبِّد لهم الأرض ويُمدُّهم بالملائكة، ويوفِّر لهم الرَّاحة النَّفسيَّة والجسديَّة ثمَّ يأمر الملائكة بالقتال. ويَرِدُ لفظُ التَّثبيت صريحًا: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢] فَلَمْ يعد بعد هذا الاحتشاد لتقرير الوسيلة إلا التَّحذير من النُّكوص والانهزام باعتبار التَّحذير وسيلةً من الوسائل المقرَّرة لهذا المعنى في النُّفوس.

إذنْ فمعنى الآيات وثيق الصِّلة بالمقصد، فالسِّياق له أثره في تقرير الثَّبات عقيدةً في القلوب يؤصِّلها الإيمان بالله ﷻ؛ ولذلك كانت العناية بهذا الشأن في مطلع السُّورة، حتى إذا استقرَّ في النُّفوس كان الثَّبات في أرض المعركة ثمرةً للعقيدة الثَّابتة الرَّاسخة.

وممَّا يُلحظ في السِّياق أنَّ الأمر جاء بعد عمليَّةٍ متواصلةٍ من بثِّ الطمأنينة والاستقرار، وتمهيدٍ لتلقِّي الأمر، حتَّى إذا جاء الأمر بعد ذكر تفضُّله وإنعامه تلقَّته القلوب متلهِّفةً إلى التَّوجيه، وأشار إلى هذا المعنى ابن عاشور بقوله: " لمَّا ذكَّرَ الله المسلمين بما أيدهم يوم بدر بالملائكة والنصر من عنده، وأكرمهم بأن نصرهم على المشركين الذين كانوا أشدَّ منهم وأكثر عددًا وعُددًا، وأعقبه بأنْ أعلمهم أنَّ ذلك شأنه مع الكافرين به؛ اعترض في خلال ذلك بتحذيرهم من الوهن والقرار، فالجملة معترضة بين جملة: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ [الأنفال:١٢] وبين جملة ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾"[(١)] كما أنَّ في هذا إشارةً إلى ترتيب النَّظم، فهو يُشير إلى أنَّ المعنى يجيء متَّصلًا إذا وصلْنا الآيتين وأنَّ النِّداء جاء معترضًا، والاعتراض بين الجُملتين فيه دلالةٌ على أهميَّة الجُملة المعترضة في محلِّها؛ لمناسبتها ما قبلها من جهة،

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٦).

ولتكون العناية بها أشدُّ. ومزيَّة الاعتراض أنَّه جاء" إظهارًا للاعتناء بشأنه، ومبالغةً في حثِّهم على المحافظة عليه "[1] والقول بالاعتراض هُنا لا يُخالف المناسبة بين الجُملة وما قبلها؛ لأنَّ مَناط النَّظر في الاعتراض عائدٌ إلى وصل ما قبل الآية بما بعدها.

وأمَّا عن وجه اتصال الآية بما قبلها، فيكشف أبو حيان عنه بقوله: "مناسبة هذه الآية لما قبلها أنَّه تعالى لَمَّا أخبر أنَّه سيُلْقِي الرُّعب في قلوب الكفَّار، وأمر مَنْ آمن بضرب فوق أعناقهم وبنانهم؛ حرَّضهم على الصبر عند مُكافحة العدوِّ ونهاهم عن الانهزام "[2] وكأنَّه يُشير بهذا المعنى إلى ترْك التَّواكل، وأنَّ على المؤمن أنْ يأخذ بأسبابِ النَّصر فيقاتل ويصبر ويستبسل في القتال مع يقينه التَّامِّ بموعود الله.

ونَلحظ أنَّ الآية السَّابقة لهذه الآية بيانٌ في الوعيد الذي أعدَّه الله للكافرين ومَنْ شاقَّ الله ورسوله، ثمَّ عقَّب ذلك بصنيعٍ رتَّب عليه غَضَبَ الله وسوءَ المصير فموقع الآية جاء لِيُنَبِّه مَنْ ادَّعى الإيمان ونَكَص ورَجَع إلى أنَّه ينتظره من العذاب ما ينتظره.[3]

وعليه فالقرآن الكريم يُوازن في مستوى السِّياق بين الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب، كلُّ ذلك ليكون الخطاب القرآنيُّ خطابًا شاملًا يُحفِّز المُقبل على إقباله، ويُرهِّب المُفرِّط من إعراضه؛ فالجزء الأوَّل من السُّورة يعدِّد الله فيه فضائله على عباده المؤمنين، ثمَّ هو يُرتِّب على مخالفة أمْره والانْشقاق عن طاعته العقاب الأليم.

---

(١) إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٢).

(٢) البحر المحيط: (٤/ ٤٧٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ١٩٥).

○ **من الآية (١٧) إلى الآية (١٩) ردّ عجْز المقطع على صدْره:**

يجري المعنى القرآنيُّ في خطَّين متوازيين خطٌّ جهاديٌّ وخطٌّ عقديٌّ، ويمتزج هذا بذاك في السَّورة لكنَّ أحدهما يبرز في مواضع التعقيب خاصَّة وهو الخطُّ العقديُّ لارتباطه اللصيق بمقصد السُّورة، والذي نَلحظه في سياق هذه الآية تأكيد مسألة المعتقد المرتبطة بمقصود السُّورة وهو التَّوكُّل على الله، وتفويض الأمور إليه وصدق الالتجاء، وهو مقصد تتناسل منه المعاني الرئيسة في السُّورة الكريمة.

وعندما نتابع امتداد المعنى في الآية نجد أنَّها ترتبط بمطلع السُّورة حين نَزَع الله ﷻ قضيَّة الأنفال من نفوسهم، وجعل أمرها مختصًّا بالله ورسوله وعندما نَقرن قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ بمطلع السُّورة ﴿قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ﴾ [الأنفال:١] ينكشف تعليل انتزاع الحُكْم وأنَّ تفويض أمر الغنيمة لله ورسوله؛ لأنَّ مسألة الغنيمة ليست من كَسْب أيديهم بل هي تفضُّلٌ إلهيٌّ صِرْفٌ، ثمَّ نجد امتداد هذا المعنى في السُّورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال:١٠] في التأكيد على أنَّ خَلْف تلك الأحداث الظاهرة تدابيرُ غيبيَّة، هي التي تُسَيِّر المعركة باتِّجاه النَّصر والظَّفَر للمسلمين تنفيذًا لوعد الله.

ولطيفةٌ أخرى في موقع الآية من السِّياق، وهي أنَّ مجيء الآية بعد النَّهي عن الفرار فيه تفريعٌ للعلَّة على المعلول، وأنَّ الخبر من إسناد القتْل والرَّمي إلى الله ﷻ هو علَّة نهيهم عن الفرار، ففيه ضمانُ نصرة لله لهم إنْ هُمْ امتثلوا أمره، وفيه تشديدُ الوعيد على الفارِّين لأنَّه يقطع بذلك أعذارهم[١]

وفي اختتام المقطع الأوَّل من السُّورة بهذا المعنى يكون إحكام ربْط مقصدٍ من مقاصد السُّورة الجزئيَّة بالمقصد الكلِّيِّ؛ لأنَّ قضيَّة الأنفال كانت ثمرةً للقتل ومحاربة المشركين، فإنَّ كان كذلك فَلَمْ تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم. فَصَحَّ بذلك رفع قضيَّة

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٩٣).

الأنفال إلى الله ورسوله.

قيمة التَّثقيف النَّفسيِّ في سياق الآيات وموقعها يكمن في تأكيدها قضيَّة التَّوكل على الله، وأنَّ ميزان القوى الماديَّة لا شيء مقابل نصرة الله وتأييده، وفي ذلك إلزام للعقل بالحجَّة، فقيمة التَّوكُّل قيمةٌ قلبيَّةٌ ينفذ أثرها في الجوارح والأعمال، فاستشعار معية الله ﷻ هو دافعٌ للثَّبات وتفويض الأمور لله ﷻ، فإذا تمكَّن هذا المعنى في القلب صَغُرت كلُّ تلك القوى المعادية؛ لأنَّ العدوَّ مهما كَبُر حجمه لا يخرج عن كونه ملْكًا لله، فأيُّ خشيةٍ أو رهبةٍ تتملَّك القلب الذي يمتلئ بالتَّوكل على الله! وفي ذلك تربيةٌ للنَّفس على الاعتراف بفضل الله ﷻ، وأنْ لا ينْسب الإنْسان توفيق الله ﷻ لنفْسِه، بل لله الفضل كلُّه، وهذا مايدلُّ عليه عموم معنى الآية "... فإنَّ فوق يد المسلمين كانت يد الله.. وفوق يد النبي كانت يد الله.. وإذنْ فلا يَحسب المسلمون أنَّهم بغير هذا المدد السماويِّ قد غَلَبوا عدوَّهم وقهروه، ولا يحسب النَّبيُّ أنَّه برميته تلك التي رمى بها فى وجوه المشركين قد فَتَح للمسلمين طريق النَّصر، لولا أنَّ يد الله تقبَّلت رميته وباركتها.. وفى هذا وذلك ما يُشعر بأنَّ الله ﷻ مع نبيه ومع المجاهدين معه"[(١)].

المعقد الثَّاني

○ **موقع الآية (٤١) من سياق السورة:**

السياق القبلي من الآية (٢٠) إلى الآية (٤٠):

ابتدأ سياق السُّورة بقضيَّة الأنفال، ثمَّ عالج السِّياق هذا النِّزاع بمجموعةٍ من الإرشادات الموجزة في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١] ثمَّ أخذ السِّياق يُذكِّر المؤمنين بمقتضيات الإيمان، ثمَّ

(١) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب: (٥/ ٥٨١) نشر دار الفكر العربي، دون ت. ط.

تذكيرهم بتفضُّله عليهم في أشدِّ ساعات المعركة، وأنَّ النَّصر منه وحده، وله الفضل في الأولى والآخرة. بعد هذا السِّياق الذي تنْغمر فيه النُّفوس بآلاء الله وأفضاله؛ أصبحت النُّفوس أشدَّ لهفةً لتلقِّي أوامر الله، وألْزَمَ حجةً أنْ تباشر التَّنفيذ، فكان السِّياق السَّابق قد ثقَّف النُّفوس ومهَّد؛ لتتهيَّأ لتلقِّي الأوامر، فجاء النِّداء بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾ وهو نداءٌ يربطنا بمطلع السُّورة وكأنَّه عَوْدٌ إلى تفصيل ما سبق بعد أنْ ألقى في نفوسهم الكلمات الموجزة، ثمَّ ألزمها بما يُحقِّق في نفوسهم ذلك. يجيء النِّداء على طريقة السُّورة في إرداف الأمْر بالتَّرغيب أو التَّرهيب فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ فجاء الوصْف محمَّلًا بالسُّخرية واضعًا الصُّورة موضع التَّرهيب أن يكونوا منهم، ثمَّ يجيء الموضع الثَّاني من النداء بالأمر بالاستجابة، وهو أمرٌ يؤكِّد قضيَّة الطَّاعة، وأنْ تكون هذه الطَّاعة فيها إقبالٌ لله وللرسول، لا أنْ يكون أمرًا تستثقل النَّفس العمل به كما يصنع المنافقون، وأتْبع هذه الصُّورة بالترهيب فقال: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ فحرَّك بهذه الصُّورة القلوب، وجعلها تستشعر مراقبة الله ومعيته، وذكَّرها بالمصير، فيحقق الترهيبُ التَّثقيفَ النَّفسيَّ ليبادر الإنسان إلى الطَّاعة والاستجابة، وتَرْكِ الظُّلم، فهذه الأسُسُ كفيلةٌ بأنْ تُقيم الإسلام على منْهج حركيٍّ يقوم على أساس العدل والطاعة المبنيين على الاستجابة لله وللرسول ﷺ، ولَمَّا كانت مقاومة الظُّلم والقيام بأمر الجهاد يتطلب التَّضحية بالمال والولد، وتقديم أمر الطَّاعة وإقامة العدل على المحبوبات؛ فقد عاد السِّياق القرآنيُّ يُظلُّ النُّفوس بما سبق من إنعامٍ وحفظٍ وأمنٍ رغم قلَّة العَدد، وضعْف القوَّة، ومِنَ ثَمَّ فقد جاء النِّداء بالنَّهي عن الخيانة لله ورسوله، وعدم الانْشغال بفتْنة المال والولد، فسياق هاتين الآيتين سياقٌ تابعٌ لقضيَّة الطَّاعة والاستجابة، ومعالجةٌ لَما قد يَصرف القلوب عن إتيان الأمر السَّابق، ثمَّ يأتي الأمر بالتَّقوى متفرِّعًا عن التَّوجيه في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾، ونداء التقوى جاء في هذا السِّياق بتعليقه بالمحفِّزات بأسلوب التَّرغيب بأنَّ تحقيق التَّقوى يُحقِّق لهم العلْم النَّافع الَّذي يُفرِّق به بين الحقِّ

والباطل وتكفير السَّيئات، وغفران الذُّنوب، والأجر والمثوبة، فالذي نَلحظه في سياق هذه الآيات أنَّها تُقرِّر التَّوجيه أولًا، ثمَّ تقْرِن ذلك بالتَّرغيب أو التَّرهيب، أو معالجة ما قد يَرِدُ على النَّفس مِنْ موانع، وفي هذا مراعاةٌ للمخاطَب، وتحقيقٌ للتَّثقيف النَّفسيِّ.

عند هذا الحدِّ ينتقل السِّياق من ذكر المؤمنين، والأوامر الموجَّهة لهم إلى ذِكْر الكفَّار والإخبار عن حالهم. والسِّياق هُنا من رَحِم قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فالسِّياق عودةٌ إلى تلك الحقبة التي نَصَرَ الله فيها المؤمنين على ضعف قوَّتهم، وقلَّة حيلتهم، فهو وإنْ كان حديثًا عن مكْر الكافرين إلّا أنَّه يحقِّق للمؤمنين ما سبق من الصَّبر على تحمُّل المشاق والتَّضحية، فهو يَذْكُر مكائدهم ومحاولتهم البائسة لقتل النَّبيِّ ﷺ، ومع ذلك فقدْ حَفِظَ الله ﷻ نبيه ﷺ.

ثمَّ ذَكَر سبحانه وتعالى إعراضهم عن الحقِّ واتهاماتهم الهزيلة له، ثمَّ طلبهم للعذاب وصدَّهم عن المسجد الحرام، ثمَّ صدَّهم بالأموال والنَّفَقة لمحاربة الله ﷻ ورسوله ﷺ، وإخراس دعوة الحق، كل تلك الأحوال كانت داعيةً إلى أنْ يُنَزِّلَ الله بهم العذاب الأليم، لكنَّه سبحانه وتعالى برحمته آثر أنْ يترك الباب مفتوحًا لَمنْ يُريد أنْ يعودَ منهم فقال: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ فالآية تحمل التَّرغيب لمنْ يُقبل، والوعيد والتَّرهيب لمنْ يُدْبر، ومِنْ بديع التَّثقيف النَّفسيِّ في الآية أنْ الله ﷻ لا يُخاطب الكفَّار مباشرةً؛ لأنَّهم بجرمهم لا يستحقون أنْ يكونوا محلَّ نداءٍ منه سبحانه وتعالى، ولكنَّه أمر نبيه ﷺ أنْ يبلِّغهم عنه، فمِنْ مقامات الأمر بقُلْ إبرازُ أنَّ مَنْ يُؤمر النَّبيُّ ﷺ بتبليغهم ليسوا أهلًا لتوْجيه الخطاب إليهم، وهذا فيه مِن التَّثقيف النَّفسيِّ ما فيه، على أنَّ هنالك مقاماتٍ مقابلةً لذلك جاء الأمر فيها للنَّبي ﷺ بقوله (قُلْ) ولكلٍّ سياقه ومقامه. ثمَّ بعد أنْ تهَيَّأت النُّفوس بتقديم نموذجين، نموذج الفِئَة المؤمنة، وقد وجه لهم مجموعةً من التَّوجيهات التي تُحقِّق لهم نُصرتهم مع سابق تفضُّله عليهم، ونموذج الفئة الكافرة الباغية المعاندة لأمر الله ورسوله واستحقاقهم للعذاب، جاء الأمر بالقتال تحقيقًا لأنْ يكون الدِّين كلُّه لله مع التَّذكير

بالوعد والوعيد المتقدِّم في الآية السَّابقة، وهو متَّصلٌ في المعنى بما سبق في قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

علاقة السّياق القبلي بمقصد السُّورة:

يتَّضح ممَّا سبق أنَّ علاقة سباق المعقد بمقصد السُّورة يتمثَّل في طاعة الرُّسول ﷺ والاستجابة لأمْره ونهيه التي تُفضي إلى التَّوكُّل، وتفويض الأمور إلى الله ﷻ، ومِنْ هُنا نجد أنَّ ذِكْر تفضُّله وإنعامه على تلك الفئة المؤمنة في العهد المكيِّ ثمَّ تفضُّله وإنعامه بحفْظ رسول الله ﷺ من أذى المشركين هي علاماتٌ تتَّصل بمقصد السُّورة اتصالًا وثيقًا فكما أنَّ الله ﷻ قدْ نصركم على أعدائكم في غزوة بدر مِنْ غير أنْ يكونَ لكم فيه إلَّا حقيقة التَّوكُّل والتفويض؛ فقضى الله لكم بالنَّصر والعِزّة والكرامة فكذلك كان صنيعُه معكم مِنْ قَبَل ومع رسوله ﷺ وهذا السِّياق يقع بين الآيتين (٢٠) إلى (٣٠)، أمَّا السِّياق الذي يليه في ذِكْر كيْد الكافرين فهو سياقٌ تفْريعيٌّ عنْ هذا السِّياق الأساس، فهو يحقِّق لهم من خلال السِّياق صدق اللجوء إلى الله ﷻ، وصدق التَّوكُّل عليه مع البذْل والاجتهاد.

أمَّا علاقة هذا المقطع بالمقطع الذي يليه ففيه إشارة إلى أنَّ العذاب الذي ذَكَره الله سبحانه وتعالى من قتلٍ وإهانةٍ وتنْكيلٍ إنَّما كان عقابًا لعدم طاعتهم، وعصيانهم، ومخالفتهم أمر الله ﷻ ودعوة نبيِّه ﷺ، فتوجَّه النِّداء إلى المؤمنين تحذيرًا من أنْ يقعُوا فيما وَقَع فيه أولئك فينالهم ما نال أولئك. فالسِّياق على ما فيه من تودُّدٍ إلى المؤمنين من النِّداءات الربَّانيَّة التي تَلِج القلوب فتتملَّكها إلا أنَّ فيه كذلك ترهيبًا وتحذيرًا مِنْ أنْ يتَّصف الإنسان بما اتصفوا به فيَحقَّ عليهم العذاب.

موقع المعقد الثَّاني من السُّورة:

بعد أنْ هيَّأ السِّياق النُّفوس وهذَّبها بذِكْر منَّة الله وفضله، ثمَّ بالتَّوجيه بالطَّاعة

والاستجابة والتَّقوى، والتَّحذير من الخيانة والظُّلْم، وتقديم الدنيا على الآخرة، وابتغاء ما عند الله؛ يجيء الشِّقُّ الثَّاني من السُّورة، وكأنه هو ما تقدَّم منها بأسلوبٍ مُغايرٍ، فابتدأ السِّياق بقضيَّة الأنفال مرَّةً أخرى بشيءٍ مِن التَّفصيل، ثمَّ ذَكَر منَّة الله وفضله على المؤمنين ومعيَّته لهم. جاء تفصيل قضيَّة الأنْفال بعد علاجٍ مُتكاملٍ للقضيَّة في بُعْدها النَّفسيِّ والتَّربويِّ والإيمانيِّ، بلْ تجاوز إلى البُعْد الأمنيِّ والعسكريِّ الذي يُحقِّق لتلك الفئة المؤمنة أرقى درجات الثَّبات والبسالة.

وجاء سياق تفصيل قضيَّة الأنْفال في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ بعد الأمر بقتال الذين كفروا في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾[الأنفال:٣٩] وفي ذلك بشارةٌ بالنَّصر والظَّفَر " ومناسبة هذه الآية لما قبْلها أنَّه لمَّا أَمَرَ تعالى بقتال الكفَّار حتَّى لا تكون فتنةٌ اقتضى ذلك وقائع وحروبًا فذَكَر بعض أحكام الغنائم وكان في ذلك تبشيرٌ للمؤمنين بغلبتهم للكفَّار، وقسم ما تحصَّل منهم من الغنائم. "[(١)] فلموقع هذه الآية أثرها التَّثقيفيُّ الذي يُوقع في النَّفس التفاؤل بالنَّصر.

ومن مناسبة الآية لما قبلها أنَّه " لمَّا كان التقدير: فإذا أعانكم مولاكم عليهم وغلبتموهم وغنمتم فيه فلا تنسبوا إلى أنفسكم فعلًا، بل اعلموا أنَّه هو الفاعل وحده لأنَّ جميع الأفعال متلاشيةٌ بالنِّسبة إلى فعله، فلا تتنازعوا في المغنم تنازع من أخذه بقوَّته وحازه بقدرته؛ عطف عليه قوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟﴾ "[(٢)] وفي هذا الوجه من التَّناسب معلمٌ تثقيفيٌّ وثيق الصِّلة بمقصد السُّورة الكريمة، وهو تفويض الأمور إلى الله ﷻ، ومن ذلك حُكْم الأنفال، فتسليمُ حُكْم القسمة لله ﷻ وامتثال أمره على هذا الوجه هو المقصد الكلِّيُّ للسُّورة الكريمة، وبهذا نجد أنَّ رسْم مخطَّط السُّورة الكريمة تمتدُّ خيوطُه إلى رأس السُّورة.

---

(١) البحر المحيط: (٤/ ٤٩٧).

(٢) نظم الدرر: (٣/ ٢١٨).

○ **من الآية (٤٥) إلى الآية (٤٨) التوجيهات الميدانية:**

كما سبقت الإشارة إلى أنَّ مخطَّط السُّورة في جزئها الثَّاني ابتداءً من الآية الواحدة والأربعين ينْحو منْحى التَّفصيل، فابتدأ السِّياق الثَّاني بقضيَّة الغنائم، ثمَّ ذَكَر التَّفضُّل والمنَّ الذي أظلَّهم به، ثمَّ أمرهم بالثَّبات، وأنَّ سياق مطلعِ السُّورة ابتدأ بقضيَّة الأنفال، ثمَّ ذَكَر تفضُّله ومنَّه على عباده في اللحظات الحاسمة، ثمَّ نهاهم عن التَّولي والفرار حال اللقاء، ولئن جاءت الإشارة إلى الثَّبات في جزئها الأوَّل بمفهوم المخالفة لدلالة النَّهي؛ فقد جاء صريحًا في جزئها الثَّاني بالأمر بالثَّبات، وهو نهْج السُّورة في هذا الجزء، وهذه الخصيصة في تباين الأساليب وتوحُّد المقاصد تنفي التِّكرار عن المعنى القرآنيِّ، فهو يتصرَّف بتصرُّف المواقف والسِّياقات ومقتضيات الخطاب

نلحظ هذه الوشائج القائمة بين معاني السُّورة الكريمة كيف أُحْكِم نظامها على نحْوٍ بديعٍ. والتَّفرس في علاقات المعاني، وكيفيَّة بنائها هو من مرتكزات النَّظر البلاغيِّ الذي أفصح عنه الإمام عبد القاهر حين جعل درسَه البلاغيَّ يتطلَّع إلى"بيان أَمْر المعاني كيف تخْتلف وتتَّفق، ومن أين تجْتمع وتفترق... "(١)

بعد ذلك جاء النِّداء السَّادس في السُّورة بعد أنْ ظَلَّلهم الله بمنِّه، وأحاطهم بكرمه؛ لتكون النَّفس مُقْبِلةً لتلقِّي الأوامر الإلهيَّة، فجاء الأمر في سياقٍ يسوق الله فيه أسباب النَّصر لكي يتحقَّق لهم الظَّفَر في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إنْ هم التزموا بهذه الأوامر الإلهيَّة، ونلحظ أنَّ هذه الأوامر والتَّوجيهات ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمقصد السُّورة؛ لأنَّ الأمر بالثَّبات والذِكْر والطَّاعة والصَّبر لا ينْفكُّ عن صدق التَّوكُّل والأخذ بها أمر. أمَّا السِّياق الجزئيُّ فإنَّ الأمر بالثَّبات مترتِّبٌ على قوله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ [الأنفال:٣٩] ورتَّب على هذا الأمرِ الأخذَ بسببين: تلقِّي الأوامر بالتَّنفيذ، ثمَّ الأمر بالثَّبات والذِّكر والطَّاعة والصَّبر. وتقديم الأمر بالتَّلقِّي أولى في سياقه لأنَّه ظاهر

(١) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني: (٢٦)، قرأه وعلق عليه: محمود شاكر، نشر دار المدني، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

الإيمان وباطنه[1].

وسياق هذه التَّوجيهات يأتي مُعترضًا[2] بين ذِكْر تفضُّله ﷻ عليهم ونصرته لعباده المؤمنين، وبين ذِكْر خُذلان الشَّيطان لأوليائه؛ لتكون العناية بالتوجيه أشدَّ، إذْ يسبقه التَّرغيب فتتشوَّف النُّفوس لمرضاته، ويُعقِّبه بذِكْر مغبَّة اتِّباع الهوى والشَّيْطان، فتكون النُّفوس لمخالفة أمره أَبْعد.

ونلحظ كذلك أنَّ التَّوجيهات هُنا لا تنْفكُّ عن التَّوجيهات في مطلع السُّورة فهي تنبثق من التَّوجيهات الأساسية، فالثَّبات والذِّكر والطَّاعة والصَّبر تنبثق كلُّها من التَّقوى والإصلاح والطَّاعة ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأنفال:١]. وهُنا نلحظ العناية بمعْلم الحثِّ على الثَّبات، وتصريفه في السُّورة.

○ **من الآية (٥٥) إلى الآية (٦٣) السّياسة في الحروب:**

هذا السِّياق سياقٌ فاصلٌ بين آيات أحداث المعركة. بعدْ أنْ خَتَم الله ﷻ تشبيه حال الكافرين بحال آل فرعون والذين من قبلهم من الأقوام في الكفر، ثمَّ حالهم في التغيير، فغيَّر الله ﷻ عليهم إمهاله بغضبه ومقته، وبعد أنْ انتهى من تقرير مؤاخذة النَّاس بما تكسبه أيديهم انتقل في هذا السِّياق إلى فريقٍ آخر يمثِّل تهديدًا حقيقيًّا للمسلمين، فالسِّياق يرسم إذنْ مخطَّطًا كاملًا لمواجهة الخطر الذي يُحْدق بالمسلمين، وكيفيَّة التَّعامل مع كلٍ مِن الفريقين. وكان السِّياق مِن أوَّل السُّورة يتحدَّث عن القوَّة الكافرة في مكَّة، وانتهى في هذا السِّياق إلى الحديث عن اليهود والمنافقين. وقدْ نَقَل الطبريُّ في تفسيره بسَنَده عن مجاهدٍ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنۡهُمۡ ثُمَّ يَنقُضُونَ

---

(١) ينظر: في إعجاز القرآن " دراسة تحليلية لسورة الأنفال المحتوى والبناء" للدكتور أحمد البزرة: (٣٤٥)، نشر مكتبة المأمون للتراث، سوريا - دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٤).

عَهْدَهُمْ ﴾[الأنفال:٥٦] " قال: قريظة مَالَأُوا على محمد يوم الخندق أعداءه"[١] وفي وجه مناسبة هذا المقطع لما قبله أنَّ السِّياق كان يؤكِّد قضيَّة التَّغيير، وأنَّ سُنَّة هذا الكوْن أنْ يصحب تغيير الأنفس تغيُّرًا في النِّعمة، واليهود بنقضهم للمواثيق هم يغيِّرون ما أبرموه مع المسلمين فكانت السُّنة أن يغيِّر الله عليهم ذلك بعباده المؤمنين. ومِنْ جهة أخرى فإنَّ السِّياق المديد جاء ليعلِّم المؤمنين كيف يحقِّقون النَّصر، وابتدأ ذلك مِنْ أعمق نقطةٍ، من النَّفس وأغوارها ومعتقداتها، ثمَّ هو يصحِّح مسيرة الانتصار بالتَّحذير والتَّنبيه حتَّى يَصِل إلى إقرار أحكام السِّياسة الخارجيَّة للمجتمع الإسلاميِّ ليَحفظ لها ذلك الانتصار. ثمَّ يَحُثُّ على الإعداد العسكريِّ والماديِّ، وهو الجزء المكمِّل للجزء الاعتقاديِّ في مسألة التَّوكُّل مقصد السُّورة الكريمة؛ لأنَّ مفهوم التَّوكُّل ليس جانبًا اعتقاديًّا محْضًا، بلْ لابُدَّ أنْ يكون هذا التَّوكُّل مصاحبًا للعمل، وتقديم الأسباب. ومن هنا يظهر اتِّصال هذا المقطع بمقصد السُّورة الكريمة " ولَمَّا كان هذا ربما أدَّى إلى ترْك المُناصبة والمُحاربة والمُغالبة اعتمادًا على الوعد الصادق المؤيَّد بما وقع لهم في بدرٍ مِنْ عظيم النَّصر مع نقص دعوى العِدَّة والعُدَّة، أتبعه ما يبيِّن أنَّ اللازم ربط الأسباب بمسبباتها، وليتبيَّن الصادق في دعوى الإيمان من غيره فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم ﴾ [الأنفال:٦٠] "[٢]

ونلحظ هُنا تأخير الاستعداد العسكريِّ والماديِّ حتَّى أعدَّ النُّفوس إعدادًا نفسيًّا ومعنويًّا. وموضوع الآيات التي وقعت بين سياقي آيات الغزوة:

ذمُّ الكفَّار لإعراضهم عن الإيمان.

ذِكْر نقْض اليهود للمواثيق والعهود.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن :(١٤/ ٢٢)، تحقيق: محمود شاكر وأحمد شاكر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

(٢) نظم الدرر: (٣/ ٢٣٥).

- الأمر بتشريد وقتل أولئك الذين خانوا العهود والمواثيق.
- إقرار مبدأ إعلام العدوِّ بإلغاء العهْد والميثاق قبل محاربتهم لنَبْذِ الخيانة.
- تهديدٌ مِن الله ﷻ بهلاك الكفَّار.
- الأمر بالاستعداد العسكريِّ والماديِّ.
- إقرار مبدأ المبادرة للسِّلم عند ميْل العدوِّ لذلك.
- طمأنة الرسول ﷺ بحمايته وكفايته في حال نقْضهم للمواثيق.
- التَّذكير بتفضُّل الله على عباده المؤمنين بتأليف القلوب.

أمَّا جهة اتصال هذا المقطع بما بعده فهو تمْهيدٌ للكفاية العامَّة بدليل الكفاية الخاصَّة التي ذُكِرت في الآيات، والآيات تنطق برحمته، وكمال منِّه وتلطُّفه بعباده، وأنَّ ذلك التَّدبير تدبيرٌ إلهيٌّ كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال:٦٣]. وهذا التَّلطف بعباده هو إعداد نفسيٌّ يثبِّت القلوب، ويشعرها بمعيَّته سبحانه وتعالى لها.

السِّياقات الثَّانويَّة لآيات غزوة بدرٍ

○ الآية (٤٥) من سورة القمر:

قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ [القمر:٤٥]

سورة القمر سورةٌ مكيَّةٌ، وقد جاءت الآية في سياق التَّهديد والزَّجْر والوعيد، بعد أنْ ذَكَر الله ﷻ أحوال الأمم السَّابقة وتكذيبهم لرسلهم، وما أنْزَل الله من الحقِّ، فكان جزاؤهم العذاب الأليم، وبعد أنْ طوَّفت الآيات بأخبار الأمم السَّابقة وحال تكذيبهم ومآلاتهم استنْكر أنْ يكون هؤلاء الكفَّار المخاطبون في منأى عمَّا أصاب الأمم السَّابقة ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴾ [القمر:٤٣ - ٤٤]. أثَار هذا السُّؤال التَّأمل في المصير، فجاء الجواب سريعًا ومزمجرًا ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي في غزوة بدرٍ، فالآية ناطقةٌ بالوعيد والتَّهديد، ولهذا أثره التَّهذيبيُّ في النُّفوس، إذ تترقَّبه في حالةٍ من الوجل والخوف، تنتظر وقوعه تحت رهبة الخوف من المستقبل، والآية الكريمة امتدادٌ للمعنى في سورة الأنفال ﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:٥٢]، ولكنَّنا نلحظ أنَّ البناء والمعنى يأخذ طابع النَّسق والنَّظم في السُّورة من الطُّول والقِصَر، والإيجاز والتَّفصيل.

○ الآية (١٣) من سورة آل عمران:

يقول الله تعالى: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾

تأتي الآية في سياق التَّهديد والوعيد لأهل الضَّلالة والأهواء الذين أعرضوا عن أمر الله ﷻ، من كفَّار مكَّة، واليهود والنَّصارى، وأنَّ إيثارهم لذَّة الحياة الدنيا سيكون عليهم وبالًا في الدُّنيا والآخرة، وفي سياق الاسْتدلال والتّذكير بالعقوبة

الدنيويَّة يستحضر السِّياق ما حلَّ بالكفَّار في غزوة بدْرٍ، فَلَمْ تُغْنِ عُدَّتهم وعَدَدهم حين قضى الله بنصره لعباده. وفي موقع الآية من السِّياق القبليِّ معلمٌ تثقيفيٌّ فهو تحذيرٌ وتهديدٌ بأنَّ العقوبة التي حلَّت بأولئك قد تحلُّ بهم، كما أنَّ فيه تلويحًا إلى مكان تلك المعركة في تاريخ الصِّراع بين الحقِّ والباطل؛ ليكون شاهدًا حاضرًا في أذهان أهل الباطل في إعجاز القدْرة الإلهيَّة.

○ **من الآية (١٢٣) إلى الآية (١٢٦) من سورة آل عمران:**

في هذه الآيات يأتي السِّياق البدْريُّ تاليًا للآيتين الأوْليين من غزوة أحدٍ، والتَّذكير بغزوة بدْرٍ ليس شيئًا خارجًا عن مقاصد السُّورة الكريمة، فالآيات تحثُّ حثًّا أكيدًا على التَّوكُّل على الله ﷻ، وهي مِن أُسس عقيدة التَّوحيد؛ لأنَّ صدْق التَّوكل ثمرة التَّوحيد الخالص لله ﷻ، وقضيَّة التَّوحيد مقصدُ السُّورة الكريمة. والتَّذكير بغزوة بدْرٍ في هذا السِّياق يشحن قلوب المؤمنين؛ لما كان منهم مِن صدق التَّوكل، وما كان مِن الله ﷻ مِن إنْجاز الوعد وحُسْن التَّدبير.

كما يُظهر سياق الآيات القبليُّ قدرة الله ﷻ فكان ذِكْر آيات الغزوة امتدادًا لهذا، فتنقلب موازين القوى الظَّاهرة ليكون الحُكْم والغَلَبة لتدبير العليِّ الكبير "فكما ظَهَرتْ قدرة الله التي لا تُحدُّ في إطعام مريم من أنواع الرِّزق مِن غيْر سعيٍ منها، وفي خلْق يحيى عليه السلام على كِبَرٍ في أبيه وعُقْمٍ في أمِّه وفي خلْق عيسى عليه السلام مِن غير أبٍ، فكما ظَهرت قدرته هناك تَظهر قدرته سبحانه وتعالى هُنا كذلك في أنْ تغلب الفئةُ القليلة في عددها وعُدَّتها الفئةَ الكثيرة في عددها والوثيقة في عُدَّتها"(١)

أمَّا السِّياق الجزئيُّ فإنَّه ناطقٌ بقدرته سبحانه وتعالى، وأنَّ الأمور عائدةٌ إلى ملْكه لتفرُّده بالألوهيَّة والربوبيَّة، وأنَّ أحدًا لنْ يغْني شيئًا عنْ أحدٍ. وفي هذا السِّياق جاء النَّهي عن

---

(١) نمو المعاني " دراسة تحليلية لسورة آل عمران " للدكتور عادل حسني شكري يوسف: (١٧٩)، نشر دار ابن حزم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

اتِّخاذ البطانة من الكفَّار، ثمَّ أكَّد تفرُّده بالأمْر كلِّه بسياقِ غزوة أُحد، وجاء التَّذكير بغزوة بدْرٍ دليلًا على تمام قدْرته وتفرُّده بالقوَّة؛ إذْ كانت موازين القوَّة غير متكافئةٍ، وكان ظاهر الأمْر أنْ تميل الكفَّة لأصحاب العُدَّة والعتاد من المشركين، وهذا مثْل ما أشار إليه البقاعيُّ بقوله: "ولَمَّا كان ظاهر الحال فيما أصاب الكفَّار من المسلمين في هذه الغزوة ربما كان سببًا في شكٍّ مَن لَمْ يحقِّق بواطن الأمور، ولا له أهلية النُّفوذ في الدَّقائق مِنْ عجائب المقدور في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٠] ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران:١٢] ذكَّرهم الله تعالى نصْره لهم في غزوة بدرٍ، وهم في القلَّة دون ما هم الآن بكثيرٍ، مشيرًا لهم إلى ما أثمره توكُّلهم من النَّصر، وحالهم إذْ ذاك حال الآيس منه"[1] فالتَّأكيد على قضيَّة القدرة ينمو نموًّا معنويًّا في هذا السِّياق بتنوُّع الأساليب المؤكِّدة التي تتضمن مرجعيَّة النَّصر لله وحده حتَّى يصل المعنى إلى أقصى درجات الإيضاح والشُّمول في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢٩].

وجاء الانْتقال مِنْ ذِكْر أحداث غزوة أُحد إلى التَّذكير بغزوة بدْرٍ سَلِسًا متميِّزًا بحُسْن التَّخلص، فوقعت الآيات موْقع التَّأكيد لما سَبَقَها مِن الأمْر بالتَّوكُّل في الآية السَّابقة " أَمَرَهم بألَّا يتوكَّلوا إلَّا عليه، ولا يفوِّضوا أمورهم إلَّا إليه، ثمَّ ذكَّرهم ما يُوجب عليهم التَّوكُّل ممَّا يسَّر لهم مِن الفتْح يوم بدْرٍ وهمْ في حالة قلَّةٍ وذلَّةٍ"[2] فالمعلم التَّثقيفيُّ المستفاد مِن إدخال سياق غزوة بدْرٍ في سياق غزوة أُحد هو ترغيب المؤمنين في التَّوكُّل على الله ﷻ وإخلاص الأمور إليه باستحضار شاهِدٍ عايشوه بأنْفسهم؛ إذْ نَصَرهم ذلك اليوم مع شدَّة افتقارهم لأدوات النَّصر المادِّيَّة، كما أنَّ التَّثقيف في هذه

---

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٤٦).

(٢) الكشَّاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود الزمخشري: (١/ ٣١٤)، ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، نشر دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

الآيات يلفت إلى قدرة الخالق وعظمته الذي أنْجز لهم النَّصر؛ ليعلم المؤمنون أنَّ معيار الكثْرة والعُدَّة ليس معيارًا للنَّصر، إنَّما يكون بقوَّة العقيدة التي تُفضي إلى الثَّبات والظَّفَر.

ونلحظ أنَّ السِّياق البدريَّ جاء موجزًا، والسِّياق الأُحديَّ جاء مفصَّلًا، وهو عائدٌ إلى مناسبة المقام لكلٍّ، فسياق آيات أُحد هُنا سياقٌ رئيسٌ، وسياق آيات بدْرٍ سياقٌ ثانويٌّ؛ جيء به للاستدلال بمسألة القدرة والتَّذكير بالتَّوكُّل على الله ﷻ. واصطفاء هذا المشهد من مَشَاهد الغزوة التي جاء التَّفصيل في سورة الأنْفال فيه دلالةٌ على أَثَر هذا المشهد في التَّربية الإيمانيَّة والنَّفسيَّة.



الفصل الثاني

أثرُ اخْتيار الكلِمةِ في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه مبحثان : -

المبحث الأوَّل: أثر اختيار مادَّة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

المبحث الثَّاني: أثر اختيار هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

* *   * ** *   * *

المبْحثُ الأوّل: أثر اختيار مادَّة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

تعد الكلمة اللَّبِنَة الأُوْلى في البناء والنَّظم، والكلمة المناسبة للسِّياق القرآنيِّ تُحْدِثُ أثرها التثقيفيَّ في النُّفوس، ويَظهر ذلك باصطفاء المادَّة اللغويَّة للكلمة مِن خلال النَّظر في مدلول الكلمة أوَّلًا، ثمَّ جِهَة اصطفاء الكلمة من بين المقارِبات الدَّلالية ثانيًا.

ففي قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال:٥] نلحظ اصطفاء ﴿رَبُّكَ﴾ في سياق الدَّلالة على تفضلِ الله ومنَّته حين كَتَبَ لهم الظَّفر في معركةٍ تردَّد فيها فريقٌ من المؤمنين؛ لعدم التكافؤ بين القوَّتين. ومِن معاني الرَّبِّ القيام بتربيتهم وإصلاحهم والتكفُّل بصلاحهم[(١)]، وإسباغ النِّعم على خلْقه. واصطفاء الكلمة في هذا السِّياق فيه دلالةٌ على إنعامٍ وتفضُّلٍ؛ لأنَّ الذي أَمَرك بالخُروج هو صاحب نعمةٍ ينعمها على خلْقه، ففيه إشارةٌ إلى الإحسان إلى نبيه ﷺ بإرشاده إلى مقاصد الخير[(٢)]، كما أنَّ اختيار اسمه الدَّال على تفضُّله وملْكه يُضفي على السِّياق ظلالًا من الاطمئنان؛ فالذي أخرجك مالكٌ لهذا الوجود متفضِّلٌ على نبيِّه وعباده المؤمنين بالخروج وغيره. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ إخراجه أكسبه مزيدا من التَّربية والتَّزكية. ومثل ذلك ما وَرَدَ في سياق التفضُّل بسرعة الاستجابة للمستغيثين قال تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾ [الأنفال:٩]، واختيار كلمة ﴿رَبُّكَ﴾ له أثرٌ نفسيٌّ عميقٌ في سياقات المنِّ والعطاء والتفضُّل. تأتي في سياق الإنعام لتلقي ظلال الطمأنينة واليقين في القلوب مع ما فيه من الدَّعوة إلى التَّأمل إلى موقف الإنسان من مقابلة هذه النِّعم والعطايا.

---

(١) ينظر: تجريد التوحيد المفيد لتقي الدين المقريزي: (١٥)، تحقيق: د. أحمد السايح و د. السيد الجميلي، نشر مركز الكتاب، القاهرة، دون ط. ت.

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ١٨٦).

وفي الآية الكريمة كذلك نلحظ اصطفاء كلمة ﴿فَرِيقًا﴾، والفريق الطَّائفة مِن المتفرِّق[1] وإنْ كان مجموع المتفرِّق داخلًا تحت مظلَّةٍ واحدةٍ، كالفريق من الجيش فهو تحت رباطٍ واحدٍ[2]، ودليل ذلك إدخالهم في عموم قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فكونهم قد افترقوا لم يخرجهم ذلك من قيد المؤمنين.

واختلف في الفريق فقيل: كانوا قلَّةً، وأنَّ ذلك الفريق لَمْ يكن يُشكِّل الرَّأي الغالب من المؤمنين[3] خلافًا لما ذَهَب إليه المراغيُّ في تفسيره من الدَّلالة على الكَثْرة[4]، وإلى ما أشار إليه ابن عاشور في سرده لقصَّة المشورة، وأنَّ الكراهية كانت من أكثرهم[5]، ولَمْ أَجِدْ - فيما اطَّلعت عليه - تحديدًا للعدد أوالكمِّ كثرةً وقلَّةً، إنَّما جمهور المفسِّرين ودلالة الآية أنَّ الكره كان من بعضهم لا كلِّهم. وفي اصطفاء كلمة (فريق) عن الكارهين إشارة إلى مُفارقة الحقِّ، وأنَّهم في هذا ليسوا على قلْب رَجُلٍ واحدٍ. واختيار كلمة ﴿فَرِيقًا﴾ كنايةٌ لطيفةٌ كعادة الأسلوب القرآنيِّ في السِّتر والتَّلطُّف حين يستعمل هذه المفردات: الفريق، الطائفة، أحد، دون تحديدٍ بل بوصْفٍ يُوقع العِتاب في النَّفس رقيقًا عميقًا من جِهَةٍ؛ ليصرف النُّفوس عن مُلاحظة الأشْخاص إلى مُلاحظة الموْقف.

وقد يُراعى في اصطفاء المادة البعد التصويريِّ الذي تنهض به الكلمة، ففي قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦]

---

(١) ينظر: لسان العرب: (فرق).

(٢) ينظر: تفسير الشعراوي: (٨/ ٤٥٨٢). دون ت. ط.

(٣) ينظر: روح المعاني: (٥/ ١٦٠) وتيسير الكريم الرحمن في تفسيركلام المنان لعبد الرحمن السعدي: (٣١٦) اعتنى به تحقيقا ومقابلة: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٤) ينظر: تفسير المراغي: (٩/ ١٦٨)، نشر مطبعة البابي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٦٥).

جاء في سياق تصوير حالة الخوف التي ملأت القلوب، والقلق الذي استولى على النُّفوس قُبيل المعركة اصطفاءُ كلمة﴿يُسَاقُونَ﴾، والسَّوْق يكون مِن الخلف، وهو في سياق الإذلال أحقر مِن القَوْد؛ لأنَّ القَوْد يكون مِن الأمام، والسَّوق يكون من الخلْف[1]، وفي التَّعبير بالسَّوق دلالةٌ الانسياق دون مقاومةٍ، فهم يُساقون ولا قدرة لهم لهم على الممانعة[2]؛ ولذلك كانت هذه الكلمة أعلى من (يُجرّون) لأنها توحي بشيء من الممانعة.

كما نلحظ اصطفاء كلمة ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ في سياق القتال؛ ليكون أعمَّ من القتل، فتنطوي تحته كلُّ أسباب الفناء والانقطاع عن الحياة، والتَّعبير به أبلغ؛ لأنَّ مَن لَمْ يمُت قتلًا مات مِن فرط الرُّعب والفزع ونحو ذلك.

واصطفُيتْ في هذا السِّياق كلمة ﴿يَنظُرُونَ﴾ لما تحمله الكلمة من دلالةٍ على تجاوز الرُّؤية المجرَّدة إلى عَمَل الفِكْر والقلب، وأنَّ ذلك النَّظر كان يزيد الرَّهبة وهم يُساقون إلى الموت، وذلك ما لا يقوم به التَّعبير بـ(يَرون) أو (يبصرون)[3].

وفي اصطفاء هذه الكلمات المصوِّرة تثقيفٌ للنَّفس بإشعارها بتنزُّل رحمة الله عليهم وهم في أشدِّ الحالات فَرَقًا، وأنَّ نُصرة الله ورعايته أحاطت بهم، مع عدم رغبة فريقٍ منهم لخوض تلك المعركة، مع ماترتَّب عليها من النَّصر والظَّفر بعد ذلك، فهي دعوةٌ وحثٌ إلى استشعار المنَّة والفضل؛ ليفوِّضوا أمورهم إلى خالقهم.

ومن معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في اختيار الكلمة لمادَّتها ما جاء في قوله تعالى:

---

(١) ينظر: لسان العرب (قود).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ١٨٦).

(٣) ينظر الفرق بين النظر والرؤية والبصر: الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري: (٨٨) و (٩٦)، علق عليه ووضع حواشيه: محمد باسل السود، نشر دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ فقدْ اصطُفيت كلمة ﴿إِحْدَى﴾، وجاءت مؤنثةً لأجل الطَّائفة، والَّلفظ مُبهمٌ في ذاته، مُتعيِّنٌ في السِّياق؛ لأنَّ الله ﷻ قَابَل بين إرادتين: العِيْر والنَّفير، مع الإشارة إلى سموِّ غاية الإرادة الإلهيَّة ففُهِم من ذلك تعيُّن النَّفير، كما فُهِم تعيُّنه بقرينة نجاة العِيْر[1]، وفي اصطفاء كلمة (إحدى) تسويةٌ في القدرة على تحقيق الظَّفر في العِيْر أو النَّفير، وأنَّ الظَّفَر والنَّصر على المشركين مع قلَّة عدد المؤمنين، وكثرة المشركين وقوَّة عُدَّتهم أو الظَّفَر بالعِير سواءٌ في قُدرة الله ﷻ.

ونلحظ اصْطفاء كلمة (تودُّون) في قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ واصطفاء لفظ الوِدادة فيه دلالةٌ على أنَّها مِن مبنى الطباع، لأنَّ الوِدَّ ميْل الطِّباع، والحُبُّ ميْل الحكمة والطِّباع[2]، كما أنَّ الودَّ متضمِّنٌ معنى المحبة وتمنِّي وقوع الشيء[3]، والمكوِّن الدَّلاليَّ الرئيس في الكلمة فيه معنى الميل، وشدَّة التَّعلُّق النَّفسيِّ والوجدانيِّ، فيمتاز الودُّ عن الحبِّ بالشُّعور الخالص بالإقبال والتَّمني[4]. وفي ذلك إشارةٌ إلى معْلمٍ مِن معالم التَّثقيف يتمثَّل في إشعار المؤمنين ببشريَّتهم وفطْرتهم التي جُبلوا فيها على اجْتناب المشاق، وأنَّ الله كان محيطًا بأحوال هذه النُّفوس، ولكنَّه أراد لها أن تَعلو على أطماعها ورغباتها.

---

(١) ينظر: الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان العجيلي: (٢/ ٢٢٨ و ٢٢٩)، مطبعة عيسى البابي. ، دون ت. ط.

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: (١٤٠).

(٣) ينظر: الكليات لأبي البقاء الكفوي: (٩٤٢)، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه: د. عدنان درويش ومحمد المصري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٤) ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم للدكتور محمد محمد داود: (١٩٦)، نشر دار غريب، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

وقد يعكس اختيار الكلمة الموقف النفسيَّ للمخاطَبين، فاصطفاء السِّياق القرآنيِّ كلمة ﴿ٱلشَّوۡكَةِ﴾ دلالةً على النَّفير له بُعْده النَّفسيُّ؛ لأنَّ فريقًا مِن المؤمنين كانوا كارهين للقتال، قدْ تملَّك قلوبهم الفَزَع؛ لقلَّة العَدَد والعُدَّة، فجاء التَّعبير عنه بالشَّوكة مُطابقًا للصُّورة المتوهَّمة لما يُحدثه الشَّوْك في أصْله من إيذاءٍ ووَخْزٍ وإيلامٍ. فكَشَفَ اختيار الكلمة تصوُّرهم الذي خَالَج نفوسهم عن النَّفير، وأَوْضح أنَّ سبب تلك الكَراهة لما فيها مِن شدَّةٍ مع قلَّة العَدَد والعُدَّة.

وفي سياق إظهار القدرة الإلهيَّة، والغاية الربَّانيَّة في تعليل اختيار النَّفير اصطُفيت كلمة ﴿يُحِقَّ﴾ دون (يُثبت) أو (يُظهر) ليدلَّ على أنَّ إظهار وإثبات الحقِّ هو حقٌّ في ذاته؛ لأنَّ " في قوله: ﴿يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ﴾ جناس اشتقاق[١]. وفيه دلالة على أنَّ أصل مادَّة الحقِّ هو فعل حق "[٢] وهذا يحقِّق للمؤمن الترغيب في تحقيق مراد الله ﷻ.

وفي سياق التَّرهيب من معاندة الحقِّ، اصطفي الفعل (يقطع) في قوله تعالى: ﴿وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ للدَّلالة على الإهلاك، والقطع يتضمَّن النُّفوذ في الشيء، وفصْل بعضه عَن بعض، فيتحقَّق فناؤه وإهلاكه، وهو أبلغ من الكسْر؛ لأنَّ الكسر لا يشمل النُّفوذ[٣].

وجاء التَّعبير بالقطْع محقِّقًا التَّرهيب للكافرين، والطمأنة للمؤمنين، فهو في حقِّ الكافر وعيدٌ بالإفناء والإهلاك مع ما تُوحيه كلمة القطْع مِن سرعةٍ ونفاذٍ.

كما اصطُفيت كلمة ﴿ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ في التَّعبير؛ لأنَّ الإجرام فعلُ الجُرْم وهو الذنْب العظيم المستحقُّ للعقوبة، فتسميتهم مجرمين فيه ترهيبٌ لنفوسهم لأنَّه يلوِّح بعقوبتهم، فالوقوف ضدَّ كلمة الحقِّ جرمٌ يستحقُّ العقوبة.

---

(١) جناس الاشتقاق: هو أن يجمع اللفظين الاشتقاق بأخذ لفظ من آخر بينهما في المعنى. ينظر: الإيضاح: (٤/ ٧٥) والبغية في الصفحة نفسها.

(٢) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: الكليات: (٧٣٠).

وفي سياق التَّذكير بالمنن والعطايا يذكر الله ﷻ إقباله على عباده، واستجابته السَّريعة لهم، وهم في حال من التَّضرع والاستغاثة والافتقار إليه فقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ واصطفيت كلمة ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ في هذا السِّياق مِن الغوْث، وهو طلب النُّصرة، ووصفهم بالاستغاثة دلالةٌ على شدَّة حاجتهم للنُّصرة، فالفرق بين الاستغاثة والاستعانة أنَّ الاستغاثة مع مسلوب القدرة، والاستعانة مع ضعيف القدرة[(١)]، فلفرط حاجتهم وصفهم القرآن بالاستغاثة، مع غاية تسليمهم وتفويضهم القدرة لله وحده، وجاء الوصف بصيغة الجمع إمَّا تعظيمًا لمقام النبي ﷺ، فخوطب خطاب العُظماء بالجمع[(٢)]، وإمَّا على اعتبار دعاء النَّبي ﷺ، وتأمين الصَّحابة لدعائه للعلَّة ذاتها[(٣)]، فالتَّأمين على الدُّعاء قائمٌ مقام الدُّعاء، فجاء بالجمع، وهو الأعلى فقدْ وَرَدَ في السِّيَر ذِكْرُ دعاء الصَّحابة وابتهالهم قُبيل المعركة[(٤)].

ولاختيار كلمة ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ أثره التَّثقيفيُّ، ففيه بيانٌ لصدْق إقبالهم عليه ﷻ، في منْظرٍ يسوده التَّضرع والابتهال، وهم يلتمسون منه النَّصر والظَّفَر، وإعزاز دين الله ﷻ، مظهرين غاية الافتقار إليه، والحاجة إلى عونه وتأييده. والالتجاء إليه على هذا النحو مطلبٌ، يقول الله ﷻ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠] ولهذا قال الله

(١) ينظر: النكت والعيون: (٢/ ٢٩٨).

(٢) ينظر: لباب التأويل في معاني التنزيل لعلي بن محمد البغدادي: (٣/ ١٤)، ضبطه وصححه: عبد السلام شاهين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي: (١٥/ ١٣٤)، نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

(٤) قال عتبة في ذكر غزوة بدر: " وعج المسلمون إلى الله تعالى بالدعاء حين رأوا القتال قد نشب ". سبل الهدى والرشاد: (٤/ ٥٩).

ﷻ: ﴿فَٱسۡتَجَابَ﴾ بهذا القدْر من التَّأكيد ومن السُّرعة التي تفيدها الفاء محقِّقةً لهم الاستقرار النَّفسيَّ الذي يثبِّتهم في مواطن القتال.

وفي السِّياق ذاته اصطُفيت كلمة ﴿قُلُوبُكُمۡ﴾، واصطفاء لفظ القلب دون الفؤاد لمناسبة قلوبكم للفزع والوجل؛ لأنَّ القلْب سُمِّي قلبًا لتقلُّبه[1]، فكان تسكين القلْب أنسب لسياق الإنعام؛ لنزول الطمأنينة على القلْب حتى تنفي عنه الفَزَع والفَرَق، فهو أبلغ في استشعارهم لنصرته لهم. ليدْفعهم هذا الاستشعار إلى صدْق التَّوكُّل عليه.

وفي سياق المنن التي أظلَّ الله بها عباد المؤمنين في أرض المعركة اصطُفيت كلمة (يغشِّي) في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾[الأنفال:١١] وأصله من غشّى بمعنى غطَّى وسَتَرَ[2]، واصطُفي الإغشاء على التَّغطية؛ لأنَّ التَّغطية تحمل معنى الإقْفال والإحْكام، وسَتْر ما تحته ستْرًا كاملًا، وهذا يقتضي ذهاب عقولهم، والمقصود نزول النُّعاس عليهم حتَّى يُسْكِن حواسَّهم، ويغشاها غشيانًا يُذهب فتُور الأجساد ويقويها في القتال. والنُّعاس في الحرْب كما ذَكَر ابن القيِّم علامة النَّصر والظَّفَر والأمْن[3].

والنُّعاس أولى درجات النوم[4]، واصطُفي من بين مفرداتٍ كالنَّوم وغيره؛ لأنَّ النُّعاس هو ما يحقِّق للأجساد الرَّاحة، فلا هو بالنَّوم العميق الذي يغْفل فيه المقاتلون،

---

(١) ينظر: لسان العرب: (قلب).

(٢) ينظر: لسان العرب: (غشا).

(٣) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد: (٣/ ١٩٩)، تحقيق وتعليق الشيخ عرفان العشا، نشر دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

(٤) ينظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي: (٨/ ٢٢)، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، وفقه اللغة وأسرار العربية لأبي منصور الثعالبي: (٢٠٥)، ضبطه وعلق على حواشيه: الدكتور ياسين الأيوبي، نشر المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

ولا هو القلق أو الخوف الذي يُذهب عن أعينهم الكَرَى[1].

والتأمُّل في سرِّ اصطفاء هذه الكلمات وما تدلُّ عليه من دقَّةٍ وإحكامٍ في انتقاء المفردة يغرس في النَّفس استشعار لطف الله تعالى ومنَّته بعباده الذي دبَّر لهم ما يحقِّق اطمئنان نفوسهم انتصارًا للحقِّ الذي كلِّفوا بنشره، والدِّفاع عنه.

وينتقل السِّياق إلى أجواء المعركة، وتعلو نبرة الخطاب، في سياقٍ تذكيريٍّ بما كان يدبِّره الحقُّ ﷻ، وترد كلمة ﴿يُوحِي﴾ في قوله تعالى ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال:١٢]، والوحي أمرٌ غيبيٌّ، ففيه دلالةٌ على أنَّ الله ﷻ لَمْ يترْك هذه الفئة المؤمنة، إنَّما كانت معيَّته ﷻ لها، يؤيِّدها بنصره، ويدبِّر الأمر مِنْ عنده. ذلك الشُّعور يجعل المسلم صادقًا في توكُّله وتفويضه الأمور، بعْد أنْ يأخذ بالأسباب؛ لأنَّه يعلم أنَّ الله مدبر الأمور قادرٌ على أنْ يُسخِّر الكون كلَّه نصرةً للحقِّ، وإبطالًا للباطل.

ويغرس اختيار الكلمة في النَّفس الأثر التَّثقيفيَّ باصطفاء الكلمة التي تحمل معاني الوعيد؛ لترهيب أعداء الله، وفي هذا السياق اصطُفيت كلمة (ألقي) في قوله تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾ واصطفاء الإلقاء على القذف؛ لأنَّ القذف أشدُّ مِن الإلقاء، ولَمْ يُستعمل القذف في القرآن الكريم في الحرْب إلَّا مع الحُصون والقِلاع؛ ليتناسب مع شدَّة الطَّرح والدَّكِّ والإخراج، كما أنَّ استعمال القذْف في القرآن وَرَدَ مع اليهود؛ لأنَّهم أكثر خُبْثًا ومراوغةً[2]، فكان استخدام (أَلْقَى) في هذا

---

(١) ينظر في أهمية النوم للإنسان: علم النفس القرآني للدكتور عدنان الشريف: (١٤٣ وما بعدها)، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة ٢٠٠٧م. ومقالا بعنوان: " النوم ظاهرة حيوية بين القرآن والسنة " للأستاذ الدكتور / عبد الباسط محمد سيد. في موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الشابكة:

.http: //www. 55a. net/firas/farisi/print_details. php?page=show_det&id=708

(٢) ينظر: التصوير البياني في آيات الأمن والخوف لزينب الكردي: (٢١٩)، نشر غراس، الكويت، الطبعة =

الموضع أليق بالسِّياق والمعنى.

وفي سياق تعليل ما توعدهم الله به من العذاب في الدنيا على أيدي الملائكة والمؤمنين، اصطُفيت في التَّعليل كلمة (شَاقَّ) في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾. يقول ابن منظور: "والمُشاقَّةُ والشّقاق غَلَبَة العداوةِ والخلاف. شاقَّهُ مُشاقَّةَ وشِقاقاً خالَفَه"[(١)]، وهو مأخوذ من الشَّقِّ والقطع والفصْل بين الجزْأين؛ لأنَّه حين جاء أمر الله ﷻ وأمْر رسوله ﷺ كذبوهما، وعصوا أمرهما، فكانوا كالذي أَخَذ شقًّا دونَ الشقِّ الذي أُمروا باتِّباعه فصاروا في شقٍّ آخر[(٢)]، فاصطفى السِّياق الكلمة التي تصف بدقَّةٍ حالهم في نفورهم من الحقِّ، وعداوتهم للدِّين، وموقفهم من دعوتهم إلى اتِّباع أمر الله ورسوله، فاصطفاء لفظ المشاقَّة على المُجانبة والعصيان والعدواة من دقيق النَّظم؛ ذلك أنَّ في المشاقَّة تحديدًا واضحًا للمفاصلة الحادَّة بين الرسول ﷺ والكافرين، وأنَّ تلك المفاصلة التي لا تلتقي على خيارٍ واحدٍ هي التي أدَّت للحرب والقتال[(٣)]. وتعكس العناصر الصوتيَّة للكلمة في النَّفس العناء والصَّخَب والتَّمرُّد، فالشِّين بفشوِّها وضوضائها، يليها القاف بإيحائه معنى القطْع والانفصال. والأداء الترتيليُّ لقراءة الكلمة يصوِّر المعنى، فالمدُّ اللَّازم الكلميُّ المثقَّل[(٤)] يوحي بطوْل تلك المشاقَّة

= الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٨م.

(١) لسان العرب: (شقق).

(٢) ينظر: معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس. : (٣/ ١٣٧)، تحقيق الشيخ: محمد علي الصابوني، نشر جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ/ ١٩٨٨م والمحرر الوجيز: (٨/ ٢٩) والكشاف: (٢/ ١٥٣).

(٣) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٤٥٦).

(٤) المد اللازم الكلمي المثقل: " ضابطه أن يقع بعد حرف المد واللين سكون أصلي مدغم – أي مشدد – في كلمة... سمي كلميا لوقوع الساكن الأصلي بعد حرف المد واللين في كلمة: ومثقلا لكون الساكن مدغما". هداية القاري إلى تجويد كلام الباري لعبد الفتاح المرصفي: (٣٤٢)، طبعة خاصة على نفقة الشيخ محمد عوض بن لادن، السعودية الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

وعظمها، كما أنَّه يُعطي للوقوف على القاف قوَّةً تصوِّر تجسيم الموقف[١].

وتصوير تلك النُّفرة والمجانبة باتِّخاذ شقٍّ غير شقِّ الهدى والرشاد له تأثيره في النَّفس؛ إذ يرسم لها صورةً منفِّرةً للفعل، ومحذِّرةً مِن أنْ يسير أَحَدٌ في هذا الطَّريق، فينطبق عليه هذا الوصف، كما أنَّنا نجد هذا الأثر التحذيريَّ والتَّنفيريَّ يمثِّله الصَّوت بصفاته وأدائه، فيكون رنين الحروف وإيقاعها أشدَّ تنبيهًا إلى المعنى بما فيها من جرْسٍ صاخبٍ.

وجاء اصطفاء اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ مناسبًا لسياق العزَّة والتفرُّد والكمال، وهو في سياقه يُوحي بمدى جُرمهم، وعِظَم ذنْبهم، فيعكس في النَّفس الشُّعور بعظمته، والمهابة من سَخَطِه.

ويأتي اصطفاء الكلمة ليُوقع في نفوس المخاطَبين التَّنفير من الفعل، ففي قوله تعالى: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال:١٥] اصطُفيت كلمة ﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ جمع دُبُر، والدُّبُر خلاف القُبُل، وهو مستعملٌ في معنى الظَّهر؛ لأنَّ المُنهزم حين يُولِّي هاربًا يجعل ظهره للخصْم فارًّا، ولكنَّ السِّياق اصطفى لفظ الدُّبر لنكتةٍ بلاغيَّةٍ؛ ذلك أنَّ الموقف موقفٌ يريد السِّياق النَّهيَ عنه، والتَّنفير منه، فجاء باللفظ ليوقع ذلك موقعه التَّنفيريَّ في النُّفوس، وأشار ابن عطيَّة إلى هذه النُّكتة منوِّهًا إلى موقعها في نفس المخَاطَب بقوله: "والعبارة بالدُّبر في هذه الآية مُتمكِّنة الفصاحة؛ لأنَّها بَشِعَةٌ على الفارِّ، ذامَّةٌ له"[٢]، فالسِّياق القرآنيُّ باصطفائه للكلمة في موضعٍ ما يوظِّف دلالة الكلمة للغاية التَّثقيفيَّة التي يريد أنْ يُقرَّرها في النُّفوس.

---

(١) ينظر: جماليات المفردة القرآنية للدكتور أحمد ياسوف: (٢٠٤)، نشر دار المكتبي، دمشق، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) المحرر الوجيز: (٨/ ٣١).

وفي سياق التَّحذير والوعيد من الانهزام والفرار من المعركة اصطُفيت كلمة ﴿مُتَحَيِّزًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٦].

والمعنى دالٌّ على الجمع والتجمُّع(١)، وهي الغاية من الرُّجوع بأن يتقوَّى بالمجموعة فيكرُّوا عليهم، فاصطفاء الكلمة دالٌّ على الغاية، فالمسلم لا يقع في عزيمته خيار الاستسلام أو الهَرَب، فالمعلم التَّثقيفيُّ الانتقال من الضَّعف إلى القوَّة إصرارًا على النّكاية بالعدوّ.

وفي سياق الوعيد اصطُفيت كلمة ﴿جَهَنَّمُ﴾ اسم من أسماء النَّار التي يُعذِّب الله ﷻ بها، والصَّحيح أنَّه لفظٌ عربيٌّ، ومِن أهل اللغة من قال غير ذلك(٢)، ومنه الجهنام القعر البعيد، وسُمِّيت النَّار جهنَّم لبُعد قعرها(٣)، وبُعد قعرها فيه دلالةٌ على عِظَم حجمها، وشدَّة عذابها، وفي اصطفائها تناسبٌ مع الفعل المعاقب عليه، فكما أنَّ الذي يفرُّ مِن أرض المعركة يطلب الإعراض عمَّا يُرضي الله، والابتعاد عن أرض القتال، فَقَدْ أعدَّ الله ﷻ له ما هو أبْعد في دَرَكات النَّار، فدلَّ على فظاعة الجُرم بفظاعة العُقوبة، ولهذا أثره في التَّنفير مِن إتيان المنهيِّ عنه.

وللكلمة أثرها التَّثقيفيُّ الذي يتضمن الإشارة إلى جميل تلطُّفه، وواسع منَّته، في سياقٍ يحمل المؤمنين على التسليم وتفويض الأمر كله لله، ففي قوله تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:١٧] اصطُفيت كلمة ﴿بَلَآءً﴾ وأصل معنى البلاء دالٌّ على القِدَم، ضدُّ الجِدَّة، مِن بَلِيَ الثَّوب بَلاءً وبِلاءً إذا خَلُق، وبلوته: اختبرته، كأنِّي أخلقْته

(١) ينظر: معجم المقاييس في اللغة لأحمد بن فارس. : (حوز)، تحقيق: شهاب الدين أبوعمرو، دار الفكر، لبنان – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: لسان العرب: (جهنم).

(٣) ينظر: السابق.

من كثْرة اختباري له[1]، ويكون في الخيْر والشَّر كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥][2] والذي جعله صالحًا للاستعمالين أنَّ الاختبار قدْ يكون بالمحْنة فيصبر المؤمن على شدَّتها، وقد يكون بالنعمة فيشكر المؤمن عطاءَ الله. والبلاء في هذا السِّياق نعْمةٌ مِن الله ﷻ بقرينتين، القرينة السياقيَّة بما تقدم من فضل الله ﷻ وتمام نعمته بالمؤمنين، ثم القرينة اللفظيَّة في الصِّفة، فقوله تعالى: ﴿بَلَآءً حَسَنًا﴾ دالٌّ على كوْنها مِن الإنعام، وهو مثل قول زهير بن أبي سلمى:

رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم فأبْلاهما خيرَ البلاء الذي يبلو[3]

ويُفهم من التَّعبير عن النِّعمة بالبلاء أنَّ على المؤمنين أن يقوموا بواجب شُكر هذه النِّعمة التي أنعم الله عليهم بها في هذه الغزوة، وأنَّ شُكر هذه النعمة يكون بتحقيق مراد الله ﷻ بإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، فهو ما يحقِّق لهم الفلاح والنَّجاة.

كما اصطُفيت كلمة ﴿حَسَنًا﴾، والحُسْن نقيض القُبْح[4]، واصطفاء كلمة الحسن على الجمال في وصْف البَلاء؛ لأنَّ الجمال منفعته ذاتيَّةٌ، لكنَّ الحسن نفعه مُتعدٍّ، فوصْف البَلاء بالحُسْن، يفيض حسنُه على المبْتَلين، كما أنَّ الجمال أكثر ما يظهر من جهة

(١) ينظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروزآبادي: (٢/ ٢٧٤)، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، نشر لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة – القاهرة، ١٣٨٧ هـ: ومفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني. : (بلى)، تحقيق: صفوان عدنان داودي، نشر دار القلم، سوريا – دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) ينظر: عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي. : (بلو)، تحقيق: محمد باسل السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(٣) شعر زهير بن أبي سلمى " صنعة الأعلم الشنتمري ": (٦١)، تحقيق: فخر الدين قباوة، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٤) ينظر: لسان العرب: (حسن).

البَصَر، أمَّا الحُسْن فإنَّ أكثر ما في القرآن مستحسن من جهة البصيرة[١]. وعليه فلا يُشترط أنْ يكون وجه الحُسْن فيه ما يظهر منه، فإنَّ وجه الحسن في البَلاء قدْ يكون في باطن الأمْر، وهو ما يُدرك بالبصيرة لا البَصَر.

وفي هذا معلم من معالم تثقيف النَّفس المؤمنة بأن تستبطن وجه الحسن في البلايا والمصائب، فإن في كلِّ محنةٍ منحةً وهبها الله ﷻ لعباده لا يبصرها إلَّا من روَّض النَّفس على اليقين والتسليم، وحسن الظَّن بالله ﷻ.

ويكون تثقيف النَّفس باختيار الكلمة التي تثير الشعور بالسُّخرية والتَّهكم بحال المخاطَبين قصد إذلال الكفر وأهله، ففي قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ جاءت كلمة ﴿ٱلْفَتْحُ﴾ في سياق التَّهديد والوعيد بما ينتظرهم من الخُسران والوَبَال. والفتح لغةً ضدُّ الغلْق[٢]، وهو إزالة حاجزٍ يحول دون شيءٍ آخر، ويُستعمل الفتح في معنى النَّصر كثيرًا استعمالًا مجازيًّا أوكنائيًّا[٣]، بعلاقة اللزوم، ولكنَّ الفتح في هذا الموضع مُستعملٌ في معنى الهزيمة والخُسران، فهو مِن المجاز المرْسل المبنيِّ على مجازٍ آخَرَ[٤]، والعلاقة الضدِّيَّة[٥]، وقدْ عدَّه القُونويُّ من

(١) ينظر مفردات ألفاظ القرآن: (حسن).

(٢) ينظر: لسان العرب: (فتح).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٣٠١).

(٤) مجاز المجاز: هو أن يُجعل المجاز المأخوذ عن الحقيقة بمثابة الحقيقة بالنسبة إلى مجاز آخر؛ فتجوز بالمجاز الأول عن الثاني لعلاقة بينه وبين الثاني. مجاز القرآن لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام: (٢٥٥)، تحقيق: د. مصطفى الذهبي، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، طبعة ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٥) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: (٢/ ٢٨٢ و ٢٨٣)، نشر دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

الاستعارة التَّهكميَّة[١] تشبيهًا للشيء بضدِّه على وجه المناسبة، وقد صرَّح القزوينيُّ في الإيضاح بقوله: "واعلم أنَّ الشَّبَه قدْ يُنتزع مِن نفْس التَّضاد لاشتراك الضِّدين فيه، ثمَّ يُنزَّل منزلة التَّناسب بواسطة تمليحٍ أو تهكُّمٍ"[٢]؛ ولهذا المجاز أثره النَّفسيُّ، فهو سُخريةٌ بالمخاطَبين وتهكُّمٌ بهم، مع ما فيه من مخاتلة النَّفس ومفاجأتها بالمعنى الأوليِّ، ثمَّ انْكشاف الدَّلالة بالانتقال إلى المعنى المُراد.

كما أنَّ في تسمية الهلاك فتْحًا سخريةً لاذعةً بهم، لما فيه مِن مقابلة طلبهم بمقابله، مع إيهامهم بأنَّه هو، ففي هذا التَّهكم دليلٌ على بُغْض الله لهم، وبثِّ الفَزَع في قلوبهم.

وفي سياق تفصيل أمر الغنائم وقسمتها اصطُفي فعل الأمر (اعلموا) في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١]. والأمر هنا بالعلم، وهو إدراك الشيء بحقيقته[٣] والمقصود به في الآية العلم العَمَليُّ الذي لا يُدرك إلا بالعمل به؛ لأنَّ العلم دون عملٍ في العبادات والأحكام يستوي فيه الكافر والمؤمن[٤]،فيكون العلم هُنا كنايةً عن العمل؛ لأنَّ المقصود من المعنى هو صريح العلم ولازمه[٥]. وفي اصطفاء العلم كنايةً عن العمل إشارةٌ إلى مدى التلازم بين العلم والعمل في التكاليف الشَّرعية، خاصَّة أنَّ الآية الكريمة عَوَّلَتْ على الإيمان الذي يقتضي ظاهره العمل، كما أنَّ اصطفاء الأمر

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ٤٦)، ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد الله محمود محمد عمر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة، الأولى ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) (٣/ ٧١)، وينظر: (٣/ ١٠٥ و ١٠٦).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (علم).

(٤) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٦٦).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٥).

بالعلم دون الأمر بالقِسْمة مثلًا فيه نكتةٌ أخرى وهو ضرورة تحصيل هذه المسائل علميًّا، وفقه مسائل القسمة لإقامة العدْل الذي كتبه الله ﷻ على الوجه المرضيِّ منه سبحانه وتعالى.

واصطُفيت في هذا السياق كلمة (أنْزَل)، والإنزال هنا إنزالٌ يُراد به الإيصال والتيسير[1]، وحذف مفعوله يفيد شمول كلَّ ما أنزله الله على رسوله ﷺ من الملائكة والمطر والقرآن والنَّصر المظفَّر، واصطفاء لفظِ الإنزال على غيرها من المتقاربات الدَّلاليَّة لما يدلُّ عليه النُّزول من رفعة مصدره، وجلالة شأنه، وفي ذلك تثقيف للنَّفس بإشعارها بجلالة هذا المدد المحسَّ والروحيِّ، وهو تكريم من الله ﷻ لهم ليرغِّبهم في الإقبال عليه، وتفويض أمورهم إليه.

كما اصطُفيت كلمة (عَبْد) للدَّلالة على الرَّسول ﷺ، وفي اصطفاء العُبوديَّة دون غيرها من الصفات بلاغةٌ تتعلَّق بانتظام اللفظ في السِّياق، وذلك أنَّ الأمر الذي أُمروا به يقتضي تعبُّد الله ﷻ بتطبيقه والإتيان به، فكان تميز الرسول ﷺ بمقام العبوديَّة أبْلغ في سياقه، فوقع في اصطفاء هذا اللفظ التَّشريف؛ لأنَّ مقام العبوديَّة لله خاصَّةً أشرف مقامات علاقة الخالق بالمخلوق. دلالةً على أنَّ من تمام العبوديَّة لله ﷻ طاعته في هذه القِسمة، وأنَّ العبوديَّة الحقَّة عاصمةٌ من اتِّباع الأهواء، ومخالفة أمر الله ﷻ، ولذلك عَدَل السِّياق القرآنيُّ من كلمة (الرَّسول) المتقدِّمة في صدر الآية إلى كلمة (عَبْد).

ويقع التَّثقيف موقعه مِن النَّفس بإثارة جلالة الأمْر وهيْبته، ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٢] اصطُفي الفعل (يقضي) في سياقٍ يدلُّ على كمال القدْرة،والقضاء القطْع والفصْل التَّام، وهذا الأمر الذي قضاه الله ﷻ قد فَصَل فيه بين الحقِّ والباطل للنَّاس عيانًا، ولفظ القضاء متجانسٌ مع لفْظ

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٢٣).

الفرقان في الآية من حيث الدَّلالة المقاصديَّة، واصطُفي القضاء على القَدَر لأنَّ القضاء فصْلٌ وقطْعٌ، والقَدَر تدبيرٌ[١] فهو أقرب للفعل والعمل الوجوديِّ، كما أنَّه اصطُفي على الحُكْم؛ لأنَّ الحُكْم فصْلٌ للأمْر على مُقتضى العقْل والشَّرْع[٢] ودلالته غير مقصودةٍ في السِّياق. وهذا الإيحاء له موقعه في النَّفس فهو يدلُّ على كمال قدرته ﷻ، فيزرع في النَّفس المَهَابَة والوَجَلَ منه.

واصطُفيت كلمة ﴿أَمۡرٗا﴾ في هذا السِّياق الدالِّ على الجلال الإلهيِّ. والأمر الشأن، وإطلاقه هنا لشأنٍ عظيمٍ، بدليل التَّنكير المفيدِ للتَّعظيم[٣]، ولعلَّ إطلاق الأمر على الشأن العظيم آتٍ مِن كونه ممَّا يُؤمر بإتيانه وفعله[٤]، وتعظيم السِّياق لهذا يدلُّ على أنَّه عظيمٌ فيما يُفضي إليه، فنَتَجَ عن الأمر المقضيِّ الفرقانَ التَّام بين الحقِّ والباطل بالدليل والحجَّة الواضحة البيِّنة.

وفي سياق ذكر مآلات القضاء الذي قضاه الله ﷻ بالفصل بين الحقِّ والباطل، اصطفي في سياق الدَّلالة على خسران أهل الباطل الفعل (هلك) في قوله تعالى: ﴿لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ﴾ والهلاك في أصله الموت، وهو وصفٌ مذمومٌ له، وأصل ذلك كما يقول ابن فارس: "الهاء واللام والكاف: يدلُّ على كَسْرٍ وسُقوط. منه الهلاك: السُّقوط، ولذلك يقال للميت هَلَكَ"[٥]؛ ولذلك اصطفي في هذا الموضع على الموْت؛

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (قضى).

(٢) ينظر: الفروق اللغوية: (٢١٥).

(٣) جهة دلالة التنكير على التعظيم آتية من جعل الإبهام دليل عظمته، فلا يدرك لعلوشأنه "لأن العظمة حاجبة عن معرفة العظيم" الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لابن عربشاه عصام الدين: (١/ ٢٣١)، تحقيق وتعليق: د. عبد الحميد هنداوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٢٠).

(٥) معجم المقاييس في اللغة: (هلك).

لما فيه من معنى الذمِّ والإهانة، وهو وصْفٌ يتناسب مع مقام الكفْر والشِّرْك بالله، ويَرِدُ هذا اللفظ في القرآن الكريم بصِيَغٍ مختلفةٍ تدلُّ على قدرةِ الله ﷻ في إهلاك الظالمين، فيُثير في النَّفس الخوْف والخشية والإحساس بالضعف، كما أنَّها كثيرًا ما يسبقها طُغيان الظالمين واستبدادهم(١)، وهذا يعني ارتباط اللفظ بالمُجازاة على سوء الفعل، فيثير في النَّفس تذكُّر عقاب الله ﷻ للأمم السَّابقة.

ويتضافر اختيار المادة الدَّلالية للكلمة مع جرْسها لتوقع أثرها التَّثقيفيَّ بتصوير الموقف، ففي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الأنفال:٤٣] فاصطُفيت كلمة (الفشل) في سياق ذكر المنَّة على رسوله ﷺ، وذكر رؤيته التي بشَّر الله بها المؤمنين، وصَرَفَ عنهم هيْبة كثْرة الأعداء. والفشل في الحرْب الضَّعف مع الجُبْن(٢)، وفي البَدَن الإعياء، وفي الرأيِّ الفساد والعَجْز(٣)، والإصابة بالفَشَل في الحرْب تكون نتيجة الضَّغط النَّفسيِّ، فتؤدي إلى الانهزام النَّفسيِّ أوَّلًا، ثمَّ يعقبه الانهزام الحركيُّ في المعركة، ولهاتين الدَّلالتين اصطُفيت كلمة (الفشل) على الضَّعف مثلًا أو الجُبْن؛ لأنَّ المُراد تلك الحالة من التَقهْقُرِ والانْهزام الذي يمثُّله تفشِّي حرف الشِّين بما فيه من انْتشارٍ مصوِّر لانتشار الإحباط وسريانه في الفِئَة أوالجيْش، فدفعه عن المسلمين من كمال منَّته وفضله فهو لَمْ يدبِّر لهم المِنن والآيات فحَسْب، بلْ صَرَفَ عنهم كذلك ما يعكِّر ثباتهم وقوَّتهم، فحريٌّ بتلك النُّفوس أنْ تُبادر إلى الطَّاعة والامتثال.

وفي السياق ذاته جاء اختيار كلمة (التَّنازع) مصوِّرًا شدَّة الافتراق في سياقٍ

(١) ينظر: الخطاب النفسي في القرآن الكريم " دراسة دلالية أسلوبية " للدكتور كريم الخالدي: (١٥٥)، نشر دار صفاء، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (فشل) وعمدة الحفاظ: (فشل).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٤٧).

مفعمٍ بالامتنان، والنُّون والزَّاي والعين أصولٌ تدلُّ على إسقاط الشيء[1]، والمنازعة في اللغة المجاذبة، وأصله مستعملٌ في الأجرام[2]، والمجاذبة بالأيدي، ثمَّ استُعير للكلام والمعاني[3]. يقول الرَّازيُّ: "والمنازعة عبارةٌ عن مجاذبة كلِّ واحدٍ من الخصمين لحجَّةٍ مُصحِّحةٍ لقوله، أو محاولة جذْب قوله ونزْعه إيَّاه عمَّا يُفسده"[4] فمناط المجاذبة إمَّا أنْ يكون الخصْم فينزعه نحو رأيه، أو أنْ يكون الحجَّة والرَّأيَّ فينزع عنها ما يُفسدها، وسواءٌ كان موضع النِّزاع الخصْم أو الحجَّة فإنَّ في كليهما تصويرًا لاشتغال النَّفس بإسقاط الآخر على حدٍّ يَذهب فيه صفاءُ القلوب، كما أنَّ فيه تصويرًا لشدَّة الاختلاف، وهو موضع اصطفاء هذه الكلمة على مثيلاتها مثل المغالبة؛ لأنَّها تَصِفُ العاقبة أو المخاصمة لأنَّها تُفيد جانب الغِلْظة، أو الجدال لأنَّه يُفيد جانب الإحكام[5]. ولاصطفائها أثرها التَّثقيفيُّ فهو يقوِّيهم في أنْفسهم بالثَّبات والعزيمة والاستقرار بصَرْف الفَشَل، ويقوِّيهم بائتلافهم وتوادِّهم، فيكونون لُحْمةً واحدةً ضدَّ عدوِّهم، وتلك إحدى مننه وفضائله التي أظلَّهم بها.

وفي سياق التَّرغيب فيما عند الله ﷻ لتقبل عليه النَّفس طامحةً في نيله اصطُفيت كلمة (الفلاح) في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥]، والفلاح حصول الفوز والظَّفر بالمبتغى[6]، وظلال كلمة الفلاح أوْسع مِن ظِلال أيِّ كلمةٍ أخرى دالَّةٍ على النَّيْل وتحصيل المبتغى من المقاربات الدَّلالية مثل: الفوز أو الظَّفر أو النَّصر؛ لأنَّها كلمةٌ جامعةٌ للمُبتغى في

(١) ينظر: معجم المقاييس في اللغة (نزع).

(٢) ينظر: عمدة الحفاظ: (نزع).

(٣) ينظر: البحر، المحيط: (٣/ ٢٩٤).

(٤) مفاتيح الغيب: (١٠/ ١٥٧).

(٥) ينظر: لسان العرب: (جدل).

(٦) ينظر :مفرادت ألفاظ القرآن: (فلح).

الدُّنيا والآخرة. فاصطفاء الكلمة يحقِّق لهم في أنفسهم التَّرغيب في نيْل المبتغى الدُّنيويِّ بالنَّصر والظَّفر والنِّكاية بالعدِّو، والمبتغى الأخرويِّ بإرضاء الله ﷻ، ودخول الجنَّة.

وفي سياق النَّهي عن مشابهة المشركين والمنافقين في الصدِّ عن الحقِّ، ومحاربة الله ورسوله، اصطفيت كلمة (دِيَار) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:٤٧]، والدِّيار جمع دَار، وأصلها دُوْرٌ، فأُعلَّ، وسُمِّي الدَّار بهذا الاسم لدوران أهله وحركتهم فيه، أو لدوران الحائط على أهله[١]، ومِن هُنا فاصطفاء كلمة الدَّار فيه إشارةٌ إلى هذا المعنى وهو الإحاطة المقتضِي للاستقرار والسكون؛ لوجود ما يحمي ويُحيط، فاصطُفي على معنى المبيت من البيْت أو النُّزول من المنْزِل؛ لأنَّ السِّياق فيه إيضاحٌ لعِظَم الجُرْم الذي اقترفوه، والكفران والجحود بنِعَم الله، فكانت الإشارة إلى تلك الحالة مِن الاسْتقرار مناقضةً للبَطَر والكُفران، فاصطفاؤه يُوقع في النَّفس التَّحذير مِن الوقوع في تلك المفارقة، ومقابلة نعمة الله بالكفْر والجُحود.

واصطُفيت كلمة ﴿بَطَرًا﴾ في سياق التَّنفير من أسباب الصدِّ عن سبيل الله. والبَطَر مصدر بَطِر، يقول الراغب: "البَطَر: دَهشٌ يعتري الإنسان مِن سوء احتمال النِّعمة وقلَّة القيام بحقِّها، وصرْفها إلى غير وجهها"[٢] ويقول ابن فارس البَطَر: "تجاوُزُ الحَدِّ في المَرَح"[٣]، فالمعنى يتضمَّن الطُّغيان والخروج عن الحدِّ بمقابلة النِّعمة بالتكبُّر والجُحود. واصطُفي التَّعبير بالبَطَر، ولم يعبَّر بالفَرَح؛ لأنَّ الفَرَح فيه ما هو محمودٌ وما هو مذمومٌ، والبَطَر كلُّه مذمومٌ، مع ما في البَطَر مِن معنى المبالغة في الفَرَح، فهي مرتبةٌ مِن الفَرَح موصلةٌ للكُفران والجحود والتَّعامي عن الحقِّ، كما لَم يُعبَّر بالكفر؛ لأنَّ الكفر إنكارٌ للحقِّ بإخفائه وستْره، وليس ذلك مقصودًا، بل المقصود أنْ

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (دور) وعمدة الحفاظ: (دور).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: (بطر).

(٣) معجم المقاييس في اللغة: (بطر).

يكون الدَّاعي إلى جحدان النِّعمة التَّكبر والتَّعالي؛ لأنَّه من أسباب الهزيمة في سياق التَّوجيه إلى أسباب النَّصر. ولاختيار الكلمة في سياقها إرشادٌ إلى التَّحذير مِن التَّمثُّل بهذه الصِّفة المذمومة، وما تُفضي إليه مِن الخُسران.

كما اصطُفيت كلمة (الصَّد) في ذمِّ الصِّفة التي نُهِيَ المؤمنون عن مماثلة الكفَّار والمنافقين فيها في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ واصطُفي الصدُّ على المَنْع؛ لأنَّ الصدَّ هو المنع عن قصْد الشيءِ خاصّةً بأنْ تكون له قوةٌ يقصد بها أنْ يحول بينه وبين الشيء، أمَّا المنْع فهو ما ليس له قصدٌ كالحائط فإنَّه يَمنع[1]، وله اعتبارٌ آخر، وهو أنَّ المنع ما يتعذَّر معَه الفعْل، والصدُّ ما يدعو إلى الترْك[2]. واصطفاء كلمة الصدِّ فيها دلالةٌ على أنَّ ذلك الفعل منهم كان عَنَتًا وتَحَدِّيًا، فينعكس في النَّفس التَّحذير مِن مماثلة أولئك في تماديهم في الباطل.

ونلحظ اصطفاء كلمة ﴿سَبِيلِ﴾ وهو الطَّريق السَّهل، وجاء التَّعبير بالسَّبيل ولم يأت بالطَّريق؛ لكون السبيل يكثر استعماله في الخير[3] كما أنَّنا نلحظ في معنى السبيل الامتداد، يقول ابن فارس: "السين والباء واللام أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إرسال شيءٍ من عُلوٍّ إلى سُفلٍ، وعلى امتداد شيءٍ"[4] ونلحظ في الطَّريق معنى الطرَق بالأرجُل، وهو يدلُّ على كثْرة السائرين، فاصطفاء السَّبيل الدَّال على الامتداد، واختياره من بين المقاربات الدَّلالية كالطَّريق الدَّال على كثْرة الطَّارقين فيه معلمٌ من معالم التَّثقيف، وهو أنَّ السَّير إلى الله ﷻ ممتدٌّ، وقليلٌ أهله، فعلى المؤمن أنْ يجتهد في السَّير في هذا السَّبيل وإنْ طال المسير، وقلَّ السائرون.

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: (١٣٠).

(٢) ينظر: تفسير التبيان لمحمد بن الحسن الطوسي: (٥/ ١٣٤)، تحقيق وتصحيح: أحمد حبيب العاملي، نشر- مكتبة الأمين، النجف، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(٣) ينظر: الفروق اللغوية (٣٣٤).

(٤) معجم المقاييس في اللغة : (سبل).

وللصُّورة المنفِّرة التي يقوم بها انتقاء الكلمة المصوِّرة أثرها في التَّنفير مِن عاقبة اتِّباع الهوى والشَّيطان، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨] اصطُفيت كلمة ﴿نَكَصَ﴾، والنُّكوص الإحجام عن الشيء، يقول ابنُ فارس: "النُّون والكاف والصَّاد كلمةٌ. يُقال: نَكَصَ على عَقبَيه، إذا أَحْجَمَ عن الشَّيءِ خوفًا وجُبنًا. قال ابن دُريد: نكَصَ على عَقِبيه: رَجَع عمّا كان عليه من خَيرٍ؛ لا يقال ذلك إلَّا في الرُّجوع عن الخَيْر"[١] والذي نلحظه هُنا في الاستعمال أمرين:

١- تضمُّن دلالة النُّكوص لمعنى الجُبْن والخوْف، وهو ما جَعَل اصطفاء هذه الدَّلالة على الرُّجوع والارتداد ونحوه.

٢- استعماله في الرُّجوع عن الخيْر، وتوجُّه دلالته إلى الذَّم.

ولهذا الاختيار أثره في النَّفس إذْ يُصوِّر الموقف في صورةٍ مذمومةٍ للنَّفس كيْ تُنفِّرها مِن سوء العاقبة، كما أنَّ في التَّعبير بالنُّكوص الدَّال على التَّقهْقُر تصويرًا لضعف الشَّيطان، بعد أنْ وَعَدَهم أنْ يكون مُجيرًا لهم مِن النَّاس، ففيه التَّحذير مِن اتِّباع كيده، وتصديق وسواسه؛ لأنَّه على هذه الصِّفة مِن الجُبْن والخوْف.

ويكشف اختيار الكلمة التَّصورات التي يعتنقها المنافقون، ليدلَّ على فساد المعتقد والتخبُّط، ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٤٩] اصطفيت كلمة ﴿غَرَّ﴾، يقول ابن منظور: "غرّه يغُرُّه غَرًّا وغُرورًا وغِرّة الأخيرة عن اللحياني فهو مَغرورٌ وغريرٌ خَدَعَه"[٢] ولاشكَّ أنَّ تفسيره الغرَّ بالخِداع مِن باب تقريب المعنى وإلَّا

(١) معجم المقاييس في اللغة: (نكص).

(٢) لسان العرب: (غرر).

فبيْن الغرِّ والخداع فرْقٌ في المعنى. يتبيَّن ذلك من اصطفاء غرَّ على خَدَع، والكلمة جاءت في سياق عرض مقالة المنافقين، فهي تكْشف عن النُّفوس المريضة التي صَدَر عنها التَّصوُّر، والفرْق بين غرَّ وخَدَع أنَّ غرَّ يدلُّ على إيهامٍ يحمل الإنسان على فعل ما يضرُّ، وهو هُنا القتال في سبيل الله مع كثْرة العَدَد والعُدَّة في جيش العدوِّ، بينما الخداع هو ستْر الحقيقة والصَّواب الذي يدفع بالإنسان إلى الوقوع في المكروه[1]. ومِن هُنا فمناط الفرق في درجة اليقين التي تستلزم الحمْل على فعل ما يضرُّ مِن جهةٍ، وعلى نوع الفعل المستلزم للإيهام، وهو فعلٌ ضارٌّ. وثمَّة فرقٌ آخر، فالخداع يَظهر فيه دلالةُ المخادِع وفطنته وذكاؤه بينما يُظهر الفعل غرَّ غفْلة المغرور[2]، فاصطفاء الكلمة يصوِّر بدقَّةٍ الاعتداد بالعدَّة والعَدَد في نفوس المنافقين، والمعايير الفاسدة، فكان في إبرازهم بهذا القُبح كشفٌ للحقيقة لتثبِّت أقدام المؤمنين على الطَّريق الصَّحيح مقابل اختلال التَّصورات والمقاييس.

كما اصطفيت كلمة (الدِّين) على الملَّة والشَّريعة؛ لأنَّ الدِّين يدلُّ على الطَّاعة والانقياد، مِن دانَ له يدين ديناً إذا انْقاد[3] فهو الألْيق بسياق الخروج للقتال والطَّاعة استجابةً لنداء الله، أمَّا الشَّريعة ففيها معنى الدَّلالة على الطَّريقة، ومنها سُمِّي الطَّريق إلى الماء شريعةً[4]، والملَّة تتضمَّن معنى الدَّعوة إلى الشيء[5]. والمعنى الذي يفيده اصطفاء هذه الكلمة هو الاعتراف بمسارعة تلك الفئة المؤمنة إلى الانقياد والطَّاعة، ولو كان في تصوُّرهم خداعًا فهو ثناءٌ عليهم مِن حيثُ أرادوا النَّيْل منهم.

وفي سياق الوعيد والتَّهديد بما ينتظر الكفَّار والمنافقين ساعة الموت يقول

(١) ينظر: الفروق اللغوية: (٢٨٩).

(٢) ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: (٢٣٤).

(٣) ينظر: معجم المقاييس في اللغة: (دين).

(٤) ينظر: الفروق اللغوية: (٢٤٩).

(٥) ينظر: الكليات: (٤٤٢).

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] فاصطُفي الفعل ﴿يَتَوَفَّى﴾، وأصْل الوفاة من استيفاء المرءِ مدَّته وأيامه وشهوره[١]، فالمعنى الملاحظ فيه انْتهاء المُهلة والزَّمن، وفي ذلك السِّياق يكون استيفاؤه بما ذُكِرَ مِن ضَرْب ما أقْبَلَ منه وما أَدْبَر، فالمعنى المشار إليه الالتفات إلى توْقيت ذلك العذاب باستيفاء المدَّة؛ ولذلك جاء التَّعبير (يتوفَّى) ولم يأت (تقتل)؛ لأنَّ المعنى الذي يشير إليه القتل انتقاض البُنية وإيقاف الحركة بفعلٍ. ولم يأتِ التَّعبير بالإماتة؛ لأنَّ المعنى الذي يشير إليه فصْل الرُّوح عن الجَسَد.

ولاصطفاء الكلمة أثرها التَّثقيفيُّ على النَّفس، فهي تنبِّه الإنسان إلى أنَّ حياته معدودة الأيَّام، كلَّما انْقَضَت ساعةٌ منها اقْتَرَب مِن ميعاد الاستيْفاء، فحريٌّ به أنْ يُعدَّ لهذه السَّاعة عدَّتها.

واصطُفيت في سياق التَّهديد كذلك كلمة ﴿ٱلْحَرِيقِ﴾ على وزن فعيل بمعنى مُفْعِل، أيْ: مُحْرِق[٢]، وهي "تفريق الأجسام الكبيرة العظيمة بالنَّار العظيمة"[٣] وهي في سياقها تفْسيرٌ للعذاب، فهي إضافةٌ بيانيَّةٌ، والأثر الذي يغرسه اختيار الكلمة واصطفاؤها التَّحذير من العذاب بذكْر ما يُنفِّر من صفاتها، وما يُوقع الرَّهبة في القلوب، فَلَمْ تُذْكر النَّار في هذا السِّياق لأنَّه اسمٌ لها يدلُّ على جنْسها، والحريق يدلُّ على أثرها فيعْظُم التَّحذير به.

وفي سياق التَّهديد والوعيد يُذكِّر الله ﷻ أهل الكفر والنفاق بما حلَّ بالأمم السابقة من العقاب، واصطفي في هذا السِّياق كلمة(الأخذ) في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٥٢]، والأخْذ في أصله ضدُّ الإعطاء، وهو التَّناول، واستُعمل الأخْذ في

(١) ينظر: لسان العرب (وفى).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ١٣٠).

(٣) ينظر: تفسير التبيان: (٥/ ١٣٨).

العقاب والهلاك، واصطفاء الأخْذ على الإهلاك لما يدلُّ عليه التَّناول من السُّهولة، فالدَّلالة التي يُشار إليها في الأخْذ تدلُّ على سهولته ويسْره. ولهذا أثره التَّثقيفيُّ في النَّفس فهو يُشير إلى كمال قدْرته ﷻ، وعظيم قوَّته وقهْره، وأنَّ العذاب الشَّديد في أمْره يسيرٌ، فهو تحْذيرٌ لكلِّ قويٍّ مُعْتَدٍّ بقوَّته.

وقد يكون مناط التّثقيف النَّفسيِّ في اختيار مادة الكلمة آتٍ من انفتاح دلالة الكلمة مقارنة بالمقارِبات الدَّلالية، ففي سياق الحثِّ على الجدِّ في العمل، الممزوج بالعتاب اصطفيت كلمة ﴿يُثْخِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧]، وأصلُه مِن الثَّخانة وهي الكثافة والغلاظة(١) والثِّقل، وقال النَّحاس: " الإثْخان في اللغة القوَّة والشِّدَّة "(٢) ثمَّ استُعمل في القتْل، ولكنَّ اصطفاء الإثْخان على القتل يعود إلى نكْتتين: أنَّ الإثخان هو كثْرةُ القتْل والمبالغة فيه، فمزيَّة هذه الدَّلالة عن دَّلالة القتْل تعود إلى قصْد المبالغة والكثرة التي يتحقَّق بها انكسار شوْكة العدوِّ، والنُّكتة الثَّانية أنَّ دلالة الإثْخان أكثر انفتاحًا مِن دلالة القتْل فقدْ يحصل الإثخان بالإرهاق والمشقَّة، وهذا التَّوجيه لشُمول الدَّلالة نظرًا إلى تحقُّق مقصديَّة الإثْخان في الأرض وهو التمكُّن والسَّيْطرة وكسْر الشَّوْكة. وعليه فالمعلم التَّثقيفيُّ الذي يغرسه اصطفاء الكلمة الجديَّةُ في العمل لهذه الغاية وهو تحقيق التَّمكين في الأرْض، فالقتل في ذاته ليس غايةً، بلْ وسيلةً لإرهاب النُّفوس الباغية، وكسرًا لشوْكة العدوِّ.

وفي سياق العتاب على أمْر المفاداة في شأن الأسرى، ومعاتبة المؤمنين جاء اصطفاء كلمة (المسِّ) في قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٨]، والمسُّ في أصله " جسُّ الشَّيء باليد"(٣)، والمسُّ يختلف عن اللمس

(١) ينظر: أساس البلاغة: (ثخن).

(٢) معاني القرآن: (٣/ ١٧٠).

(٣) معجم المقاييس في اللغة: (مس).

في دلالته على السُّرعة والخفَّة؛ لأنَّ الفرْق بين اللمْس والمسِّ أنَّ اللمْس اللصوق مع الإحساس، فيُعرف به البُرودة مِن الحرارة، واللين مِن الخُشونة. أمَّا المسُّ فهو اللصوق فقط؛ ولذلك يكون باليد وبالحَجَر[(١)]، ولأنَّ اللمس يكون مع الطَّلب[(٢)] فيكون تأثيره ومكثه أكثر. وعليه فاصطفاء المسِّ على اللمس له أثره في المعنى والنَّفس، أمَّا أثره في المعنى فلكي يدلَّ على أنَّ القليل من عذابه عظيمٌ، فإذا وُصِفَ المسُّ بأنَّه عظيمٌ فكيف بما هو أشدُّ!. أمَّا أثره في النَّفس فالاصطفاء فيه تحذيرٌ للمؤمنين أنْ يعودوا لمثله، وترهيبٌ مِن شدَّة عذابه.

وفي سياق التَّهديد والوعيد للكفَّار في غزوة بدرٍ، وتبيان الغاية من القتال جاء اصطفاء كلمة ﴿خَآئِبِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ﴾[آل عمران:١٢٧]، والخيْبة فوات الطَّلب[(٣)]، واصطفيت كلمة الخَيْبة على اليأس؛ لأنَّ الخيْبة تكون بعْد الأمل، واليأس قد يكون قبْله[(٤)]، ووصفهم بفوات المطلوب مع أملهم أكثر تحْسيرًا في النُّفوس، وبهذا تتحقَّق الإهانة النَّفسيَّة لأعداء الله.

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: (٣٣٨).

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (لمس).

(٣) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (خاب).

(٤) ينظر: النكت والعيون: (١/ ٤٢٢).

المبْحثُ الثَّاني: أثر اختيار هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

يتحقق التَّثقيف النَّفسيُّ من خلال اختيار هيئة الكلمة بصيغتها واشتقاقها وإفرادها أو جمعها، وتعريفها أو تنكيرها، وغير ذلك من الوجوه والخصائص التي يكون مناط الدَّلالة فيها عائدًا إلى بِنيَة الكلمة وهيئتها.

دلالات صِيَغ[1] الكلمة:

تتنوَّع دلالات الصِّيغ لتدلَّ على معانٍ يؤازرها السِّياق، ولكنَّ مناط الدَّلالة يكون عائدًا إلى الصِّيغة، ففي سياق ذكْر المنن التي تنزَّلت على عباد الله المؤمنين؛ إنجازًا لنصرة المتوكِّلين على الله ﷻ بنزول الماء، جاء اصطفاء كلمة (يُنَزِّل) بصيغة (فَعَّل) في قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ ﴾[الأنفال:١١] دلالةً على المبالغة والكثرة، وفيه دلالةُ الاهتمام بهذا الماء؛ لأنَّهم استطاعوا أنْ يغْتسلوا منه، وأنْ يشربوا، ولَبَّد الأرضَ مِنْ تحتهم، وجعله متماسكًا ليُثبِّت أقدامهم.. يقول الدكتور فاضل السامرائي: "والذي يبدو أنَّ استعمال (نَزَّل) قدْ يكون للتَّدرُّج والتَّكْثير، وقدْ يكون للاهتمام والمبالغة، كما في أَوْصَى ووَصَّى، فالتَّنزيل قدْ يُستعمل فيما هَوَ أهمُّ وأَبْلغ مِن الإنْزال"[2] وفي هذا إشعارٌ بمدى العناية الإلهيَّة التي أحاطت بعباده، واللطائف الربَّانيَّة التي شملتهم؛ ليعلموا أنَّ الله ﷻ لَمَّا عَلِم صدْق توكُّلهم، وهو العليم بهم،

---

(١) يقصد بالصيغ: الهيئة الحاصلة من ترتيب الحروف وحركاتها، وتدلُّ على معنى وظيفيّ تتسم بالقالبية فينسج على منوالها. ينظر: الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم " دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة" للدكتور عبد الحميد هنداوي: (١٨ و ٢٥ و ٢٦) نشر المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: (٦٤)، نشر دار عمار، عمان، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

نصرهم بمننه؛ ليُقبلوا عليه.

وتظهر دلالة التّكرار في الأمر من صيغة (فعَّل) كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال:٦٥] في سياقٍ يعد الله ﷻ فيه المؤمنين لمواجهة العدوِّ، مع مناصرتهم بالقوَّة والمدد، فاصطُفي الفعل ﴿حَرِّضِ﴾ من حَرَّضه يُحَرِّضُه تَحْرِيضًا، والحَرَضُ المُقارب للهلاك[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴾ [يوسف:٨٥]، فالتَّحريض المبالغةُ في تزيين الشَّيء حتَّى يُعلم أنَّه حارضٌ إنْ تخلَّف عنه، فيكون تحريضه إزالةَ الحَرَضِ عنه مثل مرَّضتُه[2] ونَقَل البقاعيُّ عن الرُّمانيِّ قوله: "والتَّحريض: الدُّعاء الوكيد لتحْريك النَّفس على أمْرٍ مِن الأُمور، والحثُّ والتَّحريض والتَّحضيض نظائر، ونقيضه التَّقسير، والتَّحريض ترغيبٌ في الفعل بما يَبعث على المبادرة إليه مع الصبر عليه"[3] وممَّا سَبَق يمكن أنْ نسْتنتج:

١- مِن لوازم معنى التَّحريض المبالغة والتَّأكيد.

٢- التَّحريض فعْلٌ يتعلَّق بإثارة النَّفس وإحمائها بالحثِّ والتَّحضيض.

٣- التَّحريض فعلٌ يقوم على الصَّبر والمُداومة.

وصيغة (فَعَّل) بتضعيف عينه يدلُّ على الحاجة إلى الشِّدَّة والمصابرة، كما أنَّ التَّكوين الصَّوتيَّ للكلمة يدلُّ على حاجته للظُّهور والتِّكرار، فالحاء صوتٌ يَخْرج مِن وسط الحلْق، والرَّاء حرْفٌ يتكرَّر صوتُه، والضَّاد مِن حافتي اللسان، وله صفة الجهْر. كما نلحظ دلالة الإلهاب والتَّهييج. فالتَّحريض " تحضيضٌ وإلهابٌ يستولي على النَّفس حتَّى لا تكاد تَجِد شفاءها ورضاها إلَّا في إمضاء ما دَعَت إليه "[4]

---

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس: (٣/ ١٦٨ و ١٦٩).

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (حرض).

(٣) نظم الدرر: (٣/ ٢٣٩).

(٤) في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٤٥٩).

واصطفاء هذه الكلمة بدلالتها وصيغتها يغرس في النَّفس مدى الحاجة إلى هذا المستوى مِن الإعداد النَّفسيِّ، ومستلزمات هذا الإعداد مِن الصَّبر والثَّبات والمُداومة، كما يعكس في النَّفس جدِّيَّة قضيَّة المعتقد، وأنَّ إحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل يرتبط بتمكُّن تلك الغاية في النُّفوس.

وقد تدلُّ الصيغة على السُّرعة؛ لشدَّة الحاجة إليها، وهو ما نلمسه في اصطفاء صيغة (أفْعَل) في الفعل (أنزل) في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١] في سياقٍ يدلُّ وجه المنَّة فيه على السُّرعة دون تدريجه فتحقَّق باصطفائه الدَّلالة على أنَّ هذا الإنزال كان سريعًا، جملةً واحدةً، يتحقق به التَّفريج عن المسلمين، وطمأنة قلوبهم(١)،وفي هذا لطف بعباده وترغيبٌ بأنْ يعلِّقوا حاجاتهم به ﷻ.

وفي سياق النَّهي عن التولِّي والفرار من أرض المعركة استُثني مَن كان مائلا إلى جهةٍ ليكُرَّ بعدها على العدوِّ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٦] واصطُفيت كلمة ﴿مُتَحَرِّفًا﴾ اسم فاعل من (تحَرَّف) على وزن (تَفَعَّل)، ومادة (تفعَّل) لها ارتباطٌ دلاليٌّ وثيقٌ بمادَّة (فَعَّل)، فالكلمة ببنيتها دالَّةٌ على التَّكلُّف والجُهد في إتيان الفعل، وفيه معْلم تثقيفيٌّ وهو أنَّ الميْل لا يكون ميْل انْكسارٍ وهزيمةٍ، بلْ ميْلًا مبنيًّا على العَزْم والكرِّ بعد المخاتلة.

أثر القراءات في تعدُّد الدَّلالات:

قد يتبع تعدُّدَ القراءات تعدُّدٌ في الدَّلالة؛ لأنَّ اختلاف المباني يتبعه اختلافٌ في المعاني ما لَمْ يكن اختلاف القراءات عائدًا إلى اختلافِ اللهجات(٢)، فتؤدِّي القراءة

(١) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢١٩).

(٢) ينظر: التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية للدكتور أحمد سعد محمد: (٣٦ و ٧١)، نشر مكتبة الآداب، =

وجْهًا زائدًا في المعنى عن أصله، فيختلف الأثر التَّثقيفي تبعًا لذلك، ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩] يذْكُر الله ﷻ في هذا السِّياق إنجازَ وعده بمددٍ مِن الملائكة مردِفين. وكلمة ﴿مُرْدِفِينَ﴾ بكسْر الدَّال على أنَّها اسمُ فاعلٍ. ومعنى الإرداف يحتمل أَحَد معنيين، إمَّا أنْ يكون بمعنى الاتِّباع أو الإلحاق(١)، وعلى المعنى الأول يكون بمعنى متتابعِين، أيْ: هؤلاء الألف متتابعين، أو أنْ يكون هؤلاء الألف يتبعُهم غيرُهم، وهو الأعلى لما جاء في الآيات الأخرى. أوْ أنْ يكون بمعنى الإلحاق، أي: أنَّ كلَّ ملَكٍ معه رِدْفُه مِن الملائكة، أي: مردفين أمثالهم بحذْف المفعول(٢). ويكون أثره النَّفسيُّ آتٍ مِن جهة استشعار عظم هذا المدد وكثرته، فتطمئنُّ به النُّفوس.

وقرأ نافع بفتْح الدَّال(٣) على أنَّه اسمُ مفعولٍ، أي: فُعِل بهم(٤)، فيكون الفعلُ مُسندًا إلى الله ﷻ، ويكون في قراءة الكسْر مسندًا إلى الملائكة. وجهة أثره آتيةٌ من استشعار تدبيره المشار إليه ببناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله، وأنّه قريبٌ منهم، مستجيبٌ لاستغاثتهم. وفي كلا القراءتين ترغيبٌ بذكر مننه وفضائله.

وفي سياق آيات الغزوة في موضعٍ آخر يذكر المولى ﷻ وصفًا آخر لهذا المدد، يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ

= القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٥).

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري: (١/ ٤٥٧)، تحقيق: مركز البحوث والدراسات في دار الفكر، نشر دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٤٢٥ - ١٤٢٦ هـ/ ٢٠٠٥م.

(٣) ينظر: التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني: (٢٩٨)، تحقيق: د. حاتم الضامن، نشر مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٤) ينظر: معاني القرآن لأبي زكريا الفراء (١/ ٤٠٤)، تحقيق: محمد علي النجار ومحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، لبنان - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، وجامع البيان: (١٣/ ٤١٦).

مُنزَلِينَ ﴾ [آل عمران:١٢٤] فوصفوا بقوله: ﴿مُنزَلِينَ ﴾ وقرأ ابن عامر بتشديد الزَّاي[١]، فمَن قَرَأ: ﴿مُنزَلِينَ ﴾ فمِن أَنْزَل، ومَنْ قَرَأ (مُنَزَّلِين) بتشديد الزَّاي فمِن نَزَّل لتكْرارِ الفعْل ومُداومته[٢].

وهذا التّكرار من الممكن أنْ يكون على سبيل التَّكثير أو على سبيل التَّدرُّج[٣] فتنْزل الملائكة على أفواج، وفي اصطفاء كلمة الإنْزال دلالةٌ على أهميَّة المُهمَّة؛ لأنَّ الله ﷻ أنْزل لها مِن عنده جندًا؛ لتنفيذ أوامره، فالوصْف هُنا يؤدِّي أثره النَّفسيَّ- في تسكين قلوب المؤمنين، كما أنَّ له أثرًا آخر وهو"إلقاء المهابة على هذا المَدَد بكوْنه غير عاديٍّ ولا مألوفٍ، بل هو مَدَدٌ له مكانته وقيمته، ممَّا يجعل المْدودين به في ثِقَةٍ وأمانٍ مِن أيِّ عدوٍّ كان"[٤] واستشعار المؤمنين لهذه المنَّة ممَّا يزيدهم قرْبًا من الله ﷻ؛ شكرًا له، وعرفانًا بفضله عليهم.

كما وصفهم الله ﷻ في قوله: ﴿ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] فجاء وصف الملائكة بقوله: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ هذه قراءة ابن كثير وأبو عمرو وعاصم بكسر الواو[٥]. والسيماء والسيمياء العلامة[٦]، وهو منه، سَوَّمت الملائكةُ نفسَها أو سُوِّمَت، أيْ: وضعت علامةً للحرب، فهي اسم فاعل من (سَوَّم)، فالملائكة سوَّمت أنفسَها بتمكين الله ﷻ

(١) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٤).

(٢) ينظر: الحجة في القراءات السبع لابن خالويه: (١١٣)، تحقيق: الدكتور عبد العال مكرم، نشر دار الشروق، بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(٣) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٢٦٠).

(٤) النظم القرآني في آيات الجهاد للدكتور ناصر الخنين: (١٠٦)، نشر مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٦م.

(٥) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٤).

(٦) ينظر: لسان العرب: (سوم).

لها تقرُّبًا إليه "وهي إذا كانت موصوفةً بتسويمها أنفسهَا تقرُّبًا منها إلى ربها، كان أبلغ في مدحها؛ لاختيارها طاعة الله، من أن تكون موصوفةً بأنَّ ذلك مفعولٌ بها"[1]، فإذا كانت الملائكة سوَّمت أنفسَها إظهارًا لطاعة الله، فحريٌّ بالمؤمنين أنْ يُظهروا صدْق توكُّلهم عليه.

وقَرَأ البقيَّة بفتح الواو[2]، فيكون اسمَ مفعولٍ مِن (سوَّم) فالتَّسويم مِن الله ﷻ بهم، وفي تسويم الله ﷻ لهم إشعارٌ بمنة الله بتسويمها لكم، وفي ذلك إشارةٌ إلى فضيلة الملائكة الذين كرَّمهم الله ﷻ بالتَّسويم لنُصرة عباده، كما أنَّ فيها بشارةً نفسيَّةً للمؤمنين بأنَّ الله أمدَّكم بملائكة سوَّمها لكم لتنْصركم.

وقد تَرِد القراءات على صيغٍ مختلفةٍ، فتتنوَّع الصُّور باختلاف القراءة، ففي قوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ ﴾ [الأنفال:١١] اصطفيت كلمة ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ وأصله من غَشَّى بمعنى غَطَّى وسَتَرَ[3]، والفاعل الله ﷻ، ونلحظ كيف أنَّ الغَيْن برخاوتها والشِّين مِن حروف التَّفشِّي- وامتلاء الفَمِ بنطقها يحاكي حركة التَّمدُّد والانْتشار، وجاء التَّضعيف على الشِّين ليُفيد المبالغة في هذا القدْر مِن الغَشَيان[4]، وقرأ نافع (يُغْشِيْكُمُ)[5]، وأصله مِنْ أَغْشَى، وقيل أنَّ غَشَّى وأغْشَى بمعنى واحدٍ[6]، ويمكن القول أنَّ الفرق بين غَشَّى وأغْشَى عائدٌ إلى صورتين مِن التَّخييل، الصورة الأولى هي صورةٌ حَرَكيَّةٌ لمنظرِ التَّغشية، وكيفيَّة نزوله شيئًا فشيئًا حتَّى غَشِيَ- المسلمين

(١) جامع البيان: (٧/ ١٨٥).

(٢) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٤).

(٣) ينظر: لسان العرب (غشا).

(٤) ينظر: بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي. : (٢/ ٩)، تحقيق: علي معوض، عادل الموجود، زكريا النوتي، دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٥) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٩٨).

(٦) ينظر مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٣٦).

كلِّهم، والآخر تخييلٌ لمنظر التَّغشية دون الخوْض في تفاصيل المنْظر بل على اعْتباره فعلًا نازلًا جُملةً، ويؤيِّد ذلك ما ذهب إليه الأصفهاني في التَّفريق بين نزّل وأنْزل[١]. وقرأ أبو عمرو وابن كثير (يَغْشاكُم).[٢] بإسناد الفاعل إلى النُّعاس مِن غَشِيَ، واختلاف صُوَر الغَشَيان تبعًا لاختلاف صِيَغ الكلمة يغرسُ في النَّفس استشعار اللطف الإلهيَّ في طمأنة نفوس المؤمنين بما أنزل عليهم من التَّغشية.

وفي سياق التَّهديد والوعيد اصطفيت كلمة﴿مُوهِنُ﴾في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:١٨]، وقُرأ الحرميَّان[٣] و أبو عمرو (مُوَهِّن) بفتح الواو وتشْديد الهاء وكسرها، مِن وَهَّن[٤] وقُرأ الباقون (مُوْهِن) مِن أَوْهَن، والوهن الضعف خلْقا أوخُلُقا.[٥] وصيغة فعّل تدلُّ على التَّكثير والمبالغة، وهذا التَّكثير يستغرق وقْتًا أطول، ويفيد التَّلبُّث والمُكوث[٦]، ويُفيد التَّدرُّج، فدلالة (وَهَّن) تدلُّ على استغراق التَّوهين وقتًا أطول، فيكون الإيذاء والتَّنكيل أكثر وأبلغ، ولهذا المعنى الْتَفَتَ ابنُ جريرٍ في ترْجيحه التَّشديد بقوله: "والتَّشديد في ذلك أَعْجبُ إليّ[٧]؛ لأنَّ الله تعالى كان ينقض ما يُبرمه المشركون لرسول الله ﷺ وأصحابه، عقدًا بعد عَقْدٍ، وشيئًا

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (نزل).

(٢) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٩٨).

(٣) المقصود بالحرميَّان في كتب القراءات نافع وابن كثير.

(٤) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٩٩)، والحجة في القراءات السبع: (١٧٠).

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (وهن).

(٦) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني: (٦٢).

(٧) ينبغي أن نشير إلى أن القراءتين توقيفيتان، وماكان كذلك فلا تفاضل بينهما، وأما قوله: (أعجب إليَّ) فإن معناه أعجب إلى نفسه، فهي قراءة تحمل إلى نفسه هو أعجب مما يفهم هو من القراءة الأخرى، وهذا حكم على نفسه متلقيا المعنى، وليس حكما على المعنى نفسه.

بعد شيءٍ، وإن كان الآخرُ وجهًا صحيحًا"[1] أمَّا صيغة أَفْعَل فإنَّها تدلُّ على إيقاع الوَهَن جُملةً واحدةً، والقضاء عليهم بكلمةٍ واحدةٍ، وبهذا كانت قراءة التَّشديد أكثر مبالغةً، وفي اصطفاء كلمة الوَهَن على الضَعْف مزيةٌ أخرى وهو أنَّ مَنْ تَتَبَّع كلمة الوَهَن في القرآن وَجَدَ أكثر وروده في ذِكْر القتال والحرْب[2]، وقدْ جاء في خمسة مواضع مِن تسعة تحمل معنى الانْكسار، كما أنَّها لا تَرِدُ إلَّا في موضعٍ يدلُّ على شدَّة الضَّعف؛ ولذلك كان التَّعبير به أكثر مبالغةً في إيقاع الانْكسار والهزيمة وإبْطال كيْد الكافرين، وقرأ حفص بضمِّ (مُوْهنُ) وكسر (كيدٍ) على الإضافة لِمَا ثَبت ومضى مِن الزَّمان وقرأ الباقون (مُوْهِنٌ) بالتَّنوين، ونصْب (كيدٍ) قصدَ الحال أوالاستقبال[3]. وفي اصطفاء الكلمة بصيغِها تثقيف للنَّفس بترهيبها مِن عقاب الله، وهو في قراءة التَّضعيف أكثر مبالغةً، وفيه تحذيرٌ لَمن يتمادى في غيِّه. واصطفاء الاسم على الفعل دالٌّ على ديمومة الوَهَن، وأنَّ كيد الكافرين مهما بَلَغَت صورة مكره في نفوس النَّاس فإنَّ الله موهنه.

ولاختلاف القراءات أثر في تنويع الدَّلالة لتأكيد المقصد الواحد، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال:44] اصطُفيت كلمة﴿تُرْجَعُ﴾، وقرأ ابن عامر وحمْزة والكسائيُّ وخلَفٌ ﴿تَرجِعُ﴾ بفتح حرْف المُضارعة وكسْر الجيم[4]، وعلى

---

(1) ينظر: جامع البيان: (13/ 450).

(2) من هذه المواضع قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:139] وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: 146]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:104]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد:35].

(3) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (299) والحجة في القراءات السبع: (170).

(4) ينظر: النشر في القراءات العشر لابن الجزري (2/ 209 و 276)، أشرف على تصحيحه ومراجعته: أ. =

هذه القراءة يكون المعنى أنَّ الأُمور بنفْسها تَرجع إلى الله ﷻ برجوع أسبابها[1]، وقَرأ نافعٌ وحفص بضمٍّ حرف المُضارعة وفتح الجيم، والمعنى أنَّ الله ﷻ يُرجعها إليه. وعلى القراءتين فالمعلم التَّثقيفي ترغيب العباد بإثبات مقاليد الأمر له، وإذا اطمأنَّ العبْد إلى أنَّ الأمور كلَّها مرجعُها إليه، كان ذلك أدْعى لثباته واستقراره، فهو المدبِّر الذي وَعَدَهم بالنَّصر والظَّفر.

أثر اصطفاء الكلمة المزيدة:

يصطفي السِّياق القرآنيُّ الكلمة المزيدة؛ لما تحدثه الزيادة في مبنى الكلمة من خصوصيةٍ في المعنى تكون مناط التَّثقيف النَّفسيِّ. ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩]

اصطُفيت كلمة (اسْتَجَاب) في سياق ذكر المنَّة بسرعة الإجابة والإقبال على عباده حين استغاثوا به. جاء التَّعبير بالاستجابة مؤكَّدًا زيادةً في الطمأنة، مراعيًا نفوس المؤمنين الذين كانوا في أشدِّ الحاجة إلى التَّثبيت، وإلى الإغاثة الربَّانيَّة، وهذا التَّأكيد مستفادٌ بدلالة زيادة المبْنى بالألف والسين والتاء، ففي استجاب زيادة أداءٍ على أجاب، هذه الزيادة البنيوية يقابلها زيادةٌ معنويةُ؛ ولذلك قال القونويُّ: "اختير اسْتجاب على أجاب؛ لأنَّه أخصُّ مِن أَجَاب؛ لأنَّ معنى أَجَاب إعطاءُ الجواب إمَّا بتحصيل المطلوب أو بدونه، وأمَّا استجاب فمختصٌّ بتحصيل المطلوب"[2] فوجه التَّأكيد تحصيل المطلوب، ومناط المبُالغة زيادة مبنى صيغة استجاب على أجاب، وقد ذَكَر ابن الحاجب أنَّ اسْتفعل قد تأتي بمعنى فَعَل نحو قرَّ واستقرَّ. قال الرَّضيُّ في

= علي محمد الضباع، نشر دار الكتب العملية، بيروت. دون ط. ت.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٢٩).

(٢) حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ٢٣).

شرحه لها: " قوله: " بمعنى فعل " نحو قرّ واستقرّ، ولا بد في استقرَّ مِن مبالغةٍ "[(١)] وهو يعكس في النَّفس إقبال الله ﷻ على عباده، كما تعكس المبالغة حجم المنَّة التي تلطَّف الله بها على المؤمنين؛ ليشعرهم بالأمن والطمأنينة، وذلك ترغيبٌ منه ﷻ لعباده لنصرة الحق والثبات وتفويض الأمر إليه.

وفي سياق التَّذكير بكفاية الله ﷻ لنبيه وعباده يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤]. اصطُفي التَّعبير بالفعل (اتَّبَعك) على الفعل (تَبِعَك)؛ لاختلاف مستوى الدَّلالة في التَّعبيرين، إذْ نلحظ أنَّ الفعل (اتَّبع) مزيدٌ بالهمزة والتَّضعيف، والزِّيادة في البناء تدلُّ على الزِّيادة في المعنى، فالمعنى في اتَّبعك يدلُّ على معنى تَبِعَ مع زيادةٍ في الاقْتداء والطَّاعة، واتَّبع على وزن (افْتَعل) وهو دالٌّ على المكابدة والاجتهاد في التَّحصيل[(٢)]، وعليه فالمعنى التَّثقيفيَّ الذي يغرسه اصطفاء الكلمة في النُّفوس هو التَّرغيب في شدَّة التَّمسُّك وبذْل الجُهد في طاعة النَّبي ﷺ الموصلة إلى طاعة الله ﷻ؛ لينال المؤمن كفاية الله ﷻ الدَّالة على رضاه ومحبَّته.

وفي سياق تفصيل القسمة، وتعليق الإيمان بتحقيق القسمة، سمّى الله ﷻ يوم بدر بيوم الفرقان في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال:٤١]. فاصطُفيت كلمة﴿ٱلۡفُرۡقَانِ﴾ وهو اليوم الذي فرّق الله فيه بين الحقِّ والباطل، فأظهر الحقَّ، وهَزَم الباطل. والفرقان أبلغ مِن الفَرْق؛ لأنَّ الفُرقان مستعملٌ في التَّفريق بين الحقِّ والباطل،

---

(١) شرح شافية ابن الحاجب: (١/ ١١١)، تحقيق: محمد نور الحسن ومحمد الزفزاف ومحمد محي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(٢) يقول الرضي في شرح معنى التصرف من معاني صيغة (افتعل) " أي: الاجتهاد والاضطراب في تحصيل معنى الفعل ". شرح شافية ابن الحاجب: (١/ ١١٠) كما يفيد التجدد والتكلف في تحصيل معنى الفعل. ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: (٤١٩).

أمَّا الفرْق فمستعملٌ فيه ومستعمل في غيره[1]، فكان لخصوصيَّته بالمعنى أبلغ، ولأنَّ زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى. ولفظ الفرقان في موقعه عظيم الدَّلالة، عميق الأثر؛ لأنَّ المعركة كانت حدًّا فاصلًا فارِقًا بين الحقِّ والباطل، وكانت فرقانًا بين القدرة الإلهيَّة، والتَّدبير الربَّانيِّ، وبين الأهواء والطَّواغيت، كما كانت فرقانًا بين تاريخ الصَّبر والمصابرة والتَّجمُّع والانْتظار، وتاريخ القوَّة والانْدفاع، وكانت فرقانًا في تاريخ البشريَّة، انْطلقت منه إلى مجتمع جديدٍ يقوم على أساسٍ متينٍ مِن العدْل والقِيَم، كما كانت فرقانًا بين تصوُّرين تصوُّرٌ لعوامل النَّصر الظَّاهريَّة التي كانت تبدو للمشركين، وعوامل الهزيمة الظَّاهريَّة للمؤمنين، وبين الأُسس الصَّحيحة، والتَّدابير الغيْبيَّة التي تنتصر فيها العقيدة الرَّاسخة[2]، فكلمة الفرقان في هذا السِّياق كلمةٌ جوهريَّةٌ تُلقي بظلالها على السِّياق كلِّه، مِن أوَّل السُّورة حتَّى آخرها؛ لأنَّ السُّورة كانت تكْشف المفارقة الشَّاسعة بين الكفْر والإيمان، وبين مَن فوَّض أموره إلى الخالق ﷻ، وبين مَن حارب الله ورسوله ﷺ، وبين مَن أيَّده الله بنصره، وأمدَّه بجنده، وبين مَن أوْهن اللهُ كيده.

أثر التَّعبير بالمصْدر:

في سياق الامتنان على المؤمنين بإنزال النعاس الذي غشي الأرواح والأبدان اصطفيت كلمة ﴿أَمَنَةً﴾ في إيضاح العلّة في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ [الأنفال:١١]، وجاء اصطفاء المصْدر (أَمَنَة) بتتابع الحركات مبالغةً في وجود الأمان، فهو أمانٌ مِن الله ﷻ. ويجري مع الأَمَنَة معاني التَّكثير والمبالغة. قال أبو حيان: "وفرَّق آخرون فقالوا: الأَمَنَة تكون مع بقاء أسباب الخوف، والأَمْن يكون مع زوال أسْبابه"[3] فدلَّ هذا على أنَّ في الأَمَنَة مبالغةً؛ لأنَّ الشُّعور بالأمْن مع بقاء مايُهدِّده دليلٌ على

(١) ينظر: الكليات: (٦٩٥).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٢١ - ١٥٢٤).

(٣) البحر المحيط: (٣/ ٨٥).

تمكُّنه في القلوب، وأثره في النُّفوس.

وتوالي هذه الحركات يُصوِّر فيها حَرَكَة الأمْن وهي تغْشاهم مع النُّعاس شيئًا فشيئًا كأنَّها تتسرَّب إلى النَّفس، وهذا التَّوالي لا تلْمسه في (الأَمْن) بسكون الميم[(1)]، كما اصطُفي الاسم لثباته؛ لأنَّ الأمَنَة شعورٌ داخليٌّ ليس له صورةٌ حركيَّةٌ ولا مُستقرٌّ مكانيٌّ[(2)]. وفي المبالغة بما دلَّ عليه المصْدر إشعارٌ لعباده المؤمنين بما أظلَّهم به من واسع رحمته، وعظيم فضله، فكان سببًا في نصْرهم وثباتهم، ليرغِّبهم في فضل التَّوكل عليه.

ونلحظ كذلك اصطفاء المصدر (حَسْب) في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال:٦٤] في سياق الامتنان على النبي ﷺ والمؤمنين، وهو اسمٌ بمعنى كافٍ[(3)]، فهو مصْدرٌ في تأويل اسم الفاعل، واصطفاء المجيء بالمصْدر؛ لأنَّ التَّعبير بالمصْدر مسلوبٌ منه دلالة الزَّمن، فيتفرَّد المصْدر بمعنى الحَدَث، وهو ما يعني أنَّ المصْدر يحمل المعنى مركَّزًا، فإذا وُصِف به دلَّ على كثْرة الإتيان به[(4)]. وحَسْب اسمٌ، ومعلوم أنَّ الاسم دالٌّ على الثَّبات والدَّيمومة، وعليه فاصْطفاء التَّعبير بهذه الكلمة دالٌّ على شمول كفايته لنبيِّه ﷺ، وكفايته للمؤمنين حتَّى جاء التَّعبير بالكفاية في أبلغ معانيها؛ رحمةً بحالهم، وحمايةً لعباده الذين نصروا كلمته، وامتثلوا أمره، فيدلُّ التَّعبير على مُلازمة هذه الكفاية في كلِّ حال، فيكون سببًا لئلَّا يخشوا أحدًا غيره، فيصحُّ منهم التَّوكُّل عليه.

ويصطفي السِّياق القرآنيُّ التَّعبير بالمصْدر ليصوِّر موقفًا يُراد المبالغة في إبراز

---

(١) ينظر: سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل واحد، للدكتور عودة الله القيسي: (١٩٩)، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(٢) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٤٤٤).

(٣) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (حسب)، عمدة الحفاظ: (حسب).

(٤) ينظر: الخصائص لأبي الفتح ابن جني: (٣/ ٢٥٩)، تحقيق: محمد علي النجار، نشر دار الكتاب العربي، بيروت (مصورة عن دار الكتب المصرية).

صـورته، ففـي قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴾ [الأنفال:١٥]، اصطُفيت كلمة ﴿زَحْفًا﴾، وهـو مصْـدرٌ أصلـه مِـن زَحَـفَ إذا انْبعث مع جرِّ الرِّجْل، ومثلُه انْبعاث الصَّبيِّ، وكالعسْكر إذا كَثُر تعثَّر انْبعاثه[1]، فكأنَّهم لاحظوا فيه البُطْء والتَّعثُّر وثُقْل الحركة، وهو ناشئٌ عن كثْرتهم، كما أنَّ مِنْ إيحاءِ الكلمة الدُّنوَّ قليلًا قليلًا[2]. إذن فالكلمة عبَّرت بإيجازٍ عن الحجْم والحركة، فهو يُعبِّر عن الكثْرة في الحُجْم والثِّقل في الحركة، وهو تعبيرٌ تصويريٌّ يَقِف بنا على دقائق ذلك المنْظر المهيب، ثمَّ نلحظ اصطفاء المصْدر للتَّعبير عن الحال أي زاحفين، ولكنَّنا نجد الاصطفاء يسْلب مِن الصُّورة هيئات الفاعلين، ويُقيم في النَّفس الصُّورة العامَّة غير المُنْقطعة[3]، كما أنَّ في المصْدر مبالغةً في تجْسيد الصُّورة فكأنَّ تلك الحركة لا يُدرك فيها إلَّا الزَّحْف دون إدراكٍ لهيئة الزَّاحفين، يقول البقاعيُّ: "وعبَّر عن حال لقائهم بالمصْدر مبالغةً في التَّشبيه فقال: ﴿زَحْفًا﴾ أيْ حال كونهم زاحفين محارِبين، وهم مِن الكثْرة بحيثُ لا يُدرك مِن حَرَكتِهم - وإن كانت سريعةً - إلا مثْل الزَّحْف"[4]، والمُلاحظ أنَّ اصْطفاء الكلمة في الصُّورة يوقع أثره التَّثقيفي بالمبالغة في الصُّورة، فترتَّب الحُكْم على وَصَفٍ كهذا ليجعل ما دُونه يَدخل في حكمه دخولًا أوليًّا، فمقام التَّحذير جاء مُصطفيًا أعلى درجات المُواجهة ليكون ما دونه أولى.

ونلحظ كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ [الأنفال:٤٧] اصطفاء كلمة ﴿بَطَرًا﴾، والتَّعبير بالمصْدر يُفيد المبالغة، وكأنَّ صورة البَطَر تتمثَّل في الهيئة التي خرجوا عليها. فالمصْدر أكثر مبالغةً مِن التَّعبير بغيره مِن المشتقَّات لأنَّه "إذا وُصف بالمصْدر صار الموصوف كأنَّه في الحقيقة مخلوقٌ من ذلك

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (زحف).
(٢) ينظر: النكت والعيون: (٢/ ٣٠٢).
(٣) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٥٠٣).
(٤) نظم الدرر: (٣/ ١٩٥).

الفعل. وذلك لكثرة تعاطيه له، واعتياده إياه"[1] وكذلك الحال والخبر[2].

وعُبِّر كذلك بالمصدر (رِئاء)، مصْدرٌ للفعل رَاءَى فَاعَل مِن الرُّؤية، وصيغته للمُفاعلة أيْ يُرَي كلٌّ منهما الآخَر، والاعْتبار في ذلك أنَّ الفاعل يُريهم ليَكْسب ثناءَهم؛ ليُروه ثناءهم عليه[3]، فجهة الدَّلالة على المبالغة آتيةٌ مِن الوصْف بالمصدر وصيغة المُفاعلة. يقول ابن عاشور: " وصيغة المُفاعلة فيه مبالغةٌ، أيْ بالَغ في إراءةِ النَّاس عمله محبَّة أنْ يروه ليَفخر عليهم "[4]، كما اصطُفي لفظ الرِّياء؛ لأنَّه أقرب إلى إظهار الشَّيء بالرُّؤية وهو ما فعلوه عند خروجهم ليراهم النَّاس، وقدْ كَشَف القرآن الكريم الصِّفة المذمومة محذِّرًا المؤمنين مِن التَّمثُّل بهذه الصِّفات التي تُفضي إلى العُجْب والخُسران والهلاك.

واصطُفي المصدر(عبْد) في قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:41] على اسم الفاعل (عَابِد) في هذا الموضع للمبالغة في وصْف الرَّسول ﷺ بالعُبوديَّة؛ لأنَّه وصْفٌ غير مقْترنٍ بزمنٍ، فيحقِّق للمعنى الثَّبات الدَّائم، وعَدَم التَّفاوت، فعبوديَّته لله ﷻ تكون قد بَلَغَت الغاية. وقُرِئ (عُبُدنا) على أنَّه اسم جمْعٍ يُراد به الرَّسول ﷺ، ومَنْ مَعَه مِن المؤمنين[5].

أثر التّعبير بالاسْم أو الفِعْل:

يُستعمل الاسم في السِّياقات التي يراد الإشارة فيها إلى الثّبات والديمومة، ففي

(١) الخصائص: (٢/ ٢٠٢ و ٢٠٣).

(٢) ينظر: نظرات في الجملة العربية للدكتور كريم حسين الخالدي: (١٤٩)، نشر دار صفاء، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٣) ينظر: عمدة الحفاظ: (رأى).

(٤) التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٣).

(٥) ينظر: البحر المحيط: (٤/ . ٤٩٩).

سياق الامتنان على المؤمنين بإمدادهم بالملائكة التي أرسلها الله ﷻ لتحارب مع المؤمنين، وتسكِّن قلوبهم، اصطفيت كلمة (مُمِد) في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال:٩] مِن أَمَدَ، والإمداد مستعملٌ في المحبوب مع قصْر استعماله في سياق الحديث عن الإنْسان[1] كالوعْد الصَّادق في هذا المقام، ويُقصد به ما يقع به الإمدادُ في القتال، واصطُفي التَّعبير بالاسم؛ لدلالة الاسم على الاسْتمرار، فكأنَّ نزول الملائكة على نحوٍ متتابعٍ مستمرٍ؛ ولذلك جاء في سياقٍ آخر الزيادةُ في العدد إلى ثلاثة آلاف وخمسة آلاف[2]، وهو بهذا يظهر جانبا من جوانب الامتنان لعباده المؤمنين ترغيبًا للنُّفوس.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨] اصطُفي في سياق ذكر تزيين الشيطان لأوليائه كلمة﴿غَالِبَ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن غَلَب غلْبًا وغَلَبًا وغَلَبَةً، واصطفاء التَّعبير بالاسم على الفعل للدَّلالة على الثُّبوت، وأنَّ صِفَة الغَلَبَة صفةٌ قائمةٌ لا تزول، فلا يستطيع أَحَدٌ مواجهتهم، وأثر التَّعبير بهذا الاسم مِنْ حيثُ الدَّلالة والصِّياغة إدخالُ العُجْبِ في نفوس الكافرين، والتَّعالي على قدرة الله ﷻ، فأغراهم الشَّيطان بعدَدِهم وعُدَّتهم. والتَّعبير يكْشف عن حِيَل الشَّيطان في الكيْد والإغراء، فنبَّه به إلى التّحذير مِن تزْيينه ووسوسته.

ويُستعمل الفعل المضارع خاصة عندما يُراد تثقيف النَّفس بالإشارة إلى تكرر الشيء وتجدده، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن للدكتور عبد العظيم المطعني: (١٢٧)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ومفردات ألفاظ القرآن (مد).

(٢) قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰ ۚ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٤-١٢٥].

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:١٧] اصطفيت كلمة (يُبْلِي) لتدلَّ على أنَّ المؤمن مُعَرَّضٌ للبَلاء خيره وشره، بما يدلُّ عليه الفعل من التجدُّد، وأنَّ على المؤمن أنْ يَصبِر في الضَّرَّاء ويشكُر في السَّرَّاء؛ ولذلك كانت كلمة المؤمنين بعده جديرةٌ بأنْ تذكِّرهم بوقاره في القلوب، فيَظهر مقابل هذا الابْتلاء ما تُمليه عليهم قوَّة اليقين بالله ﷻ.

وفي المقابل في شأن أهل الكفر اصطفُي الفعل (يَصُدُّ) في قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[الأنفال:٤٧] في سياق النَّهي عن مشابهة أهل الكفر والنِّفاق في سوء صنيعهم واصطفاء التعبير بالفعل المضارع؛ لأنَّ البَطَرَ والرِّياء جبلَّتان لا تفاوت فيهما، بينما الصَّدُّ عن سبيل الله حادثٌ مسْتمرٌّ منْذُ أنْ دعاهم ﷺ(١). فهو يشير إلى الجِّد في الإعراض والطلب، ومحاولتهم المتكررة لصدِّ زحف هذا الدِّين، وتجدُّد حيلهم وأساليبهم، وفي هذا تنبيهٌ للمؤمنين لمواجهة تلك الحيل المتكرِّرة، والتَّيقُّظ لها.

أثر التَّعبير بالمفرد أو الجمع:

في سياق النّهي عن مشابهة الكفَّار والمنافقين الذين يصدون عن السَّبيل الموصل إلى الله ﷻ اصطفي التّعبير بالمفرد في كلمة ﴿سَبِيلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:٤٧] واصطفاء سبيلٍ دون سُبُل؛ لأنَّ الطُرُق الموصلة إلى الله ﷻ وإنْ اختلفت فأصلها يعود إلى سبيلٍ واحدٍ، كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ طريق الحق وإنْ كان واضحًا بيِّنًا إلَّا أنَّه عزيزٌ؛ لأنَّه حُفَّ بالمكاره، يقول ابن القيِّم: "... والمقصود أنَّ طريق الحقِّ واحدٌ، إذ مردُّه إلى الله الملك الحقِّ، وطُرُق الباطل متشعِّبةٌ متعدِّدةٌ، فإنَّها لا ترجع إلى شيءٍ موجودٍ. ولا غاية لها يوصل إليها بل هي بمنزلة بنيَّات الطَّريق، وطريق الحقِّ بمنزلة

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٧٩).

الطَّريق الموصل إلى المقصود، فهي وإنْ تنوَّعتْ، فأصْلها طريقٌ واحدٌ"[1]، وهذا يعْكس في النَّفس وجوب التزام هذا الطَّريق، وأنَّه مِن الوضوح بمكان. ويرى ابن عاشور أنَّ في سبيل الله استعارةٌ، حيْثُ شُبِّه الإسلام في إبلاغه إلى رضى الله ﷻ بالطَّريق الموصل إلى المُكْرِم[2].

في سياق الوعْد الإلهيِّ بنُصرة المؤمنين على العِيْر أو النَّفِير، وتقْديم الغاية الأسْمى لنُصرة الحقِّ، وأنَّها إرادة الله المتحقِّقة، اصطُفيت كلمة (كَلِمَات) في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [الأنفال:٧] وهي جمع مؤنَّثٍ سالمٍ دالٌّ على القِلَّة[3]، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ إرادة الله تكون بكلماتٍ قليلةٍ، لا يُعجزه شيءٌ[4] وهذه الكلمات إمَّا أنْ تكون أوامره إلى الملائكة المذكورة في الآيات، وإمَّا أنْ يكون ما سبق في الأَزَل[5].

وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع "بكلمته" بالإفْراد[6] فيكون مِن المفْرد المُراد به الجمْع، وذلك بأنْ يكون مِن جعْل الشيء المتعدِّد كالشيء الواحد[7]، أو أنْ يكون مِن

---

(١) بدائع الفوائد: (١/ ٢٠٩)، تحقيق: علي محمد العمران، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي نشر دار عالم الفوائد.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٣).

(٣) ذكر ذلك سيبويه في موضعين وأشار إلى أنه قد يراد به الكثرة. ينظر: الكتاب لسيبويه (٣/ ٤٩١ و ٥٧٨)، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، لبنان -بيروت، الطبعة الأولى.

(٤) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: (٤٧٩).

(٥) ينظر: المحرر الوجيز: (٨/ ١٨).

(٦) ينظر: الموضع السابق.

(٧) ينظر: روح المعاني: (٥/ ١٦١).

اسم الجنْس الذي يؤدِّي مؤدَّى الجمْع[(1)]، أوْ حمْله على أنَّها كلمة التَّكوين (كُنْ)[(2)]، وهو الأعلى كما وَرَدَت في مواضعَ أخرى[(3)].

وهو يغرس في النَّفس استشعار الجلال الإلهيِّ لله جلَّت قدرته، وعَظُم أمره، فإحقاق الحقِّ كائن بكلماتٍ قليلات يدَّبر بها الشؤون العظام. فإذا كان كذلك وَجَب على المؤمنين أن يفوِّضوا أمورهم إلى الله القدير.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الأنفال:٤٤] اصطُفيت كلمة (أَعْيُن) في سياق الامتنان على المؤمنين ساعة الالتحام بتقليل الأعداد، وأَعْيُن جمعُ قلَّةٍ، وفي اصطفاء جمع القلَّة فائدتان، أولهما أنَّ التَّقييد بهذا النَّوع مِن الجمْع جاء في حقِّ المؤمنين والكفار مع أنَّ العددَ يفوق القِلَّة في كلٍّ، ومع اختلاف العددين بفارقٍ كبيرٍ، ولعلَّ النُّكتة في ذلك أنَّ تقييده بالأعُين في حقِّ المؤمنين منظورٌ فيه إلى قلَّة المؤمنين مقابل عدد الكفَّار، فالاعتبار هُنا في المُقابلة، أمَّا تقييد الكفَّار بالأعيُن فهو مِن إنْزال الكثْرة موضع القِلَّة؛ لقلَّة البأس، وهو ما يتَّسق مع معنى الآية الكريمة المتقدِّمة. أمَّا الفائدة الثَّانية فالمنْهج القرآنيُّ في استخدام هذه الكلمة يصطفي الأعْين للبَاصرة، والعُيون جمع العين الجارية؛ لأنَّ مفردة عين مِن المشترك اللفظيِّ؛ لكي لا يكون لظلال الاشتراك اللفظيِّ

(١) ينظر: اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي: (٩/ ٤٥٨)تحقيق وتعليق: الشيخ عادل عبد الموجود وعلي معوَّض، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٦٤).

(٣) ورد في القرآن كثيرا كقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [البقرة:١١٧]، وقوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل:٤٠]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم:٣٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢].

أثرٌ في إبطاء وصول معناه(١). ففي التّعبير بجمع القلَّة أثره التهكميُّ في نفوس الكفَّار، والتَّهوين مِن قدْرهم وشأْنهم.

كما اصطفيت كلمة﴿ٱلْأُمُورُ﴾ في السِّياق ذاته، ونلحظ أنَّ الاسم جُمِع على صيغة (فُعُول)، وهي مِن جُموع الكثْرة، كما أنَّ التَّعريف هُنا يُفيد الاسْتغراق؛ ليشمل كلَّ الأُمُور، وبتعاضد هاتين الخصيصتين دلَّ على أنَّ كلَّ ما في الوجود فمردُّه ومرجعُه إلى الله ﷻ. وهو يعكس في النَّفس جلالة الحقِّ ﷻ، إشارةً إلى أنَّ على المؤمنين أن يبادروا إلى تفويض أمورهم إليه، وصدق التَّوكُّل عليه؛ لأن الله ﷻ بيده تدبير الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله.

وفي سياقٍ تفريعيٍّ عن السِّياق الرئيس لغزوة أحد، يذكر الله ﷻ بالنَّصر المؤزر في غزوة بدرٍ في معرض الحثِّ على التَّوكُّل حتَّى مع انحسار جزءٍ من الجيش آنذاك، فقال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[آل عمران:١٢٣] فنلحظ اصطفاء كلمة﴿أَذِلَّةٌ﴾ جمعُ ذليلٍ، والذُّلُّ نقيضُ العِزِّ، وجُمِع على أذلَّة، مِن أوْزان جمْع القِلَّة، والأصْل أنَّ يُجمع على أذلَّاء أوْ ذِلال؛ لأنَّ المسلمين كان يفوق عددهم ثلاثمائة رجُلٍ، ولكن عَدَلَ عن استعمال جمْع الكَثْرة في هذا السِّياق إلى جمْع القلَّة لنُكْتةٍ وهو أنَّ قلَّتهم منظورٌ فيها إلى حال أهل الإيمان مِن حيثُ العدد والعُدَّة مُقارنةً بأهل الكُفْر، يقولُ ابن جرير: "وإنَّما سمَّاهم الله ﷻ "أذلَّة"؛ لقلَّة عددهم؛ لأنَّهم كانوا ثلثمئة نفس وبضعةَ عَشَر، وعدوُّهم ما بين التسعمئة إلى الألْف... فجعلهم لقلَّة عددهم "أذلَّة""(٢). وعدَّها ابن عطيَّة مِن قَبيل استعارة المسْكنة لأصحاب السَّفينة في سُورة الكهْف(٣)، فإنَّه منظورٌ فيها إلى حالهم بالنِّسبة لحال الملك الغاصِب(١). فصوَّرت

(١) ينظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ " دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن " للدكتور محمد الأمين الخضري: (١٤٠)، نشر مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

(٢) جامع البيان: (٧/ ١٧١).

(٣) قوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَـٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ =

العدد الكثير قليلًا. وفي اصطفاء هذه الكلمة إبلاغٌ للمؤمنين، وتذكيرٌ لهم بأنَّ الله كان ناصرهم في موقفٍ كانت " تَقْطع كلَّ مقاييس البَشَر بأنَّهم سيكونون طُعمةً لأعدائهم"[٢] فجديرٌ بكم أيُّها المؤمنون ألَّا تلتفتوا لِمَن خَذَلكم ونَكَصَ عنكم في غزوة أُحدٍ، فالله ناصركم كما نصركم وأنتم قلَّةٌ أمام عدوِّكم.

أثر تنكير الكلمة:

في سياق التّهديد والوعيد من الله ﷻ لمن يفرُّ من المعركة اصطُفيت كلمة (غضبٍ) بتنكيرها في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٦] دلّ تنوين التَّنْكير وصفة الكلمة المحذوفة على تهويل هذا الغضب[٣]، ودلالة التَّهويل دلالة سياقيَّة بمعونة التَّنكير. فغرست المعلم التَّثقيفيَّ في النُّفوس بترهيبها من سَخَط الله. ودلالة معنى الغضب تقوم بأثرها التَّثقيفيِّ التَّحذيريِّ الذي يهزُّ قلْب الإنسان الذي يبْتغي مرضاة ربِّه، ويبتعد عنْ مَزالق غَضَبه ﷻ، وأيُّ حسْرةٍ يعود بها مَن عاد بغضب الله ﷻ! - نعوذ بالله من غضبه - فاصطفيت الكلمة التي تخْلع القُلوب، وتهُزُّ النُّفوس. وفي كتاب الله ﷻ كثيرًا ما يقْترن ذِكْرُ الغضبِ بعذاب الله[٤]، وتَرِدُ مَوْرِد

= غَصْبًا ﴾[الكهف: ٧٩].

(١) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢١٩).

(٢) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: (١٥٢).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٣).

(٤) كقوله تعالى: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[البقرة:٩٠] ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النحل:١٠٦] ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [الشورى:١٦].

العقوبة والجزاء[1].

وفي قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٧] جاء في سياق المعاتبة اصطفاء كلمة (نَبِيٍّ) بتنكيرها. والنُّبوُّ هو الارْتفاع، وسُمِّيَ النَّبيُّ بذلك؛ لأنَّه في مكانة رفعَه الله ﷻ بها واصْطفاه مِن بين خلْقه، وقراءة التَّنكير تُفيد العُموم، أيْ: أيَّ نبيٍّ كان مِن قبْلك، وعلى هذا فالعتاب فيه تلطُّفٌ؛ لأنَّه أوْرَدَه موْرِدًا لا يُواجه به المعاتَب بذاتِه ففي التَّنكير "إبهامٌ في كوْن النَّفي لَمْ يتوجَّه عليه مُعيَّنًا"[2]. ؛ ولذا فالمعْلم التَّثقيفيُّ هُنا يأتي مِن تنْكير الكلمة؛ لأنَّه دلَّ به على أنَّ ذلك لمْ يكُن لأحدٍ مِنْ قبْلك على كثْرتهم وتعدُّدهم، فكيف يكون منْك ذلك. فهو مع ما فيه مِن العتاب، فيه ترفُّقٌ به ﷺ. وأمَّا المعلم الثَّاني مِن معالم التَّثقيف فهو في اصطفاء دلالة الكلمة فاصطفاء النُّبوَّة يدلُّ على منْع الإقدام على فعلٍ خاصٍّ دون إذْن مِن الله ﷻ[3].

۞ أثر اصطفاء اسم الإشارة:

في سياق ذكر العلَّة التي استحقَّ الكفَّار لأجلها التَّنكيل في الدنيا والوعيد في الآخرة جاءت الإشارة في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾[الأنفال:١٣] باصطفاء اسم الإشارة للبعيد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾؛ لأنَّ وقْع العذاب والنَّكال الذي لَحِقَ المشركين كان أليمًا، فجاءت الإشارة إلى البعيد

(١) ولا يعني ذلك تأويل الصفة بإرادة العقاب أو الانتقام بل الصفة على ظاهرها على منهج السلف في تلقي الأسماء والصفات، وما علل به المؤولون تنزيها غاية حميدة ومسلك قبيح، ودخل الوهم فيه من تصور صفات الخالق كصفات المخلوقين.

(٢) البحر المحيط: (٤/ ٥١٨).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٤٤).

إيذانًا ببُعْد درجته في الشِّدَّة والفظاعة[1]، فطُويت خلْف هذه الإشارة كلُّ ما تقـدَّم مِـن أنْواع النَّكال والجحيم الذي لاقوه في الحرب. وهذا يبْعث في النَّفس الرَّهبـة مِـن وعيـد الله ﷻ.

كـما اصـطُفيت الإشـارة للبعيـد في قولـه تعـالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[الأنفال:١٨] ليدلَّ على بُعْد منزلة المشار إليه في العِظَم، فالإشارة هُنا إلى ما سبق مِن نسْبة القتْل والرَّمي والتَّفضُّل على المؤمنين بالإحسان والإنْعام، وتلك الـنِّعم بالغـةٌ مقاماتٍ عظيمةٍ في النُّفوس؛ ولعِظَم موقعها في القلوب أُشير إليها إشارة البعيد في عِظَمه وعُلوِّه.

أثر السِّياق في اصطفاء صيغة الكلمة:

للسِّياق أثرٌ فاعلٌ في اصطفاء صِيَغ بعينها لتحقيق المقصد العام، ففي قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١] نلحـظ في اختيـار الكلمـة أنَّ اصــطفاء صــيغة (فَعَّــل) في هــذا السِّـياق تكـرَّر في مواضـع متتاليـة: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ و﴿وَيُنَزِّلُ﴾ و﴿لِّيُطَهِّرَكُم﴾ و﴿وَيُثَبِّتَ﴾، والتَّضعيف بتكرير الحرْف لـه وقْعٌ في النَّفس يُوحي بالمبالغة والعناية، وكأنَّ الاتِّكاء على الحرْف يُنبِّه إلى المعنى، وأنَّ فيه زيادةً ليست في الفعْل المجرَّد، تتلمَّس النَّفس هذا النَّغَم اللافت فتستشعر تلك المنن التي طمأن الله بها النُّفوس والقلوبَ مِن الخوف والقلق وثبَّت الأبْدان والأرْض مِن تحتها، تتأمَّل النَّفس هـذا الأداء، فـإذا هـو الشُّعور بظلال النَّفحات الإلهيَّة، والعطايا الربَّانيَّة التي كان يُسبغها عليهم في أشدِّ اللحظات.

وفي سياق التَّحذير والتَّهديد في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ١١).

[الأنفال:١٦]

اصطُفيت كلمة ﴿بَآءَ﴾ وأصله مِن بَوَأَ، والبَوَاء مساواةُ أجزاءِ المكان، فلا ينْبو منه شيءٌ[١]. ومعنى باء أيْ حلَّ مُبَوَّأ، فاصطفاء كلمة (باء) فيه تنبيه "على أنَّ مكانه الموافق يلزمه فيه غَضَبُ الله، فكيف غيره مِن الأمْكنة"[٢]، فمناط الأثر التَّثقيفيِّ هو معنى اللزوم بصحْبة الغَضَب، وهو ما يهزُّ القلوب رهْبةً مِن جلاله. فيكون له أثرُه في تنْفير النَّفس مِنْ التَّولي؛ لما يترتَّب عليه مِن عقابٍ شديدٍ.

كما اصطُفي التعبير بقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ والمأوى اسمٌ للمكان الذي يُنْزَل فيه ليلًا أو نَهَارًا[٣]، ونلحظ أنَّ اختيار كلمة (المَأْوَى) جاءت مناسبةً للسِّياق، فإذا نظرْنا إلى السِّياق وَجَدْنا ﴿يُوَلِّهِمْ﴾ و﴿مُتَحَيِّزًا﴾ و ﴿بَآءَ﴾ و ﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾ نَجِد أنَّ كلَّ هذه الكلمات تدور حول إيحاءٍ واحدٍ بصُوَرٍ مختلفةٍ، وهو الرُّجوع والبَحْث عن ملْجأٍ فلمَّا جاء اختيار (المأوى) كانت كالخلاص لهم، غيْر أنَّ ذلك الخَلاص هو جهنَّم بما يَحويه اجتماع الجِيم مع الهاء والنُّون المشدَّدة مِن شدَّةٍ وبؤسٍ، فهي مِن قَبيل قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق:٢٤] مِن جهة التَّهكُّم، واصطُفي الإيواء على الثَّواء؛ لأنَّ الأخير فيه معنى الاستقرار والثَّبات والمُكث بينما الأوَّل جاء مناسبًا للمعاني المتقدِّمة مِن إرادة الملجأ دون المُكث.

والسِّياق له أثره في اصْطفاء الكلمة ليأتي منْسجمًا مع المقام، فيُوقع أثره التَّرهيبيَّ والتَّحذيريَّ في النَّفْس، وتلك هي الغاية التَّثقيفيَّة، كما أنَّ اصطفاء (الأدْبار) بما في الوصْف مِن قُبْحٍ ودَلالةٍ على الجُبْن والخَوَر يأتي متضافرًا مع مجيء (غضبٍ) بتنكيرها ونسبته إلى الله ﷻ، وجعل جهنَّم (مَأْوَى)، كل ذلك له أثره المنفِّر مِن العَمَل.

---

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (باء).

(٢) الموضع السابق.

(٣) ينظر: معجم المقاييس في اللغة: (أوي).

وللسيِّاق المقاميِّ أثره في اصطفاء هيئة الكلمة بفكِّ تضعيفها ففي قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال:١٣]. يلفتنا في كلمة ﴿يُشَاقِقِ﴾ فكُّ الإدْغام في المتماثلين[1]، وفي هذا مُراعاة للسِّياق لمجيئها مع العطف في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فوُرُود نسبة المشاقَّة لله ورسوله بالعطْف بالواو الجامعة مناسب للفكِّ مع كونه الأصل؛ لأنَّ الإدْغام تخْفيفٌ[2]، وكأنَّ الصَّوت تَفَاعَل مع المعنى، فأشار إلى تلك المشاقَّة عنْ طريق الله ورسوله بهذا الصَّوت المكرَّر. ولكنَّ هذا التَّعليل يسْقط مع ورود آية سُورة النِّساء، حيثُ ورَدَت المفردة بفكِّ التَّضعيف، ولَمْ يقْترن فيها ذكرُ الله ﷻ بذكْرِ الرسول ﷺ[3]، بلْ أُفْرِد فيها ذِكْر الرسول ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ إلَّا أنْ نُصحِّح التَّأويل، فنقول فكُّ التَّضعيف جارٍ مع ذكْر الرَّسول ﷺ في كلا الموضعين، وقدْ ذُكِر لفظ الجلالة في سورة الأنْفال، فَصَحَّ تأويل الغرناطيِّ. وأمَّا سورة النِّساء فذُكِر الرسول ﷺ باعتباره مُبلِّغًا عن الله ﷻ، فالمشاقَّة المنهيُّ عنها في الأمْر الذي بَلَّغ به الرَّسول عن ربه، وهو الشَّرع والدِّين فمشاقَّة الرَّسول في نهْجه وشرْعه هي مشاقَّةٌ لله ﷻ، وبهذا الاعتبار كان فكُّ التَّضعيف، وينتقل موضع السُّؤال حينها إلى نكتة العطْف في الأنْفال، وإفْراد ذِكْر الرَّسول ﷺ في النِّساء. وبالنَّظر إلى السِّياق كلِّه يكشف ابنُ

---

(١) جاءت بفك الإدغام في هذا الموضع، وفي سورة النساء في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾.

(٢) ينظر: ملاك التأويل. القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل. في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: (١/ ٣٥٣)، تحقيق: سعيد الفلاح، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م. وينظر: البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود الكرماني: (٩٧)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الفضيلة، القاهرة. دون ط. ت.

(٣) ينظر: دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم للدكتور خالد بني دومي: (١٧٢)، نشر عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

الجزريِّ عن نكتةِ فكِّ التَّضعيف بقوله: " ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأنْفال كيفَ أجمع على فكِّ إدغامه وقوله ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾ [الحشر:٤] في الحشر كيف أجمع على إدْغامه؛ وذلك لتقارب المقامين مِن الإطْناب والإيْجاز، والله أعلم"(١)

فابن الجزريِّ وسَّع دائرة النَّظَر مِن حدود الجُملة إلى النَّظر في السِّياق كلِّه، وأنَّ مبْنى السِّياق في سُورة الأنفال جاء على البسْط والإطْناب، فنَاسَب ذلك فَكَّ الإدغام مجانسةً للإطْناب(٢)، لكنَّ الذي ذَهَبَ إليه ابنُ الجزريِّ باعتباره قاعدةً ومنْهجًا للتَّناسب لا يستقيم، إذْ لو كان البسْط والإطناب على كلِّ حالٍ منْهجًا مُوجبًا لفكِّه لشمل هذا المنْهج بقيةَ الأساليب البلاغيَّة، فلا يكون فيها إيجازٌ بحذف كلمةٍ أو قصْرٍ، فضلًا عنْ أنَّ التَّعليل بالمنْهج يفْتقر إلى تعليلِ المنْهج ذاتِه؛ لأنَّ الأوْلى بالمقتضِي أنْ يكون مِن ذاتِ المعاني والمقاصد والأحوال(٣).

والأعلى في ذلك أنْ نقول إنَّه لمَّا كان أذى المشركين في مكة وملاحقتهم للنَّبي ﷺ وصحبه الكرام كان ظاهرًا؛ ولمَّا كانوا يبارزون كلمة الله ورسوله، ويخالفون أمره، ويشقون الطَّريق المُخالف لدينه مُجاهرين بذلك عيانًا، كان إظهار القاف فيه مفيدًا تلك المجاهرة، فظُهور القاف جاء مُناسبًا لظهور أذاهم ومشاقَّتهم. وهذا التَّعليل هو ما ذَهَب إليه البقاعيُّ بقوله: "وأُظهر الإدغام في المضارع؛ لأنَّ القِصَّة للعرب، وأمرهم في عداوتهم كان بعد الهجْرة شديدًا ومجاهرةً"(٤)

نلحظ إذن في فكِّ التَّضعيف وتكرار القاف أثره في تنغيم المعنى وتصويره،

---

(١) النشر في القراءات العشر: (٢/ ٢٥٥).

(٢) وفيه فقه نظر لأسلوب الإطناب، لأنه بذلك يشير إلى أن الإطناب صورة من صور التعبير تتفاعل فيها كل مستويات النص بدءا من البنية الداخلية للكلمة المفردة وانتهاء بالسياق.

(٣) ينظر: الإمام البقاعي جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم: (٢٨٢).

(٤) نظم الدرر: (٣/ ١٩٤).

والتِّكرار ذاته له أثرٌ في جلْب الأُنس إلى الآذان و" كما أنَّ عودة النَّقرة على الوتر تُحدث التَّجاوب مع سابقتها؛ فتأنس الأذن بازدواجهما وتآلفهما، فإنَّ عودة الحرْف في الكلمة تُكْسب الأذن هذا الأنْس، لو لم يكن لعودته مزيةٌ أخرى تعود إلى معناه، فإذا كان ممَّا يزيد المعنى شيئا، أفاد مع الجرْس الظَّاهر جرسًا خفيًّا لا تُدْركه الأذن، وإنَّما يُدركه العقل والوجدان وراء صورته"[1]، ولاشكَّ أنَّ القرآن منزَّه مِن أنْ يكون إحداثُ النَّغَم فيه لأجل النَّغَم ذاته، إنَّما يكون إحداثه لأجل معنى استدعى هذا التَّنغيم. فالكلمة في السياق فيها تحذير مِن مماثلة أولئك الذين ظَهَرت عداوتهم، فاستحقوا عقاب الله ﷻ.

ومن أمثلة هيمنة السِّياق على اصطفاء صيغة محددة تنسجم مع مقصد المقطع ما نلحظه من اصطفاء كلمة ﴿مُّؤۡمِنِينَ﴾ في مقدِّمة السُّورة أربع مراتٍ بالاسْميَّة، إذ فيه إشارةٌ إلى أنَّ الحديث عن المؤمنين ثابتي الإيمان، الذين بَلَغ إيمانُهم مبْلغًا يهيِّئُهم لأنْ يحملوا راية الدِّين، ويُنافحوا عن الحقِّ؛ ولذلك وَصَفهم في السِّياق ذاتِه بقوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾ [الأنفال:٤]، وكلمة ﴿حَقّٗاۚ﴾ هُنا تُفيد الثَّبات؛ لأنَّ مِن سمات الحقِّ والحقيقة الثَّبات، فالخطاب هُنا إعدادٌ لأنْ يكون المخاطَبين مِن المؤمنين وهي مرحلة أسمى مِن الذين آمنوا.

وفي اختيار الكلمة إلهابٌ لتلك النُّفوس التي تتوق لتحقيق صفة الإيمان، والانْضواء تحت الاسم الذي يُنادي به الله عباده، محقِّقين الغاية العُليا مِن وجودهم، كما أنَّنا نلمح في كلمة الإيمان واختيارها مراعاةً دقيقةً للزوم العَمَل الذي كلِّفوا بالمسارعة إليه.

(١) التكرير بين المثير والتأثير للدكتور عز الدين علي السيد: (١١)، نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

التَّعبير بالمشتقات:

في سياق التَّذكير بصفات الله ﷻ التي تؤكِّد قدرته وإحاطته التّامة جاء التَّعبير بصيغة المبالغة ﴿سَمِيعٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ﴾ في سياق ذكر إحاطته بأحوال المؤمنين في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الأنفال:١٧] كما جاء في سياق ذكر اطِّلاعه وإحاطته بأحوال الأمم بما فيهم من كذّب ومن كفر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال:٥٣] واصطفاء هذه الصيغة لصفتي السَّمع والعلْم لهما الأثر الذي يهزُّ قلب المؤمن، إذْ إنَّ استشعار عَظَمَة الخالق، واستشعار أنَّ الله ﷻ يَسْمع خافت الأصوات وعاليها، وأنَّه عالمٌ بما تُكنُّه الصُّدور، وبما يدور في الخواطر والأوهام، استشعار مثل هذا يَزرع في القلوب مبدأ المراقبة، والخوف مِن سَخَط العزيز الجبَّار، وابتغاء مرْضاته.

وفي سياق نفي الظلم في حق الله ﷻ، وإثبات عدله، اصطفيت كلمة (العبيد) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥١]وهو جمْع عبْد، وإذا جُمِع على عبيد فيُقصد به الرِّق، وذَكَر ابنُ عطيَّة أنَّ كلمة (عَبِيْد) تأتي في سياقات التَّحقير[1]، واعْترض عليه أبو حيان[2]، وظاهر كلامه إنْكاره التَّفريق بين العباد والعبيد بالرِّفعة والتَّحقير، ودَفَع دلالة العباد على الرِّفعة دائمًا، ووافقه الثَّعالبيُّ[3] مسْتشهدًا بقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الفرقان:١٧] وكلام الثَّعالبيِّ يكون بهذا موجَّهًا لمواضع عباد، فيسْلم اطِّراد استعمال القرآن لكلمة عبيد في مواضع "لأنَّه مكان تشفيقٍ وإعلامٍ بقلَّة

(١) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ١٣٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٢/ ٥٠٥).

(٣) ينظر: الجواهر الحسان في تفسير القرآن: (١/ ٢٦٨)، حققه وخرج أحاديثه ووثق أوله: أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

انتصارهم ومقدرتهم، وأنَّه تعالى ليس بظلاَّمٍ لهم مع ذلك، ولمَّا كانت لفْظة العباد تقتضي الطَّاعة لَمْ تَقَع.. "[1]، وَعَزَا أبو حيان ذلك لتوافق الفواصل، وذَكَر أنَّ العباد والعبيد بمعنى واحدٍ[2]، وما ذَكَرَه أبو حيان تأْباه طبيعة اللغة التي يسْتقلُّ كلُّ بناءٍ فيها بمعنى، كما أنَّ كلمة عبيد وَرَدَت في هذه السُّورة، وفي سورة آل عمران في مواضع لَمْ تُسْبق ولَمْ تُلحق بما يُوافق فيه الفاصلة. واصطفاء كلمة العبيد أعمُّ مِن العباد؛ لأنَّ العباد جمْع عابدٍ يدلُّ على الطَّاعة، ودلالة العَبيد مصروفةٌ إلى الرِّق. فهي أشمل[3].

والأثر النَّفسيُّ لاصطفاء الكلمة إشعارُ المخَاطَبين بأنَّهم ملْكٌ لله ﷻ، فعدْله مِن تمام رحمته بهم.

(١) المحرر الوجيز: : (٣/ ١٣٨).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٢/ ٥٠٦).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (عبد).

الفصل الثالث

أثرُ منْهاج التَّركيبِ في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه تسعة مباحـــث : -

- **المبحث الأوَّل:** أثر أساليب العطف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الثَّاني:** أثر أساليب النَّفي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الثَّالث:** أثر أساليب التَّقابل في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الرَّابع:** أثر أساليب التَّأكيد في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الخامس:** أثر أساليب النَّهي في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.
- **المبحث السَّادس:** أثر أساليب الذِّكر والحذف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث السَّابع:** أثر أساليب التَّقديم والتَّأخير في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الثَّامن:** أثر أساليب الأمر في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث التَّاسع :** أثر أساليب الشَّرط في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

* * * ** * * *

المبْحثُ الأوّل: أثر أساليب العطف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

تتنوَّع أساليب العطْف والرَّبط بين المفردات والجُمل، ويُراعى في هذا التنوُّع الحروفُ التي عُطِفتْ بها، وعلاقات المفردات والجُمل مِن حيثُ التَّرتيب والتَّقديم أو التَّأخير.

قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال:١] والعطْف بين اسم الجلالة والرَّسول من عطف المفردات، وفي ذلك يقول الزَّمخشريُّ موضِّحًا معنى جواب السُّؤال: " قلْ لهم: هي لرسول الله ﷺ وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء، ليس لأحد غيره فيها حكم"(١) وبهذا يكون اسم الجلالة للتَّوطئة، والمقصود طاعة الرسول ﷺ وهو يفيد التَّعظيم لحكم النَّبيِّ ﷺ(٢) لكنَّ الزمخشريَّ يعود بعد ذلك ليقول: "فإنْ قلت: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرَّسول في قوله: ﴿قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾؟ قلتُ: معناه أنّ حكمها مختصٌّ بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكْمته، ويمتثل الرَّسول أمر الله فيها، وليس الأمْر في قسمتها مفوَّضاً إلى رأي أَحَدٍ "(٣).

وهذا يعني أنَّ الجَمْعَ بين اسْم الجلالة والرَّسول ﷺ عائدٌ إلى دعوى الاتِّحاد بين الحُكمين؛ لأنَّه صادرٌ مِن الله أمرًا ومِن الرَّسول ﷺامتثالًا(٤). والفرْق بين الوجْهين

(١) الكشاف: (٢/ ١٤٤).

(٢) ينظر: الإعجاز في نسق القرآن للدكتور محمد الأمين الخضري: (٧٠)، نشر مكتبة زهراء الشرق، مصر- القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٣) الكشاف: (٢/ ١٤٥).

(٤) ينظر: الإعجاز في نسق القرآن: (٧٠).

عائدٌ إلى مستوى مقْصديَّة ذكر اسم الجلالة فهو في الوجْه الأوَّل جاء للتَّوطئة، والقصْد للرَّسول، وفي الوْجه الثَّاني يتوجَّه القصْد إلى كليهما بدعوى الاتِّحاد في مضمون الأمر.

وفي هذا معْلمٌ مِنْ معالم التَّثقيف للنَّفس المؤمنة يرشدها إلى تعظيم أمر الرَّسول ﷺ، والمسارعة إليه، وإلى أنَّ طاعة الرَّسول هي طاعةٌ لله؛ لأنَّ الرَّسول مبلِّغ عن ربه، لا ينطق عن الهوى.

وفي نظم هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ استُفتحت السُّورة بهذا المطْلع بأسلوبٍ خبريٍّ يحسم مسألة الأنْفال حسْمًا قاطعًا على طريقة السُّؤال والجواب، ونلحظ بناء السُّؤال جاء مُبْهمًا، فَلَمْ يَظهر عن أيِّ شيءٍ مِن الأنْفال كان السُّؤال، فلمَّا أُجيب باختصاصها لله ورسوله تبيَّن أنَّ سؤالهم كان عن قسْمتها واختصاصها(١)، وهكذا كان الجوابُ مُفسِّرًا لمضمون السؤال(٢).

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ﴾ بإضمار السائلين دون سبْق مرْجعٍ يعود عليه الضَّمير، والمفهوم مِن المقام عوْد الضَّمير إلى الصحابة البدْريين الذين سألوا مِن الأنْفال، ولكنَّ التَّعبير القرآنيَّ أَعْرض عن التَّصريح وجاء على هذا النَّحو، وله أثره التَّثقيفيُّ؛ لأنَّ النَّفس البشريَّة وإنْ كانت نفْس صحابيٍّ بدْريٍّ إلَّا أنَّها متطلعةٌ لشيء مِن متاع الدُّنيا لبشريَّتها، والقرآن الكريم حين يُعرض عن ذكرهم، والتَّصريح باسمهم، فهو يهذِّب النُّفوس، وفي هذا ما يُحزن أهل العرفان، فأدنى صُور الإعْراض مِن الحبيب بليَّةٌ لا تُطاق، كيف بإعراض ربِّ العالمين!.

كذلك أُظهرت كلمة (الأنْفال) في الجواب تنْبيهًا لأهميَّة المُظهر؛ ولأنَّ في إعادته تنبيهًا إلى الحكْم الصَّادر بهذا الشأن؛ لأنَّ قضيَّة الأنْفال هي القضيَّة الأساسيَّة التي

(١) ينظر: مفاتيح الغيب (١٥/ ١١٨).

(٢) ولهذه الطريقة نظائر في القرآن كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة:٢١٩] ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ﴾ [البقرة:٢٢٠] ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ﴾ [البقرة:٢٢٢].

بُنيت عليها السُّورة، وتفرَّعت عنها التَّعقيبات، فكان مِن المناسب أنْ يُبنى التَّركيب بناءً واضحًا مُستكملًا أركانه، لا لَبْسَ فيه، ويقرِّر هذه الحقيقة جليَّةً منْذُ البداية.

وبناء الآية الأُوْلى جاء سريعًا موجزًا مقرِّرًا الحكْم الرَّبَّانيَّ في مطلع السُّورة؛ ليكون أوَّل مُلامسٍ لقلوبهم التسليم بالحقيقة. إنَّ إجابةً بهذا الإيجاز الدَّقيق ﴿ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ كفيلةٌ بأنْ تُنهي الخلاف القائم في شأن الأنْفال، وأنَّ يتحوَّل الخلاف مِن شأنٍ في شؤون الدُّنيا إلى قضيَّةٍ تعبُّديَّةٍ بتسليم الأمْر لله ورسوله، ففيه تربيةٌ للنُّفوس بانتزاع قضيَّة الأنْفال، وَرَدِّها إلى الله ورسوله.[1] وعَرْض المسألة بأسلوبِ السُّؤال والجواب أسلوبٌ ترْبويٌّ تنهجه المناهج الحديثة في التَّعليم.

والوقْف بين قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وما بعْدها وقْفٌ كافٍ[2]؛ لأنَّ المعنى تمَّ بنهاية الجواب، وتعلَّق بما بعده في المعنى، وقيل وقْفٌ حَسَنٌ[3]؛ لأنَّ الفاء في قوله تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ جاءت لترْبط الجملتين[4] ربْطًا سَبَبِيًّا؛ ولذلك قال البقاعيُّ: " ولَمَّا أخبر سبحانه أنَّه لا شيء لهم فيها إلا عن أمر الله ورسوله، وكان ذلك موحيًا لتوقفهم إلى بروز أمره سبحانه على لسان رسوله ﷺ، وكانت التَّقوى موجبةً للوقوف خوفًا حتَّى يأتي الدَّليل الذي يُجسِّر على المشي وراءه، سبَّب عن ذلك قوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟

(١) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٧٣).

(٢) الوقف الكافي: الوقف على ما تم معناه وتعلق بها بعده معنى لا لفظا. حكمه: يحسن الوقوف عليه والابتداء بها بعده. ينظر: الإتقان: الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي: (١/ ٢٣٣)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العصرية، لبنان - صيدا، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٧م. ومنار الهدى في بيان الوقف والابتدا لأحمد الأشموني: (٩ وما بعدها) نشر مطبعة البابي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

(٣) الوقف الحسن: هو ما تم عنده المعنى إلا أنه يتعلق بما بعده لفظا فقط. حكمه: يجوز الوقف عليه، ولكن لا يبدأ بها بعده إلا إذا كان رأس آية. ينظر: الإتقان: (١/ ٢٣٣)، ومنار الهدى: (١٠ وما بعدها).

(٤) ينظر: منار الهدى (١٥٦).

ﵟٱللَّهَﵞ"[١]. فالبقاعيُّ يلفت إلى جهة المناسبة بين عطْف التَّقوى على إجابة السُّـؤال، ومـا يحمله التَّقوى مِن تأثيرٍ على السُّلوك كفيلٌ أنْ يوقفهم عند حدود الله، واتِّباع ما أَمَرَ بـه، والكف عمَّا زَجَرَ عنه.

وقوله تعالى: ﵟفَٱتَّقُواْ ٱللَّهَﵞأي فاتقوا كلَّ أمْرٍ يُغضـب الله ﷻ ممَّـا لَطُـف وعَظُـم، وحمله على هذه الدَّلالة العامَّة في معمول التَّقوى أجْدر بالسِّياق الذي فيه لأنَّـه خطـابٌ للبدريين.

فالتَّوجيه الأوَّل إذن ﵟفَٱتَّقُواْ ٱللَّهَﵞ وهـو توجيـهٌ تخضـع عنـده النُّفـوس المتـوتِّرة؛ لأنَّه يذكِّرها بالله ﷻ، فتقْشعرُّ له الأبْدان، وتَوْجل منه القلوب، فكان التَّوجيه بالتَّقوى توجيهًا عميقًا يُبطل كلَّ ما كان يدور في النُّفوس مِن حِرْصٍ على الأنْفال، وينْتشلها مِنْ حُطام الدُّنيا إلى التَّفكير بالآخرة. ومِن هُنا كان ابتداء الأمْر بالتَّقوى أنجعَ عـلاجٍ؛ لأنَّ مَنْ أَحْيَا قلبه بالتَّقوى لا يَظْلم أَحَدًا، ولا يَطْمع في مال أَحَدٍ[٢].

وقولـه تعـالى: ﵟوَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖﵞ فهـو يُشـير إلى أنَّ الله ﷻ أَمَـر بإصـلاح الأنْفس، ورَتَّب على هذا الصَّلاح صلاحُ ما يَصدر عنهـا. يقـول ابـن عطيَّـة: "والـذي يُفهم مِن ﵟبينكمﵞ هو معنى يعمُّ جميع الوصـل والالتحامـات والمـودَّات وذات ذلـك هي المأمور بإصلاحها، أيْ نفسه وعينه، فحضَّ ﷻ عـلى إصـلاح تلـك الأجـزاء فـإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمُّها وهو البـيْن الـذي لهـم "[٣]، فيكـون المعنـى عـلى هذا عمليةً يترتَّـب لاحـقٌ فيهـا عـلى سـابقٍ، ويكـون أمـر الإصْـلاح موجَّهًـا إلى الـنَّفس توجيهًا قصْديًّا، وموجَّهًا إلى البيْن توجيهًا تَبَعيًّا.

وذَكَر ابن عاشور أنَّ التَّركيب ﵟذَاتَ بَيۡنِكُمۡۖﵞ لَمْ يُستعمل في كلام العرب، فهو

---

(١) نظم الدرر: (٣/ ١٨٣).

(٢) ينظر: تفسير سورة الأنفال:(٢١).

(٣) المحرر الوجيز: (٨/ ١١).

تَرْكيبٌ تميَّز به القرآن الكريم، وعدَّه مِن مُبتكرات القرآن(١).

فجاء الأمر بالإصلاح بعد أنْ سما بتلك النُّفوس، وهيَّأها لتلقي ما يصدر عنه -جل في علاه- ثمرةً للأمْر الأوَّل بالتقوى؛ لأنَّ مفهوم التَّقوى يتَّسع ليشمل كلَّ حركات الإنْسان وسَكَنَاته، والأمْر بإصلاح ذاتِ البيْن في حقيقته يستلزم أمر إصلاح النَّفس أوَّلًا، ثمَّ إصلاح الوصال، فلا يُمكن أنْ يصلح الوصال ما لَمْ تكن النُّفوس صالحةً في ذاتها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ نلحظ فيه العطْف بين اسم الله ورسوله، وفيه تَّشريفٌ وتَّعظيمٌ لمقام الرسول ﷺ مِن جهة، وفيه أنَّ الأمْر النَّبويَّ إنَّما هو تشريعٌ إلهيٌّ، وإنَّما كان الرَّسول ﷺ ممتثلًا في ذلك ومُبلِّغًا(٢). والتَّوجيه يُؤسس لمعنى جديدٍ هو الأمر بالطَّاعة لما يصدر مِن الله ورسوله، وفيه معنى تأكيديٌّ لأقرب مذكورٍ في السِّياق وهو المسارعة في تنفيذ تلك التَّوجيهات الربَّانيَّة الآمرة بالتَّقوى والإصْلاح. وحين يطرق القلوب ذكر الله ورسوله تلتفت إلى مطلع الآية ﴿ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِۖ﴾ فحقَّقت هذه الآية بتركيبها التأسيس والتَّأكيد، وشدَّ الجُمل بعضها إلى بعضٍ بأسلوبٍ مُحْكمٍ يأْسر القلوب والألْباب.

وممَّا هو جديرٌ بالعناية ملاحظة التَّثقيف النَّفسيِّ المناط بالتَّرتيب في العطْف بين الجمل في هذه الأوامر، فتقديم التَّقوى مِن بين المأمورات لأنَّه جماع الأوامر كلِّها،

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٥٤).

(٢) ذكر الشيخ الشعراوي أن مسألة الطاعة جاءت في القرآن على ثلاث صور: طاعة الله ورسوله، وطاعة الله وطاعة الرسول -بتكرار الأمر بالطاعة- وطاعة الرسول، وفرق بينهم فقال: إن الأمر بطاعة الله ورسوله يأتي حين يكون الأمر وتفصيله موجود في القرآن، وهو يعني أن الله قد أمر وأن الرسول قد بلغ، وحين يأتي الأمر بطاعة الله والأمر بطاعة الرسول فهذا يعني أن القرآن ذكر الحكم مجملا، وأن في تبليغ الرسول ﷺ بالقول والفعل تبليغا. كالصلوات مثلا، وحين يكون الأمر بطاعة الرسول ﷺ فهو قد أعطى للرسول تفويضا بتبليغ الحكم دون أن يذكره. ينظر: تفسير الشعراوي: (٨/ ٤٥٦٧-٤٥٦٨).

فإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله هو ثمرةُ التَّقوى المتحقِّقة في النُّفوس، ثمَّ جعل إصلاح ذات البيْن وسَطًا بين هذين الأمرين؛ ليدلَّ على أنَّ إصلاح ذات البين ثمرةُ التَّقوى مِن جهة، ومندرجٌ ضمن طاعة الله ورسوله مِن جهةٍ أُخرى[1]. وحَسُن تأخير الأمْر بالطَّاعة؛ لأنَّه ابتدأ الجُملة بالإخبار باختصاص الله ورسوله في شأن الأنْفال وخَتَم الجملة بالأمْر بطاعة الله ورسوله في هذا الحكْم فحقَّق بهذا ارتباط آخرِ الجُملة بأوَّلها.. يقول أبو السعود: "وتوسيطُ الأمر بإصلاح ذاتِ البين بين الأمرِ بالتَّقوى والأمْرِ بالطَّاعة؛ لإظهار كمالِ العناية بالإصلاح بحسب المقام، وليَنْدرجَ الأمرُ به بعينه تحت الأمرِ بالطاعة"[2]، ثمَّ جاء قوله تعالى على سبيل التَّهييج والتَّحْفيز ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالجُملة الشَّرطيَّة. وفي جوابها قولان: إمَّا أنْ يكون محذوفًا دلّ عليه السِّياق، وهو رأي سيبويه، وإمَّا أنْ يكون مُتقدِّمًا وهو مذهب الكوفيين[3]، فإن أخذْنا بقول سيبويه تحقَّق في الجُملة التَّأكيد بالدَّالِّ على المحذوف أولًا، ثمَّ بالمحذوف ثانيًا؛ لأنَّ المحذوف وإنْ طُوِيَ لسانًا إلَّا أنَّه مقدَّرٌ جنانًا، وإنْ أخذْنا بقول الكوفيين فيحقِّق تقديم ما هو أجدر بالعناية، كما يقول سيبويه: "كأنهم إنَّما يُقدِّمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى، وإنْ كانا جميعًا يهمَّانهم ويعنيانهم"[4] فيكون أوَّل ما يُلامس الآذان أمرهم بالتَّقوى والإصلاح والطَّاعة، ثمَّ يثير هذا المعنى في نفوسهم ويحرِّضهم بتعليقه بالشَّرط. وعدم التَّقدير أوْلى مِن التَّقدير، فيكون على هذا الاعتبار تقدُّم جواب الشَّرط على فعله، وتقدُّم جواب الشَّرط وتأخُّر فعله له أثره التَّثقيفيُّ؛ لأنَّه أسرع إلى النُّفوس

---

(١) يؤيد هذا ماورواه عبادة بن الصامت عن الرسول ﷺ أنه كان يكره الأنفال ويقول ليرد قوي المؤمنين على ضعيفهم. ينظر: بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد: كتاب التفسير، باب سورة الأنفال، حديث رقم (١١٠٢٤) (٧/ ٩٨ - ٩٩) وقال رجاله ثقات.

(٢) إرشاد العقل السليم: (٤/ ٣).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٥٧).

(٤) الكتاب: (١/ ٣٤).

والقلوب بما يُريد امتثاله منهم، ثمَّ جاء فعل الشَّرط ليكون تحريضًا وشحْذًا للنُّفوس بعد الأمْر به، وجاء تعليق إتيان الأفعال وامتثالها بمَنْ تحققت فيه صفة الإيمان، فالامتثال هنا لا يتحقَّق إلا بتحقُّق الإيمان الخالص، ثم جعل الفعل الماضي مِن الكيْنونة في حيِّز الشَّرط، دلالةً على أنَّ الإيمان المطلوب إيمانٌ له جذوره في النَّفس، ثمَّ قال (مؤمنين)، فدلَّ الاسم على أنَّ الإيمان المطلوب لتحقيق الأوامر إيمان لا يتزحزح من نفوس أصحابه، لأنه يتعلَّق بمدى تجذر الإيمان في نفوسكم، فهو تثقيف للنَّفس بالتهييج لإظهار الإيمان في هذه المواقف، وليس للتردد فيه أو الشكِّ لتنزيه المولى ﷻ عنه، وتنزيه الصحابة كذلك.

وفي هذا التَّعقيب دعوةٌ إلى تطبيق الإيمان بصورة عمليَّةٍ واقعيَّةٍ مشاهدةٍ، لا أنْ يكون كلمةً تُقال باللسان، أو تمنِّيًا ليس له في الواقع ما يُبرهن على وجوده(١). ولأنَّ هذه الكلمة عظيمةُ الأثر في نفوسهم استدعت سياقًا كاملًا لتوضيح معنى الإيمان الحقِّ المشتمل على عمل القلوب والجوارح، وإيضاح الوسيلة والغاية التي تحقِّق لهم صفة الإيمان التي يرضاها الله ﷻ ورسوله ﷺ.

وحَسُنَ موقع كلمة (مؤمنين) في الفاصلة، لأنَّها وَصَلت الكلام وصلًا حَسَنًا بما بعده، بلْ كأنَّ هذه الكلمة هي التي فَتَحت الحديث عن الإيمان، فاجْتمع في هذا التَّذييل(٢) تنشيطُ المؤمنين، وحُسْن وصْل الكلام بما بعده.

ونلحظ ظلال هذه التَّوجيهات يُشعُّ في كلِّ مقطع مِن مقاطع السُّورة الكريمة، كما أنَّ المعاني في هذه الآية تتَّسم بتنوُّعها ووحْدتها، يقول الرَّازيُّ: "قال [الله تعالى]: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ والمعنى أنه تعالى نهاهم عن مخالفة حكم الرَّسول

(١) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٧٤).

(٢) التذييل: هو " تعقيب الجملة بجملة تشتمل على معناها للتوكيد ". الإيضاح: (٢/ ١٢٢). والتذييل هنا بالجملة الشرطية (إن كنتم مؤمنين) جاءت بعد تمام المعنى ثم أعادته على جهة التحفيز والتوكيد، ولاشك أن الإيمان جامع للصفات المذكورة قبل.

بقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ ثمَّ أكَّد ذلك بأنْ أمَرَهم بطاعة الرَّسول بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ثمَّ بَالَغ في هذا التَّأكيد فقال: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾"[1]

نلحظ مِن كلام الرَّازي أمورًا:

١ رجَّح دلالة النَّهي في صيغة الأمر في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، ومعلومٌ أنَّ كلَّ أمرٍ يتضمَّن معنى النَّهي، ولكنَّ دلالة النَّهي في صيغة الأمْر دلالةٌ تَبَعيَّةٌ، وعبارة الرَّازيِّ يُفهم منها أنَّ دلالة النَّهي فيها دلالةٌ قصديَّةٌ.[2]

٢ بين قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ طباقٌ إذا ما اعتبرنا حاصل المعنى من التَّركيبين.

٣ تنوُّع مسالك المعنى بين التَّأسيس والتَّأكيد، فقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ تأسيسٌ لمعنى مِن جهة، وتأكيدٌ للمعنى في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ مبالغةً في التَّأكيد.

وبهذا تحَقَّق في السُّورة براعة الاسْتهلال[3]؛ لأنَّ الأوامر الثَّلاثة، هي الخُطوط

---

(١) مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٢١).

(٢) دلالة القصد هي الغرض والمغزى، والدلالة التبعية دلالة ضمنية تستفاد من السياقات ولكنها ليست محط رحال المعنى، والغرض والمغزى قد يناط بظاهر القول، وقد يناط بباطنه، فيكون ظاهر القول غير محل القصد الأول كما في هذه الآية ولكن عرّض بظاهره لما يراد بباطنه، ليغرس في النفوس معلما من معالم التثقيف بتوجيههم إلى ما كان حريا بهم بدلا من نهيهم، ولينقل النفوس من مقامات النهي عن المخالفة إلى مقامات الأمر بالطاعة.

(٣) براعة الاستهلال: هي أن يناسب الابتداء مقصود الكلام، وهو أحسن الابتداءات. انظر: الإيضاح: (٤/ ١٣٤) والجمل التي استفتحت بها سورة الأنفال دالة على مقصود السورة، بل إن الأوامر والنداءات في السورة الكريمة تتفرع عن تلك الأوامر الرئيسة في مستهلها، فهي على كونها قد بينت مقصودها في صدر السورة، حققت انسجام المعاني وتآزرها.

الرَّئيسة للمعنى في السُّورة، وما يأتي بعدها إنَّما نسج على امتداد هذه المعاني[1].

ويأتي عطْف المفردات في سياق الوعيد والتَّرهيب، فيقرن بين ذكر الله ورسوله كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال:١٣-١٤]، فبعد أنْ تقدَّم ذِكْر العقاب الذي أوقعه الله ﷻ على الكافرين بأمره للملائكة بضرب الأعناق والأطراف، اقتضى السيِّاق أنْ يُربط العقاب بأسبابه، والجزاء بالأفعال التي استحقوا لأجلها العذاب الدنْيويَّ مع ما ينتظرهم مِن العذاب الأُخرويِّ، وفي هذا السِّياق جاء عطف الرَّسول على اسم الجلالة، وفي اصطفاء اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ وإعمال الشِّقاق في الاسم إظهارٌ لقبْح ما ارْتكبوه، فاسمه الأعلى ﷻ ناطقٌ بجلاله، وعظيم سلطانه، كما أنَّ عداوة كفَّار قريشٍ كانت لدين الله ﷻ، فكانوا يقفون ضدَّ ذلك الزَّحف الذي بدَأَتْ تنْقاد له أرجاء الجزيرة؛ لأنَّ ذلك الدِّين جاء ليُبطل سيِّء العادات والتَّقاليد، وفي الوقْت ذاته كانوا يُعادون الرَّسول ﷺ لشخْصه، للعصبيَّات القَبَليَّة، والنَّعَرات الجاهليَّة؛ فذُكرت المشاقَّة لله والرَّسول لمراعاة الاعتبارين[2].

والأعلى - والله أعلم - أنَّ في الجمع بين ذكْر مشاقة الله ﷻ والرَّسول ﷺ إعلامًا بوحدانيَّة هذا الدِّين، وأنَّ مخالفة أمر الرَّسول ﷺ ودعوته هي مخالفةٌ لأمْر الله، كما أنَّ في ذكْر اسم الجلالة وتقديمه تنبيهًا وتربيةً للمهابة، وهو معلم من معالم التَّثقيف.

وجاء العطف في سياق تعْليليٍّ، فالباء في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أفادت الرَّبْط التَّعليليَّ بين الفعل والجزاء؛ لأنَّ العقاب الذي تقدَّم كان عقابًا أليمًا تحرَّكت له نواميس الكون بأمْرٍ مِن الله تعالى، استدعى ذلك أنْ يقع في سياقٍ يوقعه إيقاعًا تقريريًّا في النُّفوس، فجاء التَّوكيد مع ما يحمله مِن دلالةٍ يعضِّدها المدُّ الصَّوتيُّ في حرْف النُّون؛

---

(١) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٣٦٨).

(٢) ينظر: إعجاز القرآن الكريم للدكتور فضل عباس وسناء فضل عباس (٢١٤)، نشر دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى ١٩٩١م/ ١٤١٢هـ.

ولذلك فصلت الجملة عمّا قبلها[1].

ثمَّ أقرَّت الحقيقة الرَّاسخة، والميزان العادل بأسلوبِ الشَّرْط ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾؛ ليكون تحقُّق الجزاء متعلِّقًا بتحقُّق الفعل، والذي يلفتنا في هذا البناء ذكر ﴿ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في موضع الإضمار، فالسِّياق سياق تربيةٍ وتعريفٍ ببشاعة الجُرْم الذي استحقوا لأجله العقاب في الدُّنيا والآخرة، فكان في إظهاره تذكيرٌ لهم بفظاعته، وعظيم شأنه[2]؛ لأنَّ أثر إعادة اللفظ ظاهرًا ليس كإعادته مُضمرًا، فالنَّفس تلتفت إلى صورة اللفظ حين تسمعه ولا يتحصَّل ذلك بالإضْمار.

وحين قرَّر الحقُّ ﷻ هذه الحقيقة، جاءت جملة الشَّرط على مستوى عالٍ مِن الدِّقة؛ ليكون ذلك أدعى إلى إعمال عقولهم، وإقامة الحجَّة عليهم "فالشَّرطيةُ تكملةٌ لما قبلها، وتقريرٌ لمضمونه، وتحقيقٌ للسببيَّة بالطَّريق البرهانيِّ، كأنَّه قيل: ذلك العقابُ الشَّديد بسبب مشاقّتِهم لله تعالى ورسولِه، وكلُّ مَن يُشاقق الله ورسولَه كائنًا مَنْ كان فله بسبب ذلك عقابٌ شديدٌ؛ فإذن لهم بسبب مشاقّتِهم لهما عقابٌ شديد"[3] فلَمَ يُذكر جزاءٌ باسمه، ولكنْ تُرك ذلك لإعمال عقولهم ليستنتجوا هذه الحقيقة، فجاءت الجملة الواقعة موقع الجزاء مؤكَّدة ليُوقع التَّقرير مكانه في نفوسهم. وليس المُراد مِن الخبر حقيقته، بل المراد لازمه وهو عقاب المشاقِّين[4].

فالإظهار في موضع الإضمار، وأسلوب الشَّرط يتضافران في دلالتيهما لتأكيد هذا الجانب التَّرهيبيِّ.

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ الخطاب فيه للكافرين، فيكون مِن الالتفات؛ لأنَّه

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٤).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ١١).

(٣) الموضع السابق.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٤).

انتقل مِن الغائب في قوله تعالى: ﴿شَآقُّواْ﴾[١]، فلمّا ذَكَرَ جُرمهم وفعلهم ذكره بصيغة الغائب، ولمَّا ذَكَرَ العقاب والعذاب ذَكَرَه بصيغة الحاضر "لأنَّ تبليغ الحاضر أبلغ في الإهانة"[٢]، وإيقاعه أشدُّ تأثيرًا في النَّفس.

وللنَّظم الكريم في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ أوجهٌ، الأول: أنْ يكون ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ في موضع الرَّفع إمَّا بتقدير مبتدإٍ (الأمر أو العذاب) ويكون خبره، أو بجعله مبتدأً والمقدَّر هو الخبر[٣]، وتفيد الفاء حينئذٍ السَّببيَّة[٤]، أو أنْ تُحمل الفاء على الجزاء بترتيب جملة ﴿فَذُوقُوهُ﴾ ترتيب الجزاء على الشَّرط، والوجه الثاني: أن يكون ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ في موضع النَّصب إمَّا بتقدير فعلٍ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ فيكون المعنى فذوقوا ذلكم العذاب[٥] مرَّةً بعد مرَّةٍ لما يُوحيه التَّعقيب والتِّكرار، أو أنْ يُقدَّر فعلٌ آخر كباشروا أو عليكم[٦]، فتكون الفاء عاطفةً الإنشاء على الإنشاء.

وتظهر بلاغة النَّظم الكريم بجعل الفاء للسَّببيَّة لتُفيد تعلُّق الحكم بالوصف[٧]،

---

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٥٣) وروح المعاني: (٥/ ١٦٨).

(٢) مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن: (٢٠٣)، كشف عنه وعلق على حواشيه: د. زكريا سعيد علي، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م. وهو الكتاب المطبوع خطأً بعنوان الفوائد المشوِّق إلى علوم القرآن وعلم البيان لابن القيم.

(٣) ينظر: معاني القرآن لأبي الحسن الأخفش: (١/ ٣٤٦)، تحقيق: الدكتورة هدى قراعة، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٤) ينظر: حاشية الكازروني على البيضاوي: (٣/ ٤٤)، نشر دار الكتب العربية الكبرى. ، مصر. دون ط. ت.

(٥) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٤٥٩).

(٦) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين البيضاوي: (٣/ ٥٣)، إعداد وتقديم: محمد المرعشلي، نشر دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى، دون ت.

(٧) قال السيرافي معلقا على شاهد سيبويه: (وقائلة خولانُ فانكح فتاتهم): "الجمل كلها يجوز أن تكون أجوبتها بالفاء نحو زيد أبوك فقم إليه، فإنّ كونه أباه سببٌ وعلّة للقيام إليه، وكذلك الفاء في فانكح يدل =

وكذلك في تقدير الفعل المفسَّر بالفعل المذكور، فيفيد حينئذٍ تكرُّر الإذاقة مع ما في معنى التَّعقيب مِن المباشرة[1].

ثمَّ فرَّع بالفاء على سبيل الإهانة والشماتة لتحقق العذاب قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾[2]، وفي ذلك عدول في استعمال الفعل الأمر مِن معنى الإيجاب إلى الإهانة والشَّماتة والإذلال، وهو بهذا يكون نوعًا مِن التَّهكُّم؛ ليزيدهم توبيخًا وتبكيتًا وتهديدًا، فيَجمعون إلى ما يقاسونه مِن العذاب الحسيِّ العذابَ المعنويَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ معطوفٌ على ﴿ذَلِكُمْ﴾، ولاقتضاء السياق إنزال العقاب الذي ينتظرهم في الآخرة في نفوسهم مقرَّرًا، إضافةً إلى العذاب الذي عجَّل لهم جاءت الجملة مصدرة بالتَّأكيد بـأنَّ، وقدِّم المتعلِّق لتنبيه المستحقِّ الغافل، ثمَّ مباغتته بما ينتظره مِن العذاب في الآخرة، كما أنَّ إضافة العذاب إلى النَّار ممَّا يزيد هول العقاب فهو عقابٌ مضافٌ إلى عقابٍ.

وِمن بديع النَّظم التَّوافق المعنويُّ بين فاصلة الآيتين وكأنَّها تمثِّل لحمةً واحدةً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ و ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ﴾ فالتَّركيب في كليهما مؤكَّدٌ، وفي كليهما جملةٌ اسميَّةٌ، تنتهي الكلمة الأخيرة بمدٍّ يسبق آخر حرفٍ منها، وفي المعنى نجد ذلك التواؤم بين وصفه بشدَّة العقاب، وبين استحقاق الكافرين لعذاب النار، وكأنَّ الفاصلة الثَّانية جاءت لتفسِّر ما لَمْ تُصرِّح به الفاصلة الأولى.

= على أن وجود هذه القبيلة علة لأن يُتزوج منهم ويتقرب إليهم، لحسن نسائها وشرفها. وفيه إشارة إلى ترتب الحكم على الوصف " خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي: (١/ ٤٥٥)، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(١) ينظر مثل هذا في تحليل قوله تعالى: ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ [ص:٥٧]: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم " الفاء وثم " للدكتور محمد الأمين الخضري: (١٣٠ وما بعدها)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م. وقد أفدت من رؤيته في المسألة.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٥).

ومِن معالم التَّثقيف النَّفسيِّ في الآيات إيقاع المعنى في النَّفس بطُرُق التَّأكيد حين يقترن بذكر الجزاء والعقاب فيُورث في النَّفس الرَّهبة والفزع؛ وذلك لما يُفيده التَّأكيد مِن الجَزْمِ بالوقوع، وفيه تهديدٌ لأمنهم النَّفسيِّ في الدُّنيا إضافةً إلى ما ينتظرهم مِن العذاب في الآخرة.

وفي سياقٍ آخر يقول الله تعالى ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال: ٤١].

جاءت الآية في مطلع معقد السُّورة الثاني، وهو مشابهٌ للبناء الموضوعي في أوَّل السُّورة كما مرَّ، فابتدأ السِّياق بمسألة الأنفال والغنائم ثمَّ عقَّب عليها بتفضُّله ﷻ وعنايته بتلك الفئة المؤمنة، وكيف أمدَّها بالنَّصر والظَّفر كما في هذا المعقد، وجاءت الآية مستفتَحةً بالأمْر بالعلم ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ تنْبيهًا إلى أنَّ شأن المأمور به شأنٌ يستدعي الاستحضار التَّام للذِّهن، والوعي الكامل بشأن التَّقسيم الذي نزلتْ لأجله السُّورة، وقضيَّة تقسيم الأنْفال على هذا الوجه هو تحقيق العدْل الذي أمر الله ﷻ به، عدلٌ يحقِّق مبدأ التَّكافل للمجتمع بكافَّة مستوياته وأطيافه، فينتج عن هذا التَّكافل الإصلاح الاجتماعيّ الذي أمر الله ﷻ به في أوَّل السُّورة ﴿وَأَصۡلِحُواْ ذَاتَ بَيۡنِكُمۡ﴾، كما أنَّ الامتثال له هو طاعة لله ورسوله، فيكون بذلك قد حقَّقت الفئة المؤمنة التَّقوى المأمور به في مطلع السُّورة، كما أنَّ القضيَّة معلقةٌ بالإيمان ﴿إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾ فنجد أنَّنا نقف أمام صورةٍ تمتدُّ خيوطها إلى فاتحة السورة، تحقِّق المعاني ذاتها بشيء مِن التَّفصيل يقْترب مِن الواقع العمليِّ والحركيِّ، ولذلك فاستفتاح الآية بالأمر بالعلم، ولفت الانتباه إليه بالمبادرة بالتَّطبيق له أهميَّته وشأنه، وله وقْعه وتأثيره في نفْس المخاطَبين، والأمر بالعلم في سورة الأنْفال يأتي في المواضع التي يريد السِّياق القرآنيُّ أنْ يحثَّ المخاطَبين إلى الامتثال لأمر الله أو

اجتناب ما نهى عنه[(١)]، كما نلحظ أنَّ الفعل القلبيَّ منْصَبٌّ على جُملةٍ أُحْكِم بناؤها إحكامًا دقيقًا بتأكيد طرفي الجُملة ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ فالتَّأكيد (واعلموا أنَّما.... فأنَّ...) جاء على هذا القدْر مِن الإقرار؛ لتقوية الحُكْم، وشدِّ أواصره، وغرسه في النُّفوس[(٢)]، ثمَّ قُيِّد بقوله ﴿مِّن شَيْءٍ﴾ ضبطًا للمعنى في (ما)، وإفادةً لشمولية ما يندرج تحت معنى الغنيمة، فهي بيانٌ للموصول للاعتناء بشأن الغنيمة[(٣)]، وبناء هذه الجُملة فيه معنى الشَّرط لما تحْمله مِن معنى المجازاة، فصحَّ دخول الفاء لربْط الجُملتين[(٤)]، هذا البناء بإحكامه وشموليته ودقَّته يعكس في النَّفس معلمًا مِن معالم التَّثقيف وهو عدْل الله ﷻ، وأنَّ الإنْسان مكلَّفٌ بإقامة العدْل الذي أقرَّه الله على هذا الوجْه مِن الإحكام والدِّقَّة.

يقول الله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ جاءت جُملة التَّقسيم مؤكَّدةً مِن وجهين: تأكيدها بأنَّ وما له مِن تأثيرٍ في إقرار المعنى في النَّفس، وتقوية حكْمه، ثمَّ بحذْف خبر جملة(فأنَّ لله خُمُسه) على أنْ تذهب معه النَّفس كلَّ مذهبٍ في إفادة الإيجاب بالمقدَّرات[(٥)] نحو: فأنَّ لله خُمُسَه لازمٌ أو ثابتٌ أو واجبٌ فتعدُّد احتمالات ألفاظ الوجوب يُفيد التَّأكيد؛ لأنَّه أقوى مِن إيجابٍ بالنَّصِّ

---

(١) تلك المواضع هي: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال:٢٤] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنفال:٢٥] ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنفال:٢٨].

(٢) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٢٠٤).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٢٢).

(٤) ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله النسفيّ: (١/ ٤٧١)، ضبطه وخرّج أحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥م.

(٥) ينظر: حاشية سعد الدين التفتازاني على الكشاف: (٣٧٨/ أ) [مخطوطة بحوزة مكتبة الحرم النبوي الشريف، برقم تصنيف: ٢١١].

على واحدٍ[1]. تلك الأساليب المؤكَّدة كانت تقوم بوظيفتها التمهيديَّة لتقرير ما سيأتي في النُّفوس، ومن ثمَّ جاء إيضاح التقسيم فذكر اسم الجلالة وعطْف عليه الرَّسول وباقي المعطوفات ولذلك أوجه:

أحدُها: أنْ يكون المقصود بذكر اسم الجلالة صرْف بعض هذه الغنائم، ليكون مصرفًا مِن مصارفها لبيت الله ﷻ، فيكون بذلك ستة مصارف[2]. أو أنْ يكون المقصود بذكر اسم الجلالة التَّبرُّك بذكْره، والاستفتاح باسمه، فلله الدنيا والآخرة، وما فيهما، ثمَّ تأتي المعطوفات تبعًا لذلك، فتكون أوجه التَّصريف للرَّسول ﷺ ولذوي القُرْبى واليتامى والمساكين وابن السَّبيل، خمْسة أسْهمٍ[3].

والأعلى أنْ يكون اسم الجلالة جامعًا لوجوه التَّقرب إليه ﷻ، ثمَّ فصَّل تلك الوجوه، فيكون مِن التَّفصيل بعد الإجمال، ويكون المعنى فأنَّ لله خمسه للرَّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، أما الواو بين اسم الجلالة والرَّسول فإنَّها واردةٌ، والمراد إلغاؤها على طريقة العرب، كما وَرَدَ في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً﴾ [الأنبياء:48] فالواو ملغاةٌ، أيْ: الفرقان ضياءً، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات:103] والمعنى فلمَّا أسلما تلَّه للجبين، وكما قال الشَّاعر:

بَلَى شَيْءٌ يُوَافِقُ بَعْضَ شَيْءٍ وَأَحْيَانًا وَبَاطِلُهُ كَثِيرُ[4]

(1) ينظر: الكشاف: (2/ 165).

(2) ينظر: جامع البيان: (13/ 550 و 551).

(3) ينظر: السابق: (13/ 548).

(4) البيت منسوب لزَبّان بن سيّار بن جابر في البيان والتبيين للجاحظ: (3/ 305)، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، بيروت، دون ت. ط، والحيوان للجاحظ: (3/ 447)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، بيروت، 1417هـ/ 1996م، وبلا نسبة في: المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي: (2/ 158)، مراجعة وتعليق: محمد سعيد، نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى 1421هـ/ 2001 م، والرواية فيها جميعا (أحايينا وباطله كثير).

والمعنى أحيانًا وباطله كثير[1].

والمفهوم من معنى الواو ليس إلغاءها، بل تمييزًا لمعنًى أو حدثٍ حتَّى أصبح له استقلاله، إمَّا تنبيهًا أو تشريفًا وتعظيمًا، وهو ما يُلمس في العطف على اسم الجلالة تنويهًا بمقام الرَّسول ﷺ دون بقية أسْهم الغنيمة والله أعلم. واللام في قوله تعالى: ﴿وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ لدفْع توهُّم مشاركتهم لسهْم الرَّسول ﷺ[2]، وفيه ترتيبٌ للمقامات، فكأنَّ ورودها آتٍ للفصْل بين مقامات هذه الأسماء، فوَرَدَتْ مع اسم الجلالة، ثمَّ وَرَدَتْ مع الرَّسول ﷺ، ثمَّ وَرَدَتْ مع ذي القُربى تمييزًا لما قبلها مِن حيثُ المقام. ومِن بديع النَّظم في الآية ما ذَكَرَه أبو حيان مِن مجيء التَّركيب على صورةٍ تُوحي بمقام التَّشريف الذي اختصَّه الله بنفسه، وذلك بالفصْل بين المعطوفات، وبين اسم الجلالة بقوله خمسه "ليُظهر استبداده تعالى بكينونة الخُمس له، ثمَّ أشْرك المعاطيف معه على سبيل التَّبعيَّة له، ولَمْ يأتِ التَّركيب فإن لله وللرَّسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السَّبيل خمسه "[3]

ومِن المعاني التَّثقيفيَّة في الآية تفضُّل الله ﷻ على عباده، فحين حكَم بكونها لله ورسوله ﷺ منذُ مطْلع السُّورة علِم ضعف المؤمنين، وحاجتهم البشريَّة، فردَّ ذلك إليهم، وقسمها فيما بينهم مع بقاء ذلك لله[4]، نجد ذلك التَّقسيم العدْل بعد أنْ عالج القرآن الكريم تلك القضيَّة في منبتها رابطًا ذلك بمسألة الإيمان، تلك القسمة التي ارتضاها الحقُّ ﷻ فحوَّلها مِن شيءٍ تتنازع فيه النُّفوس إلى إصلاحٍ اجتماعيٍّ، ومبدإٍ تكافليٍّ يقوم على أساسٍ متينٍ مِن الإيمان، لذا علَّقت الآية الكريمة التَّنفيذ بتحقُّق الإيمان كما وَرَدَ في مطلع السُّورة الكريمة ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ

(١) ينظر: أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص: (٣/ ٦٢)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت. دون ت. ط.

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٢٢).

(٣) البحر المحيط: (٤/ ٤٩٩).

(٤) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢١٩).

﴿ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾ فعلَّق تقسيم تلك الأسْهم على هذا الوجه، والتَّقرب إلى الله ﷻ به بإيمانهم بالله، وبما أَنْزل الله على رسوله ﷺ يوم بدْرٍ، وهو مِن التَّخلُّص البديع مِن مسألة الغنائم إلى التَّذكير بما حَصَل يوم بدْرٍ؛ لتستشعر النُّفوس حين تقرأ حكْم الله أنَّ هذا الحكم العدْل منه ﷻ الذي أظلَّكم بظلال الأمان والاطمئنان، فنشر عليكم سكينته، وأمدَّكم بنصره، فمسألة الإيمان يعوِّل عليها السِّياق كثيرًا في التَّسليم لأمر الله ﷻ، كذلك ما رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنه في حديث وفْد عبْد القيْس: أنَّ رسول الله ﷺ قال لهم: "آمركم بأربعٍ وأنهاكم عن أربعٍ: الإيمان بالله، وشهادة أن لا إله إلا الله، وعقد بيده واحدةً وقال مسدد: الإيمان بالله، ثمَّ فسَّرها شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدُّوا الخمس ممَّا غنمتُم"[(١)] فجعل أداء الخُمس مِن الإيمان؛ لأنَّها تعود إلى التَّسليم لأمر الله ﷻ. وتخصيص ذكْر ما أنْزل على عبْده يوم الفرقان مِن بين جُملة المعتقدات؛ لأنَّ له مزيد تعلُّقٍ بالمبادرة بالعمل[(٢)]، والإضافة في قوله تعالى ﴿عَبۡدِنَا﴾ للتَّشريف والتَّعظيم؛ لما فيها مِن وصف كمال الذُّل لله ﷻ، ثمَّ إضافتها للنُّون التي تُفيد كمال التَّعظيم، جمعتْ كمال العبوديَّة البشريَّة إلى كمال العَظَمَة الإلهيَّة، فتعليق التَّسليم بالتَّقسيم بالإيمان هو مِن التَّعقيب الذي يتَّصل اتِّصالًا وثيقًا بمقصد السُّورة.

فالآية جمعتْ بين المعلم التَّثقيفيِّ السُّلوكيِّ والمعلم التَّثقيفيِّ الإيمانيِّ، فقسمة الغنائم سلوكٌ يحقِّق في النَّفس انتزاع الشُّحِّ، وتحقيق العدْل، والتَّكافل، وإقامة المجتمع على أساسٍ متينٍ مِن الأُلفة والتَّآخي، كما يحقِّق التَّثقيف الإيمانيَّ في التَّسليم كما مرَّ. ولأنَّ السِّياق سياق تعْظيم وتفخيم لأمر المنْزَل فقد التفت السِّياق مِن الاسم الظَّاهر إلى ضمير المتكلِّم ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾؛ ليكون أدْعى إلى غرْس المهابة في النُّفوس مع

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الأشربة، باب في الأوعية، حديث رقم: (٣٦٨٥) (٤/ ٢٥٨)، تحقيق: محمد عوامة، نشر دار القبلة للثقافة الإسلامية، جدة، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. قال الشيخ الألباني صحيح.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ١٤).

ما فيه مِن التَّعظيم للمُنزِل والمُنزَل.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ بما تدلُّ عليه مِن شُمولٍ وعُمومٍ قدرته، فالتعميم في قوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾ جاء ليغرس في النَّفس الاستبشار والمهابة، أمَّا الاستبشار فلقدرته الكاملة على تحقيق النَّصر والظَّفر لعباده المؤمنين، وأمَّا المهابة فلما تُوحيه الآية مِن القُدْرة على الإهْلاك والتَّنكيل.

وفي سياق ذكر اغترار الكافرين بأنفسهم، وخروجهم بطرًا ورئاءً، وتزيين الشيطان لهم الخروج، يذكر الله ﷻ مقالتهم الكاشفة عن فساد التَّصوُّر، فصُدِّرتْ الآية بقوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[الأنفال:٤٩] والتَّعبير بالمضارع يُفيد أنَّ تلك المقالة ذاعتْ وانتشرت بين صفوف المنافقين الذين كانوا بين أظهر المشركين، أو أنْ تكون صَدَرَتْ مِن أولئك(١) في أوقاتٍ مُتفاوتة لما يدلُّ عليه المضارع مِن التَّجدُّد والحدوث، ثمَّ عَطف عليه ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ والعطف هنا إمَّا أنْ يكون على ذاتين مختلفتين، فيكون المشار إليه المنافقين ومَن في قلبه مرضٌ بتغاير الذوات، وعليه قيل إنَّ المنافقين هم مِن الأوس والخزرج بالمدينة، والذين في قلوبهم مرضٌ هم المشركون(٢).

ومِن المفسِّرين مَن ذَهَبَ إلى أنَّ المقصود بالذين في قلوبهم مرضٌ اليهود الذين

---

(١) ذكر السهيلي أن قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ "نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ مَكّةَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا، ثُمّ خَرَجُوا مَعَ الْمُشْرِكِينَ إلَى بَدْرٍ، فَلَمّا رَأَوْا قِلّةَ الْمُسْلِمِينَ شَكّوا، وَقَالُوا: غَرّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ، مِنْهُمْ قَيْسُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمُغِيرَةِ، وَقَيْسُ بْنُ الْفَاكِهِ وَجَمَاعَةٌ سَمّاهُمْ أَبُو بَكْرٍ النّقّاشُ، وَهُمْ الّذِينَ قُتِلُوا فَضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ". الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: (٥/ ٢٤٠)، تحقيق وتعليق وشرح: عبد الرحمن الوكيل، نشر دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٤١٠ هـ/ ١٩٩٠م.

(٢) ينظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي: (٣/ ٢٧٩)، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه: أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

سكنوا المدينة، وأشار إلى ذلك البقاعيُّ بقوله: "﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أيْ ممَّن لَمْ يرسخ الإيمان في قلبه ممَّن آمن ولم يهاجر، أو مِن اليهود المصارحين بالكُفْر حين يرون الكفَّار وقوتهم وكثرتهم، والمؤمنين وضعفهم وقلَّتهم"(١)، وتَبِعَه في ذلك الشَّوكانيُّ(٢)، واستدلَّ البقاعيُّ في ذلك بما ذَكَره البغويُّ في قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣] قال: " قَرَأ أهل المدينة ويعقوب بالتَّاء، يعني تَرَوْنَ يا معشر اليهود أهل مكة مِثْلَي المسلمين، وذلك أنَّ جماعةً مِن اليهود كانوا حضروا قتال بدْرٍ لينظروا على مَن تكون الدَّائرة، فرأوا المشركين مثلي عدد المسلمين، ورأوا النُّصرة مع ذلك للمسلمين، فكان ذلك معجزةً وآيةً"(٣). ويُضعِّف هذا الرأي أنَّ حضور اليهود ومشاهدتهم لمن تكون الدَّائرة لا يلزم منه صدور القول عنهم مع عدم ثبوت ذلك مِن السِّيَر. ويجوز أنْ يكون المقصود ذاتًا واحدةً، واختُلف في طريق تأويل ذلك أتكون الواوُ لتأكيد لصوق الصِّفة بالموصوف أمْ الواو الواقعة بين المفسَّر والمفسِّر أم غير ذلك. وتحقيق ذلك على القول بعدم تغاير الذوات أنَّه مِن عطف الصِّفات، والعطف يقْتضي المغايرة، فيكون العَجَبُ والتَّعجيب مِن حال أولئك الذين جمعوا بين النِّفاق والشَّكِّ والرِّيبة، ومَرَض القلوب، فالعطْف " لتغيُّر الوصفين، فكأنَّه قيل: وإذ يقول الذين جمعوا بين النِّفاق والشَّكِّ في الإيمان"(٤) ولو أُسقطتْ الواو لكان الذين في قلوبهم مرضٌ وصفًا للمنافقين، ولذَهَبَت الإشارة إلى الجمْع بين هاتين الصِّفتين اللتين وَقَع

---

(١) نظم الدرر: (٣/ ٢٢٨).

(٢) ينظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: (٢/ ٣١٦)، نشر مطبعة البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

(٣) معالم التنزيل: (٢/ ١٤)، حققه وخرج أحاديثه: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة وسليمان الحرش، نشر دار طيبة، الرياض، الطبعة الرابعة ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م.

(٤) حاشية ابن التمجيد على البيضاوي بذيل "حاشية القونوي على البيضاوي": (٩/ ١٠٤) ضبطه وصححه وخرج آياته: عبد الله محمود محمد عمر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة، الأولى ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠١م.

الذَّمُّ بهما[1]، ويبقى أنَّ النِّفاق مِن المرض الذي في القلْب، فادِّعاء تغاير الأوصاف غير دقيق. والأعلى في ذلك أنْ يكون مِن عطف العامِّ على الخاصِّ؛ لأنَّ النِّفاق مِن مرض القلب، فيدخل في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ بعض ضعاف الإيمان مِن غير المنافقين.

والتَّعبير عنهم بهذا العنوان؛ لأنَّه مُناقض للصِّفة الدَّاعية إلى التَّوكُّل مقصدِ السُّورة الكريمة. واصطفاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على (مَرِضَت قُلُوبُهم) للدَّلالة على تمكُّن المرض في القلوب، حتَّى كأنَّها أقامت فيه، فظلَّتْ تحتفظ بهذه الأدْواء النَّفسيَّة لا تقاومها، ولا تتخلَّص منها[2]. والتَّعبير بالقلوب هو الأليق بالسِّياق؛ لأنَّه يصف ذلك الشَّكَّ والاعتقاد المبنيَّ على الظَّنِّ فكأنَّ قلوبهم تقلَّبت بين التَّصديق والتَّكذيب مع رُجحان التَّكذيب.

والجمع بينهما بالعطف على المنافقين، فيه دلالةٌ تثقيفيَّة على أن ضعف اليقين بالله في مثْل هذه المواطنِ التي ينبغي على النُّفوس فيها أن تتعلَّق بالحقِّ ﷻ هي في درجة النِّفاق بغضًا وذمًّا، فأشار العطف إلى الاستواء في القبح والذمِّ الذي ينأى عنه المسلم.

وتقديم المفعول على الفاعل في قوله تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ يُفيد عنايتهم واهتمامهم بالمفعول، فمقصد الكلام متوجِّهٌ إلى التَّحقير مِن شأن هؤلاء، والإخبار عنهم، لا الإخبار عن سبب الغرور، فكان التَّقديم دالًّا على هذا المقصد، إضافةً إلى العلَّة النَّحويَّة المصحِّحة للتَّقديم[3]، كما يُفيد اسم الإشارة (هؤلاء) التَّحقير[4]، ومِن

---

(١) أشار الدكتور محمد أبو موسى إلى هذه اللطيفة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] ينظر: من أسرار التعبير القرآني " دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ": (١١٠)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) ينظر: الموضع السابق.

(٣) لاتصال الضمير العائد على المفعول به بالفاعل.

(٤) جهة دلالة اسم الإشارة للقريب على التحقير أن الأمر القريب يكون سهل التناول، وعلى عكسه فالبعيد =

هُنا نلحظ أنَّهم وقعوا فيما اتَّهموا فيه غيرهم؛ لأنَّ داعي التَّحقير هو الغرور بالقوَّة، واستصغار الخصْم، فضلًا عن خطإ التَّصور، وفساد النَّظر؛ ولذلك جاء التَّعقيب الإلهيُّ مصحِّحًا حقيقة الصُّورة مِن زاوية لا يتحدَّث عنها إلا المطَّلع على خفايا القلوب فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأنَّ حقيقة التَّوكُّل مسألة معتقد، وإنْ كان يلزمها العمل، والتَّعقيب الإلهيُّ لا يأخذ سِمَة النَّفي أو الإثبات لمقالة المنافقين، بلْ يضع الحقيقة في صورةٍ تتضمَّن الرَّدَّ على تلك المقالة، ويحفظ للمعنى بقاءه وديمومته وصلاحه لكلِّ زمانٍ ومكانٍ، يقول أبو حيان: "﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ هذا يتضمَّن الرَّدَّ على مَن قال ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ﴾ فكأنَّه قيل: هؤلاء في لقاء عدوِّهم هم متوكِّلون على الله فهم الغالبون "(١).

وجاء النَّظم الكريم بأسلوب الشَّرط ليدلَّ على أنَّه متى تحقَّق الشَّرط تحقَّق جزاءه مِن جهةٍ، فيضمن ارتباط الجزاء بتحقيق الشَّرط، ومِن جهةٍ أخرى فالتَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَوَكَّلْ﴾ في حيِّز الشَّرط يدلُّ على تجدُّد ذلك، وبقائه صالحًا لكلِّ مَن يُحقِّق شرط التَّوكُّل. وأفادت (مَنْ) العموم ليشمل كلَّ صادقٍ في توكُّله، واسم الجلالة (الله) له وقْعه النَّفسيُّ الذي يُوحي بقدرة المتوكَّل عليه، وتفرُّده بالأُلوهيَّة، ولهذا أُعيد اسمه الجليل في موضع الإضْمار تربيةً للمهابة في النُّفوس. ولَمْ يأتِ جواب الشَّرط صريحًا، بلْ دلَّتْ عليه الجُملة الاسميَّة المؤكَّدة بإنَّ تقريرًا لهذا المعنى في النُّفوس، وليكون التَّعبير دالًّا على أنَّ النُّصرة هي لازمٌ مِن صفاته الدّائمة؛ لأنَّ التَّعبير في هذا الموضع بالصِّفة أبْلغ مِن الفعل، فلو جاء في غير القرآن (فَسَيَنْصُرُه اللهُ) لمْ يكن دالًّا دلالةَ التَّعبير بالصِّفة التي تُفيد أنَّ النُّصرة لازمٌ مِن لوازم قدْرته وحكمته، فما في

= يدل على مشقة الوصول، فكما استلزم البعد العظم، استلزم القرب التحقير، وهذه المعاني ليست في حاق اسم الإشارة إنما هي معان يدل عليها السياق، ولذلك فقد تفيد الإشارة ذاتها معنى في سياق وتفيد ضده في سياق آخر.

(١) البحر المحيط: (٤/ ٥٠٦).

الصِّفة يشمل هذا المعنى وأكثر منه، ونلمح هـذا جليًّـا إذا اعتبرْنـا الجُملـة واقعـةً موْقـع التَّعليل لما سَبَقَ، والتَّعبير بالعزَّة والحكْمة في فاصلة الآيـة مناسـبٌ لمضـمون مـا سَـبَق، لأنَّ مقالة المنافقين كانت تحقِّر انتصار الفئة المؤمنة، فكـان التَّعبير بـالعزَّة دالًّا عـلى تمـام قوَّته وقدرته التي لا تُقهر، والتَّعبير بالحكمة ضبْطٌ لمعنى القدْرة والقَهْر أنَّهـا في الموضـع الصَّحيح، فالتَّعبير بالعزَّة والحكمة في موضع جواب الشَّرط هو مِن الكنايـة؛ لأنَّـه دلَّ عـلى نصرـة المتوكِّـل وهـو الـلازم، بـالملزوم وهـو اتِّصـافه بـالعزَّة والحكْمـة، ومستوى الدَّلالة فيه إيماءٌ وإشارةٌ لقرْب الدَّلالة بين الملزوم واللازم، وهـو مِـن دلالـة الموصـوف على الصِّفة.

فالآية الكريمة تشير إلى خواء النُّفوس، التي تقيس الأمـور بظواهرهـا، وتغييـب عنها حقيقة العقيدة والمبادئ الثَّابتة، وتقيس الأمور بظواهرها الماديَّة البحْتة، ولكنَّ الله ﷻ لَفَـتَ عنـايتهم إلى قيمـة المبـدأ والعقيـدة، وأنَّهـا العامـل الأقـوى في حيـازة أسـباب الانتصار، وفي هذا إشارةٌ للمؤمنين أنَّنا لا ننْتصرـ بالسِّـلاح رغـم حاجتنـا إليـه، ولكـنَّ الانتصار هو انتصار العقيدة التي تمْنح الثَّبات في أرض القتـال، " والعُصْـبة المسـلمة في كلِّ مكانٍ وفي كلِّ زمانٍ مدعوَّةٌ إلى أنْ تَزِنَ بميزان الإيمان والعقيدة؛ وأنْ تُدرك ببصيرة المؤمن وقلبه، وأنْ ترى بنور الله وهداه، وألَّا تتعاظمها قوى الطـاغوت الظَّـاهرة، وألَّا تسـتهين بقوَّتهـا ووزْنهـا فـإنَّ معهـا الله، وأنْ تُلقـي بالهـا دائـمًا إلى تعلـيم الله سـبحانه للمؤمنين"[1].

وفي سياق الامتنان على المؤمنين بما أنزل عليهم من عوامل الثَّبات والطمأنينـة في غــزوة بــدر يقــول تعــالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[الأنفال:١١]، فذكر ﷻ ما تَرتَّب مِن نِعَم وفوائد لهذا الماء الذي نزَّلـه علـيهم بقولـه تعـالى: ﴿لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾وابتُدئ بالتَّطهير لأنَّه ألْصق الفوائد بجنْس الماء، وعُطف على التَّطهير قوله تعالى:

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٣٣).

﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ وقُدِّم المتعلِّق ﴿عَنكُمْ﴾، يقول ابن عاشور: "وتقديم المجرور في قوله: ﴿عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ للرِّعاية على الفاصلة؛ لأنَّها بُنيت على مدٍّ وحرْفٍ بعده في هذه الآيات والتي بعدها مع ما فيه مِن الاهتمام بهم"[1]، والذي ذَهَبَ إليه العلَّامة ابنُ عاشور لا يصحُّ أنْ يكون هو كلَّ التَّوجيه البيانيِّ للتَّقديم؛ لأنَّ الأصل في التَّقديم والتَّأخير، وفي كلِّ أسلوبٍ في البيان البليغ أنْ يتطلَّبه المعنى ويسْتدعيه، لا أنْ يُحمل على المناسبة الصَّوتيَّة، وكان الأجْدر أنْ يُقيم ما جعله تابعًا أصْلًا للتَّقديم، وهو العناية والاهتمام، وأنْ يجعل الأصْل تابعًا، وهو المناسبة الصَّوتيَّة وحدها، فوجْه التَّقديم العناية والاهتمام؛ ليدلَّ على أنَّ التَّفضُّل متوجِّهٌ إليهم لا لغيرهم، وحصلت به الطَّهارة الحسيَّة برفْع الحَدَث، والطَّهارة الباطنة بإذهاب الوسْوسة، فالعطف هُنا عطفُ اللازم على الملزوم؛ لأنَّ الشَّيْطان وسْوس لهم بالجنابة، فلمَّا رُفِعَت الجنابة بالتَّطهير استلزم إذهاب وسْوسة الشَّيطان، وقدْ أشار إلحاق اللام بالتَّطهير وطيُّها في الإذهاب إلى هذه النُّكْتة.

ثُمَّ ذَكَر علَّةً ثالثةً لهذا الماء، وهو تثبيت القلوب والربْط عليها، ولمَّا كان مغايرًا في جنْسه لما تقدَّم أَلْحَق اللام للدَّلالة على علَّةٍ مغايرةٍ[2]، وجاء اختصاص الرَّبط بالقلْب؛ لأنَّه محلُّ الإقدام والثَّبات والطمأنينة، فإذا ثَبَتَ القلب قَوِيَتْ الهمَّة والعزيمة، وأشار إلى هذا المعنى بالعطْف على طريقة عطْف اللازم على الملزوم[3] لأنَّه إذا ثَبَتَ القلب، واطمأنَّ ثبَتَ الأقدام في مواطن القتال، وثبات القَدَم كنايةٌ عن البسالة والمصابرة في القتال. وقيَّده بقوله ﴿بِهِۦ﴾ دلالةً على العناية بهذا الماء، كما حقَّق تأخيره المناسبة بين الفواصل بانتهاء الآية السَّابقة بالمدِّ بالياء، ثمَّ الميم، وفي هذه المدُّ بالألف، ثمَّ الميم،

الرسالة

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٦٩).

(٣) ينظر: الموضع السابق.

وبالتي بعدها المدُّ بالألف ثمَّ النُّون[1]، وللعلَّة السَّابقة لَحِقَتْ اللام بالغرض الأصليِّ، ولمْ تلْحقْها في العلَّة التَّبعيَّة، وعلى عكْس التَّرتيب، قُدِّمت العلَّة الباطنة وأُخِّرت العلَّة الظَّاهرة؛ لأنَّ القصْد في التَّرتيب إلى الأصالة والتَّبعيَّة، ولَمْ يُقيِّد الإذهاب والرَّبط على القلوب وهي عللٌ باطنة؛ لأنَّ إيقاع العِلل ليس شيئًا محسًّا في طبيعة الماء، ومِن جنْسه، إنَّما بتمكين الله له في النُّفوس. ولعل في مجيء هذين الفعلين دون تضعيفٍ إشارةٌ إلى ذلك.

فأشار بهذا العطف إلى شمول وجوه المنن والإعداد للجانبين الحسيِّ والروحيِّ، وفي ذلك تثقيف للمؤمنين بمراعاة هذين البُعدين في الإعداد للقتال، بأن يشمل الإعداد جانبًا حسيًّا عمليًّا، وأن يُعتني بالجانب الروحيِّ المساعد على الثَّبات والطمأنينة؛ ولهذا كان ذكْر هذه العلل من أعظم وجوه الامتنان على المؤمنين.

وفي نظم الآية كذلك ذِكْر القيد ﴿مِّنۡهُ﴾ دلالةً على أنَّ هذا التَّفضُّل من الله ﷻ؛ لإفادة تشريف النُّعاس لكونه واردًا مِن الله ﷻ[2]، ويدلُّ القيد على أنَّ الأمن ليس أمْنًا عاديًّا، بل أمنًا معجزًا؛ لأنَّه نَزَلَ عليهم على الرَّغم مِن خوفهم وفَزَعهم مِن القتال، وذَكَرَ الرَّازي فوائد لهذا النُّعاس منها:

١ - الخائف لا ينام، فإذا غَشِيهم النَّوم كان ذلك دالًّا على حصول الأمْن.

٢ - النُّعاس مكَّنهم مِن التَّغلُّب على دواعي الخوف مِن العَدَد والعدَّة والعَطَش.

٣ - كان النَّوم نومًا نعاسًا يحصل به زوال الإعياء دون الإغراق فيه فيتمكن منهم العدوُّ.

(١) ينظر: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم للدكتور علي أبو القاسم عون: (٣/ ٨٤٥)، نشر دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٩).

٤ النُّعاس غشيهم كلَّهم، وحصوله للجميع مع خوفهم دالٌّ على الإعجاز[(١)].

كما نلحظ كذلك المجانسة الصَّوتيَّة بين قوله تعالى: ﴿يُغَشِّيكُمُ﴾ و﴿وَيُنَزِّلُ﴾ بصيغة (فَعَّل) دلالةً على الاهتمام، لأن السياق في مجمله دال على العناية بهم، وبعد أن ذَكَر النُّعاس آية الموت، ذَكَر ضدَّه الماء آية الحياة[(٢)]، وفي هذا التَّضاد دلالةٌ على أنَّ الله الذي ينصركم بيده الموت والحياة، فالإتيان بالضِّدِّ دلَّ على شمول قدْرته، مع ما يُوقعه التَّضاد مِن التَّناسب في العطْف، ثمَّ قدَّم المتعلِّق ﴿عَلَيْكُم﴾ ليدلَّ أنَّ هذا الماء الذي أَنْزَل كان لأجلهم، وللعناية بهم، فيسَّر الله بها درْبهم، وقوَّى به عزائمهم، والتفت إلى هذا أبو السعود بقوله: "تقديمُ الجارِّ والمجرور على المفعول به؛ لما مرَّ مرارًا مِن الاهتمام بالمقدَّم، والتَّشويق إلى المؤخَّر، فإنَّ ما حقُّه التقديمُ إذا أُخِّر تبْقى النَّفسُ مترقبةً له، فعنْد ورودِه يتمكَّن عندها فضلُ تمكنٍ، وتقديمُ عليكم لما أنَّ بيانَ كونِ التنزيلِ عليهم أهمَّ[(٣)] مِن بيان كونه مِن السَّماء"[(٤)] كما أنَّ تقديم القيْد هُنا ولَّد جناسًا صوتيًّا بين ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ و﴿مَآءً﴾، وهذا التَّوافق الصوتيُّ منْسجمٌ مع مصْدر الماء، كما يدلُّ تنكير ﴿مَآءً﴾ على وفْرة هذا الماء بقرينة التَّضعيف في قوله ﴿وَيُنَزِّلُ﴾[(٥)].

وفي سياق ذكر كفايته ﷻ لعباده المؤمنين، ومنَّته عليهم يقول الحقُّ ﷻ:

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٣٦ و ١٣٧).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ١٩٢).

(٣) وهذا أصل من الأصول البلاغية أشار إليه الإمام عبد القاهر بقوله: "واعلم أنا لم نجدهم اعتمدوا فيه شيئاً يجري مجرى الأصل، غير العناية والاهتمام. قال صاحبُ الكتاب، وهو يذكر الفاعل والمفعول: "كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم" ثم أشار إلى ضرورة إيضاح المزية البلاغية وعدم الاكتفاء بذكر الخصائص. دلائل الإعجاز: (١٠٧ وما بعدها).

(٤) إرشاد العقل السليم : (٤ / ٩).

(٥) عدي في سورة الأنعام باللام في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [النمل:٦٠] وذلك في سياق التبكيت والإلزام وإقامة الحجة والإقرار، فعلم بهذا أن للسياق أثر في اصطفاء حرف التعدية.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:٦٤] .

قيل نَزَلَت هذه الآية في إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١)، وعليه فالآية مكيَّة، وقيل نَزَلَت في البيداء ببدْرٍ قُبيل المعركة(٢)، وعليه فالآية مدنيَّة، وسَبَقَ في سياق الآيات ذكْر كفايته سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ، ولكنَّ تلك الكفاية كانت في سياق الخداع، ونقْض المواثيق، فتكون الكفاية فيها كفايةً خاصَّةً، أمَّا الكفاية هُنا فهي كفايةٌ عامَّةٌ، يقول الرَّازيُّ: " اعلم أنَّه تعالى لَمَّا وعده بالنَّصر عنْد مخادعة الأعداء، وَعَدَه بالنَّصر والظَّفَر في هذه الآية مُطْلقًا على جميع التَّقديرات، وعلى هذا الوجه لا يلْزم حصول التِّكرار؛ لأنَّ المعنى في الآية الأولى، إنْ أرادوا خداعك كفاك الله أمرهم. والمعنى في هذه الآية عامٌّ في كلِّ ما يحتاج إليه في الدِّين والدُّنيا"(٣) والنِّداء موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ تشريفًا وتودُّدًا، وطمأنةً له وللمؤمنين، واصطفاء مناداته بالنُّبوَّة لدلالته على رفْعته، واطِّلاعه مِن جهة المولى عز وجل على ما يخفى على العباد؛ لأنَّ السِّياق سياق إخبارٍ عن الغيب، والتَّصرُّف في الملكوت(٤)، وهو ما يُشْعر بعلوِّ الحُكْم، ويُلمس في نداء النَّبيِّ ﷺ بأداة النِّداء (يا) مراعاة حال المخاطَبين لشدِّ انتباههم؛ لأنَّ ما بعد النِّداء يستدعي الاستعداد النَّفسيَّ والإصغاء، والمدُّ لافتٌ إلى ما سيأتي بعد النِّداء ومشوِّقٌ إليه، واصطفاء اسم الجلالة الأعظم مناسبٌ لمعنى الكفاية؛ لدلالته على كمال القدْرة والتَّفرُّد بالألوهيَّة، والواو عاطفةٌ.

---

(١) استنادا على ما أورده الواحدي بسنده عن ابن عباس قال: أسلم مع رسول الله ﷺ تسعة وثلاثون رجلا، ثم إن عمر أسلم فصاروا أربعين، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾أسباب النزول: (٢٣٨). وقد ضعف محقق الكتاب سنده، ونقد متنه بما يظهر ضعفه حتى من الطرق الأخرى (ينظر: التعليق في الصفحة نفسها).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٨/ ١٠٦).

(٣) مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٩٧).

(٤) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٣٨).

واختلف في عطف (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، ويجب بدايةً أنْ نُحرِّر المعنى، ثمَّ نصطفي الوجه الإعرابيَّ؛ ليكون المعنى هو الدَّال على الإعراب. يقول ابن جنيٍّ في تجاذب المعنى والإعراب: " فمتى اعتورا كلامًا ما أمسكتَ بعُرْوة المعنى، وارتحتَ لتصحيح الإعراب"(١)، وعليه فهناك تأويلان للآية:

الأوَّل: أنَّ الله ﷻ يكفيك يا محمَّد، ويكفيك مَن اتَّبعك مِن المؤمنين، فالكفاية مِن الله بالأصالة، ومِن المؤمنين كونهم واسطةً لتحقيق كفاية الله ﷻ، وهذا الوجه رجّحه الفرَّاء بقرينة قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥](٢)، وجعله النيسابوريُّ كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢](٣)، وعليه تكون (مَنْ) معطوفة على اسم الجلالة، أو أنْ تكون (من) مبتدأً خبره محذوفٌ، تقديره (حَسْبُكَ)، أو أنْ يكون خبرًا مبتدؤه محذوفٌ. وهذا فيه خطأٌ مِن جهة المعنى؛ لأنَّ الكافي هو الله وحده، وقدْ استدلَّ على خطإ ذلك ابن القيِّم، وذَكَر أنَّ ما استدلوا به في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فيه الرَّدُّ على هذا القول؛ لأنَّ الله ﷻ قال في الآية: ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأفردَ اسم الجلالة في الكفاية، وثنَّى بعباده في التأييد، وفرْقٌ بين الكفاية والتأييد، وعليه جَرَى ثناء الله على عباده حين أفردوه بالحسْب فقالوا: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣].(٤) والاعتماد على الله ﷻ وحده، هو مقصد السُّورة الكليُّ، وهو المعنى الذي يُشِعُّ في كلِّ مقْطعٍ مِن مقاطعه، بلْ في كلِّ آيةٍ مِن آياته.

---

(١) الخصائص: (٣/ ٢٥٥).

(٢) ينظر: معاني القرآن: (١/ ٤١٧).

(٣) ينظر: غرائب القرآن ورغائب الفرقان: (٣/ ٤١٥). ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٤) ينظر: زاد المعاد: (١/ ٤ و ٥).

وعليه فالمعنى الأرجح: يا محمَّد يكفيك الله، ويكفي مَن اتَّبعك مِن المؤمنين، فإعراب (مَن) إمَّا أنْ تكون في محلِّ جرٍّ معطوفةً على الضَّمير في حسْبُك، وقدْ مَنَعَه البصريُّون، أو أنْ يكون منصوبًا بفعلٍ مقدَّرٍ: أيْ يكفي مَن اتَّبعك مِن المؤمنين(١)، فتكون الواو بمعنى مع وعليه تأويل الزَّمخشريِّ، قال بعد أنْ ذَكَرَ أنَّ الواو بمعنى مع: "والمعنى: كفاك وكفى أتباعك مِن المؤمنين الله ناصرًا"(٢) وهو مناط الأثر التَّثقيفيِّ الدَّالِّ على وجوب الاعتماد عليه، وتفويض الأمور إليه.

والفصْل بين الضَّمير العائد عليه ﷺ وبين المتَّبِعين باسم الجلالة لمقتضى التَّشريف مِن جهةٍ، ثمَّ الدَّلالة على أنَّ كفاية الله ﷻ للرَّسول ﷺ في مرتبةٍ أعلى مِن مرتبة كفاية المتَّبِعين؛ لأنَّ كفايته عليه الصلاة والسلام كانت على قدْر بذْله وتحمُّله للأذى والمشقَّة، ولعلَّ التَّصريح باسمه الأعلى في كفايته للنَّبيِّ ﷺ، وإضماره في كفاية المؤمنين يُوحي بهذا المعنى.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مِن لبيان الجنس، ووصفهم بالإيمان دليلٌ على أنَّ استحقاق الكفاية كان لإيمانهم بالله ﷻ، وفي هذا تحفيزٌ لهم وترغيبٌ على الإتيان بمقتضى الإيمان، وفي هذه البشرى طمأنةٌ للنَّبيِّ ﷺ ولعباده المؤمنين، فالكفاية مِن الخالق القادر على أمر المخلوقين مهما عظُم شأنهم، ومهما بلغ عددهم وعُدَّتهم، وإذا كانت الكفاية مِن الله ﷻ المالك لهذا الكون، فإنَّه يُسخِّر كلَّ ما فيه نصرةً لعباده، وإذا كان الله كافيًا عباده المؤمنين فأيُّ عقابٍ ينتظر مَنْ يُعاديهم، ويحارب كلمة الله ورسوله، فكما أنَّ الآية ناطقةٌ بالبشارة والرحمة لعباده الموحِّدين، فهي ناطقةٌ بالتَّهديد والوعيد لَمن حادَّ الله ورسوله.

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٤٦٧ و ٤٦٨).

(٢) الكشاف: (٢/ ١٧٥).

المبْحثُ الثَّاني: أثر أساليب النَّفي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

تتضافر الأساليب البلاغية لتصعيد المعنى المناط به الأثر التَّثقيفي، لتهيئة النَّفس لإيقاع المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١٩] جاءت الآية الكريمة في سياق التَّهديد والتَّهكم بالكافرين، والسُّخرية منهم، ليوقع أثره النَّفسيَّ في قلوب الكافرين، فجاء نظم الآية الكريمة بتعليق مجيء النُّصرة والفتح بطلب الاستفتاح، ووجه التَّهكُّم فيه تعليق هلاكهم وخسرانهم بطلبهم الفتح والنُّصرة، فجاءت المكافأة بضدِّ ما طلبوه، مع تسميته بالفتح، وكأنَّه الفتح الذي كانوا ينتظرونه؛ ولذلك حَسُن إظهار لفظ الفتح في هذا الموضع للمبالغة في التَّهكُّم والسُّخرية.

كما نلحظ أنَّ فعل الشَّرط جاء بصيغة المضارع، وجوابه بصيغة الماضي، وجعل فعل الشَّرط بصيغة المضارع ليُفيد تجدُّدَه، وجوابه بالماضي يُفيد وقوعه وتحقُّقه، فكأنَّ المعنى: كلَّما استفتح أولئك الكافرون فقضاء الله واقعٌ عليهم لا محالة مع سرعةٍ في إنفاذه اقتضت أن يكون التَّعبير به في المُضيِّ. والبقاعيُّ أشار إلى هذا المعنى بإيماءٍ في قوله: "ولعلَّه عبَّر بالمستقبل في الشَّرط، والماضي في الجزاء؛ إشارةً إلى أنَّكم استفتحتم في بدْرٍ، وجاءكم مِن الفتح ما رأيتم، فإنْ كان أعجبكم فالزموه في المستقبل، فإني لا أجيئكم أبدًا ما دمتم على حالكم إلا بما جئتكم به يومئذٍ"(١)، ثمَّ جعل في مقابل هذه الصُّورة صورةً أخرى، هي صورة الاستسلام والإذعان لأمْر الله، فعلَّق الخيريَّة بالانتهاء عن القتال، ثمَّ عطَف على ذلك صورةً ثالثةً متضمِّنةً الوعيد، وذلك بتعليق الوعيد بالهلاك والعودة بالخسران بعودتهم لقتال المؤمنين ومحاربتهم لله ﷻ ورسوله

---

(١) نظم الدرر: (٣/ ١٩٨ و ١٩٩).

ﷺ.

والملاحظ أنَّ المعنى جاء تامًّا، فعرَّج السِّياق على كلِّ الخيارات المحتملة متبوعًا بالجزاء، ولتجعل المخاطَب يتفكَّر بالعواقب في كلٍّ، ويختار ما به النَّجاة في الدُّنيا والآخرة، فهو على كونه جاء مهدِّدًا ساخرًا ترك لهم فرصة الرُّجوع والانتهاء تكرُّمًا منه وإحسانًا، وجعل في هذا الخيار الخيريَّة. جاءت الأساليب الشَّرطيَّة تصعيدًا للمعنى، فالقيمة الوظيفيَّة لهذه الأساليب تهيئة النُّفوس لتلقِّي الحقيقة في قوله تعالى: ﴿وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ والتَّركيب هُنا يُفيد نفي النَّفعيَّة والإغناء إذا جاء أمر الله ﷻ، والنَّفي هُنا متوجِّهٌ إلى المستقبل بدلالة (لَنْ)؛ لأنَّ الماضي دلالته كانت ظاهرةً أمامهم في خسرانهم. وتقديم المتعلِّق للاهتمام، وتأكيد نفي الإغناء عنهم بالذَّات، فأفاد بها أنَّ السُّنَّة جاريةٌ عليهم كلَّما حاولوا محاربة الله ورسوله، وتنكير ﴿شَيْئًا﴾ في سياق النَّفي أفاد عمومه وشموله لنفي ما قلَّ تأكيدًا لانتفاء الإغناء، ثمَّ قيَّد هذا النَّفي بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَثُرَتْ﴾ دفعًا لما قدْ يتوهَّمونه مِن أنَّ الكثرة قادرةٌ على أنْ تنصرهم، وتحقِّق لهم الظَّفَر. والمعلم التَّثقيفيُّ الذي يغرسه في النُّفوس لفتها إلى عظيم قدرته تعالى، وأنّه المدبِّر الذي بيده مقاليد الأمور، فيقع به التَّرهيب للكفَّار لما ينتظرهم من عقابه أمام بطشه وقوَّته مع عدم إغناء النَّاصر، وترْغيبٌ للمؤمنين بأنَّهم يتوكَّلون على المغني، ثمَّ عقِّبت الجملة بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والجُملة تعليلٌ محذوفٌ ما عُلِّل به، "أيْ ولأنَّ الله معين المؤمنين كان ذلك"[(١)] بتقدير اللام أيْ لأنَّ الله مع المؤمنين، ويجوز جعل الجُملة خبرًا لمبتدإٍ محذوفٍ تقديره الأمر أونحوه، ويقترب هذا مِن معنى قراءة كسْر همزة إنَّ لأنَّه يكون حينئذٍ للاستئناف[(٢)]، وتكون الجُملة تذييلية لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ﴾[(٣)]؛ لأنَّها جاءت مؤكِّدةً لمضمون الجُملة السَّابقة،

---

(١) إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٤).

(٢) ينظر: الموضع السابق.

(٣) ينظر: عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي: (٤/ ٤٥٣)، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه: =

فالمقصود بالعودة هُنا النُّصرة والمعيَّة، ثمَّ أكَّد ذلك بالجُملة التذييلية ليتحقَّق بهذا المعنى تضمينًا وتصريحًا، فيكون وقعه آكد في النُّفوس. وسياق الآية كلُّه سياق تأكيدٍ، فمجيء الجُملة مؤكَّدةً بأنَّ تقريرٌ للمعنى، ويقوِّي ذلك مجيء اسم الجلالة مظهرًا في موضع الضمير؛ لما في استحضار اسمه مِن إيقاع الطمأنينة، وأُنْس النُّفوس؛ لاشتمال اسمه الأعظم على معاني الألوهيَّة التي تتضمَّن القدرة، وعبوديَّة كلِّ ما في الكون له، ثمَّ جاء لفظ المؤمنين في هذا السِّياق مثْبِتًا معيَّته لهم مع التَّنبيه إلى أصْل استحقاقهم المعيَّة، وهو الإيمان "فإذا أُديل العدوُّ على المؤمنين في بعض الأوقات، فليس ذلك إلَّا تفريطًا مِن المؤمنين، وعدم قيام بواجب الإيمان ومقتضاه، وإلَّا فلو قاموا بما أمر الله به من كلِّ وجْهٍ، لَمَا انْهزم لهم رايةٌ انهزامًا مُستقرًّا، ولا أُديل عليهم عدوُّهم أبدًا"(١)

ونلحظ كذلك في نظم الآية مقابلةً بين خطاب الله للكافرين، وما وَعَدَ به المؤمنين، وهو خطابٌ تعلو فيه نبْرة الوعيد والتَّهديد في حوار الكافرين، وتعلو فيه نبْرة الشَّفقة والطمْأنة في ذكر المؤمنين. وبنْية هذا السِّياق كلُّه تقوم على المقابلة بين محوري الكُفْر والإيمان، وبالتَّأمُّل في فاصلة الآية وما قبلها يتَّضح ذلك جليًّا بين قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾، ففي مقابلة الابْتلاء للمؤمنين بوعيد الكافرين تحقيقٌ للاطمئنان والاستقرار لنُفوس المؤمنين، وتهديدٌ للكافرين.

ويتضافر النَّفي مع الحذْف لإيقاع الأثر التَّثقيفيِّ، ففي سياق تعليل عقابه لأمم السَّابقة، ومشابهة الكفَّار لحال تلك الأمم يذكر ﷻ سنَّته الماضية في تغيير النِّعم وحلول النِّقم بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال:٥٣] والتَّعبير باسم الإشارة (ذلك) دالٌّ على بُعْد العذاب المشار إليه فيما تقدَّم في العِظَم، ثمَّ أَوْرَدَ التَّعليل مؤكَّدًا تقريرًا للمعنى في

= الشيخ عبد الرزاق مهدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٧م.

(١) تيسير الكريم الرحمن: (٣١٨).

النُّفوس؛ لأنَّها حقيقةٌ كونيَّةٌ، وسنَّةٌ أزليَّةٌ تستوجب التَّنبيه إلى هذا المضمون الذي يأتي في عقب ذكْر عذاب الأقوام، وقوله: ﴿لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا﴾ النَّفي بلَمْ يَصْرف الدَّلالة للمضيِّ، والتَّعبير بالمضارع يُبقي في التَّعبير معنى الاستمرار، فيكون المعنى على نفيه في الماضي والحاضر والمستقبل. و" نفي الكون بصيغة المضارع يقتضي تجدُّد النَّفي ومنفيِّه"[1] والتعبير بـ ﴿يَكُ﴾ كما يذكر النُّحاة لشبَهِهِ بحروف العلَّة[2]، وهذه العلَّة الصَّرفيَّة علَّةٌ مصحِّحةٌ، وليستْ كاشفةً عنْ بلاغة التَّعبير، فالتَّغيير في البنية يقتضي التَّغيير في الدَّلالة، ويكشف البقاعيُّ علَّة هذا الإيجاز فيقول: "﴿لَمۡ يَكُ﴾ هكذا كان الأصْل، ولكن حُذف اختصارًا تقريبًا لبيان تعميم العلَّة، وإبعادًا للسَّامع مِن مثْل ذلك، وحذف نون «يكن» إرشادًا إلى أنَّ هذه الموعظة خليقةٌ بأنْ يُوجز بها غاية الإيجاز، فيبادر إلى إلقائها لما في حُسْن تلقِّيها مِن عظيم المنفعة؛ لأنَّ مَن خالفها جديرٌ بتعجيل الانتقام"[3]. البقاعيُّ إذنْ يجعل الحذف مِن الإيجاز، ويرتِّب على هذا الإيجاز نفيَ القليل منه ليعمَّ الكثير، ثمَّ يستنبط المعنى التَّثقيفيَّ مِن الإيْجاز في إشارته إلى أنَّ إيجازه فيه لفتٌ إلى تكاثر المعنى وأهميَّته، وأنَّ هذا المعنى يستدعي السُّرعة إلى المبادرة والامتثال حتَّى لا يكون جديرًا بالعقاب. وممَّا يُفهم مِن حذف نون (يَكُن) في مثل هذا أنَّ الله يخبر بأنَّه لا يكون أدنى تغييرٍ إذا لَمْ يكن مِن العبْد تغييرٌ، فهو نفْيٌ لأدنى تغييرٍ ليس مؤسَّسًا على تغييرٍ من العبْد.

والتَّعبير بالاسم ﴿مُغَيِّرٗا﴾ يدلُّ على ثبات العقاب إذا وَقَعَ، والسِّياق هُنا سياق عمومٍ؛ ولذلك جاء التَّعبير بالتَّنكير في قوله تعالى ﴿نِّعۡمَةً﴾؛ ليشمل كلَّ نعمةٍ ما دقَّ منها وما عَظُم، وقُيِّدت النِّعمة بالصِّفة ﴿أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ﴾ ليظلَّ المعنى بظلال الربوبيَّة،

---

(١) التحرير والتنوير: (١٠/ ٤٥).

(٢) ينظر: الكتاب: (٤/ ١٨٤) وشرح الرضي على الكافية: (٣/ ٢٧٥) و (٤/ ٢٠٩)، تصحيح وتعليق: يوسف حسن عمر، نشر جامعة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

(٣) نظم الدرر: (٣/ ٢٣١).

ففيه تذْكيرٌ بآلاء الله ونعمه، وأنَّه هو الواهب لهذه النِّعم، فكان جديرًا بالعبْد أنْ يؤدِّي شكْر هذه النِّعم، ويزيد هذا المعنى اتِّساعًا العموم في ﴿قَوْمٍ﴾، يقول أبو حيان: "العموم في كلِّ مَنْ أنْعم الله عليه مِن مسْلمٍ وكافرٍ وبرٍّ وفاجرٍ، وأنَّه تعالى متى أنعم على أحدٍ فَلَمَ يشكر بدّله عنها بالنِّقْمة"(١)، فمقتضى هذا التَّقييد أنَّ الله ﷻ يمهل الفئة التي حادت عن هديه، ويبْعث لهم النُّذر فإذا وقع الإصرار، غيَّر نعمته عليهم بالعذاب والنَّكال، وهكذا نبْصر تلك المعاني الإحسانيَّة في الإمهال والتَّحذير تتكاثر تحت الغاية المتَّسعة في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾(٢). وفي ذلك إشارةٌ تثقيفيَّةٌ إلى واسع رحمته، وعظيم فضله، ودعوةٌ للعباد إلى إصلاح أنفسهم، وتدارك أمورهم قبل أن يغيِّر الله عليهم نعمته، فالتَّغيير لا يكون ابتداء منه، حتَّى يغيِّر الناس ما بأنفسهم. ثمَّ أكَّد دعوته بالإشارة إلى عظيم اطِّلاعه فقال: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ فأكَّد المعنى لتقرير معنى المراقبة في النُّفوس، وجاء ذكْر صفتيه السَّميع والعليم مناسبًا لما تقدَّم؛ لأنَّ قضيَّة التَّغيير مسألة معتقدٍ، وهذا ما يُشير إليه قوله تعالى ﴿مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾، وهو وثيق الصِّلة بمقصد السُّورة الكريمة التي تحثُّ على تصحيح المعتقد، فذكْر السَّميع مناسبٌ لما دقَّ مِن الأقوال، فهو مطَّلعٌ على النَّجوى، وذكْر العليم مناسبٌ لما تخفيه الصُّدور مِن تلك المعتقدات الباطلة، فأثبت بهما شمول إحاطته، كما أنَّ فيهما معنًى تثقيفيًّا وهو التَّحذير مِن تلك الأقوال والمعتقدات، والتَّعريض بأنَّ ما قِيل، وما يُخالج الضمائر يستحقُّ غَضَب الله ومقْتَه وعقابه(٣)، وتقديم صفة السَّمع على العلم عائدٌ إلى قوله تعالى: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ لأنَّ كلَّ ما تقدَّم مِن التَّعقيب كان متفرِّعًا عن هذه الآية. كذلك نَجِدُ هذه الآية امتدادًا للمعنى في قوله تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؛ ولذلك فالمعنى فيه معنى تأكيديٌّ، وليس معنى تأسيسيًّا

---

(١) البحر المحيط: : (٤/ ٥٠٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٤٥).

(٣) ينظر: حاشية ابن التمجيد على البيضاوي: (٩/ ١١٠).

وفي سياق الوعيد كذلك جاء تعليل العقاب في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥١] واسم الإشارة (ذلك) للبعيد؛ إشارةً إلى بُعْد العذاب في الدَّرجة والعِظَم، والأرْجح في الباء أنْ تكون للسَّببيَّة؛ لأنَّ سياق الآيات تعليليٌّ، حتَّى أصبح التَّعليل سمةً مِن سمات السُّورة الكريمة، وهو مؤاخٍ في البناء لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ﴾ [الأنفال:١٣]

وقوله تعالى: ﴿قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ يُفيد تحمُّل الإنسان لتَبِعَة نَفْسِه، وأنَّ هذا العمل لَمْ يكن تحت سطْوة القَهْر أوالغَلَبَة، بلْ هو باختياركم، واصطفاء كلمة (قَدَّمَتْ) تُوحي بهذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ العطْف هُنا قيْدٌ لترتُّب العقاب على الذُّنوب، وليس سببًا ثانيًا للعقاب، لأنَّ الله ﷻ لا يَجب عليه شيءٌ، فلو عفا عن المُسيء لَمْ يكن ذلك منه ظُلْمًا[1]. وفائدة القيْد دفْع توهُّم أنْ يعذِّب الله ﷻ القوْم بغير ذنْبٍ[2]؛ ولإقرار عدله سبحانه وتعالى في النفوس جاءت الجُملة مؤكَّدةً بأنَّ.

وقُيِّد النَّفيُ بصيغة المبالغة (ظلَّام)، وهو ما يثير سؤالًا عن معنى التَّقييد بالنَّفي هُنا؛ لأنَّ المتبادر إلى الذِّهن أنَّ التَّقييد متَّجهٌ إلى المبالغة، فلا يدخل فيه ما هو أقلُّ منه، أيْ أنَّ المنْفيَّ هُنا كونه ظلّامًا، فلا يشمل كونه ظالما-تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-، وقدْ أجاب أهل العلْم عن ذلك بأوجهٍ عديدةٍ، تتفاوت قوةً وضعْفًا، ويمكن تصنيف هذه الأقوال حسْب مناط النَّظر كما يأتي:

(١) وقد هفا الزمخشري - عفا الله عنه - في هذه المسألة بناء على مذهبه الاعتزالي في وجوب الأصلح على الله ﷻ، وهو من أصول المعتزلة وإن خالف بعضهم كبشر بن المعتمر، والصحيح أن الله ﷻ يفعل للعباد ما فيه إصلاحهم لكن لا على سبيل الوجوب بل تفضلا. ينظر: المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها لعواد بن عبد الله المعتق: (١٩٧ ومابعدها)، نشر دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

(٢) ينظر: أنوار التنزيل: (٣/ ٦٣).

أ. أنَّ صيغة (ظلَّام) لا تدلُّ على المبالغة، وهي إمَّا تدلُّ على النَّسَب كعطَّار[١]، أو أنَّها فعَّال بمعنى فاعل، ذكر ذلك ابن المنيِّر[٢]، وإمَّا أنَّ الصِّيغ لا مفاهيم لها كما ذكر ابن عاشور[٣]. أو لعدم التَّفاوت في معنى الظُّلم؛ لأنَّه مرْتبطٌ بالمنْفعة، فكان نفي قليله كنفي كثيره[٤].

ب. أنَّ مناط النَّظَر في (ظلَّام) الاعتبارُ العدديُّ، إمَّا لأجل عبيد[٥]، أو لأجْل أنواع الظُّلم[٦]، أو لأجل المبالغة في النَّفي، أيْ نفي أنْ يكون ذا ظُلْمٍ كثيرٍ بأنْ يُتصوَّر نفي الظُّلم أولًا، ثمَّ المُبالغة في هذا النَّفي[٧].

ج. أنَّ مناط النَّظر في كلمة(ظلَّام) عائدٌ إلى النَّظر في كمال الصِّفات المتعلِّقة بالله سبحانه وتعالى، أو الأفعال الصَّادرة عن جلاله، فإذا عذَّب فعذابه بالغٌ الغاية، إذْ لولا الاستحقاق لكان المعذِّب بمثله ظلَّامًا[٨]، أو لكمال عدْله.

ومجموع هذه الأقوال يدلُّ على دلالاتٍ منها: وضع القيْد موضع المقيَّد، فيلزم من انْتفاء القيْد انتفاء المقيَّد بتنْزيله منزلة اللازم. كما يدلُّ على التَّعريض بشدَّة العذاب

---

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٢٤٩).

(٢) ينظر:الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بذيل"الكشاف": (٤/ ٢٩٥) ضبط وتوثيق: أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، نشر دار الكتاب العربي، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٤٢).

(٤) ينظر: عناية القاضي: (٤/ ٤٩١).

(٥) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧١).

(٦) ينظر: مدارك التنزيل: (١/ ٤٧٦).

(٧) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ١٠٨).

(٨) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧١).

أو مدى المبالغة في إساءة المعذَّب، أو حال المعذَّب وواقعه[1].

وتتضافر عناصر توكيد النَّفي بأنَّ بدايةً، ثمَّ بحرف الباء المَزِيْد لإفادة تقرير النَّفي. وهذا العدْل الإلهيُّ له معنى تثقيفيٌّ يدفع المؤمن لإقامة العدْل ونفي الظُّلم إقرارًا لحكم الله ﷻ، ومِن إقامة العدْل الاستجابة لأمْر الرَّسول ﷺ في دَحْضِ الشِّرْك وأهله، وفي تسليم أمر الأنْفال لله ورسوله ﷺ.

وفي سياق غزوة بدْر المتفرِّع عن سياق غزوة أحد جاء النَّفي معترضًا في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [آل عمران:١٢٧ - ١٢٨]والأعلى في اللام أنْ تكون متعلِّقةً بمحذوفٍ[2]يدلُّ عليه المتقدِّم، فيكون المعنى ليقطع طرفا مِن الذين كفروا أو يكبتهم أو يتوب عليهم أو يعذبهم فعل ما فعل، ونلحظ أنَّ جملة الصِّلة اشتملت على علَّة العقاب، فذكَّرهم بفعلهم الذي استحقوا مِن أجله العقوبة العاجلة، وجعل مآلهم بين الإهلاك والإخزاء على التَّنويع؛ ليكون أبلغ في تعذيبهم مِن التَّرديد.

ثمَّ قال سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ ﴾ فنفى عن النَّبي ﷺ أنْ يكون له أثرٌ في أيِّ شيءٍ، إنَّما هو عبْدٌ مأمورٌ، ولله وحده الأمر كلُّه، فنَزَعَ عن كل ما سواه أنْ يكون له أثرٌ في ذلك، وعلى رأسهم أشرف الخلْق الذي يُبَلِّغ الرِّسالة عن ربِّه، فإذا كان كذلك فغيره مِن باب أوْلى[3].

وتقديم المتعلِّق (لك) جاء ليقوِّي هذا المعنى ويؤكِّده، فإذا انتفى عنه ﷺ فلا يُتصوَّر أنْ يكون لغيره، ويزيد التَّوكيد تنكيرُ (شيء) في سياق العُموم لينفي كلَّ ما دقَّ

---

(١) ينظر: تقييد النفي في القرآن الكريم " دراسة بلاغية " للباحث ياسر محمد بابطين: (١٦٣)، رسالة علمية لدرجة الماجستير مقدمة لجامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا، بفرع البلاغة، بإشراف الأستاذ الدكتور / دخيل الله الصحفي ١٤٢٥هـ.

(٢) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٢٣٢).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٨٢).

وما عَظُم، وفي هذا معلمٌ مِن معالم التَّثقيف بحضِّهم على تفويض الأمر كلِّه لله، والالتجاء إليه، كما أنَّ فيه إشارةً إلى ما حَدَثَ في غزوة أُحُدٍ مِن التَّشبُّث بشخْصه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وتراجع بعض المؤمنين بعد أنْ شاع خبر موته، فيشمل النَّفي هذا المعنى والله أعلم.

ويُلمس مِن هذا الخطاب الربَّانيِّ " شدَّة غضب الله عليهم حيثُ أنَّه - تعالى - تولَّى أمرهم بنفسه، فليس للنَّبيِّ أنْ يتدخَّل في شأنهم أو يُحاول لأنْ يشفع لهم"[١]؛ ولأهميَّة هذه الجُملة المنفيَّة وُسِّطتْ بين المتعاطفات؛ ليكون لها حظُّها مِن الالتفات في النَّفس"وإنَّما خُصّ الاعتراضُ بموقعه؛ لأنَّ ما قبله مِن القطع والكبْتِ من مظانِّ أنْ يكونَ فيه لرسول الله ﷺ ولسائر مباشري القتالِ مدخَلٌ في الجملة"[٢]، ثمَّ عَطَفَ ما بعدها على ما قبلها فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾فبعْد أنْ قدَّم شأنهم في الدُّنيا، ذَكَرَ ما يتعلَّق بالآخرة، فهم إمَّا أنْ يُسلموا فيتوب الله عليهم، وإمَّا أنْ يُعذِّبهم بكفرهم، فالآية تضعهم بين التَّرغيب والتَّرهيب بأن يتوبوا فيقبل الله توبتهم، أو أنْ يُصرِّوا فيعذبهم. ومِن بلاغة الآيات أنَّ الله ﷻ جمع النَّظير إلى نظيره في الآية السَّابقة، فجمع القَطْع مع الكَبْت، ثمَّ جَمَعَ الضِّدَّ مع ضدِّه، فجَمَعَ التَّوبة مع العقاب[٣]، وهو مِن إحْكام المعنى، فسياق الآية الأولى يأْنس إلى السِّياق البدْريِّ، فوقوع القطْع والكبْت فيه أظهر، وسياق الآية الثَّانية يأْنس إلى السِّياق الأُحديِّ، لأنَّه دَخَل ممَّن شارك في هذه الغزوة إلى الإسلام بعد ذلك، أمَّا البقيَّة فقدْ توعَّدهم الله بالعقاب الأُخرويِّ، والسِّياق الأُحديُّ واقعٌ في قلب المعركة، ولكن لَمَّا كان الحديث عن تنقيح العقيدة خالصةً لله وحده بعد أنْ جَرَّدَ الملائكة، ومَن أرسلهم مِن التَّأثير جاءت هذه

(١) البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة وآل عمران للدكتور محمد عناية الله سبحاني: (٥٣٠)، نشر دار عمار، عمّان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) إرشاد العقل السليم: (٢/ ٨٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ٨٣).

الآية في موضعها متَّفِقَةً مع مقصد المقطع[١].

وقوله ﷻ: "﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ جاء تعليلًا للعذاب، وأُكِّدتْ الجُملة بمؤكِّدات تناسب مقدار العذاب جزاء ظلمهم، فأُكِّد بالجُملة الاسميَّة، وبإن، ثمَّ إيقاع التَّأكيد على الضَّمير وإسناده إليهم، والإخبار عن ظلمهم باسم الفاعل دلالةٌ على شدَّة اتِّصافهم به " تنبيهًا إلى أنَّ ظلمهم وتعديهم قدْ بَلَغَ مبْلغًا لا يمكن السُّكوت عنه"[٢] وفي هذا إنذارٌ للمشركين مِن أنْ يتمادوا في غيِّهم فيصيبهم ما توعَّدهم به.

ومن معالم التَّثقيف المناط بالنَّفي ما جاء في سياق المعاتبة لاستبقاء الأسرى في غزوة بدر في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال:٦٧].

خُتِم السِّياق الأخير المعقِّب على أحداث الغزوة بقضيَّة الأسْرى، وهو سياقه الطَّبيعيُّ إذْ كان مِن آخر أحداث الغزوة، والحديث عنْ قضيَّة الأَسرى وثيقُ الصِّلة بالحديث عن قضيَّة الأنفال في مطْلع السُّورة؛ لأنَّ في الحرص على كليهما إيثارَ الفاني على الباقي، كما أنَّ القرآن الكريم جعل الاهتمام بهما انْشغالٌ عن الغاية الكبرى، لأنَّ الله ﷻ يريد أنْ يجعل الغاية مِن القتال غايةً خالصةً لإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، وابتغاء وجه الله في ذلك، ولانتزاع هذه القضيَّة مِن النُّفوس ما يبرِّره ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾[الأنفال:١٧] وفي كلا القضيتين عقَّب فيهما بذكر منَّته وفضْله عليهم، واغتفار ذلك لهم، فسياق الآيات إذنْ وثيق الارْتباط بمقصد السُّورة وبمطلعها، فيكون مِن قَبيل ردِّ أعجاز المعاني على صدورها[٣].

---

(١) ينظر: المنهج التربوي للسيرة النبوية " التربية الجهادية" لمنير محمد الغضبان: (١/ ٢١٤)، نشر مكتبة المنار، الزرقاء، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٢) النظم القرآني في آيات الجهاد: (١١٩).

(٣) البلاغيون اعتنوا بـ"رد الأعجاز على الصدور" اللفظي منه، ضمن الفنون البديعية، والمفسرون عنوا معه برد أعجاز المعاني على صدورها، وهذا مهم جدا، لأنه يكشف عن علاقات المعاني، وهو من أهم =

وهذا الارْتباط السِّياقيُّ له غايته التَّثقيفيَّة، وهو التَّأكيد على مقصد السُّورة في مفتتحها وخاتمتها، وإن تصرَّفت صورته؛ ليكون أوَّل ما يَلِجُ أذن السَّامع في شأن الغزوة، وآخر ما يبقى في أذنه في شأنها.

ووجه ارتباط السِّياق بالسِّياق القبْليِّ، أنَّه ﷻ ذكَرَ إعانته لهم، وخفَّف عنهم التَّكليف الذي كُلِّفوا به في المواجهة، فكان لزامًا عليهم أنْ يُثخِنوا في أعدائهم قتْلًا، وألَّا يستبقوا الأسرى ليفادوهم، فجاء العتاب للرَّسول ﷺ لموافقته لهم في اجتهادهم، ولتلك الفئة المؤمنة في استبقائهم[1]، فقال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ﴾ والنَّفي بالأداة (ما) يُفيد تأكيد النَّفي، يقول سيبويه في باب نفي الفعل: " إذا قال: فَعَل فإنَّ نفيه لَمْ يفعل. وإذا قال: قدْ فعل فإنّ نفيه لَمَّا يفعل. وإذا قال: لقد فعل فإنَّ نفيه ما فعل لأنَّه كأنَّه قال: والله لقد فعل، فقال: والله ما فعل"[2]، ونفي الكون هنا نفي تنزيه، أيْ لا يصحُّ ولا ينْبغي[3]، وهذا النَّفي مقيَّد بالغاية ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ وتنكير نبيٍّ للإبهام أيْ لَمْ يكن ذلك لأيِّ نبيٍّ مِن قَبْل[4]. ويجوز أنْ يكون نبيٌّ مقصودًا به الرَّسول ﷺ فيكون التَّنكير دالًّا على التَّعظيم[5]، وأيًّا ما كان فالمعنى التَّثقيفيُّ عتابٌ

= مرتكزات النظر البلاغي، فجدير بالدرس البلاغي العناية به ولا يقصر الأسلوب على الجانب الصوتي منه فحسب.

(١) الشائع في كتب التفسير أن العتاب نزل في موافقة الرسول ﷺ لأصحابه في أخذ الفداء وإطلاق الأسرى وإعراضه عن رأي عمر في قتلهم، والأعلى أن يكون سبب النزول هو استبقاء الأسرى في المعركة لأخذ الفداء بعدها، وهو ما أشار إليه سعد بن معاذ .ينظر: (السيرة النبوية لابن هشام : (١/ ٦٢٨) . وينظر: البيان القرآني للدكتور محمد رجب بيومي: (٣٢٠ – ٣٢٥)، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) الكتاب: (٣/ ١١٧).

(٣) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧٦).

(٤) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٥١٨) وإرشاد العقل السليم: (٤/ ٣٥).

(٥) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ١٢٨).

للرَّسـول ﷺ إمَّـا بالالتفـات إلى سـنَّةِ الأنبيـاء مِـن قبْلِـه، أو بصفـةِ النُّبـوَّة، وهـو عتـابٌ لطيفٌ؛ لأنَّه لَمْ يُخص عليه الصلاة والسلام بالمواجهة في هـذا العتـاب. ونَلحظ أنَّ النَّفـي هُنـا يُفيـد النَّهي بدلالة الأسلوب، ومجيء هذا النَّمط مِن التَّركيب دلالةٌ على أنَّ النَّهـي في القـرآن الكريم يكون في المقامات التي يكون المنهيُّ عنه ذا خَطَرٍ عظيمٍ في حياة الفـرْد والأمَّـة، إمَّا لذاتها أو مقاماتها وملابساتها.

ومِـنَ التَّخفيـف والتَّلطُّـف في العتـاب أنْ يـأتي التَّعبـير بقولـه سبحانه وتعالى: ﴿أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ﴾ مـع أنَّ المعنـى المقصـود أنْ يكـون تحـت سيْطرته وحوْزتـه[1]، فعَـدَلَ عـن هـذه المعاني الدَّالة على حبِّ التَّملُّك والسَّيْطرة إلى تقييده باللام.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾" حتَّـى " تُفيد انتهـاء الغايـة، فـالنَّفي مقيَّـدٌ بهذه الغاية، وهي الإثخان في الأرض، وتعليقه بهذه الغاية لهدفين: الأوَّل: أنَّ المسلمين في بداية تكوين الدَّولة المسلمة، وفي تلك الحقبـة مـا يـزال عـددُ المسـلمين قلـيلًا مقارنـةً بأهل الشِّرك، وكان إنقاص عـدد المشركين، وإنهـاك قـوَّتهم يكْسر شـوكتهم، والهـدف الثَّاني: إعلام أهل الكفْر بالبراءة مِن الشِّرك، وعدم العودة إليه اعتقادًا وعمـلًا.[2] فهـو يشير بهذا إلى جدِّيَّة هذا الطَّريق، وبُعْد أهدافه وتطلعاته والغايات التي يحقِّقها.

وحـين يُعاتـب الله عز وجل ويُكاشـف النُّفـوس بـما عَلِمَـه مِـن خَبَايَاهـا، والعلَّـة التـي استبقت الأسرى، نَقَل خطابه إلى المؤمنين؛ لأنَّهم هم المعنيُّون بهذا، والرَّسول ﷺ منزَّهٌ عنه، فنَقْل الخطابِ إلى الجمْع صيانةٌ وتنزيهٌ لمقام النَّبيِّ ﷺ فقـال: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ وجاء النَّقل بالخطاب؛ لأنَّه أوْقع تأثيرًا في النَّفس[3]، وأكثر تصريحًا

(١) ينظر: غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول للدكتور محمد شادي: (٢٢٤) نشر دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٥٢).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٤٤).

بالمكاشفة، وسمّى الغاية التي أرادوها وهي الفداء عَرَضًا لقلَّة لبثه ولزواله[1]، ثمَّ قدَّم في المقابل اسم الجلالة ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ فزاد المعنى فخامةً وجلالًا، فأقام اسمه في النُّفوس أولًا، ثمَّ أتْبعه بالحكْم، وإضافة الدُّنيا إلى العَرَض للتَّقبيح؛ لأنَّ ما في الدُّنيا عُرْضةٌ للزَّوال والفناء، وما في الآخرة له البقاء. والآية واقعةٌ موقع التَّعليل لما تقدَّم؛ ولذلك فُصِل ما بينهما لأنَّها بمنزلة التَّبيين[2]. وكشف العلَّة هُنا له أثره في النَّفس؛ لأنَّه يقف بها على ما في السُّنَّة المقرَّرة للأنبياء مِن قَبْل، وهو تحريم استبقاء الأسرى، وما دار في النُّفوس مِن استبقاء ذلك للغاية الفانية، فيقودهم إلى الاستغفار ومعاتبة النَّفس.

والغاية التي يُنبِّه إليها السِّياق هُنا جاءت لتؤكِّد هذا المعنى، فالآية ذات علاقةٍ معنويَّةٍ بقوله ﷻ: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأنفال:٧] إذْ تقابل بين الإرادة البشريَّة، وسموِّ التَّدبير الإلهيِّ المحكَم، وفي هذا دعوةٌ لهم إلى إفراده بالتَّوكُّل وطَلَبِ ما عنده، يقول الطَّبريُّ في معنى الآية: "فاطْلبوا ما يُريد الله لكم، وله اعملوا، لا ما تدعوكم إليه أهواء أنفسكم مِن الرَّغبة في الدُّنيا وأسبابها"[3] والجُملة مستعملةٌ في معنى الاستفْهام[4]، حُذِفَتْ منها الأداة؛ لما في الاستفهام مِن إثارة المشاعر، وإلهاب الإحساس بالتَّقصير، وغرضه الإنْكار والتَّوبيخ، وإثارة هذا المعنى بطريق الاستفهام أكثر تأثيرًا في النَّفس؛ لأنَّ المخاطَب يعود إلى نفْسه، ويُلقي عليها السؤال، ثمَّ يتفكَّر فيه حتَّى يُقرَّ بخطئه، ويساعد على فهم معنى الاستفهام الأداء التَّرتيليُّ للجُملة، فالوقْف على الآخرة؛ لتحبير أداء الاستفْهام[5]، والجُملة مِن هذه الآية ناطقةٌ بالزَّجْر، موقعةٌ أثرها التَّرهيبيَّ

(١) ينظر: النكت والعيون: (٢/ ٣٣٢) والكشاف: (٢/ ١٧٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٧٥).

(٣) جامع البيان: (١٤/ ٥٩).

(٤) ينظر: بحر العلوم: (٢/ ٢٦) والتحرير والتنوير: (١٠/ ٧٦).

(٥) ينظر: غرائب القرآن: (٣/ ٤١٨).

في النَّفس. ثم اختتمت الآية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ واستحضار اسمه الأعظم في موضع الإضمار للهيْبة، وإقامة جلاله بالتَّصريح باسمه، وجاءت صفة العزَّة والحكمة في فاصلة الآية لتدلَّ المؤمنين على كيفيَّة تحقيق العزَّة لدينهم، وكيفيَّة سموِّ الحكمة الإلهيَّة أمام الحاجات البشريَّة الضعيفة، فكان الإتيان بهاتين الصِّفتين متناسبًا تمام التَّناسب.



المبْحثُ الثَّالث: أثر أساليب التَّقابل في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

يعرض السِّياق القرآنيُّ مواقف متقابلَة في المقاصد والغايات والأحوال، بغية عرض المواقف على المخاطَبين لإدراك حجم التَّغاير، والتَّأمُّل في عواقب الأمور؛ ليوقع أثره التَّثقيفي في التَّرغيب إلى سلوكٍ ما أو التَّحذير منه.

ففي أوَّل أحداث المعركة يذكر الحقُّ سبحانه وتعالى خروج المؤمنين في قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ٦ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الأنفال:٥-٨]، وسياق الآيات سياقُ تفضُّلٍ وإنعامٍ مِن الله عز وجل على المؤمنين، وجاء الفعل مسندًا إلى الرَّبِّ في قوله تعالى: ﴿أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ﴾ فالإخراج مسندٌ إلى صاحب التَّفضُّل والمنِّ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّه كان بوحْيٍ مِن الله عز وجل، وأضيف إلى الكاف لإشعار المخاطَب أو المخاطَبين بالمنَّة العظيمة، فالذي كَتَبَ لك الخروج هو مَن أغدق عليك فضائله ومننه، وربَّاك بنِعمه، فلنْ يكتُب لك إلَّا ما هو متوافقٌ مع وصفه بهذا الاسم، وإنْ كان ظاهر الأمْر لا يتجلَّى فيه وجه النِّعمة، ومِن ثمَّ قُيِّدتْ الجُملة بقيْدين، قوله: ﴿مِنۢ بَيۡتِكَ﴾، وقوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، فالأوَّل أفاد ابتداء المكان وابتداء القصَّة، والثَّاني أفاد الوسيلة، فهو خروجٌ له غايته وهدفه المشمول بالرِّعاية الإلهيَّة.

وفي مقابل هذه الصُّورة مِن الإنعام جاءت صورة فريقٍ مِن المؤمنين تُباين صورة المنِّ والتفضُّل في قوله تعالى ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾، وقعتْ الجُملة فاصلةً للآية، وجاءتْ مؤكَّدةً بأساليب التَّوكيد المتنوِّعة باسميَّة الجُملة، والتَّوكيد بإنَّ، والتَّوكيد باللام المقْترِنة بخبر إنَّ، وجاءتْ الجُملة بهذا التَّأكيد لغرابةِ الخبر في سياقه؛ لعدم تصوُّرهم أنْ يَقعَ مِن أحدٍ في حضْرة النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم؛ لأنَّه لا يُتصوَّر مِن المُخبَر عنهم

ذلك ابتداءً؛ لما كان مِن موعود الله ﷻ، فجاءتْ الجُملة على هذا النَّحو مِن التَّأكيد مقرِّرةً الحقيقة التي تمكَّنتْ مِن نفوس فريقٍ مِن المؤمنين، "وتأكيد خبر كراهية فريقٍ مِن المؤمنين بإنَّ ولام الابتداء مستعْملٌ في التَّعجيب مِن شأنهم بتنزيل السَّامع غير المُنكِر؛ لوقوع الخبر منزلة المنكِر؛ لأنَّ وقوع ذلك ممَّا شأنه أنْ لا يقع"(١)، وقدْ أفاد التَّنزيل والتَّأكيد على هذا النَّحو التَّعجيب مِن حالهم. وإفادة التَّعجيب مستفادةٌ مِن أمْرٍ آخر، وهو إثبات القيْد ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فالكره الذي وَقَعَ كان مِن فريقٍ متَّصفٍ بالإيمان، والأجْدر به ألَّا يكون.

فالتَّقابل بين هذين الحالين له أثره التَّثقيفيُّ في نفوس المؤمنين؛ لأنه يدعوهم إلى التَّأمل في حال ذلك الفريق مع ما حباهم الله به من النِّعم والفضائل.

واخْتلف أهلُ العلم في تأويل ﴿كَمَآ﴾(٢)، والذي يصحُّ مِن مجموع هذه الأقوال في لسان العرب قولان:

أ. أنْ تُفيد (كَمَا) معنى التَّشبيه.

ب. أنْ تُفيد (كَمَا) معنى التَّعليل.

المعنى الأول: التَّشبيه

واختلف المفسِّرون في تأويل التَّشبيه. والإشكال الذي دار النِّقاش فيه هو تأويل المشبَّه في السِّياق(٣). والذي أختاره مِن ذلك لتلاؤمه مع السِّياق، وقربه مِن المعنى

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٦٦ و ٢٦٧).

(٢) فصَّلت القول في (كما) هنا لأثرها في سياق الكلام، ومنهاج التَّركيب، وعلاقات المعاني.

(٣) ومن أوجه الشبه الحسنة ماذكره الثعلبي في تفسيره عن عكرمة قال: معنى ذلك فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم كما كان إخراج الله تعالى محمد من بيته بالحق خيراً لكم وإن كرهه فريق منكم" الكشف والبيان: (٤/ ٣٢٩)، دراسة وتحقيق: أبي محمد بن عاشور، نشر- دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م) فيكون المشبه هو ترتب الخيرية على التقوى والطاعة والإصلاح.

العام:

١-أنْ يكون التَّشبيه مِن تشبيه القصَّة بالقصَّة، وذلك بتشبيه قصَّة إخراج مسألة الغنائم مِن أيدي المُختلفين، وجعلها لله ورسوله ﷺ، فكان في ذلك الخيرة مع كراهتهم ابتداءً بقصَّة خروج النَّبيِّ ﷺ إلى قتال المشركين، وحيازة الغنائم مع كراهتهم النَّفير ابتداءً، وهذا قول الفرَّاء[١] بتحرير ابن عطيّة[٢] ومنهم من جعل وجه الشبه في الثَّبات مع الكراهة[٣].

٢-أنْ يكون المشبَّه متأخِّرًا عن المشبَّه به، فيكون المشبَّه قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ والمشبَّه به ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾[٤]، أيْ أنَّهم يجادلونك في الحرْب عند دنوِّ القتال كما كره بعضهم الخروج مِن المدينة عندما أمرْتهم بذلك، ووجه الشَّبه الكيْنونة والكراهة في كلٍّ.

٣- ما ذَكَرَه ابن المنيِّر عن جدِّه قال: " المراد تشبيه اختصاصه ﷺ بالأنفال، وتفويض أمرها إلى حكمه مِن حيثُ الإثابة والجزاء بإخراجه مِن بيته مطيعًا لله تعالى، سامعًا لأمره، راضيًا بحكمه، على كراهةٍ المؤمنين لذلك في الطَّاعة، فشبَّه الله تعالى ثوابه بهذه المزيَّة بطاعته المرضيَّة، فكما بَلَغَتْ طاعته الغاية في نوع الطَّاعات، فكذلك بَلَغَتْ إثابة الله له الغاية في جنْس المثوبات "[٥].

المعنى الثاني: التَّعليل

كما أخرجك مِن بيْتك لإظهار شريعته وإعزاز دينه على كُرْهٍ مِن فريقٍ مِن

(١) ينظر: معاني القرآن للفراء: (١/ ٤٠٣).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٨/ ١٤).

(٣) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٤٧).

(٤) ينظر: جامع البيان: (١٣/ ٣٩٣) والمحرر الوجيز: (٨/ ١٥).

(٥) الانتصاف: (٢/ ١٤٦).

المؤمنين نَصَرَك. ودلَّ على الفعل المحذوف بعد ذلك قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ﴾[الأنفال:٩] فالمعنى: نَصَرَكَ الله ﷻ؛ لأنَّه أَخْرَجَك مِن بيتك لإعزاز دينه، وإظهار شريعته[1].

نقد الآراء:

-في ذكْرهم أنْ يكون المشبَّه متأخِّرًا عن المشبَّه به يكون المشبَّه قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ والمشبَّه به ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ إشكالٌ وهو أنَّ الكَراهة إنَّما كانت حينما تغيّرت الغاية مِن طَلَبِ العِيْرِ إلى طلب النَّفير، والجدال حين وَقَعَ إنَّما كان تعْبيرًا عن الكَراهة الحاصلةِ لتغيُّر الغاية، فتشبيه كراهتهم في الخروج، وهو خروجٌ ممتدٌّ إلى حين تغيُّر الغاية بمجادلتهم هو تشبيه الشيء بنفْسه في الحال ذاته.

-أمّا تشبيه القصَّة بالقصَّة، والتَّعليل فإنَّهما لا يتخالفان، ولكنّ تأويل التَّعليل على ما ذَكَرَه أبو حيَّان فيه تقديرٌ بعيدٌ لا يقلُّ في بُعْدِه عن بقيَّة الآراء.

والأعلى - والله أعلم بمراده - أنْ تكون الكاف مفيدةً التَّشبيه والتَّعليل، فيكون المعنى تشبيه قصَّة انْتزاع أمْر الأنْفال مِن المتجادلين، وجعلها لله ورسوله جزاءً لامتثاله بقصَّة خروجه طاعةً لله على سبيل الجزاء مقابل الطَّاعة، فهو رأيٌ مركَّبٌ مِن قولي الفرَّاء، وما نَقَلَه ابن المنيِّر عن جدِّه.

واحتمال تضمُّن الكاف لمعنى التَّشبيه ومعنى التَّعليل نصَّ عليه أبو حيَّان بعد أنْ ذَكَرَ تأويله في الآية بقوله: "ويظهر أنَّ الكاف في هذا التَّخريج المَنَامِيِّ ليْستْ لمحْض التَّشبيه، بلْ فيها معنى التَّعليل، وقدْ نصَّ النحْويون على أنَّها قدْ تحْدث فيها معنى التَّعليل"[2].

---

(١) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٦٣).

(٢) الموضع السابق.

وذَكَرَ ابن هشام الخلاف في دلالتها على التَّعليل، وجوّز دلالتها على التَّعليل بتجرُّدها مِن ما أو اقترانها خلافًا لرأي سيبويه في تقْييد دلالة التَّعليل باقترانها بـها كقول القائل: كما أنَّه لا يعلم فتجاوز الله عنه. واستدلَّ بوروده في كتاب الله ﷻ كقوله تعالى: ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [القصص:٨٢] وقوله: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ﴾ [البقرة:١٥١] على تأويل الأخفش، أيْ لإرسالي فيكم، وقوله: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨][(١)].

وفي اقتران دلالتيْ التَّشبيه والتَّعليل يقول ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾: "تشْبيهٌ للذِّكر بالهدى، وما مصدريةٌ. ومعنى التَّشبيه في مثل هذا المشابهةُ في التَّساوي، أيْ اذْكروه ذكرًا مساويًا لهدايته إياكم، فيُفيد معنى المجازاة والمكافأة؛ فلذلك يقولون إنَّ الكاف في مثله للتَّعليل..."[(٢)] فجمع في بداية الكلام ونهايته بين التَّشبيه والتَّعليل.

وحَسُنَ موقع ﴿لَكَٰرِهُونَ﴾ في نهاية الآية لتمهِّد الحديث عن صورة الكُره كيف تمثَّل، فجاء قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾؛ ولذلك جاء الفصْل بين الجُملتين لوقوعها موقع التَّفسير والبيان لما قبلها، "وذلك أنَّ المؤمنين لَمَّا أيقنوا بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لَمْ تُعلمنا أنَّا نلقى العدوَّ فنستعدَّ لقتالهم، وإنَّما خرجْنا للعِيْر، فذلك جدالهم بَعْدَما تبيَّن لهم أنَّك لا تصنع إلَّا ما أَمَرَك، وتبيَّن صدقك في الوعد"[(٣)] فتبيَّن أنَّ قولهم الذي جادلوا فيه هو تفسير كرههم للقتال.

فجاء التَّقابل المقاصديُّ في الآية الأولى؛ لأنَّ الجُملة في بدايتها ذَكَرَت منَّة الله ﷻ بإخراجه للنَّبيِّ ﷺ في سياق المنِّ والفضل، فكان أمْرًا ربَّانيًّا أَسْند الله ﷻ فيه أمر

(١) ينظر: مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: (٣/ ٧ – ٩)، تحقيق وشرح: الدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٢) التحرير والتنوير (٢/ ٢٤٢).

(٣) معالم التنزيل: (٣/ ٣٢٨).

الخروج إلى نفسه بأدلِّ أسمائه على التَّفضُّل والإنعام، وجعل في مقابل ذلك أنَّ فريقًا مِن المؤمنين لكارهون، وكان لهذا الأمر مايبرِّره، فالصَّحابة - رضوان الله عليهم - حين خرجوا خرجوا طلبًا للغنيمة، ولَمْ يكونوا مستعدِّين للقتال نفْسيًّا ولا قتاليًّا، وتحوُّل الغاية مِن طلب العِيْر إلى طلب النَّفير يحتاج إلى رياضةٍ نفسيَّةٍ، لا تتوانى في تنفيذ الأمر الإلهيِّ حين يأتي، خاصَّةً أنَّ الغزوة كانت مِن أولى الغزوات؛ ولذلك أراد القرآن الكريم أنْ يحقِّق هذه الصِّفة في نفوس المؤمنين، وليغرس فيهم الاستعداد للتحوُّل الفوريِّ حين يكون النِّداء نداءً ربَّانيًّا.

وجاء التَّأكيد في تقرير الكُره الذي وَقَعَ في نفوس فريقٍ مِن المؤمنين؛ لتجعلنا نَقِفُ عنْد حدود بشريَّة الإنسان، وأنَّ الإنسان مهما بَلَغَتْ درجات اليقين والاعتقاد يعْتريه ما يعْتري البَشَر مِن اضطرابٍ أو قلقٍ عند مواجهة الواقع إلَّا مَن عَصَمَه الله ﷻ، ومِن جهةٍ أُخرى ليتبيَّن للفريق كيف أنَّ الكُره الذي اخْتاره الله ﷻ لهم سُرعان ما انْكشف بَعْده سِتْر النَّصر، وظَهَرَتْ أمام أعينهم نتائج الكره خيراتٍ وغنائم ليعلموا أنَّ الخير ما اختاره الله ﷻ لهم، وأنَّ على الإنسان أنْ لا ينْصب المشاعر كالحبِّ والكره وغيره ميزانًا لتقييم النَّتائج أوالتَّردُّد في تنفيذ مأمورات الخالق سبحانه وتعالى.

في قوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ قُيِّدت الجُملة بقوله: ﴿فِي ٱلۡحَقِّ﴾ وهو أمرٌ قضى الله ﷻ به، ثمَّ زاد التَّعجيب والإنكار بقوله تعالى: ﴿بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ فالجدال كان في أمْرٍ حقٍّ، وهذا الحقُّ واضحٌ بيِّنٌ في نفْسه[1] لكلِّ طالبٍ للحقِّ، باحثٍ عنه، وهو أقبح مِن الجدال في الشَّيء قبْل اتِّضاحه[2]، فقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ يُفيد عتابًا لطيفًا، فالمعنى كيف تُجادلون في شيءٍ حقٍّ، وهذه كانت كافيةً، فكيف إذا كان هذا الحقُّ واضحًا قدْ تبيَّن، فالجدال فيه يكون أشدُّ نكارةً، فهي صورةٌ

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٨/ ٢٦٧).

(٢) ينظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي: (٥/ ٥٦٤)، تحقيق: د. أحمد الخراط، نشر دار القلم، دمشق، دون ط. ت.

مِن صُوَر التَّقابل الذي يعرضها السِّياق لينبِّه إلى ما كان واجبًا على المؤمنين فيه من المبادرة والامتثال، ثمَّ انتقل لتقريب صورة الفَزَع والرُّعب باستعمال أداة التَّشبيه المؤكَّدة ﴿كَأَنَّمَا﴾، وجاء القيد ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ زيادةً في الفَزَعِ؛ لأنَّ النَّفس بفطرتها تُحبُّ الحياة، وتكْره الموت، "فكلُّ مخلوقٍ حيٍّ، بفعل آليات تكوينه، أو ما يسمونه بغرائز حفظ الذَّات، والدفاع عن الحياة، يحيد من الموت، ويكْرهه، بل ويفرُّ منه"[1].

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ جاء تركيب الجُملة الحالية بتقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ فأفاد تقوِّي الحُكْم؛ لأنَّ صورة النَّظر إلى المصير في هذا المشهد الذَّليل صورةٌ غريبةٌ وصلت بالصُّورة إلى أقصى دَرَجَاتِ الفَزَعِ.

وفي سياق التَّنبيه إلى اختلاف المقاصد جاء قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبدأت الآية بقوله: (وَإِذْ)، وقدْ وقعتْ مفعولًا لفعلٍ محذوفٍ تقديره (اذْكُرْ) واخْتيار هذا الوجه لأنَّ بعض الآيات الأخرى جاءت بذكْر الفعل مع (إِذْ) على هذا النَّحو في مُفتتح القصص[2]، والقرآن يفسِّر بعضه بعضًا.[3]

وعلَّل ابن هشام اختيار ذلك باختلال معنى النَّظم في القول بالظَّرفية، قال: "والغالب على المذكورة في أوائل القصص في التنزيل أن تكون مفعولًا به، بتقدير:

---

(١) علم النفس القرآني للدكتور عدنان الشريف: (٧٦).

(٢) كقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

(٣) ينظر: أسلوب (إذ) في ضوء الدراسات القرآنية والنحوية للدكتور عبد العال سالم مكرم: (٢٢)، بحث منشور في الحولية الرابعة لحوليات كلية الآداب بجامعة الكويت (الرسالة الخامسة عشرة) ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(اذْكُرْ)، نحو: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة:٣٠] ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة:٣٤]، : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة:٥٠]، وبعض المُعربين يقول في ذلك: إنَّه ظرفٌ لـ(اذْكُرْ) محذوفًا. وهذا وهْمٌ فاحشٌ؛ لاقتضائه حينئذٍ الأمرَ بالذِّكْر في ذلك الوقت، مع أنَّ الأمر للاستقبال؛ وذلك الوقت قدْ مضى قبل تعلُّق الخطاب بالمكلَّفين منّا، وإنَّما المراد ذكْر الوقت نفسه لا الذَّكر فيه"(١).

وابتدأت الآية بنقل الخطاب إلى المؤمنين بعْد أنْ كان موجَّهًا للرَّسول ﷺ بطريق التَّلوين والتَّفنُّن(٢)، والغرض منه ذكْر تفضُّله على عباده المؤمنين؛ ليواجه أصحاب الشَّأن بذكْر تفضُّله عليهم؛ ليكون ذلك أدْعى إلى بثِّ الطمأنينة في النُّفوس، وأدعى لاستشعار مننه.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ جاء إسناد الوعْد إلى اسم الجلالة الأعظم، واستحضاره في هذا السِّياق يُلقي في النَّفس الهيْبة واليقين بموعود الله ﷻ، فالوعد مِن الله ﷻ، وحينما يكون الوعد من الله فذلك يحقِّق أمرين:

أ. اليقين بموعود الله، وصدق تحقُّقه.

ب. الطمأنينة؛ لأنَّ الله مع المؤمنين، والله لا يخلف الميعاد. ، قال في محكم التنزيل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩].

والطَّائفتان هما طائفة العِير التي قَصَدَهَا المسلمون بادئ الأمر، والطَّائفة

---

(١) مغني اللبيب: (٢/ ٧ و ٨).

(٢) ذكر أبو السعود أن الانتقال هنا جاء بطريقة التلوين والالتفات. ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٦)، وقد فرّق ابن كمال باشا بينهما وجعل الالتفات نوعا من أنواع التلوين، وأراد بالتلوين اختلاف الأساليب والانتقال من أسلوب لآخر، وقد ذكر أن الانتقال من الخطاب الخاص للخطاب العام من التلوين وهو لا يدخل عنده في الالتفات لأن المخاطب في الحالين ليس واحدا. (ينظر: تلوين الخطاب لابن كمال باشا (٢٩٥- ٣٨٥)، دراسة وتحقيق الدكتور: عبد الخالق الزهراني، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية العدد (١١٣)، السنة (٣٣)، (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١ م).

الأخرى هم المشركون الذين نفروا لقتال المسلمين(١)، والذي وَعَدَهم الله ﷻ إحدى الطائفتين، ولكنَّ سياق الآية ذاتها وما بعدها يرجِّح أنَّ وعد الله ﷻ كان الظَّفر والنَّصر في النَّفير وقتال المشركين؛ لأنَّه الموافق لإرادة الله التي مِن شأنها أنْ تحقَّ الحقَّ وتبطل الباطل، وجاء تأكيد الوعْد بقوله: ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بما تدلُّ عليه إنْ مِن التَّوكيد، وما تدلُّ عليه اللام مِن الدلالة على الملك(٢)، كما أنَّ التَّأكيد جاء مقدَّرًا مِن جهةٍ أخرى لوقوع جملة ﴿أَنَّهَا لَكُمْ﴾ بدلًا مِن ﴿إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ﴾ فيكون تقدير الكلام: يعدكم الله إحدى الطائفتين يعدكم أنَّها لكم. وهو أبلغ في التَّأكيد؛ لأنَّه إثباتٌ بعد إثباتٍ، فأثبت أولًا في نفسه، ثمَّ أُثبت في بَدَلِهِ(٣)، وهو وعدٌ تنقطع عنده الشُّكوك والظُّنون مِن جهة مصْدره أولًا، ثمَّ لما تضمَّنته جملة الوعْد مِن مؤكِّداتٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ الواو عاطفة هذه الجملة على ما قبلها، فهي داخلة في جملة الأمر بالتَّذكر، فاذكروا الوعد ومودَّتكم(٤)، ونلحظ بناء الجملة جاء موافِقًا للجُملة السَّابقة مِن حيثُ بنائها التَّركيبيِّ لاعتماده على المؤكِّد (أنَّ) وإفادة التَّخصيص والملك في قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَكُمْ﴾، وجاءت الجُملة الأولى أكثر تأكيدًا ليجعل الموقف مقابلةً بين إرادةٍ إلهيَّةٍ ساميةٍ ماضيةٍ، وبين طبيعةٍ بشريَّةٍ، فشتَّان بين الغايتين، بين الوعد والودادة. وجاء التَّعقيب بقوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مستحضرًا الاسم الجليل، ومِن مستتبعات التَّراكيب في الآية أنَّ الله اختار لهم النَّفير والشَّوكة؛ لأنَّ إحقاق الحقِّ، وقطْع دابر الكافرين لا يقوم إلَّا بقتال الفئة الباغية لا بالاستيلاء على العير، كما أنَّ مِن

(١) ينظر: جامع البيان: (١٣/ ٣٩٨).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٦٩).

(٣) ينظر: تفسير المنار: (٩/ ٦٠٠).

(٤) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٧).

مستتبعات التّراكيب التَّعريض(١) بعتاب فريقٍ مِن المؤمنين على كرههم للأعلى مِن الغايتين. يقول الزَّمخشريُّ في معنى الآية: "يعني أنَّكم تريدون الفائدة العاجلة وسفاسف الأمور، وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم، والله ﷻ يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين، ونصرة الحقِّ، وعلوِّ الكلمة، والفوز في الدَّارين. وشتَّان ما بين المُرادين"(٢).

وقوله تعالى: ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ فيه تناغمٌ صوتيٌّ لمجانسة الحقِّ جناسًا اشْتقاقيًّا، ولهذا الجناس أثره في النَّفس والمعنى، أمَّا أثره في المعنى فهو دليلٌ على أنَّ إظهار الحقِّ ونصرته مِن الحقِّ، وأمَّا أثره في النَّفس فآتٍ مِن النَّغم المأنوس إلى النُّفوس، وما يحركه النَّغم المتقارِب مِن تنبيه النَّفس إلى المعنى ومراقبة فروق الأداء.

ثُمَّ قُيِّد هذا الإظهار بقوله تعالى: ﴿بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾، والباء للسَّببيَّة(٣)، والكلمات هي أوامره التي جاءت في الآيات التالية(٤)، وفي التَّعليق بهذا القيد دلالةٌ على أنَّ ذلك الإحقاق يكون بأمرٍ مِن الله وحده، فهو القادر على نصرة الحقِّ، وإهلاك الكافرين بكلماتٍ معدوداتٍ، وأنَّ ذلك واقعٌ لا محالة(٥)

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الجملة معطوفة على ﴿يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ والمعنى آتٍ على سبيل التَّأكيد؛ لأنَّ إحقاق الحقِّ يقتضي إبطال الباطل، ومِن إبطال الباطل إهلاك أهل الكفر والإجرام الذين يصدُّون عن سبيل الله، ويمنعون أنْ تعلو

(١) التعريض: " اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم لا بالوضع الحقيقي ولا المجازي". المثل السائر: (٢/ ١٨٦). فدلالة التعريض مقامية مأخوذة من السياق والمقام وليست من حاق اللفظ.

(٢) الكشاف: (٢/ ١٤٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٢).

(٤) قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال: ١٢].

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٢).

كلمة الله، فجاءت الآية على هذا النَّحو مِن التَّقابل المفيد تأكيد النُّصرة على أتمِّ وجْهٍ.

وبناء الآية العام مبنيٌّ على هذا التَّقابل الثُّنائيِّ، فقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ مقابلٌ لقوله: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ مقابل قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ولكنَّ جهة المقابلة تختلف؛ لأنَّ الأولى جاءت لتميِّز بين الإرادتين(١) والثانية لإتمام المعنى، فجعل الله ﷻ الموقف متقابلًا بين الغاية الإلهيَّة السَّامية، وبين الغاية البشريَّة الآنيَّة، فالغاية الإلهيَّة أرادت أن يكون الظَّفر محقِّقًا للأمة النَّصر والتَّمكين، وأراد أنْ ينتصر ناموس الكون وقانونه وسنَّته التي سنَّها الله ﷻ بانْتصار الحقِّ على الباطل، بينما كانت النَّظرة البشريَّة العاجلة بفطرتها تؤثر الغاية العابرة الآنيَّة الزائلة.

هذا الوجه مِن التَّقابل له أثره التَّثقيفي، فهو يضع المخاطَبين في موضع العتاب ليصحِّحوا غاياتهم، وليظفروا بالنَّصر الحقيقيِّ بدلًا مِن النَّصر الماديِّ، فميزان النَّصر لا يُقاس بقدْر تحقيقه مِن الغنيمة الماديَّة، وإنَّما بقدر إحقاق الحقِّ وإبطال الباطل، وهو المقدار الذي يحقِّق العدْل في الحياة، ويقيم الاستخلاف في الأرض، فالنَّصر الحقيقي هو انتصار القِيم الحقَّة على الظُّلم والطُّغيان.

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ جاء هذا التَّعقيب على الآية ليقرِّر أنَّ السنَّة الكونيَّة هي إحقاق الله للحقِّ، وإبطال الباطل، فالآية الثَّانية ليست مكرِّرةً للأولى؛ لأنَّ الآية الأولى للتَّمييز بين إرادتين، والثَّانية لإيضاح الغرض مِن الاختيار(٢)، فالآية الثَّانية تعليلٌ للأولى، والمعنى في الإحقاق الأوَّل خاصٌّ متعلِّقٌ بالمعركة، والآخر عامٌّ لإظهار الإسلام، والإظهار الخاص متعلِّقٌ بالإظهار العام؛ ولذلك جعل الزَّمخشريُّ قوله تعالى ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ متعلِّقًا بفعلٍ محذوفٍ يُقدَّر متأخرًا

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٤٩).

(٢) ينظر: الموضع السابق.

ليدلَّ على الاختصاص[١]. وجعل الشِّهاب البيان الأوَّل مطلقًا، والتَّعليل الثَّاني خاصًّا وهو سبيلٌ مِن سُبُلِ التَّأكيد بذكْر الشَّيء مطلقًا ومقيَّدًا[٢].

وقوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ جاءتْ الآية بإيقاعٍ نغميٍّ عالٍ، وإيقاعٍ معنويٍّ يتمثَّل النَّغميُّ في الجناس الاشتقاقيِّ، والمعنويُّ في التَّقابل بين الجُملتين ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ و ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾، وتعليل الشَّيء بالشَّيء ذاته وإنْ كان مختلفًا في غايته أفاد الحصْر[٣]، وجعل الشِّهاب إفادة الحَصر آتيةً مِن دلالة التَّخصيص بتقدير الفعل متأخرًا متأخرًا كما تقدَّم[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ إشارةٌ تربويَّةٌ مهمَّةٌ إلى سنَّةٍ كونيَّةٍ، وهو أنَّ الحقَّ لا يُحقُّ، والباطل لا يُبطل في المجتمع الإنسانيِّ بمجرَّد البيان النَّظريِّ والاعتقاد، بل لا بُدَّ له مِن منْهجٍ حركيٍّ يرفع راية إحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل بالواقع العمليِّ[٥]، وهو ما قامت به فريضة الجهاد التي فرضها الله على المسلمين، فحقَّقوا هذا المبدأ العظيم، والغاية الإلهيَّة.

---

(١) ينظر: الموضع السابق. واعترض عليه أبو حيان وجعل دلالة تأخير الفعل تفيد الاهتمام (ينظر: البحر المحيط: ٤/ ٤٦٤)، والصحيح أنه لا منافاة بين دلالتي الاختصاص والاهتمام إذا دلّ عليهما السياق، لأن النكات لا تتزاحم، وادعاء أبي حيّان - رحمه الله - لزوم تقديم المفعول والمجرور للاختصاص على مذهب الزمخشري غير دقيق، وليس في كلام الزمخشري مايرفض فيه أن التقديم يفيد الاهتمام بل أورد الزمخشري أمثلة في التقديم سكت فيها عن دلالة الاختصاص. ينظر: (البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى: (٣٤٠ و ٣٤١)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

(٢) ينظر: عناية القاضي: (٤/ ٤٣٩).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٢).

(٤) ينظر: عناية القاضي: (٤/ ٤٣٩).

(٥) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٢٣).

وحُذِف المفعول في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾لدلالة السِّياق عليه، أيْ ولو كره المجرمون ذلك، كما أنَّ في الحذْف عدم الاهتمام بما يتوجَّه إليه هذا الكره؛ لأنَّه صادرٌ مِن المجرمين، وهو عبارة عمَّن تجاوز وتعدَّى وصدَّ عن طاعة الله. والواو هنا واو الحال(١)، واعترض عليه أبو حيَّان، وجعل الواو عاطفةً على محذوفٍ في موضع الحال، وفائدته في هذا الموضع لاستقصاء ما بطن؛ لأنَّه لا يندرج في عموم ما قبله(٢)

ونلاحظ في علاقات الجُمل أنَّ قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾هي مِن رَحِم قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ فهي مفسَّرةٌ بقوله تعالى ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ومعلَّلةٌ بقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ﴾، وتقديم قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ﴾محكم البناء، لأنَّ موضعها الذي جاءت فيه أفاد المعاتبة، فالوعد تقدَّم مِن الله ﷻ فحقَّق ذلك أنْ تكون الودادة لما اختاره الله، كما أنَّ المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾متفرِّعٌ مِن الآية ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾؛ لأنَّ الحقَّ الذي أخرجه ربُّه إليه هو إحقاق الحقِّ وإبطال الباطل.

وعلى عكس تلك الفضائل التي منَّ الله ﷻ بها على المؤمنين، يذكر الله تعالى موقف إبليس في سياقٍ يوضِّح المفارقة بين موقفين لبيان أثر وسوسته لمن اتَّبعه ثم تخلِّيه عنهم فقال تعالى: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال:٤٨]وسياق الآية تابعٌ لسياق المنِّ والتَّفضُّل الذي ابتدأه بعد إقرار قضيَّة الغنائم، لذا فالواو عاطفةٌ على قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ﴾ [الأنفال:٤٤]، وما بينهما اعتراضٌ، مع مناسبته لذكْر خروج الكفَّار(٣).

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: (٨/ ١٩).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٦٤).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٤).

ومجيء الواو مع إذْ يُفيد المغايرة الزَّمانيَّة للحَدَث، وتقديم الجارِّ والمجرور على الفاعل فيه مزيد اختصاص بذكْر توجُّه التَّزيين لهذه الفئة خاصَّةً، وتحديدهم به؛ لأنَّهم مناط غرض التَّزيين، والمقصودين به[1].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ نفيٌ مقيَّدٌ بالجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا مِن تزيينه لهم، فأدخل في أنْفسهم الغُرور والكِبْر، ونفى أن يكون لهم غالبٌ بدلالة الاسْم على الثُّبوت زيادةً في التَّزيين. وكان هذا التَّزيين سببًا مِن أسباب هزيمتهم، وبعد أنْ أغراهم بقوتهم أغراهم بإمداده وحمايته لهم فقال: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾، وهو معطوفٌ على المقول الذي قبله، وإثبات المجرور بلام الاختصاص فيه طمأنةٌ لهم، ووعدهم بالنُّصرة، على عادته -لعنه الله- في تزيينه ووسوسته.

ونلحظ هيمنة أسلوب التَّأكيد على السِّياق، لقطع الشَّكِّ باليقين، ولتقوية الحكْم وإثباته لهم، وتقريره في النُّفوس ليطمأنُّوا؛ حتَّى يتَّبعوا أمره.

وبعد أن انتهت وعود ما قبل المعركة جاء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾ فاصلًا بين الحالين والمقالين، والفاء طوت الزَّمن الفاصل بين التَّزيين واللقاء، فلمَّا رأى كلُّ فريقٍ الآخر فرَّ مِن المعركة لما رأى عدوَّ الله مِن الملائكة والمَدَدِ.

وقوله تعالى: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ النُّكوص الرُّجوع والفرار مِن المعركة، وقوله: ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ حالٌ يفيد التَّوكيد؛ لأنَّ المعنى مؤسَّسٌ بالفعل، والحال جاءت لتؤكِّد

---

(١) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: (٢٢٣). وقد عقب الباحث بنكتة أخرى فجعل تقديم الجار والمجرور متسقا مع النظم الكريم وأن في تأخيره كدا للسان وثقلا حيث تتوالى الضمائر (لهم أعمالهم)، قلت: النظم يتسق بما ذكر من مزية التقديم، أما ماذكره من الثقل وكد اللسان فإنه يعترضه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤] فقد تتابع فيه النظم على الوجه الذي ذكر فيه الباحث كد اللسان بتكرار حرف الهاء وتتابعه، ولاشك أن لكل سياق نظمه وجرسه الذي يهمس بالمعنى.

الفرار بذكْر حاله، و(على) يُفيد التَّمكُّن مِن السَّير على العقبين، وتخصيص العقبين بالذِّكر لأنَّهما في مؤخرةِ القَدَمِ، فتكون موضع الأوْساخ والغبار، فذكرهما تفظيعًا[١]، والجملة الشَّرطيَّة فيها دلالة المسارعة مِن كون النُّكوص كان فور التَّرائي؛ دلالةً على شدَّة الخوف، وفي ذكر الموقف تنبيهٌ إلى خَوَرِه وضعفه وجُبْنِه في أوَّل ساعات المواجهة، ففيه التَّحذير مِن اتِّباع وساوسه، وتصديق كيده. وسبب النُّكوص رؤيته لجبريل عليه السلام والملائكة الذين أمدَّ الله بهم عباده المؤمنين، حتَّى خَشِيَ أنْ يكون ذلك اليوم هو اليوم الذي أنظره إليه[٢].

ونلحظ المقابلة بين موقفين عصيبين: موقفِ الملائكة الأطْهار الذين أمدَّ الله بهم عباده المؤمنين، كيف نصر الله بهم جنده، وثبَّت بهم القلوب، وبَعَثَ بهم البشارة، وقوَّى بهم العزائم، وطمأن بهم النُّفوس، وبين موقف إبليس وأعوانه مِن الشياطين[٣]، كيف أغرى أتباعه مِن الكَفَرَة بالصدِّ عن سبيل الله، والذَّود عنهم، مؤكِّدًا لهم ذلك حتَّى لا يخامرهم فيه الشَّكُّ، ثمَّ ولَّى مدبرًا مِن أوَّل اللقاء، وتبرَّأ منهم، ونَكَثَ كلَّ مواعيده وعهوده. وفي هذين الموقفين تمييزٌ بين طريق الحقِّ وطريق الباطل، فهو سائرٌ على الغايات التي ذُكرت في السُّورة الكريمة، سورة الفرقان بين الغايتين، الغاية الشَّيطانيَّة المضلَّة، والتَّدبير الإلهيِّ المحكَم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ جاءت الجملة مؤكَّدةً، وهذا التَّأكيد رُوعي فيه حال المتكلِّم لما يشعر به مِن الذُّعْر والخوف، وأثبت المتعلِّق لتأكيد تمام البراءة مِن أتباعه[٤]، كما أنَّ التَّأكيد مستفادٌ مِن تعقيبه القول بعْد الفعل، فأكَّد براءته

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٧).

(٢) ينظر: النكت والعيون: (٢/ ٣٢٥).

(٣) ينظر: التفسير القرآني: (٥/ ٦٣٢).

(٤) هذه عادته - أخزاه الله - مع أتباعه قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

بالفرار والنُّكوص ثمَّ بالقول[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ تعليلٌ لما سَبَقَ؛ ولذلك فُصِلَتْ الجُملة، وجاء بأسلوب التَّأكيد مثبتًا لنفسه ما نفاه عن المخاطَبين، وفي ذلك تصويرٌ لحالة الفَزَعِ التي أصابته حتَّى أعرض عن تحديد المرئيِّ لعِظَمِه وهوْلِه.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ تعليلًا ثانيًا للجملة الأولى مِن المقول؛ ولذلك فُصِلت، كما نلحظ أنَّ هذه الجُمل تفرَّعت من الجملة الأساسية ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ﴾، وبالمقارنة بين الموقفين قُبيل الحرب وبعد فراره نلحظ أثر الأسلوب:

-التَّأكيد قبْل الحرب رُوعي فيه المخاطَب لقطع الشَّكِّ باليقين.

-التَّأكيد قبل الحرب جاء في سياق المكْر والكيْد.

- التَّأكيد بعْد الفرار رُوعي فيه المتكلِّم تصويرًا للذُّعر والخوف.

-التَّأكيد بعْد الفرار جاء في سياق التَّعليل والتَّبرير.

وفي ذلك كلِّه بيانٌ لموقف خذلانه لأتباعه وأعوانه، فحريٌّ بكم أيُّها المؤمنون أنْ تتَّبعوا سبيل مَن آواكم ونصركم، وأنْ تخذلوا مَن كانت هذه حاله مع أتباعه. وقد بيَّن سياق التَّرتيب خذلان الشيطان، فقدم الفعل على التَّبرير، فالشيطان ولَّى فارًّا هاربًا، ثمَّ برَّر نكوصه وتولِّيه، وفي هذا دلالة على تمام الخُذلان والخوف.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ أُظهر اسم الجلالة في موضع الإضمار، لما يدلُّ عليه اسمه مِن الألوهيَّة التي تدلُّ على القدرة المطلقة؛ ولأنَّ في استحضار اسمه هيبةً تتملَّك القلوب، فيحقِّق في هذا الموضع مِن سياقه التَّحذير مِن غضبه، والجُملة يجوز أنْ تكون مِن مقول اللعين، ويجوز أنْ يكون كلامًا مستأنفًا لبيان سبب خوفه[2]، وتثقيفا يحقِّق في النَّفس التَّحذير مِن اتِّباع خطوات الشَّيطان.

(١) ينظر: البحر المحيط: : (٤/ ٥٠٥).

(٢) ينظر: معالم التنزيل: (٣/ ٣٦٧).

ومن أساليب التَّقابل طباق السَّلب في الإثبات والنَّفي في القتل والرَّمي في قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال:١٧-١٨]. ذَكَرَ الزَّمخشريُّ أنَّ الفاء واقعةٌ في جواب شرطٍ محذوفٍ مع الأداة، تقديره إنْ افتخرتم فأنْتم لَمْ تقتلوهم(١)، فتكون الفاء" الفاء الفَصِيحَة" عنْده(٢)، واعترض أبو حيَّان وابن هشام بعدم جواز دخول فاء جواب الشَّرط على لَمْ(٣)؛ ولذلك قدَّره الزَّمخشريُّ (فأنْتُمْ لَمْ تَقْتُلوهُم)، وإضافة الزَّمخشريِّ هذه ليست في النَّظم الكريم، وإنَّما قُدِّرتْ خروجًا مِن الخلاف.

والأعلى أنْ تكون هذه الفاء للرَّبط تَبَعًا لما ذكره أبو حيَّان بقوله: "وليست الفاء جواب شرْطٍ محذوفٍ كما زَعَمَ [أيْ: الزَّمخشريَّ] وإنَّما هي للرَّبط بين الجُمل لأنَّه لَمَّا قال: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢] كان امتثال ما أُمروا به سببًا للقتل، فقيل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾"(٤)، والمعنى المفهوم مِن طريقي التَّأويل هو نفي ما قدْ يَرِدُ على الخواطر مِن أنَّ النَّصر كان بسبب ما امتثلوا به مِن الضَّرب والقتال، وما يتبع ذلك مِن تفاخرٍ، بلْ الفضل كلُّ الفضل لله ﷻ وحده، فهو الذي قوَّى عزائمهم على القتال، وهو الذي أمدَّهم بالنَّصر ساعة الالتحام، وهو الذي أمدَّ رسوله ﷺ بالمعجزات في ذلك اليوم(٥) فلهذه الفاء في موقعها إحكامٌ لتدفُّق المعنى. ونفي الفعل

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٥٤ و ١٥٥).

(٢) ينظر: التفريق بين مفهوم الفاء الفصيحة عند الزمخشري وغيره: دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الخالق عضيمة: (٢/ ٢٣٣ وما بعدها)، نشر دار الحديث، القاهرة. د. ت ط.

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٧٦) و مغني اللبيب: (٦/ ٥٢١).

(٤) البحر المحيط: الموضع السابق.

(٥) ينظر في معجزات يوم بدر: دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر البيهقي: باب ما ذكر في المغازي من دعائه يوم بدر خبيبا، وانقلاب الخشب في يد من أعطاه سيفا، ورده عين قتادة بن النعمان إلى مكانها بعد أن سالت حدقته على وجنته حتى عادت إلى حالها (٣/ ٩٩)، وثق أُصوله وخرج أحاديثه =

بـ(لَمْ) مع المضارع تتوجَّه دلالة النَّفي فيه للماضي، ثمَّ جاء الاستدراك متمكِّنًا في موقعه، فوقع بين النَّفي والإثبات، ومزية الاستدراك هُنا التَّنبيه على أنَّ النَّفي موجَّهٌ إلى الفاعل لا الفعل[1]؛ لأنَّ الواقع يشهد بصدور هذه الأفعال، وظاهر التَّركيب قدْ يُوحي بنفي الفعل، ولكنَّه لمّا كان نفي الفاعل في جملة النَّفي قدْ يُفهم منه إثباته لغيرهم مِن جنسهم نُفي الفعل.

وقد عدَّد ابن أبي الاصبع في هذه الجملة عددًا مِن الفنون البديعيَّة فقال: "فحصل في هذه الكلمات على هذا التأويل الاستدراك، والترشيح، والتعطف، والتَّهذيب، وحسن النسق، وحسن البيان"[2]، والفنون التي ذكرها ابن أبي الاصبع تتنوَّع دلالاتها بين حسْن البناء والنَّظم، وبين جودة المعنى، فالاستدراك والتَّرشيح والتَّعطُّف تقوم على حسن البناء والنَّظم والتَّركيب، والتَّهذيب وحسن النَّسق وحسن البيان تقوم على ظهور المعنى وترابطه وانسجامه.

وجاء التَّعبير بالجملة الاسمية مع اصطفاء (لكنَّ) بتشديد النون في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لتأكيد نفي نسبة تقدير الأمور وتدبيرها لغير الله، والتَّأكيد على تفرُّده وحده بالتَّدبير والتَّقدير، لتتعلَّق النُّفوس بالمسبِّب الأوَّل، ولا تنشغل بالأسباب الظَّاهرة، وكأنَّ النَّفي قبله مهَّد لهذا الأسلوب، وقوَّة الأسلوب آتيةٌ من إعادة تكرار الفاعل، بالظُّهور الصَّريح أوَّلًا، ثمَّ بالضَّمير المستكنِّ في الفعل ثانيًا.

والطباق بين (فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ) و (الله قَتَلَهُمْ) طباقُ سلْبٍ، وإتيان المعنى بطريق النَّفي والإثبات مِن أقرب الطُّرق الدَّلاليَّة للمعنى؛ لأنَّه يعرض لحقيقة المعنى مباشرةً، وينفي عنه ما ليس منه، وإيضاح الحقيقة بصورةٍ لا لبْس فيها اقتضى أنْ يأتي المعنى بهذا

= وعلق عليه: الدكتور عبد المعطي قلعجي، نشر دار الكتب العلمية ببيروت، ودار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ/ ١٩٨٨م.

(١) ينظر: حاشية القونوي: (٩/ ٤٢).

(٢) بديع القرآن: (١١٨).

المستوى مِن المباشرة، ويظهر أثر طباق السَّلب في النَّفس مِن كون النَّفس تميل إلى التَّناسب بين الأشياء، والطِّباق هو نوعٌ مِن التَّناسب بالتَّضاد.

والمفهوم مِن المعنى -والله أعلم بمراده - أنَّ لكلِّ فعلٍ ابتداءً وانتهاءً، ولكلِّ فعلٍ مقارفةٌ وأثرٌ، فالذي أثبته الله لهم الابتداء والمقارفة، والذي نَسَبَه إلى نفْسه الغاية والأثر، خاصَّةً أنَّ الأثر في هذه الغزوة تحديدًا كان مِن المعجزات؛ ولذلك فالقول بخصوصيَّة القتل والرَّمية قولٌ سديدٌ، وهو القول الذي ارْتضاه شيخ الإسلام ابن تيمية، فوجَّهه بأنَّ الله ﷻ "خَرَقَ العادة في ذلك، فصارت رؤوس المشركين تطير قبل وصول السِّلاح إليها بالإشارة، وصارت الجريدة تصير سيفًا يُقْتَل به. وكذلك رمية رسول الله ﷺ أصابتْ مَن لَمْ يكن في قدرته أن يصيبه، فكان ما وُجد مِن القتل وإصابة الرَّمية خارجًا عن قدرتهم المعهودة، فسُلبوه لانتفاء قدرتهم عليه، وهذا أصحُّ، وبه يصحُّ الجمع بين النَّفي والإثبات ﴿وَمَا رَمَيْتَ﴾ أي ما أصبت ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ إذْ طَرحت ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾، أصاب "[1] وعليه فالنَّفي والإثبات جاءا باعتبارين مختلفين.

ويكاد يتَّفق منهج البناء في قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ مع الجملة الأولى مِن حيثُ طريق الدّلالة، ولكن ثمَّة فروق، فالجملة الأولى نُفيت بلَمْ مع الفعل المضارع، وهذه الجملة نُفيت بما مع الماضي، فما الفرق بين طريقي النَّفي؟

سبقت الإشارة إلى النَّص المنقول عن سيبويه في دلالة استعمال ما لنفي الجملة التي يدخل عليها القسم، وأنّ ذلك يدلُّ على استعمال ما في مقامات تأكيد النَّفي[2]. وحين ننظر إلى سياق النَّظم الكريم نجد الفعل المنفي بما هو الرَّمي؛ لأنَّ صورته

---

(١) مجموع الفتاوى: (١٥/ ٢٦)، اعتنى به وخرج أحاديثه: عامر الجزار وأنور الباز، نشر دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢) ينظر: ص(١٥٩).

أعجب، وأثره أغْرب، فكان النَّفي آكد لمقتضى المقام. وأمَّا النُّكتة الثَّانية في التَّفريق بين الطريقين هو أنَّ النَّفي بـلَمْ يكون مع الفعل المضارع الدَّال على تجدُّده وحدوثه، والفعل المنفي بـما هو الفعل الماضي الدَّال على الانقضاء، فالنَّفي بلَمْ يكون دالًّا على نفي الفعل والحدث في الماضي بصورة التِّكرار والتَّطاول والاستمرار، ونفيه بـما يدلُّ على نفي الحدث مرَّةً بصورته النِّهائيَّة[1]؛ ولذلك فاصطفاء أسلوب النَّفي بـلَمْ مع القتل؛ لأنَّ فعل القتْل صادرٌ مِن كثرةٍ، سواءً كان الفعل ذاته أو الفاعلين، أمَّا الرَّمي ففعلٌ واحدٌ مِن فاعلٍ واحدٍ، والله أعلم. ونلحظ فرقًا آخر في البناء وهو حذف مفعول الفعل رمى؛ ليدلَّ على أنَّ المقصود هو العناية بالفعل وفاعله؛ لأنَّ مدار الإعجاز في هذه الرَّمية وفاعلها.

أمَّا الفرق الأخير فهو في إثبات صورة الفعل ﴿إِذۡ رَمَيۡتَ﴾، فلماذا أُثبت صورته في الرَّمي ولَمْ يُثبت في القتل؟

لصورة الرَّمي خصوصيةٌ تفوق القتل، فالصُّورة الخارقة فيها أعظم مِن صورة القتل[2]؛ لأنَّ أثر الرَّمية عادةً لا يصل ما وصل إليه بتلك الرَّمية، فكان إثبات ذلك له ثمَّ نفيه عنه أبْلغ، فالإثبات والنَّفي على ما تقدَّم باعتبارين، باعتبارالإرسال ثمّ باعتبار الأثر. كما نلحظ التَّناسب في العطْف بين الفعلين القتل والرمي، وكلاهما يُقصد به النِّكاية في العدوِّ.

وفي وتوالي النَّفي والإثبات في القتل والرَّمي إيضاحٌ لحقيقة ما ينبغي أن يعتقده المؤمن، وتصحيحٌ لتصوُّر مسألة النُّصرة والمعيَّة الرَّبانيَّة، فأسلوب النَّفي والإثبات جاء لتأكيد نصرة الله لهم، وتصحيح تصوُّر المسألة مِن المقارفة إلى التَّأثير والتَّوفيق والتَّسبيب، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ على المؤمن أنْ يحقِّق التَّوكُّل على الله، والعمل

(١) ينظر: معاني النحو للدكتور فاضل السامرائي: (٤/ ٥٧١ وما بعدها)، نشر جامعة بغداد، بغداد، الطبعة الثانية، ١٩٩٠م.

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٧٧).

بالأسباب، أمَّا عن آثار العمل فمردُّه إلى الله ﷻ.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ﴾ اللام مفيدةٌ التَّعليل، ومتعلِّق الجملة محذوف أيْ: ليُبلي المؤمنين فعل ما فعل[1]، فالتَّركيب بتقديم العلَّة وتأخير المعلَّل يفيد الاختصاص، ثمَّ عَدَل بطريق الالتفات مِن الضَّمير المخاطَب إلى الاسم الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي إظهار لفظ الإيمان في هذا الموضع أثره النَّفسيُّ، إذْ فيه إيماءٌ إلى أنَّ سبب النِّعمة والمنحة هو إيمانهم الرَّاسخ، فعليهم أنْ يتمسَّكوا به، وينافحوا عنه، ثمَّ إنَّ إثبات المتعلِّق بقوله: ﴿مِنْهُ﴾ مشعرٌ بالتَّفضُّل والإنعام؛ لأنَّ هذا الإبلاء صادرٌ مِن الرَّبِّ الكريم، كما أفاد إثبات مصدر الفعل ووصفه نوع البلاء وأنَّه بلاءٌ حَسَنٌ.

كما أنَّ في صدور البلاء مِن الله ﷻ وتقييده به، وأنَّه للمؤمنين تفضُّلًا وتكرُّمًا منه؛ لأن ابتلاءهم بالنِّعمة ليصبِّرهم في تلك المواضع، كما أن مقتضى الإيمان الذي وصفوا به يستدعي مقابلة تلك النعمة بالشُّكر، ومِن أعظم الشُّكر الثَّبات على دين الله، ومحاربة الذين يحاربون الله ورسوله.

وأكَّد وصفه بالسميع العليم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ لتقرير المعنى في النُّفوس، وذكر صفتي السّمع والعلم بينهما تناسبٌ في الجمع بين الصِّفتين مِن جهةٍ، ثمَّ تناسب هاتين الصِّفتين لما قبلها، أمَّا تناسب الصِّفتين؛ فلأنَّ صفة السَّمع يكون بها إدراك الظَّاهر، وصفة العلم يكون بها إدراك الخفيِّ، فالجمع بينهما دالٌّ على كمال الإحاطة، فإذا دلَّ على كمال الإحاطة كان ذلك موقعًا أثره النَّفسيَّ مِن التَّحذير والتَّرهيب فيحذِّر الإنسان أن يقول ما لا يرضاه الله مِن القول، أو يُضمر في قلبه ما لا يحبه الله ولا يرضاه، يقول الرَّازيُّ "أي سميعٌ لكلامهم عليمٌ بأحوال قلوبهم، وهذا يجري مجرى التَّحذير والتَّرهيب، لئلا يغترَّ العبد بظواهر الأمور، ويعلم أنَّ الخالق

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٥٥).

تعالى مطَّلعٌ على كل ما في الضَّمائر والقلوب"(١)

والأعلى مِن ذلك أنْ تجري الجملة مجرى التَّرغيب، لأنَّ ما قبلها ثناءٌ وتفضُّلٌ على المؤمنين، فتكون الجملة جاريةً مجرى التَّعليل لما تقدَّم، فيكون المعنى أنَّه يُبلي المؤمنين بلاءً حَسَنًا؛ لأنَّه سميعٌ لكلامهم، عليمٌ بأحوالهم، وهذا ما أفهمه مِن إشارة أبي السُّعود بقوله: "وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ ﴾أي لدعائهم واستغاثتهم ﴿عَلِيمٌ ﴾ أيْ بنيَّاتهم وأحوالِهم الدَّاعيةِ إلى الإجابة، تعليلٌ للحكم"(٢).

وقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ نلحظ في تركيبه حذف خبر اسم الإِشارة لدلالة السِّياق عليه، والمقصود به ما تقدَّم مِن التَّفضُّل على المؤمنين، وهو أقرب مذكورٍ، ثمَّ عطف بعد ذلك الجملة المؤكَّدة على سبيل الطِّباق والتَّضاد بين الموقفين، موقف أهل الإيمان، وأهل الكفر والعصيان، وجاءت الجُملة مؤكَّدةً في سياق التَّهديد والوعيد؛ ليكون ذلك أوقع في نفوسهم، وأشدَّ تأثيرًا، كما أنَّ في إطلاق لفظ الكفر بتعريفه لفتًا إلى الذَّنب الذي استحقوا به العذاب. وهكذا نلحظ تعاقب التَّرهيب والتَّرغيب موازنةً بين الخطابين في السُّورة.

وجاء الأثر التَّثقيفيِّ في موضعين، يتناول الأوَّل منهما الجانب الاعتقاديَّ، وهو الأقرب لموضوع السُّورة ومقصدها، والآخر ترغيبيٌّ في الموازنة بين حال المؤمنين والكفَّار. وفيه إظهار لكمال الامتنان، فكأنه يقول: هذا التَّوفيق الذي منحتكم بتدبيري وتقديري، وهذا ماكتبته عليكم، وما فعلته بأعدائكم؛ ليستشعر المؤمن ما حباه الله من النِّعم فيقوده ذلك إلى التَّسليم، وعدم الرُّجوع إلى ما نهوا عنه.

---

(١) مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٤٥).

(٢) إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٣ و ١٤).

المبْحثُ الرّابع: أثر أساليب التَّأكيد في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

للتَّأكيد مسالك عديدةٌ ومتنوِّعة، وفي هذه السُّورة نجد أنَّ أسلوب التَّأكيد بمسالكه لا يكاد يفارق معنًى مِن معانيها؛ وذلك لطبيعة الموقف والمقام الذي نزلت السُّورة لأجله، فالمؤمنون أمام موقفٍ جديدٍ له متطلباته، وأولى تلك المتطلبات أنْ يكون لديهم مقدارٌ عالٍ مِن الثَّبات، وصدق التَّوكُّل على الله، فكانت أساليب التَّأكيد ومسالكه تؤدي بأثرها النَّفسي إلى تحقيق هذا الجانب مِن الطمأنة والسكون، وتأكيد النَّصر والظَّفر. ففي قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٩ و١٠] جاءت الآية في سياق المنَّة على المؤمنين بسرعة الاستجابة، مع عزو الفضائل والمنن لله وحده، وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ﴾ متعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ فيعمل الفعل العامل فيها (اذْكُرُوا)، ويبقى الإشكال في الجمْع بين وقت الوعْد ووقت الاسْتغاثة إلَّا أن يكون على اعتبار اتِّساع الزَّمن[1]، وقيل متعلِّقٌ بقوله ﷻ ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾[2]، وقيل ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾[3]، والأعلى في ذلك كلِّه ما ذَكَرَه الطِّيبيُّ مِن أنَّ إدخال الاستغاثة والاستجابة في الأمْر بالتَّذكُّر فيه مبالغةٌ[4]، والسِّياق سياق تذْكيرٍ بمننٍ وفضائل، فالاعتداد بكونه بدلًا مِن ﴿إِذْ يَعِدُكُمُ﴾ أنْسب للسِّياق.

---

(١) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف (الجزء الثاني): (٧٢/ أ)، [مخطوطة مصورة بجامعة الملك عبد العزيز برقم (١٥٧١)].

(٢) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٤٩).

(٣) ينظر: جامع البيان: (١٣/ ٤٠٨).

(٤) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف: (٧٢/ أ).

واستعمال القرآن الكريم لإذْ استعمالٌ خالبٌ، فهو يَستعمل هذه الأداة للرَّبط القصصيِّ، ينتقل بها بين ما يصطفيه السِّياق مِن أحداث المعركة في سلاسةٍ وبلاغةٍ. "فما يؤدِّيه هذا الظَّرف غرضٌ معنويٌّ بلاغيٌّ دقيقٌ هو تمييز مواقف أوأحداثٍ معيَّنةٍ، منتقاةٍ مركَّزة الأجزاء تركيزًا دقيقًا، تُعدُّ هي المواقف الرئيسيَّة التي تتضمَّن أغراض الموضوع كلِّه، فيكون فيها غنيةٌ عن كثيرٍ مِن الأجزاء الثَّانويَّة مابين هذه المواقف، فالدَّور الفنِّيُّ لهذه الأداة هو تعيين الموقف أولًا، والدَّلالة على أنَّها ممَّا كان وتحقَّق ثانيًا، وأنَّها جزءٌ مِن وحدةٍ زمانيَّةٍ أوسع إطارًا ثالثًا"[1].

ومِن هُنا تظهر دقَّة استعمال القرآن الكريم لأدوات الرَّبط، وتمركزها تمركزًا يحقِّق لها أبعادًا فنيَّةً؛ ولذلك عدَّ ابن عاشور استعمال إذْ في هذه المواضع مِن أبْدع التَّخلُّص، وهو عنده مِن مُبتكرات القرآن الكريم[2]، ثمَّ تأتي الفاء للتَّعقيب، ولتعْطف المسبَّب على السَّبب[3]، ونلمْح في العطف بالفاء طيَّ الزَّمن والسُّرعة بين الاستغاثة واستجابة الدُّعاء، حتَّى لكأنَّ بشرى الإجابة وَفَدَتْ مع آخر تمْتَمات الدُّعاء دون فاصلٍ زمنيٍّ، وهو ما يُوحيه حرْف الفاء في نطقه، وهو أمرٌ يرجع إلى طبيعة اللغة؛ "لذلك اختيرت الفاء القصيرة في زمن نطقها، للدَّلالة على التَّعقيب، وهو سرعة توالي الأحداث؛ لتناغم سرعة النُّطق بالحرف مع سرعة وقوع الحَدَثِ"[4]، ثمَّ أثبت القيْد ﴿لَكُمْ﴾لتضفي على السِّياق ظلال الاهتمام، والعنايةوالتفضُّل والإنعام، ويظهر موقع هذه العناية، واختصاص هذا التَّفضُّل بهم حين نَنْزعها مِن السِّياق.

ويلتفت السِّياق القرآنيُّ مِن الغَيْبَةِ إلى المتكلِّم في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾ فالحديث قبله سِيْقَ مساقِ الغائب، وفي الانتقال إلى المتكلِّم في هذا الموضع تحديدًا

(١) في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٤٣٤).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٨).

(٣) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ٢٣).

(٤) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: (٧).

ليلفت إلى مقام مِن مقامات العَظَمَةِ الإلهيَّة، فحديث المولى ﷻ عن نفْسه في مقام الاقتدار والتَّفضُّل أوقع أثرًا وهيبةً حين يأتي بصيغة المتكلِّم، فهو على تطريته أذن السَّامع بهذا الانتقال له ميزته التي تُضفي على السِّياق العَظَمَةَ والقدرة الإلهيَّة، وهو يُشيع الطمأنينة في نفوس المؤمنين بحديثه عن نفْسه بضمير المتكلِّم في سياق الإمداد والنُّصرة، وممَّا يزيد الموقف تبشيرًا للمؤمنين مجيء الجملة مؤكَّدةً مراعاةً لحال السَّامع، فهو مترقِّبٌ للنُّصرة، مسلِّمٌ أمره لله، فإذا جاء الإمداد مؤكَّدًا على هذا النَّحو مِن التَّقرير وتقوية المعنى في نفس سامعه كان أدْعى لطمأنة القلوب، وزوال ما تعلَّق بها مِن القَلَقِ والوَجَلِ، فالأسلوب المهيمن في السِّياق أسلوب التَّوكيد وذلك ناظرٌ إلى البُعد النَّفسيِّ الذي رفع فيه المؤمنون أكفَّهم، يستغيثون ويدعون، ودلالة التَّوكيد هي أقْدر الدَّلالات على بثِّ الهدوء والطمأنينة لما تحمله مِن دلالاتٍ للإثبات أو النَّفي، وقوله تعالى: ﴿أَنِّي مُمِدُّكُم﴾، الأظهر في أَنَّ هُنا أنَّها مؤكِّدةٌ مراعاةً لمقام المخاطَبين إذْ كانت نفوسهم تتلهَّف لمثل هذه البشارة، فجاء التَّأكيد مطابقًا لمقتضَى الحال.

وجاء إثبات القيد ﴿مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ لتبشير المؤمنين؛ لأنَّها بيَّنت جنس هذا المدَدِ وأنَّهم مِن الملائكة، ومعلومٌ أنَّ مَلَكًا واحدًا قادرٌ أنْ يُهلك بجناحه كلَّ المشركين كما حصل مع قوم لوطٍ، ويلفت ابن عاشور إلى نكتةٍ أخرى فيقول: "وفائِدة التَّبشير بإمداد الملائكة أنَّ يوم بدْرٍ كان في أوَّل يوم لقي فيه المسلمون عدوًا قويًّا وجيشًا عديدًا، فبشَّرهم الله بكيفيَّة النَّصر الذي ضمَّه لهم بأنَّه بجيشٍ مِن الملائكة، لأنَّ النُّفوس أمْيل إلى المحسوسات، فالنَّصر معنى مِن المعاني يدقُّ إدراكه وسكون النَّفس لتصوره بخلاف الصُّور المحسوسة مِن تصوير مَدد الملائكة ورؤية أشكال بعضهم"[1]. والميل إلى المُحسِّ شيءٌ مركوزٌ في مبنى الطِّباع.

وإشارة الآيات إلى هذا الموقف العظيم واستجابة الله لهم على هذا الوجه من التأكيد والسرعة فيه معلمٌ مِن معالم التَّثقيف النَّفسيِّ يُرغِّب المؤمنين في صدق التَّوكل

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٦).

على الله ﷻ في الرَّخاء والشِّدَّة، وأنَّ مقابل ذلك الصِّدق تكون الاستجابة، فمهما كان قدْر العدوِّ، ومهما كان عُدَّته وعتاده، فسلاح التَّوكُّل على الله ﷻ والالتجاء إليه بالتَّضرُّع والاستغاثة كفيلٌ بأنْ يقلب موازين المعركة.

وجاءت الآية الثَّانية معلِّلةً الإمداد، بأسلوب القصْر، وهو مناط التَّثقيف الرئيس الذي يريد السِّياق أن يقرِّر حقيقته ويؤكِّدها، فقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡ ﴾[الأنفال:١٠] والضمير عائدٌ على الإمداد وهو المقصور، و(بشرى ولتطمئن به قلوبكم) مقصورٌ عليه، فحصل بهذا الأسلوب نفي أعمِّ العِلل أي لا لشيءٍ مِن العلل، ثمَّ الإثبات بعلَّة البشرى والطمأنة، والقصْر هُنا قصرٌ حقيقيٌّ؛ لأنَّ النَّفي فيه عامٌّ ليس متوجِّهًا إلى معيَّن، وهو قصرٌ تحقيقيٌّ إذا اعتبرْنا أنَّ قتال الملائكة داخلٌ في الطمأنة؛ لأنَّ الطمأنة حاصلةٌ بهذا، فإنْ لَمْ يكن فهو قصْرٌ مجازيٌّ، لأنَّ الملائكة قاتلت في بدْرٍ على الرَّاجح مِن القولين[1]، وإظهاره في هذا الأسلوب يمثِّل صورةً مِن صُور الاهتمام بنفوس المؤمنين، وكيف ساق القرآن هذه البشرى معتنيًا بحصْر الإمداد في التَّلطُّف الإلهيِّ بنفوس المؤمنين، كما أنَّنا نلاحظ عطف(تَطْمَئِنُّ) على(بُشْرَى) بواو العطْف، والعطف هُنا مبنيٌّ على التَّرتيب الوجوديِّ والتَّلازميِّ، فالأصل وجود البشرى ثمَّ حصول الطمأنينة نتيجةً للبشرى، ونقل أبو السُّعود رأيَ الرّازيِّ في آية آل عمران موجزًا في هذه الآية مع اختلاف النَّظم فيهما، وأشار إلى أنَّ فُقدان نصب تطمئنَّ على أنْ تكون مفعولًا للجعل للإشارة إلى أصالته في العِلِّيَّة، وأهميَّتِه في نفْسه كما قيل في قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ ﴾ [النحل:٨].[2]، لكن التَّعليل الذي ذهب إليه الرَّازيُّ مِن كون اللام أُدخلت عليه لتغاير

---

(١) اختلف في مسألة قتال الملائكة في غزوة بدر. ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٣٥) وإرشاد العقل السلم: (٤/ ٨) ويقارن بما ورد في صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير: باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم: حديث رقم (١٧٦٣) (٣/ ١٣٨٤). وينظر: المحرر الوجيز: (٨/ ٢١).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٨) ومفاتيح الغيب: (٨/ ٢٣٦).

بين ما هو أصيلٌ في العلِّيَّة وما هو سببٌ بعيدٌ؛ لأنَّ الذي أُلحق لأجله اللام عدم اتِّحاد الفاعل في المعطوف والمعطوف عليه[1].

والأعلى ما ذَهَبَ إليه القونويُّ حين قال: "وقُدِّم المفعول به الغير الصَّريح على الفاعل، إذ الأهمُّ حصول الاطمئنان بالبشرى، فينكشف منه وجه تقديم بشرى على الاطمئنان"[2] فأصالة العلِّيَّة إذنْ مستفادةٌ مِن تقديم القيْد لا مِن إلحاق اللام، وله وجهٌ آخر كذلك أنْ نقول إنَّ دلالة أصالة العلِّيَّة مستفادةٌ مِن التَّخصيص الذي أفاده تقديم ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ ﴾على الفعل المحذوف المقدَّر بـ (فَعَلَ ذَلِكَ)[3].

سياق الآية جاء ليحدِّد علَّة المدد، ويوضِّح غايته، وينفي مايُتعلَّق به مِن ملابسات، ولشدَّة تعلُّق قلوبهم بما يسكِّن فيهم هذه المواجهة الجديدة قدَّم القيد ﴿بِهِۦ﴾ تنويهًا لما في هذا الإمداد مِن تحقيق غاية الطمأنة. ومِن أهمِّ ما يُهيَّء به الجنود في القتال بثُّ الاطمئنان والثِّقة والثَّبات وتقديم البشرى بالانتصار؛ ليرفع ذلك مِن عزائمهم، فاعتقاد الإنسان بانتصاره دافعٌ له على الثَّبات والنِّضال وتحقيق ما يعتقده؛ ولذلك نصَّت الآية على ذكر البشرى والطمأنينة لما لهما مِن أثرٍ فاعلٍ في النُّفوس.

وفي سياق أساليب التَّأكيد جاء ت الجُملة الثَّانية بأسلوب القصْر، ونلحظ بدايةً أنَّ الجملة جاءت معقِّبةً في المعنى لجملة القصر السَّابقة، فحدَّدت الجملة السَّابقة الغاية التي جاء لها هذا المدد، وعالجت هذه الجُملة ما يلتبس على البعض مِن صرْف الأمور والقدْرة إلى المشاهد والأسباب الظَّاهرة، والغفلة عن مسبِّب الأسباب، ومقدِّر الأمور، وبهذا نجد أنَّ المعنيين يعالجان مقصدًا واحدًا مرتبطًا بمقصد السُّورة الرئيس، يقول البقاعيُّ: " ولَمَّا كان ذلك مفهمًا أنَّ النَّصر ليس إلَّا بيده، وأنَّ شيئًا مِن الإمداد أو

(١) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٥١ و ٥٢).

(٢) حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ٢٥).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٨).

غيره لا يُوجب النَّصر بذاته، صرَّح به في قوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ﴾. "[1] وهذا يعني أنَّ دلالة جملة القصر الأولى على تحقيق معنى تفرُّده بالنَّصر دلالة مفهومٍ، وأنَّ دلالة الجملة التَّالية دلالة منطوقٍ[2] وهذا مِن التَّصريف والتَّلوين البيانيِّ.

والقصر في قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ﴾ قصرٌ إضافيٌّ؛ لأنَّ غايته دفع ما يَرِدُ مِن الأوهام في تصوُّر أنْ يكون النَّصر مِن الملائكة، أو أنْ يشارك الله ﷻ أحدٌ في تحقيق هذا النَّصر، فإن كان لدفع تصوُّر أنْ يكون النَّصر مِن الملائكة فهو قصر قلبٍ، وإنْ كان لدفع تصوُّر أنْ يُشاركه أحدٌ في ذلك فهو قصر إفرادٍ، وهو الأعلى؛ لأنَّ السِّياق ذَكَرَ طلب المؤمنين النُّصرة مِن الله، واستغاثتهم ربهم، فبعيدٌ أنْ يكون دفع التعلُّق باعتقاد النَّصر مِن الملائكة وحدهم.

واصطفاء أسلوب النَّفي والاستثناء عائدٌ إلى طبيعة المعنى في هذا السياق، وهو سياقٌ حافلٌ بالمؤكِّدات؛ لأنَّ غاية الاستجابة تسكين القلوب وطمأنتها وتثبيتها في القتال، فاصطفاء الأسلوب عائدٌ إلى محض التَّأكيد وتقرير المعنى لا أن يكون في نفوس المؤمنين إنكاره.

وفي هذا السِّياق التَّأكيديِّ جاء التَّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾،فالتَّوكيد متَّسقٌ مع السِّياق الذي جاء بالمؤكِّدات على جهة التَّقرير، وجاء التَّأكيد بـإنَّ نظرًا لحال المخاطَبين؛ لأنَّهم أقبلوا على القتال وفي نفوس بعضهم خوفٌ وقلقٌ مِن هذا الإقدام، فأراد السِّياق أنْ ينزع هذا الوَجَلَ مِن نفوسهم وقلوبهم على جهة التَّقرير والتَّأكيد بأنَّ ما يختاره لهم هو اختيارٌ صادرٌ ممَّن له العزَّة فلا يُقهر، والحكمة البالغة، ولهذا أشار البقاعيُّ بقوله: "ولمَّا كانت هذه الغزوة في أوَّل الأمْر، وكانوا بعْد بُروز الوعْد الصَّادق لهم بإحدى الطَّائفتين كارهين للقاء ذات الشَّوكة

(١) نظم الدرر: (٣/ ١٩١).

(٢) المفهومُ عند الأصوليين: "ما فُهِمَ من اللفظِ في غيْرِ محلِّ النُّطقِ" والمنْطوقُ: "ما فُهِمَ من دَلالةِ اللفظِ قطعًا في محلِّ النُّطقِ". الإحكام في أصول الأحكام: (٣/ ٨٤).

جدًا، ثمَّ وَقَعَ لهم ما وَقَعَ مِن النَّصر، كان المقام مُقتضيًا لإثبات عزَّة الله وحكمته على سبيل التَّأكيد إعلامًا بأنَّ صفات الكمال ثابتةٌ له دائمًا"(١)، واصطفاء اسمي العزيز والحكيم مناسبٌ لمضمون الآية، فهو العزيز الغالب الذي لا يُقهر، فإذا كان كذلك فلاشكَّ أنَّ النَّصر بيده، والحكيم الذي يضع الأمور في نصابها الصَّحيح، وهو باختياره النَّفير لهم اقتضت حكمتُه أنْ يكون الانتصار سببًا في تمكين المسلمين، وعلوِّ رايتهم، فهو مِن تناسب الأطراف، وتقديم العزيز على الحكيم يحقِّق فائدة البدء بصفة الذات وتأخير صفة الأفعال (٢).

وهكذا يحرص القرآن الكريم أن يكون الخطُّ الجهاديُّ والعقديُّ جنْبًا إلى جنْبٍ، وأن يصفِّي هذه العقيدة التي يناضل المجاهدون لأجلها، ولأنَّ الله ﷻ انتصر للمؤمنين وأرسل لهم مِن الملائكة ما يحقِّق به النَّصر، حرص القرآن أن يصدَّ شبهة الاعتماد على الأسباب، ونسيان مسبِّبها الأوَّل، وما يحصل مِن اندفاع النَّفس بفطرتها في الاعتماد على القريب المشاهد. فجعل النَّصر مِن عنْد الله وحده لا يشاركُه أحدٌ في ذلك، بل كلُّ ما تشاهدونه مِن مددٍ ومِن أسباب النُّصرة فإنَّما هو بأمره وحده وهو ما تحقَّق بمسلكٍ من مسالك التَّأكيد وهو القصر بالنَّفي والاستثناء.

وفي سياق غزوة أحد يتفرَّع السِّياق تذكيرًا بما حصل في غزوة بدْرٍ من المنن التي نزلت عليهم حين فوَّضوا أمورهم إليه فقال ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٣-١٢٦]واستحضار حادثة غزوة بدر للتَّذكير يستدعي قوَّةً في

---

(١) نظم الدرر: (٣/ ١٩١ و ١٩٢).

(٢) ينظر: أسماء الله الحسنى " دراسة في البنية والدلالة " للدكتور أحمد مختار عمر: (١٢٩)، نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

أداء المعنى، ولفتًا للنُّفوس والقلوب إلى أهميَّة ذلك الحَدَثِ؛ ليكون المؤمن على ذكرٍ بمزيَّةِ التَّوكُّل، كما أنَّ الحديث عن الفشل الذي صَدَرَ مِن فريقٍ مِن المؤمنين لربَّما أوقع في نفوس البعض شيئًا مِن القلق والخوف، فكان إخراج المعنى على هذا النَّحو مِن التَّأكيد باللام والقَسَم وقدْ مع الفعل الماضي الذي يُفيد التَّحقُّق نَزْعًا لكلِّ شائبةٍ تتعلَّق بالنُّفوس مِن التَّردُّد والشَّكِّ، ولَمَّا كان شأن النَّصر شأنًا عظيمًا دالًّا على تفرُّده بالتَّدبير، فهو وحده المسخِّر لعوامل النَّصر بتعديد أضربها، وتكثير أنواعها مِن إنزال المطر والملائكة، وإرهاب نفوس الكافرين وإرعابها، كان حقُّ المقام إسناد الفعل صراحةً إلى فاعله، ونسبة الفضل لصاحبه، فأُظهر اسمه الأعظم في موضعٍ كان مِن الممكن أنْ يُضمر فيه[1].

وهكذا نلحظ تضافر ضروبٍ مِن التَّوكيد والاحتشاد البيانيِّ لطبيعة الموقف، فنجد تضافر أدوات التَّوكيد مع الإظهار في موضع الإضمار لتقرير حقيقة الموقف، وطمأنة النُّفوس بنتائجها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أُثبتت الجُملة الحالية عن المفعول، وهم المؤمنون ليعْلمهم أنَّ قلَّة العدد والعُدَّة ليس سبب الهزيمة يوم أُحد[2]، فموضع الجُملة الحالية موضع العجب والتَّعجيب مِن حالهم، ثمَّ أرشدهم إلى حقيقة النَّصر كيف يُطلب؟ فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، وأفادت الفاء الحثَّ على المبادرة للتَّقوى، فرتَّب النَّصر على التَّقوى، يقول أبو السعود: " وفي ترتيب الأمرِ بالتَّقوى على الإخبار بالنَّصر إيذانٌ بأنَّ نصرَهم المذكورَ كان بسبب تقواهم، أي إذا كان الأمرُ كذلك فاتَّقوا الله كما اتَّقيتم يومئذٍ"[3]، واستحضار الاسم الكريم في موضع الإضمار لتربية المهابة، فهو

(١) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: (١٠٠).

(٢) ينظر: غزوات الرسول ﷺ "دروس وعبر وفوائد" للدكتور علي محمد الصلابي: (١٤٥)، نشر مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٣) إرشاد العقل السليم: (٢/ ٧٩).

القادر على العقاب والإثابة، فيكون لاستحضار اسمه الجلال في النُّفوس والقلوب، والأمر بالتَّقوى جالبٌ لكلِّ أعمال البرِّ الجالبة للنَّصر.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ يحتمل المعنى أن يكون الرجاء في الإنعام المقتضي للشكر فيكون التعبير بالشكر عن الإنعام من التعبير باللازم، ويحتمل أن يريد به الشكر على النِّعمة التي أنجزها لهم في بدر. يقول ابن عطيَّة: "ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى، ورجاهم بالإنعام الذي يوجب الشكر، ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن يكون تقواكم شكرًا على النعمة في نصره ببدر"[(١)]، وفي التَّعبير بلعلَّ المفيدة للتَّرجِّي دلالةٌ على عزَّة الوصول إلى مقامات التَّقوى ومقام الشَّاكرين[(٢)]، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

فإنْ قيل: التقوى مِن الشُّكْر، قلنا: فائدته التَّثقيفيَّة أنْ ينبِّه إلى أنَّ هذا الفرْد مِن الشُّكر وهو التَّقوى، أصل الباب الذي يُثمر بقيَّته[(٣)].

ثمَّ يضع السِّياق القرآنيُّ المستمع في قلْب قصَّة النَّصر. يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾، فالظَّرف (إذْ) متعلِّقٌ بالفعل (نَصَرَكُمْ)، وجملة الاستفهام حكايةٌ عن الرَّسول ﷺ، ليكشف ما يتردَّد في نفوس المؤمنين يقول تعالى: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ فدخلت همزة الاستفهام على الفعل المنْفيِّ بـلَنْ؛ ليُفيد الاستفهام هُنا معنى إنكار اعتقاد عدم كفاية المدَدَ، ويقوِّي هذا الإنكار نفي الكفاية بِلَنْ؛ لأنَّ النَّفي بـلَنْ

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢١٩).

(٢) يقول الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٠] " وفي ذكره تعالى " لعلّ" و " عسى " في نحو هذه المواضع – وإن قال الناس ما قالوا – ما لا يخفى على العارف الفطن من دقة مسلك التقوى، وصعوبة إصابة رضا الله، وعزة التوصل إلى رحمته وثوابه. (الكشاف: ١/ ٣١٧).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٤٨ و ١٤٩).

أكثر تأكيدًا حتَّى كانوا كالآيسين منه[1]، وكلَّما عَظُم جانب اليأس والذِّلة عنْد المؤمنين كان إظهار جانب الإعجاز في القدْرة أقوى، وممَّا يزيد مستوى دلالة الإنكار اصطفاء اسم (الرَّبِّ) في هذا السِّياق، إذْ كيف يقع منكم اليأس مِن كفاية المدد وهو مِن عند ربِّكم الذي أَسْبَغَ عليكم النِّعَمَ والفضائل، فكان لإظهار اسمه في هذا الموضع، واصطفاء معنى الرُّبوبيَّة أثره الذي يُظلُّ السِّياق الإنكاريَّ. يقول أبو حيَّان: "وفي إسناد الإمداد إلى لفظة ربِّكم دون غيره مِن أسماء الله إشعارٌ بحسن النَّظر لهم، واللطف بهم "[2]، ويزيد الألوسيُّ دلالة إسناد الضَّمير وما تولَّد منه مِن معنى اللطف بقوله: "وفي التَّعبير بعنوان الرُّبوبيَّة مع الإضافة إلى ضمير المخاطَبين ما لايخفى مِن اللطف وتقوية الإنْكار"[3] وينتظم في سلك الإنكار التَّصريح بذكر الملائكة ووصفهم بالمنزلين؛ لأنَّ مَلَكًا واحدًا قادرٌ أنْ يُهلك أوَّلهم وآخرهم بأمر الله، وكذلك الوصف بالمُنزلين دالٌّ على أنَّهم استجابوا لأمر الله ﷻ، فكان هذا الاحتشاد البيانيُّ جديرٌ بأنْ يوقع في النُّفوس الطمأنينة والاستقرار إنْ هم توكَّلوا على الله ﷻ حقَّ توكُّله، وهذا الإنْكار يُفهم منه التَّوبيخ، يقول الكواشي: "أدخل همزة الاستفهام على النَّفي توبيخًا لهم على اعتقادهم أنَّهم لا يُنصرون بهذا العدد، فنقلته إلى إثبات الفعل على ما كان عليه مستقبلًا فقال: ﴿أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ﴾"[4]، فقوله: "فنقلته إلى إثبات"إشارةٌ إلى معنى آخر

(١) ينظر: الكشاف: (١/ ٣١٤).

(٢) البحر المحيط: (٣/ ٥١).

(٣) روح المعاني: (٢/ ٢٦٠).

(٤) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للحسين الطيبي: (٢٥٤)، دراسة وتحقيق لسورة آل عمران: حسن بن أحمد العمري [رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم التفسير بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية ١٤١٥هـ/ ١٤١٦هـ، بإشراف الدكتور: حكمت بشير ياسين]. والمخطوط ذاته الذي سبق الإحالة إليه باسم حاشية الطيبي على الكشاف، غير أن الجزء الذي أشرت إليه في المخطوط في سورة الأنفال سجل رسالة علمية في الجامعة نفسها ولم يحقق ولذلك رجعت إلى المخطوط في سورة الأنفال، ورجعت هنا إلى التحقيق. وقد حقق المخطوط كاملا في =

يهتف به سياق الاستفهام، وهو تقرير الكفاية[(١)]، وإلى ذلك أشار ابن عطيَّة[(٢)].

وهذا الاستفهام بما تفتَّق عنه مِن معاني له أثره التَّثقيفيُّ على النَّفس المؤمنة؛ لأنَّه يُفضي إلى التَّوكُّل على الله ﷻ، واليقين بموعوده، وتَلَقِّي المنن الربَّانيَّة بالطمأنينة والإيمان، وأنَّ المدد مهما بلغت عُدَّته فإنَّ مصدر طمأنينته هو المنزِّل لهم، ولذلك يعقِّب الله ﷻ بعد ذلك بتخليص معتقد أهل الإيمان مِن الأرقام وتفويض التَّوكُّل والإيمان إلى مسبِّب الأسباب، ويثير الاستفهام هذه المعاني ليعود المؤمن الصَّادق إلى قرارة نفْسه فيتنبَّه. يقول الإمام عبد القاهر: "واعلم أنَّا وإنْ كنَّا نفسِّر "الاستفهام" في مثل هذا بالإنْكار، فإن الذي هو محض المعنى: أنَّه ليتنبَّه السَّامعُ حتَّى يرجع إلى نفسه فيخجل ويرتدعَ، ويَعْيَى بالجواب"[(٣)].

وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ يثبت الله ﷻ ما قرَّره الاستفهام قبْله بقوله: ﴿بَلَىٰٓ﴾، ثمَّ يعلِّق الإمداد بخمسة آلاف بشروطٍ ثلاثةٍ، الصَّبر والتَّقوى وأنْ يأتي العدوُّ مِن فوْره ووجهته، والصَّبر والتَّقوى فيهما جماع معنى الثَّبات، وإدخال المضارع في حيِّز الشَّرط يُفيد تجدُّد المشروط، فيكون الاتِّصاف بالصَّبر والتَّقوى مِن الصِّفات اللازمة على سبيل التَّجدُّد والحدوث، وعَطْفُ قوله: ﴿وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا﴾ دلالةٌ على تحقُّق النُّصرة

= جامعة الأزهر، حققه الباحث: جميل محمد الحسيني المحمود بكلية اللغة العربية، ١٩٨٦م في أطروحة للدكتوارة، ولم يتسن الاطلاع عليها.

(١) استشكل الدكتور المطعني - رحمه الله - معنى الإنكار، وقرر أن الراجح عنده التقرير. ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: (١/ ١٧٩)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. والأعلى أنه لا غضاضة في الجمع بين المعنيين لأنهما لا يتدافعان، فمسلك الإنكار ليس هو ذاته مسلك التقرير، فالإنكار متوجه إلى اعتقاد نفي الكفاية، والتقرير متوجه إلى الكفاية، ونلحظ هذا المعنى في الأمثلة التي تفيد التقرير بدخول الاستفهام على المنفي الذي وقع.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٢١).

(٣) دلائل الإعجاز: (١١٩).

بطريق الأولى، فالنُّصرة متحققِّةٌ لهم، وعدوُّهم على هذه الصِّفة مِن السُّرعة التي لا يُظنُّ معها تحقُّق الظَّفر فكيف بما هو دونه[(١)]، وإضافة الفوْر إلى أهل الكفر فيه دلالةٌ على اختصاص هذا الفور بهم حتَّى صار يُعرف بأنَّه فورهم[(٢)]، واسم الإشارة دالٌّ على التَّعظيم[(٣)]؛ ليعظِّم معنى النُّصرة على ما يقتضيه السِّياق، فالسِّياق كما نلحظ سياق طمأنةٍ للنُّفوس، ويزيد النُّفوس اطمئنانًا إسناد فعل الإمداد إلى الرَّبِّ بإضافته إلى ضمير المخاطَبين؛ لدلالة اسمه الكريم على التَّفضُّل والإنعام، ويأتي تصاعد العَدَدِ منسجمًا مع طمأنة المؤمنين، إذْ جعل العدد مناسبًا لجيش العدوِّ[(٤)]، وجاء الوصْف بمسوِّمين مغايرًا للوصْف السَّابق؛ مراعاةً لسياق المعنى؛ لأنَّ الآية فيها تكثيرٌ للعدَدَ كثرةً ظاهرةً، فجاء الوصْف بمسوِّمين مراعيًا لهذا المعنى مِن الظُّهور والبُروز[(٥)]، ونلحظ العدول في الفعلين ﴿يُمِدَّكُمْ﴾ و﴿يُمْدِدْكُمْ﴾ حيثُ جاء فعل الإمداد تارةً بإدْغام الحرْفين المتماثلين في آخر الكلمة (يُمِدُّ)، وفي المرة الأخرى جاء بفكِّ الإدْغام (يُمْدِد). والعدول عن الصِّيغة جاء منْسجمًا مع السِّياق، ففي الآية الأولى جاء الفعل المُدْغم في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ يقول البقاعي: "﴿أَن يُمِدَّكُمْ﴾ إمدادًا خفيًّا بما أشار إليه الإدغام"[(٦)]، ثمَّ لَّما زاد عدد الإمداد فصار الزيادة بيِّنةً ظاهرةً، إضافةً للوصف بالتَّسويم وهو معنى ينسجم مع الإظهار، كانت الإشارة إليه بفكِّ التَّضعيف؛ لما فيه مِن معنى الإظهار[(٧)]،

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٨٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ٧٦).

(٣) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٢٦٠).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ٧٦).

(٥) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٤٩).

(٦) نظم الدرر: (٢/ ١٤٩).

(٧) ينظر: الموضع السابق.

وفي هذا العدول المنسجم مع السِّياق تأكيدٌ لفضل الله ومنَّته على عباده وكيفية تدرُّج فضائله عليهم، فيشعر المؤمنين بمعيَّته ونصرته لهم.

وفي تضافر هذه الأساليب مع بعضها البعض بثٌّ للطمأنينة في نفوس المؤمنين لقاء صدْق توكُّلهم على الله وحده، وتفويضهم الأمور إليه، وهو ما يقصد القرآن الكريم التَّنويه إليه في مطلع ذكْر أحداث غزوة أُحدٍ.

ثمَّ وضَّح الغاية مِن المدد، وجلَّى لهم حقيقة النَّصر والظَّفر ومصدره، لمَّا كان ذكر الملائكة والتَّدرُّج في ذكْر العدد سببًا لأنْ تتعلَّق النُّفوس بالأسباب، فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ففي القصْر هُنا نفيٌ لجميع الغايات، وإثباتٌ لغاية البشارة، وهو قصْر قلْبٍ؛ لأنَّ فيه ردًّا على مَن اعتقد أنَّ النَّصر مِن عنْد الملائكة المنزلين، فقَصَرَ الموصوف وهو الإمداد على البشارة، ولهذا القصر أثره التَّثقيفيُّ في نَزْع ما قدْ تعتقده النُّفوس في هذه الأسباب، وأنَّ حقيقة النَّصر مِن مُسبِّبها.

ولمَّا كان السِّياق العامُّ هو سياق غزوة أُحدٍ، وقدْ كثُر فيه المصاب، وكان سياق غزوة بدرٍ سياقًا تابعًا جيء بالمتعلِّق ﴿لَكُمْ﴾ لتخصيصه بهم، وتقوية الحكم، فتزيد النُّفوس اطمئنانًا إذا هي أخذت بأسباب النَّصر كما حصل في بدْرٍ، كما أنَّ السِّياق سياق مواساةٍ ومسح على القلوب بعد المصاب[1]. وللعلَّة نفسها جاء ذِكْرُ القلوب في موضعه ولَمْ يتقدَّم المتعلِّق؛ لأنَّ المقام مقام تسكينٍ للقلوب، وجبْرٍ للمصيبة، فكان تعلُّق الفاعل بفعله أشدُّ مِن الإشارة إلى المدد، كما في الأنفال.

وعلى الرغم مِن أنَّ آية آل عمران وآية الأنْفال كلاهما في غزوة بدْرٍ إلَّا أنَّنا نلحظ استجابة السِّياق القرآنيِّ لحاجات النَّفس الإنسانيَّة قوةً وضعفًا، وأنَّ هذه الاستجابة

(١) ينظر: التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي: (٧١)، نشر دار عمار، عمان، الطبعة الخامسة، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

تَبِعَها تغيُّرٌ في التَّركيب؛ ليناسب التَّركيب اقتضاء المقام الذي جاء فيه، فاختلفت الغاية التَّثقيفيَّة تَبَعًا لاختلاف المقام والسِّياق والتَّركيب. يقول الإمام عبد القاهر: "واعلم أنَّه ليس عَجَبٌ أعجبَ مِن حالِ مَنْ يرى كلامين، أجزاءُ أحدهما مخالفةٌ معانيها لأجزاء الآخر، ثمَّ يرى أنَّه يَسَعُ في العقل أنْ يكون معنى أحدِ الكلامين مِثْل معنى الآخر سواءً"(١).

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ تمثِّل هذه الجملة مرْتكزًا معنويًّا فقد جاء مقرَّرًا أنَّ النَّصر لا يكون إلَّا مِن عنده، فأشار بالقصْر إلى لزوم إفراده بالتَّوكُّل، يقول ابن جرير: " يعني: وما ظفركم إنْ ظفرتم بعدوِّكم إلَّا بعون الله، لا مِن قِبَل المدَدَ الذي يأتيكم مِن الملائكة. يقول: فعلى الله فتوكَّلوا، وبه فاستعينوا، لا بالجموع وكثرة العَدَد، فإنَّ نصْركم إنْ كان إنَّما يكون بالله وبعونه، ومعكم مِن ملائكته خمسة آلاف، فإنَّه إلى أنْ يكون ذلك بعون الله وبتقويته إيَّاكم على عدوِّكم، وإنْ كان معكم مِن البشر جموعٌ كثيرةٌ أحْرَى فاتقوا الله واصبروا"(٢).

ففي تحرير ابن جرير للمعنى دقَّةٌ بناءً على معاني التَّراكيب؛ لأنَّ القصْر هُنا قصْر قلْبٍ، فأشار إلى دفْع الاعتقاد بالتعلُّق بالأسْباب، وصرْفها للمسبِّب ﷻ، كما أنَّنا نلحظ تضافر أسلوبي القصْر لتقرير هذه الغاية التَّثقيفيَّة، فبيَّنتْ الجُملة الأولى الوظيفة الحقيقيَّة لهذا الإمداد، ثمَّ نَقَلَ القلوب مِن التَّعلُّق بها بعدما وضَّح وظيفتها إلى طَلَبِ النَّصر مِن عند الله ﷻ"، وبمثل هذه التَّوجيهات المكرَّرة في القرآن، المؤكَّدة بشتَّى أساليب التَّوكيد، استقرَّت هذه الحقيقة في أخلاد المسلمين، على نحْوٍ بديعٍ، هادئٍ، عميقٍ، مستنيرٍ "(٣).

واستحضار اسمه الأعظم في هذا السِّياق مناسبٌ لمعنى حصر طلب الظَّفر منه

(١) دلائل الإعجاز: (٤٢٩).

(٢) جامع البيان: (٧/ ١٩٠).

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٤٧٠).

ﷻ، فاسمه دالٌّ على كمال التَّفرُّد والقدرة، كما أن ذكر صفتيه ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ مناسبٌ لما تقدَّم، فصفة العزَّة دالَّةٌ على كمال القدْرة والغَلَبَة، وصفة الحكمة دالَّةٌ على كمال العلْم ووضع الأمور في موضعها.(١) فكان لهاتين الصِّفتين أثرهما النَّفسيُّ، إذْ إنَّ مَن تطلبون منه النَّصر قادرٌ على نصركم، فكمال العزَّة والقدرة مِن صفاته كما أنَّ نصركم وفق مقتضى حكمته فهو المدبِّر الذي لا يخفى عليه شيءٌ.

ونلحظ تشابه هذه الآية مع الآية الأنفال مع اختلاف في ثلاثة مواضع:

١-جاء في آل عمران: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾ وفي الأنفال: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ وجانب التَّثقيف هو مايهمنا في سر تغاير التَّعبير، فسياق آية آل عمران جاء في سياقٍ طويلٍ لأحداث غزوة أحد، وهي أحداثٌ أصابت المسلمين بالكثير من النُّدوب والجراح، وخرج المسلمون منها بالعبر والعظات، فجاءت الآيات لتمسح على تلك القلوب المكلومة، وتواسيها وتعزيها فيما أصابها، فكان ذكر ﴿لَكُمْ﴾ في سورة آل عمران موقعًا أثره التَّثقيفي في المواساة استجابةً لمقصد السياق(٢).

٢-جاء في آل عمران: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ وجاء في الأنفال: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ فقدِّم المتعلِّق في الأنفال لأنَّ نفوس المؤمنين كانت قلقةً من هذا الحدث المفاجئ، وكانت تترقَّب المدد من الله ﷻ، وسباق الآية ولحاقه في ذكر المنن والأفضال وهو محورٌ مِن محاور السّورة، فجاء تقديم المتعلِّق مع إشارة الضمير لهذا المدد لما له مِن أهميَّةٍ في السِّياق. وجاء تقديم القلوب في آل عمران على الأصل؛ لأنَّه سياق تسكينٍ وطمأنةٍ للقلوب(٣).

٣-جاء في آل عمران: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وفي الأنفال

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (٨/ ٢٣٦) والبحر المحيط: (٣/ ٥٢).

(٢) ينظر: التعبير القرآني: (٧١).

(٣) ينظر: الموضع السابق.

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ فأكّد في الأنفال لأنَّه أوّل ذكرٍ له، وما في آل عمران بعده، ثمَّ لأنَّ آية الأنفال تقدّمتها ولحقتها الوعود والمنن من الله فكان تأكيد الآية للدلالة على كمال قدرته على ذلك[1]. علاوةً على أنَّ سورة الأنفال جاءت لتغرس في النُّفوس وجوب تسليم الأمور إلى الله، وتفويض الأمور، وذلك يناسب أساليب التَّأكيد الدَّالة على كمال الاقتدار تلبيةً لحاجات النَّفس، لقطع الشكوك والظُّنون، والوصول إلى اليقين بموعود الله.

وفي سياق البشرى من الله وطمأنة نفوس المؤمنين في غزوة بدر يقول الحقُّ ﷻ: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال:١٢].

وفي الإسناد في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ﴾ إيحاءٌ بالتَّفضُّل والمنِّ والإنعام، وجاء التَّلوين في الخطاب بنقله مِن خطاب الجمع إلى المفرد في ضمير ﴿رَبُّكَ﴾ لأنَّ الأفعال في الآية السَّابقة لا تختصُّ بمنصب الرِّسالة، أمَّا الوحي فهو مناسبٌ لتخصيصه في الخطاب بالرَّسول؛ لأنَّه داخلٌ في جنس التَّكليف مع كون هذه النِّعمة ممَّا لا يَقدر على الاطِّلاع عليه وتذكُّره إلَّا الرَّسول ﷺ بإذنٍ مِن ربِّه، فأفاد بذلك التَّشريف[2]، ثمَّ جاء التَّقرير ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ بطريق الالتفات مِن الاسم الظَّاهر ﴿رَبُّكَ﴾ إلى المتكلِّم ﴿أَنِّي﴾، ولو لَمْ يأتِ الالتفات لكان بناء الجملة على النَّحو التَّالي(إذْ يُوحي ربُّك إلى الملائكةِ أنَّه معكم)، وفي العدول مِن الاسم الظَّاهر إلى المتكلِّم ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ أثره في النَّفس في لفْتِ المخاطَبين إلى معيَّته وحضوره؛ لما يُوحيه التَّكلُّم حين يكون صادرًا مِن الحقِّ ﷻ مِن جلال المقام ومهابة الموقف، فيزيدهم ذلك طمأنةً إلى طمأنينتهم وثباتهم، وجاء العطْف بالفاء ليُرتِّب ما بعدها على ما قبْلها[3] ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ﴾ لتحتشد تحت هذه

---

(١) ملاك التأويل: (١/ ٣١٥).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٤٦٩ و ٤٧٠) وإرشاد العقل السليم: (٤/ ١٠).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: الموضع السابق. والتحرير والتنوير: (٩/ ٢٨١).

الفاء معاني المباغتة والسببيَّة، ثمَّ تفرَّع مِن رَحِمِ جُملة ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ قوله تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ لأنَّها تفسيرٌ لها[١] أو لنوع مِن المعيَّة، ومجيء السين في ﴿سَأُلْقِي﴾ مبالغة في التَّهديد، فدلالة السِّين أقربُ في الزَّمَن مِن دلالة سوف، يقول الرَّضي: "و(سوف) أكثر تنْفيسًا مِن السِّين"[٢]، والسِّياق الذي جاءت فيه سياقٌ يُوحي بالمباشرة والسُّرعة لأنَّه سياق قتال، وجاء الإلْقاء بأَلِف المُضارعة في هذا المَوْضع إشارةً إلى المتكلِّم، وهو الحقُّ ﷻ، وجاء في موضعٍ آخر ﴿سَنُلْقِي﴾[٣] بالنُّون الدَّالة على العَظَمة؛ ذلك أنَّ سياق قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ جاء في سياق الحديث عن المشركين والتَّحذير من اتِّباعهم، وأنَّه قادرٌ على إهلاكهم نصرةً للمؤمنين، وهو سياقٌ يستدعي العَظَمة والقدرة فكان الإتيان بنون العَظَمة أليق بالسِّياق. أمَّا سياق ﴿سَأُلْقِي﴾ فهو سياقٌ في المنِّ على عباد الله المؤمنين الذين يقاتلون في سبيله، وذِكْر معيَّته لهم في القتال، فكان مجيئه على الأصْل أليقَ في سياقه، إضافةً إلى ما ذَكَره العلَّامة ابن عاشور في أنَّ سياق آيات غزوة بدْرٍ جاء ليثبِّت تفرُّده بالنَّصر والظَّفر، وتخليص أسباب النَّصر، وتعليقها بالله وحده دون الملائكة، فربَّما أوهم الإتيان بالنُّون في هذا السِّياق إرادة أن يكون المقصود الله والملائكة[٤].

والمعلم التَّثقيفيُّ الذي تغرسه التَّرهيب والتَّحذير من وعيد الله ﷻ، وأنه وشيكُ الوقوع بهم.

وقدَّم القيد ﴿فِي قُلُوبِ﴾ عنايةً بالمكان الذي توجَّه إليه إلقاء الرُّعب؛ لأنَّه مكان الإحساس بالخوف والفرْق، وجاء التَّعريف بالاسم الموصول ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ليُفيد

(١) ينظر: حاشية الطيبي (٧٣/ ب) والفتوحات الإلهية (٢/ ٢٣٢).

(٢) شرح الرضي على الكافية: (٤/ ٦).

(٣) تتمة الآية ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[آل عمران: ١٥١].

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٢).

استحقاقهم الجزاء، فوضَّحت جملة الصِّلة سببَ إلقاء الرُّعب في قلوبهم بأوجز عبارةٍ، وألطف إشارةٍ، وتفرع مِن جُملة ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ لأنَّه بيانٌ له، وجمعت الجملتان: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ و﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ التَّرهيب المعنويَّ[1] والحسيَّ، فكانت به المبالغة، ونلحظ كيف أنَّ موقع الفاء في هذا البناء جاء ضابطًا لمواقع الخبر والإنشاء مع إيحائه بالمباغتة والسُّرعة، وعليه فتركيب الآية يكون مِن اللفِّ والنَّشر المرتَّب[2]، فاللفُّ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ ورتَّب على ﴿أَنِّى مَعَكُمْ﴾ قوله: ﴿سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾ وعلى ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ قوله ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ ثقةً بأنَّ السَّامع يَرُدُّ كلَّ جملةٍ إلى الأخرى، وكذلك التَّعريف بالموصول في قوله تعالى: ﴿فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ﴾ أفاد في مقابل استحقاق أولئك إلقاء الرُّعب التَّثبيت في مواطن القتال، والآية بُنيت على صوتين: صوت الحقِّ ﷻ مخبرًا عن نفْسه، ثمَّ صوته ﷻ آمرًا ملائكته، وأخذ الصَّوت الأوَّل الأسلوب الخبريَّ المؤكَّد، وأخذ الصَّوت الثَّاني الأسلوب الإنشائيَّ بفعل الأمر.

وذهب ابن عطيَّة إلى أنَّ قوله: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ من الإنشاء الواقع موقع الخبر، أيْ ضاربين فوق الأعناق، وإنَّما عَدَلَ السِّياق إلى ذلك تنبيهًا إليه؛ لأنَّه مِن أخصِّ خصائص القتال، وتصويرًا لحال القتال، يقول ابن عطيَّة: "

(١) عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال (بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب. فبينا أنا نائم أوتيت مفاتيح خزائن الأرض فوضعت في يدي). قال أبو هريرة: وقد ذهب رسول الله ﷺ وأنتم تنتثلونها. صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: قول النبي ﷺ (نصرت بالرعب مسيرة شهر) وقول الله عز وجل: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥١]، حديث رقم: (٢٩٧٧) (٢/ ٣٥٣)، تحقيق: محب الدين الخطيب، وترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

(٢) ينظر: الفتوحات الإلهية: (٢/ ٢٣٢).

قوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ﴾ لفظه لفظ الأمر، ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول إذا وصفت حربًا لَمن تخاطبه: لقينا القوم وهزمناهم فاضرب بسيفك حيثُ شئت واقتل وخذ أسيرك، أيْ هذه كانت صفة الحال"[١]، ونلحظ تكرار الأمر بالضَّرب عنايةً وتشديدًا[٢] واهتمامًا بالطَّريقة التي يحصل بها قطع دابر الكافرين وإفنائهم، إمَّا بموتهم، وإمَّا بتعطيل آلات الانتفاع، وجاء القيد ﴿مِنۡهُمۡ﴾ اعتناءً بأثر الضَّرب والنَّيل أنْ يكون منهم.

وقد يثير ذكر هذين الموضعين (فوق الأعناق، البنان) تحديدًا السُّؤال عن تخصيصه به، ويجيب الرَّازيُّ بقوله: "لأنَّ ما فوق العُنق هو الرَّأس، وهو أشرف الأعضاء، والبنان عبارةٌ عن أضعف الأعضاء، فذَكَرَ الأشرف والأخسَّ تنبيهًا على كلِّ الأعضاء"[٣] لكنَّ البنان هُنا تعبيرٌ عن اليد مجازًا، ومعلومٌ أنَّ اليد أداة البطْش والضَّرب، ولعلَّ الأعلى أنْ تكون على التَّخصيص لما يحصل به الإفناء وهو الضَّرب فوق العنق أو التَّعطيل وهو ضرب الأيدي[٤]، وأشار ابن عطيَّة إلى ذلك بقوله: "وإنْ كان الضَّرب في كلِّ موضعٍ مباحًا فإنَّما قَصَدَ أبلغ المواضع؛ لأنَّ المقاتل إذا قَطَعَ بنانه استأسر، ولم ينتفع بشيءٍ مِن أعضائه في مكافحةٍ وقتالٍ"[٥].

ومِن معالم التَّثقيف أنَّ بناء الآيات جاء ذاكرًا النِّعمة، ثمَّ معلِّلًا لها، وفي ذلك

(١) المحرر الوجيز: (٨/ ٢٧).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ١١).

(٣) مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٤٠).

(٤) ومن التعليلات الإحسانية المشرقة ما نقله صاحب العلوم والحكم معللا قال: " وقد قيل: إنه عين الموضع الذي يكون الضرب فيه أسهل على المقتول وهو فوق العظام دون الدماغ... " (جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم لابن رجب الحنبلي: (١/ ٣٨٢)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٥) المحرر الوجيز: (٨/ ٢٨ و ٢٩).

استيفاءٌ للتَّفضُّل، وأنَّ أمره الذي يقضيه له حِكَمٌ تخفى على الكثير، فينبغي للمسلم أنْ يصدُق في توكُّله على الله، وأنْ يفوِّض الأمور إليه، ففي ذلك الشُّكر له على نعمائه وإحسانه، وذكره لهاتين النِّعمتين فيه طمأنةٌ للجانب النَّفسيِّ، وإعدادهم روحيًّا وجسديًّا للقتال، إذْ صَرَف عنهم وساوس الشَّيطان، فكان الإنعام عليهم بهذه النِّعم مُذهبٌ للوَجَل الذي يدخل عليهم مِن هذا المدخل[1] ففي هذا المطلع تتبدل النفوس التي كان يملأ قلوبها الوجل والخوف إلى أمانٍ واطمئنانٍ، كما أنَّه يُظهر لعباده تلك التَّدابير الغيبيَّة الخفيَّة؛ ليعلمهم أنَّه محيطٌ بما لَمْ يُحيطوا به، وليشكروه على تفضُّله، يقول ابن كثيرٍ: "وقوله ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ وهذه نعمةٌ خفيَّةٌ أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها"[2]، ومجيء الجُمل على نسقٍ واحدٍ مِن تقديم المجرورات مبالغةٌ في العناية بهم يقع مِن نفوسهم موقعًا بليغًا، إذْ تُظهر تراكيب الآيات بالتَّقديم هذه العناية البالغة أن يكون لهم لا لغيرهم، أليس هذا كفيلًا بأنْ ترتفع معنوياتهم للقتال، وأنْ يستبشروا ببزوغ فَلَقِ النَّصر.

ثم يقول تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ وهذا الانتقال مِن حديث النِّعم التي أوجدها الله ﷻ إلى ذكْر معيَّته تفخيمٌ للمعنى إلى أقصاه، فأيُّ ثباتٍ ذلك الذي يتنزَّل على القلوب حين تُذكر معيَّته، وأيُّ شيءٍ يُراد فوق أنْ يقول الله ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ﴾ فسياق الطمأنة يتدرَّج شيئًا فشيئًا حتَّى يصل إلى ذكْر معيَّته فلا ثبات يرجى وراء ذلك، ولا جلال أعظم مِن جلال معيَّته، ولذلك التفت السِّياق في هذا الموضع إلى المتكلِّم ليكون أعمق أثرًا في النُّفوس.

وفي مقابل هذا الاطمئنان يأتي زرع الذُّعر في النُّفوس، وإحداث الاضطراب في القلوب، وبالضَّمير نفسه الذي طمأن فيه نفوس المسلمين زلزل قلوب الكافرين

(١) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٨٥).

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ٣٢)، تحقيق: مصطفى السيد محمد وآخرون، نشر مؤسسة قرطبة، الجيزة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ " وهذا شعورٌ يتملَّك الإنسان ويُضعف قواه العقليَّة فيُفقد توازنه، ويُفلت منه زمام التَّصرُّف الدَّقيق، فيخبط خبط عشواء يبحث عن مخرج مِن هذا الهلع والخوف، فلا يجد إلَّا الهرب والنُّكوص منقذًا له مِن الموت "[1]

وأيَّد الله المؤمنين بالثَّبات والسَّكينة في القلب لتحملهم على الصُّمود، وهذه فضيلةٌ لأولياء الله، يقول الله ﷻ: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾[إبراهيم:٢٧]والثَّبات عاملٌ نفسيٌّ- مهمٌّ إذْ هو الدَّافع على الإقدام والاستبسال، فكان تثبيتهم سرٌّ مِن أسرار النَّصر والظَّفَر.

وهكذا نلحظ تضافر أساليب التأكيد بإنَّ مع التكرار بالضَّرب والالتفات

إلى المتكلم لتغرس في النَّفس إشعار قربه ومعيته لعباده، وذلك يدعو المسلم إلى المبادرة بالطَّاعة والامتثال.

ومن أساليب التأكيد ما جاء في سورة القمر مِن ذكرٍ لغزوة بدرٍ بالإشارة في قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥)﴾ وقوله: ﴿ سَيُهْزَمُ ﴾أفادت السِّين التَّأكيد[2] وقُرْب الوقوع، وفي هذا تهديدٌ للكافرين الذين توعَّدهم الله ﷻ بتأكيد العذاب، وقرب وقوعه؛ ليقرع صَلَفَ تلك النُّفوس العتيَّة. وبُنِيَ الاسم للمفعول، فأفاد معنى العَظَمَة لعدم الحاجة إلى ذكرِ الفاعل؛ لأنَّه معلومٌ، على طريقة كلام القادرين[3]، وقرأ أبو حَيْوَة وزيدٌ عن يعقوب بالنُّون وكسْر الزَّاي (سَنَهْزِمُ)[4] فأفاد العظمة بالنُّون، فهاتان قراءتان أفادتْ كلُّ واحدةٍ معنى التَّعظيم بطريقين مختلفين.

---

(١) الخطاب النفسي في القرآن الكريم: (٢٢٠).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٨/ ١٧٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٧/ ٣٦٦).

(٤) ينظر: النشر في القراءات العشر: (٢/ ٣٨٠).

وفي سياق الطمأنة، والمنَّة على المؤمنين بما دبَّره الله ﷻ في رؤيا نبيه، يؤكِّد السِّياق على تفويض الأمور إلى الحقِّ سبحانه، وأنَّه المدبِّر للأمر، فيقول تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال:٤٣-٤٤] وتبدأ الآية بأداة انتقاء الحَدَث القصصيِّ في السُّورة (إذ)، والفعل مسندٌ إلى اسم الجلالة الأعظم، وفائدة هذا الإسناد الإشارةُ إلى أنَّ الرُّؤيا بمدلولها تكون وحيًا مِن الله ﷻ(١)، ثمَّ عُلِّقت هذه الرؤيا بقوله تعالى: ﴿فِي مَنَامِكَ﴾ تأكيدًا لكونها رؤيا حلميَّة وليست بصريَّة، والتَّعبير بقوله: (قَلِيْلًا) هي الكلمة الأساس في الجملة، وأوِّلت بقلَّة الهيبة والقدْر والحال دفعًا للتَّعارض بين علمه المسبق بالعدد والرؤيا على ما ذهب إليه ابن عطيَّة(٢) وتابعه فيه أبو حيَّان(٣)؛ ولذلك تولَّدت مِن رحم هذه الكلمة قوله: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾، ومِن بديع نظم هذه الآية أنَّ الإسناد في جملة الشَّرط جاء إلى النَّبيِّ ﷺ، وجاء في جملة الجواب مسندًا إلى المخاطبين مِن المؤمنين، لكونه ﷺ معصومًا مِن الفشل والجبن، وأنَّ ما قدْ يحدث مِن ذلك فهو في شأنهم لا في شأنه ﷺ(٤)، ونلحظ تصاعد المعنى ليصل إلى الغاية التَّثقيفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ فجاء التَّعبير بالجملة الاسمية مع اصطفاء (لكنَّ) بتشديد النون تأكيدًا على تفرُّده بالتَّدبير، وتسيير الأمور، إيذانًا بأنَّ كلَّ أحداث الغزوة تسير بما قضاه الله وقدَّره، فليس من شيءٍ إلا هو داخل تحت حكمه، وفي ملكوته، وهذا يبعث الاطمئنان بأنَّ عناية الله ترعاهم، ثمَّ حُذف مفعول الفعل (سَلَّمَ) ومتعلِّقه؛ لتذهب معه النَّفس كلَّ مذهبٍ،

الرسالة

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٢٢).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٧/ ٨٠).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٥٠١).

(٤) ينظر: الموضع السابق وروح المعاني: (٥/ ٢٠٦).

وليُفيد عموم تفضُّله ﷻ، فيشمل كل ما سلَّمهم الله منه في تلك الغزوة مِن الفشل والنُّكوص والاختلاف والهزيمة، ويدخل في ذلك دخولًا أوليًّا ما دلَّ عليه السِّياق مِن الفشل والتَّنازع. واستحضار اسم الجلالة في هذا السِّياق مشعرٌ بتفضُّله وعظيم قدرته.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أُكِّدتْ الجملة بإنَّ لتقرير المعنى في النُّفوس، وتقوية حكمه، والمؤكَّد هو علمه بما تضمره النَّوايا والخفايا، ووجه اتِّصاله بما قبله أنَّ الفشل والنِّزاع مبدأه الأوَّل ما تُكنُّه النُّفوس وما تطويه، فأثبت سبحانه لنفسه العلم بالشَّيء في أصوله وبداية خَطَراته على النَّفس، وفي ذلك تأكيدٌ لإحاطته التَّامة.

ووصفهم بالقلَّة له أثره النَّفسيُّ، فهو تحقيرٌ مِن شأن تلك العصبة الباغية، وكشفٌ لحقيقة أمرهم، فهم وإنْ كانوا في العدد كثرةً إلَّا أنَّهم قلَّةٌ في البأس والقوة"وهذه الحقيقة الواقعة - مِن وراء الظَّاهر الخادع -هي التي أراها الله لرسوله؛ فأدخل بها الطمأنينة على قلوب العصبة المسلمة. والله عليم بسرائرهم، مطَّلعٌ على قلَّة عددهم، وضعف عدَّتهم، وما تحدثه في نفوسهم لو عرفوا كثرة عدوِّهم، مِن ضعفٍ عن المواجهة؛ وتنازعٍ على الالتحام أو الإحجام. وكان هذا تدبيرًا مِن تدبير الله العليم بذات الصُّدور"[(١)]. ثمَّ عطف على ما قبله بطريق التَّلوين بالانتقال مِن خطاب الرَّسول ﷺ إلى خطاب المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾، ومجيء الواو قبل إذ يُفيد التَّمييز النَّوعيَّ بين الرُّؤيتين إضافةً إلى إفادة الرَّبط[(٢)]؛ لأنَّ الآية الأولى سببٌ في معناه، فجُمِعَ معه، واتَّصل به خلاف مواضع إذ المتقدِّمة[(٣)]، وقُيِّدت هذه الرُّؤية بقيدين، قيدٍ زمانيٍّ بوقت اللقاء، وقيدٍ نوعيٍّ وهو قوله تعالى: ﴿فِىٓ أَعْيُنِكُمْ﴾، ويُفيد هذا التَّقييد فائدتين، الأولى: أنَّ

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٢٦ و ١٥٢٧).

(٢) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٤٣٥).

(٣) ينظر: تفسير المنار: (١٠/ ٢٢).

تلك الرؤية كانت رؤية إبصارٍ خلافًا للرُّؤيا التي أراها الله ﷻ نبيه ﷺ والثانية: أن تلك الرُّؤية كانت على غير حقيقة الأمر(١) امتنانًا مِن الله ﷻ؛ ليحصل اللقاء والقتال؛ ولهذا جيء بالقيد مرةً أُخرى في ذكر رؤية الكافرين.

ونلحظ العُدول في التَّعبير عن العدد في الرؤيتين فالرُّؤية التي رآها المسلمون عبَّر فيها بقوله: ﴿قَلِيلًا﴾ بالاسم، بينما عبَّر في الرُّؤية التي رآها المشركون بقوله: ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ﴾، ونكتة هذا التَّعبير الدَّقيق أنَّ الله ﷻ جعل لكلِّ رؤيةٍ أثرها المستقلَّ، يقول الزَّمخشريُّ: "فإنْ قلتَ: الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهرٌ، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم؟ قلتُ: قد قلَّلهم في أعينهم قبل اللقاء، ثمَّ كثَّرهم فيها بعده ليجترؤا عليهم، قلَّة مبالاةٍ بهم، ثمَّ تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا، وتفلَّ شوكتهم حين يرون ما لمْ يكن في حسابهم وتقديرهم، وذلك قوله: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ [آل عمران:١٣] ولئلَّا يستعدُّوا لهم، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البيِّنة مِن قلَّتهم أوَّلًا، وكثرتهم آخرًا"(٢)، والغرض الظَّاهر في تقليل الكفَّار في أعين المؤمنين هو الإقدام على النيل مِن عدوِّهم، واستصغار شأنهم، وما يحقِّقه مِن الطَّمأنينة والاستقرار والثَّبات في القتال. وتعليل الزَّمخشريِّ يدفع ما يُتوهَّم مِن التَّعارض بين الآيتين آية الأنفال وآية آل عمران، فآية الأنفال سابقةٌ في بداية المعركة، وغاية تلك الرُّؤية تحقيق الالتحام والالتقاء، وآية آل عمران لاحقةٌ في المعنى؛ لغرس المهابة مِن جيش المؤمنين، وإلقاء الرُّعب والهلع في قلوبهم بعد أن أمدَّ الله المؤمنين بمددٍ مِن السَّماء.

﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ علَّل ما أنعم به مِن الرُّؤية السَّابقة بإمضاء ماكتبه الله ﷻ، والجملة ليست مِن التِّكرار؛ لأنَّ المعلَّل في الجملتين مختلفٌ، فالمعلَّل في الجملة الأولى هو تقدير ذلك اللقاء في موعدٍ اجتمع فيه جيش الحقِّ وجيش الباطل

(١) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٢٢).

(٢) الكشاف: (٢/ ١٦٨).

تقديرًا منه في المكان والوقت، أمَّا المعلَّل به هُنا فمتعلِّقٌ بالرُّؤية.

﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ واستحضار اسم الجلالة في موضع الإضمار؛ لغرس المهابة، لما في استحضار اسمه مِن الدَّلالة على القدرة والتَّدبير، فيكون لظهوره في السِّياق إشعارٌ بالعَظَمَة تملأ القلب، ويُفيد أسلوب القصْر بتقديم المتعلِّق التَّخصيص، أيْ أنَّ كلَّ ما يعمله المرء في دنياه فهو عائدٌ إلى الله، فيجازيه على إحسانه وإساءته، وكلُّ أمرٍ مرده إلى الله لا غيره مِن المخلوقين، وهو مِن قصْر القلب دفعًا لما قدْ يتوهَّمه المخاطَب مِن حصول التَّدبير والتَّيسير ممَّن ظاهره القوَّة والكثرة.

والآية تكشف عن التَّدبير الإلهيِّ الذي سيَّر المعركة بجوانبها النَّفسيَّة والقتاليَّة لتكون في صالح المؤمنين، وأنَّ الله ﷻ وعدهم النَّصر على قلَّة عددهم وعُدَّتهم، وعلى تخوُّفٍ مِن بعضهم، ولكن لَّما أخلصوا إليه التَّوكُّل، وعلَّقوا أنفسهم بمرضاته، وإحقاق الحقِّ الذي أراده الله، وإبطال الباطل، أيَّدهم بتدبيرٍ ينطلق مِن أعماق النَّفس الإنسانيَّة وخلجاتها كالأمان والاستقرار والثَّبات النَّفسيِّ، فيُريهم الكثير قليلًا، ويزفُّ البشارات إليهم بالنَّصر، وتلك المنن جديرةٌ بأنْ تجعل المسلم مبادِرٌ إلى الامتثال لأمر الله ﷻ، وأن يعلم أنَّه في سبيل إقامة العدْل الإلهيِّ، يجنِّد الله ﷻ أسباب النَّصر النَّفسيَّة والماديَّة والروحيَّة حين تصدق النَّوايا، وتتعلَّق القلوب به.

والتَّعقيب الأخير يضع سرَّ هذا التَّدبير، فإذا كانت الأمور كلُّها بيد الله ﷻ يدبِّرها كيف شاء، فما قيمة العَدد والعُدَّة؟! وما قيمة البأس والشدَّة؟!.



المبْحثُ الخامس: أثر أساليب النَّهي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

من الأساليب الطلبيَّة التي يناط بها التَّثقيف النَّفسي- النَّهي، ويَرِدُ معه التَّحفيز بأساليب مساعدة للتَّرغيب أو التَّرهيب، وقد يجتمعان كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٥-١٦]، فجاء النِّداء بأمِّ أدوات النِّداء (يا) لتطلب مِن الذين آمنوا أنْ يتنبَّهوا لما بعد النِّداء، وأنْ يُقبلوا مباشرة على هذا التَّوجيه، واصطفاء الياء جاء على اعتبار الأصل في أدوات النِّداء[(١)]، والمنادَى (أيْ) وهو اسمٌ مُبْهمٌ، والها للتَّنبيه، ثمَّ تأتي جملة الصِّلة لتوضِّح المبْهم، لينتقل الذِّهن مِن الإبهام إلى التَّحديد والتَّوضيح "وفي هذا التَّدرُّج مِن الإبهام إلى التَّوضيح ضربٌ مِن التَّأكيد والتَّشديد"[(٢)]؛ لأنَّه كذكر الشَّيء مرَّتين تلميحًا وتصريحًا، فأفاد التَّكرير التَّشديد في التَّنبيه والطَّلب.

والاسم الموصول جاء ليربط النِّداء بقضيَّة الإيمان التي أولاها السِّياق عنايته، وأكَّد تقريرها في النُّفوس، فجاء نداء جُملة الصِّلة المتضمِّن الإشارة إلى الإيمان لينبِّه إلى أنَّ المأمور به يستدعي توفُّر الصِّفة المنوَّه بها في النِّداء، وجاء اصطفاء الصِّلة على الوصف بالمؤمنين لما في جملة الصِّلة مِن خصوصيَّة الوصف بالفعل والدلالة على الممارسة، كما أنَّ الفعل " آمن " لمْ يُقيَّد بمتعلِّقٍ؛ ليدلَّ على أنَّ العناية منصبَّةٌ على حقيقة إيمانهم مع شموليَّة هذا الإيمان لكلِّ ما أمر به الله ﷻ ورسوله ﷺ، ومِن هُنا فكلُّ نداءٍ

(١) ذكر ابن إياز في شرح الفصول أن للياء خمسة أوجه من التصرف: النداء للقريب والبعيد، ووقوعها في باب الاستغاثة دون غيرها من أدوات النداء، ووقعها في باب الندبة، ودخولها على أي، وعدم ورود النداء بغيرها في القرآن المجيد (ينظر: الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي: (٢/ ٢٤٨ و٢٤٩)، تحقيق: غازي مختار طليمات، نشر مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، طبعة ١٤٠٧ هـ/ ١٩٨٧م.

(٢) الكشاف: (١/ ٧٦).

وَرَدَ فيه لفظ الإيمان، وتَبِعَه أمرٌ أو نهيٌ كان المأمور به يستدعي ذلك المعنى الإيماني، فهذا النَّمط مِن التَّركيب في النِّداء هو الأسلوب الأكثر ورودًا في النَّظم القرآنيِّ الكريم، يقول الزَّمخشريُّ عن هذا النَّمط مِن النِّداء في القرآن الكريم: "فإنْ قلتَ: لِمَ كثُر في كتاب الله النِّداء على هذه الطريقة ما لَمْ يكثر في غيره؟ قلتُ: لاستقلاله بأوجهٍ مِن التَّأكيد وأسبابٍ مِن المبالغة؛ لأنَّ كلَّ ما نادى الله له عباده مِن أوامره ونواهيه، وعِظاته وزواجره، ووعْده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدَّارجة عليهم، وغير ذلك ممَّا أنْطق به كتابه أمورٌ عظامٌ، وخطوبٌ جسامٌ، ومعانٍ -عليهم أنْ يتيقَّظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون. اقتضت الحال أن ينادوا بالآكد الأبلغ "(١) وكلام الزَّمخشريِّ هُنا ينبِّه إلى أثر الأسلوب البلاغيِّ في النَّفس الإنسانيَّة، وكيف أنَّ النِّداء في هذا النَّمط مِن التَّركيب يؤدي أثره في التَّنبيه والتَّيقُّظ لما يأتي مِن توجيهٍ عظيمٍ.

ونداء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لعباده المؤمنين مباشرةً فيه تفضُّلٌ يتودَّد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى به إلى عباده المؤمنين، فلَمْ يأمر نبيه ﷺ بأنْ يناديهم؛ إيذانًا بأنْ لا قطيعة بين الحقِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وبين عباده المؤمنين، ثمَّ إنَّ في هذا النِّداء بشعار الإيمان تذكيرًا لهم بما يوجبه الإيمان مِن المسارعة بالتَّنفيذ، واتِّباع أمره، واجتناب نهيه.

ثمَّ ضمَّن الجملة الشَّرطيَّة التَّوجيه وهو النَّهي عن الانهزام والفرار مِن أرض المعركة بقوله: ﴿إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾، وأداة الشَّرط التي اصطفيت في السِّياق ﴿إِذَا﴾، ومجيئُها مع الفعل الماضي فيه دلالةٌ على الجزم بالوقوع، وأنَّهم مُعرَّضون لتلك المواقف لامحالة، فاستعمالها يكون في الأحوال الكثيرة الوقوع، ويتلوها الماضي للدَّلالة على الوقوع والحصول قطْعًا(٢)، ثمَّ قال تعالى: ﴿لَقِيتُمُ﴾ ولَمْ

(١) الكشاف: (١/ ٧٦).

(٢) ينظر: أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين للدكتور فتحي حمودة: (٢٢٥)، نشر دار البيان العربي، جدة، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

يَقُلْ ﷻ: (لَقِيَكُمْ) فأسْند فعل اللقاء إلى المؤمنين، وفي ذلك حثٌّ لهم على أنْ يكونوا في مركز القوَّة دائـمًا، وأن يكون المؤمنون على أُهبةٍ واستعدادٍ دائم للقاء، فالغاية التي كلِّفوا بها، وهي إنفاذ أمر الله بإحقاق الحقِّ وإبطال الباطل تجعلهم في أُهبةٍ دائمةٍ لصدِّ الباطل، مادام أنَّ سنَّة هذا الكون بُنيت على الصِّراع بين الحقِّ والباطل، وفي ذلك كشْفٌ لسقوط دعاوى السَّلام الفارغة التي لا يُراد منها إلا استنزاف طاقات المسلمين وتعليق أمانيهم بالسَّراب.

وقُيِّدتْ جملة الشَّرط بالحال ﴿زَحْفًا﴾، ويحتمل أنْ يكون حالًا مِن الفاعل أوالمفعول أو كليهما[1]، والأعلى أنَّه حالٌ للمفعول لأنَّ الفرار إنَّما يتبادر إلى الذِّهن لمن غُزِي، لا أنْ يكون غازيًا وإلَّا فلا معنى لتقييد النَّهي بالزَّحف، وقد بيَّن ذلك أبو السُّعود بقوله: "وأما كونُه حالاً مِن فاعله أو منه ومِن مفعوله معًا كما قيل، فيأباه قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ إذْ لا معنى لتقييد النَّهي عن الإدبار بتوجُّههم السَّابقِ إلى العدوِّ أو بكثرتهم، بل توجُّهُ العدوِّ إليهم وكثرتُهم هو الدَّاعي إلى الإدبار عادةً والُمحوِجُ إلى النَّهي عنه"[2].

ويُفهم مِن تعليق النَّهي بالتَّقييد بالحال في جملة الشَّرط أنَّ النَّهي مقصودٌ في هذه الصُّورة المقيَّدة بالحال، وبما هو دونها مِن باب أولى، فصورة النَّهي هُنا قيدت بالحال باعتبار بلوغ الصُّورة أقصى درجات الكثرة والعِظَمِ، فالدَّاعي إلى الفرار والانهزام أقوى، والدَّاعي لما هو دونه أقلُّ، فكان مشمولًا بالخطاب، يقول ابن عاشور: "وإنْ جُعل حالًا مِن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ كان المعنى إذا لقيتموهم وهم كثيرون فلا تفرّوا، فيفيد النَّهي عن الفرار إذا كان الكفَّار قلَّةً بفحوى الخطاب[3]، ويؤول إلى معنى لا تُولُّوهم

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٥٣).

(٢) إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٢).

(٣) فحوى الخطاب هو الموافقة عند الأصوليين وهو: "ما يكون مدلول اللفظ في محل السكوت موافقا لمدلوله في محل النطق". الإحكام في أصول الأحكام: (٣/ ٨٤).

الأدْبار في كلِّ حالٍ"[1].

ونلحظ علاقة الصِّفة التي نادى الله بها عباده بالمأمور، فالإيمان ضرورةٌ للثَّبات، وثمرةٌ للاعتقاد الجازم، ومِن هُنا كان التَّنبيه إلى الإيمان في النِّداء إشارةً إلى أنَّ تحقيق الإيمان الصَّحيح سببٌ في اجتناب ما نُهي عنه.

وجاء النَّهي هنا عن لازم المعنى وهو تولية الأدْبار، والنَّهي هُنا مقيَّدٌ بقرينةٍ سياقيَّةٍ وهو أنَّ المقصود هو التَّولي بغية الفرار والانهزام، لا أنْ يكون مطلق التَّولي. وجاء التَّعبير فيها بالجمع لتكون المسؤولية مسؤوليةً جماعيَّةً بدايةً، كما أنَّ النَّهي يتضمَّن الأمر بالثَّبات والمصابرة كما جاء صريحًا في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ ﴾ [الأنفال:٤٥]، ونلحظ أنَّ أداة النَّهي هُنا دخلتْ على فعل التَّولي، وليس على فعل الإدبار، فلَمْ يأتِ البيان القرآنيُّ بقوله: (لا تُدْبِرُوا) بل قال تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴾، وتولية الدُّبر هو التَّوجه بالدُّبر إلى الشَّيء، ووليه بوجهه: أقبل عليه بوجهه، ومنه قوله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ ﴾ [البقرة:١٤٤][2]، وفي النَّهي عن التَّولية بدلًا مِن النَّهي عن الفرار أثره التَّثقيفيُّ في المبالغة في النَّهي عن مجرَّد التَّولية ومقابلة الخصم بالدُّبر علاوةً عن الفرار والانهزام، صرفًا للنَّفس عن التَّردُّد في الإقدام، أو إشعار العدوِّ بالانْكسار والفرار. ليغرس في نفس المسلم معلمًا من معالم التَّثقيف وهو تربية الدِّين لأتباعه على الوقوف مع الحقِّ، وعدم خذلانه، تربية لهم على الجسارة والشجاعة والثَّبات في إحقاق الحقِّ.

ثمَّ تعلو نبرة الوعيد والتهديد بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ ﴾، فبعد أنْ وقعت الجملة في جواب الشَّرط بالجمع، جيء بها على الإفراد في جملة الشَّرط؛ ليُؤكِّد النَّهي عنه تارةً بالنَّهي الصَّريح، وتارةً بالوعيد بصيغة الجمع وبالإفراد أخرى؛ ليدلَّ

---

(١) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٧).

(٢) ينظر: السابق: (٩/ ٢٨٩).

على أنَّ الفرْد في الحُكْم كالجماعة[1].

ومجيء الجملة هُنا جاء في سياقٍ تقريريٍّ للنَّهي، أيْ إنَّ الوعيد جاء مقرِّرًا للنَّهي ومرتَّبًا على ذلك الوعيد، وهو في هذا مقارب لمنهاج البناء في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [الأنفال:١٣ - ١٤].

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ جارٍ على عادة كلام العرب في إطلاق ما يغلب العمل فيه؛ لأنَّ الأغلب في القتال أنْ يكون نهارًا "ولو كان المعنى وقع على ظاهر اللَّفظ دونَ المستعمل في الكلامِ مِن عادات النَّاس، كان مَن فرَّ مِن الزَّحفِ ليلاً لم يلزمْه وَعيدٌ، وإنَّما وقع الكلامُ على ما عليه الأغلبُ مِن ساعاتِ أعمال النَّاس، وذلك هو النّهارُ دون اللّيل"[2] والتَّنوين للعوض عن المحذوف، وهو يوم اللقاء دون تخصيصه -على الصَّحيح مِن الأقوال -بيوم بدْرٍ[3].

ووقع الاستثناء في حيِّز الجُملة الشَّرطيَّة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾، واستثنى مِن ذلك مَن استطرد لقتال العدوِّ، فيُوهم بالفرار ليكشف عوْرة العدوِّ، أو أنْ يرجع إلى فئةٍ مِن المؤمنين ليرجع إلى عدوِّه لمقاتلتهم[4]

---

(١) ينظر: تفسير المنار: (٩/ ٦١٧).

(٢) الحيوان: (٣/ ٤١٢).

(٣) وتقدير المحذوف هنا هو مناط مسألة التخصيص من عدمه في الوعيد وحكم الفرار. ينظر تفصيل المسألة في: أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي: (٢/ ٣٨٦)، راجع أصوله وأحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، لبنان - بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م. والجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي القرآن لأبي عبد الله القرطبي: (٩/ ٤٧٢ ومابعدها)، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي وشاركه في هذا الجزء آخرون، نشر مؤسسة الرسالة، لبنان - بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

(٤) ينظر: جامع البيان: (١٣/ ٤٣٥).

واللام في ﴿لِّقِتَالٍ﴾ لإيضاح العلَّة والسَّبب، وفي جعل الاستثناء في حيِّز الشَّرط دلالةٌ على الاهتمام بخروج هذين المقصدين عن النَّهي، لانتفاء العلَّة المانعة، وهو أنْ يكون الفرار للانهزام.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الفاء لربط جملة الشَّرط بالجواب، ونلحظ تقييد الغضب أو الصِّفة المحذوفة منه بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، وفي اصطفاء اسم الجلالة (الله)، وإثبات القيد، تعظيمٌ لهذا الغضب؛ لأنّه غَضَبٌ مِن الخالق الذي يُذعن كلُّ ما في الكون لألوهيَّته، وجاء التَّناسب جليًّا بين ﴿بَآءَ﴾ و﴿يُوَلِّهِمْ﴾ لأنّهما يحملان معنى العودة والبْحث عن النَّجاة، فكان الجزاء والوعيد مِن جنْس الفعل، يقول أبو حيَّان: "وناَسَبَ قوله ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ﴾ ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ﴾ كأنَّ المعنى فقد ولّى مصحوبًا بغضب الله "[1] وإنْ كان أبو حيَّان نظر إلى هذا المستوى مِن التَّناسب، فإنَّ أبا السُّعود كان أوسع نظرًا حين رَبَطَ بين معنى التَّولية والبوء والمأوى والمصير فكل هذه الأوصاف تدور في دائرة البحْث عن النَّجاة مِن الموقف، وحين يكون المفرُّ هو جهنَّم، فالمعنى يحمل في طياته التَّهكُّم مع الوعيد، وقد أشار أبو السُّعود إلى البلاغة في ذلك وإنْ لمْ يحدِّده، يقول: "في إيقاع البَوْءِ في موقع جوابِ الشَّرطِ الذي هو التوليةُ مقرونًا بذكر المأوى والمصير مِن الجزالة ما لا مزيدَ عليه"[2] كما أنَّ في مجيء أسلوب الذَّمِّ في الفاصلة لهذه الآية مناسبةٌ لما قبلها لتضمُّنها معنى التَّنفير لما فيها مِن المخاطر على الأمَّة[3]، وفي الصُّورة ذاتها تتجلَّى معاني الغضب الإلهيَّة، فيخفق القلب عند قوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وترتعد عندها الفرائص؛ خشية أن يصيبها الله

(١) البحر المحيط: (٤/ ٤٧٤).

(٢) إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٣).

(٣) ينظر: تشابه الأطراف في القرآن الكريم: " سورة الأنفال نموذجا " لثناء عياش: (١١٤)، بحث محكم في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، نشر المجلس العلمي بجامعة الكويت، العدد (٩١) السنة (٢٣) صيف ٢٠٠٥م.

بشيء مِن غضبه. وينمو المعنى القرآنيُّ تصاعدًا في الوعيد، وينمو معها الوقع النَّفسيُّ، فمِن صورة التَّولي المنفِّرة إلى صورة الغضب الإلهيِّ المُفزِع، إلى صورة المآل والنِّهاية، والخاتمة البائسة، وكأنَّها رحلةٌ قصيرةٌ مِن التَّولي إلى الغضب، ثمَّ الاستقرار في جهنَّم وبئس المقرُّ والمآل، كلُّ تلك الصُّور المفزعة لها وقعها التَّثقيفيُّ في النَّفس الإنسانيَّة.

وبهذا فإن التَّوجيه القرآنيَّ جمع بين الخطاب التَّأليفيِّ التَّرغيبيِّ، وبين الخطاب التَّنفيريِّ التَّرهيبيِّ؛ ليحقِّق التَّوازن في إيقاع التَّوجيه الموقع الحَسَن مِن النُّفوس.

وفي سياق الإشارة إلى الأسباب الحقيقيَّة التي ألحقت بالمشركين الخسائر لينهى المؤمنين عن التَّمثل بهذه الصِّفات يقول تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [الأنفال:٤٧]. عطف النَّهي على الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱثْبُتُوا۟﴾ ويجوز أن يكون من عطف النَّهي على النَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟﴾، والنَّهي في هذا السِّياق عن الطُّغيان والرِّياء والصَّدِّ عن سبيل الله ﷻ. وجاء أسلوب النَّهي في سياق التَّشبيه بالكاف، وأفاد النَّهي عن المماثلة في الجنْس المرتكزة على تحقِّق الصِّفة، فكأنَّ تحقُّق صفة البَطَر والرِّيَاء والصَّدِّ قد أحالت النَّاس إلى فريقين: مؤمنٍ، وكافرٍ تصدق فيه هذه الأوصاف، فوقع النَّهي عن مماثلة هذا الجنس مِن النَّاس وصيرورة الطَّرفين جنْسًا واحدًا في الكفر[1]. وأفاد التَّعريف بالصِّلة بيان البغْي والتَّعدِّي، والتَّقييد في قوله تعالى: ﴿مِن دِيَـٰرِهِم﴾ فيه إشارةٌ إلى تكبُّدهم المشاق، لأنَّ مِن تُفيد ابتداء الغاية، كما أنَّ في جمع الدِّيار دليلًا على تجمُّعهم بعد تفرُّق، وأنَّ توحُّدهم كان لأجل الباطل، ثمَّ قيَّد الخروج بالحال: ﴿بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فيكون النَّهي هُنا منصبًّا على القيْد؛ لأنَّ النَّهي عن المشابهة في الفعل وحده وهو الخروج أو الفاعلين الخارجين مِن غير تقييد بهيئة معيَّنةٍ ليس مفهومًا مِن الآية، فالنَّهي عن البَطَر والرِّياء والصَّدِّ عن سبيل الله هو مناط النَّهي في

(١) ينظر: أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم للدكتور محمود موسى حمدان: (١٣٧ إلى ١٣٩)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧ م.

الآية، ولهذا قال البيْضاويُّ: "وأمَرَهم بأنْ يكونوا أهل تقوى وإخلاصٍ مِن حيثُ إنَّ النَّهي عن الشيء أمرٌ بضدِّه"[1] دلالةً على أنَّ مناط النَّهي هو القيْد لا الفعل.

وحذف مفعول (يَصُدُّونَ) لدلالة السِّياق عليه، وتقييده بالمجرور للدَّلالة على تعظيم ما اقْترفوه، ويصحُّ أنْ تكون جُملة (ويَصُدُّونَ) معطوفةً على قوله تعالى: ﴿خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم﴾[2] فيكون المعنى النَّهي عن الخروج بهيئة البَطَرِ والرِّيَاء والنَّهي عن الصَّدِّ عن سبيل الله، والذي صحَّح العطْف بين الماضي والمضارع كون المضارع بدلالته على الاستمرار والتَّجدُّد له ثلاثة أزمنة: الماضي، والحال، والاستقبال، فيكون الماضي جزءًا مِن الدَّلالة، هذا مِن حيثُ الصِّحة، أمَّا نكتة العدول؛ فلأنَّ صدَّهم عن سبيل الله كان متجدِّدًا مستمرًّا، ولا تنقطع مناوءتهم لدين الله، فكان التَّعبير بالمضارع أدلَّ على ذلك، كما أنَّ فيه دلالة الارْتباط بين الفعلين، وأنَّ الثَّاني مرتبطٌ بالأوَّل، ووجه ارتباطه كونهما مِن مقوِّمات الكُفْر[3]، كما أنَّ مِن علاقات الارْتباط أنَّ العطْف مِن قَبيل عطف الغاية على الوسيلة، فالخروج كان للصدِّ عن سبيل الله.

ثمَّ خُتمت الآية بما يُفهم منه الوعيد بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾ ونلحظ إظهار اسم الجلالة في موضع الإضمار لتربية المهابة باستحضار اسم الجلالة الأعظم، وقدَّم الجار والمجرور للاهتمام والعناية؛ إشارةً إلى عظم الأمر المشار إليه، وأنَّه داخلٌ في علم الله وإحاطته، فيلفت السِّياق إلى المشار إليه أولًا للاهتمام به ليقع في القلب موقعه، ثمَّ يُتبعه بالحكْم، وعبارة البقاعيِّ تُوحي بأنَّ التَّقديم هُنا للتَّخصيص حيثُ علَّل التَّقديم بقوله"لشدَّة إحاطته بأعمالهم كأنَّه لا نَظَرَ له إلى غيرها فلا شاغل له

(١) أنوار التنزيل: (٣/ ٦٢).

(٢) ينظر: غرائب القرآن: (٣/ ٤٠٥).

(٣) ينظر: دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل للدكتور ظافر بن غرمان العمري: (٢٢٥)، نشر- مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

عنها"[1] فيكون مِن القصْر المجازيِّ، وفي إطلاق ذلك على إخبار الله عن نفسه نظرٌ؛ لأنَّه يدفعه آخر الآية، فإحاطة الله ﷻ إحاطة عامَّةٌ، فلا يصرفه الاهتمام بأحدٍ مِن خلقه الانشغال عن غيره مع ما في التَّعبير بـ (شاغل) عن الله ﷻ مِن عدم التَّوفيق في العبارة.

ووقوعه في الفاصلة له أثره التَّثقيفي في ترهيب أعداء الله، لأنَّ إحاطة الله بما يعملونه تقتضي المجازاة والمحاسبة، فهي تهديدٌ لهم، كما أنَّ الإنسان ربَّما أظهر أنَّ الحامل للفعل مرضاة الله ﷻ رياءً وادِّعاءً، فأثبت لنفسه الإحاطة بكلِّ ما يعملون بها في دواخل القلوب[2]، كما أنَّ فيه الحثَّ بمفهوم المخالفة على إخلاص العمل لله ﷻ.

وسياق الآية داخلٌ في التَّوجيه المصدَّر بالنِّداء في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال:٤٥]، يقول البقاعيُّ في مناسبة هذه الآية لما قبلها: "ولما ذكرهم سبحانه ما أوجب نصرهم آمرًا لهم بالثَّبات عليه، ذكر لهم حال أعدائهم الذي أوجب قهرهم ناهيًا عنه تعريضًا بحال المنازعة في الأنفال، وأنها حال مَن يُريد الدُّنيا، ويوشك -إنْ تمادت -أنْ تجرَّ إلى مثل حال هؤلاء الذي محطُّ نظرهم الدُّنيا... "[3] فنلحظ في كلام البقاعيِّ الوصل البديع بين النَّهي، وبين موضوع السُّورة الكريمة، وأنَّ جهة هذه الدَّلالة سياقيَّةٌ، ومستواها تعريضيٌّ، كما أنَّ فيه إشارةً إلى المعلم التَّثقيفيِّ في التَّنفير مِن المماثلة؛ لئلَّا يقع عليهم ما وقع على غيرهم ليرشدهم إلى اجتناب أسباب الخسارة والخذلان.

(١) نظم الدرر: (٣/ ٢٢٦).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب. : (١٥/ ١٧٩).

(٣) نظم الدرر: (٣/ ٢٢٥).

المبْحثُ السّادس: أثر أساليب الذكر والحذف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

مِن أساليب البيان التي يناط بها التَّثقيف الحذف، وهو من أدقِّ أبواب البيان مسلكًا، إذ تتعلَّق البلاغة بالمسكوت عنه، وتناط الفصاحة بما لم يُذكر، وهو كما يقول عبد القاهر: " ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن"(١)، وكما أنَّ حذفها بلاغة فذكرها في الموقع الذي يمكن فيه الاستغناء عنه قد يترتَّب عليه معلمٌ من معالم التَّثقيف، ومن بديع باب الذِّكر والحذف الاحتباك(٢) إذ تبنى فيه الجملة بناء محكمًا يدلُّ كلُّ طرفٍ فيه على الآخر، ففي قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٥-٦٦]، النِّداء للتَّنبيه إلى أهميَّة المُنادَى له في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾، والفعل حرَّض يُقصد به الإلهاب والتَّحضيض والحثُّ على المواجهة، والفعل بتشديد عينه، وتكرار الرَّاء فيه ممثِّلٌ للمعنى، وللمبالغة فيه،

(١) دلائل الإعجاز: (١٤٦).

(٢) الاحتباك: "هو أنْ يجْتمعَ مُتقابلانِ، ويُحذَفَ من كُلِّ واحدٍ منهمَا مقابلُهُ لدلالةِ الآخرِ عليهِ". التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني: (١٠)، تحقيق: غوسطافوس فلوجل، نشر مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٥م. وينظر: الاحتباك في القرآن الكريم "دراسة بلاغية" للباحث عدنان عبدالسلام أسعد: (٨-١٤) [رسالة علمية بجامعة الموصل بالعراق لنيل درجة الماجستير سنة ١٤٢٥هـ بإشراف الأستاذ الدكتور: أحمد فتحي رمضان]. وفاعليَّةُ هذا الأسلوبِ في إيجازِ العبارةِ وتلوينِ البيانِ ليدلَّ المذكورُ على المحذوفِ فتتنوع الدَّلالةُ في التركيبِ بين الخفاءِ والجلاءِ، مع الإشارة إلى قوة التلازم بين المعاني لصحة قيام أحد المعنيين دليلا على وجود الآخر.

وذكْر المؤمنين بهذا العنوان داع إلى الامتثال، والاستجابة للنِّداء الربَّانيِّ لمقتضى الإيمان. ويأتي النِّداء بالتَّحريض بعد أنْ تكفَّل الله ﷻ بالكفاية، فيكون إعقابه الأمر بعد النِّداء لتحقيق مفهوم التَّوكُّل على الله ﷻ مِن الأخذ بالأسباب، والتَّحريض مِن أهمِّ أسباب النصر، ودعائم الظَّفَر، ولذلك اعتنى الرَّسول ﷺ بإعداد الجيش إعدادًا نفسيًّا، والقصص في ذلك مشهورةٌ[1]. يأتي الأمر بالتَّحريض بعد أنْ سكَّن الله النُّفوس وطمأنها بالحماية، فاستعدَّت الأنْفس، واشتدَّت العُروق، وانْسكب في القلوب اليقين والثِّقة بالنَّصر[2]، وهكذا نجد السِّياق القرآنيَّ يعتني بالتَّحفيز النَّفسيِّ للمعركة حتَّى بعد طمأنة النُّفوس، فهو يحقِّق الثَّبات مِن جهةٍ والتَّهييج مِن جهةٍ أُخرى؛ ليجتمع في صفات الجيل القادر على تحقيق النَّصر الثَّبات والإقدام.

ثم يقول تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجه اتصالها بما قبلها أنَّها جاءت كالمفصَّلة لما أُجمل، فالفصْل هنا للاستئناف البيانيِّ، كأنَّ في السِّياق سؤالًا مقدَّرًا ما عاقبتهم إذا امتثلوا وبادروا إلى هذا النِّداء، فجاء الجواب[3]، وقدَّر ابن عاشور السُّؤال "عمّا يعمل إذا كان عدد العدوِّ كثيرًا"[4]، ومزيَّة الفصْل هُنا أنَّ المعنى فيه يتكشَّف شيئًا فشيئًا، وهو أدعى لتشوُّق النَّفس إليه، كما أنَّ فيه سوقًا للبشرى بمضمون الجملة المستأنفة بعده. وحُملت الآية على معنى الإخبار للبشارة[5]، ولكنَّ قرائن السِّياق تدلُّ على أنَّ الآية وإنْ كانت خبرًا فمعناها الإنشاء، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ ﴾ [الأنفال:٦٦]

(١) ينظر قصة عمير بن الحمام الأنصاري مثلا: صحيح مسلم: كتاب الإمارة: ثبوت الجنة للشهيد، حديث رقم: (١٩٠١) (٣/ ١٥٠٩ – ١٥١١).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٤٩).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٣٩).

(٤) التحرير والتنوير: (١٠/ ٦٦).

(٥) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧٥).

فالتَّخفيف يكون بعد التَّشديد والوجوب، ومزيَّة التَّعبير بالشَّرط في معنى الأمْر الإشعار بكمال السَّببيَّة بين الصَّبر والمغالبة[1]، كما أنَّ في التَّعبير بالمضارع في حيّز الشَّرط مزيَّةً أخرى، وهو استمرار حكْم ثبات الواحد للعشرة في حال المصابرة، والتَّقييد بقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ فيه دلالةٌ على كمال العناية بهم، والتفت فيه مِن الغيبة إلى الخطاب لما في الخطاب مِن لذةٍ تثير الهمم، وتُذكي العزائم[2] في مثل هذا السِّياق، كيف والمخاطِب هو الله ﷻ، ثمَّ قال ﷻ: ﴿عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ﴾ وأوَّل ما يلفتنا هو العدول عن لفظ العشرة إلى العشرين؛ لأنَّ المقصود هو مقابلة الواحد للعشرة، فلماذا عَدَلَ السِّياق إلى مقابلة العشرين بالمائتين؟.

يقول ابن عاشور: "أمّا اختيار لفظ العشرين للتَّعبير عن مرتبة العشرات دون لفظ العشرة: فلعلَّ وجهه أنَّ لفظ العشرين أسعد بتقابل السَّكنات في أواخر الكلم؛ لأنّ للفظة مائتين مِن المناسبة بسكنات كلمات الفواصل مِن السُّورة"[3]

وكلام ابن عاشور لا يكشف عن معنى، بلْ يكشف عن الجرْس والتَّناغم الصوتيِّ، والأليق بالبلاغة القرآنيَّة أنْ يكون مقتضى العدول معنويًّا لا لفظيًّا مجرَّدًا، ويُستأنس بهذه اللفتة بصحبة المعنى؛ والأليق أن يُعلم مِن انتفاء التَّرتيب انتفاء مقصديَّة بلوغ العدد العقد[4]. وفي العدول عن لفظ الواحد، وفي اصطفاء العشرين استحباب أنْ تكون الجماعة سرايا متفرِّقةً؛ لأن ذلك أنكى للعدوِّ[5].

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ جاء التَّنويع بين العددين رغم أنَّ القصد فيهما واحدٌ، وهو تحقُّق مقابلة الواحد للعشرة لتأكيد

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ١٢٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٣٩).

(٣) التحرير والتنوير: (١٠/ ٦٧).

(٤) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٤٣).

(٥) ينظر: تأملات في سورة الأنفال للدكتور حسن باجودة: (١٧٤)، نشر مكتبة مصر.

المقصد مِن جهةٍ، وليدلَّ على استواء الأمر عند تحقُّق الصَّبر في السَّرايا الصَّغيرة، وفي المعارك والغزوات، فرُوعي فيه القلَّة والكثرة لدفع توهُّم التَّفاوت بين مقاومة العشرين للمائتين، والمائة للألف، وكذلك مقاومة المائة للمائتين والألف للألفين[(١)]، والتَّعبير بالاسم الموصول للإشعار بسبب تحقُّق النَّصر والظَّفر للمسلمين، وانهزام الكافرين، وهو كفرهم بالله ﷻ.

ومِن بديع ما في الآية الاحتباك، فحذف مِن كلِّ جملةٍ ما دلَّ عليها في الجملة الأخرى، فذكر القيْد في الجملة الأولى بقوله: ﴿صَٰبِرُونَ﴾ مع العشرين، وحذفه مِن الجملة الثَّانية مع المائة، وقُيِّد في الجملة الثَّانية بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مع الألْف، وحُذف مِن الجملة الأولى مع مائتين[(٢)]، وحين يأتي بناء الجُملة على الاحتباك فهو يدلُّ على قوة التصاق المعاني، وشدَّة الآصرة بين أجزاء الجُملة، ودليل ذلك أن الحذْف فيه سائغٌ لدلالة المذكور فيه على المحذوف، وفي طريقة النَّظم مزيَّةٌ وهو أنَّ الصَّبر سببٌ في انتصار القلَّة، كما أنَّ الكُفر سببٌ في انهزام الكثْرة، فذكر الصَّبر تنويهًا بمقامه، خصوصًا مع قلَّة العدد، والتَّقييد بالاسم لدلالته على الثَّبات والديمومة، وأنَّ صفة الصَّبر صارت مِن مركوز الطِّباع، كما أنَّه عماد أسباب النَّصر والظَّفر، وفيه إيماءً إلى ضرورة توخِّي انتقاء الجيش[(٣)]. ، كما أنَّ الكفر سببٌ في الخذلان حتَّى وإنْ كانوا مِن حيثُ العدد والعُدَّة كثرةً، فأشار بذكره إلى هذا المعنى، وتلك مزيَّةٌ مِن مزايا النَّسج البيانيِّ.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ الباء للسببيَّة، وأكَّد المعنى بأنَّ لتقرير المعنى في النُّفوس، وتنكير قوم للتَّحقير، و(لا) للنَّفي، وجاء التَّعبير بالمضارع ﴿يَفْقَهُونَ﴾ دلالةً على أنَّ عدم الفقه حادثٌ منهم، يتكرَّر بتكرُّر أجيالهم الحاملة

---

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧٥).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٥١٦).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٦٧).

لعقيدة الكفْر؛ لأنَّ (لا) إذا دَخَلَتْ على الفعل المضارع "فلا تقيِّده بزمنٍ على الأرجح، وإنْ كان النُّحاة يرون أنَّها تخلِّصه للاستقبال"(١)، فتضافر في معنى النَّفي دلالة الأداة، ودلالة الفعل المنفيِّ. وجملة النَّفي هُنا واقعةٌ في محلِّ الصِّفة لقوم؛ ليكون نفي الفقاهة صفةً لازمةً لهم، ولو كان خبرًا كأنْ نقول ذلك بأنَّهم لايفقهون لتوهَّم أنَّ نفي الفقاهة مخصوصٌ بهذا الشأن(٢). والتَّعليل يشير إلى أنَّ نفي الفقه عن العدوِّ لفقدان المبدأ الصحيح للدِّفاع، ولذلك جاء السِّياق القرآنيُّ بالتَّعقيب على الأحداث بالتَّذكير بقضيَّة التَّوكُّل، وغرس المبدأ أولًا قبل التَّحريض، ثمَّ إنَّ عدم فقههم يعود كذلك إلى جهلهم بأُسس الحرب كعدم الاستهانة بالعدوِّ مهما قلَّ عتاده وعُدَّته. وذمُّ الكفَّار على هذا النَّحو يتضمَّن تحذير المؤمنين أنْ يكونوا مثلهم "لئلا يظنُّوا أَنَّ الإيمان وحْدهُ يقْتَضي النَّصر والغلب، وإِنْ لَمْ يَقْترنْ بِصفاتِهِ اللازمة لكمالِهِ، ومِنْ أعظمها الصَّبْرُ والْعلْمُ بِحَقائقِ الأُمورِ وسننِ الله تَعالى في الخلْقِ المعبَّر عنهُ هنَا بِالفقه"(٣)

وفي قوله تعالى: ﴿ ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٦٦]قيِّد الفعل بقوله: ﴿عَنكُمۡ﴾ ليُفيد الاهتمام بتلك الفئة المؤمنة، وأنَّه يشملهم برحمته ورأفته، وأكَّد إثبات ضعفهم لتقرير المعنى، والتَّعبير بالجملة الاسمية آكد مِن التَّعبير بالمصْدر في هذه الجملة، ولذلك لمْ يقل: وعَلِمَ ضعْفكم، إنَّما قال: وعَلِمَ أنَّ فيكم ضعفًا؛ لأنَّه قدَّم المتعلِّق فأفاد تقوي الحُكم، والتَّعبير بحرف الجر (في) أفاد أنَّ الضَّعف متمكنٌ في نفوسهم، مقيمٌ فيهم(٤)، وتنكير ﴿ضَعۡفٗا﴾يدلُّ على التَّكثير والعِظَم؛ ولذلك ترتَّب على الضَّعف نزول النِّسبة مِن الواحد مقابل العشرة إلى الواحد

(١) معاني النحو: (٤/ ٥٨١).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٦٨).

(٣) تفسير المنار: (١٠/ ٩٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٧٠).

مقابل الاثنين، وذلك بعد أنْ دَخَلَ في الإسلام نفرٌ كثيرٌ، وروى البخاريُّ بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه: " لمَّا نزلت ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين حين فُرِضَ عليهم أن لا يَفِرَّ واحدٌ مِن عشرةٍ، فجاء التَّخفيف فقال: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ﴾ قال فلمَّا خَفَّف الله عنهم مِن العِدَّة نَقَص مِن الصَّبر بقدْر ما خُفِّف عنهم"[1] وبقرينة التَّخفيف استدلَّ الطَّبريُّ[2] على أنَّ قوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ﴾ مخرجها مخرج الخبر، ومعناها الأمر، وعليه فآية التَّخفيف ناسخةٌ لما قبلها.

والمعنى التَّثقيفيُّ الذي يغرسه في النُّفوس التَّلطُّف الكبير، والرَّحمة التي يرغِّبهم بها فلمَّا رأى ضعفهم وهو الأعلم بحالهم باركت رحمته عباده، فأنزل فيض إحسانه عليهم، وغمرهم بهذه المنن تدعوهم إلى الامتثال لأمره والمباشرة والمسارعة إلى التَّنفيذ حين يأمرهم الله ورسوله وعلى رأس ذلك قضيَّة الأنفال.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ قيَّد المائة في هذه الآية بالصَّبر دون ما قبلها"لأنَّ الصَّبرَ شرطٌ لا بدَّ منهُ في كلِّ حال وكلِّ عددٍ معَ عدمِ وصْفِ المائةِ في الأُولى لئلا يتوهَّمَ أنَّهُ شرطٌ في العددِ القليلِ كالعشرينِ دونَ الكثيرِ كالمائةِ والألفِ، ولمْ يذْكرهُ في الألفِ اسْتِغْناءً بما قبلهُ وبما بعْدهُ... "[3] وهو ربطٌ لطيفٌ يشدُّ معنى الآي بعضه إلى بعضٍ، فلا يقتصر إحكام المعنى في نطاق الآية نفسها، بلْ يمتدُّ إحكام بنائها حتَّى مع استئناف المعنى الجديد.

وفي الآية احتباكٌ حيثُ أثبت الصَّبر قيدًا للمائة، وحُذِفَ مِن الألْف، ثمَّ أُثبت

---

(١) صحيح البخاري: كتاب التفسير: باب: قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: حديث رقم: (٤٦٥٣) (٣/ ٢٣٣ و٢٣٤).

(٢) ينظر جامع البيان: (١٤/ ٥٦ و٥٧).

(٣) تفسير المنار: (١٠/ ٩٤ و٩٥).

إذن الله ﷻ في الألفين، وحُذِفَ ما يُناظرها في مائتين[1]، ونلحظ العدول عن العدد في الآية المنسوخة مِن العشرين إلى المائة، ومن المائة إلى الألف، وفي هذا إشارةٌ تحمل البشارة بكثرة عدد المسلمين[2]، وفي إبقاء عدد المشركين في التَّخفيف وفي الآية السَّابقة كما هو إشارةٌ إلى أن التَّخفيف كان لأجل كثرة المسلمين، لا قلَّة المشركين[3]، وفيه معنى آخر وهو أنَّ عناية الله ﷻ موجَّهةٌ إلى حال المؤمنين مع أعدائهم قلَّةً وكثرةً، وأنَّ الإعراض عن حال جيش الكُفر ناسب الإعراض عن عددهم قلَّةً وكثرةً، فالعدد في جانب الكفر ليس له قيمةٌ كَثُرَ أو قلَّ، إنَّما الشأن كلُّ الشَّأن في قدرة المؤمنين عددًا على المواجهة وحذف التَّقييد في النَّاسخة بالكفر لدلالة السِّباق عليه، وقال البقاعيُّ: "ليشمل كلَّ ما استحق القتال مِن البغاة وغيرهم"[4] غير أن التَّعميم هُنا، والتَّخصيص هناك لا دليل عليه.

والاحتباك في الآية الأخرى بتقييده بالصَّبر أولًا لأنَّ المقام مقام تأكيدٍ على أهميَّة الصّبر، فقيَّده ثانيًا؛ ليتحقَّق بذكره التَّأكيد أولًا على هذه القيمة، ثمَّ ليكون أول قيدٍ يوقعه في النَّفس، ولو أُخِّر في القيْد الثَّاني لمْ تكن له تلك الأهميَّة، أمَّا التَّقييد بإذن الله، فذكره في الجملة الثانية أليق بالمقام؛ لأنَّه مع ذكر الألف مِن المؤمنين قدْ يُتوهَّم أنَّ تلك الكثرة هي السَّبب في الانتصار مع وضوح قدرته في مقابلة العدد القليل للكثير[5]، فكان التَّقييد به يلفت النَّفس إلى أنَّ الله ﷻ الذي نصركم مع قلَّة العدد مِن جانب المؤمنين هو الذي نصركم وأنتم كثرةٌ، فعليكم أنْ تتوكَّلوا عليه، وتفوِّضوا أموركم إليه؛ لأنَّ كلَّ شيءٍ كائنٌ بإذنه.

---

(١) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٤٢) وعناية القاضي: (٤/ ٥٠٢).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٧١).

(٣) ينظر: الموضع السابق.

(٤) نظم الدرر: (٣/ ٢٤٢).

(٥) ينظر: السابق (١٠/ ٧٢).

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ جاء إظهار الاسم الجليل في مقام الإضمار، وكان مِن الممكن أنْ يكون (وهُو مع الصَّابِرين)، وحينئذٍ يفقد المعنى أَلَقَه، ووَهَجَه، ويفقد فخامته التي تملأ النَّفس ارتياحًا لإثبات معيَّته باستحضار اسمه في النَّفس، وإثبات معيَّته للصَّابرين يشير إلى تأييد المؤمنين وأنَّهم منصورون[١]؛ لأنَّهم هم المأمورون بالصَّبر في الآية، ومَن كان الله معه فلا يُغلب، وهذا التّأييد الذي يدلُّ عليه سياق الآيات يجعل ما ذكره الألوسيُّ مِن أنَّ إثبات معيَّة الله للصَّابرين يُفيد التَّحريض على الصَّبر "بالإشارة إلى أنَّ أعداءهم إنْ صبروا كان الله تعالى معهم فأمدَّهم ونصرهم"[٢] بعيدٌ؛ لأنَّ السِّياق يجافيه، ولا يدلُّ عليه، والمعلم التَّثقيفيُّ الذي يُهيمن على السِّياق هو التَّلطُّف والتَّفضُّل، وليس العتاب. والجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لمضمون المعنى السابق[٣]، أعيد ليكون آخر ما يقع في ذهن المتلقِّي وسمعه. كما أنَّ التَّعبير بالمعيَّة مشعرٌ بأصالة الصَّبر فيهم؛ لأنهم هم المباشرون له[٤]، والتَّعبير بالجمع (الصَّابرين) يدلُّ على أفضلية القتال مع الجماعة، كما يدلُّ على أنَّ الصَّبر مع الجماعة أقوى مِن الصَّبر الفرديِّ[٥].

ذِكْرُ معيَّته للصَّابرين فيه تحفيزٌ للنُّفوس أنْ تظفر بهذه المعيَّة العظيمة، وأن يُبارك الله صبرها بتأييده ونصره، وأنْ تدخل في جملة الصَّابرين الذين أثبت الله لنفسه معيَّته لهم، فإذا كان الله ﷻ مع قومٍ، فأيُّ نصْرٍ يكون حليفهم؟! كما أنَّ تكرُّر كلمة الصَّبر في

---

(١) ينظر: عناية القاضي: (٤/ ٥٠٢).

(٢) روح المعاني: (٥/ ٢٢٨).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٤/ ٣٥).

(٤) ينظر: الموضع السابق.

(٥) ولذلك كان رد إسماعيل -عليه السلام- أكثر توفيقا حينما قال ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات:١٠٢] فوفقه الله لذلك، وحين قال الخضر -عليه السلام- ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الكهف:٦٩] لم يستطع عليه صبرا.

هذا السِّياق يدلُّ على أنَّه أهمُّ أسباب النَّصر، فالآية شديدة الالتصاق بالتَّوجيهات التي جاءت في الإرشاد إلى أسباب النَّصر خاصَّةً خاتمة الآية ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ومن الاحتباك كذلك ما جاء في سياق غزوة بدر في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [آل عمران:١٣] والخطاب هُنا متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ [آل عمران:١٢] فالخطاب لأهل الكفر مِن كفَّار مكة[1]

وقوله: ﴿قَدۡ كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ﴾ الآية والعبرة المشاهدة في أحداث غزوة بدر كانت دليلًا واضحًا بيِّنًا، ولَمَّا كان فعلهم، وعدم مبالاتهم بهذه العظة تدلُّ على صَلَفٍ عظيمٍ في القلوب، وكبرياءٍ في النُّفوس، نزِّل الكلام منزلة الكلام الملقى على المنْكر، فأُكِّد بقدْ، ثمَّ قُدِّم المتعلِّق (لكم) زيادةً في تقوية الحكم، وهذا التَّأكيد يُعلي مِن شأن نتائج الواقعة، فجاء التَّعبير بتنكير (آية) ليُفيد التَّعظيم، وهذا التَّعظيم يناسبه الوضوح والظُّهور، فكان حريًّا بأن يتَّعظوا ويعتبروا.

وقوله تعالى: ﴿فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ﴾ قدِّم في صورةٍ مجملةٍ؛ تشويقًا للنُّفوس؛ لتتطلع إلى حقيقة هاتين الفئتين، بلْ إنَّ مقتضى الخطاب أنْ يميَّز بين هاتين الفئتين لتباين ما بينهما، فجاء التَّفصيل مستجيبًا لحاجة النَّفس في إيضاح ما أُجمل، كما جاء ملبِّيًا لحاجة المعنى في ضرورة التَّمييز.

ثم جاء الاحتباك في قوله تعالى ﴿فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ﴾ فأثبت في الجملة الأولى ﴿تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وحَذَفَ ما يقابلها في الجملة الثَّانية،

(١) ينظر: الكشاف: (١/ ٢٦١).

وأثبت في الجملة الثَّانية ﴿كَافِرَةٌ﴾ وحَذَفَ ما يقابلها في الجُملة الأولى(١)، ومزيَّة التَّعبير به أنَّه أثبت في حقِّ المؤمنين اللازم الدَّال على صحَّة المعتقد، فالاعتقاد يلزمه العمل، فوصفهم بقوله: ﴿تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي التَّصريح به في حقِّ المؤمنين ثناءٌ عليهم، ووصفهم بأشرف الأوصاف، واعتدادٌ بقتالهم، وأن هذا اللازم عليه مدار تحقُّق رؤية الكثير قليلًا(٢)، وفي الجملة الأخرى صرَّح بالملزوم وهو الكفر؛ لأنَّه ليس بعد الكفر ذنبٌ، ففساد الاعتقاد يُغني عن ذكْر سوء وقبح فعالهم، ويزيد أبو السُّعود معنًى آخر فيقول: "وإنَّما لَمْ تُوصف هذه الفئة بما يُقابل صفة الفئة الأولى إسقاطًا لقتالهم عن درجة الاعتبار، وإيذانًا بأنَّهم لَمْ يتصدَّوْا للقتال لما اعتراهم مِن الرُّعب والهيبة"(٣).

والفاعل في ﴿يَرَوْنَهُم﴾ عائدٌ على أقرب مذكورٍ وهم الكفَّار، فيكون المعنى يرى الكفارُ المؤمنين مثلي عدد الكفَّار(٤)، أيْ أنَّ الكفَّار كانوا يرون المؤمنين ثلاثة آلاف؛ لأنَّ عدد الكفَّار كان بين التِّسعمائة والألف، ويؤيده ماجاء في سورة الأنفال مِن نزول الملائكة مردِفين، ثمَّ ماجاء صريحًا في سورة آل عمران ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران:١٢٤]، فإنْ قيل: أَلَمْ يَقُل الله ﷻ: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ قلْنا: القرآن الكريم يصف موقفين في حالين مختلفين، فآية الأنفال تصف الموقف قُبيل لحظة الالتحام ليحصل اللقاء والالتحام، أمَّا آية آل عمران فتصف لحظات الالتحام والضرب بعد أنْ اجترأ كلُّ فريقٍ على الآخر(٥)، ثمَّ أكَّد هذه الرؤية بقوله تعالى:

(١) ينظر: البحر المحيط: (٢/ ٣٩٣).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٢).

(٣) الموضع السابق.

(٤) ينظر: النكت والعيون: (١/ ٣٧٤) والكشاف: (١/ ٢٦١).

(٥) ينظر: الكشاف: (١/ ٢٦٢).

﴿رَأْيَ ٱلْعَيْنِ﴾ فليست وهمًا، وفيه ترهيبٌ لأهل الكفر، إذْ أعلمهم الله ﷻ سنَّته في نصرة أهل الحقِّ، وكَشَفَ ﷻ لهم في هذه الآيات جانبًا مِن جوانب الغيب يهدم كلَّ مقاييس الظَّفر التي يعتمدون عليها، فإنْ غرَّتهم كثرتهم فالله ﷻ أمدَّ المؤمنين بأضعاف عددهم، فبقي أنْ تكون المعركة معركة معتقدٍ، وعندها فالله ﷻ ينصر الحقَّ، ويبطل الباطل، كما أنَّ في الآية تثبيتًا لنفوس المؤمنين فهي "تؤكِّد على المعاني السَّابقة التي نزلت بها الأنفال، وتُثبت في أذهانهم أنَّ الله يؤيد بنصره مَن يشاء، إن في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار"[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، بدأت الجملة باسمه الجليل فكانت أشدَّ تأكيدًا مِن تقديم الفعل، فاستحضار اسمه في أوَّل الجملة يملأ النَّفس هيبةً وتشوُّقًا لما يأتي بعده، فلمَّا أثبت تأييده لمن يشاء عُلِمَ مِن ذلك أنَّ النَّصر بيده، فيكون لإثبات هذا المعنى أثره في النَّفس في أنْ يُطلب النَّصر منه وحده، كما دلَّ على ذلك إضافة النَّصر إليه، فحريٌّ أنْ تتعلَّق النُّفوس والقلوب به ﷻ.

وختمت الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ بتتابع المؤكِّدات فالجملة تذييلٌ مقرِّرٌ لما قبله[2]، فابتدأت بمؤكِّدٍ (إنَّ) ثمَّ اللام، وجاء اسم الإشارة (ذلك) للبعيد لعلوِّ هذه الآية[3] وظهورها، ثمَّ نُكِّرت(عِبْرَة) للتَّفخيم[4]، فالآية كما نلحظ تتضافر فيها عناصر التَّأكيد والتَّنبيه إلى المعنى، وذلك عائدٌ إلى طبيعة المعنى المشار إليه، وطبيعة نفوس المخاطَبين، فإنَّ المعنى المشار إليه واضحٌ للعيان بالدَّليل القاطع، ولكن لأنَّهم لَمْ يتَّعظوا، ولم يعْتبروا نزِّلوا منزلة المُنكر للحُكْم.

ويقوم الحذف بوظيفته التخيليَّة لتفظيع شأن العذاب، تهديدًا ووعيدًا، ففي قوله

(١) المنهج التربوي للسيرة النبوية: (١/ ١٩١).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ٣٣).

(٤) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٩٥).

تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾،نلحظ أنَّ مجيء (لو) الشَّرطيَّة مع الفعل المضارع يردُّ دلالته إلى الماضي، وجوابها محذوفٌ دلَّ عليها السِّياق، أيْ لرأيتَ أمرًا عظيمًا، و(إذ) ظرفيَّةٌ لربط الرُّؤية بزمن الحدث، والفعل المضارع (يَتَوَفَّى) يدلُّ بقاء هذه الطريقة في اجتذاب أرواح الكَفَرَة الذين يحاربون الله ورسوله، يقول ابن كثير: "وهذا السِّياق وإنْ كان سببه وقعة بدْرٍ ولكنَّه عامٌّ في حقِّ كلِّ كافرٍ، ولهذا لَمْ يُخصِّصه تعالى بأهل بدرٍ، بلْ قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ وفي سورة القتال مثلها[(١)]، وتقدَّم في سورة الأنْعام [عند] قوله: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟﴾ [الأنعام:٩٣]"[(٢)].

والفاعل مضمرٌ في قوله تعالى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فتقدير الكلام يتوفَّى الله الذين كفروا، وتكون جملة ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ الملائكة مبتدأٌ، وخبره الجملة الفعليَّة، والجملة حالٌ مِن الذين كفروا[(٣)].

والأعلى أنْ يكون الفاعل مؤخَّرًا وهم الملائكة ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ ويكون التَّقديم في الذين كفروا مفيدًا الاهتمام بذكرهم، والعناية بمصيرهم، وتكون جملة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ جملةً حاليةً مِن الفاعل والمفعول به لاشتمالها على الضَّميرين[(٤)]، ويؤيِّد هذا التَّأويل قراءة ابن عامر بتاء التَّأنيث التَّأنيث (تَتَوَفَّى) إسنادًا إلى الملائكة لأجل اللفظ[(٥)]، ونكتةٌ تثقيفيَّةٌ في اصطفاء هذا

(١) وهو قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

(٢) تفسير القرآن العظيم: (٧/ ١٠٥).

(٣) ينظر: أنوار التنزيل: (٣/ ٦٣).

(٤) ينظر: الموضع السابق.

(٥) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٩٩) والنشر في القراءات العشر: (٢/ ٢٧٧).

الوجه أنَّ الذين كفروا لا يستحقُّون أنْ يتوفَّاهم الله بلا واسطةٍ[1]؛ إعراضًا عنهم، وتحقيرًا لشأنهم[2].

وتخصيص الضَّرب مِن سائر أنواع العقوبة؛ لأنَّ الخزي بضربهما أشدُّ[3]، وسياق الآيات سياق إهانةٍ وتنكيلٍ بالكافرين، وهو وثيق الصِّلة بقوله تعالى: ﴿فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١٢]، وذكْر الوجوه والأدْبار فيه دلالةٌ على تنوُّع العذاب وشموليَّته ليكون أشدَّ إيلامًا، وأقوى نكالًا، جزاء إعراضهم، وصدِّهم عن سبيل الله، والتَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَضْرِبُونَ﴾ يُفيد استمرار العقوبة عليهم، أو تكرُّره لاعتبار صورة العذاب مع كلِّ فردٍ منهم. ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ حذف المعطوف (ويقولون)، وجُمِعَ بين الضَّرب والقول زيادةً في التَّقريع والإهانة تفنُّنًا، والأمر هُنا يُفيد الإهانة. وإضافة الحريق إلى العذاب إضافة الشيء إلى جنسه لبيان نوعه، وأنَّه عذابٌ يحرق جلودهم[4]، وحذف جواب الشَّرط للدَّلالة على فظاعة ذلك العذاب، وأنَّه بلغ مبلغًا عظيمًا تُرك للمتلقِّي فضاء تخيُّله واستشعار هوله؛ ليكون وعيدًا لمن كَفَرَ وصدَّ عنه.



(١) ينظر: غرائب القرآن: (٣/ ٤٠٩).

(٢) ينظر في مسألة التوفيق بين إسناد قبض الأرواح في القرآن إلى الله مرة، وإلى ملك الموت مرة، وإلى الملائكة أخرى: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ محمد الأمين الشنقيطي: (٢٥٤)، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، نشر عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

(٣) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧١).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٤١).

المبْحثُ السّابع: أثر أساليب التَّقديم في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

القاعدة الكلِّية في التَّقديم تقديم الأهمِّ، وهي تتجاوب مع حاجات النَّفس وطبائعها في تشوُّقها لما هو أعنى لها. وفي سياق التَّفضُّل على المؤمنين بالعفو والغفران جاء قوله تعالى﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[الأنفال:٦٨] لمَّا تقدَّم عتابه ﷻ لاستبقاء الأسرى، وختم الآية بصفة العزَّة والحكمة، استدعى ذلك سؤالًا مقدَّرًا عن حالهم وقد قارفوا ما وبَّخ الله على فعله، فجاء الجواب في الآية الكريمة استئنافًا بيانيًّا[١]، والتَّنكير في " كتاب" يُفيد الإبهام والتَّنوُّع[٢]، فيكون داخلًا فيه كل ما يصحُّ ذكره مِن أقوال المفسِّرين[٣]، كما رجَّح الطَّبريُّ[٤]، ووصف الكتاب بشبه جملة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ثمَّ بجملة ﴿سَبَقَ﴾ فأوضح شبه الجملة مصدره لتطمأنَّ النُّفوس إلى حكمه، وأوضحت الجملة الثَّانية ظرفه الذي نَزَلَ فيه، واستئثاره به في علم الغيب، وقدَّم ما للنَّفس شوقٌ إليه، وهو أن يكون مِن عند الله، ثمَّ أتت هذه اللام لتشد الجواب إلى الشَّرط مع تأكيد المعنى تأكيد وقوعٍ لا يخامره الشَّكُّ أو التَّردُّد، فعبَّر بالماضي لأنَّه أشدُّ تأكيدًا مِن المضارع، وفي هذا التَّأكيد ذكر تفضُّله عليهم، ومنَّته ورحمته التي شملتهم، فوقاهم بعفوه العذاب المؤكَّد علامةً على المغفرة والعفوِّ، ومِن تفضُّله أنَّه وقاهم عذابًا وصف مسَّه وهو مجرد الملامسة بأنَّه عظيمٌ، ويأتي التَّعبير بجملة الصِّلة ﴿فِيمَآ أَخَذْتُمْ﴾ متوسِّطًا بين الفعل ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ وفاعله ﴿عَذَابٌ﴾ "لأهميَّة بيان السَّبب المباشر في

(١) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٤٥) والتحرير والتنوير: (١٠/ ٧٧).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: الموضع السابق.

(٣) ومن تلك الأقوال: لا يضل أحدا بعد إذ هداهم وحلية الغنائم بعد أن كانت محرمة، وألا يعذب قوما بجهالة، ولايعذب الله أحدا إلا بعد النهي، ولا يعذب أحدا شهد بدرا. ينظر: اللباب: (٩/ ٥٧٢و٥٧٣)..

(٤) ينظر: جامع البيان: (١٤/ ٧٠ و ٧١).

استحقاق العقوبة"[1].

الرَّحمة الربَّانية، والمنَّة الإلهيَّة هي المعلم التَّثقيفي البارز الذي يربي به الله ﷻ هذه النُّفوس، وتقديم المتعلِّق (من الله) هو مناط التَّثقيف الذي يسكِّن القلوب الوجلة، والنُّفوس الخائفة للدلالة على عظم هذا الكتاب الذي قضاه الله، فصفح وعفا عنهم، لأنَّه اصطفاهم لأنْ يكونوا أداة النَّصر، وعلى يديهم تُفتح أبواب الظَّفر.

(١) في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٤٢٧).

المبْحثُ الثَّامن: أثر أساليب الأمر في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

في سياق الإرشاد الميدانيِّ في أرض المعركة جاءت الأوامر المحقِّقة للنَّصر والظَّفر في سبكٍ دقيقٍ لترتيب تلك الأوامر، يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾[الأنفال:٤٥-٤٦] فجاء التَّمهيد بالنداء في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فاستهلَّ الآية بحرف النِّداء للتَّنبيه عنايةً بشأن المنادى له، ثمَّ جاء ت جملة الصلة متضمِّنةً العلاقة الوطيدة بين الصِّفة والأمر، فمن مقتضيات الإيمان الثَّبات والذِّكر والطَّاعة والصَّبر، فالتَّذكير بهذه الصِّفة له أثره التَّثقيفيُّ في تحفيز المؤمنين وتذكيرهم بهذا المقتضى، إضافةً إلى ما في النِّداء مِن معاني التَّلطُّف والتَّودُّد لعلوِّ شأن المنادِي ﷻ.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ أُسند فعل اللقاء إلى المؤمنين حثًّا لهم على المبادرة في اللقاء، وأنْ يكونوا في موقع الهجوم حين يستدعي ذلك، فالتَّعبير القرآنيُّ اصطفى إسناد الفعل إلى العدوِّ حين يكون ذلك اعتداءً فقال الله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:١٩٤]، وقيِّدت جملة الشَّرط بإذا دلالةً على الجزْم بوقوعه، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ الأمَّة الإسلامية ستبقى في صراعٍ مع الباطل، وأنَّ عليها ألَّا تَضَعَ سلاحها، وعليها ألَّا تنخدع بدعاوى السَّلام التي يروِّج لها أهل الباطل تخديرًا لأهل الحقِّ، وهذا فيه تثقيفٌ للنَّفس المسلمة، وتهيئتها لنصرة الحقِّ، ودحْر الباطل، وتحقِّق جملة الشَّرط الرَّبط بين فعل الشَّرط وجوابه، ومزيَّة الرَّبط أنَّه مخصوصٌ بحال اللقاء، كما يفسِّره ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: عن النَّبيِّ ﷺ قال: (لا تمنَّوا لقاء العدوِّ، فإذا لقيتموهم فاصبروا)(١). وتنكير فئةٍ يُفيد

(١) صحيح البخاري: كتاب: الجهاد والسير: باب: لا تمنوا لقاء العدو. حديث رقم: (٣٠٢٦) (٢/ ٣٦٥).

التَّعميم، فيعمُّ كلَّ مواجهةٍ بين المؤمنين والكفَّار، واستغنِي عن ذكر الكفَّار بدلالة السِّياق.

قوله تعالى: ﴿فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ السَّبب الأوَّل مِن أسباب النَّصر الثَّبات، وتوطين النَّفس على التَّحمُّل في سبيل تحقيق المبدأ والمعتقد، والقرآن الكريم حين يعرض لقضيَّة النَّصر يبتدئ مِن الأعماق، مِن مكنونات الضَّمائر، ونَجِد تأكيد مسألة الثَّبات بإيرادها في أوَّل السُّورة بطريق النُّصرة والإعانة ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال:١٢]، ثمَّ يَرِدُ الأمر في هذا السِّياق بتوطين النَّفس، فقضيَّة الثَّبات قضيَّةٌ جوهريَّةٌ في صميم المعتقد الذي تقصد إليه السُّورة الكريمة[١]، ثمَّ عَطَفَ على ذلك الأمر بالذِّكر ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ وهو السَّبب الثَّاني مِن أسباب النَّصر، وهو الآخر دليلٌ تعلُّقٍ بالله ﷻ، فإنْ كان الثَّبات دليلًا اعتقاديًّا في أساسه، فالذِّكر دليلٌ عمليٌّ، ففيه استشعار المعيَّة؛ لأنَّ مِن شأن المُحِبِّ التَّعلُّق بمحبوبه، وذكْره على كلِّ حالٍ، فإذا ذَكَرَ العبد ربَّه في أشدِّ اللحظات التي يكون الإنسان فيها مشغول البال والذِّهن فغيره مِن باب أولى، يقول الشَّوكانيُّ: "اثبتوا بقلوبكم، واذكروا بألسنتكم، فإنَّ القلب قدْ يسكن عند اللقاء، ويضطرب اللسان، فأمرهم بالذِّكر حتَّى يجتمع ثبات القلب واللسان"[٢]، وتقييده بالكثرة يدلُّ على أنَّ المقصود بالذِّكر الذِّكر اللسانيُّ لا القلبيُّ فقط؛ لأنَّ الذِّكر القلبيَّ يُوصف بالقوَّة، واللسانيَّ بالكثرة[٣]، ولهذا الذِّكر أثره النَّفسيُّ في السِّكون والاستقرار، يقول الله تعالى

---

(١) استثناء التحيز والتحرف في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال: ١٦] لا يقدح في الأمر بالثبات هنا لسببين: أن الأمر في الآية الخامسة والأربعين عام وفي الآية السادسة عشرة خاص، ثم إن التحيز والتحرف المقصودين في سياق الآية السابقة المقصود منهما حصول الثبات فيكون داخلا في الأمر العام هنا. ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٧٧).

(٢) فتح القدير: (٢/ ٣١٤ و ٣١٥).

(٣) تتبعت ورود تقييد الذكر بالكثرة في القرآن فوجدتها وصية الله لصفوته من عباده من الأنبياء والرسل أو =

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴾ [الرعد:٢٨]، ففي استحضار ذكره ﷻ طمأنينة القلْب: "وفيه إشعارٌ بأنَّ على العبد أنْ لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلبًا، وأكثر ما يكون همًّا، وأن تكون نفسه مجتمعةً لذلك، وإنْ كانت متوزعةً عن غيره"[(١)]. وللأمر بالذِّكر أثره التَّثقيفيُّ، فاستحضار ذكره ﷻ في أشدِّ السَّاعات هو ذكرٌ للغاية العُظمى مِن هذا القتال، وهو ذكرٌ للبواعث والأسباب، ذكرٌ لغاية الإصلاح في الأرض، وإحقاق الحقِّ، وإبطال الباطل، وإعلاء كلمة الله، بعيدًا عن الحظوظ الشخصيَّة، وانتصار النَّفس، والبحث عن المغنم[(٢)].

وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ أفادتْ لعلَّ مع ترجي المخَاطب وتوقعه حصول مدخول لعلَّ إذا أُتِيَ ما أمر به، وإفادة معنى التَّعليل دلالةٌ إضافيَّةٌ سياقيَّةٌ مِن مستتبعات التَّراكيب[(٣)]، وفي تعليله بأداة التَّرجي دليلٌ على أنَّه لا يجب عليه ﷻ شيء

= وصيته لعباده المؤمنين الذين عرفهم بالإيمان أو امتدحهم بذلك ورتب على ذلك الفلاح في موضعين فكثرة ذكر الله عز وجل علامة الإيمان، وسمة الصادقين.

(١) الكشاف: (٢/ ١٦٩).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٢٨).

(٣) ومن الملاحظ أن الحروف لها دلالات وضعية تدل عليها، فـ (لعل) هنا تدل على الترجي في الوضع، وهذه الدلالة الوضعية قد يضاف إليها دلالات أخرى، ولكن تلك الدلالات لا تلغي الدلالة الوضعية تماما، بل تضعف مستوى دلالتها على المعنى الوضعي، وذلك واضح في أن دلالة (لعل) على الترجي لا تنطفئ مع دلالتها على التعليل، ومثل هذا يقال في دلالة (كما) على التعليل مع بقاء دلالة التشبيه.

واختلف في طريق الدلالة الإضافية، أ بالمجاز أم الكناية أم غير ذلك؟، وجمهور البلاغيين على حملها على المجاز المرسل استنادا إلى تأويل السيد شريف، وقد تكلف لإيضاح المعنى بما فيه مشقة، ومنهم من عد ذلك من الاستعارة، وعدها بعضهم من الكناية واضطربت أوجه التأويل في ذلك. والأسلم في هذا والأعلى أن هذه المعاني الإضافية جهة دلالتها السياق، فليس المعنى الإضافي في حاق الحرف، إنما استفيد من المعنى السياقي بطريق الإفادة لا الدلالة، فهو من مستتبعات التراكيب. (ينظر: البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري: (٣٦٣ - ٣٦٦) ودلالات التراكيب "دراسة بلاغية" للدكتور محمد محمد أبو موسى: (٢١٩)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م. وحاشية عبد الحكيم على =

بل للإيمان[1]، وفيه تحفيزٌ لإتيان الأمر، فذكْره لثمرة الأمر ترغيبٌ لهم، وعليه فالفاصلة جاءت إطنابًا؛ لأنَّه أفاد تأكيدًا بتقرير علَّته لتوليد الدَّافع الذَّاتيِّ[2]، ثمَّ عطف قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ على الأمر ﴿فَٱثۡبُتُواْ﴾ واعتراض جملة ﴿لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ يُفيد تمييز عاملي الثَّبات والذِّكر لتعليق الفلاح بهما، كما يُفيد سياق العطف أنَّ ما تقدَّم في الآية الأولى يكون الفرد محور تحقيقه، أمَّا ماجاء في الآية الثَّانية فتكون الجماعة محور تحقيقه[3]، وجاء الأمر بالطَّاعة لله ورسوله، فابتدأ أمر الطَّاعة بالله المدبِّر، ثمَّ للرَّسول ﷺ؛ ليجتمع للمؤمنين توحُّد كلمتهم تحت قائدٍ واحدٍ، ثمَّ عَطَفَ على ذلك ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ﴾ أي فيما بينكم، فترتيب المتعاطفات يتدرَّج بتدرُّج المقامات وأهميتها في تحصيل النَّصر والظَّفر، والنَّهي عن التَّنازع بمفهوم المخالفة يُفيد الأمر بالاجتماع، ورتَّب على ذلك حصول الفشل والضَّعف والخور، وقدَّم هُنا التَّنازع على الفشل؛ لأنَّه تقدَّم قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ وعصيانهما يؤدِّي للتَّنازع؛ لأنَّ تشتُّت القيادة وتوزُّعها يفضي إلى تحكُّم الأهواء، وهو ما يؤدِّي إلى الضَّعف والخَوَر. بينما قُدِّم الفَشَلُ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [الأنفال:٤٣] لأنَّ أثر الرُّؤيا يبدأ فرديًّا ثمَّ ينتج عن هذا الأثر التَّنازع والاختلاف، فقدَّم في كلٍّ أوثقه صلةً بسياقه المتقدِّم. وبالنَّظر إلى السِّياقين نجد أن كلًّا مِن التَّنازع والفشل يفضي أحدهما إلى الآخر، فهما مِن أسباب الهزيمة؛ فجاء النَّهي عنه صريحًا، ولَمْ يأتِ بالأمر بضدِّه؛ ليكون أقوى في مستوى الدَّلالة[4].

= المطول ضمن "فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح " للشربيني: (٣/ ٢٧٨) نشر مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م.

(١) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٢٤).

(٢) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: (٢/ ٩٤).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٠).

(٤) لأن دلالة أسلوب الأمر على النهي دلالة ضمنية أما دلالة أسلوب النهي على النهي فهي تطابقية.

وقوله تعالى: ﴿فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ عطف تذهب ريحكم بالواو؛ لأنّه قدْ يأتي الظَّفر مع الفشل بأن يكون الفشل في العدوّ، فلمَّا عُطف عليه (وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) كان الأدلَّ على تحديد دلالة التَّركيب لصورةٍ محدَّدةٍ مِن صُور الفشل.

يقول البقاعيُّ: "ولمَّا كان الفشل ربَّما كان معه الظَّفر لفشلٍ في العدوِّ أكثر منه أو غير ذلك، عطف ما يلزمه غالبًا بالواو دون الفاء فقال: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾"(١).

ثمَّ أمرهم ﷻ بالصَّبر في قوله تعالى: ﴿وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾، والصَّبر هو ملاك تلك الأوامر كلِّها(٢)، والملاحظ أنَّ الأوامر كلَّها لا تتعلَّق بالإعداد الماديِّ، بلْ تتعلَّق بنواحٍ نفسيَّةٍ واعتقاديَّةٍ واجتماعيَّةٍ، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ قوَّة المبدأ، وتوطين النَّفس في مثل تلك المواقف هو الجدير بالعناية مع عدم معارضته للاستعداد الماديِّ والعسكريِّ(٣).

وجاء التَّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ في الفاصلة معليًا مِن شأن الصَّبر، فأثبت المعيَّة بالتَّأكيد بإنَّ؛ ليقرِّره في النُّفوس، كما أنَّ الجملة المؤكَّدة أُوردت مورد التَّعليل(٤)، ولذلك فُصلت عمَّا قبلها(٥)، ولذلك أثره التَّثقيفيُّ في تحفيز المخاطَبين للإقبال على أمره ليحظوا بمعيَّته، يقول ابن القيم: " فهذه الأشياء الخمسة تُبنى عليها

(١) نظم الدرر: (٣/ ٢٢٤).

(٢) ينظر: الفروسية لابن قيم الجوزية: (١٠١)، هذبه وعلق عليه: سمير حسين حلبي، نشر دار الصحابة للتراث، طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٣) نلحظ أن السورة من مبتدئها إلى منتهاها تؤكد الجانب النفسي في إعداد الجيش الإسلامي وتربيته التربية الإيمانية التي تؤصل في قلبه قيمة الثبات، وعليه فينبغي العناية بهذا الجانب إعدادا وجهدا وتنوعا كالعناية بالجانب العسكري والمادي.

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٢).

(٥) الفصل هنا له وجهان شكلي ومعنوي، أما الشكلي فهو اختلاف الجملتين إنشاء وخبرا، وأما المعنوي فهو التعليل – شبه كمال الاتصال – والاعتداد بالمعنى أولى، وهما لا يتعارضان فتعدد أسباب الفصل لا يُردّ.

قبَّة النَّصر، ومتى زالت أو بعضها زال مِن النَّصر بحسب ما نَقَصَ منها، وإنْ اجتمعت صار لها أثرٌ عظيمٌ في النَّصر. وقدْ اجتمعت هذه المقوِّمات في الصَّحابة – رضوان الله تعالى عنهم – فَلَمْ تقُم لهم أمَّةٌ مِن الأُمم، وفتحوا الدُّنيا، ودانت لهم البلاد، وخَضَعَتْ لهم الممالك، ولمَّا تفرَّقت فيمن بعدهم وضعُفت آل الأمر إلى ما آل إليه مِن الضَّعف والتَّفكُّك والتَّخلُّف والانْكسار"(١).

وفي سياق منَّة الله عليهم في شأن المغنم جاءت الأوامر محقِّقة التَّثقيف في قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٩] و"الفاء" عاطفةٌ السَّبب المحذوف على المسبِّب، والتَّقدير: أَبَحْتُ لكم الغنائم فكلوا ممَّا غنمتم(٢)، وسياق الآية فيه تطييبٌ للنُّفوس، وذكرٌ لفضله ومنَّته على عباده، إذ المفهوم مِن الأمْر هُنا التَّمنُّن والتَّفضُّل، واستعمال الأكل هُنا في الانتفاع باعتبار الأكْثر والأعمِّ "وإنَّما خَصَّ الأكْلَ بِذلك لأنَّه مُعْظَمُ مَنافع الأمْلاك؛ إذْ بِه قِوَامُ الأبْدان، وبقاء الحياة، وأراد بِذلك تمْليك سائر وجُوه منَافِعِها"(٣)، ولعلَّ فيه إشارةً تثقيفيَّةً إلى تطييب الحياة كلِّها بطيب المأكل الذي به قوام الحياة، وجاءت الصِّلة لتبيِّن المأمور به فقال: ﴿مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، وفي إثبات جملة الصِّلة إيذانٌ بأن الله ﷻ رزق عباده في هذا السِّياق مِن أفضل وجوه الكسْب، وهو وجه القهْر والاستعلاء(٤)، فارتبط في هذا الإثبات الرِّزق بالتَّمكين. ووصْف المأمور به بقوله ﴿حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ للتَّرغيب في إتيانه، وإزاحة ما وَقَعَ في النُّفوس مِن الخوف منه بسبب المعاتبة(٥)، والوصف الثَّاني مؤكِّدٌ للوصف الأوَّل، وفي ذكره إظهارٌ لجميل تكرُّمه ومنَّته، إذْ لَمْ يُحلِّل لهم الأكل مِن الغنائم فحسبْ، بل

(١) الفروسية: (١٠١).

(٢) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٧٧).

(٣) أحكام القرآن للجصاص: (٣/ ٧٣).

(٤) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي: (٢/ ٤٣٤).

(٥) ينظر: أنوار التنزيل: (٣/ ٦٧).

طيَّبها لهم. ولمَّا أمرهم سبحانه تعالى بما يُطيِّب النُّفوس مرغِّبًا، نبَّه النُّفوس إلى اتِّقاء الله ﷻ، وألَّا يأخذ إحسانه بالنُّفوس إلى مجاوزة ما أحلَّه إلى ما حرَّمه، ليربط المعنى أشدَّ الارتباط بموضوع المعقد المعاتَب عليه، والأمْر بالتَّقوى له امتداداتٌ في السُّورة الكريمة، ومنه ارتباط الأمر بالتَّقوى بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال:٢٩]، ثمَّ خُتِمَت الآية بما يدلُّ على واسع معرفته، وعظيم تفضُّله، وجاء الكلام مؤكَّدًا بإنَّ مِن جهةٍ، وباستحضار اسمه الأعظم في موضع الإضمار؛ ليقيم جلاله في النُّفوس. وفي وجه ترتيب الجُمل أنَّ قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ جاء اعتراضًا بين ما قبله وما بعده[١]، وعليه فالتَّذييل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ هو علَّةٌ للأمر بالأكل، أيْ: كلوا فإنَّ الله قدْ غفر لكم، فيكون توسيط الأمْر بالتَّقوى في وسْط المنن للفت الإنتباه إليه؛ لأنَّ الاعتراض في الكلام "كثيرٌ، قد جاء في القرآن، وفصيح الِشْعر ومنثور الكلام. وهو جارٍ عند العرب مجرى التَّأكيد"[٢] فتكون فائدته التَّثقيفيَّة التَّأكيد على توخِّي الحذَر مِن العود إلى ما عاتبهم الله عليه، ويجوز أن يكون التَّعليل للتقوى[٣] فيسقط القول بالاعتراض، ويكون الأثر التَّثقيفيُّ التَّرغيبَ في الإقبال على سَعَةِ رحمة الله ﷻ وفضله. ونلحظ في الآيات إيقاعَ التَّوازن الشُّعوريِّ بين المغفرة والرَّحمة والعفو، وبين الأمْر بالتَّقوى، فلا تغرُّهم المغفرة والعفو والرَّحمة، ولا يصرفهم عنه التَّقوى والخوف[٤].

---

(١) ينظر: جامع البيان: (١٤/ ٧٢) والمحرر الوجيز: (٨/ ١١٦).

(٢) الخصائص: (١/ ٣٣٥).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٧٩).

(٤) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٥٣).

المبْحثُ التّاسع: أثر أساليب الشَّرط في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

يدعو الحقُّ سبحانه نبيه إلى مخاطبة الأسرى، مرغِّبًا إياهم في عطاء الله تعالى فيقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾ [الأنفال:٧٠-٧١]

وفي التَّوجُّه بالنِّداء إلى النَّبيِّ ﷺ، والإعراض عن الأسرى، إشارةٌ إلى أنَّهم ما داموا على ملَّة الكفْر فليسوا أهلًا لنداء الله سبحانه لهم، ولا لمخاطبته إيَّاهم إلَّا بمُبلِّغٍ عنه زيادةً في التَّوبيخ والتَّحسير.

والتَّعبير بقوله تعالى: ﴿لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ﴾ فيه دلالةٌ على التَّمكُّن منهم، حتَّى كأنَّهم في يديه[1]، وفي إثبات هذا الوصف يُعلم منَّة الله وفضله على المخاطَبين؛ لأنَّه فتح لهم باب الرُّجوع حال تمكُّن المؤمنين منهم.

ثمَّ يعرض الله عليهم بواسع كرمه، وعظيم فضله بقوله: ﴿إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ علَّق إعطاءهم خيرًا ممَّا أُخذ منهم والمغفرة بالإقبال الحقيقيِّ الصَّادق إليه، فيجمع لهم خير الدُّنيا والآخرة، والتَّعبير بالمضارع في حيِّز الشَّرط يجعل هذا الباب مفتوحًا، وهذا ترغيبٌ منه سبحانه لعباده ليقبلوا عليه وهو الغنيُّ عنهم. والتَّقييد بقوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فيه دلالةٌ على أهميَّة المعتقد إذْ هو الأساس الذي تُقبل به الأعمال أو تُردُّ، كما أنَّ في تقييده دليلًا على تجذُّر الإيمان في النُّفوس حتَّى استولى على القلوب وأقام فيها، فإذا ظهرت أمارة الصِّدق، فإنَّ نِعَمه تتدفَّق عليهم بإعطائهم خيرًا ممَّا أُخذ منهم والمغفرة لهم، ولهذه العناية قُدِّم هذا القيد على مفعول العلم، ثمَّ ذُيِّلت الآية بما هو دالٌّ على مغفرته ورحمته

(١) ينظر: تفسير التبيان: (٥/ ١٥٩ و ١٦٠) والكشاف: (٢/ ١٧٨).

ليرغِّبهم في الإقبال والصِّدق، وليعلموا أنَّ المغفرة والرَّحمة هي صفاتٌ مِن صفاته. ولمَّا لامست رحمته قلوب الصَّادقين منهم، وفتحت الباب أمامهم جاء وصف المغفرة والرَّحمة بصيغة المبالغة ليدلَّ على عِظَمِها، فهو مستعملٌ لكثرة المخاطَبين وعِظَم المغفرة لكلِّ فرْدٍ مِن أفراد المخاطَبين[1]، وبعد أن رغبَّهم سبحانه، نبَّه -وهو العليم بما في القلوب -إلى إضمار الخيانة؛ ليحقِّق التَّوازن في الدعوة بين التَّرغيب والتَّرهيب فقال: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٧١] علَّق إرادة الخيانة حال وجودها بخيانتهم السَّابقة لله سبحانه وتعالى، وهذه الخيانة هي نقضهم للفطرة، وكفرهم بالله عز وجل، وقيل خيانتهم للمواثيق والعهود[2]، ولَمْ ينسب الله عز وجل الخيانة لنفسه، ولو على سبيل المقابلة كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال:٣٠] لأنَّ الخيانة مِن الصِّفات الممقوتة، ولو على سبيل المقابلة فنزَّه الله سبحانه وتعالى نفسه. وجاءت الجملة مؤكَّدةً بقدْ تهويلًا لأمر الخيانة، وجاء اسم الجلالة في موضعه ليلقي ظلال التَّعظيم، وفداحة الجُرم الذي ارتكبوه، فجاءت الدَّلالة على إمكان الخيانة بسابقة الذَّنب الكبير، فالسِّياق جاء ليعظِّم مِن شأن الخيانة ليتبعه بالتَّهديد والوعيد فيقول سبحانه: ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ والفاء تُفيد التَّعقيب، والهمزة في (أَمْكَنَ) للجعْل، أيْ: جعل له مكانًا مستقرًّا؛ كنايةً عن السَّيطرة والتَّصرُّف فيه، وفيه دلالةٌ على زوال القدْرة على المنع، والعجز عن ردِّه والفرار منه، ومفعوله محذوفٌ لدلالة السِّياق عليه[3]، والتَّعبير هُنا يحمل معنيين تثقيفيين، أولهما: أنَّه يحمل التَّهديد والوعيد لهم إنْ عادوا للقتال[4]، وثانيهما أنْ يحمل البشارة للرَّسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام بالتَّمكين مِن

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٨١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ٢١٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٨٣).

(٤) ينظر: معالم التنزيل: (٣/ ٣٧٩).

الخائنين والنَّاقضين العهود[1].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ استحضار اسمه الكريم على عادة السُّورة الكريمة في مواقف الهيْبة والعَظَمَة، وجاء الوصف بالعلم والحكمة مناسبٌ لما تقدَّم في الآية، فهو عليمٌ بسرائر النُّفوس وأغوارها، وهو حكيم لما يصدر منه مِن أحكامٍ وجزاءٍ لذلك، وقدِّم العليم على الحكيم، لأنَّه سبق منه سبحانه الحديث عن فعلٍ إنسانيٍّ وهو ما يضمره الأسرى مِن صدْقٍ أو خيانةٍ، فهو مستلزمٌ للعلم أولًا ثمَّ المجازاة[2].

وفي ذلك طمأنةٌ للرَّسول ﷺ وصحابته[3]؛ لأنَّه محيطٌ بما تُكنُّه القلوب، فإنْ أسلموا كان خيرًا لهم، وإنْ عادوا للخيانة فقدْ وعدهم بالتَّمكين.

وفصلت الآية عمَّا قبلها، واستأنفت استئنافًا بيانيًّا، جوابًا عن السُّؤال المتقدِّم؛ لأنَّ جملة الجواب ذات اتِّصالٍ شديدٍ بالسُّؤال، فسُبكتْ سبْكًا واحدًا، وطبيعة هذا الأسلوب تقتضي أنْ يكون السُّؤال مفتقرًا إلى الجواب لما يُحدثه السُّؤال مِن إثارةٍ في نفْس المتلقِّي "تجذبه وتشركه في الصِّياغة، ويكتفي الأسلوب بما يثيره فلا يظهر مصرَّحًا به، بلْ يظلُّ مكنونًا في الأسلوب والضَّمير في منطقة الظلِّ، ثمَّ تأتي الجملة الثَّانية تجيب عن السُّؤال، وتُطفئ أشواق النَّفس أو ترى ظمأها، وتُشبع هذا التَّطلُّع العاطفيَّ للمجهول، فيتأكَّد المعنى مِن النَّاحية العقليَّة ويحقِّق المتعة النفسيَّة، وإشباع حاسَّة الفنِّ والجمال"[4].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ٢١٣).

(٢) ينظر: أسماء الله الحسنى: (١٤٨).

(٣) ينظر: تشابه الأطراف في القرآن الكريم: (١٠٨).

(٤) أسرار الفصل والوصل للدكتور صباح دراز: (١١٥ و ١١٦) نشر مطبعة الأمانة، القاهرة الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الفصل الرابع

أثرُ تخييل المعنى للسَّامع
في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه مبحثان : -

- **المبحث الأوَّل**: التخييل بالزَّمن.
- **المبحث الثَّاني**: التَّخييل بالأساليب التَّصويريَّة.

* *   * ** *   * *

مفهوم تخييل المعنى للسامع:

الكلام في وجود التَّخييل في القرآن الكريم محفوفٌ بالمخاطر، ويرجع ذلك إلى سببين:

أ. الإشكال في المفهوم اللغويُّ: فالتَّخييل يدلُّ على الإيهام والاشتباه، ومنه وضعهم الكساء الأسود على عودٍ يُخيَّل به؛ ليُفزع الطَّير والذِّئب ونحوهما مِن إفساد الأرض أو أكل الغنم(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦] وجمع المفسِّرين على أنَّ التَّخييل هنا خداعٌ وتمويهٌ، وضربٌ مِن الباطل، وتزوير الحقائق(٢). ولكنَّ دلالة التَّخييل كما يقول ابن فارس: "الخاء والياء واللام أصلٌ واحدٌ يدلُّ على حركةٍ في تلوُّن"(٣)، وهو البعد المرتبط بالمعنى الاصطلاحيِّ في التَّخييل مِن إثارة الصُّورة وتحريكها في ذهن المتلقِّي والسَّامع.

ب. الإشكال في المفهوم الدينيُّ والعقديُّ؛ لأنَّ حركة هذا المصطلح في الفكر العربيِّ احتكّت بمذاهب مختلفةٍ، ومنهم مَن اتَّخذه وسيلةً لتحقيق تصوُّراته العقديَّة تجاه صفات الله عز وجل وأفعاله، فدخول مصطلح التَّخييل إلى المعاني القرآنيَّة كان عن طريق المعتزلة؛ لخدمة أصولهم، وعلى رأسها التَّوحيد(٤). وارتبط ذلك بالحديث عن الحقيقة والمجاز، وأنَّ صرف تلك الدَّلالات إلى المجاز فيه تعطيلٌ لهذه الصِّفات والأفعال.

ويبدو هناك سببٌ ثالثٌ، وهو التباس مفهوم التَّخييل بأكثر مِن دلالةٍ، فالتَّخييل

---

(١) ينظر: لسان العرب: (خيل).

(٢) ينظر: التخييل "مفهومه وموقف المفسرين منه قدامى ومحدثين" للدكتور مصطفى إبراهيم المشني: (٥)، نشر دار الرازي، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٣) معجم المقاييس في اللغة: (خيل).

(٤) ينظر: التخييل: (٥٦).

عند الفلاسفة له دلالةٌ تختلف عن دلالة التَّخييل عند البلاغيين، وقد تجد بعض البلاغيين تأثَّر بدلالته عند الفلاسفة، وأدخله إلى الحيِّز البلاغيِّ مِن هذه الجهة، وتجد البلاغيين كذلك يتحدَّثون عن الاستعارة التَّخييليَّة قسيمة التَّحقيقيَّة، وهكذا.

ولكل ما مضى- كان مِن الواجب على هذه الدراسة أنْ تحدِّد المفهوم، ولأنَّ موضوع الدِّراسة لا يتَّسع إلى تفصيل حركة المصطلح، وتحوُّلاته، فسنوجز كلَّ ذلك بالدَّلالة التي سار عليها البحث. وترتكز الدِّراسة في مفهومها للتَّخييل على إثارة الصُّورة في ذهن السَّامع، فيسمع ما يُتلى بعينه، لما يُخيِّل له المسموع في عقله. يقول حازم القرطاجنيُّ:"والتخييل أن تتمثَّل للسَّامع مِن لفظ الشاعر المخيِّل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه، وتقوم في خياله صورةً أو صور ينفعل لتخيُّلها وتصوُّرها، أو تصوُّر شيءٍ آخر بها انفعالًا مِن غير رويَّةٍ إلى جهةٍ مِن الانبساط أو الانقباض"(١) وبهذا المفهوم يكون التَّخييل أثرًا متعلِّقًا بالمتلقِّي والسَّامع، وحينما نثبت هذا المصطلح في القرآن فنثبته في حقِّ السَّامع والمتلقِّي، وليس في حق المنزِّل له سبحانه، وإنَّما نقصد منه ما يُحدثه الكلام مِن أثرٍ تقوم على إثْره في ذهن السَّامع تصوراتٌ لهذا الكلام الذي يسمعه، فتنبسط نفسه وتنقبض، فالانبساط والانقباض هو أثرٌ ناتجٌ من أثرِ وقع الكلام في الذِّهن.

وبهذا فالتَّخييل لا علاقة له بالحقيقة والمجاز مِن هذا الجانب، فلا يلزم مِن كونه تخييلًا أنْ يكون مجازًا؛ لأنَّ الصُّورة التي تُثار قد تكون صورةً حقيقيَّةً وقد لاتكون. ولا يلزم منها الصِّدق أوالكذب، فالشيء قد يخيَّل على ماهو عليه وقد يخيَّل على غير ماهو عليه(٢)، واللغة والتَّراكيب هي المثيرة للصُّور بحكاية هذه المعاني بالتَّشبيه أو بالوصف

(١) منهاج البلغاءوسراج الأدباء:(٨٩)، تقديم وتحقيق :محمد الحبيب ابن الخوجة، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨١م.

(٢) ينظر:منهاج البلغاء : (٦٢).

أوغير ذلك[١].

هذا المفهوم هو ما ندركه مِن معنى الإحسان بأنْ تعبد الله كأنَّك تراه، ومِن قول الصَّحابة رضوان الله عليهم حال جلوسهم مع النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم عندما كان يحدِّثهم عن الجنَّة والنَّار أنَّهم كانوا كأنَّهم يرونها رأي عين[٢].

كما تجد القصد إلى هذا المعنى مبثوثًا في كتب البلاغة، ففي صور إيجاز الحذف "أنْ يُحذف للدَّلالة على أنَّه شيءٌ لا يُحيط به الوصف، أولتذهب نفس السَّامع كلَّ مذهب ممكنٍ فلا يتصوَّر مطلوبًا أو مكروهًا إلا يجوز أنْ يكون الأمر أعظم منه، ولو عين شيءٌ اقتُصر عليه، وربما خفَّ أمره عنده"[٣] فالقيمة الوظيفيَّة للحذف هنا هو مايُحدثه مِن إثارةٍ تخييليَّةٍ للسَّامع في الذَّهاب في تخيُّله كلَّ مذهبٍ.

وممَّا تنبغي الإشارة إليه التَّفريق بين الكلام المُخيِّل والكلام المخيَّل، فالمخيَّل وصفٌ للكلام مِن خلال فعل المنشيء للكلام والمبدع له في صوره، أمَّا المخيِّل ففعل الكلام في المتلقِّي مِن الإثارة. وهو ما نقصده في هذه الدِّراسة.

ومن شأن الإثارة التَّخييلية أن توقع أثرًا في نفس السَّامع، وكان الفارابي[٤] مِن

(١) ينظر: تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني للدكتور محمد أبو موسى: (٦٢)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(٢) ينظر حديث حنظلة الأسيدي في صحيح مسلم: كتاب التوبة، باب فَضل دوامِ الذِّكْر والفِكر فِي أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك فِي بعض الأَوْقات والاشتغالِ بالدُّنيا، حديث رقم: (٢٧٥٠) (٤/ ٢١٠٦).

(٣) الإيضاح: (٢/ ١٠٩)

(٤) ينظر: إحصاء العلوم: (٤٢)، قدّم له وشرحه وبوَّبه الدكتور علي بوملحم، نشر دار ومكتبة هلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

أبرز مَنْ فهم هذه الإثارة التي يحدثها التَّخييل في المتلقي[1]. التَّخييل إذنْ يفوق في الأثر والسِّعة عنصر الحركة، وتجعل الحركة عنصرًا مِن عناصرها في تشكيل الصُّورة المخيِّلة[2]، وهذا ماتسعى الدِّراسة لتجليته مِن خلال الآيات.



(١) ينظر: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي للدكتور جابر عصفور: (٢٢)، نشر دار المعارف، القاهرة. دون ت. ط.

(٢) ينظر: التصوير الفني في القرآن الكريم "دراسة تحليلية" للدكتور جبير صالح حمادي: (١٢٨)، نشر مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

المبْحثُ الأوّل:
التَّخييل بالزَّمن

يسلك القرآن الكريم لتخييل المعنى في ذهن السَّامع والقارئ لكتاب الله مسالك متنوِّعة، من أبرزها وضعه في قلب الحدث، باستحضار زمن الموقف، حتَّى يُخيَّل للمتلِّقي أنَّه يعيش أحداث الغزوة في لحظتها الماثلة، فالتَّعبير القرآنيُّ "يفتح نوافذ الفكر بالحقائق الواضحة ثم لا يلبث أن يضرب على الأوتار النفسيَّة والوجدانيَّة بتصوير تلك الحقائق تصويرًا يؤدِّي إلى تفتُّح كلِّ الملكات البشريَّة لاستيعابها واليقين بها، بلْ تجاوز هذا إلى توجيه السُّلوك الإنسانيِّ، ودفعه إلى الحقِّ والصواب"[1]، وتلك هي الغاية التي نهدف إلى تبيان وجهها مِن خلال أساليب التَّخييل.

ففي قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال:١] جاء الاستفتاح بشأن سؤالهم في صورة الفعل الحاضر، رغم أنَّ الحديث انقضى، ولكنَّ السِّياق أراد أنْ يبعث الحَدَثَ، ويجعله حاضرًا في أذهانهم، مع ماتثيره تلك المشاهد مِن مشاعر حين يذكر الله ﷻ اطِّلاعه على ذلك الموقف. كما أنَّ في التَّخييل بالفعل المضارع دلالةً على الحدوث والتَّجدُّد، وأنَّ الفعل وقع مِن أكثر مِن شخْصٍ.

والموقف الذي يعالجه القرآن موقفٌ شديد الأهميَّة، ولذلك جاء مصدَّرًا في بداية السُّورة، بلْ عمد السِّياق إلى إظهار الموقف بصورته الحقيقيَّة، وهو موقفٌ يحضر في ذاكرة المؤمنين بحرارته، فخيَّله القرآن الكريم حقيقةً يشاهدونها لا يلتبس فيها شيء حين اختصموا في شأن الأنْفال، وذهبوا يحتكمون عند رسول الله ﷺ.

استحضار المشهد هنا يهيِّئ النُّفوس لتلقِّي أمره بعد ذلك، فالصُّورة المراد تخييلها تشحن نفوسهم بأجواء تلك اللحظة، فإن كانوا في غمرة ذلك الموقف دفعتهم فطرتهم

---

(١) أساليب البيان والصورة القرآنية "دراسة تحليلية لعلم البيان" للدكتور محمد إبراهيم شادي: (٥٠١)، نشر دار والي، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

البشرية للتنازع والاختصام وهم مشحونون بأجواء المعركة القتالية، فهاهو يعيد القرآن لهم هذه الصُّورة ولكن في مشهدٍ تغيب فيه أجسادهم وتحضر فيه عقولهم وقلوبهم.

وفي سياق التَّذكير بتحوُّل الغاية مِن العير إلى النفير ثمَّ تضرعهم إلى المولى جلَّت قدرته، تُخيَّل تلك اللحظات في ذهن السَّامع ليرى به ما سمعت أذنه مِن الحقِّ المبين مِن خلال استحضار الظَّرف الزَّمنيِّ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال:٧-٩]، فمسلك تخييل المعنى جاء بالتَّذكير بزمان الحدث بالظرف؛ لأنَّ في إثارة عنصر الزّمان إثارةً للذِّهن لاستحضار الأحداث الجارية كأنَّها على مرأى مِن العين "وتذكيرُ الوقت مع أن المقصودَ تذكيرُ ما فيه مِن الحوادث لما مرَّ مرارًا مِن المبالغة في إيجاب ذكرِها لِما أنَّ إيجابَ ذكر الوقتِ إيجابٌ لذكر ما وقع فيه بالطَّريق البرهاني، ولأنَّ الوقتَ مشتملٌ على ما وقع فيه مِن الحوادث بتفاصيلها، فإذا استُحضر كان ما وقع فيه حاضرًا مفصَّلًا كأنَّه مشاهَدٌ عيانًا"[1] وهو ما نلحظه بعد ذلك في استدعاء لحظة الاستغاثة ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾.

كما أثار السِّياق المشهد مِن خلال استخدام الأفعال المضارعة تعبيرًا عن الحوادث المنصرمة، فقال: (يَعِدُكُمْ)، وكأنَّ الوعْد يتنزَّل أمام أعينهم، ثمَّ أخرج صورة الوِدادة مِن أعماق نفوسهم مستحضَرًا ماثلًا في لحظته (تَوَدُّون)[2].

وهكذا تَرِدُ الصُّورة تباعًا في زمنٍ حاضرٍ مشَاهدٍ (يُرِيدُ، يُحُقُّ، يَقْطَعُ، يُبْطِلُ، تَسْتَغِيثُون) و تخييل المعنى بصيغة الفعل الحاضر يأخذ النُّفوس المتلقيَّة إلى قلب الحَدَثِ، وحين يتجلّى الحقُّ ﷻ بقوله: (يَعِدُكُم) تعكس في النَّفس الجَلالَ الإلهيَّ،

(١) إرشاد العقل السليم: (٤/ ٦).

(٢) ينظر: دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل: (١٩٢).

ويزيد جلال هذه الصُّورة إخراج فعل المودَّة حاضرًا؛ ليؤَكد لهم إحاطته التَّامة بكلِّ شيءٍ فهو وعدٌ مِن لدن عليمٍ خبيرٍ.

وفي هذا السِّياق الزَّمنيِّ يأتي الفعل المضارع ﴿تَسْتَغِيثُونَ﴾ وهو استحضارٌ لأكثر المشاهد في المعركة تعلُّقًا بالله ﷻ، وجاء الفعل بصيغة الجمع مخيِّلًا ذلك الجمع مِن المؤمنين، وهم يرفعون أكفَّ الضَّراعة إلى الله يسألونه النَّصر والتَّمكين.

وفي صورةٍ أخرى ينْطوي الزَّمن سريعًا ﴿فَاسْتَجَابَ﴾ مخيِّلًا بهذه الفاء سرعة التَّعقيب مع ما ينطوي في ظلال الفعل الماضي مِن مُضيِّ زمن الفعل بعد أنْ كان الفعل حاضرًا دلالةً على سرعة الإجابة، وتأكُّد وقوعها، وفيه دلالةٌ على أنَّ أمر النُّصرة قدْ حُسِمَ مِن قبل نزول الآيات؛ لأنَّه مِن الوعد بالنَّصر الذي مرَّ في الآيات السَّابقة[1].

وفي تخييل الآيات لزمن الحَدَثِ وسرعة الاستجابة دعوةٌ إلى ضرورة تعلُّق العبد بالله ﷻ، وأنَّ صدق الالتجاء إليه سببٌ مِن أسباب إجابة الدَّعوة، والآية ذَكَرَتْ هذا التَّعلُّق بصيغة الجمع، فلمَّا كان تعلُّقهم بالله ﷻ جاء الجواب سريعًا مؤكَّدًا.

ويذكِّرهم الله ﷻ بالمنن والعطايا التي كانت سببًا لطمأنة نفوسهم، وتسكين قلوبهم فيقول: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال:١١-١٢]، فجاءت عناصر التَّخييل في هذا المقطع متآزرةً لتنقل المشهد بكامل تفاصيله إلى المستمع والقارئ؛ لتجعله في قلْب الحَدَث، فيعيش تلك اللحظات العصيبة.

نلحظ في مطلع كلِّ آيةٍ يستهلُّ البارئ ﷻ بقوله: ﴿إِذْ﴾ وهي بدلالتها الزَّمنيَّة تستحضر أحداث ذلك الزَّمان، فتهيِّئ النَّفس لاستقبال جُملةٍ مِن الأحداث واقعةٍ، ثمَّ

(١) ينظر: الخطاب النفسي في القرآن الكريم (٢١٨).

استعمال السِّياق القرآني لها وظَّفها توظيفًا انتقاليًّا بين الأحداث؛ ولأنَّ الأحداث لا تتبع تسلسلًا تاريخيًّا أو زمنيًّا جاء إحكام الانتقال بهذه الأداة وكأنَّه يقتطف صورًا متفرقةً مِن أحداث المعركة، تتجلَّى فيها مِنَن الله ﷻ، في زمنٍ مُتَّسعٍ، وكأنَّ جُملة هذه الأحداث حدثٌ واحدٌ مديدٌ في زمنه، فقوله تعالى: ﴿ إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ﴾ هو جلْبٌ لصورة الحَدَثِ مِن جملة أحداثٍ، وقوله تعالى: ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ ﴾ جلْبٌ لتلك الصُّورة في موقفٍ حاسمٍ، وبين هذا الحدث والذي قبله أحداثٌ كثيرةٌ، لكنَّ السِّياق ضَرَبَ عنها صفْحًا، واصطفى أوثقها صلةً بسياق المنِّ والإنْعام.

وتأتي الفاء في مواضعها مخيِّلةً الزَّمن في أسرع لحظاته، منسجمةً مع الإيقاع السَّريع للمعركة في وقتٍ عصيبٍ، فقوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ﴾ نلحظ كيف تنْطوي تلك اللحظات بين الإخبار وبين الأمر كلمْح البَصَرِ، جاءت هذه الفاء لتسلب الزَّمن بين الإخبار والأمر المترتِّب على الإخبار، وهو التَّثبيت، ونجد الأسلوب ذاته في قوله تعالى: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ ﴾ نجد التَّتابع السَّريع بين خبر الإلقاء وبين الأمر بالضَّرب، جاء هذا التَّتابع السَّريع منسجمًا مع أجواء المعركة السَّريعة.

وتدخل السين على الفعل المضارع، فتجعل الزَّمن في المستقبل، مع إرادة الإثبات؛ لأنَّها في مقابل (لَنْ يَفْعَل)[1]، والذي يهمُّنا هو الزَّمن القريب، ففي قوله تعالى: ﴿سَأُلۡقِي ﴾ دلالة هذا القرب الزَّمنيِّ مع التَّأكيد بالإثبات.

ونلحظ أنَّ السِّياق يقصُّ تلك الوقائع الماضية بالفعل المضارع؛ لاستحضار صورتها بحرارة تلك المواقف، فقوله تعالى: ﴿يُغَشِّيكُمُ ﴾ ﴿وَيُنَزِّلُ ﴾ ﴿لِّيُطَهِّرَكُم ﴾ ﴿وَيُذۡهِبَ ﴾ ﴿وَلِيَرۡبِطَ ﴾ ﴿وَيُثَبِّتَ ﴾ ﴿يُوحِي ﴾ ﴿سَأُلۡقِي ﴾ كلُّ تلك الأفعال الحاضرة المعنويَّة منها والحسيَّة جاءت لتصوِّر أحداث المعركة كأنَّها تحصل في لحظتها؛ لتدفع القارئ إلى الانغماس في تلك المشاهد، مستحضرًا أثر نعمة الله ومنته.

---

(١) ينظر: الكتاب: (٣/ ١١٥) و (٤/ ٢١٧).

تلك الصُّور المخيَّلة تعيشها النَّفس وتتأمَّل منن الله وتدابيره التي قضاها وقدَّرها، فيدفعها ذلك إلى شكر الله ﷻ، وصدق الالتجاء والتَّوكُّل عليه.

وتخييل المعنى في نفس السَّامع، وإقامته في ذهنه كأنَّه يشاهده في الأحداث أكثر تخييلًا منه في آيات الأحكام؛ لما في الأوَّل مِن مادةٍ قابلةٍ للتَّخييل، أمَّا الأخرى فيغلب عليها التَّقرير، ففي قوله تعالى. ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال:٤١] ففي الجزء الأوَّل المتعلِّق بالحكم نلحظ التَّقرير، ثمَّ لَّما حفَّزهم إلى ذلك استحضر الحدث بقوله: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ﴾ فنلحظ كيف أنَّ التَّخييل جاء هُنا مستحضِرًا تلك الحادثة ماثلةً في ذهن المتلقِّي، فوصْف الحَدَثِ كان كافيًا فيه أنْ يُقال: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾، ولكنْ لَّما أراد السِّياق أنْ يجعل المخاطَب في أرض المعركة، فيتذكَّر فيه أحداثه، وفضائل الحقِّ ﷻ جاء الوصف مخيِّلًا تلك اللحظة الحاسمة ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ﴾ وهو تخييلٌ زمنيٌّ يفتح للنَّفس الانسياق خلف تلك الأحداث، ثمَّ يغرس في النُّفوس أثر هذا التَّخييل مِن تذكُّر منَّة الله كيف شملتهم في لحظات اللقاء العصيبة؛ ولذلك فقد كانت هذه الجملة مفتاحًا للتَّخييل اللاحق لأحداث الغزوة، ليلقي هذا التَّخييل بآثاره التَّثقيفيَّة في النَّفس.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال:٤٣] نلحظ التَّخييل هنا باستحضار الزَّمن الذي أرى الله فيه رسوله ﷺ جيش الكفر قليلًا، ثمّ ببناء الفعل على صيغة المضارع لما يدلُّ عليه مِن آنيَّة الحَدَث، واستحضار لحظاته استثارةٌ للذِّهن لتتمثَّل تلك الصُّورة التي امتنَّ الله فيها على رسوله ﷺ وعباده، وقدْ رآهم قلَّةً، ورؤى الأنبياء وحيٌ، فالقلَّة قلَّة بأسٍ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يعلم عددهم.

ولتخييل الموقف أثران:

أولًا: رفع معنويات جيش المؤمنين، وطمأنة نفوسهم بتخييل قلَّة البأس؛ ليجترئوا عليهم، وتذهب عنهم هيبة عدوِّهم فيقدموا على قتالهم، فكان الإخبار بقلَّة العدد عاملٌ مِن عوامل الثَّبات والطَّمأنة والاستقرار النَّفسيِّ للجيش.

ثانيًا: أنَّ فيه إخبارًا بتفضُّل الله ومنَّته كيف كان تدبيره يسير في صالح المؤمنين، مع مراعاة الجانب النَّفسيِّ في دفعهم إلى المصادمة والالتقاء، وهو ما أشار إليه البقاعيُّ بقوله: "ثمَّ أتمَّ سبحانه تصوير حالتهم بقوله مبينًا ما أشار إليه مِن لُطف تدبره: ﴿إِذْ﴾ أيْ اذْكر إذْ أردت علم ذلك حين ﴿يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي الذي له صفات الكمال فهو يفعل ما يشاء ﴿فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ تأكيدًا لما تقدَّم إعلامه به مِن أنَّ المصادمة -فضلًا عمَّا نشأ عنها -ما كان إلَّا منه، وأنَّهم كانوا كالآلة التي لا اختيار لها"[1] .

وفي سياق هذا المشهد تُخيَّل صورةٌ يفترض السِّياق القرآنيُّ وجودها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ فخُيِّل جيش الكفار كثير العدَّة، عظيم المهابة، بغرض التَّذكير بفضل هذه النِّعمة، ثمَّ مايترتَّب على افتراض هذه الصُّورة، وهو الفشل والاختلاف والتَّنازع. هذا الافتراض يُشعر أنَّ منَّة الله ﷻ كانت تُظلُّ الجيش حتَّى في أدقِّ التَّفاصيل النَّفسيَّة التي يكون لها التَّأثير السَّلبيُّ على نفوس المقاتلين مِن المؤمنين. ويُشعر أنَّ المؤمنين إنَّما كانوا يتقلَّبون في ظلال توفيقه ومنَّته في طريقٍ معبَّدٍ للنَّصر.

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ [الأنفال:٤٤] يُخيَّل للسَّامع والقارئ تلك اللحظات التي امتنَّ الله فيها على عباده، فأراهم وقت اللقاء جيشَ المشركين قليل العدد والعُدَّة رؤيةً بصريَّةً، كما أنَّه في الوقت ذاته جعل المشركين يرون المؤمنين قليلي العدد والعدَّة. مصداقًا للرؤيا النَّبويَّة التي

(١) نظم الدرر: (٣/ ٢٢٢).

استبشر بها المؤمنون. والحكمة الإلهيَّة التي اقتضت هذا التَّدبير فيها تلطُّفٌ بالمؤمنين إذْ قوَّت بهذه الرُّؤية عزائمهم، وجعلت ساعات النَّصر والظَّفر تبدو قريبةً للمؤمنين، فالبُعد الإعجازيُّ في الرُّؤية كان بُعْدًا نفسيًّا في كسر حاجز الالتقاء، وإزالة الهيبة مِن جهةٍ، وفي الإجهاز على العدوِّ، والتَّنكيل به مِن جهةٍ أُخرى، فكانت هذه الرُّؤية بارقة الفتح. واستشعار تلك اللحظات وتخييلها للمؤمنين له موقعه في النَّفس، فيذكِّرها بالمنن، وأنَّها كانت ترفل في عطايا الله في تلك السَّاعات الحاسمة مِن بعد ما أخبر الله ﷻ بقوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ [الأنفال:٥] فتلك الكراهة مقابل هذا التَّفضُّل والإنعام يجعل العبْد المؤمن مبادرًا إلى الطَّاعة والامتثال والوسيلة التخييلية الظرف (إذ)، ونلحظ مجيء الواو مع الظرف لفكِّ الارتباط الزَّمني على عكس ما تقدَّم من مجيئ الظرف دون الواو إشارة إلى الوحدة الزَّمنية الممتدة.

ونلحظ أنَّ في تصوير الرُّؤيا جيء بالفعل ﴿يُرِيكَهُمُ﴾، والجملة تخلو مِن البعد الزَّمنيِّ، وتتابع الحركات مِن الفتحة والضَّمَّتين النَّاشئتين عن ضمير النَّصب الأخير أحدث تشاكلًا بين التَّخييل والصَّوت، فالرُّؤيا تُطوى فيها الأزمان، وتتابع تتابعًا يختفي فيه عامل الزَّمن، كما جاء تصوير الرُّؤية بقوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ فاتَّصل بضميريِّ النَّصب، لكن فَصلت بينهم الواو ذات الامتداد الصَّوتيِّ الذي يُوحي بالامتداد المكانيِّ، مع ورود الإشارة إلى العامل الزَّمنيِّ في الجملة، فشاكل الصَّوت الرُّؤية الواقعيَّة[(١)].

وتتضافر عناصر التَّخييل التَّركيبية مع التَّخييل الزَّمني لتصوِّر هول الموقف ففي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] يخيِّل القرآن صورةً مخزيةً للنِّهاية الأليمة للمنافقين والذين في قلوبهم مرض مستفتِحًا الصُّورة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ والجملة فيها تحفيزٌ للتَّخييل، واستثارةٌ للذِّهن بالفعل المضارع الذي يُبرز الصُّورة في لحظتها ماثلةً، ويستحضر

(١) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٥١١ و ٥١٢).

السِّياق الزَّمان عنصرًا فاعلًا في إثارة الحدث بقوله: ﴿إِذۡ﴾. والفعل ﴿يَتَوَفَّى﴾ عبَّر فيه بالمضارع ليتساوق مع الصُّورة الآنية، ويسهم التَّقديم والتَّأخير في حركة الصُّورة، فالمنظر متَّجهٌ إلى حال الذين كفروا بدايةً، وهم في الرَّمق الأخير مِن الموت، ثمَّ إلى فعل الملائكة بهم لحظة انتزاع أرواحهم، وهم في ذلك الموقف الرَّهيب، تخفق قلوبهم، وترتعد فرائصهم، وتختنق أنفاسهم، ثمَّ يجيء الوصف بالجملة الحالية ﴿يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾، والتَّعبير بالمضارع جارٍ على نَسَقِ بناء الصُّورة "فالإتيان بالمضارع في الموضعين مكانَ الماضي؛ لقصد استحضار تلك الحالة العجيبة، وهي حالة ضرب الوجوه والأدبار، ليخيّل للسَّامع أنّه يشاهد تلك الحالة"(١) والصُّورة هُنا صورةٌ مهينةٌ مفزعةٌ في الوقت ذاته لأولئك المنافقين والكافرين وهم في موقف ذلٍّ وانكسارٍ، والملائكة تضرب ما أقبل منهم وما أدبر، ومِن ذلك الوجوه، وخُصَّت بالذِّكر؛ لأنَّها موضع الكرامة والجمال، فالتَّعبير عمَّا أقبل مِن الإنسان بالوجوه مِن المجاز المرسل للجزئيَّة. ويكون التَّعبير بما أقبل وما أدبر كنايةً عن جميع البدن(٢)؛ لأنَّه عبَّر بالملزوم، وقصد اللازم، مع عدم منع شمول الملزوم بالمعنى. ومزيَّة التَّعبير به إثبات العموم بدليل شموليته بما أقبل وما أدبر. والدَّلالة على ذلك واضحةٌ قريبةٌ، فهي مِن المستوى الإشاريِّ في الدَّلالة الكنائيَّة.

وممَّا يزيد الصُّورة الغاية في التَّهديد، والعِظَم والشدَّة في العقاب حذف جواب الشَّرط؛ لتذهب النَّفس مع تخيُّل هول ذلك العقاب كلَّ مذهبٍ، وكأنَّ في ذكر عظم ذلك العقاب تقييدٌ لوصف شدَّته بوصفٍ معيَّنٍ، مع أنَّ العذاب لا يكاد يُحيط بشدَّته وصف.

والصُّورة يتداخل فيها الحسيُّ بالنَّفسيِّ، فهو عقابٌ حسيٌّ أَخْذًا بظاهر الصُّورة، وعقابٌ نفسيٌّ لما في الصُّورة مِن إهانةٍ وتحقيرٍ "والقرآن حين يعرض مشاهد العقاب

(١) التحرير والتنوير: (١٠/ ٤٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٤/ ٥٠٦).

الذي يصطليه أعداء الله لا يكتفي بعرض العقاب الحسيِّ، وإنَّما يُبرز أيضا جانب العقاب النَّفسيِّ؛ ليكون العقاب كاملًا، جسديًّا ونفسيًّا، وليكون الزَّجر به والتَّخويف منه أبلغ في النُّفوس"[1]

والمشهد التَّخييليُّ له أثره التَّرهيبيُّ في النُّفوس، فتحذُّرها مِن العقوبة الوخيمة لمن يسلك هذا المسلك، ففيه الوعيد لأعداء الله من الكفَّار والمنافقين ممَّن يتأرجحون بين الكفَّتين.

ويأتي العطف بالفاء مخيِّلًا سرعة العذاب وفجاءته، ليطوي الزَّمن بين مقارفة الذَنب وبين العقوبة التي حلَّت، فيعكس إحساس المعذَّبين بسرعة انقضاء اللحظة ففي قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٥٢]نجد التشبيه هنا يقوم على المقارنة بين موقف المشركين مِن الكفر بالله ﷻ وما آلوا إليه مِن النَّكال والعقاب بموقف آل فرعون والذين مِن قبلهم مِن الأمم السَّابقة، ووجه التَّشبيه مذكورٌ، وهو الكفر بالله ﷻ، وترتَّب العقاب عليه، ثم تأتي الفاء بين الذَّنب والعقوبة في قوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وفيه تخييل للسُّرعة التي طُوي فيها الزَّمن، كما أنَّ كلمة الأخذ تُوحي بتلك الخفَّة والسُّرعة، وعظيم التَّمكُّن والإحاطة في حقِّ الله ﷻ، كما تُوحي بالاستسلام مِن قِبَل المعذَّبين حتَّى أُخِذُوا كما يُؤخذ الأسير.

وأمَّا ما جاء في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾ [الأنفال:٥٤] فالتَّشبيه فيه مغايرٌ لما قبله، فالمشبَّه هُنا مستمدٌّ مِن الآية السَّابقة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال:٥٣] فالمشبَّه هو حال القوم الذين غيَّروا مابأنفسهم، فغيَّر الله عليهم أحوالهم بالعقاب، والمشبَّه به آل فرعون والذين مِن قبلهم

(١) التصوير الساخر في القرآن الكريم للدكتور عبد الحليم حفني: (٢١٣)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

مِن الأمم، ووجه الشَّبه هو التَّكذيب وما أعقبه مِن العقاب والهلاك. وقوله: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ هو تفصيلٌ للصُّورة المتقدِّمة في قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾. وفي ذكر هذين التَّشبيهين التَّأكيد على أنَّ هذه السُّنة الكونيَّة جاريةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وعليه يكون تحذير النَّاس مِن أنْ يُصيبهم ما أصاب أولئك. وكذلك نجد الفاء تعكس الإحساس بسرعة انقضاء الزمن بين الذَّنب والعقوبة فقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، وفي التَّخييل الزَّمني هنا تحذيرٌ للنَّفس مِن سَخَطِ الله، وعظيم غَضَبِه، وشدَّة عقابه.

ويأتي التّخييل الزَّمني متضافرًا مع التّخييل بالحوار، وإن بدا صوت الحوار أحاديا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[الأنفال:٤٨]، فيخيِّل السِّياق القرآنيُّ موقفين للشَّيطان، موقفٌ أظهر فيه وعده بالنُّصرة، وموقفٌ آخر للخذلان والنُّكوص والفرار، فأبرز الحدث باستحضار الزَّمن أولًا ثمَّ باستحضار شخوص الحدث: الشيطان، والضمير الذي يشير إلى جموع الكفر التي أرادت الصدَّ عن سبيل الله، وبقي صوت الشَّيطان في هذا التَّخييل هو الصَّوت الأبرز؛ لأنَّه المعنيُّ بإيضاح المفارقة بين موقفه قبل المعركة وبعده، ثمَّ حكى القرآن قول الشَّيطان وتزيينه: ﴿وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأغراهم بقوَّتهم وكثرتهم، ثمَّ عقد لهم الضَّمانات ليزداد غيُّهم: ﴿وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾، ثمَّ يفصل هذا الصَّوت ذكر الحدث الفاصل بين الموقفين: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ﴾، فجاءت الفاء لتقوم بالوظيفة التَّصويرية مِن خلال طيِّ الزَّمن، وكان مجرَّد التَّرائي كفيلًا بأنْ يقلب كلَّ الموازين؛ ولذلك خيَّل كيفيَّة الفرار في منظرٍ حركيٍّ: ﴿نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾، وعلى اعتبار القول القائل بأنَّ الأفعال والأقوال المنسوبة إلى الشَّيطان مجازيَّةٌ، وتأويل هذه الأقوال بالوسوسة، فالنُّكوص على العقبين في الصُّورة مِن الاستعارة التَّمثيليَّة، شبَّه بطلان كيده مع الإحكام بالرُّجوع

القهقرى على العقبين بجامع الخَيبة وعدم تحقيق المراد[1]، والأعلى في ذلك حمله على الحقيقة أخذًا بظاهر السِّياق عند ضعف القرائن المرشِّحة للحقيقة أو المجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ﴾ عاد السِّياق مرةً أخرى إلى صوت الشَّيطان، ولكنَّ المنطق مختلفٌ جدًّا، فالمنطق هنا منطقٌ تبريريٌّ، كأنَّنا نقف أمام صورةٍ تضطرب فيها القلوب خوفًا، فيفرّ فرار اللاهث الباحث عن النَّجاة، وهو في ذلك المنظر الرَّهيب يُلقي آخر كلماته؛ ليعلن براءته مِن كلِّ أتباعه في كلمةٍ موجزةٍ تتناسب مع إيقاع السُّرعة في النُّكوص والهروب، حتَّى حينما أراد أن ينقل تلك الصُّورة العظيمة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ﴾ فالموقف موقف رعبٍ وفزعٍ؛ ولذلك كان التَّخييل سريعًا في أدائه، متَّسعًا في دلالته، عميقًا في أثره؛ لتنطوي تحت (ما) الهول والعِظَم والشِّدَّة والبأس.

وفي معرض التَّذكير بما حصل من النَّصر والظفر في غزوة بدر في السِّياق الأُحديِّ، تعددت عناصر التَّخييل في المشهد باستحضار البعد المكانيِّ، والتَّخييل الزَّمنيِّ، وإبراز جانبٍ أحاديٍّ مِن الحوار في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣ إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٣-١٢٥] فيخيَّل في ذهن السَّامع أحداث غزوة بدر التي نصر الله فيها عباده المتوكِّلين، واستحضار ذلك كان بذكر المكان، بقوله: ﴿وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ﴾، وبدْرٌ اسم المكان الذي وقعت فيه الغزوة، واستحضار المكان يستدعي الأحداث التي وقعت في تلك الغزوة؛ ليستشعروا منَّة الله ﷻ عليهم، فيدفعهم ذلك إلى إخلاص التَّوكُّل عليه، كما أنَّ فيها تأكيدًا لقدرة الله ﷻ التي ظهرت في نصرة العدد القليل على الكثير، ويؤيِّد هذا الجملةُ الواقعةُ بعده موقع الحال: ﴿وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ﴾.

واستحضار الزَّمن يؤدِّي وظيفته التَّخييلية في استحضار مشاهد تلك الغزوة في

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٩/ ١٠١).

ذهن السَّامع بتخييله بالظَّرفيَّة(إذ)؛ ليستحضر الزَّمن المتَّسع للأحداث، ثمَّ نلحظ العُدول في صيغ الفعل إلى الفعل المضارع؛ ليُبرز الحدث كأنَّه حاضرٌ في لحظته في ذهن المخاطَب فيقول: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ و﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ﴾ واستحضار هذه اللحظات العصيبة في ذهن المخاطَب يذكِّره بسابق التَّفضُّل والإنعام مِن الله ﷻ كيف أمدَّهم بنصره، وطمأن نفوسهم، وسكَّن قلوبهم في ساعةٍ تزيغ فيها القلوب والأبصار.

كما أنَّ طريقة الحوار تبرز صوتًا واحدًا، ونستطيع أنْ نفهم مِن الاستفهام الإنكاريِّ طبيعة الموقف النَّفسيِّ الذي كان يسود فيه القلق، كلُّ ذلك يتضافر مع السِّياق؛ ليُخيِّل تلك اللحظة العصيبة"وكثيرًا ما يشترك الوصف، والحوار، وجرْس الكلمات، ونغم العبارات، وموسيقى النَّص، في إبراز صورةٍ مِن الصُّور، تتملَّاها العين والأذن، والحُّس والخيال، والفكر والوجدان"[1].

وفي هذا السِّياق تجدر الإشارة إلى القيمة الوظيفيَّة لذكر العدد في بعده النَّفسيِّ وأثر ذكره في البشارة والطمأنينة، وتفوُّق العدد على عدد جيش العدوِّ، فالأعداد المذكورة هنا"مناسبة لجيش العدوّ لأنّ جيش العدوِّ يوم بدرٍ كان ألفًا فوعدهم الله بمدد ألفٍ مِن الملائكة، فلمَّا خشُوا أن يلحق بالعدوِّ مددٌ مِن كُرْز المحاربي وعدهم الله بثلاثة آلافٍ أيْ بجيشٍ له قلبٌ وميمنةٌ وميسرةٌ كلُّ ركنٍ منها ألفٌ، ولمَّا لَمْ تنقشع خشيتهم مِن إمداد المشركين لأعدائهم وعدهم الله بخمسة آلاف، وهو جيشٌ عظيمٌ له قلبٌ وميمنةٌ وميسرةٌ ومقدِّمةٌ وساقةٌ، وذلك هو الخميس، وهو أعظم تركيبًا، وجعل كُلَّ ركنٍ منه مساويًا لجيش العدوِّ كلِّه"[2].

ويأتي التَّخييل موقعا أثره في ذهن السّامع بإثارة عنصري الزَّمان والمكان، ليضع

---

(١) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب: (٣٧)، نشر دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ٧٧).

المتلقِّي في خارطة الحدث، وأجوائه المتوتِّرة كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]، فبعد أنْ وجَّه الله ﷻ الأمر للمؤمنين بقسمة الغنائم على النَّحو الذي فرضه عليهم، رغَّبهم في ذلك بالتَّذكير بمنَّة الله عليهم يوم بدْر، وكيف حقَّق الله على أيديهم الظَّفر والنَّصر مِن غير حولٍ منهم ولا قوَّةٍ، وجعلهم آية تحقَّقت بهم قدرة الله عيانًا، فخيَّل في ذهن السَّامع تلك الأحداث، مستثيرًا اللحظات الحاسمة؛ ليجعل المخاطَب يتمثَّل الصُّورة في ذهنه، كأنَّه يعيش تلك الحالة العجيبة.

فاستحضر الزَّمان مع الحدث: ﴿يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ﴾، واستحضار الزَّمان هو استثارة للذِّهن لاستحضار الأحداث الجارية فيه، ثمَّ جاء التَّذكير بالحدث في صورته العامة يوم التقى الجمعان، وهي صورةٌ تُظهر الفريقين في حالة الالتقاء والالتحام، ثمَّ يرتفع مستوى التَّخييل للدُّخول في تفاصيل الحدث، بانتقائيَّةٍ دقيقةٍ لعناصر التَّخييل، يقول الله تعالى: ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ﴾ فعناصر التَّخييل هُنا قائمةٌ على إثارة الجانب المكانيِّ في الصُّورة مع ذكر الجموع، جمع المؤمنين، وهم المخاطَبون، وجمع المشركين المقاتلين، والرَّكب الذي سار به أبو سفيان باتِّجاه السَّاحل. أمَّا مواقعهم فالمؤمنون كانوا بالعُدوة الدُّنيا، وهو جانب الوادي الأقرب إلى المدينة النَّبويَّة، والمشركون كانوا في الجانب الآخر الأبعد، والرَّكب كان أسفل، أيْ باتِّجاه ساحل البحر، كان تحديد المواقع بهذا الإيجاز استثارةً للذِّهن، لها موقعها التَّثقيفيُّ في النَّفس؛ لأنَّ ذكر مواقع الجيشين والرَّكب كان المقصد منه التَّذكير بأنَّ الصُّورة بهذه المواقع كانت دالَّةٌ على تمكُّن العدوِّ، وتحقُّق أسباب الغَلَبَة له، بسبب تمركزه في المكان مِن جهةٍ، وبسبب وقوع المسلمين بين جماعتي الكُفر، فلو علموا بذلك لأطبقوا على المؤمنين(١)، فالله ﷻ يتفضَّل على المؤمنين

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ١٧).

فيقول لهم: إنَّ ظاهر الأمر لمْ يكن في صالحكم، وإنَّ تدبير المعركة المُشاهد كان يسير في مصلحة عدوِّكم، والشاهد على هذا هو ذلك الموقع الصعب الذي كنتم فيه، ولكنَّه أنزل عليكم نصره المؤزَّر، وشملكم بعنايته وفضله.

استشعار هذا اللطف الإلهيِّ يغرس في النَّفس معلمًا مِن معالم التَّثقيف وهو التَّرغيب في صدق التَّوكل على الله ﷻ، وتفويض الأمر إليه، بعد أنْ يأخذ المسلم بالأسباب، ويعدُّ العُدَّة للقتال، فالمعركة وإنْ كانت ظواهرها لا تشير إلى النَّصر. إلَّا أنَّ صدق النِّيَّة المصحوب بالعمل بالأسباب كان كافيًا لأنْ يأذن لهم بالظَّفر مِن عند الله ﷻ؛ لأنَّ الله طلب الصِّدق مِن عباده، ووعدهم بالنَّصر والتَّمكين، فإذا حقَّقوا الشَّرط تحقَّق المشروط.

كما أنَّ في الصُّورة تخييل بأسلوب البديع بالطِّباق بين الدُّنيا والقصوى "والوصف بالدُّنيا والقصوى يَشعُر المخاطَبون بفائدته، وهي أنَّ المسلمين كانوا حريصين أنْ يسبقوا المشركين إلى العُدوة القصوى؛ لأنَّها أصلب أرضًا فليس للوصف بالدُّنوِّ والقصُوِّ أثرٌ في تفضيل إحدى العُدوتين على الأخرى، ولكنَّه صادف أنْ كانت القصوى أسعدَ بنزول الجيش، فلمَّا سبق جيشُ المشركين إليها اغتمَّ المسلمون، فلمَّا نزل المسلمون بالعُدوة الدُّنيا أرسل الله المطر وكان الوادي دَهْسًا فلبَّد المطرُ الأرضَ، ولَمْ يُعقهم عن المسير، وأصاب الأرض التي بها قريش فعطَّلهم عن الرحيل، فلَمْ يبلغوا بدرًا إلَّا بعد أنْ وصل المسلمون، وتخيَّروا أحسن موقعٍ، وسبقوا إلى الماء"(١).



(١) السابق: (١٠/ ١٦).

المَبْحثُ الثَّاني:
التَّخييل بالأساليب التَّصويرية

التَّخييل بالحقيقة:

التّخييل بالحقيقة نقلٌ لصورة الحدث، يثيرها الخطاب القرآنيُّ في أذهان المخاطبين، وقد تكون تلك الحقيقة غيبيةً، فتبرز بلاغة التَّعبير بالحقيقة لاقتضاء السِّياق عدم الالتباس، وهكذا تجد تخييل المعنى بالحقيقة في سياقه أبلغ مِن المجاز "فإن آيات القرآن تبرز الحقائق في قيمة تأثيرية لا تقل عن بلاغة التَّصوير المجازي. فالبلاغة قد تقتضي التَّوضيح والتَّحديد، كما قد تدعو إلى التَّأكيد أو الوفاء بالمعنى عن طريق الإشارة والرَّمز، ولكلِّ موقفٍ ما يناسبه مِن الأداء، عن طريق الحقيقة أو التَّصوير بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر في نقل المعنى"[1].

وفي سياق ذكر المدد الغيبيِّ الذي نصر الله به المؤمنين جاء التَّخييل في قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ﴾ [الأنفال:١٢] لإثارة صورةٍ حقيقيَّةٍ، وهي صورة الوحي الذي تلقَّته الملائكة مِن الله ﷻ، وجاء التَّخييل على الحقيقة نقلًا لصورة غيبيَّة غير مشاهدةٍ إلَّا أنَّها ثابتةٌ يقينًا، فجاء التَّخييل بالحقيقة في هذه الآية موقعًا في النَّفس أثر الجلال الإلهي، وهو يشعر النَّفس أنَّ خلف ذلك النَّصر والظَّفر تدابير غيبيَّة، فالوحي أمرٌ غيبيٌّ لَمْ يُشاهده المؤمنون، وذلك يحقِّق لهم معنى التَّوكُّل على الله؛ لأنَّهم حين يعلمون أنَّ خلف المُشاهد والمرئيِّ أمورًا يُقدِّرها الله ويدبُّرها، فلا يعلمها إلَّا هو، يكون ذلك داعيًا إلى الثِّقة بموعود الله، فيصدق تَوكُّل المؤمنين على الله والالتجاء إليه، وإن بدا في الواقع المشاهد اختلاف القوى وفق المعايير الماديَّة البحتة.

---

(١) من جماليات التصوير في القرآن الكريم لمحمد قطب عبد العال: (٢٨٦)، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٦م.

وحين يذكر معيَّته لعباده المؤمنين، فتستبشر النُّفوس بمعيَّته، وهي تستحضر قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ فتستبسل في القتال، وفي المقابل ففي هذا الجلال إرهابٌ للقوى الكافرة، وهي تحارب كلمة الله، فيخلع قلوبهم قوله: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ فما قيمة القوى الكافرة أمام معيَّة الله وسلطانه

ومن صورة المدد الغيبيِّ إلى صورةٍ مفزعة تتجلَّى فيها معالم التَّهديد والوعيد لمن فرَّ من الزَّحف يوم اللقاء في قوله تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الأنفال:١٦]، ففي قوله تعالى: ﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تخييلٌ لموقفٍ عظيم، حين يظنُّ الفارُّ مِن ملاقاة عدوِّه رجوعه هاربًا بحياته، ومؤثرًا الحياة الدُّنيا على الآخرة، يظنُّ اصطحابه لحياةٍ جديدةٍ ولدت يوم أنْ نَجَى، تخييل لتلك الصُّورة وقد عاد مُصطحبًا غضب الله عليه، في صورةٍ ناطقةٍ بالوعيد الشَّديد، زيادةً على ما في غضب الله ﷻ مِن مهابةٍ فهو موقفٌ مِن مواقف الجلال.

وقوله: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾ في ظلِّ تلك الصُّورة المفزعة، يمتدُّ ظلٌّ آخر مِن ظلال التَّخييل، مثيرًا في الذِّهن صورةً أخرى مع ذلك الفارِّ الذي عاد بالخيبة والوبال، يبحث عن مفرٍّ أو مأوىً يلوذُ به، فيجد جهنَّم بحرِّها وزفيرها دارًا أُعدَّتْ لتأويه حين وتنجيه مِن فناء الدُّنيا لتلقيه في جحيم الآخرة.

صورةٌ متعددة الخيوط، تنسج موقفًا رهيبًا، تهتزُّ القلوب لفرْط شدَّته، وهول عواقبه، وكلُّ خيْطٍ يمثِّل في الآن ذاته صورةً مفزعةً.

فالتَّنفير من النكوص والانهزام هو معلمٌ مِن معالم التَّثقيف النَّفسيِّ التي تتضافر عناصر التَّخييل لإبرازها في هذا السِّياق، وهي صورٌ تتجاذب النَّفس فيها بين تقبيح العمل، والتَّنفير منه وبين التَّهديد والوعيد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [الأنفال:٤٧] يُخيِّل في نفوس المتلقِّين صورةٌ

منفرةٌ يراد تحذير المؤمنين منها لما لها من عواقب وخيمة، فأُبرز الحدث مِن خلال تأمُّل أسباب النَّصر والهزيمة، فخُيِّل خروج تلك الشرذمة الباغية مِن الدِّيار، مع ما في وصف الدِّيار مِن التَّجمُّع بعد الافتراق، فخرجوا على أسوأ صورةٍ، والسِّياق القرآنيُّ هُنا يتجاوز ظاهر الأشياء إلى مكنونات الضَّمائر، وما يختلج في القلوب مِن البَطَرِ والرِّياء، وهذه مزيَّة القَصَصِ القرآنيِّ، فهي تُبرز تلك الخلجات التي لا يستطيع الاطِّلاع عليها ولا إبرازها إلَّا العليم بذات الصدور، ثمَّ أبرز حالًا آخر، وهو الصَّدُّ عن سبيل الله، وإطلاق (سَبِيلِ الله) على الطَّريق الموصل إلى رضا الله أقام في النَّفس وضوح هذا الطَّريق؛ لأنَّه طريقٌ واحدٌ، وسبيل واحدٌ، وليست سبُلًا، كما أنَّ إطلاق التَّركيب (سبيل الله) يُوحي بأنه مَعْلمٌ بارزٌ واضحٌ لا يُخطِئُه السَّائر نحوه، والقاصد إليه.

وفي تخييل الصُّورة حثٌّ على اجتناب مماثلة هذه الفئة في صورة الخروج، والتزام الإخلاص، وتذكُّر نعمة الله ﷻ والدعوة إليه.

التَّخييل بالتَّشبيه:

يعدُّ التَّشبيه وسيلةً مِن وسائل التَّخييل التي تعرض الحالة النَّفسيَّة الشعوريَّة في مشهدٍ مرئيٍّ يُحيط بتلك المشاعر، ويصوِّرها تصويرًا دقيقًا يجسِّد التفاصيل. بغية إبراز وقع اللحظات العصيبة، لاستشعار حجم المنَّة الإلهيَّة، ففي قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٥-٦]نلحظ بداية استحضار البُعد المكانيّ في القصَّة وما يجري فيها مِن أحداثٍ ووقائع، وحدث الخروج هو الحدث الأوَّل والنُّقطة الأولى التي تبتدئ منها القصَّة، وجاء السِّياق ليبتدئ مِن الخطوة الأولى نحو النَّصر.

والقرآن الكريم يبرز الصُّورة الظَّاهرة تارةً، ويتعمَّق في كوامن النَّفس تارةً أخرى، فالسِّياق هنا ذكر الكُره وهي حالةٌ شعوريَّةٌ خفيَّةٌ، ثمَّ أبرز صورتها الظَّاهرة المتمثِّلة في الجدال ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ والتَّعبير بالفعل المضارع ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ فيه

إبرازٌ لتلك الصُّورة حاضرةً في الذِّهن، وجاء التَّعبير به ليجعل المتلقِّي في قلْب الحدث يستمع إلى جدالهم، فصورة الجدال بذاتها صورةٌ حيَّةٌ لما فيها مِن مقارعةٍ بالكلام، فإذا أُضيف إلى ذلك إحضارها في صورةٍ آنيَّةٍ كانت صورةً سمعيَّةً مشاهدة.

والفزع والقلق والخوف الذي ملأ قلوب فريقٍ مِن المؤمنين -والرَّسول ﷺ قدْ وعدهم النَّصر والظَّفر- قد بلغ مبلغًا عظيمًا، وكان هذا داعيًا إلى العُجب والتَّعجيب مِن حالهم بعد أنْ ظهرت أمارات النَّصر والتَّمكين، فجاء التَّعبير عن هذه الصُّورة الخفيَّة في النُّفوس كمن يُساق ذليلًا مستسلمًا إلى الموت، وهو ينظر لأسبابه لا يشكُّ في ذلك[(١)].

وصورة المشبه به هنا مكوَّنةٌ مِن ثلاثة عناصر ﴿يُسَاقُونَ﴾ و ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ و﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ وكلُّ صورةٍ مِن هذه الصُّور تزخر بالإيحاءات والظِّلال النَّفسيَّة.

وقوله: ﴿يُسَاقُونَ﴾ أي يُدفعون مِن الخلْف في منْظرٍ ذليلٍ تخفق له القلوب، وترتعد عنده الفرائص، مستسلمين خاضعين، في منظرٍ تزدحم فيه الوجوه، ويعلوها الصَّغار والذُّلُّ، وجاء التَّعبير بصيغة المضارع حاضرًا كأنَّك تشاهدهم اللحظة، كما بُني الفعل للمفعول لأنَّ العناية بالصُّورة هُنا بالفعل ذاته لا إلى كونه مِن فاعلٍ معيَّنٍ[(٢)]، فاختفى السَّائقون خلْف هذه الصُّورة، ولَمْ يظهر سوى المسوقين؛ لنتفرَّس في وجوههم، ونلمح قرارة أنفسهم[(٣)].

ثمَّ ينهض القيد بزيادة التَّعجيب، فهذا السَّوق ﴿إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ فهم لا يُساقون ليُنفَوا، ولا يُساقون ليُضربوا، إنَّما يُساقون للفناء، وقطْع آمالهم عن الحياة، ومِن العَجَبِ أنْ يُساق المرء في هذه الصُّورة المهينة دون أدنى مقاومةٍ، ثمَّ زاد التَّعجيب

(١) ينظر: الكشاف: (٢/ ١٤٨).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ١٨٦).

(٣) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٥٠٤).

بقوله: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ لأنَّه أشدُّ لحالهم أنْ يكونوا ناظرين له، عالمين به[1]، كما أنَّ في التَّعبير بقوله: ﴿وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ كنايةً؛ لأنَّه عبَّر بالملزوم وهو النَّظر إلى الشيء وأراد الجزم به، والقطع بوقوعه[2]، فهو من الكناية عن الصِّفة، ومستوى الدَّلالة إشاريٌّ لقرب دلالة الملزوم مِن اللازم المراد التَّعبير عنه، وتظهر مزيَّة التَّعبير به لما للملزوم مِن أثرٍ عميقٍ في الجزم والقطع بوجود الشيء، كما أنَّه إثبات للمعنى بدليلٍ.

وجاء الفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾ بالمضارع متساوقًا مع الصُّورة الآنيَّة الحاضرة، والفاصلة هُنا جاءت متمكنةً نَغَمًا ومعنًى، فالتَّقييد بحال النَّظر أعطى خصوصيةً للمعنى، وهو أنَّ حال النَّاظر إلى الموت وهو يرى أسبابه أشدُّ فزعًا؛ لأنَّها تنقطع حينها الآمال بالمُشاهد؛ "لأن للحسِّ مِن التَّأثير على الإدراك ما ليس لمجرَّد التَّعقُّل"[3].

فالتَّشبيه مركَّبٌ[4]، شُبِّه فيه حال فزعهم واضطرابهم وقلقهم في الخروج إلى قتال المشركين بصورة الذي يُساق إلى الموت وهو ينظر إليه، وحُذف وجه الشَّبه، وهو القلق والاضطراب والفزع الشَّديد، فهو تشبيهٌ مرسلٌ مجمَلٌ، فقوله: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ﴾ ليس المشبَّه، بلْ دالٌّ على المشبَّه[5]، وحَذْفُ وجه الشَّبه أسلوبٌ مِن أساليب تخييل المعنى لتذهب معه النَّفس كلَّ مذهبٍ.

القرآن الكريم أخرج حالة الإحساس بالفزع، واستلَّها مِن أعماق النُّفوس،

---

(١) ينظر: النكت والعيون: (٢/ ٢٩٦).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٣١).

(٣) التحرير والتنوير: (٩/ ٢٦٨).

(٤) التشبيه المركب: هو أن تكون الصورة مركبة من شيئين أو أكثر، فالتشبيه قائم في الصورة المتداخلة من هذه العناصر لا من تعددها دون تركيب. ينظر: أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني: (١٦٩) ومعجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب: (٢/ ٢٠١) نشر الدار العربية للموسوعات، الحازمية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

(٥) ينظر: حاشية الطيبي على الكشاف: (٧١/ ب).

وجعلها صورةً حيَّةً مشاهدةً، مع فارق المآل والغاية في الحقيقة. جاءت هذه الصُّورة لتستنكره نفوسهم؛ لبُعد مابين الصُّورتين في حقيقة الأمر؛ لأنَّ حقيقة ما هم فيه أمرٌ اختاره الله ﷻ لهم، وأيَّدهم فيه بنصره، وأظهر لهم أمارات الظَّفر، فالموت فيه موتٌ مَظنونٌ، كما أنَّ تصوير الموقف بهذه الصُّورة الذَّليلة المهانة داعيةٌ لهم لاستنكار ماهم فيه، والتَّبصُّر بحقيقة الموقف، كما أن الله ﷻ أوقع هذا المعنى في النُّفوس إيقاعًا مؤثِّرًا، فهو لَمْ يعاتبهم معاتبةً صريحةً، إنَّما أخرج لهم الصُّورة المعنويَّة في صورةٍ حسيَّةٍ حيَّةٍ مشاهدة، ثمَّ تركهم إلى ضمائرهم ليتدبَّروا ويتأمَّلوا.

كما نلحظ أنَّ الصُّورة تشترك في رسمها المشاعر التي ترتعد عند لفظة الموت، وبما يحمله استحضار هذا اللفظ في الصُّورة مِن ظلالٍ نفسيَّةٍ، وتشترك الحواس في السَّوق والنَّظَر، وهي صورةٌ بليغةٌ اجتمع فيها البُعدان.

وبهذا التَّشبيه الذي يعكس الحالة الشعورية، والقلق الذي اعترى فريقًا مِن المؤمنين يدرك المؤمن القارئ والمستمع عظيم فضله عليهم، إذ سكَّن تلك النُّفوس، وكتب لهم النَّصر والظَّفر بعد أنْ كانت هذه حالتهم.

التَّخييل بالمجاز:

للتَّخييل بالمجاز مسالك عدَّة، يعمد إليها السِّياق ليثير صورًا محمَّلة بدلالاتٍ يراد الإشارة إليها، أو لتقريب صورة ما إلى النُّفوس لإشعارها بتلك الفضائل والمنن، ومن مسالك التَّخييل بالمجاز:

١-الاستعارة:

تعود فاعلية الاستعارة إلى ما تحمله الكلمة المعبَّر بها من دلالات وإيحاءات، مع ما يفرضه الانتقال من الدلالة الأصلية إلى الدلالة المستعارة من المبالغة والتأكيد"ومن خصائصها التي تُذكرَ بها، وهي عنوان مناقبها، أنَّها تُعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ، حتى تُخرجَ من الصدَفة الواحدة عِدّةً من الدُّرَر، وتَجْنِيَ من الغُصْن الواحد

أنواعاً من الثَّمر"(١)، والتَّخييل بالاستعارة في القرآن الكريم يعمل على تعميق الوعي، والتأثير على الشُّعور، من خلال التَّنبيه إلى المقاصد العظيمة التي خُلقنا مِن أجلها(٢) .

ومن تلك الصُّور التي يخيِّلها القرآن في ذهن السّامع ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنفال:٧-٨].

جاءالمشهد التَّخييليُّ لصورة الحرب وما فيها مِن شدَّةٍ وبأسٍ وسلاحٍ معبِّرًا عنها بالشَّوكة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾ فالشَّوكة في أصلها نبْتٌ معروف بالحدَّة، فاستُعير للحدَّة في الحرب، والحدَّة مفسَّرةٌ بالبأس والشِّدَّة، أو هي حدَّة السِّلاح(٣).

فالصُّورة المخيِّلة إنْ كانت حدَّة البأس والشِّدَّة، فهو إخراجٌ لها مِن صورتها المعنويَّة إلى صورةٍ محسَّةٍ(٤)، وإنْ كانت حدَّة السِّلاح، فهو مِن نقل المُحَسِّ إلى المُحَسِّ للمبالغة في التَّشبيه. والاستعارة تصريحيَّةٌ أصليَّةٌ عبَّر فيها بالمشبَّه به، وهو الشَّوكة، وطُوي ذكر المشَّبه، وهو الشِّدَّة والبأس في الحرب، أو حِدَّة السِّلاح بجامع الإيلام والإيذاء في كليهما، وهي استعارةٌ أصليَّةٌ؛ لأنَّها جاريةٌ في الاسم.

ومزيَّة التَّعبير به أنَّه أشار إلى مناط الحذر والقلق والفزع الذي كَرِهَ لأجله فريقٌ مِن المؤمنين القتال في بداية المعركة، فكان التَّعبير به تصريحًا بما كان يدور في نفوس فريقٍ منهم، وهو ما أوجزه الرمَّانيُّ بقوله: "فذَكَرَ الحدَّ الذي به تقع المخافة، واعتمد

(١) أسرار البلاغة: (٤٣).

(٢) ينظر: البلاغة القرآنية "دراسة في الصورة الفنية" للدكتور محمد محمود القاسم: (١٩٩) نشر مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(٣) ينظر: النكت والعيون: (٢/ ٢٩٧).

(٤) ينظر:التحرير والتنوير: (٩/ ٢٧٠).

على الإيماء إلى النُّكتة"[١].

وجاء التَّعبير بالشَّوكة عن الحرب والنَّفير مخيِّلًا المعنى، كيف تمثَّل في نفوس فريقٍ مِن المؤمنين، فالصُّورة التي كَشَفَ عنها السِّياق صورةٌ استلَّها مِن أعماق الشُّعور، وخبايا الصُّدور، وفي التَّصريح بها ونقلها تعجيبٌ مِن ذلك الخوف والفزع.

ولذلك عدَّها الشريف الرَّضي مِن "أشرف البلاغة، وأوقع الاستعارة؛ تشبيها بالشوكة تخزُّ، والمدية التي تحزُّ"[٢]

ومِن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ فهي مِن الكناية التي بُنيت على الاستعارة[٣]، أمَّا الاستعارة ففي قوله (يقْطع)، لأنَّ المقصود الإهلاك، فعبَّر بالقطْع عن الإهلاك بجامع الزَّوال والانتهاء في كليهما، فيكون مِن الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في الفعل، وهو مِن نقل المحَسِّ إلى المحَسِّ، والمزيَّة إبراز تحقُّق الفناء بالقطع لما فيه مِن الدَّلالة على السُّرعة والإبطال ما ليس في الهلاك، فحقَّقت المبالغة لترهيب الكافرين مِن موعود الله.

وجاءت الاستعارة في (يَقْطَع) بطريقة الاستعارة التَّصريحيَّة؛ لأنَّ سياق الآيات دالٌّ على أنَّ القصد متَّجهٌ إلى المبالغة في وصف فعل الإهلاك ذاته؛ لكي يُحقَّ الحقَّ، ويُبطل الباطل، وفي ذلك وعيد وتهديد للكافرين.

أمّا الكناية؛ فلأنَّه عبَّر بإهلاك دابر الكافرين عن إهلاكهم كلِّهم واستئصالهم،

---

(١) النكت في إعجاز القرآن" ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ": (٨٩).

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن: (٨١)، تحقيق: د. علي محمود مقلد، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، دون ت. ط.

(٣) أي أن الاستعارة دخلت في طبيعة الكناية وصياغتها فصار أداء المعنى يلاحظ فيه الاستعارة أولا ثم تنطلق إلى أفق أرحب بوقوعها موقع الإشارة والرادف لمعنى آخر. ينظر: التصوير البياني " دراسة تحليليّة لمسائل البيان " للدكتور محمد محمد أبو موسى: (٤٠١)، نشر مكتبة وهبة مصر - القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٥ هـ/ ٢٠٠٤ م.

فعبِّر بالملزوم وهو إهلاك آخرهم ودلَّ ذلك على اللازم لأنَّه قَطْعٌ لآخرهم بشرط الإهلاك مِن أوَّلهم[1] فهو مِن الكناية عن صفة الهلاك التَّام، وهي كنايةٌ إشاريَّةٌ؛ لأنَّ المعنى الملزوم دالٌ على اللازم، قريبٌ منه دون بُعدٍ أو وسائط.

ومزيَّة هذه الكناية إثبات استئصال الكافرين وإهلاكهم بهلاك آخرهم، فيشملهم العذاب جميعًا أوَّلهم وآخرهم، فإثبات المعنى في هلاك الآخر دلَّ على هلاك الأوَّل. والتخييل يُكسب الموقف جلالًا ورهبةً، فهي صورةٌ مِن الهلاك سريعةٌ مفنيةٌ، فإذا كان هذا الهلاك واقعا بآخرهم فكيف بأولهم؟!.

كما أنَّ للحرف أثره في تخييل المعنى، فقد جاء تكرار حرف القاف بما تميَّز به مِن شدَّةٍ وجهرٍ[2] مفيدًا أثرًا نفسيًّا، يوحي بالقعقعة والشِّدَّة في مثل: (يُحِقُّ، الحقُّ، يَقْطَع).

ومِن التَّخييل البديع الاستعارة المكنيَّة في سياق التَّذكير بالمنن في قوله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال:١١]فشُبِّه النُّعاس الذي غَلَبَ عليهم بالشَّيء السَّاتر الذي يغشاهم، بجامع الحجْب، بإلحاق المعقول بالمحسِّ، ثم طُوي ذلك، وأُثبت للمشبَّه شيئًا مِن لوازم المشبَّه به، وهو السِّتر والتَّغطية والتَّغشية، وهو ضربٌ مِن المبالغة في المعنى ليخيِّل كيف سيطر النُّعاس على تلك الطَّائفة المؤمنة. وتجري هذه الاستعارة كذلك في قراءة" إذْ يُغْشِيكُم النُّعاس" مع ملاحظة أنَّ إسناد التَّغشية والإغشاء إلى الله ﷻ

أمَّا على قراءة"إذْ يَغْشَاكُم النُّعاس" فتجري عليه الاستعارة المكنيَّة كما سَبَقَ، غير

---

(١) المحرر الوجيز: (٨/ ١٨).

(٢) الشدة: ضد الرخوة، وهي من صفات القوة، ويقصد بها امتناع الصوت أن يجري في الحروف. وحروفها مجموعة في قولك: (أجد قط بكت) والجهر: ضد الهمس، وهو من صفات القوة، ويقصد به منع الحرف النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه، وحروفه عدا حروف الهمس المجموعة في قولك: (سكت فحثه شخص). ينظر: النشر في القراءات العشر: (١/ ٢٠٢).

أنَّـه أَسـند(غَشِيَ) إلى النُّعـاس، وهـذا يعنـي أنَّ هـذه القـراءة أكثـر تخييلًا لأنَّها خيَّلـت النُّعاس ذاته قائمًا بالفعل.

ويأتي الصَّوت عنصرًا فـاعلًا في التَّخييـل، فالشِّـين تُـوحي بالانتشـار والتـدرُّج، والسين بهمسها بعد المدِّ تُوحي بسكون الليل وهدوئه، ثمَّ تأتي الحَرَكَات المتابعـات في أَمَنَةٍ لتُخيِّل الأَمْنَ، وهو يدبُّ دبيبًا، شيئًا فشيئًا بهدوءٍ[1].

ففي قوله﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ ﴾نقـلٌ لهـذه الصُّـورة المعنويَّـةِ للنُّعـاس، في إطـارٍ حسِّيٍّ ليتمكَّن المعنى في النُّفوس، وتستشعر تلك الآيـة المعجـزة التـي مـنَ الله فيهـا عـلى عباده رغم مـا أصـابهم مِـن خـوفٍ وقلـقٍ، فكـان النَّعـاس كالسِّـتار المديـد الـذي غَشِيَ العقول والأبدان، فحقَّق لها الاسترخاء والرَّاحة، وجاء الفعـل مخيِّلًا؛ ليجعـل السَّـامع في صورةٍ آنيَّةٍ حاضرةٍ، ثمَّ يأتي قولـه تعـالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾فيمـد ظـلال الهـدوء والأمـان لهذه النُّفوس.

وكـذلك قولـه تعـالى ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾استُعير الـرَّبط للتَّثبيـت بطريقـة الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّـة، فشُبِّه تثبيـت القلـب في مـواطن القتـال بـالرَّبط وإحكـام الوثاق على الشَّيء، فصرَّح بذكر المشبَّه به بعد أنْ ألحق المعنـويَّ بالحسِّيِّ. و﴿عَلَىٰ﴾تُفيـد الاستعلاء، فكأنَّ هـذه القلـوب امـتلأتْ حتَّـى عَلَـتْ عـلى هـذا الـرَّبط[2] فهـو ترشـيحٌ للاستعارة[3]، ومزيَّة هذه الاستعارة تجسيد معنى التَّثبيت وأثره في ثبات القلوب حتَّـى كأنَّـه رَبَـطَ عليهـا؛ دلالـةً عـلى تمكينـه وإحكامـه في مواضـع القتـال، فاطمأنَّـتْ تلـك القلوب، وسكنت بعد أن فزعـت. وتجـد معنـى الاسـتعلاء في الحرْف متَّفقًـا مـع روح النَّظم، إذْ ينشر معنى تغشية الله لهذه القلوب، وما أفاضه عليهـا مِـن الثِّقـة والاطمئنـان

(١) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٥١٠).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٣٩) والتحرير والتنوير (٩/ ٢٨٠).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: السابق.

حتَّى أحاطها بغطاء الأمن والثَّبات، بعد أنْ بَسَطَ عليها يده ﷻ[1]، أمَّا البقاعيُّ فيُفهم مِن كلامه عدَّها مِن الاستعارة المكنيَّة إذْ يقول: "﴿لِيَرْبِطَ﴾ أي بالصَّبر واليقين. ولمَّا كان ذلك ربطًا محكمًا غالبًا عاليًا، عبَّر فيه بأداة الاستعلاء فقال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أيْ بعد إسكانها الوثوق بلطفه عند كلِّ ملمَّةٍ حتَّى امتلأت مِن كلِّ خيرٍ، وثبت فيها بالرَّبط، فشبَّهها بجرابٍ مليءٍ شيئًا، ثمَّ ربط رأسه حتَّى لا يخرج مِن ذلك الذي فيه شيء"[2] فالرَّبط هنا جارٍ على الحقيقة، وإنَّما شُبِّه القلوب بما تحويه بالجراب المملوء، ثمَّ طوى ذكر المشبَّه به وأثبت للمشبَّه شيئًا مِن لوازم المشبَّه به، وهو الرَّبط، فألحق بهذه الاستعارة المحَسَّ بالمحَسِّ؛ لتقريب صورته، ولوضوحه في المشبَّه به أكثر مِن المشبَّه، وتبرز قيمة الاستعارة في المبالغة في وصف امتلاء القلب وثباته.

والأعلى أنْ تكون الاستعارة تصريحيَّةً تبعيَّةً، ذلك أنَّ السِّياق موجَّهٌ إلى إثبات نعمة الله وتفضُّله في تهدئة النُّفوس، وإسكان القلوب، وزَرْعِ الطمأنينة، وإذهاب القلق والوجل. وبناء الاستعارة على المبالغة في هذا التَّثبيت والتَّسكين تقوم به الاستعارة في الفعل فيكون مِن الاستعارة التَّصريحيّة التّبعيَّة، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ ينفرد ظلال هذا التَّخييل بمعاني التَّثبيت والإعانة والنُّصرة، كيف أنَّه سبحانه تلطَّف بهذه النُّفوس حين آزرها وقوَّاها، فينشأ مِن معنى المبالغة في التَّثبيت الطمأنينة والسُّكون.

وفي سياق التَّهديد والوعيد للكافرين جاء التَّعبير بالإلقاء استعارةً في الجعل والتَّكوين في قوله تعالى ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[الأنفال:١٢] وذلك أنَّ الإلقاء فيه معنى الطَّرح مِن الأعلى إلى الأسفل، فجُعل لسرعة تكوُّنه في قلوبهم وإيقاعه إيقاعًا مؤلمًا كالشَّيء يُلقى دفعةً واحدةً، وذلك على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة

(١) ينظر: من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للدكتور محمد الأمين الخضري: (١١٢)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

(٢) نظم الدرر: (٣/ ١٩٣).

التَّبعيَّة "ويقال: رَعَبْته (مِن باب فَتَحَ) وأرعبته، وأبلغ منه تعبير التَّنزيل بإلقاء الرُّعب، وبقَذَفَ بالرُّعب في القلب لما فيه مِن الإشعار بأنَّه يُصبُّ في القلوب دفعةً واحدةً "[1]، وهذا التَّعبير مع إشعاره بنزوله دفعةً واحدةً فيه إشعارٌ بالمباغتة والسُّرعة، فيتمكَّن مِن قلوبهم، ويهدِّدهم بما يصيب القلوب بالهلع بإسقاطه في أعماقهم فيحيط بهم[2].

ويُحمل على الاستعارة المكنيَّة، حيث شُبِّه الرُّعب بالجِرم الملقى بجامع إيقاعه في الموضع، بإلحاق المعنويِّ بالحسِّيِّ، يقول ابن عطية: "حقيقة الإلقاء إنَّما هي في الأجرام"[3] ثمَّ طُوي ذكر المشبَّه به، وأُثبت لازمه وهو الإلقاء للمشبَّه بالاستعارة التَّخييليَّة، ومزيَّة الاستعارة حينئذٍ تكون في المبالغة في المُلقى، وأنَّه كان رعبًا يفتُّ القلوب، ويزعزعها، وهو الأعلى؛ لأنَّ السِّياق يُفصح عن تهديدٍ يجعل مِن الرُّعب سلاحًا فاتكًا في العدوِّ، لا أن يبالغ في هيْئة الإلقاء، ففي قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ تعلو نبرة التَّهديد والوعيد، وتتزعزع قلوب الكافرين، في سبيل طمأنة عباد الله المتقين، وجاء التَّعبير بالإلقاء في القلوب لأنَّها محلُّ الشُّعور، فغرْس الرَّهبة في قلوبهم يؤدِّي إلى القلق، وحين تختلُّ تلك القيم الرُّوحيَّة والمعنويَّة في القتال فإنَّه ينسف الدوافع والمحرِّكات للاستمرار في القتال. وقد أشار هذا المعنى إلى العناية بمسألة التَّهيئة النَّفسية، وأنَّها مِن أهم الدَّوافع التي تحقِّق للمقاتل الثَّبات والاستبسال في الحرب، ثمَّ كان الرُّعب سلاحًا مِن أسلحة القتال، ولونًا مِن ألوان العذاب، وجاءت هذه النَّبرة العالية في الخطاب؛ لتُوقع الهزيمة النَّفسيَّة بالكافرين؛ لأنَّ المقاتل حين يقتنع بهزيمته يفقد الدَّافع، وحينها لا يكون لمواصلة الحرب داعٍ بالنِّسبة له[4]، وفي المقابل نرى تعزيز جانب الثِّقة في الأمْر بتثبيت المؤمنين ومعاونتهم بالضَّرب

(١) تفسير المنار: (٩/ ٦١٢).

(٢) ينظر: الخطاب النفسي في القرآن الكريم (٢٢٠).

(٣) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٥٩).

(٤) ينظر: علم النفس الحربي للدكتور عبد الرحمن العيسوي: (٤٤)، نشر دار الراتب الجامعية، بيروت، =

في مواضع الإفناء والتَّعطيل. والعمل على تقوية الشُّعور بالثِّقة بالنَّفس والإيمان أساس كلِّ نجاحٍ كما أنَّها دعامة الصُّمود، واستمرار النِّضال[1].

وقد تحمل الاستعارة جانبًا تهكميًّا بغية السّخرية مِن الكافرين، وإيقاع الأذى النَّفسيِّ- كما في قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴾ [الأنفال:١٤] فقد جاء تخييل ما أصابهم مِن النَّكال والعذاب في الدُّنيا مقارنةً بما أعدَّ لهم في الآخرة بقوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾، و"الذال والواو والقاف أصلٌ واحد، وهو اختبار الشيء من جِهَةِ تَطَعُّمٍ "[2]، فجعل ما لقيه أولئك مِن العذاب والنَّكال ذوقًا مِن حيثُ المقدار، ومِن حيثُ الإحساس به، فما أُعدَّ لهم في الآخرة أبشع وأفظع، فما هذا العذاب إلَّا بمقدار التَّذوُّق مقارنةً بما أُعدَّ لهم في الآخرة، "ونبَّه بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ ﴾ وهو المعجَّل مِن القتل والأسر على أنَّ ذلك يسير بالإضافة إلى المؤجَّل لهم في الآخرة، فلذلك سمَّاه ذوقًا؛ لأنَّ الذَّوق لا يكون إلَّا تعرُّف طعم اليسير ليعرف به حال الكثير، فعاجل ما حصل لهم مِن الآلام في الدُّنيا كالذَّوق القليل بالنِّسبة إلى الأمر العظيم المعدِّ لهم في الآخرة"[3]، وفيه أنَّ الذَّوق يكون بغير الفم ممَّا هو مختصٌّ بالأجساد[4].

والاستعارة في قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، شُبِّه العذاب في الضمير المتصل بالطَّعام بجامع الإحساس بالمذاق في كلٍّ، ثمَّ طُوي ذكر المشبَّه به، وأثبت للمشبَّه لازم المشبَّه به، وهو الإذاقة، ومزيَّة الاستعارة أنَّه يخيِّل العذاب بمنزلة المطعوم والمشروب في ملازمته لهم في الغدوِّ والرَّواح، وفي معانتهم وشدة وطأته عليهم[5].

= الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(١) ينظر: السابق: (٩٠).

(٢) معجم المقاييس في اللغة: (ذوق).

(٣) مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٤١).

(٤) ينظر: لسان العرب (ذوق) بتصرف.

(٥) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: (٣٢٣)، وللاستزادة في استعمال (ذوق) في القرآن ينظر: =

ويشير ابن عاشور إلى حمله على المجاز المرسل في ﴿فَذُوقُوهُ﴾ لعلاقة الإطْلاق، إذْ عبَّر عن الإحساس بالتَّذوُّق[1]، بالقرينة العقليَّة، وهي إرادة الإحساس بالعذاب، فبه يتحقَّق العقاب والألم، ومزيَّة التَّعبير به أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ مجرَّد التَّذوُّق موصلٌ إلى الإحساس به.

والأعلى مِن ذلك كلِّه، مايتَّفق مع السِّياق، والأليق بالبيان العليِّ أنْ تكون الاستعارة تصريحيَّةً تبعيَّةً في قوله: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ وذلك تشبيهًا للإحساس القليل بالألم مِن العذاب بالتَّذوُّق بجامع القدْر المذاق القليل فيهما، فتحقَّق بذلك ميزة المبالغة في قلَّة ما أصابهم مِن العذاب في الدُّنيا مقارنةً بما ينتظرهم في الآخرة، فجمع التَّعبير بالذَّوق عن العذاب معاني الإهانة والوعيد المرِّ بما سينالهم في الآخرة مِن العقاب الأليم، وذلك يُورث في النَّفس الخوف والفزع مِن عقاب الآخرة، مع ما في معنى الأمر مِن الشَّماتة والاستخفاف بهم، ومجيء الصُّورة في أعقاب ذكر فعلهم، ثمَّ التَّعقيب بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾، والتَّعقيب بعدها بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ هو حديثٌ يزعزع القلوب، فيملأها فَرَقًا وذُعْرًا، ويُكسب المؤمنين الصَّادقين الاطمئنان لنكاية الله ﷻ في عدوِّهم، والانتصار لدينه وسنَّته.

ومثله الاستعارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠] وتقدير الكلام ويقولون ذوقوا عذاب الحريق، ووقع الحذف؛ لينتقل المشهد انتقالًا لطيفا في قلب الحدث، فطوى المشهد السَّابق وانتقل إلى الآخر، وكأنَّه مشهدٌ متَّصلٌ دلالةً على اتِّصال العذاب مِن الموت حتَّى البعْث والحساب.

= خصائص التعبير القرآني للدكتور عبد العظيم المطعني: (٢/ ٤٠١)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٨٥).

وفي هذا التَّخييل معلمان مِن معالم التَّثقيف، أولهما: أنَّ فيه زجرًا للمنافقين والمشركين على سوء أعمالهم، فيقع التَّخييل في نفوسهم موقع التَّقريع والتَّرهيب، والمعلم الثاني: أنَّ في هذا التَّخييل رحمةً بالإنسانيَّة برِّها وفاجرِها؛ لأنَّه "يحذِّرهم مِن هذا العذاب مقدَّمًا في وقتٍ يملكون فيه النَّجاة بأنفسهم، وهو وجودهم في الحياة الدُّنيا حيث يملكون الإيمان بالله، فينحون بأنفسهم، بلْ ينتقلون بها إلى خيرٍ كثيرٍ"(١)

وممَّا هو متَّصلٌ بالاستعارة التي تهدف إلى الإيذاء النَّفسي بالسخرية، قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال:١٩] فقوله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ يُخيِّل في ذهن السَّامع صورةً ساخرةً في معرض الردِّ على المستفتحين الذين دعوا الله ﷻ أنْ ينصر أعلى الفريقين، وتحرير جهة دلالة السُّخرية والتَّهكُّم يكون بحملها على إحدى الصُّورتين "حيث نصَر أعلاهما وقد زعمتم أنَّكم الأعلى فالتهكُّمُ في المجيء، أو فقد جاءكم الهزيمةُ والقهْرُ، فالتَّهكم في نفس الفتحِ حيثُ وُضع موضعَ ما يقابله"(٢)، فالصورة الأولى نلحظ أنَّ معنى التهكم فيها آتٍ مِن كون المنقذ جاء لمنفعتهم ونجدتهم بينما الواقع هو أنَّ مجيء الفتح كان انتصارًا للمسلمين(٣)، فهو من الاستعارة المكنيَّة، أو أن تُحمل الصُّورة على أنَّ المقصود بالفتح هو الهزيمة والنَّكال لكنَّه سُمِّي باسم ضدِّه تهكُّمًا بهم إمَّا بحمله على المجاز المرسل أو المشاكلة(٤).

---

(١) التصوير الساخر في القرآن الكريم: (٢١٤).

(٢) إرشاد العقل السليم: (٤/ ١٤).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٩٨).

(٤) في المجاز المرسل تكون العلاقة الضدية وهي علاقة مصححة للانتقال لوجود المناسبة، أما المشاكلة فلوقوع اللفظ في صحبة اللفظ فجهة تصحيح العلاقة مختلفة في المعنيين، فالمعنى في المجاز المرسل ناظر إلى الاعتبار المعنوي فحسب أما المعنى في المشاكلة فهو ناظر إلى الاعتبار البنائي والتركيبي والمعنوي كذلك، ولهذا يصح دراسة أسلوب المشاكلة في باب التركيب وباب البيان.

والأثر التَّثقيفيُّ الذي تغرسه هذه الصُّورة التَّحذير مِن معاداة الله ورسوله، والوعيد الشَّديد لمن حارب كلمة الله؛ لأنَّ صورة الاستهزاء بالكافرين، والسُّخرية بهم صورةٌ مِن صور الإهانة النَّفسيَّة التي تُسهم في زعزعة أمنهم النَّفسيِّ.

كما نلحظ مِن أساليب التَّخييل استحضار الصُّورة الماضية بالفعل الحاضر لتثير الصُّورة انفعالات تلك اللحظات في ذهن المتلقِّي، فقوله تعالى: ﴿تَسْتَفْتِحُواْ﴾ فيه استحضارٌ لتلك الصُّورة، وحكايةٌ للوقائع الماضية، كما أنَّ فيه دلالة تكرار طلبهم ذلك[1].

ويأتي التَّخييل بالاستعارة في سياق المقابلة في قوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال:٤٢] فالهلاك والحياة هنا صورتان متقابلتان يخيِّلهما القرآن؛ ليجعل الغاية منهما واحدةً، وهي البيان والحجَّة الواضحة، أمَّا الهلاك فهو الموت والاضمحلال حقيقةً وضدُّه الحياة، والكلمتان مستعملتان في المعنى المجازيِّ لهما، فيهلك تعبيرٌ عن يكفُر ويحيا تعبيرٌ عن يُؤمن[2] بالاستعارة التَّبعيَّة التَّصريحيَّة في الهلاك والحياة، وذلك بتشبيه فعل الكفر بفعل الهلاك بجامع عدم الانتفاع، وتشبيه الإيمان بالحياة بجامع الانتفاع، بإلحاق المعقول بالمعقول لتقريبه مِن النُّفوس، وتجلية أثره وصورته، ويشهد لهذا التَّأويل سياق السُّورة المبنيَّة على المفارقة بين الكفر والإيمان؛ ولأنَّ بُنية السُّورة قائمةٌ على المقابلة بين هذين الفريقين. والغاية التي يشير إليها السِّياق القبليُّ والبعديُّ هو انتصار الإيمان والحقِّ على الكفر والباطل.

المعلم التَّثقيفيُّ الذي ينهض به التَّخييل في هذه الصُّورة هو الجمع بين التَّرهيب والتَّرغيب، التَّرهيب مِن الكفر الذي أقيمت عليه الحجَّة الواضحة، فشُبِّهت تلك الحالة بحالة الهالك الذي لا تجدي فيه الموعظة، فأصبح جَسَدًا يمشي على الأرض، لا ينتفع بالعلم، ولا بالحجَّة، كما لا ينتفع الهالك بأسباب الحياة، كما أنَّ فيها ترغيبًا

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٢٩٩).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٨/ ٧٧) والكشاف: (٢/ ١٦٧).

لأصحاب القلوب الحيَّة الذين تحيا قلوبهم بهذه الحجج فينتفعون مصداقًا لنداء الله ﷻ في السورة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال:٢٤] .

وفي سياق الإرشاد إلى أسباب النَّصر، واجتناب مايؤدِّي إلى الفشل والتَّفرُّق، وتفكُّك القوَّة جاء قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [الأنفال:٤٦] والتّعبير بقوله تعالى: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ استعمل الرِّيح فيه في معنى القوَّة أوالنَّصر أوالدَّولة[1] بجامع النُّفوذ بتشبيه المعنويِّ بالحسِّيِّ؛ لقوَّة ظهوره في المشبَّه به، والذي سوَّغ هذا الاستعمال أنَّ الرِّيح إذا هبَّت مِن جهة قومٍ كانت سببًا لهزيمة الجيش المقابل؛ لأنَّها تهبُّ في وجوه الأعداء[2]، ثمَّ طُوي ذكر المشبَّه بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة الأصلية لكونها اسمًا جامدًا، ومزيَّة التَّعبير بالرِّيح إظهار القوَّة، ومزيتها في السِّياق التَّحذير مِن تفتُّت هذه القوة، وذهاب بَأْسِهم وهيبتهم. وضعَّف الرَّازيُّ القول بالحقيقة استنادًا إلى تأويلها بحديث الرَّسول ﷺ الذي رواه البخاريُّ في صحيحه مِن كتاب الاستسقاء بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه قال: « نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[3]؛ لأنَّ السِّياق رتَّب على التَّنازع والفشل ذهاب الرِّيح، ومعلومٌ أنَّ الفشل والتَّنازع لا يؤثران في هبوب الصبا[4].

فالتَّخييل إذنْ يقوم على مرحلتين مِن تصوُّر المعنى، الأولى: هي تخييل تلك القوَّة والبأس والهيبة، ثمَّ ما يكون في السِّياق مِن ترتُّب ذهاب تلك القوة بسبب التَّنازع والفشل. وفي هذا تحذيرٌ للمؤمنين مِن عاقبة الاختلاف والتَّنازع، وحثٌّ لهم على الاجتماع والتَّعاضد.

وذهب السُّيوطيُّ إلى جعلها مِن الاستعارة المكنيَّة للنَّصر، بتشبيه المخاطَبين بذي

(١) ينظر: معالم التنزيل: (٣/ ٣٦٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٣/ ٢٢٤).

(٣) صحيح البخاري: حديث رقم (١٠٣٥) (١/ ٣٢٥).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٧٧).

الرِّيح، ثـمَّ إثبات لازم المشبه بـه للمشبه بالاستعارة التخييليـة[1] في الـرِّيح جمعًـا بـين القولين[2].

وهذا القول مزيَّته الجمع بين الأقوال؛ لأنَّه أثبـت معنـى النَّصر والقـوَّة، وأثبـت للنَّصر ريحًا، ولكن طريق التَّصريحيَّة أليق بالسِّياق الذي يدلُّ على تفتُّت الدَّولـة والقـوَّة وحصول الخسارة، مع ما في إعمال الاستعارة المكنيَّة في هذا السياق مِن تكلُّفٍ.

(١) التخييل هنا يختلف عن المقصود به في هذا الفصل لأنـه اصطلاح بلاغي لنوع مـن أنـواع الاستعارة لـه مدلوله الخاص. فالاستعارة التخييلية هنا: هي إثبات لازم المشبه به للمشبه، يقول الخطيب: " قد يضمر التشبيه في النفس فلا يصرح بشيء من أركانه سوى لفظ المشبه، ويدل عليه بأن يثبت للمشبه أمر مختص بالمشبه به من غير أن يكون هناك أمر ثابت حسا أو عقلا أجري عليه اسم ذلك الأمر فيسمى التشبيه استعارة بالكناية أو مكنيا عنها وإثبات ذلك الأمر للمشبه استعارة تخييلية". الإيضاح: (٣/ ١٣٢ و١٣٣)، وهي ملازمة للمكنية عنده، وهو في هذا موافق لما ذهب إليه عبد القاهر حين بين النوع الثاني من الاستعارة في (يد الشمال) ومفارقتها للنوع الأول، قال: "... وليس لك شيءٌ من ذلك في بيت لبيد، بل ليس أكثر من أن تُخَيِّل إلى نفسك أن الشَّمال في تصريف الغَداة على حكم طبيعتها، كالمدبّر المصرِّفِ لما زمامُه بيده، ومَقادتُهُ في كفّه، وذلك كلُّه لا يتعدَّى التخيُّلُ والوَهْم والتقدير في النفس، من غير أن يكون هناك شيء يُحَسُّ، وذاتٌ تتحصَّل". دلائل الإعجاز: (٤٦)، كانت هذه الإشارة عند عبد القاهر هي ماعرف عند المتأخرين بالاستعارة التخييلية، أما مذهب الاستعارة التخييلية عند السكاكي: " هي أن تسمي باسم صورة متحققة صورة عندك وهمية محضة تقدرها مشابهة لها مفردا في الذكر في ضمن قرينة مانعة عن حمل الاسم على مايسبق منه إلى الفهم من كون مسماه شيئا متحققا "مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي: (٤٨٥)، حققه وقدم له وفهرسه: الدكتور عبد الحميد هنداوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، فتسمية الاستعارة التخييلية عند الخطيب تسمية وظيفية توضح أثر الاستعارة في النفس. كما أن مناط الاستعارة عنده في الإثبات. أما تسمية الاستعارة عند السكاكي فوصفية لأنها تصف ذلك الشيء الوهمي المقدر وتحدد جهته، كما أن مناط الاستعارة عنده قائمة في اللفظ المثبت للاستعارة المكنية.

وعلى كل فإن فاعلية هذا الأسلوب تقوم على إثارة خيال المتلقي، في تقدير الأشياء وصنع المعاني التصويرية التي تمتاز بالحركة، وانعتاقها من الجمود.

(٢) ينظر: قطف الأزهار: (٢/ ١١١٦).

وفي قولـه تعـالى: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ ﴾ [الأنفال:٤٩]تُخيِّل الآيات في ذهن السَّامع تلك اللحظات التي فشا بين المنافقين فيها اتِّهام المؤمنين بالغرور والاندفاع بأداة التَّخييل الزَّمنيِّ ﴿ إِذْ ﴾؛ ليكون استحضار الزَّمان داعيًا لاستحضار الأحداث الجارية فيه، ثمَّ جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَقُولُ﴾ بدلالته على الآنية كأنَّه مشاهدٌ للحظته.

وقوله تعالى: ﴿غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ يُخيِّل في ذهن السَّامع مدى اختلال التَّصوُّر عند أولئك المنافقين، عارضًا مقالتهم التي تخيِّل مدى غفلتهم، فحين رأوا هذا الإصرار والثَّبات والتَّوكُّل على الله ﷻ امتثالًا لأمره، ظنُّوا ذلك مجازفةً واندفاعًا وانخداعًا بالدِّين، ويجوز هنا أنْ نجري الاستعارة في الغُرور، فيكون مستعملًا في معنى الدَّفع بجامع المسارعة إلى الامتثال بطريقة الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، ومزيَّة التَّعبير به الدلالة على الغفلة والسذاجة التي دفعت بهؤلاء إلى القتال مع قلَّة عددهم وعُدَّتهم، يقول ابن عاشور: "أيْ غرَّهم ذلك فخرجوا وهم عددٌ قليلٌ للقاء جيشٍ كثيرٍ"(١)، ويجوز أن يكون مِن الاستعارة المكنيَّة، شبه الدِّين بمن يغُرُّ، ثمَّ أثبت للمشبَّه لازم المشبَّه به، ومزيَّة إجراء الاستعارة المكنيَّة هو التَّشخيص، وإعطاء الدِّين الهيئة الآمرة التي تُومئ إلى مقياس أهل الكفر في تقويم المؤمنين، كما تعكس موقفهم الفكريَّ والنَّفسيَّ والعقليَّ، وقصورهم في التَّصوُّر والرُّؤية(٢).

وتخييل هذا الموقف فيه بيانٌ للرُّعب الذي تملَّك قلوبهم فأصبحوا يضعون الأمور في غير نصابها الصَّحيح، فهو يكشف جانبًا نفسيًا عميقًا في قراءة العدوِّ للموقف حين ينزع عن المعتقد الصَّحيح، فيتحوَّل في هذا المقياس الثَّباتُ والتَّوكُّلُ إلى اندفاعٍ أهوج.

وتؤدي المبالغة في الاستعارة إلى حثِّ المؤمنين، واستنهاض عزائمهم كما في قوله

(١) التحرير والتنوير: (١٠/ ٣٨).

(٢) ينظر: في إعجاز القرآن للدكتور أحمد البزرة: (٥٠٨).

تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال:٦٧] فيُخَيَّل في ذهن السَّامع -بعد عتابه لاستبقاء الأسرى- الغايةَ التي يجوز فيها الاستبقاء، وهو التَّمكُّن في الأرض، وغلبة المشركين، حين يكون الإسلام في مركز القوَّة، وجاء تخييل هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، والإثخان في أصله الثِّقل والكثافة، وسُمِّي القتل إثخانًا؛ لأنَّه ينكأ عدوَّه بالجراح حتَّى يثقله عن الحركة، ويقتله[1]، فالتَّعبير بالإثخان عن القتل استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ طُوي فيه لفظ المشبَّه وصُرِّح بلفظ المشبه به، بجامع زوال المنفعة وتعطُّلها، بتشبيه الحسِّيِّ بالحسِّيِّ، ومزيَّة التَّعبير بالإثخان أنَّ فيه معنى الإنهاك والنَّيل مِن العدوِّ بما يهدُّه ويسحقه، فهو دالٌّ على السَّيطرة والقوَّة، كما أنَّ في التَّعبير دلالةً على جدِّيَّة هذا الطَّريق، وأنَّه يستلزم البذل والتَّضحية.

قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ يُخَيَّل في ذهن السَّامع الفعل والقصد الذي اقترفه مَن نزلت فيهم آية العتاب وهو استبقاء الأسرى لأخذ الفداء، يخيِّله سبحانه في ذهن السَّامع على أنَّه عَرَضٌ، والعَرَضُ لا مُكْثَ له ولا بقاء، سريع الزَّوال، فالتَّعبير بالعَرَضِ فيه استعارةٌ تصريحيَّةٌ بتشبيه استبقاء الأسرى والحرص عليه بالعرض الذي لا لبث ولا مكث له، بجامع سرعة فناء المنفعة، ومزيَّة التَّعبير التَّثقيفيَّة هي عتاب المؤمنين؛ لتقديمهم الفاني على الباقي، كما أنَّ فيه إنكار فعلهم، والتَّعجيب منه؛ لأنَّ حرصهم عليه مِن المفترض ألا يكون.

ويمكن إجراء الاستعارة المكنيَّة، فيُقال إنَّه شبَّه الدُّنيا بذي العَرَضِ، ثمَّ طُوي ذكر المشبَّه به، وذكر المشبَّه، ولكنَّ قصد السِّياق لا يدلُّ عليه؛ لأنَّ المعنى منصبٌّ على تخييل الفعل للسَّامع، وليس الدُّنيا، والله أعلم بمراده.

وبعد أنْ عاتب الله ﷻ نبيه على موافقته لأصحابه في استبقاء الأسرى، وأخذ الفداء، ذكر لهم على وجه المنَّة والتَّحذير عفوه عنهم، وصرفه العذاب في قوله تعالى:

(١) ينظر: لسان العرب: (ثخن) ومعجم المقاييس في اللغة: (ثخن).

﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الأنفال:٦٨] ولإيقاع الرَّهبة في النُّفوس، وقرع القلوب مِن معاودة العمل، يُخيِّل السِّياق القرآنيُّ إيقاع العذاب عليهم بقوله: ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ على ما في المسِّ مِن معنى السُّرعة، ومجرد الملامسة، ووصفه بأنَّه عذابٌ عظيمٌ لا يُطاق، وباستحضار عناصر الصُّورة: المس في مقابل العذاب العظيم، يحقِّق التَّخييل أثره التَّرهيبي، وهو ما تخفق عنده القلوب، وتستعيذ منه النُّفوس أنْ تعود لمثله.

وفي السِّياق الفرعي لغزوة بدر في سورة آل عمران جاء قوله تعالى ﴿ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ فيُخَيِّل في ذهن السَّامع مدد الكفَّار سريعًا، بقوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ ويقال: فار الشَّيء إذا جاش، والقدْر إذا غَلَتْ[(١)]، فاستعير للسَّرعة استعارةً تصريحيَّة أصليَّة، شُبِّهت سرعة المشركين في الانتفاض لنُصرة قومهم بالفوران في تسارعه، فالصُّورة هنا تكشف جانبًا مِن جوانب جَلَدِ الفاجر في كفره، ومسارعته لنصرة الباطل، كما أنَّها تُعلي مِن شأن نصرة الله للمؤمنين، إذْ أنَّ نصرته وقعت مع هذه الصُّورة مِن المسارعة والانتفاض، ولاسم الإشارة هُنا وظيفته التَّخييلية التي تُبرز مجيئهم كأنَّه ماثلٌ للعين، مشارٌ إليه، فنزِّل منزلة المُشاهد القريب[(٢)].

٢-المجاز المرسل:

جاء المجاز المرسل في قوله: ﴿وَٱضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾[الأنفال : ١٢]فالبنان وهي الأصابع تعبيرٌ عن الأطراف كلِّها[(٣)]، ولكن لخصوصية البنان؛ لأنَّها أهم ما في الأطراف، كان التَّعبير به لعلاقة الجزئيَّة، بقرينة العُرْف والعادة في أنَّ الضَّرْبَ يكون في

---

(١) ينظر: لسان العرب: (فور).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ٧٦).

(٣) ينظر: حاشية السعد على الكشاف (٣٦٩/ ب).

الأطْراف، وتبرز قيمة المجاز في اللفت إلى أهم ما يُضرب في الأطراف، فيعطِّل آلة الانتفاع. والمعلم التَّثقيفي الذي يشير إليه المجاز المرسل ترهيب الكافرين، وبثُّ الذُّعر في قلوبهم.

وفي سياق تأكيد عدل الحق سبحانه، وتحمُّل المرء ما اقترفه من الأعمال جاء قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الأنفال:٥١] ذكر ابن عاشور أنَّ الأيدي هنا استعارةٌ مكنيَّةٌ، وذلك بتشبيه الأعمال بما يجتبيه المجتبِي مِن الثَّمر أو مايقبضه البائع مِن الأثمان، ثمَّ ذَكَرَ رديف المشبَّه وهو الأيدي لأنَّها آلة كسبه(١)، والذي ذكره ابن عاشور أكثر تخييلًا ولكنه أقرب إلى التَّكلُّف، والأيسر أنْ نقول إنَّ الأيدي مجازٌ في القدرة، لعلاقة الآليَّة؛ لأنَّها آلة الكسب والقدرة، والقرينة المانعة مِن إرادة الحقيقة قرينةٌ عقليَّةٌ؛ لأنَّ العذاب كان بكفرهم وليس بأعمال أيديهم، والكفر اعتقادٌ في أصله، فمحله القلب لا اليد، كما أنَّ محل المعرفة والعلم هو العقل والقلب فلا يتوجَّه التَّكليف إلى اليد(٢)، كما أنَّ رأي ابن عاشور يستلزم هذا التأويل في بناء الاستعارة المكنيَّة، ولكنَّه يَبني عليه ما هو أكثر تخييلًا. ومزيَّة المجاز المرسل الالتفات إلى أثر المعبَّر به وهو الأيدي في كونه الآلة التي يُستعان بها في القدرة على تنفيذ ما يعتقده الإنسان.

والصُّورة في مجملها تحمِّل الإنسان تَبِعَةَ أعماله، وتنبِّه إلى عدله ﷻ في محاسبة النَّفس بما اقترفت.

التَّخييل بالكناية:

مزيَّة التَّخييل بالكناية أنَّها تجعلنا أمام صورتين، الأولى جزئيَّة ظاهرة من اللفظ، والأخرى كليَّة يؤمها السِّياق من خلال إثبات الصّورة الجزئية، ففي سياق النَّهي عن الفرار، والتَّقبيح من الانهزام جاء قوله تعالى: ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾ [الأنفال:١٥] وهو

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (١٠/ ٤١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (١٥/ ١٨٥).

تخييلٌ حسِّيٌّ لصورة مستبشعة مِن الانهزام والفرار، فالنَّهي موجَّهٌ لتولي الأدْبار، وهي صورةٌ لازمةٌ لصورة الانهزام والرُّجوع والفرار، فالتَّعبير بالملزوم والمراد اللازم، وصورة مخصوصةٌ مِن صور الملزوم، وهو أن يكون تولِّي الأدبار انهزامًا، فهو مِن الكناية الإشاريَّة(١) التي لا ينتقل الذِّهن في صورٍ مختلفةٍ وصولًا إلى الصُّورة المُرادة، ولا تُوصف بالخفاء، وهي مِن الكناية عن الصِّفة، وتظهر مزيَّة التَّعبير به في إثبات الصُّورة بدليلٍ، وهو تولِّي الأدبار، ثمَّ مزيَّةٌ أخرى، وهي تبشيع ذلك الفعل وتقبيح صورته، فصورة تولِّي الأدبار في أرض المعركة صورةٌ مذمومةٌ تدلُّ على الخَوَرِ والجُبْنِ، فهو تعبيرٌ عن الانهزام في صورةٍ حسِّيَّةٍ(٢).

ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾[القمر:٤٥] فالتَّخييل هنا لهزيمة جيش الكفر وفراره، وحسن في التَّخييل موقع كلمة ﴿ٱلۡجَمۡعُ﴾ لأنَّه سبق في قولهم ﴿نَحۡنُ جَمِيعٞ مُّنتَصِرٞ﴾ فالتَّخييل لصورة الهزيمة التي تلحق بأوَّلهم وآخرهم، هزيمةٌ حسِّيَّةٌ ونفسيَّةٌ لا تغادر أحدًا منهم، وفي هذا التَّخييل وعيدٌ وترهيبٌ لنفوس المشركين الذين ينتظرهم سوء العذاب.

﴿وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ تفصيلٌ لمشهدٍ مِن مشاهد الذُّل والانكسار والهزيمة، فهو دليلٌ على الجبن والخور، فخُيِّل في الذِّهن مشهدُ أولئك الفارِّين الهاربين الباحثين عن الحياة في حرصهم وشدَّة طلبهم للفرار، لا تكاد تبصر أعيانهم وشخوصهم مدبرين حتَّى صاروا لتكدُّسهم وتعلُّق بعضهم ببعض كأنَّهم جزءٌ واحدٌ لا تُبصر فيه شخوصهم. وذكر الدُّبر تشنيعًا لسوء فعلهم، فالصُّورة جامعةٌ بين الوعيد والسُّخرية بحال أولئك الفارِّين، وهي تجمع بين البشرى التي تشفي صدور المؤمنين، والوعيد الذي يقرع نفوس الكافرين.

---

(١) الكناية الإشارية: هي الكناية التي تقل فيها الوسائط بين المعنى اللازم والملزوم مع وضوحها. ينظر: مفتاح العلوم: (٥٢١) و: الإيضاح: (٣/ ١٦٣).

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: (٣/ ١٤٩٠).

وفيه معلم مِن معالم التَّثقيف وهو أنَّ الله ﷻ كما كانوا يدًا واحدةً على مَن سواهم، فخرجوا لقتال المؤمنين جعل هلاكهم وفرارهم جملةً واحدةً، فالجزاء مِن جنس العمل.

وفي هذه الآية بشارة للرَّسول ﷺ، فالله ﷻ منجز وعده لنبيِّه ﷺ[1] كما فيه ترهيبٌ لنفوس المشركين، ومِن هنا استحضر النَّبي ﷺ هذه الآية قبل القتال شحذًا للنُّفوس، وتبشيرًا بإنفاذ أمر الله ﷻ، فقد روى البخاريُّ بسنده عن ابن عباس: (إن رسول الله ﷺ قال وهو في قُبَّةٍ يوم بدر: اللهم إني أُنْشدُكَ عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم. فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يارسول الله، ألححت على ربك -وهو يثب في الدِّرع، فخرج وهو يقول: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾)[2]

وفي قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ﴾[الأنفال:٧٠] في التَّعبير بقوله: ﴿فِيٓ أَيۡدِيكُم﴾ كنايةٌ عن التَّملُّك والسَّيطرة، فدلَّ على هذا المعنى بتخييل الأسرى في أيدي المؤمنين، ودلَّ ثبوت الملزوم وهو كونهم في الأيدي إلى إثبات اللازم وهو التَّملُّك، ومستوى هذه الدلالة إشاريٌّ؛ لأنَّ المسافة بين الدَّال والمدلول قريبةٌ وواضحةٌ، وهي مِن الكناية عن الصِّفة.

وأثر هذه الكناية إظهار جهة الاستعلاء عليهم، وأنَّ الله ﷻ حين يعرض عليهم خيري الدُّنيا والآخرة، فيعرضه وهم في قبضة المؤمنين، فموقف الخطاب موقف قوَّةٍ وليس موقف ضعفٍ أو وَهَنٍ، وهو يُفضي إلى ترغيبهم في الدُّخول إلى الإسلام مع موافقة الباطن لظاهر ما يقرِّرونه لأنفسهم.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٢٧/ ٢١٣).

(٢) صحيح البخاري: كتاب تفسير القرآن: باب قوله: ﴿ سَيُهۡزَمُ ٱلۡجَمۡعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾: حديث رقم: (٤٨٧٥) (٣/ ٣٠١).

الباب الثاني

الرسالة

الباب الثاني

معالمُ التَّثقيفِ النَّفسيِّ في آياتِ غزوةِ أُحُدٍ

ويشتمل على أربعة فصول:

۞ **الفصل الأوَّل: أثر السّياق والموقع في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.**

۞ **الفصل الثَّاني: أثر اختيار الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.**

۞ **الفصل الثَّالث: أثر منهاج التَّركيب في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.**

۞ **الفصل الرَّابع: أثر تخييل المعنى للسَّامع في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.**

الرسالة

مدخـــــل

جاءت آيات غزوة أُحدٍ في سياقٍ واحدٍ رئيسٍ في سورة آل عمران ابتدأ مِن الآية (١٢١) ثمَّ توقَّف عند الآية (١٢٢)، ويفصل هذا السِّياق، سياقٌ تذكيريٌّ بأحداث غزوة بدر من الآية (١٢٣) إلى الآية (١٢٧)، ثمَّ سياقٌ آخر فيه إرشادٌ وتوجيهاتٌ للإصلاح من الآية (١٢٩) إلى الآية (١٣٨)، ثمَّ سياقٌ أخيرٌ يُذكِّر بمنَّة بعث الرَّسول ﷺ في الآية (١٦٤).

وجرى في هذه السِّياقات الإشارة إلى الأحداث الكبرى في الغزوة، كانحسار جزءٍ مِن الجيش، وإشاعة مقتل النَّبي ﷺ، والفرار مِن المعركة، وما جرى مِن النِّقاش والحوار مع المنافقين.

ثمَّ خُتمت الآيات بالفئة المؤمنة التي استجابت لنِداء الله ﷻ ورسوله ﷺ على مافيها مِن الجراح والنُّدوب حتَّى الآية (١٧٥).



الفصل الأول

أثرُ السِّياقِ والموْقعِ في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

<u>وفيه مبحثان</u> : –

۞ **المبحث الأوَّل** : موقع سورة آل عمران على مدْرجة البيان القرآني.

۞ **المبحث الثَّاني**: أثر مقصد السُّورة وعلاقات المعاني الجزئيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

* *   * ** *   * *

المبْحثُ الأوّل: موقعُ سورةِ آل عمران على مَدْرجةِ البيانِ القُرآنيِّ

أثر السِّياق المديد لسورة آل عمران في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

سورةُ آل عمرانَ السُّورةُ الثَّالثةُ في كتابِ الله ﷻ، تلي سورةَ البقرةِ وتسبقُ سورةَ النِّساءِ، آياتُها مائتانِ، وهي سورةٌ مدنيَّةٌ.

وتُعدُّ سورةُ آل عمرانَ السُّورةَ الثَّانيةَ مِن سورِ الطِّوالِ التي تُشَكِّلُ في مجموعِها وحدةً موضوعيَّةً واحدةً ترتكزُ على المحورِ الأساسِ في سورةِ البقرةِ، أيْ إنَّ محاورَ المعنى الأساسِ في هذه السُّورِ السَّبعِ - على أنَّ سورتي الأنفالِ والتَّوبةِ تُشَكِّلُ لحمةً واحدةً - هي تفصيلٌ للمحاورِ الأساسيةِ، وامتداداتِ هذه المحاورِ في سورةِ البقرةِ. فسورةُ "آل عمرانَ. تقابلُ الآياتِ الخمسَ الأولى مِن سورةِ البقرةِ، وكما أنَّ هذه الآياتِ مبدوءةٌ بـ﴿الٓمٓ﴾، فإنَّ " آل عمرانَ " مبدوءةٌ بـ﴿الٓمٓ﴾، وكما أنَّ هذه الآياتِ مختومةٌ بكلمةِ الفلاحِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، فسورة آل عمرانَ مختومةٌ بكلمةِ الفلاحِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران:٢٠٠]"[١]، كذلك فموضوعات الآيات الخمس الأولى مِن سورة البقرة وامتداداتها في السُّورة كالحديث عن الكتاب، والإيمان بالغيب، وفلاح المؤمنين وامتداد هذا المعنى في الآيات التي تلتها بعد ذلك في الحديث عن المنافقين والمشركين، هي موضوعات ومحاور سورة آل عمران[٢].

هذا ما يظهر مِن ارتباط السِّياق الخارجيِّ بين سورتي البقرة وآل عمران، وقد أشار البقاعيُّ لأوجه المناسبة بين السُّورتين وجعل مطلع سورة آل عمران ناظرًا إلى

(١) الأساس في التفسير: (٢/ ٦٨٥).

(٢) ينظر: السابق (٢/ ٦٩١-٦٩٣).

آية الكرسيِّ مع ملاحظة تشابه البناء والتَّركيب بين مطلع الآيتين.

يقول البقاعيُّ: "ومناسبةُ هذا الأوّلِ بالابتدائيةِ لآخرِ ما قبْلها أنَّهُ لَمَّا كانَ آخرُ البقرةِ في الحقيقةِ آيةَ الكرسيِّ وما بعدَها إنَّما هو بيانٌ... ناسبَ هذا الاختتامُ غايةَ المناسبةِ ابتداءَ هذه السُّورةِ بالذي وقعَ الإيمانُ به ﷻ، ووجهتْ الرَّغباتُ آخِرَ تلكَ إليهِ"[1]

والبقاعيُّ هنا يَنظرُ إلى وجهِ المناسبةِ بينَ السُّورتينِ مِن خِلالِ الارتباطِ بينَ آيةِ الكرسيِّ ومطلعِ سورةِ آل عمرانَ، فقد جاء في الآيتينِ (اللهُ لا إلَهَ إلَّا هوَ الحيُّ القيومُّ)، وهوَ يَعُدُّ آيةَ الكرسيِّ آخِرَ معنى رئيسٍ في سورةِ البقرةِ وبقيةُ السُّورةِ امتدادٌ لهذا المعنى، ومطلعُ سورةِ آل عمرانَ حوى هذا المعنى الرئيسَ الذي انتهت إليه سورةُ البقرةِ.

ثم ينظرُ البقاعيُّ كذلك مرةً أُخرى إلى وجهِ المُناسبةِ مُوسّعًا نطاقَ النَّظرِ ليبدو التَّناسقُ والتناسبُ في صورتِه المنسجمةِ مِن سورةِ الفاتحةِ موضِّحًا كيفَ تتناسلُ المعاني، يقولُ: "لَمَّا نَزَل إلينا كتابُه فجمعَ مقاصدَه في الفاتحةِ على وجهٍ أرْشدَ فيه إلى سؤالِ الهدايةِ، ثمَّ شرَعَ في تفصيلِ ما جمعهُ في الفاتحةِ، فأرشدَ في أول البقرةِ إلى أنَّ الهدايةَ في هذا الكتابِ، وبيَّنَ ذلك بحقيّةِ المعنى والنظمِ كما تقدّمَ -إلى أنْ ختَمَ البقرةَ بالإخبارِ عنْ خُلَّصِ عِبادِه بالإيمانِ بالمُنزَلِ بالسّمعِ والطاعةِ، وأَفهَم ذلك مع التَّوجهِ بالدُّعاءِ إلى المُنزلِ لهُ أنَّ لهُ ﷻ كلَّ شيءٍ وبيدِه النَّصرُ، عُلِمَ أنَّهُ واحدٌ لا شريكَ لهُ حيٌّ لا يموتُ قيُّومٌ لا يَغْفلُ وأنَّ ما أنزلَ هو الحقُّ، فصرَّحَ أولَ هذه بما أفهمهُ آخرَ تلكَ كما يُصرِّحُ بالنتيجةِ بعدَ المقدِّماتِ المنتجةِ لها فقال: ﴿ٱللَّهُ﴾ أيْ الذي لا يذلُّ مَنْ والاهُ ولا يعزُّ من عاداهُ؛ لأنَّ لهُ الإحاطةَ بجميعِ أوصافِ الكمالِ والنَّزاهةِ الكاملةِ مِن كلِّ شائبةِ نقْصٍ"[2].

(١) نظم الدرر: (١/ ٤).

(٢) الموضع السابق.

فتدرُّجُ المعنى مِن خِلال هذه السُّور، فالفاتحةَ أشارتْ إلى طلبِ الهدايةِ، والبقرةَ قدَّمتْ أداةَ هذه الهدايةِ وهو القرآنُ الكريمُ، وآلَ عمرانَ قدَّمتْ مَالِكَ هذهِ الهدايةِ والمُتصرِّفَ في أمورها وهو الحقُّ سبحانَه.

مِن المعالم التَّثقيفيَّة المستفادة مِن سياق السُّورة كلِّها وموقعها في مدرجة البيان القرآنيِّ الثَّبات؛ لأن سورة آل عمران جاءت بعد سورتي الفاتحة والبقرة مرشدةً إلى الثَّبات، بعد تفصيل الهدى والحقِّ في السُّورتين، فسورة آل عمران تغرس في النُّفوس تربيةٌ المسلم على مواجهة الباطل، بعد التَّيقُّن مِن صحَّة الطَّريق، وهكذا يكون العلم بالشَّيء سبيلًا إلى الثَّبات، فلمَّا عرَّفهم الله ﷻ بنفسه في سورة الفاتحة، ثمَّ عرَّفهم بكتابه وهديه كان ذلك مفضيًا إلى أنْ يثبت الإنسان على هذا الطَّريق. ثمَّ تأتي سورة آل عمران لتعلمنا كيف يكون الثَّبات على التَّوحيد ثباتًا في المعتقد، وثباتًا في العمل، وهذا ما حرص سياق السُّورة كلِّها أنْ يؤكِّده، وذلك بتصفية العقيدة تارةً، كمناقشة اليهود والنصارى في معتقداتهم، وبإرشادها إلى التَّوكُّل على الله، والتَّعلُّق به تارةً أخرى، مستحضرا نموذجًا مِن أرض الواقع كانت ذكرياته لا تزال عالقةً بنفوس المؤمنين.



المبحثُ الثَّاني: أثر مقصدِ السُّورة وعلاقات المعاني الجزئيَّة في تحقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

- مقصد السُّورة الكلِّيِّ:

السياقُ القريبُ يتجلَّى في الوحدةِ الموضوعيَّةِ في السُّورةِ، وموضوعُ سورةِ آلِ عمرانَ الثَّباتُ على التَّوحيدِ(١)، وموضوعاتُ السُّورةِ ومعانيها تتآزرُ لتحقيقِ هذا المقصدِ الأعظمِ، وباستعراض موضوعاتِ سورةِ آلِ عمرانَ نجد الآيات تعرض موضوعين رئيسين:

الموضوعُ الأوّلُ: يتناولُ أهلَ الكتابِ، وأصحابَ الأفكارِ المنحرفةِ عن العقيدةِ السليمةِ، فهي دعوةٌ إلى تصفيةِ العقيدةِ، وكيفيَّةِ الثَّباتِ أمامَ تلك الأفكارِ والدعاوى الباطلةِ.

الموضوعُ الثاني: يتناولُ غزوةَ أحدٍ، والدُّروسَ الموجَّهةَ للأمَّةِ، وهي دعوةٌ للثَّباتِ العمليِّ باستعراضِ نموذجٍ تطبيقيٍّ على أرضِ الواقعِ.

ويمتدُّ هذا الجزءُ مِن السورةِ من الآيةِ (١٢١) إلى الآيةِ (١٧٥)، وللقرآنِ أسلوبٌ مميَّزٌ في ذكرِ هذه الأحداثِ فهوَ "لا يعرضُ الحوادثَ عرضًا تاريخيًّا مسلسلًا بقصدِ التَّسجيلِ؛ إنَّما هو يعرضُها للعبرةِ والتَّربيةِ، واستخلاصِ القِيَمِ الكامنةِ وراءَ الحوادثِ، ورسمِ سماتِ النُّفوسِ، وخلجاتِ القلوبِ، وتصويرِ الجوِّ الذي صاحبَها؛ والسُّننِ الكونيَّةِ التي تحكمُها، والمبادئِ الباقيةِ التي تقرِّرُها. وبذلك تستحيلُ الحادثةُ محورًا أو نقطةَ ارتكازٍ لثروةٍ ضخمةٍ مِن المشاعرِ والسِّماتِ والنَّتائجِ والاستدلالاتِ. يبدأُ السياقُ منها، ثمَّ يستطردُ حولَها، ثمَّ يعودُ إليها، ثمَّ يجولُ في أعماقِ الضَّمائرِ، وفي أغوارِ الحياةِ، ويكرِّرُ هذا مرَّةً بعد مرَّةٍ حتَّى ينتهي بروايةِ الحادثِ إلى نهايتها وقد ضمَّ

(١) ينظر: أهداف كل سورة من القرآن: (٢٠).

جناحيهِ على حَفْلٍ مِن المعاني والدَّلائلِ والقيمِ والمبادئِ لم تَكُنْ روايةُ الحادثِ إلَّا وسيلةً إليها ونقطةَ ارتكازٍ تتجمَّعُ حواليْها. وحتَّى يكونَ قد تناولَ ملابساتِ الحادثِ وعقابيلِهِ في الضَّمائرِ فجلَّاها. ونقَّاها وأراحها في مواضعِها فلا تجدُ النَّفسُ منها حيرةً ولا قلقًا، ولا تحسُّ فيها لبساً ولا دخلًا.. "[1]

ويمكن أن نستخلص ممَّا سبق أبعادَ الأسلوبِ القصصيِّ في عرض القرآن الكريم لهذه الأحداث كما يأتي:

١- أنَّ الغرضَ الذي يهدفُ السياقُ القرآنيُّ فيه من إيرادِ القصصِ هو غرضٌ تربويٌّ تثقيفيٌّ، لا يقفُ عندَ حدودِ أحداثِ القصَّةِ ومجرياتها، بلْ يتجاوزُ ذلك إلى التَّنبيهِ إلى نظامِ الكونِ وسننِه، والسِّياقُ يسْتغلُّ مثلَ هذهِ الأحداثِ للتَّوجيهِ والتَّذْكيرِ.

٢- أنَّ السياقَ القرآنيَّ يتَّخذُ من المعاني التي تحْكُمُ هذه القصصَ محورَ ارتكازٍ، ومعنى رئيسًا تتناسلُ منه معانٍ فرعيةٌ، فهو لا يعتمدُ أحداثَ القصةِ بعينها، بلْ المعاني التي كانتْ القصَّةُ وسيلةً لإبرازها؛ ولذلك فكثيرًا ما تتجزأُ أحداثُ القصَّةِ الواحدةِ يتخلَّلُها استطراداتٌ تتعلقُ بالتَّعقيبِ القرآنيِّ على الأحداثِ.

٣- الاعتناءُ بالبُعدِ النَّفسيِّ في تصويرِ القرآنِ لخلجات النُّفوسِ، كما يصوِّرُ الأحداثَ الخارجيَّةَ، فهو يصوِّر معركتين، معركةَ الأحداثِ الخارجيَّةِ ومعركةً أخرى نفسيّةً.

ومنْ هنا نفهمُ لماذا يتجاوزُ السِّياقُ كثيرًا من تلك الأحداثِ والتَّفصيلاتِ في الغزوةِ إذ ليسَ المرادُ من ذكرِ الوقائعِ إلَّا استغلالَ هذهِ المواقفِ بالتَّعقيبِ الرَّبانيِّ ليُثقِّفَ النفوسَ ويهذِّبَها.

إذن فسياق السُّورة يواجه طائفتين من أهل الباطل، اليهود والنَّصارى من جهة، وكانت تتمحور مواجهتهم في دفع الشُّبهات، وتصفية العقيدة من أوحال الشِّرك،

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤٦٤).

ومشركو العرب والمنافقون من جهةٍ أخرى، وكانت المواجهة فيها تتمحور حول نتائج أرض المعركة والقتال، ومن هنا ينعكس في النَّفس معلمٌ من معالم التَّثقيف وهو التحذير من هاتين الطَّائفتين، وإن كان التَّحذير مِن اليهود والنَّصارى أكثر مبالغةً مِن التَّحذير مِن مشركي العرب؛ لأنَّ سلاح الشُّبهة أعتى مِن سلاح القتال، ولذلك نلحظ أنَّ السِّياق القرآنيَّ كثيرًا ما يقدِّم اليهود والنَّصارى على مشركي العرب(١)، وكذلك كان السِّياق في هذه السُّورة(٢).

۞ أثر علاقاتِ معاني السُّورة الجزئيَّةِ في تحقيق التَّثقيفِ النَّفسيِّ

○ علاقة مطلع آيات الغزوة بمقصد السُّورة:

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣) [آل

---

(١) ولهذا نظائر في كتاب الله مثل قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقوله تعالى ﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٦].

(٢) ينظر: نمو المعاني: (١٧١).

(٣) وَرَدَ في سَببِ نُزولِ هذه الآيةِ " عنْ جابرِ بنِ عبدِ الله – رضيَ اللهُ عنهما – قالَ: فينا نَزَلتْ: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾ قالَ: نحن الطائفتانِ بنو حارثةَ وبنو سَلِمةَ، وما نُحبُّ – وقالَ سفيانُ مرَّةً: وما يَسُرُّني – أنَّها لمْ تَنْزِلْ، لقولِ الله: ﴿ وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ﴾"

أخرجه البخاريُّ: كتاب: التفسير، باب: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ رقم: (٤٢٨٢) واللفظ له، وأخرجه مسلم: كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل الأنصار، رقم: (٦٥٦٩)، و(ينظر: المحرَّرُ في أسبابِ نُزولِ القرآن: ١/ ٣١٤).

عمران:١٢١-١٢٢]أولُ ما يجبُ تحقيقُه مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها[١]؛ لأنَّ معانيَ القرآنِ الكريمِ تتعانق ويفضي بعضُها إلى بعضٍ. وقد أشارَ المفسِّرونَ إلى أوجهٍ عديدةٍ مِن المناسبةِ تختلفُ باختلافِ موضعِ المعنى مِن الآيةِ أو الآياتِ السَّابقةِ.

فمنهم من جعلَ وجهَ المناسبةِ في قوله تعالى: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾ [آل عمران:١٢٠] فجعلَ بمفهومِ المخالفةِ[٢] لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ عاقبةَ عدمِ الصبرِ وعدمِ التقوى ما حلَّ بالمسلمينَ يومَ أُحدٍ فاستدعتْ هذه الجملةُ سياقَ غزوةِ أُحدٍ.

يقولُ ابنُ جريرٍ الطبريُّ: "تَرَكَ ذِكرَ الخبرِ عنْ أمرِ القومِ إنْ لمْ يصبرُوا على أمرِ ربِّهم ولم يتَّقوه، اكتفاءً بدلالةِ ما ظهرَ من الكلامِ على معناه، إذْ ذَكَرَ ما هو فاعلٌ بهم من صرفِ كيدِ أعدائهم عنهم إنْ صبروا على أمرِه واتقوا محارمَهُ، وتعقيبِه ذلك بتذكيرِهم ما حلَّ بهمْ من البلاءِ بأحُدٍ، إذْ خالفَ بعضُهم أمرَ رسولِ الله ﷺ وتنازعوا الرأيَ بينَهم"[٣]

فالطبريُّ جعلَ الدَّلالة على المعنى من جهتين: دلالةِ المقالِ وهو ما صُرِّحَ به في الآيةِ ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ ودلالةِ الحالِ، وذلك باستعراضِ نموذجِ غزوةِ أحدٍ، فالمعنى في دلالةِ المقالِ ظاهرٌ يحملُه اللَّفظُ، أمَّا في دلالةِ

(١) يقول البقاعي: " فلا تظننَّ أيها النَّاظرُ لكتابي هذا أنَّ المناسباتِ كانتْ كذلكَ قبل الكشْفِ لقناعِها والرفعِ لستورِها، فربَّ آية أقمتُ في تأملها شهورًا منها: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [آل عمران:١٢١] " (نظم الدرر: ١/ ٨) وهذا يدلُّ على جَلَدِ أهل العلم - رحمهم الله -، وفائدةٌ أخرى أنَّ على الباحثِ في شأنِ المناسباتِ ألّا يرضى بالخاطرِ الأوَّل، بل عليه أنْ يعيد النَّظر المرةَ تلو الأخرى، فإنَّ العلمَ يربو بالنَّظر والمراجعةِ.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ﴾ المنطوقُ هنا تحققُ نفيِ الضُرِ عنْدَ تحققِ الإتيانِ بالشَّرطِ، والمسْكوتُ عنهُ احتمالُ وقوعِ الضُّر عندَ التخلِّي عن الإتيانِ بالشَّرطِ.

(٣) جامع البيان: (٧/ ١٥٩).

الحالِ فمُستفادٌ مِن عمومِ سياقِ القصَّةِ. وهذا نظرٌ ثاقبٌ مِن الطبريِّ فهو لا يَنظرُ في المناسبةِ بين الآيتين فحسب، بل تمتدُّ المناسبةُ بين هذه الآيةِ وسياقِ آياتِ الغزوةِ.

وإلى ذلك ذَهَبَ الرازيُّ بقوله: "اعلمْ أنَّه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾] آل عمران: ١٢٠] أتبعَه بما يدلُّهم على سنَّةِ الله تعالى فيهم في بابِ النُّصرةِ والمعونةِ ودفعِ مضارِ العدوِ إذا هم صبروا واتَّقوا، وخلافَ ذلك فيهم إذا لم يصبروا فقالَ: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ﴾"[١]

ولذلك كان تعقيبُ القرآنِ بذكرِ نموذجينِ، نموذجِ القهرِ والخُسرانِ بما حلَّ في غزوةِ أُحدٍ، ونموذجِ النَّصرِ والمعونةِ بما حلَّ في غزوة بدرٍ، على سبيلِ اللَّفِ والنشرِ غيرِ المرتبِ[٢]، فقدَّم الحديثَ عن غزوةِ أُحدٍ؛ لأنَّه الأدعى للسِّياقِ، فسياقُ غزوةِ بدرٍ في هذا الجزءِ سياقٌ ثانويٌّ لأنَّ تفصيلَه يأتي في سُورةِ الأنْفالِ لاحقًا.

يقولُ البقاعيُّ: "ولمَّا كانَ ما تضمنتهُ هذه الآيةُ من الإخبارِ ومن الوعدِ ومن الوعيدِ منطوقًا ومفهومًا مُحتاجًا إلى الاجتلاءِ في صُورِ الجزئياتِ ذكَّرهم ﷻ بالوقائعِ التي شُوهدتْ فيها أحوالُهم مِن النَّصرِ عندَ العملِ بمنطوقِ الوعدِ مِن الصَّبرِ والتَّقوى وعدمِه عندَ العملِ بالمفهومِ، وشُوهدت فيها أحوالُ عدوِّهم من المساءةِ عندَ السُّرورِ والسُّرورِ عندَ المساءةِ، وذلك غنيٌّ عن دليلٍ لكونِه مِن المشاهداتِ"[٣]

والتَّصريحُ بمنطوقِ الوعدِ في الحثِّ على الصَّبرِ والثَّباتِ والتَّقوى خلافًا للتَّلميحِ بالمفهومِ في التَّحذيرِ مِن عاقبةِ عدم الصَّبرِ والتَّقوى يأتي أكثرَ انسجامًا مع موضوعِ السُّورةِ ومقصدِها، وهو الثَّباتُ على التَّوحيدِ والصَّبرُ والمصابرةُ.

(١) مفاتيح الغيب: (٨/ ٢٢٣).

(٢) اللفُّ أو (الطيُّ) والنَّشرُ: هو ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال ثم ما لكل واحد من غير تعيين على خلاف ترتيب ما فصل أو أجمل ثقة بأن السامع يرده إليه. ينظر: الإيضاح: (٤/ ٣٠).

(٣) نظم الدرر: (٢/ ١٤٢).

وقدْ دفعَ ابنُ عطيةَ ما ذَهَبَ إليه ابنُ جريرٍ لأنَّ جهةَ الكلامِ تختلفُ، فالآيةُ السَّابقةُ مقاولةٌ في شأنِ اليهودِ، والآيةُ التي تليها استئنافُ شأنٍ آخرَ في عتبِ المؤمنينَ في شأنِ أُحدٍ[1].

والذي عارضَ به ابنُ عطيّةَ محلُّ نظرٍ؛ لأنَّ أهلَ العلمِ أشاروا إلى أنَّ الأصلَ في تحقيقِ المناسباتِ بين الآياتِ التناسبُ في المغْزى والغرضِ العام في السُّورةِ وليس الشأنُ في مجرَّدِ التَّوافقِ في الموضوعاتِ.

يقولُ البقاعيُّ: " فعلمُ مناسباتِ القرآنِ علمٌ تُعرفُ منه عللُ ترتيبِ أجزائهِ، وهوَ سرُّ البلاغةِ لأدائه إلى تحقيقِ مطابقةِ المعاني لما اقتضاه الحالُ، وتتوقفُ الإجادةُ فيه على معرفةِ مقصودِ السورةِ المطلوبِ فيها ذلك، ويفيدُ ذلكَ معرفةَ المقصودِ من جميعِ جملِها "[2]

ويقول الشَّاطبيُّ " فاعتبارُ جهةِ النَّظمِ مثلًا في السورةِ لا تتمُّ به فائدةٌ إلا بعدَ استيفاءِ جميعِها بالنَّظرِ فالاقتصارُ على بعضها فيه غيرُ مفيدٍ غايةَ المقصودِ، كما أنَّ الاقتصارَ على بعضِ الآيةِ في استفادةِ حكمٍ ما لا يُفيدُ إلاَّ بعدَ كمالِ النَّظرِ في جميعِها"[3]

والنصّان السَّابقان يدلّان على أنَّ مقصودَ السورةِ وغرضَها العامِ هو الدَّليلُ الكاشفُ لوجهِ المناسبةِ، وفي ضوئها ينمو المعنى، وتتفرَّع الموضوعاتُ، وتتنوع الأساليبُ. وعليه فاعتراضَ ابنِ عطيَّةَ بمفارقةِ جهةِ الكلامِ، واختلافِ الموضوعِ مدفوعٌ لأنَّ القاعدةَ في ذلكَ أنْ يُنظرَ إلى المغزى ومقصدِ السُّورةِ.

ومنهم مَنْ جعَلَ وجهَ المناسبةِ في تعلُّقِ الآيةِ بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا

---

(١) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢١٤).

(٢) نظم الدرر: (١/ ٥).

(٣) الموافقات: (٤/ ٢٦٨)، تحقيق: مشهور آل سلمان، نشر دار ابن القيم، السعودية – الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٧ هـ/ ٢٠٠٦م.

تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[آل عمران:١١٨] " أنَّهُ لَمَّا نهاهم عن اتخاذِ بطانةٍ مِن الكفَّارِ ووعدهم أنّهم إنْ صبروا واتَّقوا فلا يضرُّكم كيدُهم. ذَكَّرهم بحالةٍ اتَّفقَ فيها بعضُ طواعيةٍ، واتِّباعٍ لبعضِ المنافقينَ، وهوَ ما جرى يومَ أُحدٍ لعبدِ الله بنِ أُبيٍّ بنِ سَلولٍ حينَ انخذلَ عن رسولَ اللهَ ﷺ، واتَّبعَه في الانخذالِ ثلاثُمائةِ رَجُلٍ مِن المنافقينَ وغيرُهم مِن المؤمنينَ"(١)، وقدْ جعلَ البقاعيُّ ذلك وجهًا آخرَ مِن وجوهِ المناسبةِ(٢). وعلى الرغم مِنْ أنَّ سياقَ الآيةِ في المنافقين مِن اليَهودِ إلا أنَّه "لَمَّا كانَ شأنُ المنافقينَ مِن اليهودِ وأهلِ يثربَ واحدًا ودخيلتُهما سواءٌ، وكانوا يعملونَ على ماتدبِّره اليهودُ، جمعَ اللهُ مكائدَ الفريقينِ بذكرِ غزوةِ أُحدٍ"(٣)

ويُقوِّي هذا الوجهَ مِن المناسبةِ أنَّ السَّباقَ واللّحاقَ في شأنِ اليهودِ(٤)، والمنافقونَ في المدينةِ كانوا أشدَّ قربًا مودةً ومكانًا مِن اليهودِ، فالتَّحذيرُ مِن المنافقينَ في مثلِ هذا يبدو أكثرَ التصاقًا بشأنِ اليهودِ في السِّياقِ(٥).

والسِّياق التالي لهذه الآيات تظلّه أجواءٌ مِن الأمان والاطمئنان، يليه حديثٌ

---

(١) البحر المحيط: (٣/ ٤٤).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٤٥).

(٣) التحرير والتنوير: (٤/ ٦٩).

(٤) ينظر: تفسير المنار: (٤/ ١٢٢).

(٥) أما السباق فقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾[آل عمران: ١١٧ -١٢٠]، وأما اللحاق فمن قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ إلى قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠ – ١٨٣].

طويلٌ عن أحداث الغزوة"وكانت سمة هذا الحديث الطَّويل الرِّفق في الخطاب، واللين في العتاب، يريد بذلك تأليف القلوب، وجمع الأفئدة، وربَّما جرّ العنفُ إلى أنْ تجمح النُّفوس، وتتشتَّت الأهواء وقت كان الإسلام فيه أحوج ما يكون إلى الأُلفة، وجمع الشَّمل"[(١)]، وهذا الاطمئنان انعكاسٌ لأخذ النَّبيِّ ﷺ بالأسباب مِن إعداد العُدَّة، وتهيئة المؤمنين للقتال، ليس إعدادًا عابرًا فحسب، بلْ إنزالهم الموضع الآمن والأمنع، ويراهم كفئًا لها بواءً[(٢)]، ثمَّ إحاطة المولى عز شأنه الإحاطة التَّامة بظواهر الأمور وبواطنها، وقد كان هذا الاطمئنان مشروطًا بالصَّبر والتقوى كما يدلُّ عليه السياق، وبتدبُّرِ آياتِ هذه الغزوةِ أولًا وما آلتْ إليه، ثمَّ ربطِها بالمقدمةِ ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ يكونُ إيقاعُ الحثِّ على الثَّباتِ بالصَّبرِ والتَّقوى أوقعَ في النَّفسِ لِمَا قُدِّمَ لها مِن شواهدَ.

فمناسبة هذا المقطع إذن تغرس في النَّفس التَّحذير مِن مكر اليهود، والمندسِّين مِن المنافقين الذين كان لهم شأن في هذه الواقعة، وسيأتي التَّعقيب عليها في أعطاف السُّورة. كما أن من معالم التَّثقيف في مقدِّمة آيات الغزوة الحثُّ على الثَّبات بالصَّبر والتَّقوى، وهي توجيهات سنلحظ امتداداتها في الآيات اللاحقة.

○ موقع الآيات من آية (١٣٠) إلى آية (١٣٩) من سياق آيات الغزوة:

من قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران].

نَزَلتْ هذه الآيات والنُّفوس مكلومةٌ بما جرى مِن أحداثٍ في غزوة أُحُدٍ، ولكي

(١) من بلاغة القرآن للدكتورأحمد بدوي. : (٢٤٧)، نشر دار نهضة مصر، مصر - القاهرة، ٢٠٠٥ م.

(٢) ينظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق " دراسة قرآنية لغوية وبيانية "، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ): (٥٩٣)، نشر دار المعارف، الطبعة الثالثة.

نستحضر أجواء هذا الموقف نذكر أنَّ الآيات نزلتْ وقدْ انحسر جزءٌ مِن المؤمنين عن الجيش، وأحدثوا ارتباكًا في حركة الصَّفِّ، وفريقٌ آخر مِن المؤمنين خالف أمْر الرَّسول ﷺ في البقاء في المواطن طلبًا للغنائم، كما أنَّ المؤمنين أُصيبوا بمقتل عددٍ مِن كبار الصَّحابة رضوان الله عليهم، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطَّلب ومصعب بن عمير وغيرهما، أيضًا كان مِن أهمِّ أحداث الغزوة إصابة النَّبيِّ ﷺ(1)، وإشاعة خبر مقتله، كلُّ تلك الأحداث تركتْ نُدوبًا في نفوس المؤمنين بعد الغزوة.

هذه المصائب والمحن كانت تخبِّئ في داخلها المِنَح "وقد كان الله يربِّي هذه الجماعة -وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية -فربَّاها بهذا الابتلاء بالشِّدَّة بعد الابتلاء بالرَّخاء، والابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنَّصر العجيب-وإنْ يكن هذا وهذه قد وقعا وفق أسبابها، ووفق سنن الله الجارية في النَّصر والهزيمة؛ لتتعلَّم هذه الجماعة أسباب النَّصر والهزيمة. ولتزيد طاعةً لله وتوكُّلًا عليه والتصاقًا بركنه، ولتعرف طبيعة هذا المنهج وتكاليفه معرفة اليقين"(2) .

ولكي نربط سياق هذه الآيات بالغزوة لابدَّ من قراءة المعنى السياقيِّ حتى هذا المقطع، فافتتح سياق غزوة أُحد بذكر خروج النَّبي ﷺ والمؤمنين، ثمَّ انحسار جزءٍ مِن الجيش وفشله، ثمَّ افتَتحت الآيات بعد ذلك التَّعقيب على هذا الحدث بما يحقِّق التَّثقيف النَّفسيَّ في سياقٍ يتَّصل بالآيات اللاحقة.

وتدور محاور هذا السِّياق في ثلاثة مقاصد تثقيفيَّة:

١ إرساء العقيدة الصَّحيحة بالتَّأكيد على قضيَّة التَّوكُّل، وتفويض الأمور إلى الخالق ﷻ، وكان النَّموذج البدريُّ حاضرًا آنذاك في الأذهان.

٢ الحثُّ على تحقيق مفهوم تقوى الله ﷻ، ويظهر هذا المفهوم بصوره المتنوِّعة

(1) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام: (٦٤) و (٦٩ و ٧٠) و (٧٣) و (٧٩ و ٨٠).

(2) في ظلال القرآن: (١/ ٤٨١).

في هذا السِّياق، فيظهر في صورة التَّعاضُد الاجتماعيِّ، كما في التَّحذير مِن الرِّبا، والحثِّ على الإنفاق، ويظهر في صورة التَّقوى في ظلِّ المسؤولية الفرديَّة، كما في الحثِّ على الاستغفار والتَّوبة، وتجتمع الصُّورتين في صورٍ كالطَّاعة، والدَّعوة إلى التَّأمُّل والتَّفكُّر في أحوال الأُمم الماضية.

٣ الحثُّ على الصَّبر، ويقترب هذا الجانب كثيرًا مِن الجانب الميدانيِّ للمعركة، ويرتبط بلوازمه كالشُّكر والثَّبات ونحوه.

وهذه المقاصد الثلاثة لا يمكن الفصل بينها فصلًا تامًّا، بلْ يمتزج بعضها ببعضٍ، فلكلِّ مرحلةٍ مِن مراحل التَّعبئة النَّفسيَّة في القتال مقصدٌ يكون الأبرز.

وعليه نلحظ أنَّ السِّياق يُراعي هذا العمق في معالجة الموقف معالجةً نفسيَّةً عميقةً، فابتدأ بالجانب العقديِّ، بتحقيق مسألة التَّوكُّل على الله ﷻ، ثمَّ الجانب الأخلاقيِّ والإيمانيِّ، بالتَّوجيهات التي سيأتي تفصيلها، ثمَّ الجانب الحركيِّ والميدانيِّ. وهذا يؤكِّد ما سبقت الإشارة إليه مِن ضرورة الإعداد النَّفسيِّ والتَّربويِّ للأمَّة، وأنَّه لا يَقِلُّ بحالٍ مِن الأحوال عن الإعداد العسكريِّ إنْ لَمْ يكن مقدَّمًا عليه.

أمَّا الجانب الأوَّل العقديُّ، فسَبَقَ تفصيله في المقطع السَّابق، فننتقل إلى الجانب الأخلاقيِّ والإيمانيِّ، وهو ما يمثِّله المقطع مِن الآية (١٣٠ - ١٣٨).

ونلحظ أنَّ موضوعات الآيات جاءت وفق الآتي:

-التَّحذير مِن الرِّبا.

-الأمر بطاعة الله ورسوله ﷺ.

-التَّرغيب في الإحسان إلى النَّاس بالنَّفقة وحسن الخلق.

- التَّرغيب في الاستغفار والتَّوبة.

- الحثُّ على التَّفكُّر والتَّأمل في أحوال الأُمم السَّابقة، وأخذ العظة والعبرة.

ونلحظ أنَّ الحديث عن الرِّبا جاء عقب الحديث عن غزوة بدرٍ، وفي ذلك إشارةٌ

تثقيفيَّةٌ إلى أنَّ الرِّبا هو ميدانٌ مِن ميادين محاربة الله ﷻ، ويدلُّ على هذا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٧٨ - ٢٧٩] فرتَّب الحرب على عدم الفعل. وجعل الحديث عن الرِّبا في عقب الحديث عن محاربة الله ورسوله في أرض المعركة يؤذن بفظاعة هذا الجُرم، وذلك بالنَّظر إلى مآل حال الذين حاربوا الله ورسوله في غزوة بدر.

ووجه تعلُّق هذه الآية بغزوة أُحد ذَكَرَهُ كثيرٌ مِن المفسِّرين، فالجهاد يحتاج إلى البذل والعطاء والأموال التي تغذِّي الجيش بالقوَّة والعتاد، وكان التَّرغيب في هذا مظنَّة أنْ يُكتسب بطريق الرِّبا؛ لما للمسلمين مِن علاقاتٍ تربطهم باليهود، وهم أهل الرِّبا(١).

ومعلمٌ مِن معالم التَّثقيف يُستفاد مِن إيراد التَّحذير مِن الرِّبا في سياق آيات غزوة أُحُدٍ التي أُصيب فيها المسلمون، وهو أنَّ الرِّبا وفشوَّه في المجتمع المسلم لا يجتمع مع النَّصر؛ لأنَّ الرِّبا دليلٌ على الجشع والأنانيَّة التي تفرِّق المجتمع "واطِّراح النِّظام الرِّبويِّ إلى النِّظام التَّعاونيِّ مِن عدَّة النَّصر، والمجتمع التَّعاونيُّ أقرب إلى النَّصر مِن المجتمع الرِّبوي"(٢).

إذن فالسِّياق هنا يكوِّن البيئة النَّفسيَّة والمجتمعيَّة الصالحة لأنْ يُثمر فيها النَّصر والظَّفر؛ ولذلك فالسِّياق يطوِّف بالنَّفس البشريَّة بين توجيهاتٍ تلامس عمق النَّفس الإنسانيَّة، ثمَّ تتَّسع لتعاملات الفرد مع المجتمع ومع خالقه، ويؤكِّد السِّياق على أهميَّة الطَّاعة لله ورسوله ﷺ، فهو عماد النَّصر والظَّفر، ثمَّ يقرن هذا الأمر بالتَّرغيب لتقبل النُّفوس إليه، ثم يرسم السِّياق الصُّورة النَّقيَّة للنَّفس المسلمة بذكر مقامات إحسانها، فيقول: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ دلالةً على صفاء السَّريرة، فيستوي عندها

(١) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٥٤) وإرشاد العقل السليم: (٢/ ٨٤).

(٢) في ظلال القرآن: (١/ ٤٥٩).

السِّرُّ والعلن، ثمَّ قال: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾، فيدفعهم الإحسان والخُلُقُ إلى أنْ يرتقوا إلى مقام ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾، ونلحظ المعاني الإحسانيَّة في جانب الخُلُقِ مِن الكفِّ عن الأذى إلى الانتقال إلى مقام البذل والعطاء المادِّيِّ والمعنويِّ.

فهي صورتان متقابلتان صورة الرِّبا التي تمثِّل الجشع والظُّلم المقيت وسيادة الأنانيَّة، وصورة النَّقاء وصفاء السَّريرة وسلامة الصَّدر، فحثَّ على تحقيق هذا المبدأ بالزَّجر عن ضدِّه أولًا، ثمَّ الأمر به ثانيًا.

هذه هي صورة مجتمع النَّصر الظَّاهريَّة، أمَّا الصُّورة الباطنيَّة الفرديَّة، فهم أصحاب قلوبٍ يقظةٍ ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ فارتكابهم الذُّنوب تأكيدٌ لبشريَّتهم التي يعتريها النَّقص؛ ليكونوا أحوج إلى رضا الله ﷻ، ولذلك جاء وصفهم بعد ذلك بقوله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وعلى غرار التَّوجيه بالطَّاعة لله ورسوله يأتي التَّرغيب، وسمةٌ نلحظها في هذا السِّياق أنَّ النَّهي يعقبه الوعد والوعيد، أمَّا الأمر فيعقبه التَّرغيب، لمناسبة المقام للتلطُّف والمواساة.

ثمَّ تُختتم الآيات بإقرار منهج مُهمٍّ لاستمرار النَّصر في هذه البيئة، وهو التَّفكُّر والتَّأمُّل في أحوال الأمم السابقة ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران:١٣٧]، وهذا الجانب يحقِّق للمسلم الانفتاح على أحوال الأُمم مِن حوله وأحوال الأمم على مرِّ التَّاريخ، ولكن ليس ذلك الانفتاح لإشباع النَّهم العلميِّ فحسب، بل له غايةٌ تثقيفيَّةٌ يوجزها تعالى بقوله: ﴿فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

وسمةٌ ظاهرةٌ في هذا السِّياق تكرُّر التَّقوى، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ مع ما في معنى الطَّاعة والإحسان مِن الإشارة إلى التَّقوى، فالتَّقوى يأتي ممتزِجًا بالتَّوجيهات، فهي تتمحور حول تحقيق التَّقوى في كلِّ الأمور

دقيقِها وجليلِها، فيكون بذلك قد حقَّق جزءًا مِن الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران:١٢٥] دلالةً على أنَّ الصَّبر والتَّقوى مِن أهمِّ أسباب النَّصر، ولعلَّ تقديم جانب التَّقوى على جانب الصَّبر الذي سيأتي في الآيات اللاحقة يدلُّ على أنَّ فريضة الجهاد تبتدئ مِن النَّفس أولًا التي تكون بحاجةٍ إلى التَّقوى أكثر مِن حاجتها للصَّبر "فالواقع أنَّ حياة المؤمن كلُّها جهادٌ وكفاحٌ، وهو قبل أنْ ينزل في ساحة الحرب ويشتبك مع أعداء الله، يكون قدْ مكث دهرًا طويلًا في الجهاد مع نفسه بين أهله وإخوانه، والجهاد في ساحة الحرب لا يكون إلَّا جزءًا قصيرًا مِن جهاده الطَّويل الذي يعيشه طول حياته في بيئته ومجتمعه"(١).

ثمَّ يلتفت السِّياق إلى الواقع الميدانيِّ؛ لينتقل بالتَّفكُّر مِن الحثِّ إلى تنزيله على الواقع المشاهد، بعد أنْ هيَّأ النُّفوس تربويًّا وإيمانيًّا، والتَّطرُّق إلى جانب المعركة يأتي مواساةً وتعزيةً محمَّلةً بالبُشرى، وأن تلك المصائب مهما كلَّفت مِن الجِراح إلَّا أنَّ في باطنها الخير للمؤمن، وأشار الرَّازيُّ إلى ذلك بربط السِّياقين بقوله: "كأنَّه قال إذا بحثتم عن أحوال القرون الماضية علمتم أنَّ أهل الباطل وإنْ اتَّفقت لهم الصَّولة، لكن كان مآل الأمر إلى الضَّعف والفتور، وصارت دولة أهل الحقِّ عاليةً، وصولة أهل الباطل مندرسةً، فلا ينبغي أنْ تصير صولة الكفَّار عليكم يوم أُحدٍ سببًا لضعف قلبكم، ولجبنكم وعجزكم، بلْ يجب أنْ يقوى قلبكم فإنَّ الاستعلاء سيحصل لكم، والقوَّة والدولة راجعةٌ إليكم"(٢).

فمدار هذه الآيات على ركيزة الصَّبر، وتأصيلها في النُّفوس، ويظهر هذا مِن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾ ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾

(١) البرهان في نظام القرآن: (٥٥٢).

(٢) مفاتيح الغيب: (٩/ ١٤).

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، والمقصود بالشَّاكرين الثَّابتون، والشُّكر والثَّبات هما مِن ثمرات الصَّبر، كما أنَّ بعض الأساليب تدلُّ على الصَّبر بدلالاتٍ ضمنيَّةٍ كما في قوله تعالى: ﴿إِن يَمۡسَسۡكُمۡ قَرۡحٞ فَقَدۡ مَسَّ ٱلۡقَوۡمَ قَرۡحٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ وبهذا يتحقَّق الجزء الثَّاني مِن الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾، والذي نلحظه مِن هذه التَّوجيهات أنَّها تتَّسم بالتَّنوُّع والشُّمول، فالنَّصر لا يتحقَّق إلَّا بتحقُّق هذين الأمرين في النَّفس البشريَّة، وفي هذا السِّياق لنْ يكون الإعداد النَّفسيُّ السَّابق للمعركة في معزلٍ عن أخذ العُدَّة والعتاد "فالنَّفس لا تنتصر في المعركة الحربيَّة إلَّا حين تنتصر في المعارك الشُّعوريَّة والأخلاقيَّة والنِّظاميَّة"(١).

○ موقع الآية (١٦٤) وعلاقتها بسياق آيات الغزوة:

قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾

الآية في سياقٌ يبرز فيه وجه المنَّة والتَّفضُّل في بعث الرَّسول ﷺ بلسان قومه، ولمناسبة الآية لما تقدَّم وجوهٌ:

- الآية واردة في سياق الغزوة تسليةً للمؤمنين لما أصابهم، فتصبير المحزون بذكر النِّعم فيه تذكيرٌ له بما يدفع عن قلبه الهمَّ والحزن، وهو متَّصلٌ في المعنى بقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٩].(٢) وفي هذا الوجه مِن المناسبة أيضًا تنبيهٌ إلى وجوب طاعة الرَّسول ﷺ المتفضِّل عليهم؛ لأنَّ المصيبة حلَّت مِن جهة مخالفة أمره. وهذا الوجه ينظر إلى الامتداد الأبعد للآية.

-بعد أن ذكر الله ﷻ تبرئة الرَّسول ﷺ مِن الغلول وهو قائم مقام التَّخلية، أتبعه بالتَّحلية بذكر فضائله على المؤمنين مبالغةً وتأكيدًا، ويترتَّب على هذا الثَّناء الحثُّ على

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤٥٩).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٥٧).

طاعته، والتَّحذير مِن معصيته ومخالفة أمره؛ لأنَّه "لَمَّا كان في الشَّرف والمنقبة بحيث يمنُّ الله به على عباده وجب على كلِّ عاقلٍ أنْ يعينه بأقصى ما يقدر عليه، فوجب عليكم أنْ تُحاربوا أعداءه، وأنْ تكونوا معه باليد واللسان والسَّيف والسِّنان، والمقصود منه العود إلى ترغيب المسلمين في مجاهدة الكفَّار"(١)، وهذا الوجه مِن المناسبة ينظر إلى الامتداد البعيد للآية.

-ذكر الله ﷻ الفريقين مَن اتَّبع رضوانه، ومَن باء بسخطٍ مِن الله، ثمَّ ابتدأ السِّياق الحديث عمَّا مَنّ الله به سبحانه على الفريق الأوَّل، الذين اتَّبعوا رضوانه، ثمَّ أعقبه بحديثٍ عن المنافقين(٢)، فهو كاللف والنَّشر المرتَّب الذي يتجاوز حدود الجملة إلى النَّظر في السِّياق. ويترتَّب على هذا الوجه التَّرغيب في طريق الرِّضوان والتَّحذير مِن طريق السَّخط. وهذا الوجه ينظر إلى الامتداد الأقرب للآية.

والآية الكريمة تمهيدٌ لعتاب المؤمنين(٣) -كما سيأتي في الآيات اللاحقة- لأنَّها تضمَّنت توفيق الله للمؤمنين ببعث الرَّسول ﷺ إليهم، وتهيئتهم لتحقيق النَّصر، ولكنَّ التَّقصير جاء مِن عند أنفسهم.

وبهذا نخلص إلى أنَّ موقع الآية الكريمة مِن النَّظم جاء متمركزًا لتحقيق التَّرابط بين الآيات مع مراعاة مقام المخاطَبين، وأثر هذا الخطاب في نفوسهم.

وممَّا يُلحظ في موقع الآيات اللاحقة وسياقها أنَّ الإشارة إلى صنيع المنافق عبد الله بن أبيٍّ ورجوعه عن القتال لَمْ تأتِ إلَّا في نهاية التَّعقيب على الأحداث، على الرغم مِن أنَّ زعزعته للصَّفِّ كانت مِن أوائل الأحداث، واستدعى ذلك إكمال التَّصوُّر الإسلاميِّ في تعقيبه على الأحداث، بين الإقرار والتَّذكير، واللوم والعتاب، ثمَّ

(١) مفاتيح الغيب: (٩/ ٨٠).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ١٠٢).

(٣) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: (١/ ٧٤).

التَّحقير مِن شأن ذلك المنافق؛ لأنَّه كان عظيمًا في قومه وأتباعه، فكان تأخيره عن التَّصدير، وإدخاله في جملة المنافقين، وعدم الإشارة إليه؛ ليبقى نكرةً في جملة المنافقين كما يستحقُّ أنْ يكون[1].

وهذا يُوقع في النَّفس أنَّ قيمة الأشخاص تكمن في اتِّباعهم للحقِّ، وأنَّ ميزانهم الحقيقيَّ في بُعدهم أو قربهم مِن الإيمان.

(١) ينظر: في ظلال القرآن: (١/ ٥١٦).

الفصل الثاني

أثرُ اختيار الكلمة في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه مبحثان : –

- **المبحث الأوَّل:** أثر اختيار مادَّة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.
- **المبحث الثَّاني:** أثر اختيار هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.

* *   * ** *   * *

المبْحثُ الأوّل: أثر اختيار مادّة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

افتُتح الحديث عن أحداث غزوة أُحُدٍ بذكر أحداث الخروج إلى أرض المعركة، وما صاحبها من انحسار فريقٍ مِن جيش المسلمين، وما همَّتْ به الطَّائفتان مِن اتِّباع المنشقِّين فقال تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢١ – ١٢٢] واصطفي في التَّعبير عن خروج النَّبي ﷺ كلمة ﴿أَهْلِكَ﴾ أيْ بيتَ أهلكَ، أو مِنْ عندِ أهلك، قال الرَّاغبُ: "أهلُ الرَّجلِ: مَنْ يجمعُه وإيَّاهم نسبٌ أو دينٌ، أو ما يجري مجرَاهما من صناعةٍ وبيتٍ وبَلَدٍ، وأهلُ الرَّجلِ في الأصلِ: من يجمعُه وإياهم مسكنٌ واحدٌ، ثم تُجُوِّزَ به فقيلَ: أهلُ الرجلِ لمن يجمعُه وإياهم نَسَبٌ، وتُعورفَ في أسرةِ النَّبيِّ عليه الصلاة والسلام مطلقًا إذا قِيلَ: أهلُ البيتِ لقوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الأحزاب:٣٣]، وعبَّرَ بأهلِ الرَّجلِ عن امرأتِه"(١) وأكثر أهل التَّفسير على أنَّ المقصودَ بالأهلِ هنا عائشةُ(٢).

وفي ذكْر الأهل واصطفائه عن البيت مزيدُ خصوصيَّةٍ بمَنْ يتعلَّق بهم الإنسان للدَّلالة على جدِّيَّة الأمْر، والانتقال مِن حالِ الرَّاحة إلى حال الشِّدَّة والبأس، وفي ذلك تثقيف للنَّفس بأنَّ الجهاد مِن أعلى مقامات القُربى لله ﷻ؛ لأنَّه إيثارٌ للباقي على الفاني، وكبحٌ لجماح النَّفس وما تشتهي.

كما اصطفيت كلمة (القتال)، وهي أعلى مِن (الحرْب)؛ لأنَّها أَدَلُّ على وصفِ الإثخانِ والنَّيلِ مِن العدوِّ، فسمَّى الحربَ باسمِ أرجى مَا يُطلبُ فيها وهو القتلُ(٣).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (أهل).

(٢) ينظر: بحر العلوم: (١/ ٢٩٥) والتحرير والتنوير: (٤/ ٧١).

(٣) تميّزَ اللفظُ القرآنيُّ بهذا التركيبِ فحسُنتْ إضافةُ المقاعدِ إلى القتالِ في هذا الموضعِ وإلى السَّمعِ =

واصطفاء الكلمة هُنا أدلُّ على المعنى مِن الجهاد؛ لأنَّ وسائل الجهاد عديدةٌ تتحقَّق بالقتال ودونه، بينما القتال له خصوصيَّةٌ بالميدان والمعركة[1].

وفي شأن الطَّائفتين اصطُفيت كلمة﴿هَمَّت﴾، و"الهَمُّ: دونَ العزْمِ، وأوّلُ ما يمرُّ الأمرُ بالقلبِ يُسمَّى خاطرًا، فإذا تَردَّدَ صارَ حديثَ نَفْسٍ، فإذا ترجَّحَ فِعلُه صارُ همًا، فإذا قَوِيَ واشْتدَّ صارَ عزمًا، فإذا قَوِيَ العزمُ واشْتدَّ حصلَ الفعلُ أو القولُ "[2]

ومِن هنا يظهرُ أنَّ الهمَّ والعزمَ فعلانِ قلبيانِ ليسَ لهُما أثرٌ على الجوارحِ، إنَّما الفارقُ بينَهما في مِقْدارِ هذه الإرادةِ، فالهَمَّةُ ابتداءُ الخاطِرِ والنِّيَّةِ والعزمُ قطْعُ الرَّويةِ في الإقدامِ أو الإحْجامِ.

واصطفاء لفظ الهمِّ على العزم بما فيه مِن دلالةٍ على أقلِّ الخَطْرَةِ، يُؤذن بإحاطة الله ﷻ بأيِّ خطرةٍ مِن خطرات الإنسان، فالله ﷻ علم ما أرادوه وهو هم يتردَّد في الصُّدور، وهذا يغرس مراقبة الله ﷻ في كلِّ ما يصدر مِن الإنسان مِن الهمِّ أوالقول أو الفعل.

وقولُه: ﴿طَّآئِفَتَانِ﴾الواحدُ منها طائفةٌ "والطَّائفةُ إذا أُريدَ بها الجمعُ فجمعُ طائفٍ، وإذا أُريدَ بها الواحدُ فيصحُّ أنْ يكونَ جمعًا، ويُكنَّى به عن الواحدِ"[3] وتُطلقُ على الواحدِ فأكثرَ، والمقصودُ في الآية بنو حارثةَ وبنو سَلِمةَ

= في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ [الجن: ٩] حيثُ جاءتْ الإضافةُ مُتمكِّنةً في موضِعها لا لَبْسَ ولا قُبْحَ فيها، وقد جاءت مستكرهة في مثل قول الشَّريف الرضيِّ:

أَعْزِزْ عليَّ بأنْ أَرَاكَ وقَدْ خَلَتْ ... مِنْ جَانِبَيْكَ مَقَاعِدُ العُوَّادِ

لأنَّ إضافةَ مقاعدَ إلى العوّاد قبيحٌ في مثل هذا الشأنِ لأنَّه ممَّا يُكره ذكرُه. ينظر: سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي: (٧٥ و ١٠٠)، تحقيق: عبد المتعال الصعيدي، نشر مكتبة محمد صبيح، ١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩م. والمثل السائر: (١/ ١٨٩).

(١) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: (١٣٨ و ١٤١).

(٢) البحر المحيط: (٣/ ٤٤).

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (طوف).

وفي التَّعبيرِ بالطَّائفةِ عن القبيلتينِ اللتينِ همَّتا بالرُّجوعِ كنايةٌ لطيفةٌ، وسترٌ مِن الله ﷻ إذْ لمْ يُصرِّحْ بهاتينِ الطَّائفتينِ، ولمْ يُعيِّنْ مَن هُما، فهو غايةٌ في اللُّطفِ والرَّحمةِ بعبادهِ، وهو ترغيبٌ منه سبحانه في إمهال المقصِّر؛ ليعود عن غيِّه وتقصيره[1]. وسَمَّى الله ﷻ القبيلتين اللتين همَّتَا بالرُّجوع (طائفتان) ولَمْ يذكرهما وهو بهذا يُسدل عليهم ستر الرَّحمة والعفو والمغفرة، وهذا المنهج الرَّبانيُّ هو ما علَّمه رسول ﷺ حين كان يستر ويكنِّي فيقول: ما بال أقوامٍ كذا وكذا؟!

وفي سياق التَّعزية والتَّسلية لما أصاب المؤمنين من الجراح في غزوة أحد يأتي اصطفاء الكلمات حاثًّا المؤمنين على الصَّبر بما تُوحيه من ضرورة التَّصبُّر، فقوله تعالى ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠]نلحظ فيه اصطفاء كلمة (المسِّ)، و المسُّ: جسُّ الشَّيء باليد[2]، وفيها دلالةٌ على الخفَّة، مقابل كلمة اللمس[3]، والتَّعبير عن الإصابة بالمسِّ فيه إشارةٌ تثقيفيَّةٌ إلى أنَّ ما يَنال الإنسان في هذه الحروب يستلزم منه الصَّبر، فعدَّه تعالى مِن المسِّ، في مقابل ما ينبغي أنْ يتحمَّله المؤمن في سبيل رفعة هذا الدِّين.

ونلحظ اصطفاء كلمة المسِّ في هذا السياق بينما اصطفيت الإصابة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢] وكلاهما أسند للقرح، فلماذا اختلف التَّعبير تارة بالمسِّ وأخرى بالإصابة؟

أوَّل ما ينبغي التَّنبُّه إليه الفرق الدَّلالي بين المسِّ والإصابة، فإيحاء كلمة المسِّ يوحي بالخفَّة، والسُّرعة، أمّا الإصابة فتُوحي بالتَّمكُّن من تحديد الهدف، والظَّفر

(١) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٤٧).

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٩٨).

(٣) ينظر: دراسات جديدة في إعجاز القرآن: (٩١).

بالمبتغى، وفي فلك هذين الإيحاءين، نستحضر السِّياقين، سياق كلمة المسِّ سياقٌ يدعو إلى الحثِّ على الصَّبر، وعدم الاستسلام، والتجلُّد في مواقف الحرب، والنَّهي عن الحزن والخور، وهو سياقٌ يدعو إلى استصغار كلِّ ما يلاقيه الإنسان في هذا الطَّريق من أجل تحقيق النَّصر، فجاء في هذا السياق اصطفاء المسِّ بما يعكسه في النَّفس من الخفَّة لتوقُّع ماهو أشدُّ، وإعداد النَّفس لمثل هذه المواقف.

أمَّا سياق الإصابة، فهو في سياق الثَّناء على المؤمنين الذين انتصروا على أحزانهم وجراحاتهم، وهبُّوا مستجيبين لنداء الله ورسوله، مع عمق الجراح التي أثقلت كواهلهم، فناسب التَّعبير بالإصابة معرض الثَّناء عليهم بما تحمَّلوه من الآلام، ولعلَّ في تنكير (قرح) مع المسِّ للدلالة على التَّقليل والتَّهوين من شأنه، وتعريفه مع الإصابة للمبالغة إشارةً إلى هذا المعنى، والله أعلم.

وجاء التَّعبير بالمسِّ دلالة على نفي القدر الضئيل في سياق الثناء على المستجيبين للخروج بعد إصابتهم بالجراح في قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ والمفهوم مِن السِّياق نفي الإصابة تمامًا، ولو بأقلِّ القليل، ويناسبه المسُّ لا اللمس؛ لما فيه مِن المبالغة في المقدار المنفيِّ.

ولاصطفاء هذه الكلمة أثره في استحضار امتنان الله ﷻ على تلك الفئة التي خرجت استجابةً لأمر الله ورسوله ﷺ، ومِن وجهٍ آخر فيه تحسيرٌ لنفوس المنافقين الذين أغاظهم الخروج والرُّجوع بسلامٍ.

وعودًا إلى سياق الآية (١٤٠) اصطفيت كلمة﴿قَرۡحٞ﴾، والقَرح يُطلق على الجراحات وأثرها، وقيل القَرْح (بالفتح) الجراحات بأعيانها، والقُرح (بالضَّمِّ) ألمها[(١)]، وهو هُنا استعارةٌ للانهزام والانْكسار[(٢)]، شُبِّه فيه الانهزام بالثُّلمة والانكسار بجامع الأثر الذي يُحدثه في قعود الإنسان عن نيل مراده، استعارةً تصريحيَّةً أصليَّةً،

(١) ينظر: لسان العرب: (قرح).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ٩٩).

واصطفي القَرح على الجَرح؛ لأنَّ القَرح يغلب استعماله في الدَّلالة على النُّدوب العميقة والثُّلوم، بينما الجراح تُستعمل في الشَّقِّ ونحوه، ولعل في هذا إشارةٌ إلى أنَّ القَرْح مستعملٌ مِن جهة أثره فيهم، والمسَّ مستعملٌ مِن جهة إيقاعه، فما لاقوه إنَّما هو مسٌّ في وقوعه مِن جهة ما ينبغي على المؤمن تحمُّله في هذا الطَّريق، وما لحقهم في ذلك اليوم من مصائب عظيمةٍ، فينبغي على المؤمن أنْ يُعدَّ نفسه للتَّحمُّل في هذا الطَّريق.

ونلحظ مراعاة الجانب التَّرغيبي الذي تسلو به القلوب عن أحزانها في اصطفاء كلمة (يَتَّخِذ)، فالاتِّخاذ يختلف عن الأخذ في حيازة الشَّيء للاستمرار فيه(١)، واصطفاء كلمة الاتِّخاذ مِن بين المقارِبات الدَّلالية مثل الاختيار أو الاصطفاء؛ لأنّ في الاتِّخاذ دلالةَ الاستمرار كما تقدَّم، ولما في الاتِّخاذ مِن معنى التَّشريف والتَّكريم "لأنَّ مَن اتَّخذ شيئًا لنفسه، فقد اختاره وارتضاه، فالمعنى ليكرم أناسًا منكم بالشَّهادة"(٢)، وحين يكون الاتِّخاذ من الله الغنيِّ، فهو مشعرٌ بالامتنان والفضل على أولئك المصطَفين، الذين اصطفاهم الله لهذا المقام، كما أنَّ التَّعبير بالفعل المضارع الدَّال على التَّجدُّد فيه دلالةٌ على أنَّ الاصطفاء مِن الله ﷻ متحقِّقٌ في كلِّ زمانٍ، فهو متجدِّدٌ بتجدُّد القتال لإعلاء كلمة الله ﷻ ففي اصطفاء الكلمة ترغيبٌ للمؤمنين لأنْ ينالوا هذا الفضل مِن الله الكريم.

وقد يحقِّق اصطفاء الكلمة الدعوة إلى التَّصبر بكشف سنن الله ﷻ في الابتلاء بما تحمله الكلمة من دلالاتٍ على التَّنقية والتَّهذيب ففي معرض التَّعليل لغايات المداولة يقول الحقُّ تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فاصطُفي الفعل (يُمَحِّص)، وأصل المحْص إنقاص الشَّيء ليشتدَّ أوليكون نقيًّا، أو لكثرة استعماله، ومِن هذا مَحْص الذَّهب، وهو تخليصه مِن الشَّوائب، وقالوا: فرسٌ محصٌ لأنَّه قليل

---

(١) ينظر: الفروق اللغوية: (١٥٧).

(٢) روح المعاني: (٢/ ٢٨٤).

لحم القوائم(١).

ويمحِّصه الله محَّصه تمحيصًا إذا نقَّاه مِن ذنوبه، وصيغة فعَّل دالةٌ على الشِّدَّة والمبالغة، وكانت أحداث غزوة أُحُدٍ بما أُصيب فيها المسلمون مِن ندوبٍ ومصائب تنقيةً للمؤمنين. والفرق بين المحْص والفحْص والمحْض والمحْق أنَّ المحْص تنقيةُ الشَّيء ممَّا يتَّصل به، والفحْص تنقيته ممَّا هو منفصلٌ عنه(٢)، أمَّا المحْض فيُطلق على الشَّيء على وجهه لمْ يُخالطه شيء(٣)، والمحْق فيه معنى الإنقاص والإذهاب، فهي معاني تجتمع في دلالتها على تخليص الشَّيء، وهو يستدعي الابتلاء والاختبار والامتحان كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤] لكنَّ المحص اختصَّ لشدَّة التَّنقية والتَّزكية لما يتعرَّض له المحَّصون، ونلحظ أنَّها أفعال ثلاثيَّة عينها الحاء، وهو حرْفٌ تشعر في سماعه بالاحتكاك، يقول ابن جنِّي "والحاء لَصحلها تُشبه مخالب الأسد، وبراثِن الذِّئب ونحوهما، إذا غارتْ في الأرْض"(٤) وهو معنى تصويريٌّ لما تشعر به النَّفس مع الصَّوت. والمحْص أكثر دقَّةً، وأشدُّ في التَّنقية، ولعلَّ في هذا إشارةٌ إلى أنَّ مثل هذه المصائب يعود ما فيها مِن الشِّدَّة والبلاء إلى تنقية النُّفوس ممَّا يشوبها، وأن على المؤمن أنْ يُوطِّن نفسه على الصَّبر والثَّبات؛ لأنَّ التَّمحيص المقصود يُفضي إلى رضا الله ﷻ كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الطَّريق طريقُ الخُلَّص الذين يصطفيهم الله ﷻ مِن كلِّ الشَّوائب؛ ليكونوا أهلًا لمحبة الله وفضله.

وفي مقابل تمحيص المؤمنين، اصطفيت كلمة (يَمْحق) في حق الكافرين، والمحق

(١) ينظر: لسان العرب: (محص).

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (محص).

(٣) ينظر: الفروق اللغوية: (٣٣٣).

(٤) ينظر: الخصائص: (٢/ ١٦٣).

إنقاص الشَّيء، ومنه انمحاق القمر[1]، وقيل هو إبطاله[2]، والمحق يكون في الأشياء لا في المفرد بعكس الإذهاب[3]، والتَّعبير بالمحْق يُفيد أنَّ مِن سنن الله ﷻ ألَّا يقضي على الكافرين جملةً واحدةً، بلْ يترك فيهم ما يقوم به الصِّراع بين الحقِّ والباطل، والتَّمييز بين نعمة الإسلام والكفر، وإنما تُوعِّد الكافرون بالإنقاص منهم إنقاصًا تقوم به القائمة للمؤمنين، والتَّعبير بالفعل المضارع يُفيد تجدُّد هذا العقاب واستمراره، وهذا حال الكفر والكفَّار مع الإسلام لا يزالون في تناقصٍ، ولا يزال الإسلام في ظهور، ولَمْ يظهر الكفر وتعلو رايته إلَّا عندما ضعف تمسُّك المسلمين بإسلامهم، وتركوا أسباب النَّصر والعزَّة والتَّمكين[4]. وفي استعمال المضارع كذلك تثقيفٌ للنَّفس بأنَّ علينا الاستمرار في العمل لتحقيق استمرار ما يقع على الكافرين، وبذا يكون المسلمون في استعدادٍ، فاصطفاء الكلمة دقيقٌ في موضعه، ممَّا يحقِّق لها قوَّةً في دلالتها، وعمقًا في أثرها.

وفي سياق تصوير حال حركة الارتداد والانهزام النَّفسي والحركيِّ، اختيرت كلمة (الانْقلاب) للتَّنفير من هذه الحالة في قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ﴾ [آل عمران:١٤٤] والانْقلاب مطاوع قَلَبَ، قلبته فانقلب انقلابًا، وفي الأغلب يُطلق على التَّغيير مِن حالٍ إلى حالٍ غريبةٍ، ويَشيع إطلاقه على الرُّجوع إلى المكان الذي يخرج منه؛ لأنَّ الرَّاجع عَكَسَ حال خروجه[5]، وفي اختيار الانقلاب بدلًا مِن الرُّجوع أوالنُّكوص مزيَّةٌ في تبشيع الجُرم، والتَّنفير منه؛ لأنَّ الانقلاب فيه إيحاءُ التَّحوُّل الكامل المفاجئ، ولاتجد ذلك في النُّكوص أو

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (محق).

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز: (٤/ ٤٨٧).

(٣) ينظر: الفروق اللغوية: (٣٤١).

(٤) ينظر: النظم في آيات الجهاد: (١٦١).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: (٩/ ٥١).

الرُّجوع، وهذا التَّعبير مناسبٌ لحال أولئك الذين كان منهم هذا التَّحول المفاجئ بمجرَّد سماعهم لخبر قتله.

وفي مقابل صورة الارتداد نجد استحضار النموذج الإيمانيّ مِن السَّابقين، الذين حملوا الهمَّ ذاته فلم تثنهم القلَّة أو موت أنبيائهم، وكان جزاء ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٨]، فاصطفي الإيتاء على الإعطاء؛ لما في الإيتاء مِن مبالغةٍ، فالإعطاء له فعلٌ مُطاوعٌ، تقول: أعطاني فعطوت، والإيتاء ليس له مطاوعٌ مِن جنسه، تقول: آتاني فأخذت، وماله مطاوعٌ مِن جنسه أضعف ممَّا ليس له؛ لأنَّ الفعل حينئذٍ لايتوقَّف على قبول محلِّه كما لو تقول: قطعته فانقطع، ونقول: قطعته فما انْقطع، وليس ذلك لما ليس له مطاوع، كما قتلته، فلا تقول: فما انْقتل، فدلَّ ذلك على أنَّ الإيتاء أقوى مِن الإعطاء[١]، كما أنَّ الإيتاء لا يكون إلا للشَّيء الكثير والعظيم[٢].

واصطفاء الكلمة بدلالتها على المبالغة والكثرة فيه ترغيبٌ في هذا الفضل العظيم، وحثٌّ للمؤمنين على الإحسان؛ لينالوا ما آتاه الله لعباده المحسنين.

---

(١) ينظر: البرهان: (٤/ ٨٥). وقد نسبه إلى الجويني، ونسبه السيوطي في الإتقان إلى الخويي. ينظر: (٢/ ٣٠٩) وكذلك الزبيدي نقلا عن ابن عبد الحق السنباطي في شرح نظم النقاية في علم التفسير. ينظر: تاج العروس من جواهر القاموس: (أتي) (٣٧/ ٣٤)، تحقيق: مصطفى حجازي، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. وكل ما اطلعت عليه من تحقيقات الإتقان نسبته للخويي، وللخويي كلام في التفريق في بين الإيتاء والإعطاء ذكره في تتمته لمفاتيح الغيب في قوله تعالى: (إنا أعطيناك الكوثر) ينظر: مفاتيح الغيب: (٣٢/ ١٢٣) ولكنه ليس النص ذاته، والزركشي والسيوطي كلاهما نقل عن الجويني والخويي، وأشير إلى أنني أحصيت أربعة مواضع نسب فيها الزركشي القول إلى الجويني، ونسبها السيوطي إلى الخويي. وقد بذلت جهدي في تحقيق نسبة القول إلى صاحبه فلم أوفق إليه لأن للعالمين كتبا مفقودة، ولم أجده فيما توفر لي من المطبوع، وإن كان الأقرب أنه للخويي لأنه يعتني بالتفريق بين المفردات.

(٢) ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: (٢٩).

ويجتمع في اصطفاء الكلمات ذات الدَّلالات المتقاربة المبالغة في التَّنفير، ففي سياق التَّهديد والوعيد للكفَّار لما ينتظرهم في الدُّنيا، وما أُعدَّ لهم في الآخرة يقول تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:١٥١] فاصطفيت في التَّهديد بعذاب الآخرة كلمة ﴿مَثْوَى﴾، وثوى يثوي ثواءً: أقام واستقرَّ[(١)]، ويجتمع المأوى والمثوى في دلالتهما على المصير، ويختلف المثوى عن المأوى في أنَّ المأوى المكان الذي يأوي إليه الإنسان ليلًا أو نهارًا[(٢)]، فلا يُراعى في دلالته الاستقرار كما في المثوى، فالثَّواء إذنْ فيه معنى الإقامة والمُكث؛ ولذلك جاء التَّعبير به عدولًا عن المأوى للدَّلالة على التَّرقِّي في العذاب والمبالغة فيه، مِن كون النَّار مأوى إلى كونها مثوى ومستقَّر، وفي ذلك دلالةٌ على التَّشديد في العذاب، والتأبيد في المُكث[(٣)]، والاصطفاء فيه وعيدٌ شديدٌ للمشركين، وتهديدٌ لهم بما ينتظرهم مِن العقاب الشَّديد.

ويمنُّ الله ﷻ على عباده موفيًّا وعده حال التزام المؤمنين بما شرطه عليهم من الصَّبر والتَّقوى فيقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، فاصطفي التَّعبير بالحَسِّ، وأصله إصابة الحاسَّة، ولمَّا كان يتولَّد مِن القتل استُعمل في معناه[(٤)]، وفي الحَسِّ معنى زائدٌ عن القتْل، وهو المبالغة فيه حدَّ الاستئصال والكثرة "وحَسَسْناهم أَيْ استَأْصلناهم قَتْلاً، وحَسَّهم يَحُسُّهم حَسّاً قَتَلَهم قتْلًا ذريعًا مستأْصلًا وفي التَّنزيل

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن (ثوى).

(٢) ينظر: لسان العرب: (أوا).

(٣) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٥٥).

(٤) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن (حسس).

العزيز ﴿إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦ﴾ أَيْ تقتلونهم قتلًا شديدًا[١]، فاصطفاء الكلمة هُنا له أثره الدَّلاليُّ المقصود مِن التَّمكين والسَّيطرة، ليتأمَّل المخاطَبون كيف صدق الله وعده حين حقَّقوا المشروط مِن الثَّبات، وكيف دارتْ عليهم الدائرة حين تخلَّوا عن أمره.

كما اختير الفعل ﴿صَرَفَكُمۡ﴾، والصَّرْف "ردُّ الشَّيء مِن حالةٍ إلى حالةٍ أو إبداله بغيره"[٢]، فالملمح الدَّلاليُّ في معنى الصَّرف التَّغيير، وفي سياق الغزوة وانقلاب الأحداث لَمْ يأتِ التَّعبير بالهزيمة، بلْ جاء بالصَّرْف؛ لأنَّ هذا التَّغيُّر في أحداث المعركة لَمْ يكن هزيمةً – ولَمْ يكن نصْرًا – باعتبار ما ترتَّب عليه مِن اصطفاء للشُّهداء[٣]، ومِن تمييزٍ للصَّفِّ المؤمن والمنافق، ومِن دروسٍ وعِبَرٍ في التَّعقيبات على المعركة. وهو يلفت إلى لطف الله ﷻ بعباده المؤمنين في اصطفاء الألطف بحالهم مع مخالفتهم الظَّاهرة التي نَدموا عليها.

وفي سياق عتاب الله ﷻ لعباده المؤمنين الذين فرُّوا عن أرض المعركة اصطُفي الفعل (أَثَابَ) في قوله تعالى: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ فَأَثَٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٣] وسُمِّيَ الجزاءُ ثوابًا، إمَّا بحمله على الحقيقة؛ لأنَّ الأصل في الثَّواب هو الرُّجوع، ويقال: "ثابَ الرَّجُلُ يَثُوبُ ثَوْباً وثَوَباناً رجَع بعد ذَهابه، ويقال ثابَ فلان إلى اللهّ وتابَ بالثاء والتاء أَي عادَ ورجعَ إلى طاعته، وكذلك أَثابَ بمعناه"[٤] فما يرجع إلى فاعله جزاءً على صنعه هو الثَّواب إنْ كان خيرًا أو شرًّا، ولكن كثُر استعمالُه في الخير. فإنْ حُمل على أصل الكلام كان حقيقةً

(١) لسان العرب: (حسس).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: (صرف).

(٣) ينظر: التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي: (٢/ ٢٩٩)، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

(٤) لسان العرب: (ثوب).

محمولًا على جانب الإثابة الإيجابيِّ؛ لأنَّه صَرَفَ عنهم بهذا الغمِّ غمومًا أكبر، ولذلك قال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ﴾، وإنْ حُمل على مقتضى الكثرة والاستعمال كان على سبيل التَّهكُّم(١).

وعدَّها ابن عاشور مِن المشاكلة التَّقديريَّة(٢) "لأنَّهم لَمَّا خرجوا للحرب خرجوا طالبين الثَّواب، فسلكوا مسالك باءوا معها بعقاب"(٣) فوجه المشاكلة تسمية العقاب ثوابًا؛ لوقوعه في صحبة ما طلبوه تقديرًا، وهو مسلكٌ مِن مسالك المجاز.

واصطُفي الثَّواب على الجزاء؛ لأنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ ما أصابكم هو عين ما فعلتم، مبالغةً لا شيئًا مترتِّبًا عليه "فيسمى الجزاء ثوابًا تصوُّرًا أنَّه هو هو"(٤).

والمعلم التَّثقيفيُّ لفت الأنظار لما في طيِّ هذه المصيبة مِن منحٍ عظيمةٍ منحهم الله ﷻ إيَّاها بعفوه وكرمه، وهو يُثير مشاعر النَّدم عندهم، لما يقابل به أولياءه في كلِّ موطنٍ "يلقاهم بالخير دائمًا، وبالفضل والإحسان في كلِّ متَّجهٍ، حتَّى ولو كانوا على غير ما يحبُّ الله منهم.. فإنَّه إذّاك يعاقبهم، ولكنَّه عقاب كلُّه رحمةٌ، وكلُّه خيرٌ، إذْ يعالج همومًا، ويدفع آلامًا"(٥).

وفي سياق إقامة الحجة على المنافقين، وإثبات قدرة الله ﷻ وإنفاذ قدره الذي كُتِبَ يقول الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [آل

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٤٢).

(٢) المشاكلة التقديرية: ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة غيره تقديرا، أي أن ما يقع في صحبته غير مذكور لفظا في الكلام بل دلت عليه القرائن الحالية والمقامية. ينظر: الإيضاح: (١٩/ ٤) ومعجم المصطلحات البلاغية: (٣/ ٢٥٩).

(٣) التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٢).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: (ثوب).

(٥) التفسير القرآني: (٤/ ٦١٧).

عمران:١٥٤] اصطفي الفعل (بَرَزَ)، والبراز هو الفضاء، وبَرَزَ حصل في بَرَازٍ بالذَّات أو الفَضَل[١]، وهذا يعني أنَّ البُروز يستلزم الظُّهور والوضوح، و"الباء والرَّاء والزَّاء أصلٌ واحدٌ، وهو ظهور الشَّيء وبُدُوُّه، قياسٌ لا يُخْلِفُ"[٢] فهو يختلف عن الخروج؛ لأنَّ الخروج لا يستلزم الظُّهور والوضوح، وكلمة البُروز تتميَّز بملمح الشِّدَّة والبأس[٣]، فالمعنى الذي يدلُّ عليه اصطفاء الكلمة أنَّه لا اختيار للنَّفس إذا وقعت أقدار الله ﷻ، وأنَّه إذا كتب الله على نفسٍ الموت ستخرج خروجًا بيِّنًا واضحًا مبالغةً في انْسياق النَّفس لما كتب الله عليها، فاصطفاء الكلمة له أثره في استشعار قدرة الله ﷻ على إنفاذ أمره إذا وَقَعَ، وهو ما يدفع بالنَّفس إلى التَّوكُّل عليه، وتسليم الأمور إليه.

ويأتي اصطفاء الكلمة محقِّقا أثره التَّثقيفيَّ لما تدلُّ عليه الكلمة من مبالغة تفوق بها المقاربات الدَّلالية لها، ففي سياق الامتنان على المؤمنين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤] اصطفيت كلمة﴿مَنَّ﴾، والمنُّ في أصل اللغة القطع، وفي اللسان: "مَنَّهُ يَمُنُّه مَنًّا قطعه، والمَنِينُ الحبل الضَّعيف، وحَبلٌ مَنِينٌ مقطوع"[٤]، والمنَّة النِّعمة الثَّقيلة[٥]، وهو المعنى المقصود في سياق الآية؛ لأنَّ بعْث الرَّسول ﷺ مِن أعظم المنن التي سخَّرها الله للبشريَّة لإخراجها مِن الظلمات للنُّور، وسُمِّيت النِّعمة الثَّقيلة منَّةً؛ لأنَّه يُقطع بها عن الحاجة أو"لأنَّه يُقطع بها عن البليَّة"[٦].

(١) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (برز).

(٢) معجم المقاييس في اللغة: (برز).

(٣) ينظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم: : (١٠٩).

(٤) لسان العرب: (منن).

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (منن).

(٦) روح المعاني: (٢/ ٣٢٤).

فالإشارة التَّثقيفيَّة إلى اختيار كلمة ﴿مَنَّ﴾ واصطفائها على مثيلاتها، مثل النِّعمة أوالتَّفضُّل لما في المنِّ مِن دلالة ثِقَلِ النِّعمة وعِظَمِها، وهذا يستوجب على النَّفس استشعار ذلك الفضل العظيم، والقيام بواجب شكره بطاعة الرَّسول ﷺ، واجتناب مخالفة أمره.

وتصوِّر الكلمة باصطفائها على المقاربات الدَّلالية ماله دلالةٌ بالصُّورة النَّفسية والشُّعورية، وهو ما نلحظه في اختيار ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ في قوله تعالى ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا ۖ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧]والفاه أصل الفم[(١)]، وكلُّ ماوَرَدَ في القرآن مِن تعليق حكم القول بالفاه فهو إشارةٌ إلى الكذب، وإلى عدم مطابقة القول للاعتقاد[(٢)]، واصطفي الفوه على اللسان[(٣)] في هذا الموضع للمبالغة في التَّمكُّن والاستحكام، ومن كلام العرب: تكلَّم بملىء فيه، إذا أرادوا المبالغة، وهؤلاء تمكَّن النِّفاق مِن قلوبهم واستحكم[(٤)]. فالتَّعبير يشير إلى صورة إغراقهم في الكذب، في فضحٍ لصفات المنافقين؛ ليتجنب المؤمن الانزلاق مع تلك الدَّعاوى وتصديقها.

وكذلك اختيار (القُعُود) في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا ۗ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨]، فالقعود يقابله القيام[(٥)]، تقول قام فقعد، أمَّا الجلوس فيُقال لمن كان نائمًا أو ساجدًا، ولذا فالقعود"انتقالٌ مِن علوٍّ إلى سفلٍ؛ ولهذا قيل لمن أُصيب رجله: قُعِد. والجلوس انتقالٌ

(١) ينظر: لسان العرب: (فوه).

(٢) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (فوه).

(٣) كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ [الفتح: ١١].

(٤) ينظر: ملاك التأويل: (١/ ٣٢٤).

(٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن: (قعد).

مِن سفلٍ إلى علوٍّ"[١]، كما أنَّ القعود لما فيه اللبث، خلافًا للجلوس؛ ولهذا يُقال: قواعد البيت، وجليس الملك[٢]، فاختيار القعود بما يدلُّ عليه الانتقال مِن علوٍّ إلى أسفل يُوحي بالدَّعة والكَسَل والخذلان؛ لأنَّه الانتقال إلى حالة سلبيَّةٍ، وهذا يأتي منسجمًا مع صفة المنافق الذي أَلِفَ الجُبن والذُّلَّ والهوان، وعدم الاستعداد المطلق لتغيير الحال إلَّا للأسوأ، للاضطجاع والغفلة والنَّوم، واقترن بهذه الحركة القول الدَّال على الصُّورة ذاتها، المظهِر للجبن، فقعدوا قولًا واعتقادًا وفعلًا[٣].

فالاصطفاء يمثِّل صورةً نفسيَّةً دقيقةً تُوحي بنفسٍ متخاذلةٍ جبانةٍ، وهو بهذا الاصطفاء يحذِّر المؤمنين مِن أنْ يقعدوا كما قعدوا، وينفِّرهم مِن هذه الصُّورة المقيتة مِن التَّخاذل، كما يحقِّر المنافقين الذين ظهروا في هذا المظهر المُخزي الفاضح.

وتصوِّر الكلمة الشُّعور النَّفسيَّ عند المخاطَبين الذين تلقَّوا أخبار التَّثبيط بالإيمان العميق، فكلمة ﴿ٱلنَّاسَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] تعكس تصوُّر الموقف العصيب الذي يخيَّل فيه أنَّ الأعداء هم النَّاس كلهم والمقصود مِن لفظ النَّاس المذكور أوَّلًا بنو عبد القيس، والمذكور ثانيًا أبو سفيان ومَن معه مِن المشركين، واصطفيت كلمة النَّاس على الجمع؛ لما في ذكر النَّاس مِن تهويل الخَطْبِ، وقصد خلخلة ثبات الفئة المؤمنة، فترتَّب على ذكر النَّاس معرفة إيمان المؤمن مِن نفاق المنافق؛ لأنَّ المِحَنَ لا يثبت فيها إلَّا الصَّادق[٤].



(١) الكليات: (٧٢٨).

(٢) ينظر: الموضع السابق.

(٣) ينظر: تأملات في سورة آل عمران للدكتور حسن با جودة: (٤٩٦)، نشر النادي الأدبي الثقافي بجدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

(٤) ينظر: نمو المعاني: (٢٠٧).

المبْحثُ الثَّاني: أثر اختيار هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

أثر التَّعبير بالاسم أو الفعل:

يظهر أثر اصطفاء الاسم لما يختصُّ به مِن الدَّلالة على الثَّبات والدَّيمومة، ففي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٢١] نلحظ اختيار لفظ ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو وصفٌ اصطفاه اللهُ ﷻ لعبادهِ الذين ثَبتُوا مع رسولِ الله ﷺ، ولمْ يخذلوهُ كما خذلَهُ المنافقونَ، وهذا اللقب أحبُّ ماينادي به الله ﷻ عباده؛ لأنَّه يناديهم بعنوان العقيدة، وإطلاق لفظ المؤمنين عليهم يحرِّك جذوة الإيمان في النُّفوس، ويذكِّرهم بمستلزمات هذا الإيمان في القتال، فهم يُقاتلون لأنَّهم مؤمنون بالله ﷻ، وينافحون لأجل الإيمان، فهي مرحلةٌ تتجاوز الاستسلام والرِّضا إلى التَّيقُّن والذَّود عن الحقِّ، وهكذا تجد النَّظم القرآنيَّ ينتقي مِن الألفاظ ما يكون غنيًّا ببثِّ المعاني والدَّلالات، فتجد لغته تثير انفعالاتٍ مِن حيثُ مضمونها النَّفسيِّ للقارئ والسَّامع[1]. واصطفي (المؤمنين) على الذين آمنوا للدَّلالة على أنَّ أولئك الذين ساروا معك حتَّى بوأتهم أماكنهم للقتال قد بلغوا مبلغًا مِن الإيمان الثَّابت الذي عمر قلوبهم، حتَّى استحقوا أن يكونوا موصفين به، على الرغم مِن ترك بعضهم لأماكنهم، إلَّا أن الحقَّ سبحانه عفا عنهم. وفي ذلك تثقيفٌ للنَّفس بأن توطِّد الإيمان في القلوب، فبمقدار تحقُّقه يتحقق الثَّبات على الأرض.

ونلحظ كذلك اصطفاء ﴿الصَّابِرِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل

(١) ينظر: علم النفس اللغوي للدكتورة نوال محمد عطيّة: (١٤ و ١٠٠)، نشر المكتبة الأكاديمية، مصر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م.

عمران:١٤٦] والآية الكريمة تسوق أخبار أتباع الأنبياء من الأمم السّابقة وتصبُّرهم وتجلُّدهم في هذا الطَّريق، ثمَّ تثبت محبة الله للصابرين، واصطفي التَّعبير بالاسم، وفي ذلك تثقيفٌ للنَّفس مِن خلال ما يأتي:

١- التَّعبير جاء مشتقًّا باسم الفاعل؛ لما تحمله الاسميَّة مِن الدَّلالة على الثَّبات والدَّيمومة، فشأن أولئك الذين يحبُّهم الله أنَّهم صابرون في كلِّ الأحوال.

٢- التَّعبير جاء بالجمع (الصَّابرين)، فيُفيد أنَّ أمر الجماعة محمودٌ في تصبُّرهم لما فيه مِن التَّآزر، والتَّعاون على الثَّبات والصَّبر.

٣- أظهر وصف الصَّابرين مع سبق الإشارة إليهم إظهارًا لهذه المزيَّة فيهم، وحضَّ المخاطَبين على التَّصبُّر، فذكرها لتمكينها في النُّفوس.

ويأتي اصطفاء الاسم ليحقِّق كمال التَّوكل على الله، مع كمال القدرة، ففي قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ﴾[آل عمران:١٦٠] اصطفيت كلمة (غَالِب) دون الفعل (يَغْلِب)؛ لتأكيد النَّفي بما يدلُّ عليه الاسم مِن الدَّيمومة، مع دلالة النَّفي هنا على نفي الذَّات والصِّفة؛ لأنَّ النَّفي واقعٌ على الجنس، يقول أبو السُّعود في تأويل النَّفي: "فلا أحدَ يغلِبُكم على طريق نفي الجنسِ المنتظِم لنفي جميعِ أفرادِ الغالبِ ذاتًا وصفةً ولو قيل: فلا يغلبُكم أحدٌ لدلَّ على نفي الصِّفة فقط"[١]، وهذا التَّأكيد مِن الله ﷻ، يحثُّ النُّفوس على التَّعلُّق به، وابتغاء النُّصرة مِن عنده. وفي المقابل فكذلك مَن يخذله الله ﷻ فلن تجد له ناصرًا، وهذه المقابلة دالةٌ على تمام قدرته، وكمال تفرُّده.

أمَّا الفعل فيحقِّق اصطفاؤه الأثر النَّفسيَّ- بالنَّظر إلى دلالة الفعل وارتباطه بالزَّمن، ففي التَّعبير بالفعل المضارع نجد إبراز الفعل بصورته في الأذهان كأنه واقعٌ في لحظته، ففي قوله تعالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ [آل عمران:١٢١] نلحظ الفعل

---

(١) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٥).

﴿تُبَوِّئُ﴾ أي تُلزمُ[1] فتجعلُ لهم أماكنَ يُقاتلون فيها، وقدْ جَعلَ الرَّسولُ ﷺ لأصحابه أماكنَ يقاتلون فيها ولا يَبْرحونَها. و"أصلُ البَوَاءِ: مُساواةُ الأجْزاءِ في المكانِ خلافُ النُّبوِّ الذي هوَ منافاةُ الأجزاءِ. يُقالُ: مكانٌ بواءٌ: إذا لمْ يكنْ نابيًا بنازلِهِ، وبوَّأتُ له مكانًا: سوَّيتُه فتبَوَّأ"[2]. ونقلَ الطَّبريُّ قراءةِ ابنِ مسعودٍ (تُبَوِّئُ للمُؤْمِنِينَ)[3] على معنى: تُسَوِّي لهم وتُهيِّءُ.

والتَّعبيرُ بالفعلِ هُنا مُشعِرٌ بمباشرةِ الرَّسولِ ﷺ لهذا الإعدادِ والتَّخطيطِ، وإنزالِ المؤمنين مواضعَهم لأخذِ الأُهبةِ والاستعدادِ، وإرشادِهم لمهامِهم وواجباتِهم في الحربِ، وفي هذا تثقيفٌ للمؤمنين بضرورة التَّخطيط للقتال، والأخذ بالأسْباب.

وقد يكون مناط التَّثقيف في التَّعبير بالفعل المضارع لدلالته على الاستمرار والتَّجدُّد، وهو مايُلمس في سرِّ التَّعبير بالمضارع في ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ في سياق قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠]

والدَّولة والدُّولة (بفتح الدَّال وضمِّها) العقبة في المال والحرب"ومنه الإدالةُ الغَلَبَة، وأَدَالَنا الله مِن عدوِّنا مِن الدَّوْلة، يقال اللهم أَدِلْنِي على فلان وانصرني عليه"[4] والمداولة: معاودة الشَّيء ومعاهدته مرَّةً بعد أخرى[5].

فالكلمة تدلُّ على الغلبة مِن جهة، وعلى التَّنقُّل والمعاودة مِن جهةٍ أُخرى، وصيغة المضارع تدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، ممَّا يعني أنَّ هذه السُّنة مِن شأنها أنْ

(١) ينظر: معاني القرآن للنحاس: (١/ ٤٦٨).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: (باء).

(٣) ينظر: جامع البيان: (٧/ ١٦٤).

(٤) لسان العرب: (دول).

(٥) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٥٧).

تتجَّدد في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، ليتحقَّق به التَّمحيص والابتلاء.

وبدلالة صيغة الفعل على التَّجدُّد يُغرس في نفس المؤمن معلـمٌ تثقيفـيٌّ، وهـو أنَّ الله ﷻ كما ينصر عباده، فقد يُؤَخِّر عنهم النَّصر، ويعاقبهم بما أذنبوا، فلايركن المؤمن إلى دوام النُّصرة، وإنْ كان الله ﷻ مُعِزُّ دينه، وناصر شريعته، ولكن ليحقِّق لهم الغايات التي ذكرها في سياق الآية.

ومِن مناطات التَّثقيف في الفعل النَّظر إلى هيئةِ الفِعْل مِن حيثُ البناء للفاعل أوالمفعول، ففي سياق الوعظ والتَّذكير بالمآل والمصير نلحظ التَّعبير بالفعل المبنيِّ للمفعول ﴿تُحۡشَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمۡ أَوۡ قُتِلۡتُمۡ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحۡشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٨]، والحشر-"إخراج الجماعة عن مقرِّهم، وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها"(١)، والملاحظ في هذه الدَّلالة أنَّ الحشر يكون للمجموعة، كما أنَّ فيه اضطرارَ النَّاس إلى التَّدافع وانسياقهم، يقول أبو البقاء: "وإذا استُعمل بإلى يُشعر بالاضطرار والسَّوق"(٢)، فاصطُفي الحشر على الجمع لما فيه مِن الدَّلالة على كمال القدرة الإلهيَّة مِن سَوق النَّاس إلى المحشر، ولما فيه مِن تصويرٍ لمنظر ضعف النَّاس أمام قوَّة العزيز الجبار. وفي هذا تنبيهٌ إلى قدرته وقوَّته، وأن مصيرهم إلى قويٍّ عزيزٍ يُجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته، ولو عُبِّر بالجمع لانطفأ هذا الوجه مِن الوعظ والتَّرهيب.

وقد يكشف اختيار وجهٍ في القراءة معنى يُبرز معلمًا تثقيفيًّا لاختلاف دلالات معاني الصِّيغ في الأفعال، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨] وقرأ هشام (قُتِّلوا)(٣) بتشديد التَّاء للمبالغة والتَّكثير؛ وذلك لأنَّ المبالغة في وصف المقتولين كان

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (حشر).

(٢) الكليات: (٤١٢).

(٣) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٦).

لقصد المبالغة في أثر الجهاد والقتال في تخطُّف نفوس كثيرٍ مِن إخوانهم، واصطفاء الكلمة على هذا النَّحو له أثره في كشف تخبُّط التَّصوُّر لدى هذه الطُّغمة الفاسدة، وفساد المعايير التي يتحاكمون إليها، فكَشْفهم على هذا الوجه تحذيرٌ للمؤمنين مِن الانْقياد، والاغترار بالدَّعوى.

كما اصطفي فعل القتل على الاستشهاد؛ لأنَّ الكلام جاء على لسان المنافقين، وفي اصطفاء القتل إظهارٌ لرؤيتهم تجاه قضيَّة الاستشهاد في سبيل الله"وليس بخافٍ أنَّ المنافقين حينما يُشيرون إلى القتل إنَّما يُعبِّرون دون أنْ يشعروا بحقيقة نظرتهم إلى الشَّهادة في سبيل الله تعالى، وإلى الجهاد في سبيل الله تعالى. إنَّهم يرون الجهاد في سبيل الله تعالى قتالًا عاديًّا، ويرون الشهادة في سبيل الله تعالى قتْلًا عاديًّا"(١)؛ ولذلك جُرِّدَ الفعل عن متعلِّقه (في سَبِيلِ الله).

۞ أثر التَّعبير بالمفرد أو الجمع:

من معالم التَّثقيف المناطة بهيئة الكلمة العدول في التَّعبير من جمع الكثرة إلى جمع القلَّة خلافًا لمقتضى الظَّاهر، لقصد التَّحقير وعدم الاعتداد بتلك النُّفوس، ففي سياق ذكر حال المنافقين في غزوة أحد وما أصابهم من الذُّعر والاضطراب جاء قوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾[آل عمران:١٥٤]فاصطفي جمع القلَّة﴿أَنفُسُهُمۡ﴾ مع أنَّ التَّنكير في طائفةٍ يُوحي بالكثرة، فنُزِّل الكثير منزلة القليل؛ للدَّلالة على تحقير تلك النُّفوس، والتَّهوين مِن وجودها وأثرها في ثني العزائم، فالإشارة فيها إلى قلَّة الشَّأن وهوان المنزلة(٢). وللتَّحقير أثره التَّنفيريُّ مِن الاتِّصاف بصفات النِّفاق.

ونلحظ ذلك أيضا في قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٨] فالتَّعبير بالأنفس جمع قلَّةٍ، وهو محتملٌ للحقيقة بأنْ يكون

(١) تأملات في سورة آل عمران: (٤٩٧).

(٢) ينظر: الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ: (١٤٨ و ١٤٩).

الخطاب موجَّهًا لمن صدرت منهم هذه الأقوال، ومحتملٌ كذلك للمجاز باستعارة القلَّة للكثرة، فاصطفي جمع القلَّة على جمع الكثرة تحقيرًا لتلك النُّفوس، وأنَّها كثيرةٌ عددًا قليلةٌ مقامًا؛ لأنَّ صفة النِّفاق، حقَّرت تلك النُّفوس.

وقد يناط التَّثقيف بما يترتَّب على الوصف بجمع القلَّة كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [آل عمران:١٦٥]فاصطفي التَّعبير بالأنْفس مِن جمع القلَّة على وزن (أفعُل) دون النُّفوس بجمع الكثرة؛ دلالةً على أنَّ النُّكوص لَمْ يكن مِن الجميع، بلْ كان مِن بعضهم، ولكنَّ أثر تلك المخالفة مِن القليل لحقت بالجميع، وفي ذلك تحذيرٌ للنَّفس المؤمنة مِن التَّهاون في أمر الله ورسوله ﷺ، وأنَّ الله ﷻ قد يحرم الأمَّة النَّصر بذنوب القليل، فيكون ذلك دافعًا لأن يحقِّقوا تزكية أنْفسهم.

وقد يكون في اختيار اللفظ المفرد من الكلمة معلمٌ من معالم التَّثقيف كما في قوله تعالى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧١] في سياق تسلية المؤمنين بما أعدَّه الله للشُّهداء من فضل، فاصطفيت كلمة (نعمة) بالإفراد؛ لما في ذكْر الجمع مِن حصْر أنعمه بالعدد، وتقييده به، فالإفراد هُنا تمتدُّ ظلاله ليشمل كلَّ أجناس النِّعَم، فكان التَّعبير بالمفرد أكمل وأبلغ في شكر الله، وفي فرحهم واستبشارهم بما تفضَّل الله عليهم، يقول ابن القيِّم: "دخول الجمع يُشْعر بالتَّحديد والتَّقييد بعددٍ، وإفراده يُشْعر بالمسمَّى مطلقًا مِن غير تحديدٍ، فالإفراد.. أكمل وأكثر معنًى مِن الجمع، وهذا بديعٌ جدًّا أنْ يكون مدلول الفرد أكثر مِن مدلول الجمع"(١) وهو كلامٌ بديعٌ يكشف عن طريقة الدَّلالة على المقصود، فالنَّظر إلى المفرد يُنظر إليه مِن جهة إطلاقه، أمَّا الجمع فينظر إليه مِن جهة تقييده بالعدد.

(١) بدائع الفوائد: (٢/ ٦٧٥).

فالتَّعبير يكشف عن واسع فضله، وعظيم نعمته، وفي ذلك ترغيبٌ فيما أعـدَّه الله للشهداء من فضل عظيم، يجعـل الشـهادة في سـبيله مبتغـى المـؤمن، كـما أنَّ فيـه سـلوى للمكلومين بفقد ذويهم ممَّن قضوا نحبهم في هذه الغزوة وغيرها.



الرسالة

الفصل الثالث

أثرُ منْهاج التَّركيبِ في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه سبعة مباحــث : -

- **المبحث الأوَّل:** أثر أساليب العطف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الثَّاني:** أثر أساليب النَّفي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الثَّالث:** أثر أساليب التَّقابل في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الرَّابع:** أثر أساليب التَّأكيد في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث الخامس:** أثر أساليب النَّهي في تحقيق التَّثقيف النَّفسي.
- **المبحث السَّادس:** أثر التَّعبير بالجملة الاسميَّة أو الفعليَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.
- **المبحث السَّابع:** أثر التَّعبير عن المعنى بالجملة الخبريَّة أو الإنشائيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ.

* * * *** * * *

المبْحثُ الأوَّل: أثر أساليب العطف في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

أثر دخول لام التَّعليل في العطف:

في سياق ذكر علل سنة الله ﷻ في تقرير المداولة، وما يترتَّب عليها من الابتلاء والانكشاف والظهور، جاء قوله تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ۚ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٠ - ١٤١]، فنلحظ أنَّ اللام دخلت في العطف مع ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، ثمَّ دخلت اللام في العطف مع ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾، ولهذه اللام ما يقتضيه المقام تركيبًا ومعنًى، أمَّا التَّركيب فلأنَّه وقع الاعتراض بين العلل، فأعاد اللام ليدلَّ على أنَّ مابَعده متَّصلٌ في الحديث عن العلل[1]، أمَّا مِن ناحية المعنى فنلحظ دخول اللام على ماهو أشدُّ تأكيدًا لعمومه، فقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يتعلَّق بكلِّ فرْدٍ مِن أفراد المؤمنين ليجازيهم، أمَّا قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فهو اصطفاءٌ واختيارٌ لاينالُه كلُّ المؤمنين، وقوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كذلك يتعلَّق التَّمحيص بكلِّ مؤمنٍ، مع مافي قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وقوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ مِن الاشتراك في معنى التَّمييز، وظهور الإيمان الحقيقيِّ، وهذه العلَّة مرتبطةٌ ارتباطًا وثيقًا بسياق الابتلاء والمصيبة التي حلَّت بالمسلمين في غزوة أُحدٍ، فكان التَّأكيد مناسبًا للمقام وللمقصد الذي أشير إليه سابقًا مِن أنَّ مقصد هذا المقطع الحثُّ على الصَّبر، فيكون ذلك مِن أثر المقاصد على التَّراكيب.

والسِّياق ألصق بما هو أعنى للمسلمين، ولذلك قُدِّمتْ العلل التي تخصُّهم،

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩١).

فهذه "الأمورُ الثَّلاثـة علـلٌ للمداولـة المعهـودةِ باعتبـار كونها عـلى المؤمنين قُـدِّمت في الذِّكر لأنَّها المحتاجةُ إلى البيان"[1]

كما أنَّ في الآية الكريمة مقابلةً لطيفةً في المعنى؛ لأنَّ كـلًّا مِـن التَّمحيص والمحْق يـدوران حـول معنـى الإنقـاص والإذهـاب، فـما هـو متعلِّـقٌ بحـقِّ المؤمنين، فإنقـاص الذُّنوب، وماتعلَّق بالكافرين فإنقاص الأنفس[2].

ومِن معـالم التَّثقيـف أنَّ هـذه المفارقـة فيهـا التَّمييـز الواضـح بـين فضـل الإيـمان، ووبـال الكفـر، كـما أنَّ في تقـديم تمحيص المـؤمنين عـلى محـق الكـافرين تقـديمَ الفضـل الأخرويِّ الباقي على الغنيمة الدنيويَّة[3]، وإظهـار اسـمه الكـريم فـيما يتعلَّـق بـالمؤمنين للتَّنبيه إلى شأن هذا التَّمحيص، كما أنَّ في التَّمحيص خصوصيَّةً غيبيَّةً لايعلمهـا إلَّا الله ﷻ فناسـب إسـناده إليـه بالاسـم الظَّـاهر، كـما أنَّ إضـمار اسـمه الأعظـم فـيما يتعلَّـق بالكافرين يُفيد الحطَّ مِن شأنهم، وأنَّ إهلاكهم مِـن أيسرـ الأمـور وبأتفـه الأسـباب[4]، والتَّعبير بجملة الصِّـلة فيـه معنـى أدقُّ في الاتِّصـاف بالفعـل؛ لأنَّ الفعـل في حيِّـز جملـة الصِّلة جاء في الماضي دليلا عـلى اتِّصـافهم بـه، وفيـه مزيـد خصوصـيَّةٍ معنويَّـةٍ بأولئـك المبتَلين في مقابل العموم الذي يُفيده الوصف باسم الفاعل الكافرين.

ومِـن معـالم التَّثقيـف في هـذه الآيـة الحـثُّ على ضرورة التَّصـبُّر وإظهـار مقتضىـ الإيمان، ففيه يمتاز المؤمن عن غيره، فالمؤمن إذا أصابته سرَّاء شَكَرَ، وإذا أصـابته ضرَّاء صَبَرَ، كما أنَّ فيه تحريضًا للمؤمنين لكي يُظهروا استبسالهم وشجاعتهم في القتـال، فهـو موطنٌ مِن مواطن الاختبار والتَّمييز.

(١) إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ١٩) والبحر المحيط: (٣/ ٦٤).

(٣) ينظر: حاشية القونوي على البيضاي: (٦/ ٣٣٦).

(٤) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: (١٦٠).

أثر ترتيب الأوامر في عطف الجمل:

في معرض سياق غزوة أُحُدٍ، والتَّعقيب على أسباب المصيبة، يذكر الله ﷻ ما امتنَّ به على رسوله ﷺ مِن صفاتٍ قياديَّةٍ، جعلته ثابتًا في موقفٍ كان يمكن أنْ تَطيش فيه العقول، وتُتَّخذ فيه أشدُّ العقوبات لمخالفة أمره ﷺ، وتلك منةٌ عظيمةٌ مِن المنن التي يمنُّ الله بها على عباده، وليعلمهم أنَّ الرَّسول ﷺ هو الذي انتصر في هذا الموقف، وخسر مَن خَسِرَ مِن الذين فرُّوا عنه، فيقول تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران:١٥٩]والفاء لترتيب مضمون الكلام على ماتقدَّم في السِّياق مِن استحقاقهم للَّوم والتَّأنيب(١)، وتقدَّم المتعلِّق(بما) على الفعل (لِنْتَ) للدَّلالة على الحصْر، والمعنى: "ما لِنْتَ لهم هذا اللين الخارق للعادة ورفقت بهم هذا الرِّفق بعدما فعلوا بك إلَّا بسبب رحمةٍ عظيمةٍ مِن الله الحائز لجميع الكمال"(٢)، فهو مِن قصر الموصوف على الصِّفة تحقيقًا، وفي ذلك تعظيمٌ لهذه المنَّة العظيمة والرَّحمة الواسعة، وأشير إلى سعتها بتنكير (رحمة)، وإثبات المتعلِّق(من الله)؛ لتُفيد أنَّها رحمةٌ إلهيَّةٌ عظيمةٌ، وفي القصر تعريضٌ بأنَّه صَدَرَ مِن أصحابه ما يستدعي غضبه، والغلظة عليهم، فامتنَّ الله عليهم بإلانة جانب الرَّسول ﷺ؛ لما علمه مِن مصلحةٍ لهذه الأمَّة(٣)، و(ما) مزيدةٌ جرِّدتْ عن معنى النَّفي؛ لتأكيد هذا الحصر(٤)، وكلام البقاعيِّ يُوحي ببقاء دلالة النَّفي وإفادته معنى الحصر، يقول: "والذي اقتضى هذا الحصر هو ما لأنَّها نافيةٌ في سياق الإثبات، فلم يمكن أنْ تُوجَّه إلَّا إلى ضدِّ ما أثبته السِّياق"(٥) والذي

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٥).

(٢) نظم الدرر: (٢/ ١٧٣).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٤٤).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧٩) والكشاف: (١/ ٣٣٠).

(٥) نظم الدرر: (١٧٣/٢).

أثبته السِّياق حصر اللين برحمةٍ مِن الله، فتوجَّه نفي (ما) إلى ضدِّ ما أثبته السِّياق، أي ليس بفضل أحدٍ دون الله، أو رحمةِ غيره، ونقل أبو حيَّان وجهًا آخر فيه تأكيدٌ بطريق الإطناب، فقال: " ذهب بعض النَّاس إلى أنَّها منكرة تامَّة، ورحمةٌ بدلٌ منها. كأنَّه قيل: فبشيء أبهم، ثمَّ أبدل على سبيل التَّوضيح، فقال: رحمةٌ"[1] وهو أوقع في النَّفس مِن جهة إثارة الدَّافعيَّة لمعرفة الشَّيء بعد خفائه، وجلائه بعد إبهامه. وجعل الرَّازيُّ (ما) استفهاميَّةً دالَّةً على التَّعجُّب، يقول: "يجوز أنْ تكون (ما) استفهامًا للتَّعجُّب تقديره: فبأيِّ رحمةٍ مِن الله لنْتَ لهم، وذلك لأنَّ جنايتهم لَمَّا كانت عظيمةً ثمَّ إنَّه ما أظهر ألبتَّة تغليظًا في القول، ولا خشونةً في الكلام، علموا أنَّ هذا لا يتأتَّى إلَّا بتأييدٍ ربَّانيٍّ، وتسديدٍ إلهيٍّ، فكان ذلك موضع التَّعجُّب مِن كمال ذلك التَّأييد والتَّسديد، فقيل: فبأيِّ رحمة مِن الله لنْتَ لهم، وهذا هو الأصوب عندي"[2]، والذي حَمَلَ الرَّازيَّ على هذا التَّكلُّف في المعنى ومخالفة النُّحاة، ردُّه القول بالزِّيادة. وذهابه إلى جعلها مِن الاستفهام مردودٌ؛ لأنَّ (ما) الاستفهاميَّة لا تُضاف إلى ما بعدها، وإذا لمْ تُضفْ، صار ما بعدها بدلًا مِن (ما) الاستفهاميَّة، ولابُدَّ حينئذٍ مِن إعادة همزة الاستفهام في البدل[3]، وجاء وصفه باللين بليغًا؛ لأنَّه جمع بين وصفه بالشَّجاعة، ووصفه باللين والرِّفق، وذلك أنَّ إمساك الإنسان نفسه عن الغضب في موضع يستوجب الغضب هو مِن الشِّدَّة والشَّجاعة، مع مادلَّ عليه الظَّاهر مِن الرِّفق[4]، فالجملة بعناصرها التَّوكيديَّة تؤكِّد فضل الله ﷻ الذي أمدَّهم بما يُهيِّءُ لهم النَّصر- واقعًا وقيادةً، وأنَّ القُصور جاء مِن النَّفس البشريَّة التي تخلَّت عن مسؤوليتها، وقصَّرت في أداء واجبها.

وفي هذا السِّياق يذكر الله ﷻ ما لو كانت الصورة مغايرةً للواقع الذي جبله الله

(١) البحر المحيط: (٣ /٩٧).

(٢) مفاتيح الغيب: (٩/ ٦٤).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٩٨).

(٤) ينظر: فتوح الغيب: (٣٢٢).

عليه، وميَّزه به عن غيره، فلو كنت يا محمَّد ﴿فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ وفي ذلك إشارةٌ إلى العودة إلى النَّفس ومحاسبتها، فهم خالفوا أمره وهو على هذا المقام مِن الحسن والنُّبل، وفي ذات الوقت نلحظ أنَّ هذه الجمل في مطلع الآية تمهيدٌ للأوامر التي سيتلقَّاها النَّبيُّ ﷺ، وهي صفاتٌ تقتضي ماسيُؤمر به النَّبيُّ ﷺ فهي تقوم بوظيفة التَّثقيف النَّفسي لما سيتبعه مِن تكليفٍ[1]، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ولا تفوت الإشارة إلى أنَّ هذه الصِّفات الثَّلاث: لين الجانب، ولطف المعاملة، وسلامة القلب وصفاءه، رُتِّبتْ ترتيبًا ابتداءً مِن الحُسن الظَّاهريِّ، وانتهاءً بحسن الباطن، مرورًا بها بينهما، وأنَّ توفُّر هذه الصِّفات الثَّلاث كان سببًا لالتفاف الصَّحابة حول القيادة، ولو كان دون تلك الصِّفات لتفرَّقوا عنه تفرُّقًا شديدًا[2].

ويأتي الأمر بالتَّكليف بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ تأتي هذه الفاء عاقدةً الآصرة الشَّديدة بين ماذُكر مِن الصِّفات التي تحلَّى بها الرَّسول ﷺ، وبين التَّكليف، فهي "لترتيب العفوِ أو الأمرِ به على ما قبله، أيْ إذا كان الأمرُ كما ذُكر فاعفُ عنهم فيما يتعلَّق بحقوقك كما عفا الله عنهم"[3]

والأمْر هُنا للوجوب، وإثبات المتعلِّق (عنهم) لكمال الاعتناء بهم. ويأتي هذا للرَّسول ﷺ، وتقدَّم ما يدعو إلى فعله في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٥]، وأَمَرَه بالاستغفار لهم. ونلحظ أنَّ الأوامر كلَّها أوامر تخليةٍ وإعفاءٍ على جهة التَّرقي، وكأنَّه يعدهم لأنْ يكونوا أهلًا للشُّورى "وذلك أنَّه أمره بأنْ يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصَّته عليهم مِن تبعةٍ وحقٍّ، فإذا صاروا في هذه الدَّرجة، أمره أنْ يستغفر لهم فيما لله عليهم مِن تبعةٍ،

(١) ينظر: البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها: (١/ ٧٤).

(٢) ينظر: تأملات في سورة آل عمران: (٤٦٨).

(٣) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٥).

فإذا صاروا في هذه الدَّرجة كانوا أهلًا للاسشارة في الأمور والشُّورى مِن قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام"[(١)]، وأمره بمشاورتهم تطيبًا لنفوسهم، واستماعًا لهم واستعانةً بهم[(٢)]؛ تربيةً للأمَّة على مبدإٍ مِن أهم مبادئ الإسلام، والأمر بالشُّورى، يأتي في أعقاب غزوةٍ أصابتْ المسلمين فيها النُّدوب والجراح، بعد أنْ خَرَجَ النَّبيُّ ﷺ أخذًا بمشورة الصَّحابة، ومع ذلك فقدْ أقرَّه الله ﷻ على هذا المبدأ العظيم؛ ليُسفر عن ذلك أمران:

الأوَّل: أنَّ تربية الأمَّة وإقرار مبادئها أكبر مِن الخسائر الوقتيَّة.

ثانيًا: أنَّ تحمُّلَ الأخطاء على إثْر الشُّورى، هي الطَّريقة المثلى لمزاولة عمليَّة التَّصحيح، وتحمُّل التَّبعات، فينتج عن ذلك تحقيق وجودها، وتدريبها على الحياة الواقعيَّة[(٣)]، وتربيتها على نقْد العمل، وتصحيح تلك الأخطاء، برؤيا جمعيَّةٍ تُشعر الأمَّة بترابطها، وتحمُّلها المسؤولية.

ويَلفتُ الرَّازيُّ إلى نكتةٍ بليغةٍ في الأمر بالشُّورى في هذه الواقعة خاصةً، وأنَّه في هذا المقام أعظمُ حالًا "والسَّبب فيه أنَّكم قبل هذه الواقعة كنْتُم تعوِّلون على أعمالكم وطاعتكم، والآن تعوِّلون على فضلي وعفوي، فيجب أنْ تصير درجتكم ومنزلتكم الآن أعظم ممَّا كان قبل ذلك؛ لتعلموا أنَّ عفوي أعظم مِن عملكم وكرمي أكثر مِن طاعتكم"[(٤)]، ففيه إشارة تثقيفيَّةٌ إلى فضل التَّعلُّق برحمة الله ﷻ، وأنَّ ثوابه أعظم مِن العمل؛ ولذلك فعلى الإنسان أنْ يُعرِّض نفسه لنفحات الرَّحمة، فهي أنْجى لحاله.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بعد أنْ أمر الله ﷻ رسوله ﷺ بمشاورة

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٨٠).

(٢) ينظر: جامع البيان: (٧/ ٣٤٣).

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: (١/ ٥٠١ و ٥٠٢).

(٤) مفاتيح الغيب: (٩/ ٦٨).

المؤمنين، كان لابدَّ أنْ تُفضي المشورة إلى العزم على الأمْر، واصطفي التعبير بإذا للجزم بالوقوع؛ لأنَّ المشورة لا بُدَّ أنْ تُفضي إلى العزم على الأمر، وذلك لوقوع الفعل الماضي في حيِّزها، وعند ابن عاشور أنَّ جواب الشَّرط محذوفٌ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، وتقديره: "فإذا عزمت فبَادر ولا تتأخّر وتَوكَّل على الله؛ لأنّ للتأخُّر آفاتٌ، والتَّردُّد يضيّع الأوقات، ولو كان التَّوكُّل هو جواب إذا، لما كان للشُّورى فائدةٌ؛ لأنَّ الشُّورى كما علمت لقصد استظهار أنفع الوسائل لحصول الفعل المرغوب على أحسن وجهٍ وأقربه، فإنَّ القصد منها العمل بما يتَّضح منها، ولو كان المراد حصول التَّوكُّل مِن أوَّل خطور الخاطر، لما كان للأمر بالشُّورى مِن فائدةٍ"(١)، وجاء بعد ذلك التَّذييل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ والجلمة مؤكَّدةٌ بمؤكِّداتٍ تقويةً للحُكم، وتقريرًا للمعنى، فأُكِّدتْ بإنَّ، ثمَّ بتقديم المسند إليه على الخبر الفعليِّ وكذلك أُظهر اسمه الأعظم في موضع الإضمار لتربية المهابة في النُّفوس، وتعليل التَّوكُّل؛ لأنَّ الله بدلالة اسمه على كمال الذَّات والصِّفات مستدعٍ للتَّوكُّل عليه(٢)، والتَّعبير بالفعل (يُحِبُّ) دالٌّ على الاستمرار، وأنَّ هذه المحبَّة واقعةٌ منه تعالى لكلِّ متوكِّلٍ عليه، وليس مخصوصًا بسياقٍ دون آخر، وجاء بصيغة الجمع (المتوكِّلين) تحفيزًا للمخاطَبين لأنْ يكونوا في جملة المتوكِّلين. وفُصلت الجملة لأنَّها جاءت في موضع التَّعليل لما قبلها، فاستدعى السِّياق سؤالًا، لماذا نتوكَّل على الله؟ فجاء الجواب، فهو مِن الاستئناف البيانيِّ.

وفي التَّعبير بحب الله للمتوكِّلين معلمٌ مِن معالم التَّثقيف النَّفسيِّ- بالحثِّ على التَّوكُّل بترغيب النُّفوس بمحبَّة الله لها "والخلَّة التي يحبُّها الله، ويحب أهلها هي الخلَّة التي ينبغي أنْ يحرص عليها المؤمنون. بل هي التي تميِّز المؤمنين"(٣)، فالنَّظم الكريم

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١٥١).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٥).

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٥٠٣).

يقرِّر في وضوح أنَّ مردَّ الأمور كلِّها إلى الله ﷻ، وأنَّ له كمال التَّصرُّف في شؤون خلقه، فعلى المؤمنين أنْ يتوكَّلوا عليه، ويُفوِّضوا الأمور إليه بعْد أنْ يعزموا أمرهم، وهي الحقيقة الكبرى التي تُقرُّها السُّورة كاملةً أنَّ قدرته تعالى فوق كلِّ شيءٍ.

نلحظ التَّدرج في الأمر من الانطلاق من البعد الإيماني في تهيئة النفوس بطلب العفو والاستغفار، ثمَّ بالجانب الاجتماعي بتحقيق مبدأ الشُّورى، ثمَّ بعد أنْ حققَّوا الأسباب، أمرهم بالتَّوكل، بعد ذلك جاء التَّذييل تحفيزًا فهو أسلوب ثانويٌّ لتحقيق المقصد الرئيس في الأوامر السَّابقة.

أثر ترتيب المفردات في العطف بالواو:

يثني الله ﷻ على تلك الفئة التي خرجت مستجيبة لأمر الرسول ﷺ بعد أحداث غزوة أحد فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ استئنافٌ لأنَّ لفظ المؤمنين عامٌّ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧١]، وحمل ما هنا على ما هناك يخصِّص اللفظ، والاستجابة هُنا هي انتفاضة المؤمنين لتلبية نداء الرَّسول ﷺ في "حمراء الأسد"(١)، وعليه أكثر المفسِّرين(٢)، وعلاقة هذه القصَّة بما سبق في غزوة أُحُدٍ أنَّها تُمثِّل جانبًا مِن جوانب الصَّبر والقوَّة والتَّوكُّل على الله ﷻ، وهي مطالب النَّصر والخطوط التي يؤكِّد عليها السِّياق في هذه الغزوة، ويغرسُها في أعماق النُّفوس.

والاستجابة هنا هي شيءٌ يفوق وصف إجابة النِّداء إلى السُّرعة والمباشرة، بما أصابهم مِن الجراح والقُروح، حملوا أنفسهم، وعلَوا على جراحاتهم استجابةً لنداء

(١) حمراء الأسد موضع على بعد ثمانية أميال من المدينة، انتهى إليه الرسول ﷺ يوم أحد في طلب المشركين. ينظر: معجم البلدان لياقوت الحموي: (٢/ ٣١٠)، نشر دار صادر، بيروت.

(٢) ينظر: جامع البيان: (٧/ ٣٩٩) والمحرر الوجيز: (٣/ ٢٩٦) والكشاف: (١/ ٣٣٦).

الرَّسول ﷺ.

ونداء الرَّسول ﷺ هو نداء الله لهم لأنَّهم مأمورون أمرًا إلهيًّا بالطَّاعة في المنشط والمكره؛ ولذلك عطف الرَّسول على اسم الجلالة وتقديمه للتَّفخيم "وللإشارة إلى أنَّ الاستجابة للرَّسول الاستجابةُ لله تعالى في الحقيقة"(١)، وفي هذا تثقيفٌ للنفوس بدعوى اتحاد حكم الله ورسوله، وأنَّه لا ينطق عن الهوى، فعلى المؤمنين المبادرة دائما للاستجابة لأمره.

وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾ التَّنبيه إلى هذا الظَّرف هو مناط التَّثقيف في الآية؛ لأنَّ الاستجابة التي أجابوا النِّداء فيها لمْ تكن في حال المَنْشط والدَّعة والرَّاحة، بلْ كانت بعد ما أصابهم الجهد، والجراح مازالت تنْزف، وكان امتحانًا صعْبًا، في معركة التَّمييز بين الإيمان والنِّفاق.

إنَّ إثبات هذا الظَّرف يعكس في النَّفس معلمًا مِن معالم التَّثقيف يتمثَّل في تربية النَّفس على الاستجابة لأمر الله تعالى في كلِّ الأحوال، وحمل النَّفس على ماتجده مِن الألم، وصدْق التَّوكُّل على الله ﷻ.

ثمَّ قال تعالى مخبِرًا عنهم: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ فجمع بين الإحسان الدَّال على فعل الخيرات، والتَّقوى الدَّالة على اجتناب المحظورات(٢) فحقَّقوا إتيان ما أُمروا به واجتناب مانُهوا عنه، وكما امتدحهم الله ﷻ بهاتين الصِّفتين، فهاتان الصِّفتان علَّة استحقاقهم المثوبة، وقوله: ﴿مِنۡهُمۡ﴾ لبيان الجنس "لأنّ الذين استجابوا لله والرَّسول قدْ أحسنوا كلُّهم واتَّقوا، لا بعضهم"(٣).

---

(١) حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٤١٠).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ١٠٠).

(٣) الكشاف: (١/ ٣٣٧).

المبْحثُ الثاني: أثر أساليب النَّفي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

أثر دلالة النَّفي على النَّهي:

عندما ترك بعض الصَّحابة القتال، وخافوا أن تفوتهم الغنائم، ظنًّا مِن بعضهم أنَّ النَّبي ﷺ لن يقسِّمها لهم، جاء قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:١٦١ - ١٦٢]، وهو أقرب الأسباب فيما روي في سبب نزولها، وذلك "أنَّه لَمَّا كان يوم أُحدٍ أخذوا في النَّهب والغارة، وتركوا القتال، وخافوا أنْ تفوتهم الغنيمة، وظنُّوا أنَّ مَن أَخذَ شيئًا يكون له، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يقسم لهم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾ "[1]

وفي موقع الآية مِن سياق الغزوة إشارةٌ بديعةٌ؛ ذلك أنَّه وقع في بداية القصَّة التَّنبيه إلى الرِّبا، وأثره في الحرمان مِن النَّصر، ووقع هنا في أواخر التَّعقيب على الغزوة ذكر الغلول، وأثره على حرمانهم مِن النَّصر بما فُهم مِن تعقيب هذه الآية لآية النَّصر والخذلان، فوقع الوعْظ به أوَّلًا وآخرًا[2]، مع ما في التَّنبيه إلى شأن النَّزاهة، والإصلاح الاجتماعي، وحفظ المال العام مِن أهميَّةٍ، إذْ هي مِن أهمِّ مقوِّمات النَّصر؛ لما فيها مِن الدَّلالة على التَّقوى.

وجاء التَّحذير مِن الغلول بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ﴾، فجاء النَّفي بما للنفي المؤكد، ووقع النَّفي على الكينونة دلالةً على الامتناع عقلًا، وفطرةً؛ لتنافي الغلِّ

---

(١) بحر العلوم: (١/ ٣١٢).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٧٦).

مع الوصف بالنُّبوة[1]، والتَّنكير في نبيٍّ يدلُّ على العموم؛ لأنَّه لا يُمكن أنْ يتصوَّر عقلًا في أيِّ نبيٍّ، والخطاب هُنا وإنْ كان في صورة الخبر إلَّا أنَّ معناه النَّهي، ولذلك قرائن في كتاب الله ﷻ[2]، ومزيَّة التَّعبير بالخبر المبالغة في صورة طلبه؛ لأنَّ الخبر آكد في الطَّلب[3]؛ لأنَّ الغاية مِن الطَّلب حصول الامتناع، ومافي الخبر إثبات الامتناع، والخطاب موجَّهٌ إلى الرَّسول ﷺ تهييجًا وتنبيهًا للأمَّة مِن بعده، أو موجَّهٌ إلى جيش النَّبيِّ ﷺ إمَّا بطريق الإسناد العقليِّ للملابسة، أو بتقدير مضافٍ[4]، ولا يبعد أنْ يكون في نهيه ﷺ تعريضًا بمَن ظنَّ منه ذلك. وفي هذا النَّهي معلمٌ مِن معالم التَّثقيف، وهو اللطف في الخطاب الربَّاني مع الرَّسول ﷺ، حتَّى لا يَتوهَّم متوهِّمٌ مِن نهيه وقوعه فيه، "وهذا آكد مِن صريح النَّهي عن الغلول من وجهين، أحدهما كون الكلام في صورة الخبر لأنَّه يفيد أنْ لا حاجة إلى النَّهي الصَّريح، والثَّاني نفي إمكان الغلول فيُفيد أنَّه لا صحَّة لغلول النَّبي فضلًا عن وقوعه"[5].

وذلك يغرس في النَّفس التَّحذير الشَّديد مِن الغلول، كما وَرَدَتْ فيه الأحاديث النَّبويَّة التي تقرع النُّفوس، كما يؤكِّد ما سبق الإشارة إليه مِن تطهير مجتمع النَّصر مِن الفساد الذي يقوِّض أهليَّة ذلك المجتمع لتحقيق الظَّفر.

ولَمَّا كان ذلك الفعل في غاية الفظاعة، عُمِّمَ الحكم بأسلوب الشَّرط، وجعل

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٨٦).

(٢) كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى﴾ [التوبة:١١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

(٣) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٨٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٥٥).

(٥) حاشية الكازروني على البيضاوي: (٢/ ٥١).

المضارع في حيِّزه ليفيد استمرار ذلك التَّحذير، في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وترتَّب على الإتيان به في الدُّنيا، الإتيان به ذاته يوم القيامة، تبشيعًا للمنظر، وكشفًا للفضيحة، ولذلك قُدِّم المتعلِّق الجار والمجرور على الظَّرف؛ لأهميَّته وفظاعته في ذلك الموقف، وأنَّه مناط التَّهويل، ثمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ وبُني الفعل لما لَمْ يُسمَ فاعله لانصراف الذِّهن إلى الفاعل الحقيقيِّ دون الحاجة إلى الإشارة إليه، وليكون الكلام خارجًا مخرج العظمة على طريقة كلام القادرين[(١)]، ونلحظ أنَّه عُمِّم في الجزاء، وعدل عن تحديد نفس الغال؛ ليدلَّ على تمام عدله، وتأكيد جزائه "لأنَّه إذا عَلِمَ الغالُّ أنَّ كلَّ كاسبٍ خيرًا أو شرًا مجزيٌّ فموفَّى جزاءه، علم أنَّه غير متخلِّصٍ مِن بينهم مع عظم ما اكتسب"[(٢)] وفي هذا ترهيبٌ للنَّفس مِن دقَّة الحساب في ذلك اليوم، فالله ﷻ يُحاسب كلَّ نفسٍ بما كسبت صغيرًا أو كبيرًا فكيف بمَن أتى بها غلَّ، فهو إثباتٌ للمعنى بطريق الكناية؛ لأنَّه أثبت المعنى بذكر الملزوم وأراد إثبات اللازم، والملزوم هنا هو محاسبة كلِّ إنسانٍ بعمله وكسبه، ولازمه أنْ يُحاسب صاحب الغلِّ لكونه فردًا مِن أفراد الكاسبين. فهو أدلُّ على المعنى؛ لأنَّه إثباتٌ للمعنى بقرينةٍ، ومِن ثَمَّ كان هذا التَّشديد في إثبات المحاسبة فيه تحذيرٌ وترهيبٌ مِن الغلِّ.

وخُتمتْ الآية بإقرار كمال عدله بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فقدِّم المسند إليه لتقوية الحكم وتقريره، وتأكيد محاسبة كلِّ نفسٍ بما كسبت، فليس فيه ظلمٌ لهم، فمآل المعنى فيه إلى إثبات عدله ﷻ حتَّى مع العاصي.

وبعْد أنْ ذَكَرَ الله ﷻ تحذيره مِن الغلِّ وما يترتَّب عليه مِن العقاب في الآخرة، جاء بيانه ليُوقظ في النُّفوس المفارقة الكبيرة بين اتِّباع ما أمر الله به، وبين العصيان والنُّكوص، فمِن تمام عدله أنْ لا يتساوى الفريقان يقول الله تعالى: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، فذُكِر على سبيل الإنكار والنَّفي

(١) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٧٦).

(٢) الكشاف: (١/ ٣٣٢).

بهمزة الاستفهام[1]، والمستفْهَم عنه محذوفٌ تقديره: أيستوون فمن اتَّبع رضوان الله كمن باء بسخطٍ مِن الله؟، يقول ابن عاشور: "والاستفهام إنكارٌ للمماثلة المستفادة مِن كاف التَّشبيه فهو بمعنى لا يستوون"[2] فغاية الاستفهام نفي التَّماثل والتَّساوي بالتَّضاد بين حال الفريقين، وهذا النَّفي يُؤدِّي إلى تقرير الفارق.

والاستفهام يُثير في النَّفس التَّأمُّل، ونقلها مِن الدُّنيا، إلى التَّبصُّر في مآلات الآخرة"وهي لمسةٌ مِن لمسات المنهج القرآنيِّ العجيب في تربية القلوب، ورفع اهتماماتها، وتوسيع آفاقها، وشغلها بالسِّباق الحقيقيِّ في الميدان الأصيل"[3].

وممَّا يُلحظ في بناء الآية أنَّه في جانب الاتِّباع أضاف الرِّضوان إلى الله ﷻ، وهذه الإضافة تُكسبها معنى التَّعظيم، وفيها تثقيفٌ للنَّفس مِن جهة التَّرغيب فيما عند الله، وفي جانب السَّخط جاء منكَّرًا دالًّا على عِظَمِه في البشاعة، وهو تثقيفٌ للنَّفس مِن جهة التَّرهيب والتَّحذير مِن سَخَط الله ﷻ، ويزيد مِن التَّرهيب والتَّحذير العطف بقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ فبعد أنْ ذكر العقاب النَّفسيَّ بما يُثيره الرُّجوع بالسَّخط-مِن الله ﷻ - مِن الضِّيق والضَّنك، أعقبه بالعقاب الحسيِّ، وعَطَفَ عليه بذمِّ المآب، وهو يغرس في النَّفس الوجل مِن عقاب الله ﷻ، والبُعد عن مواطن غضبه وعقابه.

ثمَّ قال تعالى: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾، والضَّمير فيه عائدٌ على قوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ لأنَّه قال﴿دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾، وذِكْر العنديَّة هنا تشريف لهم[4]، كما جعل هذا الخطاب في مقابلة ذكر جزاء مَن باء بسَخَطٍ مِن الله، ليحقِّق التَّوازن بين إثارة التَّرغيب والتَّرهيب في النُّفوس. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٧٧) والبحر المخيط: (٣/ ١٠١).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ١٥٧).

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٥٠٥).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٢/ ١٧٧).

يَعۡمَلُونَ ﴾جاء إظهار اسمه الجليل في موضع الإضمار لأنَّه مِن مقامات الجلال الإلهيِّ الذي يستدعي التَّصريح باسمه، ويظهر ارتباط معنى هذه الفاصلة بذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ ﴾، لأنَّ البصير الذي يُحيط بكلِّ أعمال الإنسان سيكون جزاؤه لكلِّ نفسٍ بما أحاطه سبحانه وعلمه وأبصره.

يقول البقاعيُّ: "فعُلم بما في هذا الختام مِن إحاطته بتفاصيل الأعمال صحة ماابتُدىء به الكلام مِن التَّوفية"[1]، فهو دالٌّ على كمال عدله سبحانه، وتنزيهه مِن الظُّلم. كما يغرس في النَّفس استشعار مراقبة الله ﷻ، فيرغِّب المسلم في أنْ يكون حيثُ يرضى الله ﷻ، ويتجنَّب مايُسخطه.

أثر دلالة النَّفي في جواب الشَّرط:

جاء النَّفي في سياق جملتي الشَّرط تارة بالنَّفي الصَّريح المباشر، وأخرى بالتَّلويح في قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [آل عمران:١٦٠]ولـمَّا كان السِّياق قبله في ذكر فضل الله ﷻ على المؤمنين بما مُيِّز به النَّبيُّ ﷺ مِن صفات القيادة النَّاضجة، ودفعًا لأنْ يَتوهَّم مُتوهِّمٌ أنَّ حقيقة النَّصر كانت به ﷺ، جاء الحديث متَّصلًا عن حقيقة النَّصر، وهذه الحقيقة يرسِّخها القرآن في النُّفوس، ولذلك كثيرًا ما يأتي التَّعقيب بالتَّوكُّل عليه دون غيره تارةً، وبحصر النُّصرة وقصرها على الله ﷻ، وهُنا بعد أنْ طوَّف السِّياق يعالج قضايا متعددةٍ يعود مرةً أخرى ليربط القضيَّة بصدق التَّوكُّل، وتفويض الأمر إليه؛ لأنَّه القادر سبحانه على النُّصرة، وقادرٌ على أنْ يخذل مَن خذله، وابتدأت الآية بجملة الشَّرط، وجاء التَّعبير بالمضارع في حيِّزها؛ ليدلَّ على الاستمرار، وأنَّ هذا القضاء مِن الله تعالى قضاءٌ يتجدَّد في كلِّ الأزمان، وعلَّق انتفاء الغالب ذاتًا وصفةً بنصرة الله ﷻ.

وقوله: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ ﴾جاء نفي الغالب في جواب الشَّرط ليحقِّق في النُّفوس

---

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٧٧).

كمال قدرة الله ﷻ، وفي المقابل رتَّب على خذلانه انتفاء النَّاصر، ولكنَّ التَّركيب هنا عَدَل إلى صورةٍ أخرى فقال ﷻ: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾ فعدل في الجزاء إلى الاستفهام، ولمْ يُذكر نفي النُّصرة عنهم، فالعدول هنا جاء رأفةً بالمؤمنين "حتَّى لا يصرِّح لهم بأنَّه لا ناصر لهم، بلْ أبرز ذلك في صورة الاستفهام الذي يقتضي السُّؤال عن النَّاصر، وإن كان المعنى على نفي النَّاصر. لكنْ فرقٌ بين الصَّريح والمتضمِّن، فلمْ يُجرِ المؤمنين في ذلك مجرى الكفَّار الذي نصَّ عليهم بالصَّريح أنَّه لا ناصر لهم"[١] كما أنَّ فيه معنى تثقيفيًّا يشير إلى أنَّ المؤمن لا يمكن أن يخذله الله ﷻ ما دام قائمًا بحقِّ التَّوكُّل، فالعدول عن صريح التَّركيب إلى الاستفهام فيه تحريكٌ وإيقاظٌ للنّفس أنْ تُسائل نفسها وتتأمَّل الحال، فيقودها التَّأمل إلى انتفاء النَّاصر مِن دون الله، ومثل هذه الأساليب تُوقظ العقل، وتهزُّ النَّفس، فتخاطب الإدارك والوجدان وصولًا إلى الحقيقة. فالغرض مِن الاستفهام هُنا النَّفي والإنكار. والعدول في التَّعبير بالفعل المضارع (ينْصُرْكُم) لأنَّه على افتراض وجوده، فمَن هذا الذي تكون صفة النُّصرة فيه صفةً عارضةً. والتَّعبير بقوله: (مَنْ ذا الذي) يعني أنَّ النَّاصر بعد خذلان الله ليس له وجودٌ، للمبالغة في معنى النَّفي والإنكار إلى الاستحالة[٢].

ونلحظ أنَّ جملتي الشَّرط استعمل فيها (إنْ)، وفي هذا التَّعليق دون الجزم بالوقوع حثٌّ للنَّفس على صدق التَّوكُّل، وتحفيزٌ لها بإمكان وقوع الأمرين النُّصرة أوالخذلان، وأنَّ الجزاء متعلِّقٌ بالإتيان بفعل الشَّرط. وفي استعمال (إنْ) مع النَّصر إشارةٌ تثقيفيَّةٌ إلى صعوبة العمل الذي يستنزل به النَّصر، وأنَّه عملٌ يحتاج إلى المزيد مِن المكابدة والتَّضحية، وفي استعماله مع الخذلان إشارةٌ إلى سعة لطف الله ورحمته، فلا يخذل إلَّا مَنْ انْخلع عن الحقِّ، فالمعنيان يحثَّان على ضرورة الاحتشاد لتحقيق نصر الله

(١) البحر المحيط: (٣/ ١٠٠).

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: (١/ ١٩٣).

ﷻ مِن جانبٍ، والإحساس بالطَّمأنينة والقرب مِن الله ﷻ الذي لا يخذل عباده[1].

ثم جاء في الفاصلة التَّذييل، بقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّه فُهم مِن الشَّرط قبله، وتقديم المتعلِّق هُنا يُفيد القصر، قصرـ التَّوكُّل على الله ﷻ دون غيره أيْ ما توكُّل المؤمنين إلَّا على الله، قصر موصوفٍ على صفةٍ بطريق التَّقديم، والمقصور توكُّل المؤمنين، والمقصور عليه كونه على الله ﷻ، وهو قصرـ إفرادٍ؛ لأنَّه ردٌّ على مَن اعتمد على مَن توكَّل على الله وعلى غيره في تحصيل النَّصرـ، أوقصرـ قلبٍ لأنَّه لمن اعتمد على غير الله مِن الأسباب، يقول البقاعيُّ: "﴿وَعَلَى ٱللَّهِ﴾ أي الملك الأعظم وحده، لا على نبيٍّ ولا على قوةٍ بعددٍ ولا بمالٍ مِن غنيمةٍ ولا غيرها ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي كلهم، فيكون ذلك أمارة صحَّة إيمانهم"[2]، وإظهار اسم الله الأعظم في موضع الإضمار لتربية المهابة في النُّفوس، وليكون فعل التوكل متعلِّقًا بما يدلُّ على الكمال والقدرة، وإظهار (المؤمنون) فيه مزيَّة التَّعميم؛ ليكون الأمر شاملًا لكلِّ المؤمنين، ويدخل المخاطَبون فيه دخولًا أوليًّا، كما أنَّ في التَّصريح باسم الإيمان استثارةٌ لمقتضى هذا الإيمان في النُّفوس، وأنَّ التَّوكُّل علامةٌ مِن علامات الإيمان"وفيه تعريضٌ بأنَّ مَن لمْ يتوكَّل على الله تعالى لمْ يكن مِن كمال الإيمان في شيءٍ "[3].

فالمعلم التَّثقيفيُّ الذي يغرسه الحصْر والإظهار الحثُّ على صدق التَّوكُّل على الله ﷻ، وتفويض الأمور إليه. كما نلحظ أنَّ القيمة الوظيفيَّة لأسلوب القصْرـ هنا جاء مؤكِّدًا للمعنى المناط به التَّثقيف النَّفسي في النَّفي.

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري " دراسة في سمت الكلام الأول " للدكتور محمد محمد أبو موسى: (٥٢٥ و ٥٢٦)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) نظم الدرر: (٢/ ١٧٤).

(٣) فتوح الغيب: (٣٢٤).

الرسالة

أثر النَّفي المؤكَّد:

ومِمَّا جاء القصد فيه إلى النَّفيِّ قصدًا رئيسًا أنيط به التَّثقيف ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْأَخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨]، ويأتي هذا الخطاب للمؤمنين يمتزجُ فيه العتاب بالمواساة، والمعنى هنا منسولٌ مِن المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩] فالخطاب هناك جاء بصيغةٍ مباشرةٍ صريحةٍ بالنَّهي، وهنا يأتي تعريضًا بذكر حال الرِّبيين الذين أثنى الله عليهم، فعُلم مِن هذا الثَّناء مطالبتهم بالتَّشبُّه بهم"فالكلام تعريضٌ بتشبيه حال أصحاب أحُدٍ بحال أصحاب الأنبياء السَّالفين لأنَّ محَلّ المثل ليس هو خصوص الانهزام في الحرب، بلْ ذلك هو الممثَّل. وأمَّا التَّشبيه فهو بصبر الأتباع عند حلول المصائب، أو موت المتبوع"(١)، وتنويع مسالك الكلام والمعاني، وطرقها بالتَّصريح والتَّلميح مراعاةٌ لمقام المخاطَبين، وتصريفٌ للبيان بالتَّفنُّن في مسالك الكلام.

والرَّبط بين هاتين الآيتين له أثر في النَّفس في تسليتها بالسَّائرين على طريق الصَّبر والنِّضال الذي أُمروا به، وإنْ كان المؤمنون أُمروا به، فالصُّورة هُنا تجاوزت المشاركة في الأمْر إلى تنفيذ المأمور.

والعلاقة الثَّانية التي تلفتنا في المعاني مابين هذه الآية وقوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤] فهو عتابٌ على التَّخلِّي والانقلاب لما علموا أنَّ هذا هو دأب المقاتلين مع أنبيائهم، "فكأنه يقول للمؤمنين: فهلَّا قاتلتم مع نبيكم ﷺ وبعد قتله وإنْ قُتل، كما قاتلت القرون

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١١٦).

الماضية مِن قبلكم إذا أُصيبت أنبياؤهم"[١].

وقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ التَّنكير في (نبيٍّ) للتَّكثير، لوقوع دلالة (كأيِّن) للتَّكثير على مميَّزِها[٢]، وكثرة الأنبياء وكثرة الأتباع له أثره في استشعار المؤمن أنَّه يسير في طريقٍ له فيه رفقاء مِن الصَّالحين ممَّن سبقوه، وهذا مع ما فيه مِن المواساة، فيه تحفيزٌ لأنْ يعمل المؤمن مثل أعمالهم التي أثنى الله عليها، يقول البقاعيُّ: "ولا ريب أنَّ في مدح مَن سواهم تهييجًا زائدًا لانبعاث نفوسهم، وتحرُّك هممهم، وتنبيه نشاطهم، وثوران عزائمهم غيرةً منهم أنْ يكون أحدٌ-وهم خير أمة أُخرجت للنَّاس-أعلى همَّةً، وأقوى عزيمةً، وأشدَّ شكيمةً، وأصلب عودًا وأثبت عمودًا، وأربط جأشًا، وأذكر لله وأرغب فيما عنده، وأزهد فيما أعرض عنه منهم"[٣].

وأمَّا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ فله تأويلاتٌ عديدةٌ عند المفسِّرين، ومردُّ هذه التَّأويلات إلى ثلاثة أمورٍ: أوَّلها قراءة (قَاتَلَ)، والثَّاني المعنى، والثَّالث الوقف، والثَّالث ثمرةٌ على كلِّ حالٍ.

قرأ الكوفيُّون وابن عامر بفتح القاف والتَّاء وألفٍ بينهما(قَاتَلَ)[٤]، وعلى هذه القراءة يحتمل معنيين:

١- أن يكون الفاعل ضمير (قاتل)العائد على نبيٍّ، وتكون جملة (معه ربِّيُّون كثير)حال مِن الضَّمير في (قاتل)، وأُثبتت إثباتًا واحدًا على التَّبع لقاتل، ولذلك جاءت دون واوٍ، ويكون الوقف على (قَاتَل)حسنٌ[٥].

(١) بحر العلوم: (١/ ٣٠٦).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١١٧).

(٣) نظم الدرر: (٢/ ١٦٥).

(٤) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٥).

(٥) ينظر: إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لأبي بكر الأنباري: (٥٨٥)، تحقيق: محي الدين عبد الرحمن رمضان، نشر مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢- أن يكون الفاعل (رِبِّيُّون)، وتقدَّم الحال على صاحبه، ومزيَّة إيثار ذكره مع تقديمه أنَّ في ذكره تنبيهٌ إلى أصالة الأنبياء في القتال، وأنَّهم أتباعٌ لهم مطيعون، وتقديمه على الفاعل للعناية بشأنهم[١]؛ لأنَّ موضع العناية هو ذكر معيَّتهم، وعدم تخلِّيهم عن أنبيائهم في المحنة والشِّدَّة. ويكون الوقف في القراءة على ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْ﴾ لاتِّصال المعنى.

هذان معنيان في قراءة: (قَاتَل)، ولكنَّ المعنى الأوَّل لا يصحُّ أنْ يكون موضعًا للثَّناء أو ضرب المثل؛ لأنَّه لمْ يُسند إلى الرِّبيين وصفٌ سوى الكثرة، فالآية لمْ تُثبت قتل النَّبيِّ، واستمرار الأتْباع مِن بعده، بلْ أثبتت قتاله، ولا يقتضي ذلك القتل، كما أنَّ الآية على هذه القراءة، وهذا التَّوجيه لمْ تُثبت مشاركةً في القتال، بلْ أثبتت المعيَّة فحسب، وليس ذلك سياق المعنى ولا مقصده، فالرَّاجح أنْ يكون الفاعل (رِبِّيُّون).

المعنى التَّثقيفيُّ في هذه القراءة التَّرغيب في القتال[٢]، والصَّبر على شوكته وبأسه، وهو في هذا المعنى أكثر مبالغةً مِن قراءة (قُتِلَ)؛ لأنَّ الله "إذا مدح (مَنْ قُتِلَ) خاصةً دون مَن قاتل لمْ يدخل في المديح غيرهم، فمَدْحُ (مَنْ قَاتَلَ)أعمُّ للجميع مِن مدْح (مَنْ قُتِلَ) دون(مَنْ قَاتَل)؛ لأنَّ الجميع داخلون في الفضل وإنْ كانوا متفاضلين"[٣]

وقرأ الباقون بضمِّ القاف وكسر التَّاء دون ألف (قُتِلَ)[٤]، وعلى هذه القراءة فيحتمل ثلاثة معانٍ:

١-أنْ يكون الفاعل ضمير (قُتِلَ) العائد على نبيٍّ، وتكون جملة (قُتِلَ) صفةً لنبيٍّ، و(معه ربِّيُّون) خبرٌ لكأيِّن، فالمقتول هو (نبيٌّ) دون (رِبِّيُّون)، والمعنى أنَّ

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٤٧).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٢٧).

(٣) حجة القراءات لأبي زرعة بن زنجلة: (١٧٦)، حققه وعلق على حواشيه: سعيد الأفغاني، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٤) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٥).

أنبياءهم قُتلوا، وهم مضوا على سنَّة أنبيائهم في القتال، فلمْ يُوهن موت الأنبياء مِن قوَّتهم. ويؤيِّد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ﴾ [آل عمران:١٤٤][(١)] فيكون الوقْف على قُتِلَ كافٍ[(٢)]، واستئناف ما بعده لإيضاح المعنى.

ب. أنْ يكون المقتول (نبيّ)و(رِبِّيُّون) والمراد بعض مَن مَعه[(٣)]، فتكون جملة (قُتِل معه رِبِّيُّون كثيرٌ) صفةٌ لنبيٍّ، فتكون العبرة بتصبُّر البقيَّة بالقتال، وعدم الضَّعف والهوان، مع فقد نبيِّهم، وكثيرٍ مِن إخوانهم.

٢- أنْ يكون المقتول الربيين فقط، ويكون فاعل قُتِل ظاهرٌ وهو الرِّبيُّون فلا إضمار، وهو الأرجح في هذه القراءة للأسباب الآتية:

١- أنَّه لا يؤمر نبيٌّ بالقتال، ثـمَّ يُقتل في الحرب؛ لأنَّ في ذلك انهزامًا لدعوة الحقِّ[(٤)].

٢-أنَّه لمْ يَرِدْ أنَّ نبيًّا قُتل في معركةٍ أو حرْبٍ[(٥)]، وذلك مخالفٌ لما في كتاب الله ﷻ مِن نصرة الأنبياء والرُّسل ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ﴾ :غافر:٥١].

٣-أنَّ القتل في القرآن جُعل قسيمًا للنَّصر، فالمقتول ليس بغالبٍ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ﴾ [النساء:٧٤]، وفي المقابل قال تعالى:

---

(١) ينظر: الحجة في القراءات السبع: (١١٤).

(٢) ينظر: المكتفى في الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لأبي عمرو الداني: (٢١٠)، تحقيق: د. يوسف المرعشلي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

(٣) ينظر: معالم التنزيل: (٢/ ١١٦).

(٤) ينظر: أثر اختلاف القراء في الوقف والابتداء للدكتور الجيلي علي أحمد بلال: (٣٧٦)، نشر دار القلم، دبي، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٥٤).

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾ [المجادلة:٢١]، ويؤيِّده قراءة قتادة قُتِّل بالتَّشديد(١)؛ لأنَّ صيغة الفعل تدلُّ على الكثرة، فيُصرف إلى الرِّبيين. وأمَّا الاحتجاج بسبب النُّزول فهو ضعيفٌ لأنَّه يدفع القراءة الأخرى (قاتل)، كما أنَّ القتل المذكور واقعٌ في حيِّز الشَّرط، فهو لا يدلُّ على وقوع النِّسبة لا بالإيجاب ولا بالسَّلب(٢).

والمعنى التَّثقيفيُّ الذي يشير إليه التَّركيب على هذه القراءة الحثُّ على المناضلة والمصابرة حتَّى مع وقوع القتل والمصيبة، وقلة العدد في الجيش، فهي تحثُّ على الثَّبات والصَّبر وهي مِن هذا الوجه أبلغ في المدح؛ لأنَّه نصٌّ على قتلهم، وهو يستلزم مقاتلتهم(٣)، فاختلاف النَّظر في المبالغة في المدح بين القراءتين عائدٌ إلى مناط ذلك الثَّناء، فلمَّا كان مناط الثَّناء الكثرة كانت قراءة (قَاتَل) أكثر مبالغةً، ولمَّا كان مناط الثَّناء الفعل ذاته كانت قراءة (قُتِل) أكثر مبالغةً في الثَّناء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ جاءت الفاء لتُفيد معنى ترتُّب الجملة اللاحقة على السَّابقة، ولكن على جهة عدم التَّوقُّع أيْ كان كلُّ ذلك، وفي المقابل لمْ يهنوا أو يضعفوا، وكأنَّ هذه الفاء تحشد تحتها حجم المعاناة والنِّضال حتَّى ظُنَّ أنَّ مَن هذه حاله لا يقوى على الشِّدَّة والبأس، ولكنَّهم تحمَّلوا كلَّ ذلك فما وهنوا، وقوله: ﴿لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فيه إشعارٌ بعلَّة المنفيِّ(٤)، وأنَّهم استشعروا أنَّ تلك ابتلاءات يميِّز فيها المؤمن الصَّادق مِن المنافق فاستسهلوا كلَّ صعبٍ، واستيسروا كلَّ عسيرٍ، وأعيدت أداة النَّفيِّ مع كلِّ منفيٍّ تأكيدًا على انتفاء كلِّ أمرٍ على حدةٍ، للمبالغة في خلوِّ الصفِّ مِن الانكسار والهزيمة، مع ما في اصطفاء (ما)

(١) ينظر: الموضع السابق والكشاف: (١/ ٣٢٤).

(٢) ينظر: أضواء البيان ف إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي: (٢٩١ إلى ٢٩٦)، نشر عالم الكتب، بيروت، دون ت. ط.

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٧٣).

(٤) ينظر: الموضع السابق.

مِن أدوات النَّفي كذلك على تأكيد النَّفي، فالتَّركيب يصف نفوسًا أبيَّةً لمْ يتسلَّل إليها الضَّعف أو الانكسار والاستسلام، ومِن بديع مافي الآية أنَّ ترتيب هذه المنفيَّات جاء على التَّرتيب الوجوديِّ "فإنَّه إذا خارت العزيمة فَشِلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعته المذلَّة والخُضوع للعدوِّ"[1]، كما أنَّ في الآية تعريضًا بأولئك الذين انقلبوا منكسرين خائفين عند الإرجاف بقتل النَّبي ﷺ[2].

وفيما تقدَّم تثقيفٌ للنَّفس المؤمنة بحثِّها على الثَّبات والصَّبر والنِّضال، والسَّير على خطى المصلحين حتَّى بعد موتهم، فالعبرة بالسَّير على المنهج القويم، والدفاع عنه لا بالتَّعلُّق بالأشخاص.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ قدَّم اسمه الأعظم مع التَّصريح باسمه لما في ذلك مِن التَّشويق للخبر مِن جهة، فتصدير اسمه الأعظم ممَّا تتطلَّع النُّفوس فيه إلى معرفة الخبر، كما أنَّ في تقديمه تأكيدًا باسميَّة الجملة، والتَّعبير عن الحبِّ بالفعل المضارع للدَّلالة على أنَّ حبَّه للصَّابرين ليس مخصوصًا بقومٍ أو زمانٍ أومكانٍ، بلْ يقع حبُّه لكلِّ مَن كان مِن الصَّابرين، وهو معلمٌ مِن معالم التَّثقيف في تحفيز النَّفس أنْ تكون نفسًا يحبُّها الله ﷻ، فالتَّعبير بحبِّ الله للصَّابرين "له وقعه. وله إيحاؤه. فهو الحبُّ الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرح، ويعوض ويربو عن الضرِّ والقرح والكفاح المرير"[3].

والجملة تذييلٌ لأنَّه أعيد الحثُّ على الصَّبر في فاصلة الآية بعدما أعلم مِن حالهم حثَّه على الصَّبر، وهو ضربٌ مِن ضروب التَّأكيد، والواو أشعرت مع هذا التَّأكيد التَّغاير فهو مِن حيث المعنى العام تأكيدٌ لما قبله، ومِن حيثُ المعنى الخاص جديرٌ بأنْ يُعدَّ مزيّةً جديدةً، ومعنى قائمًا بذاته.

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١١٩).

(٢) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٤) وإرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٦).

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٤٨٨).

ثَّم عطف أسلوب القصر بالنَّفي والاستثناء على النَّفي الذي تقدَّم، ونلحظ أنَّ أسلوب القصر هنا تأكيدٌ للمعنى المؤسَّس بالنَّفي في الآية السَّابقة، فمقصد الآية تثقيف النُّفوس بالحثِّ على التَّصبر والمجالدة، وهو مافُهم مِن النَّفي في الآية الأولى ابتداء، ثمَّ جاء القصر تأكيدًا في قوله تعالى: ﴿وَمَاكَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فبعد أنْ أثبت الله ﷻ لعباده محاسنهم الفعليَّة في الثَّبات، وعدم الهوان والضَّعف والاستكانة بما ينبئ عن حسن الأفعال أخبر عن محاسنهم القوليَّة[1] فقال: ﴿وَمَاكَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ فوقع النَّفي بما الدَّالة على المبالغة في النَّفي[2]، وأدخل النَّفي على الكينونة تأكيدًا، ليتحقَّق النَّفي للكينونة أولًا ثمَّ للفعل ثانيًا، وذكر ابن المنيِّر في تعليقه على قوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ﴾ [غافر:٨٥] أنَّ فائدة دخول كان في هذه الآية وأمثالها "المبالغة في نفي الفعل الدَّاخلة عليه، بتعديد جهتي نفيه عمومًا باعتبار الكون، وخصوصًا باعتباره في هذه الآية مثلًا، فكأنَّه نُفي مرَّتين"[3]، ولذلك فالنَّفي الدَّاخل على الكينونة أشدُّ تأكيدًا مِن نفي الفعل. ثمَّ ذكر الله ﷻ حالهم التي استحقوا ثناء الله عليهم، فلم يكن من أولئك إلَّا أنْ لهجت ألسنتهم وقلوبهم بالدُّعاء إلى الله ﷻ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَاكَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ﴾ قصرٌ بطريق النَّفي والاستثناء، فنفى عنهم ما قد يتوهَّم مِن الجزع أو الهلع أو الخوف والاستسلام[4]، فهو قصرٌ إضافيٌّ للإفراد لردِّ توهُّم مَن اعتقد أنَّهم جمعوا بين عدم الاستسلام والاستكانة، وبين التضجُّر والجزع، فأخبر ﷻ عنهم كمال توكُّلهم وتفويضهم أمورهم إلى الله فعلًا وقولًا، والقول العام هو المقصور، والقول الخاص ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٥١).

(٢) سبقت الإشارة إلى نص لسيبويه: ص(١٥٩).

(٣) الانتصاف: (٤/ ١٣٩).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٢٠).

﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هو المقصور عليه، قصر صفةٍ على موصوفٍ، أيْ فلمْ يكن لهم مِن القول في ذلك الموقف إلَّا هذا الدُّعاء"وفي هذا القصر تعريضٌ بالَّذين جزِعوا مِن ضعفاء المسلمين أو المنافقين، فقال قائلهم: لو كلّمنا عبد الله بن أبي يأخذ لنا أمانًا مِن أبي سفيان"(١).

والمعلم التَّثقيفي المستفاد مِن القصر الحثُّ على الاقتداء بهم في شدَّة تعلُّقهم بالله ﷻ، وتفويض أمورهم إليه.

أمَّا دعاؤهم فغاية الأدب مع الله ﷻ، يقول تعالى حكايةً على ألسنتهم: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

فابتدؤوا بالنِّداء، وحُذفت أداة النِّداء جريًا على سنن البيان القرآنيِّ في حذف أداة النِّداء مِن (ربَّنا) لاستشعارهم أنَّهم في أقصى مقامات القرب مِن الله ﷻ، ونادوه باسمه الدَّال على تفضُّله وإنعامه على عباده، وأضافوه إلى أنفسهم إلحاقًا لأنفسهم بفضل المربوبيَّة لله، ثمَّ دعوا بغفران الذُّنوب، وتقديم المتعلِّق (لنا) على المفعول، للإيذان بشدَّة حاجة نفوسهم إلى هذا الغفران، وجمعت الذُّنوب لأنَّها مظنَّة الوقوع والاقتراف، فاعترفوا بتقصيرهم، وأُفرد في الإسراف فقالوا: (في أمرنا) ولمْ يقولوا أمورنا، اتِّقاء أنْ يبلغوا هذا المبلغ مِن الطُّغيان ومجاوزة الحدِّ، فهم مع تذلُّلهم واعترافهم بتقصيرهم لمْ يدفعهم ذلك إلى الطُّغيان، ولمّا حقَّقوا النَّقاء لتلك النُّفوس، وأصبحت جديرةً بنصر الله ﷻ، مِن طهارة النُّفوس، سألوا الله بعد أنْ انتصروا على نفوسهم أنْ ينتصروا على أعدائهم، فقالوا: ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ وهي كنايةٌ عن الانتصار وعدم الاستسلام؛ لأنَّ الانتصار يستلزم الثَّبات على الأرض، وعدم الفرار، فلا يبعد أنْ يُراد به اللازم والملزوم. وبعد أنْ حقَّقوا أسباب النَّصر المتعلِّقة بنفوسهم سألوا الله أنْ ينصرهم على أعدائهم: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وتقديم الاستغفار على طلب النَّصر "ليكون طلبهم إلى ربِّهم عن زكاةٍ وطهارةٍ وخضوعٍ، وأقرب إلى

(١) الموضع السابق.

الاستجابة"[1]، كما أنَّ استغفار أولئك الذين أثنى الله عليهم في موضع الحرب دالٌّ على أنَّ الذُّنوب مِن موانع النَّصر[2]، كما أنَّ الإشارة في طلب ثبات الأقدام دالٌّ على أنَّ الرُّعب مِن نتائج الذَّنب[3]، فتسلْسُل الدُّعاء فيه بلاغةٌ عاليةٌ، ويُلحظ كذلك تقديمهم تقديمهم ثواب الآخرة وهو المتعلِّق بغفران الذُّنوب، على ثواب الدُّنيا وهو الانتصار على العدوِّ. وذلك يغرس في النَّفس معلمين مِن معالم التَّثقيف:

١ أنَّ الإعداد للنَّصر يبدأ مِن الدَّاخل إلى الخارج، يبدأ مِن النَّفس باعتبارها مركز القوَّة، ثمَّ تتَّسع الدَّائرة إلى أنْ تصل إلى الثَّبات في أرض المعركة والانتصار على العدوِّ. ومِن هنا كان لابدَّ مِن أنْ تَسبق التَّربية الجهاديَّة والإعداد البدنيَّ والمادِّيَّ تربيةٌ إيمانيَّةٌ تقوِّي جذوة العلاقة بالخالق.

٢ أنْ يجعل المسلم نصب عينيه الدَّار الآخرة، وتحدَّد أولوياته بناءً على هذه الغاية، وهم ابتدؤوا السُّؤال بما هو أقرب لغايتهم ومرادهم، وجديرٌ بالمسلم أن يكون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

الفاء أفادت السَّببيَّة، أيْ أنَّ سبب الإيتاء هو ما تقدَّم مِن الاستغفار والدُّعاء، وفيه حثٌّ للنَّفس على تقديم الاستغفار وذكر الله؛ ليتحقَّق النَّصر بإذنه، ثمَّ قُدِّم ثواب الدُّنيا على الآخرة، وذلك ليكون دالًّا على تمام الاستجابة وسرعتها بإعطائهم ماهو أعجل إشعارًا بقبول الدُّعاء، ولتقدُّمه في الزَّمان والوقوع[4]، أو لأنَّه أنسب لما قبله مِن الدُّعاء بالنَّصر على الكافرين[5]، وممَّا يُلحظ في تركيب الآية أنَّ الله ﷻ أخبر بأنَّه آتاهم

(١) الكشاف: (١/ ٣٢٤).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٥٧).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٦٤).

(٤) ينظر: البحر المحيط (٣/ ٧٦).

(٥) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٢٩٩).

ثـواب الـدُّنيا والآخـرة، وتقـدَّم قولـه تعـالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ [آل عمران:١٤٥] فذكر في سياق العتاب (مِن)، وذكر هنا في شأن الممـدوحين إيتـاءهم الثَّـواب، والفـرق أنَّ المعـاتَبين اشـتغلوا بطلـب ثـواب الآخـرة فأعطـاهم الله منهـا، والممـدوحين هُنـا لمْ يطلبـوا الثَّـواب، بـلْ اشـتغلوا بـالاعتراف بالتَّقصير، فكان مقامهم في العبوديَّة أعلى، ففازوا بالكلِّ(١).

وفيه تثقيفٌ للنَّفس على أنَّ مقام الاعتراف بالخطأ والتَّقصير أعلى مِن مقام طلب الثَّواب وإنْ كان كلاهما عبوديَّةً لله، فاختلف الجزاء بحسب المقام، ولـذلك سمَّاهم الله بعد ذلك محسنين.

وعدل في التَّركيب في ثواب الآخـرة فقـال: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ تمييزًا لـه عـن ثواب الدُّنيا الذي يشوبه الكَدَرُ والزَّوال، يقـول الزَّمخشريُّ: "وخُصَّ ثـواب الآخـرة بالحسن دلالةً على فضـله وتقدُّمـه، وأنَّـه هـو المعتـدُّ بـه عنـده"(٢)، وفيـه تثقيـفٌ لـنفس المخاطَب بترغيبه بثـواب الآخـرة، وجَعْلِـه نصب عينيـه، والمقدَّم في طلـب الثَّـواب. ويحتمل أنْ يكون الحُسـن هُنـا دالًّا على الاستغراق في الصِّـفة"كقولـه: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] أي حسنًا، والغـرض منـه المبالغـة كـأنَّ تلـك الأشـياء الحسـنة لكونهـا عظيمة في الحسْن صارت نفس الحسْن، كما يقـال: فـلان جـود وكـرم، إذا كـان في غايـة الجود والكرم"(٣)، فهو يُفيد المبالغـة في وصـف الثَّـواب؛ لترغيـب المخـاطَبين في ثـواب الآخرة المقتضي الإحسان في الدُّنيا.

وقولـه تعـالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ قـدِّم اسـم الجلالـة عـلى خـبره الفعليِّ للتَّأكيـد وتقرير المعنى في النُّفوس، وإلى هـذه المعنـى مِـن التَّأكيـد ذكـر الإمـام عبـد القـاهر مزيَّـة تقديم ذكر المسند إليه على الخبر الفعليِّ وهو"أنْ تحقِّق على السَّامع أنَّه قـدْ فعَـلَ، وتمنعَـه

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٣٠).

(٢) الكشاف: (١/ ٣٢٤).

(٣) مفاتيح الغيب: (٩/ ٣٠).

مِن الشَّكِّ، فأنت لذلك تبدأ بذكره، وتُوقِعه أوَّلًا ومِن قبلِ أنْ تذكُرَ الفعل في نفسه، لكي تباعده بذلك مِن الشُّبهة، وتمنَعه مِن الإنكار، أو مِن أنْ يُظَنَّ بك الغَلَط أو التَّزيُّد"[1].

وأُظهر اسم الله الأعظم في موضع الإضمار إيذانًا باستقلال الجملة، ومجيء الواو مع أنَّ الجملة تذييلٌ في معرض التَّعليل والتَّأكيد للفت الانتباه إلى المغايرة الموجودة في المعنى، فالحثُّ على الإحسان في ما تقدم هو الحثُّ على الإحسان هُنا، ولكن أفاد هذا المعنى في التَّذييل مع الواو؛ ليلفت إلى المغايرة إعلاءً لشأن الإحسان وترغيبًا فيه.

ومما يلحظ أنَّ أولئك الذين أثنى الله عليهم اعترفوا بتقصيرهم، فسمَّاهم الله محسنين فكأنَّه يقول لهم: " إذا اعترفت بإساءتك وعجزك فأنا أصفك بالإحسان وأجعلك حبيبًا لنفسي، حتَّى تعلم أنَّه لا سبيل للعبد إلى الوصول إلى حضرة الله إلَّا بإظهار الذِّلة والمسكنة والعجز"[2]. فيضع بين يدي المؤمن معلمًا مِن معالم التَّثقيف في دعوته لله ﷻ بأنْ يُضمِّن دعاءه الاعتراف بالذَّنب والتَّقصير، فإنَّه أرجى للجواب.

---

(١) دلائل الإعجاز: (١٢٨ و١٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب: (٩/ ٣١).

المبْحثُ الثَّالث: أثر أساليب التَّقابل في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

أثر تقابل صورتي الوعد والوعيد:

يتحقَّق التَّثقيف النَّفسي بمقابلة حال فريقين، يضعهما السِّياق القرآني أمام المتأمِّل ليرجع إلى نفسه، فيختار أيَّ المصيرين أنجى لنفسه، ففي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩ - ١٥١] نلحظ أننا أمام صورتين الأولى موجّهةٌ للمؤمنين، والأخرى تتوعَّد الكافرين، وفي الصورة الأولى يُنادي الله عباده الذين آمنوا، وهم أقلُّ مقامًا مِن المؤمنين؛ لأنَّهم لا يحتاجون إلى مثل هذا التَّنبيه، وجعْل فعل الإيمان في حيِّز الصِّلة فيه دلالةٌ على أنَّ ما يلي النِّداء له علاقةٌ بالإيمان، وأنَّ مقتضى الإيمان أنْ يكون المؤمن غالبًا لا مغلوبًا، فجاء التَّعبير عنه بأسلوب الشَّرط، بتعليق النُّكوص والانقلاب بطاعتهم للكفَّار، واستعمال المضارع في حيِّز الصِّلة للدَّلالة على تجدُّد وقوع الجزاء بتجدُّد وقوع الشَّرط، والطِّباق بين الذين آمنوا والذين كفروا ليتميَّز الفريقان تمييزًا جليًّا بيِّنًا، وليكون ذكْر الإيمان تثبيتًا للمؤمنين بمباينتهم لحال الكفَّار، وذكْر الكفَّار تنفيرٌ لهم، وتحذيرٌ مِن طاعتهم(١).

والظَّاهر أنَّ الخطاب متَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]؛ لأنَّ الانقلاب هناك يترتَّب عليه الرُّضوخ للكفَّار والاستسلام، وهو ما يحذِّر المؤمنين منه

---

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٧).

يقول ابن عاشور: "فالظَّاهر أنَّه أراد مِن هذا الكلام تحذير المؤمنين مِن أنْ يُخامرهم خاطر الدُّخول في صلح المشركين وأمانهم؛ لأنَّ في ذلك إظهار الضَّعف أمامهم، والحاجة إليهم، فإذا مالوا إليهم استدرجوهم رويدًا رويدًا، بإظهار عدم كراهية دينهم المخالف لهم، حتَّى يردُّوهم عن دينهم؛ لأنَّهم لنْ يَرضوا عنهم حتَّى يرجعوا إلى ملَّتهم، فالرَّدُّ على الأعقاب على هذا يحصل بالإخارة والمآل"(١)، وهو كالتَّصريح في النَّهي عن ترك القتال بعد التَّعريض بهذا المعنى في الثَّناء على الرِّبِّيين. ثمَّ يأتي التَّعقيب الذي يواجه الله به ﷻ تلك النُّفوس التي كانتْ تتردَّد بين الثَّبات والاستسلام ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾

وبلْ للإضراب عن المعنى الذي تضمَّنته الآية السَّابقة مِن طاعة الكافرين وموالاتهم. والخبر هنا يُراد به لازم الفائدة؛ لأنَّ المخاطَبين هنا مِن المؤمنين، وإنَّما أُريد تذكيرهم بالحقيقة لما اعترى بعض قلوب المؤمنين آنذاك مِن الاضطراب والوَجَل، وقوله: ﴿وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ نزولٌ عند اعتقاد المخاطَبين الذين يبحثون عن النَّاصر، فهو خيرُ مَن ينتصر لهم.

وفي الآية تثقيفٌ للمؤمنين بحثِّهم على صدق الالتجاء إليه، وعدم الالتفات لأحدٍ غيره، فهو النَّاصر الحقيقيُّ "وإذا كان مبعث الميل إلى طاعة الذين كفروا هو رجاء الحماية والنُّصرة عندهم، فهو وهمٌ يضرب السِّياق صفحًا عنه؛ ليذكِّرهم بحقيقة النُّصرة والحماية﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ فهذه الجهة التي يطلب المؤمنون عندها الولاية، ويطلبون عندها النُّصرة. ومَن كان الله مولاه فما حاجته بولاية أحدٍ مِن خلقه؟ومَن كان الله ناصره، فما حاجته بنصرة أحدٍ مِن العبيد؟"(٢).

فالتَّعقيب هنا يصل النُّفوس بعقيدتها الصَّحيحة التي ينبغي أنْ يُؤسَّس عليه الجيل الذي يريد النَّصر؛ لأنَّ صحَّة العقيدة هي الحصْن الذي يُنافح عنه المجاهدون

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١٢١).

(٢) في ظلال القرآن: (١/ ٤٩١).

ويكافحون لأجلها، وهي التي تحقِّق لهم الاستخلاف في الأرض وفق سنَّة الله ومراده.

وفي المقابل نجد الصُّورة المرهِّبة لنفوس الكافرين في قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ فبعد أنْ رغَّب الله ﷻ المؤمنين في الثَّبات وعدم الاستسلام، جاء التَّعبير ملتفتًا إلى المشركين، ولتتغيَّر نبرة الخطاب إلى الحدَّة والبطش، فابتُدئ الخطاب بالالتفات مِن الاسم الظَّاهر إلى ضمير المتكلِّم بنون العظمة جريًا على سنن العظمة والفخامة؛ لغرس المهابة في النُّفوس[(١)]، والسِّين تفيد تأكيد وقوعه واقترابه، وأنَّه ملقى عليهم لا محالة. وقدِّم المتعلِّق: ﴿فِي قُلُوبِ﴾ على المفعول؛ لأنَّه موضع العناية والاهتمام بالمحلِّ المُلقى فيه قبل المُلقى[(٢)]، فمناط التَّرهيب هو إصابة الرُّعب هذا الموقع مِن النَّفس الذي يكون موضع الاطمئنان والسُّكون، وتضمَّنت جملة الصِّلة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التَّنبيه إلى جُرمهم الذي استحقُّوا لأجله العذاب، فالتَّركيب فيه ترهيبٌ للنُّفوس الكافرة بما يُنبئ عن خذلان الله لأهل الشِّرك، وتوفيقه لعباده المؤمنين بإرجاف عدوِّهم.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ الباء للسَّببيَّة، وتقديم المتعلِّق لتعظيم فعلهم وتهويله، فهم أشركوا مع المستحقِّ للإفراد بالعبادة لكمال ألوهيَّته وقدرته، وقدْ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]

والنَّفي في قوله تعالى: ﴿بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ متوجِّهٌ إلى القيد الحجَّة والسُّلطان والمقيَّد الإنزال، لا إلى المقيَّد وحده وهو الإنزال، فليس المعنى على أنَّهم أشركوا بالله ماهم فيه حجَّةٌ ولكنْ لمْ تنزَّل، بلْ على عدم إنزاله وعدم وجود الحجَّة فيه أصلًا؛ لأنَّه لو كانت فيه حجةٌ لأنزله الله، يقول الزَّمخشريُّ: "فإن قلتَ: كان هناك حجَّة حتَّى ينزِّلها الله فيصحُّ لهم الإشراك؟ قلتُ: لم يعنِ أنَّ هناك حجةً إلَّا أنَّها لمْ

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٨).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٧٧).

تنزَّل عليهم؛ لأنَّ الشِّرك لا يستقيم أن يقوم عليه حجةٌ، وإنَّما المُراد نفي الحجَّة ونزولها جميعًا"[1]، فالنَّفي هنا مِن الكناية الإشاريَّة، وفيه مزيَّة التَّنبيه إلى ارتباط الإنزال بالحجَّة والوضوح فيما يكون مِن عند الله ﷻ؛ ولذلك لَّما انتفى فيه وجه الحجَّة انتفى نزوله.

ومِن معالم التَّثقيف التي يدلُّ عليها الرَّبط السَّببيُّ بالباء بيان أثر الشِّرك على النُّفوس، وأنَّ التَّعلُّق بغير الله ﷻ يُورث القلق والتَّشكُّك والاضطراب، وبمفهوم المخالفة فالإيمان يُورث الاطمئنان واليقين.

ثمَّ بعد أنْ ذكر ما سيلحقهم في الدُّنيا مِن الرُّعب والخوف توعَّدهم في الآخرة بالعذاب المهين فقال: ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾، فعدل عن الإضمار إلى الإظهار لنُكتتين؛ ليكون في ذكر ظلمهم تغليظٌ لما حصل منهم مِن الإشراك بالله ﷻ، فالإشراك أعظم الظُّلم، والنُّكتة الثَّانية ليكون كالتَّعليل لاستحقاقهم العذاب[2]، فلو أُضمر لانطفأت هذه المعاني.

وفي ذكر عاقبتهم، وتعليل ذلك بما أَظهر وعيدٌ وترهيبٌ لأهل الكفر، وإنذارٌ لهم بعاقبة إشراكهم بالله ﷻ، وطمأنةٌ المؤمنين بسلامتهم مِن ذلك ما داموا ثابتين على الإيمان.

أثر مقابلة حال المؤمنين بحال المنافقين:

يحقِّق التَّثقيف النَّفسيُّ أثره بمقابلة حال المؤمنين بما منَّ الله عليهم مِن صرف الهمِّ عن نفوسهم، بمقابل ما يصوِّره القرآن من قلق المنافقين وتردُّدهم، وندمهم على الخروج فيقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ

(١) الكشاف: (١/ ٣٢٥).

(٢) ينظر: أنوار التنزيل: (٢/ ٤٢).

مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١٥٤]وقُدِّم المتعلِّق الجار والمجرور (عليكم) للاهتمام بهم، فتقديمه مشعرٌ بالعناية، وما كانت له العناية كان له صدْر الكلام، مع مافيه مِن التَّشويق بتأخير ذكر ذلك الامتنان(١).

وكذلك وقع تقديم الظَّرف (مِن بعْد الغمِّ) على المفعول؛ لأنَّ في تقديمه تمهيدًا وإشعارًا بأهميَّة النُّعاس؛ لأنَّه جاء إثر اشتداد الغمِّ، فبيَّن بهذا التَّقديم شدَّة الحاجة إلى المفعول مع مافيه مِن حُسن النَّظم والموقع؛ لخفَّة جملتي الجار والمجرور والظَّرف بدلًا مِن جملة المفعول المتَّصلة بالوصف(٢).

وقوله: ﴿أَمَنَةً﴾ حالٌ مِن النُّعاس لأنَّ الأمنة ليست هي النُّعاس، بلْ شيءٌ يَحصُل به، ويجوز أن يكون المفعول(٣).

وعلى القول بالحال، فتقديم الأَمَنَة على النُّعاس لأمْن اللبس، وأصل الكلام أنزل عليكم نعاسًا ذا أَمَنَةٍ، وإنَّما جاء التَّعبير على هذا الوجه المذكور مبالغةً"لإفادة أنَّ النُّعاس عين الأَمَنَة لا شيءٌ موصوفٌ بالأَمَنَة"(٤)، كما نلمس في تقديم الحال مراعاةً لمقام الخوف الذي نَتَجَ عن فشلهم وتنازعهم، حتَّى أصعدوا في الأرض، فكانت حاجتهم إلى الأمن أشدَّ، وكان ذكره لهم أهمُّ وأعنى.

يقول أبو السُّعود: "وتخصيصُ الخوفِ من بين فنونِ الغمِّ بالإزالة لأنَّه المهمُّ عندهم حينئذٍ لما أنَّ المشركين لَمَّا انصرفوا كانوا يتوعَّدون المسلمين بالرُّجوع فلمْ يأمنوا كرَّتَهم، وكانوا تحت الحَجَفِ متأهّبين للقتال... "(٥)

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٠ و١٠١).

(٢) ينظر: بلاغة التقديم والتأخير: (٣/ ٨٣٦).

(٣) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٢٣٩).

(٤) حاشية ابن التمجيد على البيضاوي: (٦/ ٣٦٤).

(٥) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡ﴾ صفةٌ للنُّعاس، وفي إثبات جملة الصِّفة مع تقييده بقوله: ﴿مِّنكُمۡ﴾ تمييزٌ لهذه الطَّائفة المؤمنة التي أنزل الله عليهم فضله عن الطَّائفة المنافقة.

فالتَّذكير بما تفضَّل الله به عليهم مِن الاهتمام بما دلَّت عليه الأساليب البلاغيَّة فيه تسليةٌ للمؤمنين، ومواساةٌ للجراحات التي أصابتهم، وفيه كذلك تربيةٌ لهم لأنْ يلتزموا أمر الله وأمر رسوله ﷺ من جهة التَّلطُّف والرَّحمة بهم مع عصيانهم أمره، فكأنَّه قيل لهم: هذا ما فعلتم أنتم تجاه طاعتي، وطاعة رسولي، وهذا ما فعلته بكم!

ثمَّ ذكر الطَّائفة الأخرى في مكاشفةٍ صريحةٍ، وفضحٍ للصَّفِّ العابث في الجيش، فقال ﷻ: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ فوُصفتْ هذه الطَّائفة بأنَّ أنفسهم أوردتهم المهالك، وأصابتهم بالهموم، أو أنْ يكون المعنى لاهمَّ لهم إلَّا أنفسهم[1].

والتَّأكيد بقدْ لتقوية الحُكم، وأنَّهم قدْ بَلَغَ منهم القلق والجدُّ في الاشتغال بأمر نفوسهم مبلغًا عظيمًا؛ لأنَّ الإنسان"إذا اشتدَّ اشتغاله بالشَّيء واستغراقه فيه، صار غافلًا عمَّا سواه، فلمَّا كان أحبُّ الأشياء عندهم هو النَّفس، وكانت أسباب الخوف على النَّفس هناك موجودةً، والدَّافع لذلك وهو الوثوق بنصر الله ووعده غير حاصلٍ لهم، فلمْ يكن لهم هناك إلا هَمُّ أنفسهم"[2].

وعليه فالمعنى يُفيد الحصر غير الاصطلاحيِّ، وجهة الدَّلالة عليه المقام والمعنى دون اللفظ[3]، حتَّى كأنَّهم قالوا لايُهمُّنا إلَّا أنفسنا، فالمثبت هو همُّ أنفسهم، والتَّعبير هنا يعكس في النَّفس خطر النِّفاق، ونتائجه الوخيمة على القلوب والنُّفوس، مِن فقدانٍ للاطمئنان، وانعدامٍ للأمن، فينزع مِن نفوسهم اليقين بأمر الله، والتَّسليم

(١) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٧).

(٢) غرائب القرآن: (٢/ ٢٨٥).

(٣) ينظر: حاشية ابن التمجيد على البيضاوي: (٦/ ٣٦٥).

لقضائه، والتَّوكل عليه.

ويُخبر سبحانه عنهم فيقول: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ والجُملة حال مِن الضَّمير في أهمَّتهم[1]، والتَّعبير بالجملة الفعليَّة يُفيد تجدُّد الظَّنِّ السَّيِّء في كلِّ حادثةٍ، وعند كلِّ مصيبةٍ، فهم يظنُّون بالله ظنًّا ينبع مِن السُّوء الذي يملأ قلوبهم ظنًّا ليس له مِن الحقِّ نصيبٌ، وهي جملةٌ عامَّةٌ في التَّعبير عن كلِّ باطلٍ، ثمَّ خُصِّص ذلك بنوعٍ مِن الظَّنِّ وهو ظنُّ الجاهليَّة، إشارةً إلى أسوأ الظُّنون وأقبحها، فهو ضرْبٌ مِن ضروب تأكيد المعنى، بما يُفيد تحقير ظنونهم. يقول الرَّازيُّ: "والفائدة في هذا التَّرتيب أنَّ غير الحقِّ أديانٌ كثيرةٌ، وأقبحها مقالاتُ أهل الجاهليَّة، فذكر أوَّلًا أنَّهم يظنُّون بالله غير الظَّنِّ الحقِّ، ثمَّ بيَّن أنَّهم اختاروا مِن أقسام الأديان التي غير حقَّةٍ أركَّها وأكثرها بطلانًا، وهو ظنُّ أهل الجاهليَّة، كما يُقال: فلانٌ دينه ليس بحقٍّ، دينه دين الملاحدة"[2] فهو يعكس في النَّفس التَّحذير مِن سوء الظَّنِّ بالله ﷻ، وأنَّها مِن صفات المنافقين الخُلَّص.

ولَمَّا كانت هذه الصِّفة السَّيِّئة التي اقتضت التَّحذير بحاجةٍ إلى تعريتها لتظهر في حقيقتها، فُسِّرت هذه الجملة بقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ والاستفهام هُنا يحتمل أنْ يكون حقيقةً على سبيل الاسترشاد، أيْ يقولون هذا ظاهرًا، ويُبطنون النِّفاق[3]، ويحتمل إفادة النَّفي والإنكار[4]، أيْ ليس لنا مِن الأمر شيءٌ، وقرينته زيادة (من) في مثل هذه الجُمل تركيبًا[5]، وهي تُفيد تأكيد معنى الطَّلب، فهم يحتجُّون بأنَّهم لا يملكون مِن الأمْر ولو شيئًا قليلًا، قالوا ذلك على سبيل الاحتجاج،

(١) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٢٣٩).

(٢) مفاتيح الغيب: (٩/ ٤٨).

(٣) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٧).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٤٩).

(٥) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٥).

يُعرِّضون بمخالفة النَّبي ﷺ لمشورتهم حين أرادوا البقاء في المدينة، وأنَّ الخروج لأُحُدٍ كان خطأً[1]، واستعمالهم لأسلوب التَّعريض حتَّى لا يُصادموا الجيش، ويُفضح أمرهم في مخالفة النَّبي ﷺ، فهم يسلكون سُبُل إخفاء ماتُكِنُّ صدورهم، ويُخفون ما يعتقدون؛ ولذلك كان أسلوب التَّعريض أنجع لتمرير أفكارهم خاصَّةً حينما "يكون بين المخاطِب والمخاطَب مايُوجب استحياء المخاطِب أو احتشامه، وتحرُّجه مِن التَّصريح أمام مَن يُخاطبه إمَّا لفرط قربٍ وفضلٍ وثقةٍ، وإمَّا لفرط بعدٍ وفضلٍ وتهيُّبٍ "[2].

وهو يغرس في المؤمن الحَذَرَ مِن الانسياق خلف مقولات أهل النِّفاق التي تحسِّر المسلمين، وتُثبِّطهم، فهم ينشطون دائـمًا عندما تنكسر شوكة المسلمين ليلقوا عليهم الملامة والعَتَبَ، فعلى المسلم أنْ يتفرَّس في صدق هذه الدَّعاوى، ورَدِّ الشُّبهات، وتفنيد المغالطات.

ولمَّا كان معنى النَّفي أنَّ لهم تدبيرًا مُنعوا مِن تقديمه جاء تفنيد الدَّعوى الباطلة بلغةٍ حادَّةٍ مباشرةٍ ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ ونلحظ قوَّة الخطاب ومبالغته بعد المقولة اللَّيِّنة التي نطقوا بها، فابتُدئ الخطاب بـقُلْ، والخطاب موجَّهٌ للرَّسول ﷺ، وكأنَّ هؤلاء لا يستحقُّون مخطابتهم مباشرةً، وليسوا أهلًا لأنْ ينالوا التَّوجيه مِن ربهم تحقيرًا، وتهوينا مِن شأنهم، فأمر الرَّسول ﷺ بمخاطبتهم، وجاء الكلام على وجه التَّأكيد، فأوقعت كلمة(الأمر) بين تأكيدين تأكيدٍ بالأداة (إنَّ)، ثـمَّ تأكيدٌ بلفظ (كلِّ) المفيدة للعُموم، واسميَّة الجملة كذلك؛ لينزع معها كلَّ شبْهةٍ، فله وحده الأمر "ليس لكم ولا لغيركم منه شيءٌ[3]، شئتم أوأبيْتم، غزوتم أوقعدتم، ثبتم أوفررتم"[1]،

---

(١) ينظر: الموضع السابق.

(٢) التعريض في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم الخولي: (١٧٠)، نشر دار البصائر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) هذه العبارة يفهم منها أن التركيب هنا يفيد الحصر، ولكنه حصر غير اصطلاحي فهو ليس من الطرق المقررة في هذا المبحث عند البلاغيين، وجهة إفادته أن التأكيد بقوله (كله) لا يمكن أن يكون إلا من عند =

والفصل بين الجُملتين محمولٌ على الاستئناف البيانيِّ إجابةً على سؤالٍ مقدَّرٍ: فماذا أقول لهم؟ فجاءت الجملة مجيبةً على ما تقدَّم أتمَّ جوابٍ.

المعلم التَّثقيفيُّ الذي تُشير إليه الجملة الحثُّ على تفويض الأمور إلى الله ﷻ، وتسليمها إليه، والتَّعلُّق به ﷻ، والإيمان بقضائه وقدره، فإذا تحقَّق ذلك، قادهم إلى امتثال أمر الرَّسول ﷺ في المنشط والمكره، وتقديم أمره على كلِّ محبَّبٍ للنَّفس.

وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾ حالٌ مِن (يقولون) فالقول صادرٌ منهم مع اجتهادهم في إخفاء الحقيقة التي يكنُّونها في صدورهم، وتتجدَّد الصِّفة الخبيثة فيهم في كلِّ صفٍّ يندسون فيه، وفي الجمع بين المتضادَّين (يخفون) و(يبدون)، إشعارٌ بمدى التَّناقض الذي ملأ تلك النُّفوس الدَّنيئة، فالغايات التي يتشبَّثون بها غاياتٌ كاذبةٌ مزيَّفةٌ، تخفي الشَّرَّ الذي لا تجرأ ألسنتهم على الإفصاح عنه؛ ولذلك أُثبت القيد في (لك) إشعارًا بمدى اهتمامهم في تحسين صورتهم، والظُّهور في مظهَر المصلح عند رسول الله ﷺ.

والقرآن الكريم حين يكشف الزَّيغ الذي في قلوبهم، يحذِّر المؤمنين مِن الانخداع بالغايات النَّبيلة التي يُظهرونها؛ لأنَّها لا تمثِّل حقيقة مُرادهم وطموحهم.

ثمَّ اقتضى ذكر الصِّفة الخبيثة فيهم زيادة تجلية أمرهم، وفضح منطقهم، فاقتضى سؤالًا مقدَّرًا أيّ شيءٍ يُخفون؟[2]، فجاء الجواب: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، ويجوز أنْ يُحمل على التَّبيين والتَّفسير؛ لأنَّ جملة (يظنُّون بالله غير الحقِّ ظنَّ الجاهلية) فيها غموضٌ وإجمالٌ فسَّرتها الجملة الأُخرى ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، فأشار إلى القول بكونه دالًّا على فساد معتقدهم، وجاهليَّة

= الله عز وجل، منفي عن غيره.

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٦٩).

(٢) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٨) وإرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٢).

ظنونهم، ونلحظ في هذه المكاشفة مايلي:

١-أنَّ الله ﷻ أسند القول إليهم كلِّهم دون تحديدٍ؛ لأنَّهم سمعوها، ورضوا بها(١).

٢-حرصهم على تقديم ذواتهم، وإسناد الأمور إليهم، وأنَّ المصيبة وقعت لمخالفة رأيهم، ويدل على ذلك تقديم المتعلِّقات (لنا) (مِن الأمْر).

٣-استعمال (لو) الدَّالة على امتناعٍ لامتناعٍ لإيقاع الحسرة في النُّفوس، وبثِّ الجَزَعِ والنَّدامة في صفوف المسلمين.

٤-لمْ تأتِ (مِنْ) هنا كما جاءت في قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ لأنَّ ذلك كان خطابهم للرَّسول ﷺ، فكانوا يُظهرون لغة اللين والتَّودُّد والاحتيال، بينما هذا خطاب بعضهم لبعضٍ خفيةً فأظهروا فيه حقيقتهم مِن الجَشَع والطَّمع(٢)، ونلحظ كذلك اختلاف لغة الحديث، فإذا كان الحديث للرَّسول ﷺ خُوطب بالاستفهام الدَّال على المراد بطريق التَّعريض، وهنا يأتي صريحًا واضحًا يحمل الاحتجاج والتَّسخُّط"ومن البيِّن اختلاف الكلامين على ألسنة المنافقين تَبَعًا لاختلاف إظهار الكلام وإخفائه"(٣).

جاء النَّفي في جواب الشرط بما لتأكيد النَّفي، والنَّفي هنا مسلَّطٌ على المقيَّد، أي أنَّ النَّفي متوجِّهٌ إلى أصل القتل دون القيد (هاهنا)، وإنَّما ذُكر الظَّرف زيادةً في تحسير المسلمين؛ لأنَّهم اختاروا الخروج إلى أرض المعركة، يقول أبو السُّعود: "﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾أي ما غُلبنا أو ماقُتل مَنْ قُتل منَّا في هذه المعركةِ على أنَّ النَّفيَ راجعٌ إلى نفس

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٧).

(٢) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: (١/ ١٩٢).

(٣) تأملات في سورة آل عمران: (٤٥٦).

القتلِ لا إلى وقوعه فيها فقط"[1]، ونلحظ أنَّهم عبَّروا بقولهم الذي يسوقه الله تعالى على ألسنتهم: ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾ فجعلوا أنفسهم المقتولين، فهم يتكلَّمون بلسان أهل الفضل الذين نالوا الشَّهادة في سبيل الله، إظهارًا منهم أنَّ تلك رغبة الجيش الذي قاتلوا فيه، وهكذا هم في كلِّ زمانٍ ومكانٍ إلى يومنا هذا يتقمَّصون موقف المناضل عن الحق، ويتكلمون بألسنة أهل المحنة، بصيغِ المتكلِّم والجماعة، ويجعلون مِن مطالبهم الدَّنيئة مطالب اجتماعيَّة، أو يمكن حمل الكلام على محملٍ آخر بأنَّهم عبَّروا عن إصاباتهم بالقتل؛ لأنَّ أولئك مِن فزعهم وقلقهم يهوِّلون كلَّ مصيبةٍ، ويجعلون مِن الأذى القليل الذي يُصيبهم قتلًا وسفكًا.

فيأتي الجواب مِن الله ﷻ بطريقة الاحتجاج المفحم: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ وجاء الجواب كما في الحوار السَّابق بطريق التَّبليغ احتقارًا لهم لا بخطابهم مباشرةً؛ ليكون حرمانهم مِن الشَّرف تحسيرًا لقلوبهم، وتنبيهًا إلى المسافات البعيدة التي تحجبهم مِن مباشرة نداء الله لهم، وأعاد السِّياق القرآنيُّ الدَّعوى ابتداءً مُظهرًا أقصى ما يمكن أن تكون فيه الحال مستقرَّةً مطمئنَّةً، وأشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿فِى بُيُوتِكُمْ﴾ إشارةً إلى المكان الذي يبيت فيه الإنسان، فيخلد إلى الرَّاحة والاستقرار، فأظهر دعواهم في أقصى صُورها، ثمَّ جاء الجواب مفحمًا وناقضًا للصُّورة، بالتَّأكيد بقوله تعالى: ﴿لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ والتَّأكيد هنا يقطع كلَّ شكٍّ، ويُسقط كلَّ حجَّةٍ، وعُبِّر بالاسم الموصول لتمييز مَن قدِّر له القتل، فهو انتقاءٌ يقع لأصحاب الأقدار المكتوبة، وبُنِيَ الفعل (كُتِبَ) لما لمْ يُسمَّ فاعله تنويهًا إلى الفعل ذاته، وللعلم به، لأنَّ كتابة الأقدار ليس ممَّا يُظنُّ فيه تعدُّد الفاعل. وتقديم المتعلِّق(عليهم) الذي يُفيد الاستعلاء للتَّخصيص، فهم المعنيون بإثبات استجابتهم لأقدار الله ﷻ.

وهكذا فالآية تخاطب العقل الذي حاولوا أنْ يُلبِّسوا عليه الحقيقة، فأثبت الله

(١) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٢).

شبهتهم، وبالغ في إثباتها، ثمَّ نَسَفَ هذه الشُّبهة، وبيَّن افتقارها إلى الحجَّة، وهو ضربٌ مِن ضروب الاحتجاج العقليِّ[1]، كما أشار إليه أبو حيَّان[2].

والآية الكريمة بخصائصها الأسلوبيَّة تقرِّر حقيقة الانْصياع لأقدار الله ﷻ، وهذا يغرس في النُّفوس التَّسليم بقضاء الله وقدره، والصَّبر واليقين، والتَّوكل على الله، وأن يعلم المؤمن أنَّ الاستجابة لأمر الله ورسوله لا تُقدِّم الموت ولا تُؤخِّره.

ثمَّ جاء التَّعليل بقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ والأعلى أنْ يكون هذا الخطاب للمؤمنين والمنافقين، وهذه الواو مؤذنةٌ بتعدُّد العلل، لأنَّها كاشفةٌ عمَّا طُوي مِن الكلام، وأنَّها عللٌ كثيرةٌ[3]، غير أنَّ أبرزها وأليقها بالسِّياق التَّثقيفيِّ الذي وَرَدَتْ فيه هذه العلَّة، واستحضار اسم الجلالة الأعظم للدَّلالة على أنَّها مِن خصائص الألوهيَّة، والتَّعبير بالاسم الموصول (ما) ليعمَّ كلَّ ما تحويه الصُدور مِن خفايا الأمور ودقيقها وجليلها، فالله مطَّلعٌ عليها، ومثل ذلك التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾، والجملتان بينهما تناسبٌ في كون الابتلاء والتَّمحيص يُتوصَّل بهما إلى التَّمييز، كما أنَّ الصُدور والقلوب يجتمعان في كونهما مِن المستور والباطن الذي لا يطَّلع عليه أحدٌ إلَّا الله، وعُدِّي فعل الابتلاء إلى الصُدور بينما عُدِّي فعل التَّمحيص إلى القلوب؛ لأنَّ الصُّدور تُستعمل فيما يُراد مِن الخفايا والضَّمائر

(١) الاحتجاج العقلي له طرق عديدة منها المذهب الكلامي وهو عند البلاغيين المتأخرين " أن تورد مع الحكم ردا لمنكره حجة على طريق المتكلمين، أي صحيحة مسلمة الاستلزام ". المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك: (٢١٩)، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م. وأول من أطلق عليه (الاحتجاج النظري) ابن النقيب في مقدمة تفسيره. كذا ذكر السيوطي. ينظر: شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان: (١٢٣)، نشر مطبعة البابي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٨٩).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٢).

والإحساس الباطنيِّ، وهي بحاجةٍ للابتلاء حتَّى تظهر وتنكشف، ومنه قول الرَّسول ﷺ: (الإثم ما حاك في صدْرك...)[1]، وأمَّا القلوب فهي محلُّ التَّفكُّر والاعتقاد، فهي محتاجةٌ إلى التَّمحيص؛ لتكون مصدر كلِّ خيرٍ[2].

وفي هذا دعوةٌ للمؤمن إلى الصَّبر على الابتلاءات، وأنَّها مناط التَّمييز بين المؤمن والمنافق، فعليه أنْ يُوطِّن نفسه على الإحسان بالثَّبات والصَّبر في مثل هذه المواقف، كما أنَّ فيه إشارةً إلى استشعار عظمة الخالق، واطِّلاعه على ماتكنُّه القلوب مِن الإيمان والنِّفاق؛ ليناسب ماسَبَقَ مِن تفصيله لحال الفريقين.

وجاء التَّعبير بالاسم الصَّريح في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾إيذانًا باستقلاليَّة الجملة؛ لتكون كالمثل، فهي استقلاليَّةٌ في قابليَّة الاستعمال لا في في تآخي المعاني وتواصلها، والتَّعبير بصيغة المبالغة لئلَّا يُتوهَّم مِن ذكر الابتلاء والتَّمحيص خفاؤه على الله ﷻ[3]، والجملة ناطقةٌ بالوعد والوعيد[4]، وعدٌ لمن كانت خباياه صالحة، ووعيدٌ لمن أضمر النِّفاق، مِن جهة أنَّ علم الله ﷻ يقتضي مجازاة المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته.



(١) صحيح مسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب تفسير البر والإثم، حديث رقم: (٢٥٥٣) (٤/ ١٩٨٠).

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٩).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٧٠).

(٤) ينظر: أنوار التنزيل: (٢/ ٤٤).

المبْحثُ الرّابع: أثر أساليب التأكيد في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

في سياق التَّسلية، وحثِّ المؤمنين على الصَّبر، وإبراز مزايا هذا الابتلاء، يسلِّيهم الله ﷻ بأنَّ طريق الجنَّة محفوفٌ بالمكاره، وسلوك طريق الجنَّة يلزمه الصَّبر والمصابرة، يقـــــــول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٢]، وقد تنوَّعت مسالك التَّأكيد في هذه الآية فهيمن الأسلوب على بقية الأساليب في الآية كالاستفهام والنَّفي، والتَّكرار.

و(أم) للإضراب واستئناف الكلام، وهي بمعنى (بل) وفيها لازم معنى الاستفهام[1]، ويكون غرضه الإنكار والتوبيخ على هذا الحسبان وأنه من الأجدر ألَّا يكون، فهو يحفِّز المؤمنين على تحمّل مشاق هذا الطَّريق، وأنَّه يحتاج إلى التَّضحية وتحمِّل المصاعب. ونلحظ أنَّ الاستفهام دخل على الحسبان، وليس الدُّخول، وهو مبالغةٌ في إنكار حتَّى تلك الخطرات.

وقد يستفاد من دلالة (أم) على الاستفهام النَّهي، وهي درجةٌ فوق الإنْكار في التَّأكيد، يقول الرَّازيُّ نقلًا عن أبي مسلم "إنَّه نهيٌ وقع بحرف الاستفهام الذي يأتي للتَّبكيت، وتلخيصه: لا تحسبوا أنْ تدخلوا الجنَّة، ولم يقع منكم الجهاد... قال: وعادة العرب يأتون بهذا الجنس مِن الاستفهام تأكيدًا"[2].

والتَّعبير عن نعيم الجنَّة بمجرَّد الدُّخول إيذانٌ بالنَّعيم العظيم الذي ينتظر المؤمنين الصَّابرين، فيثير في المؤمن الشَّوق إلى هذا الجزاء، والعمل على أنْ يكون مِن أصحابها، ثمَّ قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾ الجُملة حالٌ للحسبان. والنَّفي بلمَّا يُفيد أمرين:

(١) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٤٤).
(٢) مفاتيح الغيب: (٩/ ٢٠).

التَّأكيد، لأنَّه نفي (قَدْ فَعَلْ)، يقول سيبويه: "وإذا قال: قَدْ فَعَل فإنّ نفيه لَمَّا يفعل"[١].

الحثّ على إتيان الفعل مستقبلًا؛ لأنَّ لَمَّا تُفيد ضربًا مِن التَّوقُّع[٢]، فهو متوقَّع الثُّبوت مستقبلًا. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ تكليف الجهاد هو مظنَّة إتيانه مِن أولئك المؤمنين، فيكون فيه دفعٌ للجهاد.

ونفي العلم هنا لنفي الحصول، فهي كنايةٌ أُثبت فيها بالدَّليل البرهانيِّ عدم الحصول؛ لأنَّه لا يحصل إلَّا بعلم الله ﷻ، فلمَّا نفى العلم نُفِيَ الحُصول، ومستوى الدَّلالة فيه إشاريٌّ لقرب دلالة التَّلازم بين العلم والحصول في حقِّ الله ﷻ، والتَّقييد هُنا يُؤذن بكمال العناية والاهتمام بهذه الفئة، كما أنَّ توجيه النَّفي إلى الموصوفين بدلًا مِن الوصف يدلُّ على المبالغة لتأكيد عدم الحصول، وانتفاء الوصف، وعدم تحقُّقه[٣]. ويكون مصبُّ الإنكار هنا متوجِّهُ إلى الحسبان متعلِّقًا بالحال، أي حسبان الدُّخول حال عدم الجهاد والصَّبر.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ العلم في مثل هذا هو العلمُ الشُّهوديُّ التَّالي لعلمه الغيبيِّ، وإعادة الفعل إيذانٌ باستقلال هذه الجملة، فتفيد أهميَّة ما يترتَّب على هذا العلم، وفضيلة الصَّبر، ونلحظ العدول في التَّركيب بين (الذين جاهدوا) و(الصَّابرين)، "وإيثار اسم الفاعل هنا مع إيثار الموصول أولًا لإفادة أنَّ المعتبر هو الدَّوام على الصَّبر كائنًا ما كان بخلاف الجهاد"[٤].

إذنْ فالحثُّ على الصَّبر هو المعلم التَّثقيفي البارز في هذا السِّياق، ووسيلته

---

(١) الكتاب: (٣/ ١١٧).

(٢) ينظر: مغني اللبيب: (٣/ ٤٨٢).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩١).

(٤) حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٣٩).

الكاشفة هو التَّمييز في مواطن الجهاد، ففي الصَّبر توطين النُّفوس على المواضع التي تحقِّق للأمَّة النَّصر والظَّفر، وفيه سلوى عن المصيبة التي وقعتْ لهم، كما أنَّ في ترتيب دخول الجنة على هذا التَّمييز بما يُفهم مِن الآية معلمًا مِن معالم التَّثقيف، وهو أنَّ الإغراق في حبِّ الدُّنيا لا يجتمع مع سعادة الآخرة "فبقدْر مايزداد أحدهما ينتقص الآخر، وذلك لأنَّ سعادة الدُّنيا لا تحصل إلا باشتغال القلب بطلب الدُّنيا، والسَّعادة في الآخرة لا تحصل إلَّا بفراغ القلب مِن كلِّ ما سوى الله وامتلائه مِن حبِّ الله، وهذان الأمران ممَّا لا يجتمعان، فلهذا السِّرُّ وقع الاستبعاد الشَّديد في هذه الآية مِن اجتماعهما، وأيضًا حبُّ الله وحبُّ الآخرة لا يتمُّ بالدَّعوى، فليس كلُّ مَن أقرَّ بدين الله كان صادقًا، ولكنَّ الفصل فيه تسليط المكروهات والمحبوبات"(١) واقتران الصَّبر بالجهاد هو مِن الجمع بين الشَّيء ووسيلته التي يُتوصَّل بها إلى الثَّمرة، فدلَّ بهذا على أنَّ الصَّبر هو جماع معاني القوة في أرض المعركة.

التأكيد بالأداة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣] هذا الجزء من السِّياق تعلو فيه نبرةُ العتاب، ومخاطبة أولئك الذين تخَلَّوا عن الرَّسول ﷺ، وقد كان فريقٌ مِن المؤمنين يتمنَّون لقاء المشركين بعدما فاتهم القتال في بدرٍ، فلمَّا تهيَّأت لهم فرصة القتال يوم أُحُدٍ تراجع بعضهم، فالعتاب موجَّهٌ إلى تلك المفارقة بين الأماني وبين الواقع، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾، وإعراض فريقٍ مِن المؤمنين آنذاك كان بمثابة مَن لمْ يكن منه توقٌ إلى اللقاء، فجاء الكلام على هذا النَّحو مِن التَّأكيد باللام وقد، وجاء التَّعبير بتمنِّي الموت، وهم تمنَّوا أسبابه، ولكن لشدَّة مبالغتهم في التَّمني نزِّلوا منزلة مَن تمنَّى الموت ذاته لأنَّها حالٌ في

(١) مفاتيح الغيب: (٩/ ٢٠ و ٢١).

ضمنها الأغلب الموت(١)، والتَّقييد بقوله: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ له أهميَّته؛ لأنَّ عليه مدارَ المفارقة، فهذا حالكم قبلُ، أمَّا الآن ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ﴾ وحسُن موقع هذه الفاء، فكأنَّها فاجأتهم بعد أنْ سجَّلت ما نطقت به ألسنتهم مِن الأماني، وعرَّت المنهزمين مِن المؤمنين أمام أنفسهم ليواجهوا المناقضة الشَّديدة بين الأقوال والأفعال، فحملت هذه الفاء مِن معاني التَّوبيخ والتَّبكيت ماتنوء به الجمل العديدة؛ لأنَّ تقدير الكلام إنْ كنتم صادقين في تمنِّيكم لقاء العدوِّ أو الشَّهادة فقد رأيتم الموت بأعينكم(٢)، وأُكِّد الكلام مجاراةً للكلام السَّابق فكما أنَّكم تمنَّيتم الموت لا تشكُّون في ذلك، فكذلك شاهدتموه لا تشكُّون فيه، فأقام الموقفين الأمنية والواقع أمام أعينهم، حاضرًا في حسِّهم، واصطُفي في التَّعبير عن الأمنية اللقاء، وفي التَّعبير عن الواقع الرُّؤية، وهذه المغايرة بُنيت على اختلاف الموقف في كلٍّ؛ لأنَّهم تمنَّوا اللقاء، ولمْ يكن منهم ذلك وقت اللقاء ففي "إيثار الرَّؤيةِ على الملاقاة وتقييدِها بالنَّظر مزيدُ مبالغةٍ في مشاهدتهم له"(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ الجملةحاليَّةٌ، وفائدتها تأكيد الرُّؤية(٤)، وتمييز الرُّؤية البصريَّة عن العلميَّة، كما أنَّ فيها توبيخًا للمؤمنين الذين تمنَّوا اللقاء، فلمَّا حان موعده، وأبصروا اشْتباك السُّيوف ولمعانها، تراجعت تلك الأمنيات.

وأذن عطف الجملة مع تضمُّنها معنى التَّأكيد لما قبلها، والعدول مِن الرُّؤية إلى النَّظر بأنَّ في التَّعبير معنى زائدًا وهو الذُّهول، وهو مشابهٌ لقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٦] مع الفارق الكبير بين الموقفين في سياقه النَّفسيِّ ابتداءً، ففي سورة الأنفال كان السِّياق يصف قلوبًا مضطربةً قبل اللقاء، فأخرج مافي النُّفوس بهذه الصُّورة التي تعكس قلقهم، أمَّا في هذا السِّياق فيصف فريقًا كانت المواجهة أمنيةً

(١) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٤٥).

(٢) ينظر: من أسرار حروف العطف: (٩٧ و ٩٨).

(٣) إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٢).

(٤) ينظر: جامع البيان: (٧/ ٢٤٨) والمحرر الوجيز: (٣/ ٢٤٦).

لهم، وفي هذا يظهر مقدار الثِّقة التي كانوا يتحلَّون بها، فلمَّا حان الموعد ذُهلوا في ذلك الموقف.

وهذا يقف بهم عند المفارقة بين الكلمة والأمنية، وبين الفعل والواقع، فيتحمَّل المؤمنون مسؤوليَّة الكلمة"ويزنوا حقيقة رصيدها الواقعيِّ في نفوسهم على ضوء ما واجهوه مِن حقيقتها حين واجهتهم! وبذلك يقدِّرون قيمة الكلمة، وقيمة الأمنية، وقيمة الوعد في ضوء الواقع الثقيل!، ثمَّ يعلِّمهم أنْ ليست الكلمات الطَّائرة والأماني المرفرفة هي التي تبلِّغهم الجنَّة إنَّما هو تحقيق الكلمة، وتجسيم الأمنية والجهاد الحقيقيُّ، والصبر على المعاناة"[1].

وهكذا يأخذ معلم الحثِّ على الصَّبر صورةً جديدةً في سياق العتاب والإنكار من خلال استعراض صورتين مؤكَّدتين متقابلتين في الموقف من الأشخاص ذاتهم.

ونلحظ التَّأكيد بالأداة كذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]. يخبر الله ﷻ عن تحقُّق وعده على وجه التَّأكيد تقريرًا لهذه الحقيقة في النُّفوس، وهذا الوعد هو ما أجراه على لسان نبيِّه ﷺ حين أمر الرُّماة فقال: "لا تبرحوا مكانكم إنْ رأيتمونا قد هزمناهم، فإنَّا لنْ نزال غالبين ماثبتم مكانكم"[2]، فالخبر هنا خبر مؤكَّدٌ باللام التي تأتي في جواب القسم، وقد، ومجيء الخبر على هذا النَّحو مِن التَّأكيد فيه لفتٌ إلى هذه الحقيقة المقرَّرة، ليجعلها على ذكْرٍ مِن المخاطَب الذي يستحضر تلك الأحداث، وقوله: ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ بالمضارع لاستحضار تلك الحالة العجيبة، وتقييده: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ليدلَ على أنَّ القتل الذَّريع كان بتيسيره وتوفيقه، وإنفاذًا لما

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤٨٣ و ٤٨٤).

(٢) جامع البيان: (٧/ ٢٨١).

وعدهم الله مِن النَّصر[1]، ولهذا القيد إشارته التَّثقيفيَّة إلى قضيَّة المعتقد، التي يجب أن تكون حاضرةً في الأذهان، فلا تحجب الصُّورة الظَّاهرة الحقائقَ الغيبيَّة، وهو ما يرتبط أشدَّ الارتباط بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧] مِن جهة تعلُّق الأمور بأسبابها الحقيقية. فإذا تمكَّن هذا المعنى في النُّفوس أفضى إلى صدْق التَّوكُّل واللجوء إليه.

ثمَّ يقول تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ فذكر الحدث على التَّرتيب الوجوديِّ، فأوَّل ما نَزَلَ بالمخالفين الضَّعف الذي هوى بالنُّفوس إلى ما تحب، ثمَّ خرج مِن نطاق النَّفس إلى نطاق الجماعة فحصل الاختلاف بين الثَّابتين على ما أمرهم الرَّسول ﷺ وبين المخالفين، فأفضى ذلك إلى عصيان ولي الأمر، وحلول المصيبة، ونلحظ أنَّ المصيبة بدأتْ بالفرد، وامتدَّت دائرتها حتَّى اكتوى بها الجميع، ولذلك عُنيت التَّربية القرآنيَّة والجهاديَّة بإصلاح شأن الفرْد أوَّلًا حتَّى يتحقَّق لها النَّصر "بتصفية النُّفوس، وتخليصها مِن غَبَشِ التَّصوُّر، وتحريرها مِن ربقة الشَّهوات، وثقلة المطامع، وظلام الأحقاد، وظلمة الخطيئة، وضعف الحرص والشُّح، والرَّغبات الدَّفينة"[2].

كان درسًا عمليًّا عظيمًا مِن دروس الغزوة لأثر الذُّنوب الفرديَّة حين تتجاوز طمع النُّفوس، والرَّغبات الإنسانيَّة إلى كوارث ومصائب تحلُّ بالجماعة المسلمة وهنا يترفَّق الخطاب القرآنيُّ بنبرةٍ تهزُّ أوتار القلوب لما فيها مِن العتاب الرَّقيق ﴿مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ فجاء التَّعبير بـما الدَّالة على التَّعميم والإبهام، وحذف متعلِّق الفعل (تُحبُّون) دلالةً على سعة فضله وتعدُّد مننه عليهم، فالعتاب هنا يُخاطب طبيعة النَّفس البشريَّة التي تأنس بها أحبَّت، فكان مقتضى هذه الفطرة أنْ يستمرَّ أولئك ما دام أنَّهم رأوا ما يحبُّون، وهو بهذا ينبِّههم إلى عِظَم المعصية "لأنَّهم لَمَّا شاهدوا أنَّ الله تعالى

(١) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٣٠٢).

(٢) في ظلال القرآن: (١/ ٤٥٨).

أكرمهم بإنجاز الوعد كان مِن حقِّهم أنْ يمتنعوا عن المعصية، فلـمَّا أقدموا عليها، لا جرم سلبهم الله ذلك الإكرام، وأذاقهم وبال أمرهم"[1]، ثمَّ فسَّر اختلافهم بقوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، وجعل الذين استبقوا الغنائم يريدون الدُّنيا، وجعل الثَّابتين يريدون الآخرة، فسُمِّيت الأشياء بتصوراتها الحقيقيَّة، فالحرص على الغنائم كان سببه الحرص على متاع الدُّنيا الزَّائل، وثبات الثَّابتين كان سببه ابتغاء ما عند الله بطاعة رسولهﷺ، هكذا يعرضها القرآن بمآلاتها وعواقبها ليتفكَّر المخاطَبون، فيندم المقصِّرون، ويثبت الذين أحسنوا.

إذنْ هذه المفارقة فيها عتابٌ للمقصِّر، وتثبيتٌ وإشادةٌ بالثَّابت في ذلك الموقف في مكاشفةٍ صريحةٍ للضَّمائر[2]، ثمَّ قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ وهو تلطُّف بالمؤمنين، يخبرهم سبحانه كيف اقتضت حكمته أنْ تتحوَّل كفَّة المعركة في غير صالح المؤمنين، لأنَّ تلك الأحداث كشفت عن حاجةٍ للتَّمحيص واستظهار الإيمان الكامن في النُّفوس، ولا يظهر ذلك إلَّا بتعريضهم للابتلاءات، فالابتلاء في ذلك الموقف كان يحمل رسالةً تثقيفيَّةً للمؤمنين أنَّ الذين يكافحون للعقيدة يجب أنْ يُخلصوا لها بتجرُّدٍ عن أطماع النَّفس، وأنَّ طريق الابتلاء هو طريق تمييز وتمخيض تلك الغايات[3].

وإسناد الصَّرف إلى الله ﷻ فيه دلالةٌ على أنَّ تلك الأحداث كانت تُدار بقدرة الله وتدبيره كما كان القتل[4]، وهذا الابتلاء كان درسًا عمليًّا مِن دروس المعركة لأنَّهم لَّما"ذاقوا عاقبة معصيتهم للرَّسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا

---

(١) مفاتيح الغيب: (٩/ ٣٩).

(٢) يقول ابن مسعود: ما علمنا أن أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ كان يريد الدنيا وعَرَضَها، حتى كان يومئذ. (جامع البيان: ٧/ ٢٩٥).

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: (١/ ٤٩٣).

(٤) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٠).

ويقظةً، وتحرُّزًا مِن أسباب الخِذلان"[1].

ثم يعود السِّياق بعد أنْ كَشَفَ الله لهم جانبًا مِن جوانب تأرجح كفَّة المعركة، يعود ليواسي تلك النُّفوس المؤمنة بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ ولَمَّا كانت نفوس المؤمنين كسيرةً لما صَدَرَ منها مِن تقصيرٍ، بشَّرهم الله ﷻ بما يقطع الحزن عن تلك النُّفوس بشرى مؤكَّدةً باللام الواقعة في جواب القسم، وقد الدَّالة على تحقُّق الوقوع، فعفا الله عنهم، ومجيء الخطاب بهذه المؤكِّدات مراعاةً لحالة المخاطَب، فجاء الخبر بهذا التَّقرير مواساةً لجراحهم، وفي هذا التَّأكيد جانبٌ تثقيفيٌّ في إظهار سعة رحمة الله وفضله العظيم على عباده المؤمنين؛ لأنَّ عفوه مع ما أصابهم فيه "إعلامٌ بأنَّ الذَّنب كان يستحقُّ أكثر ممَّا نَزَلَ"[2]، وذيِّلت الآية بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ فأُظهر اسمه الكريم للإشعار باستقلال الجُملة مع كونها مؤكِّدةً لما قبلها، والواو أفادت مع التَّأكيد المغايرة، فما سبق فضلٌ خاصٌّ، وما هنا اتِّساعٌ لأفق هذا الفضل ليعمَّ كلَّ المؤمنين، وإظهار المؤمنين لهذه النُّكتة، وليكون في التَّصريح به تعليقٌ للفضل بالإيمان[3].

فالآية الكريمة تُواسي المؤمنين بأعظم مواساة، فتضمَّنت التَّصريح بالعفو والمغفرة والفضل بأسلوب التأكيد، ومن رحمته بهم كذلك أنَّ العتاب جاء مبهمًا بجمع ضمير المؤمنين، ولم يكن ذلك منهم كلُّهم ولكن ليكون زجرًا لمنْ لَمْ يفعل أن يفعل، وسترا لمن فعل[4]، وهذا لطف منه تعالى بعباده.

وفي سياق تذكير العباد بما منَّ الله عليهم من بعث الرَّسول ﷺ بينهم جاء تقرير هذه المنَّة بالتأكيد في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ

(١) زاد المعاد: (٣/ ١٩١).

(٢) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٦٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٦٧).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٦٢).

يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، فالمصاب الذي نَزَلَ بالمسلمين كان مُصابًا عظيمًا، وأراد الله ﷻ أنْ يسلِّي المؤمنين، ويذكِّرهم بأنَّ وجود الرَّسول ﷺ بينهم وهم يتلقُّون منه الهدى والنُّور مِن أعظم المنن عليهم، فأوقع ذلك المعنى في النُّفوس إيقاعًا قاطعًا بالقسم المحذوف، وجعل في جواب القسم قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، يقول ابن هشام: "وحيث قيل "لأفعلنّ" أو "لقدْ فعلَ" أو" لَئنْ فعل" ولمْ يتقدَّم جملة قسم فثمَّ جملة قسم مقدَّرة"[١]، واللام في ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ للعهد، بقرينة الظَّرفيَّة الزَّمانيَّة في قوله تعالى: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، وخَصَّ الله ﷻ المؤمنين بالذِّكر لأنَّهم المنتفعون بمبعثه[٢]. والظَّرف هنا يمتزج به معنى التَّعليل، يقول البقاعيُّ: "﴿إِذْ ﴾ظرفٌ لمنّ، وهو وإنْ كان بمعنى الوقت لكن وقع في معرض التَّعليل كما نصَّ عليه معظم المحقِّقين" والتَّعليل مستفادٌ مِن المقام لا مِن حاق اللفظ وهو ما يدلُّ عليه قول البقاعيُّ "في معرض التَّعليل"، وقد ذكر ابن هشام أنَّ مِن معاني (إذ) التَّعليل، ثمَّ قال: "والتَّعليل مستفادٌ مِن قوَّة الكلام لا مِن اللفظ"[٣].

ومِنْ عظم هذا الامتنان أنَّ الله ﷻ بَعَثَ هذا الرَّسول ﷺ بألسنتهم، يعيش بينهم، ولإظهار ذلك جاء التَّعبير بتعدية الفعل بَعَثَ بحرف الجرِّ (في) ولمْ يأتِ بإلى دلالةً على أنَّ المبعوث يعيش بينهم، وفي أوساطهم، وذلك بجعل المؤمنين مجالًا للبعث والإرسال، وأشار الزَّمخشريُّ إلى مثل هذا في قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [المؤمنون:٣٢]، يقول: "فإنْ قلتَ: حقُّ أَرْسَلَ أنْ يُعدَّى بإلى، كأخواته التي هي: وجه، وأنفذ، وبعث. فما باله عُدِّي في القرآن بإلى تارةً، وبفي أخرى، كقوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ﴾[الرعد:٣٠] و﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ ﴾ :سبأ:٣٤]. ﴿ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا ﴾ أي في

(١) مغني اللبيب: (٦/ ٥١٣).

(٢) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٣٣).

(٣) مغني اللبيب: (٢/ ١٩).

عادٍ. وفي موضع آخر ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾[الأعراف:٦٥]، :هود:٥٠]؟ قلتُ: لم يُعدَّ بفي كما عُدِّي بإلى، ولم يُجعل صلةً مثله، ولكنَّ الأُمَّة أو القرية جعلت موضعًا للإرسال، كما قال رؤبة:

أَرْسَلْتُ فِيهَا مُصْعَباً ذَا إِقْحَامْ...[(١)]

وقدْ جاء «بَعَثَ» على ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴾ [الفرقان:٥١]"[(٢)].

وهذا الامتنان له أثره التَّثقيفيُّ في النَّفس في حثِّها على طاعة الرَّسول ﷺ، واستشعار هذه المنَّة العظيمة.

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أنَّه صرَّح بذكر أنفسهم، ولم يقل: (منهم)؛ لأنَّ التَّعبير بالأنفس أوقع في القرب، وأدلُّ على قرب المنزلة[(٣)]، كما أنَّها تعكس صلة الرَّسول ﷺ بالمؤمنين بأنَّها"صلة النَّفس بالنَّفس، لا صلة الفرد بالجنس. فليست المسألة أنَّه واحدٌ منهم وكفى. إنَّما هي أعمق مِن ذلك وأرقى. ثمَّ إنَّهم بالإيمان يرتفعون إلى هذه الصِّلة بالرّسول، ويصلون إلى هذا الأفق مِن الكرامة على الله. فهو منَّةٌ على المؤمنين"[(٤)] فيثمر ذلك في النُّفوس الاعتزاز بصفة الإيمان التي قرَّبت الرَّسول منهم حتَّى أصبح مِن أنفسهم، كما أنَّه يُلزمهم اتِّباع أمره، والبعد عن مخالفته بعد أنْ أشعرهم بمنزلة الرَّسول ﷺ منهم.

وفي قوله تعالى: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ تعرضُ الآية الكريمة أوجه الامتنان، وهي نزول الوحي، وتلاوته

---

(١) لم أجده في ديوانه.

(٢) الكشاف: (٣/ ١٤٢).

(٣) ينظر: ملاك التأويل: (١/ ٣٢١).

(٤) في ظلال القرآن: (١/ ٥٠٧).

واضحًا جليًّا، وتطهيرهم مِن دَنَسِ الظُّلمات، وتصفية النُّفوس مِن معتقدات الشِّرك، وتعليمهم القرآن الكريم وأسراره وأحكامه ومقاصده، والسُّنَّة النَّبويَّة المطهَّرة، ونلمس في هذه الأوجه أنَّها تدور في محوري التَّثقيف والتَّكليف، ونلحظ كذلك توسُّط التَّزكية وتقديمها على التَّعليم، وذلك لأنَّ سياق ورود الآيات في أعقاب الحرص على الغنيمة ممَّا يتنافى مع ما غرسه في نفوسهم مِن التَّزكية، يقول البقاعيُّ: "وقدَّم التَّزكية لاقتضاء مقام المعاتبة على الإقبال على الغنيمة ذلك"[(١)]، فالتَّقديم هنا يُراعي ماكان أكثر علاقةً بسياق المعركة. والإشارة إلى القرآن الكريم مرةً بالآيات، وأخرى بالكتاب، يؤذن بأنَّ كلًّا يُعدُّ نعمةً على حدةٍ[(٢)].

وفي عطف هذه المنن معلمٌ مِن معالم التَّثقيف في حثِّ المؤمن على أن يقرن العلم بتزكية النَّفس، وأنَّها مقصدٌ مِن مقاصد بعث الرُّسل، ولذلك أُظهرت في ذكر أوجه الامتنان.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبۡلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ بعد أن ذكر الله ﷻ أوجه الامتنان، بيَّن قيمة تلك الأوجه بما كانوا عليه في السَّابق، ووُصف الضَّلال بأنَّه مبينٌ مبالغةً في وضوح الضَّلال حتَّى إنَّه لشدَّته لا يلتبس على أحد[(٣)]، فكان ضلالًا ليس بيِّنًا لمن بحث عن الحقِّ، بل مُبينًا عن نفسه؛ وفي ذلك تبيانٌ لكمال العناية وتمامها.

القصـــــر:

ومِن مسالك التَّأكيد أسلوب القصر، ونلحظ ذلك جليًّا في الأساليب الصَّاخبة ذات النبرة العالية كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَـٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـًٔاۗ وَسَيَجۡزِى ٱللَّهُ

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٧٨).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٨).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٦٠).

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [آل عمران:١٤٤]، ففي سياق اللوم والعتب والتَّعقيب على الأحداث، والوقوف على أسباب الهزيمة تتصاعد نبرة العتاب في هذا الموقف، ويصطفي الحقُّ سبحانه حَدَثًا مِن أهمِّ أحداث المعركة، كشف عن خللٍ عميقٍ في نفوس فريقٍ مِن المؤمنين، وهو ما رواه الواحديُّ قال: "قال عطيَّة العوفيُّ: لما كان يوم أحدٍ انهزم النَّاس فقال بعض النَّاس: قدْ أُصيب محمَّدٌ فأعطوهم بأيديكم فإنَّما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إنْ كان محمَّدٌ قدْ أُصيب ألا ما تمضون على ما مضى عليه نبيُّكم حتَّى تلحقوا به فأنزل الله تعالى في ذلك ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾.. "[1] فجاء القصر بأسلوب النَّفي والاستثناء، وهو مِن أقوى أساليب القصْر دلالةً على المعنى؛ ويأتي في المقامات الزَّاجرة التي تعلو فيها النَّبرة، ويشتدُّ فيها الخطاب"ولا تلقاك هذه الأداة إلَّا حيثُ تلقاك النَّبرة العالية، والنَّغمة الحاسمة والتَّعبير الشَّديد"[2]، فالمقصور هُنا محمَّدٌ ﷺ، والمقصور عليه الرِّسالة، فهو مِن قصر الموصوف على الصِّفة، وجاء التَّعبير باسمه الذي تنطوي تحته الخلال الحميدة؛ لأنَّ المقام مقام إثباتٍ لبشريَّته، وحثٌّ على الاعتدال في الاعتقاد الذي رُفع به فوق منزلته التي لا يرضى بها الله ولا رسوله ﷺ. ونُزِّل المخاطبون منزلة المنكرين لشدَّة استعظام هذا التَّصرف الذي لا ينبغي أنْ يصدُر منهم، يقول ابن عاشور: "هذا الكلامُ مسُوقٌ لردِّ اعْتقادِ منْ يعْتقدُ انتفاءَ خُلُوِّ الرُّسلِ منْ قبلهِ، وَهذَا الاعتقادُ وَإِنْ لمْ يكنْ حاصلًا لأحدٍ منَ الْمُخاطَبين، إِلَّا أنَّهم لَمَّا صدرَ عَنهم ما مِنْ شأْنهِ أنْ يكونَ أثرًا لهذا الاعتقادِ، وهُوَ عزمهمْ على تركِ نصْرةِ الدِّينِ وَالاستِسْلامِ للْعدُوِّ كانوا أحرياءَ بِأَنْ يُنَزَّلُوا منزلةَ منْ يعتقدُ انتفاءَ خُلُوِّ الرُّسلِ مِنْ قبلهِ"؛ ولذلك ناسب جزالة الأسلوب مواجهة المنكرين أو مَن نُزِّلوا هذه المنزلة به، والقصر هنا قصرٌ إضافيٌّ، ويرى السَّكاكيُّ أنَّ القصر هنا موجَّهٌ إلى مَن اعتقد أنَّ محمَّدًا رسولٌ، واستبعد مع ذلك هلاكه تنزيلًا للاستعظام منزلة الاعتقاد، فجاء الأسلوب

(١) أسباب النزول: (١٢٥).

(٢) دلالات التراكيب: (١١٤).

ليثبت القصْر على الرِّسالة، وينفي استبعاد موته فهو قصرُ إفرادٍ يقول السَّكاكيُّ: "معناه محمدٌ مقصور على الرِّسالة لا يتجاوزها إلى البُعد عن الهلاك. نُزِّلَ المخاطَبون لاستعظامهم أنْ لا يبقى لهم منزِل المبعدين لهلاكه"[١]، وهذا يعني أنَّ مناط القصْر في كلمة (رسول)، وتكون جملة (قدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ رُسُلٌ) مؤكِّدةً لوحظت بعد جملة القصْر.

والأعلى أن يكون مناط القصْر الصِّفة، فيكون القصْر قصر قلْبٍ؛ لأنَّهم ظنُّوا أنَّه لا يموت كباقي الرُّسل، فردَّ الله ﷻ بقوله: ﴿رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ وإلى هذا التَّأويل ذهب العلَّامة الطِّيبيُّ[٢] وسعد الدين التَّفتازانيُّ[٣].

وهناك مَن ذهب إلى أنَّ القصْر قصر قلْبٍ، ومناط القصْر أنَّه (رسول) لا إله.[٤] وهو وإن كان يتَّفق مع ما قبله في مخاطبة مَن يَستبعد موته إلَّا أنَّ حمل اعتقادهم للرَّسول على أنَّه إلهٌ لا يمكن أنْ يقع مِن أَحَدٍ مِن الصَّحابة - رضوان الله عليهم - أو أيِّ مسلمٍ فهو مردودٌ.

وأيًّا ماكان سواءٌ قلْنا إنَّه قصر إفرادٍ أو قصر قلْبٍ فإنَّهما يتَّفقان في المستوى المقصديِّ، وهو إثبات موته عليه الصلاة والسلام كسائر الرُّسل، ولكنَّ مستوى الدلالة على هذا المقصد يختلف في الإفراد والقلْب، فالدَّلالة عليه في الإفراد تأتي مع سابقة اعتقادٍ، فهو كالتَّأكيد لأحد الاعتقادين ونفي الآخر، والنَّفي هنا مفهومٌ مِن قصره على المثبت؛ لأنَّ الكلام موجَّهٌ إلى مَن يؤمن برسالته، ويستبعد موته، فعُلم مِن إقرار الرِّسالة بالمفهوم استبعاد موته، بينما الدَّلالة في القلْب دلالةٌ جديدةٌ تطرق إلى نفوسهم ما لمْ يكن حاضرًا في الأذهان.

---

(١) مفتاح العلوم: (٤٠١).

(٢) ينظر: فتوح الغيب: (٢٨٧).

(٣) ينظر: حاشية السعد على الكشاف (أ/ ٢٣٣).

(٤) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٦١).

والتَّعريف في (الرُّسل) يدلُّ على تساوي أولئك الرُّسل في الخلق والموت[1]؛ لدلالة (ألْ) على الاستغراق في الجنس.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ حِجاجٌ عقليٌّ لأنَّه يخاطبهم تأسيسًا على القدْرِ الذي يؤمنونَ به وهو أنه رسولٌ، وأنه مسبوقٌ بالرُّسلِ، فإذا كان ذلك كذلك قادهم التّأمُّلُ إلى الوصولِ إلى أنَّ الرسلَ قد فَنَوا، وأنَّ أتباعهم استمرُّوا على الشَّرعِ الذي جاءت به الرسلُ.

التَّثقيف في هذه الجملة يتناول مسألةً تصبُّ في صميم العقيدة، فهي تُعنى بشأن التَّوكل على الله ﷻ، وتفويض الأمور إليه؛ ولذلك جاء الأسلوب جزْلًا، فصُبغ بصبغةٍ إيقاعيَّةٍ قويَّةٍ فكثرت فيه الدَّال واللام والتَّاء، وهو يناسب موقف التَّخاذل تربيةً وتصحيحًا للعقيدة[2].

والمعلم التَّثقيفي الأبرز في هذا السِّياق هو التَّحذير مِن التَّعلُّق بالأشخاص؛ لأنَّهم يؤدُّون الرِّسالة فحسب"فدعاتها يجيئون ويذهبون، وتبقى هي على الأجيال والقرون ويبقى أتباعها موصولين بمصدرها الأوَّل الذي أُرسل بها الرُّسل وهو باقٍ -سبحانه -يتوجَّه إليه المؤمنون.. وما يجوز أنْ ينقلب أحدٌ منهم على عقبيه ويرتدُّ عن هدى الله"[3]، كما أنَّ مِن معالمه التَّثقيفية أنْ تستعدَّ الأمَّة في كلِّ أمرٍ مِن الأمور بجمعٍ مِن أهل الكفاءة حتَّى إذا فُقد أحدهم قام به غيره[4].

ثم قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾وفي هذه الجملة يستثير الاستفهام النُّفوس، بما تُفيده مِن معاني الإنكار والتَّوبيخ، وكأنَّ نبرة الخطاب هُنا تبلغ

(١) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٦٨).

(٢) ينظر: أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية للدكتور صباح دراز: (١٣١)، نشر مطبعة الأمانة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٤٨٥).

(٤) ينظر: تيسير الكريم المنان: (١٥١).

أعلى مستوياتها في هذا السِّياق، وما قبله تمهيدٌ له؛ لأنَّ الإنكار وَرَدَ في مستواه التَّعريضيِّ في أسلوب القصر. وأمَّا مانجده هُنا فهو مواجهةٌ حادَّةٌ، وتصريحٌ بهذا المنطق العجيب[١]، وهذا ينْسجمُ مع طبيعةِ النَّفسِ التي تَتَشَوَّفُ إلى الأمرِ حتَّى يُسفِرَ المعنى، كما أنَّ فيه مراعاةً لفَهْمِ النَّاسِ وأحوالهم، فمنهم مَن تكفيه الإشارةُ، ومنهم مَن يحتاجُ إلى الإيضاحِ والإرشادِ بالعبارةِ، وحين يصرِّحُ بالعبارةِ فلا تأتي العبارةُ خلوًا مِن البلاغةِ والتأثيرِ، بلْ يمتزجُ فيها الاستفهامُ بالشَّرطِ ليكونَ موردُ الجملةِ مستفزًّا للعقولِ، ومُلهبًا للمشاعرِ، فأثار بهذا الاستفهام الدَّعوة إلى التَّأمُّل، ليعودوا إلى أنفسهم، ويطرحوا هذا السُّؤال فيقودهم التَّأمُّل إلى عظم ما أقدموا عليه، والفاء هنا طوت جملةً، فتقدير الكلام: أتؤمنون به حال حياته، فإنْ مات أوقُتِلَ انقلبتم على أعقابكم؟![٢]، وهو ما نقله أبو حيَّان عن الخطيب الزَّملكانيِّ قال: "الأوجه أنْ يقدَّر محذوفٌ بعد الهمزة، وقيل الفاء، تكون الفاء عاطفة عليه. ولو صُرِّح به لقيل: أتؤمنون به مدَّة حياته، فإنْ مات ارتددتم، فتُخالفوا سنن اتِّباع الأنبياء قبلكم في ثباتهم على ملل أنبيائهم بعد وفاتهم"[٣] وفي هذا الحذف نكتةٌ، فكأنَّ ماحُذف لاقيمة له إنْ أُعقب بما ينقضه، فما قيمة الإيمان والاتِّباع إنْ كانا مرتبطين بالأشخاص، وليسا متعلقين بالله ﷻ، ففي ذلك كشفٌ لخللٍ عميقٍ في المنهج.

وقدِّمَ الموتُ على القتلِ في الآية لنُكتتينِ: للإيماء إلى أنَّه واقعٌ للرَّسولِ ﷺ مستقبلًا، فاقتضى التَّقديمُ التَّنويهَ إلى أهميَّته في المعنى لتحقُّقه مستقبلًا. ولأنَّ الموتَ هي الصِّفةُ الجامعةُ للرُّسلِ الذين أُشيرَ إليهم في قوله تعالى: (قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ)

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١١٢).

(٢) ويرى الزمخشري أن هذه الفاء تفيد التسبيب أي: أجعلتم خلو الرسل سببا للنكوص والانقلاب (ينظر: الكشاف: ١/ ٣٢٣) وقيل أن الفاء لمجرد التعقيب (ينظر: عناية القاضي: ٣/ ١٣٤) أي: كيف تنقبلون بعدما علمتم أنه رسول؟!.

(٣) البحر المحيط: (٣/ ٦٨).

فكانَ تقديمُه إشارةً إليه[1].

أمَّا ترديدُه بين الموتِ والقتلِ فإمَّا أنْ يكونَ نزولًا عندَ اعتقادِ المخاطَبين[2]، أوأنْ يكونَ تحقيقًا للمعنى لأنَّه".. كان في علمه سبحانه أنَّه ﷺ يموت موتاً -لكونه على فراشه، وقتلاً -لكونه بالسُّم"[3]

وقوله: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ صورة تحملُ في ظلالها معانيَ الوعيدِ الإلهيِّ، لأنَّ نفيَ الضَّررِ عنه سبحانه يعني أنَّ نتيجةَ ذلك الانقلابِ عائدةٌ على النَّفسِ، تجني منه الوبالَ والخُسرانَ. يقول ابن عطيَّة: "توعَّد تعالى المنقلب على عقبه بقوله تعالى: ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لأنَّ المعنى فأنَّما يضرُّ نفسه وإيَّاها يُوبق "[4] والنَّفي هنا موجَّهٌ إلى المفعول الأوَّل فلمَّا انتفى عنه، عُلم أنَّه عائدٌ على المنقلب، والتَّعبيرُ بالفعلِ المضارع (يَنْقَلِبْ) يجعلُ مِن هذه الصُّورةِ قاعدةً ثابتةً مستمرَّةً في حالِ كلِّ منقلبٍ، يحاد اللهَ ورسولَه، وينحرفُ عن منهاجه، بأنَّه لا يجني بهذا الضَّلالِ إلَّا حرمانَ نفسِه مِن الهدايةِ في الدُّنيا والعقابَ في الآخرةِ، وكلمةُ (شَيْئًا) في سياقِ النَّفي دالةٌ على عمومِ النَّفي ما قلَّ منه وما كَثُرَ، وما دقَّ منه وما عَظُمَ.

هذا شأنُ من انْقلبَ على عقبيه، فما شأنُ أولئك الثَّابتين الرَّاسخين، الذين تَغلْغلَ الإيمانُ في قلوبهم، فارتبطتْ هذه القلوبُ بمولاها الكريمِ؟ يلتفتُ إليهم السِّياقُ بقوله تعالى: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ولكَمْ يكونُ لاستحضارِ اسمِه الكريمِ (الله) الذي يملأُ النَّفسَ إجلالًا مِن الهيبةِ ومِن إعلان شأنهم كذلك، إذ استحضرَ اسمَه الكريمَ في موضعٍ كان يمكنُ أنْ يُضمرَ فيه فيكون (وسيجزي الشَّاكرين)ولكنْ لَمَّا كانَ قيمةُ هذا الجزاءِ مِن مصدرِه كان استدعاءُ اسمه يُضفي على السِّياقِ الهيبةَ الممزوجةَ

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٣).

(٢) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٣).

(٣) نظم الدرر: (٢/ ١٦٢).

(٤) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٤٨).

بالبشرى، ومزيد الاعتناء بجزائهم[(١)]. والتَّعبيرُ بالاسم (الشَّاكرين) دالٌّ على أنَّ الشكرَ سِمَةٌ مِن سماتهم الدَّائمةِ، فلمْ يأتِ التَّعبيرُ (وسيجزي اللهُ الذين شكروا) إنَّما عُبِّرَ بالشَّاكرينَ دلالةً على الدَّيمومةِ والثَّباتِ، ومع أنَّ المقام دالٌّ على الصَّبر إلَّا أنَّه عُبِّر بالشَّاكرين وصفًا لهم بأعلى مقامات الصَّبر والثَّبات، فالذين أبْلَوا في تلك المعركة بَلاءً حَسَنًا على ما حلَّ فيها مِن مصائب، فثبَّتهم الله ﷻ لمْ يكونوا صابرين فحسب، بلْ تجاوزا بتلك المواقف إلى مقامات الشُّكر، فإذن هو الصَّبر وزيادة[(٢)]، وهذا معلمٌ مِن معالم التَّثقيف إذْ أنَّ ثناء الله ﷻ لتلك الفئة المؤمنة بهذا الوصف فيه حثٌّ على مقابلة المصيبة بالصَّبر والشُّكر، وتلك مقاماتٌ لا يقدر عليها إلَّا مَن ثَبَّته الله ﷻ.

ومِن بديعِ ما في تركيبِ الآيةِ الاحتباك، فأثبتَ الانقلابَ وعدمَ الضَّرِّ أولًا دليلًا على حذفِ صدرِ الجملةِ الثانيةِ، وأثبتَ الجزاءَ في الجملةِ الثانيةِ دليلًا على حذفِ مثلِه في الأولى[(٣)]، فأصل بناء الكلام:

١-(وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا) ٢-(وَسَيَجْزِي اللَّهُ الْمُنقَلِبِينَ)

٣-(ومَنْ يَشْكُرِ الله) ٤- (سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ)

فهاهنا أربعُ جُملٍ، فإثباتُ الجملةِ الأولى دلَّ على المحذوفِ في الجملةِ الثالثةِ، والإثباتُ في الجملةِ الرَّابعةِ دلَّ على المحذوفِ في الجملةِ الثَّانيةِ، وحينَ يأتي التَّركيبُ على هذا النَّحوِ فإنَّ فيه دلالةً على شدَّةِ ترابطِ أجزاءِ الجملةِ ترابطًا يُفضي إلى جوازِ إقامةِ كلِّ معنى مثبتٍ فيه دليلًا على قرينه المحذوفِ، كما أنَّ في ذلك معنى تثقيفيًّا آخرَ، وهو أنَّ المحذوفَ مِن الجملةِ الأولى جزاءُ المنقلبينَ وكأنَّ حذفَه والإعراضَ عن ذكرِه يُهيبُ بالمؤمنينَ عدمَ الحاجةِ إلى ذكرِه شحذًا وترغيبًا للنُّفوسِ؛ لعدمِ إمكانِ صدورِه من

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٤).

(٢) ينظر: التفسير الوسيط: (٢/ ٢٨٤).

(٣) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٦٢).

المؤمنين، وفي حذفِ جزءِ الجملةِ الثَّانيةِ ترغيبٌ بعدمِ التّعليقِ، وكأنَّ المؤمنَ الحقَّ صفةُ الشكرِ لازمةٌ له، فما يحتاجه المؤمنُ هنا هو التَّحفيزُ بالثَّمرةِ والجزاءِ.

وبهذا نلحظ أنَّ مناط التَّثقيف كان في جملة القصر، ونلحظ أنَّ الأساليب الأخرى جاءت مؤكِّدة للمعنى الذي أسسته جملة القصر، وهو مانلحظه في الاستفهام، وفي النَّفي والاحتباك.

وفي هذا السِّياق جاء القصر كذلك ليؤكد حقيقةً يُراد إقرارها في النُّفوس، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[آل عمران:١٤٥] فلمَّا ذكر الله سبحانه تلك المفارقة بين أمانيهم وبين واقعهم، ونبَّه إلى الخلل الذي حدث في الصَّفِّ الإسلاميِّ في المعركة حين أُشيع قتل النَّبيِّ ﷺ ناسب ذلك أنْ تُقرَّ هذه الحقيقة الثَّابتة فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾، ولذلك جعل الطِّيبيُّ هذه الآية واقعةً موقع التَّذييل ممَّا قبلها[(١)]، وجاء إقرار هذه الحقيقة بالمبالغة[(٢)]، وذلك بإخراجه مخرج الكلام الذي لا يكون عقلًا ولا وجودًا بنفي الكينونة. وأخرج الكلام مخرج التَّمثيل بأنَّه لو كان للنَّفس أنْ تقوم بمهمَّة القبض لم يكن ذلك إلَّا بإذن الله، دلالةً على استحالة أنْ يموت أحدٌ في غير موعده الذي قدَّره الله، ولأنْ يكون استحالة ذلك مع كون الموت فعلًا غير اختياريٍّ أولى وأظهر[(٣)]، ولهذا أثره التَّثقيفيُّ، ففيه تحريضٌ على الإقدام على القتال، ومواجهة العدوِّ، فإنَّ الحذر لا يدفع الموت إنْ جاء، كما أنَّ فيه بشارةً بأنَّ الرَّسول ﷺ محفوظٌ بأمر الله ﷻ، فلن يصيبه إلَّا ما كتبه الله

---

(١) ينظر: فتوح الغيب: (٢٩١). وهذا النظر من الطيبي في أسلوب التذييل يُلحظ فيه وعيه البلاغي بعلاقات النص وعدم حصرها في نطاق الجملة الواحدة، بل تتسع دائرة النظر في الأساليب بين الآية والآية والمعقد والمعقد وهكذا.

(٢) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١١٤).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٤).

عليه، ثمَّ قال تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ فانتصب على التَّأكيد، وتقدير الجملة: كتبه الله كتابًا مؤجَّلًا، فلا يتقدَّم ولا يتأخَّر، فيكون ما في هذه الجملة تأكيدًا لمضمون الجملة السَّابقة، ونلحظ في هذا المقطع تعاضد المؤكِّدات بتنوُّع أساليبها لإقرار المقصد الأهمِّ في هذا المقطع، وهو تحرير الأتْباع مِن التَّعلُّق بالأشخاص، وصرف التَّعلُّق إلى الله ﷻ، والتَّمسك بمنهجه.

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْأَخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ يأتي هذا الحكم في أعقاب تبيان الحقيقة، وأنَّ الإقدام أو الجبن ليس لهما أثرٌ في تقديم ساعة الموت أو تأخيره، ثمَّ لَمَّا استقرَّت الحقيقة في النُّفوس وضعهم أمام أمرين: أنْ يبتغوا بأعمالهم ما في الدُّنيا مِن المتاع، ووعدهم الله ﷻ بأنْ يعجِّل لهم بعض ذلك في الدُّنيا دون ما عنده في الآخرة، وهذا تعريضٌ بأولئك الذين شغلتهم الغنائم وأطماع الدُّنيا عمَّا عند الله، أو أنْ يبتغوا بأعمالهم خير الدَّار الآخرة، وضعهم أمام هذين الموقفين، الأوَّل منهما زائلٌ فانٍ، والآخر باقٍ خالدٌ، وطوى جزاء الرَّاغبين في خير الدُّنيا، المعرضين عن الآخرة؛ رأفةً منه بهم، ولو ذُكر لكان وسنُرْدِي المعرضين عن نعمتي[1]، وهذا الإعراض عن ذكر الجزاء في مقابل الوعد بجزاء الثَّابتين مع حذف مفعوله الثَّاني الدَّال على سعة جوده وعطائه فيه تثقيفٌ للنُّفوس؛ لأنَّ إعراض الله ﷻ عن ذكر جزائهم إشارةٌ إلى بغضه إليه، ولكنَّه قَدَّم مقام الرَّأفة والرَّحمة على مقام الوعيد والانتقام في سياق حديثِ الاقتدار والعظمة المدلول عليهما بالالتفات بالمتكلِّم، وقدم ثواب الدُّنيا على ثواب الآخرة لأنَّه مقتضى الظَّاهر مِن ترتيبه الوجوديِّ، وليكون التَّعقيب بذكر وعد جزاء الشَّاكرين متَّصلًا بثواب الآخرة؛ ترغيبًا فيه، وأنَّه عليه المعوَّل.

وإعادة الضَّمير في قوله: ﴿مِنْهَا﴾ على الدُّنيا أوّلًا، والآخرة ثانيًا دون الثَّواب فيه تثقيف للنَّفس بالتّذكير بطبيعة ذلك الثَّواب، فالثَّواب الأوَّل ثواب دنيا، وماكان

(١) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٦٢).

كذلك فهو مشوبٌ بالتَّكدير ومصيره للزَّوال، والثَّواب الآخر هو ثواب آخرةٍ باقٍ لاكدر فيه، وفي ذلك ترغيبٌ في ثواب الآخرة، وابتغاء ما عند الله في ذلك اليوم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ جرى ذكر الجزاء على ما تقدَّم مِن الفخامة وتعظيم الشَّأن، وصُدِّر بالسِّين تأكيدًا، كما اكتُفي بمفعولٍ واحدٍ؛ ليكون الجزاء أكثر إبهامًا، وفي هذا الإبهام مِن الدَّلالة على الفخامة ما لا يخفى(١)، وأُظهر الشَّاكرين، وقدْ تقدَّمت الإشارة إليه؛ ليحصل بذلك تعليق الحكم، وهو الجزاء بالوصف، مع مافي الشَّاكرين مِن دلالة التَّعميم(٢)، وفي هذا ترغيبٌ في أنْ يُعدَّ المسلم نفسه ليكون في مقام الشَّاكرين، وذلك يتأتى بأنْ يبتغي الإنسان بعمله ما عند الله في الآخرة.

ونلحظ أن الآية صدِّرت بأسلوب القصر، فأدَّى غرضه التَّثقيفي، ثمَّ تبعته الأساليب الأخرى للتَّحفيز. فالأسلوب الرَّئيس هنا القصر، وجاءت بقية الأساليب للتحفيز.

وفي معرض الحديث عن أسباب الهزيمة يوم أُحُدٍ، وبعد أنَّ ردَّ الله ﷻ شُبَه المنافقين، واستغلالهم الموقف لبثِّ أفكارهم، بيَّن الحقُّ سبحانه ما يصحُّ أنْ يكون سببًا للهزيمة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران:١٥٥].

يكشف الله ﷻ لهم السَّبب الذي تفرَّق لأجله المسلمون، وتشتَّت شملهم، فجاء التَّأكيد ليُوقظ النُّفوس، وينبِّهها إلى أهميَّة ما يُقال، والتَّأكيد على المعنى بما للأداة مِن امتدادٍ صوتيٍّ في (إنَّ وإنَّما) يؤدِّي هذه الوظيفة.

والتَّعبير بالاسم الموصول جعل النُّفوس تتشوَّف لمعرفة ما بعده؛ لأنَّ المخاطَبين كانوا أشدَّ ما يكونون حاجةً لهذا البيان في حالهم، بعد أنْ لحظوا أثر ما فعلوا واقعًا،

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ٩٥).

(٢) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٦٣).

كانوا ينتظرون حكم الله فيهم. ومن رفق الله بهم أنْ سَتَرَ عليهم، وأخبر عن خطيئتهم بما يُوقظ في قلوبهم النَّدامة، فيستشعره كلُّ مذنبٍ، مع ستر الله عليهم. فالتَّأكيد هنا لأجل المعنى الذي يراد تقريره، ولفت الأنظار إليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ جاءت جملة القصر بعد أنْ مُهِّد لها بجملة الصِّلة، والتَّمهيد هنا فيه تهيئةٌ نفسيَّةٌ لعظم هذا الذَّنب، ويدل على ذلك ذكر ظرف هذا التَّولي ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾، ثمَّ تأتي جملة القصر في سياق عتابٍ لطيفٍ، واصطُفي لهذا المقام التَّعبير بأداة القصر (إنَّما) لمناسبتها لمقام اللين واللطف، مع ما سبق إليه مِن تمهيدٍ للدَّلالة، وهكذا تجد التَّعبير بهذه الأداة يقع "على ما دنا مِن القلوب، وخالط الأفهام، ولتمكُّن هذا المعنى فيها تجد الكلام السَّابق عليها في أكثر الأساليب كأنَّه تهيئةٌ للفكرة التي دخلتْ عليها، وتمهيدٌ لها، وتجد هذا التَّمهيد يقوى حتَّى لتكاد النَّفس اليقظى، والفهم المتسارع يُدرك الفكرة التي دخلتْ عليها قبل قراءتها أو سماعها"[1]، والمقصور هو استزلال الشَّيطان، والمقصور عليه: بعض ما كسبوا، والقصر قصر موصوفٍ على صفةٍ، قصر قلْبٍ؛ لأنَّه ردٌّ على اعتقاد مَن ظنَّ أنَّ الهزيمة كانت لأجل الخروج مِن المدينة أو غيرها مِن الشُّبه التي روَّج لها المنافقون، فالمقصد مِن الكلام "إلقاء تبعة ذلك الانهزام على عواتقهم، وإبطال ما عرَّض به المنافقون مِن رمى تبعته على أمر الرَّسول عليه الصلاة والسلام بالخروج، وتحريض الله المؤمنين على الجهاد"[2]، والمثبت هنا هو قصر الاستزلال على بعض ماكسبوا، والمنفيُّ مادون ذلك مِن الأسباب التي هي مِن جنس ما ذُكر. وقوله تعالى: ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ ذكَر البعض ولمْ يقل (بِمَا كَسَبُوا) إشارةً إلى أنَّ الله عز وجل يعفو عن كثيرٍ[3] كما أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ الاعتداد هُنا ليس بقلَّة الذُّنوب أو كثرتها، إنَّما بمقارفة الذَّنب، والعارفون بالله لا ينظرون إلى صغر الذَّنب وعظمه، وقلَّته

(١) دلالات التراكيب: (١٥٧).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ١٤٠).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٩١).

أو كثرته، بلْ ينظرون إلى عظم مَن عُصِيَ. فعلى المسلم أنْ يُقلع عن الذُّنوب قليلها وكثيرها؛ فإنَّها مِن أهمِّ أسباب النُّكوص والهزيمة.

وفي هذا السِّياق الرَّقيق لمْ يُذكر في أيِّ شيءٍ استزلَّهم الشَّيطان؛ لأنَّ الله تكرَّم عليهم بعفوه، وتفضَّل عليهم بالغفران، ولاحاجة لتعيين الذَّنب مع ذكر العفو والمغفرة[1]. وفي إسناد الاستزلال إلى الشَّيطان لطفٌ بهم، ومع ذلك فقد جعل مِن كسبهم علَّةً لذلك، وهو يغرس في النَّفس الحثَّ على الاستغفار، والنَّدامة والإنابة[2]. وبه يظهر وجهٌ للمناسبة بين إيراد قصَّة الرِّبيين وذكر أحداث غزوة أحدٍ فإنَّ "الاستغفار مِن الذَّنب هو أوَّل ما توجَّه به الرِّبيون الذين قاتلوا مع النَّبيين في مواجهة الأعداء"[3]، ففيه حثٌّ لهم على تطهير أنفسهم مِن الذَّنب بلزوم الاستغفار؛ لأنَّه مِن أسباب النَّصر والظَّفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أثبت على وجه التَّأكيد والتَّقرير في النُّفوس عفوه ومغفرته؛ لأنَّ الذَّنب عظيمٌ، فقد سبق الإشارة إليه فيما جاء مِن الوعيد في سورة الأنفال، وكان إثبات عفوه يقتضي تأكيدًا قاطعًا، فجاء التَّأكيد باللام وقد، تنزيلًا للمعفوِّ عنهم منزلة المنكرين لما كادتْ تَطير قلوب المؤمنين خشية سخطه وعقابه. وذكَر المتعلِّق (عنهم) تأكيدًا للبشرى، واهتمامًا بشأن المعفوِّ عنهم. وفي ذلك إشارةٌ إلى عظيم فضله وتكرُّمه ورحمته بعباده المؤمنين، ليغرس في النَّفس لذَّة الإقبال عليه، وصدق اللجوء إليه.

ثم جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ تذييلًا يُفيد التَّعليل لما تقدَّم، ولذلك فُصلت الجملة عمَّا قبلها، ويهيمن على هذا السِّياق أسلوب التَّأكيد، وجاءت هذه الجملة في هذا السِّياق مؤكَّدةً بإنَّ، وجاء إظهار اسمه الأعظم في موضع الإضمار؛

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: (٣/ ٥٣).

(٢) ينظر: مدارك التنزيل: (١/ ٢١٢).

(٣) في ظلال القرآن: (١/ ٤٩٧).

ليكون إسناد المغفرة والعفو إلى اسمه الظَّاهر أوقع في النَّفس، وأكثر تأثيرًا، لما له مِن الصِّفات الكاملة الدَّاعية إلى التَّجاوز عن الذَّنب[1]، والجمع بين المغفرة والحلم للدَّلالة على أنَّ ذلك العفو عفوٌ تامٌّ لا يكون مِع تحمُّلٍ ونحوه[2].

وفي الآية ترغيبٌ بذكر مغفرته وحلمه، وحثٌّ للنَّفس على الإقبال والمسارعة للتَّوبة وطلب العفو، مهما بلغت الذُّنوب، وفتحٌ لباب الرَّجاء بعد اقتراف المعصية.

(١) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٧١).

(٢) ينظر: الموضع السابق.

المبْحثُ الخامس: أثر أساليب النهي في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

أثر دلالة أسلوب الشَّرط على النَّهي:

ابتدأت آيات غزوة أُحُدٍ بذكْر أحداث الخروج إلى الغزوة، ثمَّ توقّف سياق آيات الغزوة، وطوَّفت الآيات بقضايا متعدِّدةٍ ذات علاقة بالغزوة وتبعاتها، بعد ذلك عادت الآيات إلى أجواء المعركة مستهلَّة بالنَّهي في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران:١٣٩]، وجاء الخطاب تسليةً لنفوس المؤمنين، وهو نهيٌ عن أمرين: الضَّعف أمام العدوّ، والحزن؛ وهما ينشآن عن اعتقاد الخيبة والرزء فيضعف القوم(١)، فالنَّهي في أصله موجَّهٌ لأصل الاعتقاد.

والنَّهي هنا يحثُّ المؤمنين على الأخذ بالعزم في جانبه الميدانيِّ بعدم الهوان، والنَّفسي بعدم الحزن، وهذا التَّكافؤ في الإعداد بشقَّيه هو ما سيحقِّق للأمَّة النَّصر بإذن الله، فيقودهم إلى العلوِّ في الأرض، ولذلك قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾، فالجملة الحالية تتضمَّن الباعث على عدم الهوان والحزن، وهو العلوُّ، والعلوُّ هنا إمَّا أنْ يكون علوًّا حقيقيًّا؛ لأنَّهم اعتلوا الجبل بعدما علا خالد بن الوليد بجيش المشركين(٢)، وإمَّا أنْ يكون العلوُّ هنا مجازيًّا، لما يحمله المؤمنون في نفوسهم مِن الحقِّ، فتكون لهم الغلبة بعد ذلك، فتكون الجملة الحاليَّة مفيدةً البشرى والتَّسلية، وتقوية القلب بعد أنْ انكسرتْ قلوبهم بما حصل(٣)، وهو الأسعد بالسِّياق لأنَّه علَّق العلوَّ بعد ذلك بالإيمان، وجاء اسم التفضيل (الأعْلون) معرَّفًا بحذف المفضَّل منه؛ دلالةً على العموم

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ٩٨).

(٢) ينظر: جامع البيان: (٧/ ٢٣٥).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ١٤).

المطلق، فهم الأعلى في هذا الزَّمن وفي كلِّ الأزمان(١)، فهو يمسح على قلوب المؤمنين، ويداوي جراحاتهم بالطمأنة والبشرى.

وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ علَّق جملة الشَّرط بما كانوا عليه مِن الإيمان بالفعل الماضي مِن الكينونة، وبالاسم الدَّال على الدَّيمومة بجواب جملة الشَّرط المحذوف، والتَّقدير إمَّا أنْ يتعلَّق بالنَّهي، فيكون المعنى إنْ كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا، وإمَّا أنْ يتعلَّق بالجملة السَّابقة، فيكون المعنى إنْ كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون(٢). ويترتَّب على تعليقه بالنَّهي، تحريضهم على تحقيق الإيمان في نفوسهم، لأنَّه أُظهر على سبيل التَّعليق، فيكون مقتضى الإيمان قلَّة المبالاة بالأعداء، وقوَّة القلب، وذلك أنَّ مِن ثمار الإيمان الحقيقيِّ الرِّضا واليقين والتَّسليم المطلق لما أمر الله تعالى به، وبمفهوم المخالفة فإنَّ الضَّعف والهوان والشُّعور بالانكسار هو ناتجٌ حتميٌّ لضعف الإيمان بموعود الله ﷻ، فعلى الأمَّة إنْ أرادتْ أنْ تحقِّق النَّصر والظَّفر أنْ تحقِّق الإيمان اعتقادًا وعملًا في حياتها؛ لتكون الأعلى، يقول ابن القيِّم: "فللعبد مِن العلوِّ بحسب ما معه مِن الإيمان... فإذا فاته حظٌّ مِن العلوِّ والعزَّة، ففي مقابلة ما فاته مِن حقائق الإيمان، علمًا وعملًا ظاهرًا وباطنًا "(٣)، أمَّا تعليق الجملة الخبريَّة به فيُفيد تعليق الوعد بالعلوِّ، بإظهار الإيمان وتحقُّقه؛ لأنَّ الغلبة والقهر تكون لأهل الإيمان، فيكون فيه الحضُّ والحثُّ على التَّمسُّك بالإيمان(٤).

وصَرَفَ الطِّيبيُّ الشَّرط عن حقيقته، وحمله على التَّتميم(٥)، لأنَّه محمولٌ على

---

(١) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: (١٥٢).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٤١) والكشاف: (١/ ٣٢٠) والبحر المحيط: (٣/ ٦٢).

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: (٢/ ١٩٤)، تحقيق: محمد حامد الفقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٤) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٦٢).

(٥) التتميم عند الطيبي: هو تقييد الكلام بتابع يفيد مبالغة أو صيانة عن احتمال مكروه. ينظر: التبيان في =

معنى التَّعليل، فالخطاب للرَّسول ﷺ والمؤمنين والصَّحابة(١).

والظَّاهر أنَّ الذي دفعه إلى حمل الشَّرط على معنى التَّعليل دفع أنْ يُراد بإنَّ التَّشكُّك والتَّردُّد على ما يذكره البلاغيون والنُّحاة في التَّفريق بين (إنْ) و (إذا) وهو غير دقيقٍ، لأنَّ (إنْ) أمُّ الباب، ولأصالتها في الشَّرط فهي تتفرَّغ لمحض دلالة الشَّرط وهو التَّعليق.

يتبيَّن ممَّا سبق أن الأسلوب الرئيس في الآية أسلوب النَّهي وهو مناط التَّثقيف، الذي يتحَّقق بتحقيقه النَّصر والظَّفر، وجاء أسلوب الشَّرط مساعدًا لتهييج المؤمنين، لإتيان المأمور.

أثر النَّهي في سياق التَّشبيه:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:-١٥٦-١٥٨].

عرض السِّياق لمكاشفة المنافقين، وإخراج ما تكنُّه صدورهم، وما تمتلئ به قلوبهم مِن الغيظ، ومِن الشُّبه المضلِّلة، والأوهام الملْبسة، فردَّ الله هذه الشُّبه بما يدحض الأوهام، توجَّه بالخطاب إلى المؤمنين. ومناسبة هذا النِّداء لما قبله تقدُّم ذكر الشُّبه لَّما قالوا: لو كان لنا مِن الأمر شيءٌ ما قتلنا ههنا، فذكَر الله ﷻ هنا شبهةً أخرى يروِّج لها دعاة الباطل، مُفسدةً للدِّين وللمعتقد. ويرى البقاعيُّ مناسبة هذه الآية لما

= البيان "تحقيقا ودراسة": (٢١٧) [رسالة علمية مقدمة لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراة في البلاغة والنقد، إعداد الباحث: عبد الستار حسين زموط، إشراف الأستاذ الدكتور: كامل الخولي، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م].

(١) ينظر: فتوح الغيب: (٢٧٦).

قبلها مِن خارج إطار السِّياق المنطوق فيقول: "ولَمَّا كان قولهم: إنا لو ثبتنا في المدينة الممثَّلة بالدِّرع الحصينة - كما « كان رأي رسول الله ﷺ والأكابر مِن أصحابه » لسلمنا، إلى غير ذلك ممَّا أشار ﷺ إليه قولًا موجبًا لغيظ رسول الله ﷺ؛ لما فيه مِن الاتِّهام، وسوء العقيدة، وكان مع ذلك مظنَّةً لأنْ يَخدع كثيرًا مِن أهل الطَّاعة؛ لشدَّة حبِّهم لمَن قُتِل منهم، وتعاظم أسفهم عليهم؛ كان أنسب الأشياء المبادرة إلى الوعظ بما يُزيل هذا الأثر"(١) وهو واضح في ربط السِّياق كذلك بالسِّياق البعديِّ في ذكر ما حبا الله رسوله ﷺ، وبهذا فالمقصد التَّثقيفيُّ في ربط هذه الآيات هو التَّحذير مِن المنافقين، ومِن الشُّبه التي يروِّجون لها لتثبيط المؤمنين عن القتال.

وتستهلُّ الآية بالنداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فينادي الله ﷻ عباده المؤمنين تنبيهًا بسِمَةِ الإيمان الذي وقر في قلوبهم، وميَّزهم عمَّن امتلأ قلبُه بالكفر والنِّفاق شحذًا لأنْ يستشعروا البون الشَّاسع بين حقيقة الإيمان والكفر، ونهاهم عن مماثلة أهل الكفر والنِّفاق في اعتقادهم. وهذا النِّداء الذي يهمس إلى قلوب المؤمنين، أشبه ما يكون بتحضيرٍ وتهيئةٍ وتمهيدٍ للنُّفوس لتلقِّي ما بعد النِّداء، وأنَّه أمرُ ينبغي لمن اتَّصف بالإيمان أنْ يُرعي سمعه، ويُحضر قلبه، كما أنَّ في نداء المؤمنين تهييجٌ(٢) على الثَّبات، وعنوان الإيمان مشعرٌ بأنَّ مقتضى الإيمان مخالفة الكفار والمنافقين(٣)، ونهى الله ﷻ

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٧١).

(٢) التهييج في الاصطلاح البلاغي: " كلام دال على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه وعلى ترك الفعل لمن لا يتصور منه فعله، ولكن يكون صدور الأمر والنهي ممن هذه حاله على جهة الإلهاب والتهييج له على الفعل أو الكف لا غير" (الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي: (٣/ ٩٣)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، نشر المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م) فالمؤمنون هنا لا يتصور منهم المماثلة لأن مناط المفارقة بين الإسلام والكفر هي قضية المعتقد بالدرجة الأولى، ولكنه ذكر على جهة التأكيد، فالتهييج مسلك من مسالك التوكيد، وإحضار لقضية قد تكون مضمرة إلى الظاهر، للفت الانتباه إلى موطن المفاصلة.

(٣) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٧٤).

عبـاده فقـال: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ فـالنَّهي عـن كينونـة المماثلـة جنْسًـا وصـفةً، فهـو يشـمل مجمـل الاعتقـاد، وخصوصـيَّة القول، والقول حقيقةً إنَّما هو صادرٌ عن الاعتقاد، وسُمَّى الله ﷻ المنـافقين كفَّـارًا لأنَّـه في سياق المكاشفة، وإظهار الحقائق، ووصفهم في جملة الصِّلة بـالكفر للفـت السَّـامعين إلى المباينة، والتَّنفير مِن المماثلة(١)، ومفاد هذا القول أنَّ الخارج للسِّـفر البعيـد أوالغـزو، إذا مات أو قتل، فإنَّما كان سبب موته أو قتله هو الخروج، ولو مَكَثَ ما مات وما قتل، ونلحـظ أنَّ هـذه الشُّبه تـدور في فلـكٍ واحـدٍ، ومـداره فسـاد المعتقـد، وعـدم الإيـمان بالقَدَرِ؛ لفقدانهم معنـى التَّوكُّـل عـلى الله ﷻ فهـو يعـرض لقضيَّة التَّوكُّـل، ولكـن مِـن جانبها الآخر، كيف يفضي الحال بمَن خلا قلبُه مِن الإيمان، وخلت حياتُـه مِـن التَّوكُّـل على الله ﷻ.

وممَّا يُلحظ إيلاء النَّفي فعل الكينونة، ليدلَّ على تأكيد النَّفي، لكونه مسلَّطا عـلى الكينونـة ابتـداءً، ثـمَّ خصوصـيَّة الفعـل. وفي ذلـك تحـذيرٌ شـديدٌ مـن الاغـترار بهـذه الدَّعوى، أو تصديقها.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ والأصل في (إذا) أنْ تُستعمل لمـا يُستقبل مِن الزَّمان، ولكنَّها تعلَّقتْ هنا بالفعـل (قـالوا)، وهـو مـاضٍ، فحصـل تعليـق المستقبل بالماضي، وخلاصـة حـلِّ هـذا الإشـكال أنْ يكـون العـدول حاصـلًا في معنـى الظَّرف(إذا)، فاستعمل المستقبل في موضع الماضي دلالةً على أنَّ هذه النَّازلة ممَّا يتصـوَّر اطِّراد إشـاعتها، والسَّـعي لنشرـها مِـن المنـافقين، فيطَّـرد معهـا النَّهـي في المسـتقبل مِـن الزَّمان(٢). أمَّا أبو حيان فقد ذهب إلى تقدير مصْدرٍ ينحلُّ بأنْ والمضارع تقديره: (قالوا مخافة أنْ يهلك إخوانهم الباقون إذا ضربوا...)(٣) ولكنَّ عدم التَّقدير أولى مِن التَّقدير.

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٣).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧٥).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٩٣).

والأعلى أنْ يكون العدول في الفعل فاستعمل الماضي (قالوا) والمقصود به ما يستقبل أيْ (يقولون)، وصحَّح هذا الاستعمال أنَّه عائدٌ إلى غير معيَّن (الذين).

ومن ذلك قول الكميت:

ما ذاقَ بُؤسَ معِيشةٍ ونعيمها   فيما مَضَى أَحدٌ إذا لمْ يَعْشقِ[1]

يقول الفرَّاء: "إنَّما أراد: لمْ يذقها فيما مضى، ولن يذوقها فيما يستقبل، إذا كان لمْ يعشق. وتقول: ماهلك امرؤ عرف قدره، فلو أدخلتَ في هذا (إذا) كانت أجود مِن (إذ)؛ لأنَّك لمْ تُخبر بذلك عن واحدٍ فيكونَ بإذا، وإنَّما جعلته كالدَّأب فجرى الماضي والمستقبل"[2] فهو يشير إلى انفتاح الزَّمن مع إذا حيثُ تعلَّقت بغير المعيَّن فيكون الماضي داخلًا في الدَّلالة، وصالحًا لما يُستقبل مِن الزَّمان، ونكتة التَّعبير بالماضي في موضع الاستقبال الإشارة إلى جِدِّهم واجتهادهم في تقرير هذه الشُّبهات؛ لأنَّهم في بلوغهم الغاية في تحصيله جُعل المستقبل كالماضي المنعقد[3]، وهو يغرس في النَّفس التَّحذير مِن الشُّبهات التي يلقيها المنافقون في كلِّ زمانٍ، والحثَّ على صدق التَّوكل على الله، وتفويض الأمور إليه مع الأخذ بالأسباب.

وعطف الغزو على الضَّرب في الأرض على الرَّغم مِن كونه داخلًا فيه؛ لأنَّ الضَّرب في الأرض يُراد منه الإبعاد في السَّفر لا ما يقرب، والغزو لا فرق فيه بين قريبه وبعيده، فأُفرد تنبيهًا إلى تفرُّده في القرب واتِّفاقه في البُعد[4].

وقوله: ﴿لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ قالوا ذلك تحسيرًا وتثبيطًا لهمم المؤمنين؛

(١) ديوان الكميت بن زيد الأسدي: (٢٤٦)، جمع وشرح وتحقيق: د. محمد نبيل طريفي، نشر دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

(٢) معاني القرآن: (١/ ٢٤٤).

(٣) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٥٦).

(٤) ينظر: الموضع السابق.

لكي يظنُّوا أنَّ بقاء المؤمنين في المدينة يدفع أقدار الله عنهم، قالوا ذلك على وجه التَّأكيد بالنَّفي بما المؤكِّدة للنَّفي، وتكرار الأداة "وهذا في غاية التَّهكُّم بهم، لأنَّ إطلاق هذا القول منهم-لا سيَّما على هذا التَّأكيد-يلزم منه ادِّعاء أنَّه لايموت أحدٌ في المدينة، وهو لايقوله عاقلٌ"[1]

والمنافقون أرادوا بنشر هذه المقولة صدَّ المؤمنين عن الجهاد؛ لأنَّ في طبائع النَّفس محبةَ الحياة، وكُره الموت، ومِن خبثهم أنَّهم أرادوا تنفير النَّاس بنداء الطِّباع، ليلزموا القعود[2].

ثمَّ قال تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وفي تعلُّق اللام بما قبلها أوجه:

أنْ تتعلَّق اللام بالفعل (قالوا)، أي أنَّهم قالوا ذلك فكانت العاقبة أنْ أورثهم الله حسرةً في قلوبهم، وتكون حيئنذٍ (ليجعل الله...) داخلةً في التَّشبيه صلةً للموصول، وفي اللام استعارةٌ تبعيَّةٌ في الحرف، شبَّه ترتُّب الحسرة على ماقالوا بالغرض المترِّتب على الشَّيء[3] تهكُّمًا بهم.

والمعنى التَّثقيفي الذي تغرسه هو مكر الله ﷻ لمن يمكر به، ويسيء به الظَّنَّ، وانقلاب التَّدبير حسرةً وندامةً على النُّفوس، فهو تحذيرٌ لأولئك المنافقين، ولمن يستميل قلبه مثل تلك الشُّبه.

أنْ تتعلَّق اللام بقوله: ﴿لَا تَكُونُواْ﴾ مع دخول الاعتقاد والقول في جملة المشبَّه به فيكون المعنى: لا تكونوا مثلهم في القول والاعتقاد، لأنَّ مخالفتكم تُورث نفوسهم الحسرة والنَّدامة، فيكون التَّعليل خارج التَّشبيه، وتكون اللام على معناها

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٧١).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٥٦).

(٣) ينظر: حاشية ابن التمجيد على البيضاوي: (٦/ ٣٧٦).

للتَّعليل[1].

وفيه أنَّ مخالفة أهل النِّفاق، والكفر في شبهاتهم، أورثت هذه الحسرة في نفوسهم لأنَّهم لا يتبعونهم في أقوالهم الباطلة، وصدِّهم عن سبيل الله، فعُلم مِن هذا سعيهم الحثيث لإفساد هذا الدِّين في نفوس المؤمنين، ووجب التَّنبيه إلى أنَّ مخالفتهم هو مِن الكيد الذي يُؤلم نفوسهم.

ويجوز أن يدلَّ على عموم المخالفة بتعليق اللام بقوله: ﴿لَا تَكُونُواْ ﴾، ويكون القول والاعتقاد خارجًا عنه، والمعنى ليكون انتفاء كونكم مثلهم حسرةً في قلوبهم[2]، والفعل (يجعل) بصيغته المضارعة دالٌّ على الاستمرار، وأنَّ مِن شأن هذه العقوبة أن تجعلهم في همٍّ متواصلٍ، وحسرةٍ متعاقبةٍ، واسم الإشارة للبعيد للتَّحقير في الأوَّل والثَّاني وللتَّفخيم في الثَّالث[3]، كما أنَّ تنكير حسرةٍ للتَّعظيم أيْ ليجعل الله ذلك همًّا وغمًّا عظيمين في قلوبهم.

وإثبات المتعلِّق ﴿فِي قُلُوبِهِمۡۗ ﴾ للتَّأكيد والتَّقرير، وأنَّه همٌّ وَقَرَ في القلوب، فعسُر زوالها[4]. وترتيب النَّفي في قوله تعالى: ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ ﴾ جاء على ترتيب الإثبات في قوله تعالى: ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾، الكلام هنا جاء في سياق إثبات الإحياء والإماتة لله وحده، ونفيه عمَّن سواه، فإذا علم أنَّ الإحياء والإماتة إليه وحده، بطلت الأسباب إلَّا بتقديره، ولإثبات هذه الحقيقة اقتضى المقام تقديم اسم الجلالة على الخبر

(١) ينظر: فتوح الغيب: (٣١٧ و ٣١٨).

(٢) ينظر: الموضع السابق.

(٣) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٧٨).

(٤) ينظر: الموضع السابق.

(٥) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧٨).

المثبت؛ ليدلَّ على التَّخصيص، يقول عبد القاهر في دلالة تقديم الاسم أو الفاعل وبناء الفعل عليه "وهو أن يكون الفعلُ فعلًا قد أردتَ أن تنصَّ فيه على واحدٍ فتجعلُه له، وتزعمُ أنه فاعلُهُ دونَ واحدٍ آخر، أو دونَ كلِّ أحدٍ. ومثالُ ذلك أن تقولَ: «أنا كتبتُ في معنى فلان وأنا شفعتُ في بابه» تريدُ أنْ تدَّعيَ الانفرادَ بذلك والاستبدادَ به، وتُزيلَ الاشتباهَ فيه، وتَرُدَّ على من زعمَ أنَّ ذلك كان من غيرِك أو أنَّ غيرك قد كَتَبَ فيه كما كتبت"[(١)].

فالقصر هنا قصر حقيقيٌّ، لأنه نفيٌ لكلِّ ما سوى المثبَت له، واعتبار الخطاب هنا للمقام، لأنَّ المخاطَبين هنا المؤمنون، وهم موقنون بأنَّ الإحياء والإماتة لله وحده، ولكن لَمَّا كان الكلام المتقدِّم فيه طعنٌ في هذه العقيدة، جاء الخطاب بهذا التَّأكيد لاقتضاء المقام والسِّياق الذي وَرَدَ فيه، ويقوِّي الخطاب مجيء اسم الجلالة مظهرًا في موضع كان مِن الممكن أنْ يُضمر فيه، ولقوَّة الأداء بالإظهار لتمكين اسمه في النُّفوس عدل عن الإضمار، والتَّعبير بالفعل المضارع للدَّلالة على الاستمرار، والجمع بين الضِّدين الإحياء والإماتة دلالةٌ على عظم قدرته.

والمعلم التَّثقيفي الذي يقوم به التَّركيب التَّرغيب في الجهاد، والصَّبر على القتال، والنَّهي كذلك عن الجَزَعِ لموت مَنْ مات[(٢)].

ثمَّ قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾ تهديدٌ مِن الله ﷻ لمن توسوس له نفسه بالغِواية، وتقبُّل تلك الشُّبهة، بعد أنْ خاطبها بخطاب العقل، أتى خطاب النَّفس ليردعَ مَن يتجاهل هذه الأمور البيِّنات، وإظهار اسمه الأعظم إيذانٌ باستقلال الجملة لأهميَّتها، ومناسب لمقام الزَّجر والمبالغة في التَّهديد والوعيد[(٣)]، وتقديم المتعلق (بما) للعناية والاهتمام، وأنَّه موضعٌ التَّرهيب والتَّحذير، ونلحظ أنَّ التَّهديد كان تعقيبًا على

(١) دلائل الإعجاز: (١٢٨).

(٢) ينظر: جامع البيان: (٧/ ٣٣٦).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٤).

أمرٍ اعتقاديٍّ وقوليٍّ، لكن التَّهديد جاء بذكْر صفة البصر. وإيقاعه على العمل، يقول الراغب: "لَمَّا كان قول الكافرين ذلك قصدًا منهم إلى عملٍ يجادلونهم خصَّ البصر"[1]، فالاعتبار هنا بالمآلات، وما ينتج عن هذا الاعتقاد.

وفي الجملة تنبيهٌ إلى خطورة المعتقد، وما يفضي إليه مِن العمل، ولذلك أيضًا نجد التَّأكيد على قضيَّة التَّوكُّل التي تمثِّل الجانب الاعتقاديَّ المقابل عند المؤمنين.

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

ويستمرُّ خطاب العقل مع إثارة المشاعر، ويشتدُّ خطاب التَّأكيد في هذه الجملة، فتُستفتح الجملة باللام الموطِّئة للقسم، لتدخل على جملةٍ شرطيَّةٍ عُلِّقَ فيها تحصيل المغفرة والرَّحمة بالقتل في سبيل الله والموت في سبيله، وإنَّما خُصَّ القتل في سبيل الله تحديدًا لغاية القتال في ظلِّ تعدُّد الغايات التي قد تدفع بالإنسان إلى تقديم روحه، واللام الواقعة في (لمغفرة) للتَّأكيد، وهو وعدٌ خرج مخرج الخبر؛ لأنَّ تقديره ليغفرنَّ الله لكم ويرحمنَّكم، ومزيَّة التَّعبير الجمعُ بين الوعد بتحصيل المغفرة والرَّحمة وبين الإخبار عن فضل ذلك على ما يؤثرونه مِن الدُّنيا[2]، وتنكير المغفرة والرَّحمة "إشارةٌ بليغةٌ إلى أنَّ أيسر جزءٍ منها خيرٌ مِن الدُّنيا، وأنَّه كافٍ في فوز العبد المؤمن"[3]، والتَّعبير بقوله تعالى: (خيرٌ ممَّا يجمعون) باسم التَّفضيل نزولٌ عند اعتقاد المخاطَبين، فهم إنْ كانوا يظنُّون أنَّ فيما يجمعون خيرًا، فإن ماذُكر مِن المغفرة والرَّحمة خيرٌ ممَّا يجمعون[4]، والالتفات في (يجمعون) إلى الغَيبة على قراءة حفصٍ فيه إشارةٌ إلى أنَّ إيثار الجمع على

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني من أول سورة آل عمران وحتى نهاية الآية (١١٣) من سورة النساء: (٢/ ٩٤٤)، دراسة وتحقيق: د. عادل بن علي الشدي، نشر مدار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٢) ينظر: جامع البيان: (٧/ ٣٣٨).

(٣) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧٩).

(٤) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٦١).

ما عند الله مِن المغفرة والرَّحمة جعلهم في مقامٍ لايستحقُّون فيه عزَّ خطاب الله لهم[(١)]، أو لأنَّه عائدٌ على أهل الكفر[(٢)]، وأمَّا بقيَّة القَرَأَة بالتَّاء[(٣)] (تجمعون) على الأصل دون عدول.

ومِن معالم التَّثقيف في الآية العُدول في تقديم القتْل على الموت خلافًا للآية السَّابقة؛ لأنَّ سياق الآية ومقصدها في إثبات الخيريَّة، وترتُّب الثَّواب عليه مِن المغفرة والرَّحمة، وذلك متحقِّقٌ في القتال في سبيل الله أكثر مِن تحقُّقه في الموت، وأشرف مِن حيث الطَّلب[(٤)]، فقدَّم ماهو أعنى بالمقصد وأليق، كما أنَّ فيه ترغيبًا إلى فضيلة الجهاد والحثِّ عليه"وتغييرُ التَّرتيب الواقعِ في قولهم ما ماتوا وما قُتلوا المبنيِّ على كثرة الوقوعِ وقلَّته للمبالغة في التَّرغيب في الجهاد ببيان زيادةِ مزيةِ القتلِ في سبيل الله وإنافتِه في استجلاب المغفرةِ والرَّحمةِ، وفيه دَلالةٌ واضحةٌ على ما مرَّ مِن أنَّ المقصودَ بالنَّهي إنَّما هو عدمُ مماثلتِهم في الاعتقاد بمضمون القولِ المذكورِ، والعملِ بموجبه لا في النُّطق به وإضلالِ النَّاسِ به"[(٥)].

وأمَّا تقديم المغفرة على الرَّحمة فهو عائدٌ إلى ترتيبها في مطالب العبد، فإنَّ العبد يقع رجاؤه في التَّخلية قبل التَّحلية، وفي إذهاب ما يُغضب الله ﷻ قبل طلبه مايُرضيه لأنَّه سببٌ له، والتَّقديم هنا مرتبطٌ بالتَّقديم هناك، فكما أنَّ تقديم القتل للشَّرف، وتعلقه بالخيَّرية، فكذلك المغفرة قُدِّمتْ لتدلَّ على أنَّ الجهاد مِن أرجى مواضع الغُفران، ويقرب هذا مِن جَعْلِ ابن عطيَّة في ذكْر المغفرة والرَّحمة تسميةً للقتال والموت

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٧٩).

(٢) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٩).

(٣) ينظر: التيسير في القراءات السبع: (٢٥٦).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧٨).

(٥) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٤).

بما يترتَّب عليه"إذ هما مُقْترنَان"[1]، وذكر المغفرة والرَّحمة هو رباط ما تقدَّم مِن الآية بختامها، فشهد موقعها بحسن نظمها، وانسجام معانيها، ونلحظ في الآية كذلك أنَّها جاءت على نحوٍ مِن التَّنزُّل في الخطاب إلى عقول مَن صَدَرَتْ منهم تلك الشُّبهة على افتراض أنَّهم إنْ ماتوا أو قُتلوا حال خروجهم وبسببه، فما عند الله خيرٌ مِن البقاء في حطام الدُّنيا الزَّائل، ومِن ثمَّ فهذه الآية هي جناح التَّرغيب، ثم جاء بعدها في جناح التَّرهيب قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ فالمقصد هو التَّذكير بالعاقبة، وأنَّهم كلُّهم محشورون إليه، وعلى الإنسان أنْ يُعدَّ لهذا المحشر مِن الأعمال الصَّالحة مايُنجيه في ذلك اليوم، ومِن جملتها صحَّة المعتقد، والجهاد في سبيل الله، ولمَّا كان بهذا الاعتبار الميِّتُ أكثرَ مِن المقتول قُدِّم في الذِّكر، والخطاب هنا يصلح للعُموم؛ لأنَّ الحشر لايخصُّ أحدًا دون أحدٍ؛ ولذلك لمْ يُقيَّد القتل بقوله: في سبيل الله مثل ما في الآية السَّابقة. وفي الآية تحقيرٌ لشأن الدُّنيا "وحضٌّ على طلب الشَّهادة، أيْ إذا كان الحشر في كلا الأمرين فالمضيُّ إليه في حال الشَّهادة أولى"[2].

وفي قوله تعالى: ﴿لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ نلحظ الخصائص الآتية:

قُدِّم المتعلِّق الجار والمجرور على الفعل؛ ليدلَّ على اختصاص الحشر بكونه إلى الله، فالتَّقديم هنا أفاد القصْر "والمعنى حشْرُكم مقصورٌ على الاتِّصاف بكونه إليه تعالى، لا يتجاوز إلى الاتِّصاف بكونه إلى غيره تعالى، فهو قصر الموصوف على الصِّفة لاعكسه"[3] فدلالة القصر متَّجهةٌ إلى إثبات الحشْر لله وحده لا إلى غيره"فيجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته وليس غيره يُرجى منه ثواب، أو يُتوقَّع منه دفع عقاب، فآثروا ما يقرِّبُكم إليه ويجرُّ لكم رضاه، مِن العمل بطاعته، والجهاد في

---

(١) المحرر الوجيز: (٣/ ٢٧٩).

(٢) الموضع السابق.

(٣) حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٨٠).

سبيله، ولا تركنوا إلى الدُّنيا"[1]، وجاءت اللام تأكيدًا لهذا الحصر. ونبه الرَّازي إلى جملةٍ مِن الخصائص في هذه الآية وهي:

-اصطفاء اسم الجلالة الدَّال على كمال الرَّحمة وكمال القهر فجمع بذلك الوعد والوعيد.

-إضافة اللام إلى اسم الجلالة تأكيدًا على اقتضاء الألوهيَّة لهذا الحشر.

- أنَّ الفعل (تُحشرون) بُني لما لمْ يُسمَّ فاعله؛ لأنَّ العقول تشهد بأنَّه القادر على ذلك دون غيره، فكان عدم ذكره أدلَّ على العظمة.

-إسناد الحشر إلى غيرهم، وفي ذلك دليلٌ على أنَّهم لا يخرجون عن قهر الرُّبوبيَّة، وكبرياء الألوهيَّة

- أنَّ ذكر الحشر مسندًا إلى لفظ الجمع دالٌّ على أنَّهم جميعًا سواسيةٌ في الوقوف بين يديه، في موقفٍ يجتمع فيه الظَّالم والمظلوم، والقاتل والمقتول[2].

۞ التَّمهيد للنَّهي:

يسبق النّهي مناط التَّثقيف الرئيس في الآية تمهيدٌ يجعل لإيقاع الأسلوب في النَّفس أثره العظيم، ففي سياق ذكر الأحداث التَّابعة لغزوة أحدٍ، يستحضر السِّياق القرآنيُّ تفاصيل الأحداث تمهيدًا للنَّهي الذي يحقِّق المقصد المنسجم مع مقصد السُّورة، ففي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٣-١٧٥].

---

(١) روح المعاني: (٢/ ٣١٧).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٦٢).

تسوق الآية الكريمة خبرًا آخر مِن أخبار هذه الاستجابة في شأن قصَّة حمراء الأسد(١)، كيف كانت موصولةً قلوبهم بالله ﷻ، صادقةً في توكُّلها، ولمّا كان حدثًا جديرًا بالتَّنبيه إليه لمْ يُعطف على سابقه، بل أُفرد بصلةٍ أخرى؛ ليكون منفصلًا، يقول ابن عاشور: "وإنَّما جيء بإعادة الموصول، دون أنْ تُعطف الصِّلة على الصِّلة، اهتمامًا بشأن هذه الصِّلة الثَّانية حتَّى لا تكون كجزء صلةٍ"(٢).

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ نلحظ تقديم القيْد المتضمِّن الضَّمير العائد على المؤمنين؛ لأنَّهم المخصوصون بهذا الخبر، ومدار الحديث عن حالهم، وكيف تلقَّوا تلك المقالة، والمقصود بالنَّاس هم بنو قيس. ثـمَّ ذكر جملة القول بالتَّأكيد القاطع الذي يُراد منه تضخيم الأمر، وإيقاعه في النُّفوس إيقاعًا مجلجِلًا ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾، والمقصود بالنَّاس هنا أبو سفيان ومَن معه، و(قد) دخلتْ

---

(١) اختلف في هذه الآية والآية التي بعدها في أي شيء نزلت، والذي عليه أكثر أهل التفسير أنها تابعة لما قبلها في شأن حمراء الأسد، وقال مجاهد: نزلت في غزوة بدر الصغرى (ينظر: جامع البيان: ٧/ ٤١١) والصحيح ماذكره ابن عطية في المحرر الوجيز: (٣/ ٢٩٨) قال: " وشذ مجاهد رحمه الله فقال: إن هذه الآية من قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ إنما نزلت في خروج النبي عليه السلام إلى بدر الصغرى، وذلك أنه خرج لميعاد أبي سفيان في – أحد – إذ قال: موعدنا بدر من العام المقبل، فقال النبي عليه السلام: قولوا نعم: فخرج رسول الله قبل بدر وكان بها سوق عظيم، فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دراهم وقرب من بدر فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعي فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فأشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾، وصمموا حتى أتوا بدراً فلم يجدوا عدواً ووجدوا السوق فاشتروا بدراهمهم أدماً وتجارة وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا في تجارتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ﴾ أي فضل في تلك التجارة، والصواب ما قاله الجمهور: إن هذه الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد، وما قال ابن قتيبة وغيره: من أن لفظة – الناس – على رجل واحد من هذه الآية، فقول ضعيف " ويدل عليه كذلك حديث عائشة عند البخاري – سيأتي ذكره – كما أن سياق الآيات واحد ذكر الخروج والاستجابة ثم التخويف ثم التوكل ثم الانقلاب والفضل. ينظر: (المحرر في أسباب النزول: (١/ ٣٤١).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ١٦٨).

على الفعل الماضي فدلَّتْ على التَّأكيد، وإثبات المتعلِّق (لكم) لتأكيد قصدهم، وحذف مفعول الفعل للتَّهويل؛ لتذهب النَّفس مع هذا الحذف كلَّ مذهبٍ، كما جاء الخبر بالجملة الاسميَّة لأنَّها آكد مِن الفعليَّة، فأُعيد المسند إليه في ضمير الفعل، فكأنَّه ذُكر مرَّتين تأكيدًا، كلُّ تلك المؤكِّدات أرادوا مِن خلالها أنْ يهزُّوا عقيدة الإيمان في نفوس المؤمنين، خاصَّةً أنَّهم كانوا مثقلين بالجراح، وقدَّموا نصيحتهم التي قدَّموا لأجلها الحديث فقالوا: ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾، هذا موقف المخذِّلين، أمَّا موقف المؤمنين فكان أوَّل تلقِّيهم هذا الكلام ما أخبر الله عنهم به فقال: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾، والفاء للتَّعقيب، فكان عاقبة هذا التَّخذيل على عكس ما أرادوا، فزاد القلوب تثبيتًا، والنُّفوس إيمانًا، وكأنَّ تحت هذه الفاء تنقلب الأحداث، مع مافيها مِن المفاجأة. فكان الفعل هُنا مقابل الفعل الذي أرادوه منهم، أمَّا قول المثبِّطين المخذِّلين فتلقَّاه المؤمنون بقولهم: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ ففوَّضوا الأمور إلى خالقهم أوَّلًا، ثمَّ أثنوا عليه بما هو أهلٌ، وعطف الإنشاء على الخبر فيما له موقعٌ مِن الإعراب لأنَّه في حكم المفرد[1].

يقول أبو حيَّان: "ولمَّا تقدَّم مِن المثبِّطين إخبارٌ بأنَّ قريشًا قدْ جمعوا لكم، وأمرٌ منهم لهم بخشيتهم لهذا الجمع الذي جمعوه، ترتَّب على هذا القول شيئان: أحدهما: قلبيٌّ وهو زيادة الإيمان، وهو مقابلٌ للأمر بالخشية. فأخبر بحصول طمأنينةٍ في القلْب تُقابل الخشية، وأخبر بعد بما يُقابل جمع النَّاس وهو: إنَّ كافيهم شرَّ النَّاس هو الله تعالى، ثمَّ أثنوا عليه تعالى بقوله: ونعم الوكيل، فدلّ على أنّ قولهم: حسبنا الله هو من المبالغة في التوكل عليه، وربط أمورهم به تعالى. فانظر إلى براعة هذا الكلام وبلاغته، حيث قوبل قولٌ بقولٍ، ومتعلِّق قلبٍ بمتعلِّق قلبٍ"[2].

المعنى التَّثقيفيَّ الذي تغرسه هذه الآية في النُّفوس اليقين بموعود الله، وصدق التَّوكُّل عليه، وكيف أنَّ التَّرقي في مقامات التَّوكُّل يجعل النُّفوس في درجةٍ مِن اليقين

(١) ينظر: حاشية سيد شريف على المطول (بهامش المطول): (٢٥٢).

(٢) البحر المحيط: (٣/ ١١٨).

تتلقَّى فيها ما يُهدِّد أمنها، وطمأنينتها بزيادة ثباتٍ، وقوَّةٍ في الإيمان، ولتُختم الآيات بالتَّذكير بعرض هذا النَّموذج المشرِّف من صحَّة العقيدة، وارتباطها بالقتال في سبيل الله"ولمْ يكن أقوى في التَّعبير عن ميلاد هذه الحقيقة مِن خروج هؤلاء الذين استجابوا لله والرَّسول مِن بعد ما أصابهم القرْح. ومِن خروجهم بهذه الصُّورة النَّاصعة الرَّائعة: صورةُ التَّوكُّل على الله وحده، وعدم المبالاة بمقالة النَّاس، وتخويفهم لهم"(١).

وبعد أنْ ذكر الله ﷻ ما واجه به المؤمنون ذلك الموقف الرَّهيب بالتَّوكُّل على الله ﷻ، وتفويض الأمور إليه، ذَكَر في قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ ما أعقبهم ذلك الثَّباتُ من النِّعمَ مِن الله والفضل العظيم، "وفيه تعليمٌ لنا أَنْ نقتدي بهم، ونرجع إِلَى أَمر اللهَّ، والصَّبر عليه والاِتِّكال عليه، وأنْ نقُول: حسبنا اللهَّ ونعمَ الوكيل، وأَنَّا متى فعلنا ذلك أَعقبنا ذلك مِن اللهَّ النَّصر والتَّأييد، وصرفُ كيد العدوِّ وشرهم مع حيازة رضوان اللهَّ وثوابه"(٢).

والباء للمصاحبة متعلِّقةٌ بحالٍ محذوفٍ، وتقدير الكلام: فانقلبوا ملتبسين بنعمة مِن الله وفضل(٣)، وتنكير نعمةٍ وفضلٍ للتَّعظيم، وأكسب إثبات المتعلِّق (من الله) تعظيمًا للنِّعمة تأكيدًا لفخامتها(٤)، وذكر النِّعمة والفضل هُنا يعود بنا إلى قوله تعالى: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾[آل عمران:١٧١] وكأنَّ استبشار أولئك بالنِّعمة والفضل كان لإخوانهم الذين آتاهم الله هذا الثَّواب مِن الذين بلغوا حمراء الأسد.

وقوله تعالى: ﴿لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ ثالث هذه المغانم، فقد كتب الله لهم السَّلامة. وإيقاع النَّكرة في سياق النَّفي يدلُّ على نفي أقلِّ السُّوء وأدناه(٥).

---

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٥٢٠).

(٢) أحكام القرآن للجصاص: (٢/ ٤٤).

(٣) ينظر: الدر المكنون: (٣/ ٤٩٠).

(٤) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٣٣٥).

(٥) ينظر: النظم القرآني في آيات الجهاد: (١٧٥).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾ أفادت الإضافة تفخيم الرِّضوان، والمبالغة فيه[1]، وختمت الآية بالتَّذييل، بذكر سعة فضل الله وعظمه، وأُظهر اسمه الأعظم في موضع الإضمار؛ إيذانًا باستقلال الجملة، ولما في ذكر اسمه وتكرُّره في هذا السِّياق مِن التَّعظيم، ولعظم الأمر نلحظ تكرُّر الاسم الأعظم كثيرًا؛ وذلك لما يدلُّ عليه أعظم الأسماء مِن كمال الألوهيَّة وكمال القدرة، وهذا الملحظ يكشف عن تفاعل الأساليب مع السِّياق والمقام، إذْ فيه ربطٌ لمقام التَّعظيم بالتِّكرار والإظهار.

وممَّا يُلحظ في تركيب الآية تشابه الأطراف، فالآية الكريمة ابتدئ في صدرها بذكر النِّعمة والفضل مِن الله ﷻ، وختمت بذكر سعة فضله ليشدَّ آخر الجملة إلى أوَّلها، وفي ذلك تحسيرٌ لمن تخلَّف عن أولئك الثَّابتين الذين خرجوا استجابةً لأمر الله ورسوله ﷺ، فحرموا أنفسهم مِن الفوز بما فاز به أولئك[2].

كما أنَّ فيها ترغيبًا في الثَّبات والصَّبر، وحسْنَ التَّوكُّل على الله ﷻ، وتفويض الأمور إليه؛ لأنَّ الجزاء الذي جازى الله به هذه الفئة التي تحقَّقت فيها الصِّفات، جازاهم الله بالثَّواب العظيم بما دلَّت عليه الأساليب البلاغيَّة مِن تأكيد عِظَمِ هذا الجزاء، فهو مسلكٌ مِن مسالك التَّرغيب.

ثمَّ يخبر الله ﷻ أنَّ ذلك التَّثبيط كان مِن الشَّيطان بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فالشَّيطان هنا حقيقةٌ، ويجوز أنْ يكون المشار إليه الخبر الذي ساقه ركب عبد القيس إلى المؤمنين والمعنى: لم يكن إلا وسوسة الشَّيطان وقوله، بتقدير المضاف، والقصر هنا بـإنَّما والمقصور هو القول المشار إليه بـذلكم، والمقصور عليه الشَّيطان، أي قوله ووسوسته، مِن قصر الموصوف على الصِّفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ لردِّ اعتقاد مَن ضُخِّم في قلبه مخافة العدوِّ وإقبالهم بالعتاد والعُدَّة إذا ما كان الشَّيطان خبرًا، ويكون الحذف للإيجاز، مع قيام القرينة مِن الكلام

(١) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٤١٤).

(٢) ينظر: الكشاف (١/ ٣٣٨) ومفاتيح الغيب: (٩/ ١٠٤).

السَّابق على تقديره، وعليه فالشَّيطان المراد به إبليس -لعنه الله-. وجملة (يُخوِّف أولياءه) استئنافٌ بيانيٌّ لسؤالٍ مقدَّرٍ فماذا عساه يصنع؟[1]، وأولياء الشَّيطان هم القاعدون[2] الذين تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ[3]، جعلهم الله أولياء للشَّيطان تغليظًا عليهم[4]، والمفعول في (فلا تخافوهم) عائدٌ إلى النَّاس وهو الوجه الذي رجَّحه الطِّيبيُّ، واستدلَّ على ذلك بما يأتي:

١-قرينة السِّياق المديد؛ لأنَّ الله ﷻ ذكر أنَّ المصيبة التي حلَّت بالمسلمين في تلك الغزوة ميَّزتْ المؤمن مِن المنافق، ثمَّ ذكر الله أحوال أولئك، فذكَر المؤمنين الذين استُشهدوا، وذكر اللاحقين الذين استبشر الشُّهداء بهم، فبقي أنْ يذكر القاعدين.

٢-ذكَر الله ﷻ المستجيبين للخروج ممتدحًا لهم فقال: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ أيْ لمْ يخافوا[5]، فلا يناسبه أنْ يكون النَّهيُ في (فلا تخافوهم) موجَّهًا إليهم، بلْ هو للقاعدين.

وفي ذلك تثقيفٌ للنَّفس بأنَّ وسوسة الشَّيطان وتخويفه، إنَّما يتمكَّن في قلوب أتباعه، أمَّا المؤمن فلا تضرُّه تلك الوساوس؛ لأنَّ قلبه معلَّقٌ بربِّه، وفي ذلك يظهر ارتباط ولاية المؤمنين لله ﷻ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٠]. والفاء

---

(١) ينظر: نظم الدرر: (٢/ ١٨٥).

(٢) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٣٨).

(٣) روى البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ قالت لعروة: يا ابن أختي، كان أبواك منهم: الزبير وأبو بكر. لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إثرهم فانتدب منهم سبعون رجلا. قال: كان فيهم أبو بكر والزبير (صحيح البخاري: كتاب المغازي: باب ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: حديث رقم: (٤٠٧٧) (٣/ ١١٠).

(٤) ينظر: فتوح الغيب: (٣٤٩).

(٥) ينظر: الموضع السابق.

لترتيب النَّهي على ما قبله، فكون المخوِّف هو الشَّيطان، اقتضى ذلك النَّهيَ عن خوفه[1]؛ لأنَّ الخوف والخشية تكون لله سبحانه؛ ولذلك جاء الأمر بالخوف مِن الله ﷻ بعد النَّهي عن مخافة الشَّيطان، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ تعليقٌ للإيمان بشرط خوفهم مِن الله ﷻ؛ لأنَّ ذلك مقتضى الإيمان.

وهو يغرس معلمًا مِن معالم التَّثقيف يهيمن على السِّياق كلِّه، وهو تصحيح المعتقد، وأنَّ الخوف ينبغي أنْ يكون لله وحده، وذلك يقتضي صدق التَّوكُّل على الله ﷻ، وتسليم الأمور إليه، وهكذا نجد أنَّ الخطَّ العقديَّ يمضي متوازيًا مع الخطِّ الجهادي في السِّياق كلِّه. ومعلم آخر يغرسه التَّعليق بالجملة الشَّرطية أنَّ الإيمان يستلزم الخوف مِن الله ﷻ.



(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٥).

المبْحثُ السّادس: أثر التَّعبير بالجملة الاسميَّة أو الجملة الفعليَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

أثر التعبير بالجملة الاسميَّة:

قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[آل عمران:١٥٣].

يخبر الله ﷻ عن مشهدٍ نَتَجَ عن فشلهم وتنازعهم، ومخالفتهم لأمر النَّبيِّ ﷺ حتَّى اضطرب الجيش، وأخذوا في الإصعاد في فضاء الأرض، والفرار إلى الجبل، دون التفاتٍ لدعوات النَّبيِّ ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾المقصود به النَّبي ﷺ، وإنَّما أُشير بأَحَدٍ صيانةً لاسمه أنْ يأتي في معرض الإعراض عنه، والتَّولي، تعظيما وتشريفا(١)، وهذا الصَّون الرَّبانيُّ يُلقي بأثره التَّثقيفيِّ في النَّفس، فإذا كان الإعراض عن ذكْر الرَّسول ﷺ باسمه صونًا وتعظيمًا في معرض الحكاية فكيف بالإعراض عنه حقيقةً؟!.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ في التَّعبير بالرَّسول إشارةٌ إلى أنَّه مبلِّغٌ بالوحي، وأن إجابة دعوته لازمةٌ(٢)، وكذلك تقديمه في بناء الجملة لأهميَّته فهو مناط إنكار عدم إجابة دعوته، والتَّعبير بالاسمية وإسناده إلى الخبر الفعلي يُفيد تكرُّر اسمه بالإظهار والإضمار في الفعل، فالمعلم التَّثقيفي توبيخ المؤمنين الذين لمْ يستجيبوا لندائه، وحضِّهم على تلقِّي أوامره بالتَّنفيذ حتَّى في أصعب المواقف، وأشدِّ اللحظات.

---

(١) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٨٣).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٠) وحاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٦١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَثَـٰبَكُمۡ غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ يُسدل الله على عباده مننه وعطاياه، إذْ قابل معصيتهم بالإحسان إليهم، وإنْ كان في ظاهر أمره بدا عقوبةً منه، فالفاء هنا للمجازاة وهي عاطفة لـلفعل (صَرَفَكُم) لأنَّ المعنى "ترتَّب على الصَّرف إثابتكم"(١).

وتنكير الغمِّ فيه دلالةٌ على كثرته، وللباء في قوله تعالى: ﴿غَمَّۢا بِغَمّٖ﴾ أوجهٌ:

إمَّا أنْ تكون للمقابلة والعِوَض، فيكون المعنى أثابكم غمًّا مقابل غمٍّ، والغمُّ الأوَّل هو إشاعة مقتل الرَّسول ﷺ، والغمُّ الآخر هو الفرار عن الرَّسول ﷺ عندما دعاهم، أو غمٌّ يغمُّه المسلمون بأُحُدٍ كغمِّ المشركين ببدْرٍ، أو أنْ تكون للسَّببيَّة، أيْ أثابكم الله غمًّا بإشاعة مقتل الرَّسول ﷺ بسبب غمٍّ وهو اختلافكم وفشلكم وإصعادكم.

وإمَّا أن تكون الباء للمصاحبة بمعنى "مع"، والمعنى أنْ يكون غمًّا متَّصِلًا بغمٍّ(٢)، وهو الأعلى، لمطابقته للواقع بتتالي الغُموم في تلك المعركة، ولأنَّ توالي الغُموم هو الإثابة ذاتها لا أنْ يكون الغمُّ سببًا لغيره(٣).

يقول ابنُ القيِّم: "ومن لطفه بهم،ورأفته، ورحمته،أنَّ هذه الأمور التي صَدَرَتْ منهم، كانت مِن مُوجبات الطِّباع،وهي مِن بقايا النُّفوس التي تمنع مِن النُّصرة المستقرَّة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها مِن القوَّة إلى الفعل،فترتَّب عليها آثارها المكروهة،فعلموا حينئذٍ أنَّ التَّوبة منها، والاحتراز مِن أمثالها،ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيِّنٌ، لا يتمُّ لهم الفلاحُ والنُّصرةُ الدَّائمة المستقرَّة إلَّا به،فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها ومعرفة بالأبواب التي دخل عليهم منها... "(٤).

---

(١) التحرير والتنوير: (٤/ ١٣١).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٦٧) والبحر المحيط: (٣/ ٨٣ و ٨٤).

(٣) ينظر: زاد المعاد: (٣/ ١٩٨).

(٤) الموضع السابق.

فالمعلم التَّثقيفي الذي يغرسه التَّحذير مِن عاقبة الذُّنوب والمعاصي، وأنَّها سببٌ مِن أسباب تأخير الظَّفر والنَّصر، وهو ما سيأتي في سياق الآيات بعد ذلك.

ثمَّ ذَكَرَ سبحانه علَّة هذا الجزاء، وكيف مَنَحَ لهم في هذه المحن ما صَرَفَهُم عن التَّحسُّر والحزن على ما فات وما كان، فقال: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾، فقد جَمَعَ الله لهم بالتَّأديب والتَّمرين ما يكمل به الإيمان، وترسخ به الأخلاق[1]، ونلحظ إعادة حرف النَّفي مع كلِّ منفيٍّ لتأكيد صرفهم عن الأحزان والغُموم بكلِّ أسبابها، فأعاد (لا)"تنبيهًا على استقلال الإصابة"[2]؛ لأنَّ نفي الشَّيء مستقلًّا آكد مِن نفيه مجموعًا إلى غيره.

ونلحظ أنَّ في الجمع بين ما فات وما أصاب طباقٌ مِن جهة أنَّ الفوت يقتضي العدم، والإصابة تقتضي الوجود، وهو يفضي إلى طباقٍ آخر مقدَّرٍ بأنَّ مافات مِن الغنائم نفعٌ، وما أصاب مِن الجراح والقتل ضرٌّ[3].

وفي ذكر هذا الوجه مِن الطِّباق بجمع الضِّدَّين إظهارٌ لسعة رحمة الله ﷻ، وأنَّ على المؤمن أنْ يُحسن ظنَّه بالله، وأنْ يدفعه اليقين بموعود الله إلى تأمُّل ما في المصائب مِن مِنَحٍ ومنن.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ يُخبر سبحانه وتعالى عن واسع علمه وإحاطته بالظَّاهر والباطن، والتَّعبير بالاسم الموصول (ما) دالٌّ على العُموم والشُّمول، فعلمه محيطٌ بما تكنُّه الصُّدور، وما هو أخفى مِن ذلك.

ومناسبة هذه الجملة لمضمون ما قبلها يسوقه البقاعيُّ بقوله: "ولمَّا قصَّ سبحانه وتعالى عليهم ما فعلوه ظاهرًا، وما قصدوه باطنًا، وما داواهم به قال -عاطفًا على ما تقديره:

(١) ينظر: تفسير المنار: (٤/ ١٨٤ و ١٨٥).

(٢) حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٦٢).

(٣) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٣).

فالله ﷻ خبيرٌ بما يُصلح أعمالكم، ويُبرىء أدواءكم: ﴿وَٱللَّهُ﴾ أيْ المحيط علمًا وقدرةً ﴿خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أيْ مِن خيرٍ وشرٍّ في هذه الحال وغيرها، وبما يصلح مِن جزائه ودوائه، فتارةً يداوي الدَّاء بالدَّاء، وتارةً بالدَّواء؛ لأنَّه الفاعل القادر المختار"(١).

فالمناسبة قائمة على علمه الظَّاهر والباطن، الظَّاهر المذكور بالمنطوق، والباطن المشار إليه بالمفهوم، فيكون في الجملة تذييلٌ، مزيَّته تأكيد اطِّلاعه على دقائق الأمور وجليِّها، وهو يغرس معلمًا مِن معالم التَّثقيف بالتَّحذير والتَّرهيب مِن غضب الله، والحثِّ والتَّرغيب في طاعته.

أثر العدول في التّعبير بالاسمية أو الفعليَّة:

يرحل السِّياق بالنَّفس المؤمنة ليُبيِّن قيمة القتل في سبيل الله الذي يسترخصه المنافقون، وما أعدَّه الله لهم من النَّعيم فيقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٩ - ١٧١]، فانتقل الخطاب مِن الحديث عن الموت باعتباره نهايةً حتميةً، يخشاها المنافقون، إلى الحديث عن القتل في سبيل الله، وهي نهايةٌ يعرضها السِّياق القرآنيُّ في سياقٍ مِن التَّشريف والتَّكريم؛ ليعرض السِّياق قضيَّةً واحدةً مِن وحي عقيدتين مختلفتين، والخطاب موجَّهٌ إلى الرَّسول ﷺ، ولأمَّته مِن بَعده، وَرَدَ في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لـمَّا أُصيب إخوانكم بأُحُدٍ جعل الله أرواحهم في جوف طيْرٍ خضرٍ تَرِدُ أنهار الجنَّة، تأكل مِن ثمارها، وتأوي إلى قناديل مِن ذَهَبٍ معلَّقةٍ في ظلِّ العرش، فلـمَّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا مَن يبلغ إخواننا عنَّا أنَّا أحياء في الجنَّة نُرزق لئلَّا يزهدوا في الجهاد، ولا يَنْكُلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه أنا أُبلِّغهم عنكم. قال

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٦٨).

فأنزل الله ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ إلى آخر الآية"[١].

ودخل حرف النَّهي على فعل الحسبان المضارع، مع تأكيد الفعل بالنُّون الثَّقيلة "دفعًا لفكرة طروئه وتجدُّده فلا يَرِدُ بعد ذلك الحسبان في الأذهان مطلقًا"[٢].

وبناء الفعل لما لم يُسمَّ فاعله (قُتِلُوا) لأنَّ العناية منصبَّةٌ إلى الفعل دون تعلُّقٍ بفاعلٍ معيَّنٍ، وتقييد القتل بقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ ليخرج مِن هذا التَّكريم ما كان لغير هذه الغاية العظيمة، ثمَّ جاء التَّعبير بالطِّباق بين الموت والحياة في قوله تعالى: ﴿أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ﴾، والجمع بين الضِّدَّين يُوقع في النَّفس إدراك الفارق العظيم في التَّصوُّر بين المتضادات، وهو يحقِّق للنَّفس الحثَّ على اختيار خير الأمرين، وحثِّها على فضيلة الجهاد والانضمام للمجاهدين[٣]، ثمَّ وصف الأحياء بوصفين الأوَّل قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، والثَّاني: ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ وقُدِّم الوصف بالعنديَّة لأنَّه الأشرف لهم، والأكرم لمقامهم، فقدَّم ما هو آنس للقلوب، وألذُّ للأسماع، وهو قربهم مِن الله ﷻ، وأضاف تلك العنديَّة إلى اسمه الرَّب، فجعلهم مربوبين بنعمته، وتلك مقاماتٌ عاليةٌ مِن التَّشريف والرَّحمة، تغمر القلوب، ثمَّ ذَكَرَ ما تتحقَّق فيه لذَّتهم البدنيَّة مِن الرِّزق، فتكامل لهم النَّعيم الرُّوحيُّ والبدنيُّ، وجاء التَّعبير في الرِّزق بالفعل، للدلالة على تجدُّد هذا الرِّزق وتنوُّعه مبالغةً في النَّعيم المقيم الذي يقدمون عليه "وبمثل هذا يُقبل المؤمن على ربِّه، ويُسلِّم قياده لأمر نبيِّه، فيقوى الجمع المؤمن، وتشتدُّ شوكته، ويبرأ الصَّفُّ مِن تلك الثُّلمة، وذلك القرح "[٤]، وإثبات الرِّزق لهم تأكيدٌ لحياتهم التي أثبتها لهم[٥]،

(١) سنن أبي داود: كتاب الجهاد: باب في فضل الشهادة: حديث رقم: (٢٥١٢) (٣/ ٢٢٢) قال الألباني: حديث حسن.

(٢) النظم القرآني في آيات الجهاد: (٢٠٦).

(٣) ينظر: الموضع السابق.

(٤) نمو المعاني: (٢٠٦).

(٥) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٣٥).

فالرِّزق مِن خصائص الحياة.

الآية الكريمة فيها التَّرغيب في الجهاد، وبيان الفضل الذي أعدَّه الله للشُّهداء حثًّا لهم على القتال في سبيله، وتسليةً لنُّفوس ذوي الشهداء، ومسحًا على قلوب المكلومين بفقد ذويهم؛ ولأجل هذه الغاية التَّثقيفيَّة يواصل السِّياق عرض النَّعيم بقوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾، فجاء التَّعبير بالاسم في قوله تعالى: ﴿ فَرِحِينَ ﴾ إشارةً إلى الفَرَحِ الذي سكن قلوبهم، والرَّاحة النَّفسيَّة تجاه ما لاقوه مِن النَّعيم، بما يدلُّ عليه الاسم مِن الدَّيمومة والثَّبات، فناسب الاسم وصف الحالة النَّفسيَّة المتَّسمة بالثَّبات، ويأتي في سياق تأكيد هذا الإنعام الذي ملأ قلوبهم بالفرح أنَّ (ما) دلَّت على عموم ذلك النَّعيم وكثرته، فلمْ يُشِرْ فيه إلى نعيمٍ بعينه، بلْ طوت (ما) على ما ذاقوه مِن النَّعيم الخالد، وزادهم غبطةً أنَّ تلك النِّعم مِن فضل الله عليهم، خصَّهم بها، وعطف على الفرح قوله: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ فعدل عن الاسم إلى الفعل المضارع للدَّلالة على التَّجدُّد، ذلك أنَّ الفرح وصفٌ للحالة النَّفسيَّة التي غمرت النُّفوس، أمَّا الاستبشار فهو ما يعلو وجوههم مِن مظهر السُّرور بمن سيلحقهم مِن إخوانهم، وشأنه أنْ يتجدَّد بتجدُّد البشارة، فالفرح تعبير شعورٍ نفسيٍّ، والبشارة مظهرٌ ينتج عن الشُّعور يقول الرَّاغب: "وأبشرت الرَّجل وبشَّرته وبشرته: أخبرته بسارٍّ بَسَطَ بشرة وجهه، وذلك أنَّ النَّفس إذا سُرَّتْ انتشر الدَّم فيها انتشار الماء في الشَّجر"(١).

وقوله تعالى: ﴿لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾ في قوله: ﴿مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ ﴾، وتعليقه بالفعل قبله فيه دلالةٌ على أنَّ أولئك المجاهدين مقتدون بسابقيهم في هذا الطَّريق، سائرون على نهجهم "فهو قيدٌ فيه الخبرُ والحثُّ والتَّرغيب والمدح والبشارة، وهو مِن البلاغة بالمكان الذي لا يُطاول"(٢).

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (بشر).

(٢) تفسير المنار: (٤/ ٢٣٥).

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ نفى عن اللاحقين الخوف مِن المستقبل، والحزن على الماضي، يقول أبو السُّعود: "والمرادُ بيانُ دوامِ انتفاءِ الخوفِ والحزنِ لا بيانُ انتفاءِ دوامِهما كما يُوهمه كونُ الخبرِ في الجملة الثَّانيةِ مضارعًا، فإنَّ النَّفيَ وإنْ دخل على نفس المضارعِ يُفيدُ الدَّوامَ والاستمرارَ بحسب المقام"(١)، وهو يشير هُنا إلى أثر المقام والسِّياق في تحديد الدَّلالة، ولكنَّ مناط دوام النَّفي معلَّقٌ كذلك بتسلُّط النَّفي على الجملة، فالنَّفي أُدخل على النِّسبة في قوله: ﴿هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ولمْ يدخل على الفعل فيقال: (وهم لا يحزنون) حتَّى يُتوهَّم منه تسلُّط النَّفي على الفعل. كما أنَّ في جملة (ولا هم يحزنون) قصرٌ بإدخال أداة النَّفي على مسندٍ إليه خبره فعليٌّ، فنفى عن اللاحقين الحزن على ما فات، وأثبته لغيرهم لأنَّهم يتمنَّون الرُّجوع، قصر موصوفٍ على صفةٍ، وقدَّم الخوف على الحزن لأنَّ المقام مقام إعلام بفضل ما أقبل عليه الشُّهداء مِن النَّعيم، وهو مربوطٌ بالمستقبل المتعلِّق بالخوف، فقُدِّم للبشارة بخير ما سيقبلون عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وأُعيد فعل الاستبشار تأكيدًا وتقريرًا لمعنى البشارة(٢)، أو أنْ يكون الاستبشار الأوَّل متعلِّقٌ بحال إخوانهم اللاحقين، والاستبشار الثَّاني بما تفضَّل الله عليهم، فأُعيد فعل الاستبشار دلالةً على تعدُّد أسبابه، وفي هذا معلمٌ مِن معالم التَّثقيف يُنبئ عن صفاء قلوب أولئك المنعَّمين الذين آثروا الفَرَح والاستبشار لحال إخوانهم على الاستبشار بحال أنفسهم فهو"تنبيهٌ مِن الله تعالى على أنَّ فرح الانسان بصلاح أحوال إخوانه ومتعلِّقيه، يجب أن يكون أتمَّ وأكمل مِن فرحه بصلاح أحوال نفْسه"(٣) والتَّنكير في

(١) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٣).

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٩٥).

(٣) مفاتيح الغيب: (٩/ ٩٨).

﴿بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ﴾ للتَّعظيم[1]، والقيد﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ اعترافٌ منهم بأنَّ ما هـم فيـه مِـن النَّعيم إنَّما كان مِن عنده سبحانه لا بعملهم، والنِّعمة والفضل متغايران، ولـذلك وقـع العطف بينهما، فالأوَّل هو الجزاء، والآخر مازيد عليه منزَّلٌ على قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس:٢٦] فالنِّعمة هي الحسنى والفضل هو الزِّيادة[2].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ قرأ الكسائيُّ بكسر همزة (إنَّ) على الاستئناف مستدلًّا بقراءة عبد الله (والله لا يضيع أجر المؤمنين)، وقرأ الباقون بفتح الهمزة عطفًا على (بنعمةٍ مِن الله)[3]، فالقراءة الأولى بكسر إنَّ جعلت الجملة الثَّانية ليست مِن جملة ما يُستبشر به، والقراءة بالفتح جعلت نفي ضياع الأجر مِن جملة ما يُستبشر به، والمعنى في كسرها أكثر مبالغةً "لأنَّ كون العبد مشتغلًا بطلب الله أتمُّ مِن اشتغاله بطلب أجر عمله"[4]، ومزيَّة القراءة الثَّانية أنَّها جعلت ثمرة صبرهم وعدم ضياع أجرهم مِن جملة النِّعم المستحقَّة للبشارة والشُّكر، وأُكِّدتْ الجملة (بأنَّ)، وقدِّم المسند إليه على الخبر الفعليِّ المنفيِّ، وأُظهر اسمه الأعظم في موضع الإضمار تنبيهًا وتأكيدًا على عدله ﷻ، وذَكَرَ المؤمنين في موضع الإضمار ليُفيد علَّة الحكم، فما حصَّلوا مِن النَّعيم جزاء إيمانهم، كما أنَّ في ذكر المؤمنين تعميمًا للحكم بعد أنْ كان الكلام مخصوصًا بالشُّهداء[5].

وذكْر النَّعيم، وحال المنعَّمين يبعث في النَّفس الجدَّ والاجتهاد لوصول هذه المنزلة، يقول الزَّمخشريُّ: "وفي ذكر حال الشُّهداء واستبشارهم بمنْ خلفهم بعثٌ للباقين بعدهم على ازدياد الطَّاعة، والجدَّ في الجهاد، والرَّغبة في نيل منازل الشُّهداء

(١) ينظر: أنوار التنزيل: (٢/ ٤٨) و البحر المحيط: (٣/ ١١٦).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ١١٦).

(٣) ينظر: الحجة في القراءات السبع: (١١٦).

(٤) مفاتيح الغيب: (٩/ ٩٩).

(٥) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٤٠٨).

وإصابة فضلهم، وإحمادٌ لحال مَن يرى نفسه في خيرٍ فيتمنَّى مثله لإخوانه في الله، وبُشرى للمؤمنين بالفوز في المآب"(١)، كما أنَّ فيه تسليةً للمؤمنين الذين أُصيبوا في أهليهم وذويهم بما لاقوه مِن النَّعيم.

(١) الكشاف: (١/ ٣٣٦).

المبْحثُ السّابع: أثر التَّعبير عن المعنى بالجملة الخبريَّة أو الإنشائيَّة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ

في سياق تربية المؤمنين، واستخلاص الدُّروس والعبر من أحداث هذه الغزوة، والوقوف على الأسباب الحقيقية لما حلَّ بالمؤمنين من المصائب يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [آل عمران:١٦٥-١٦٨] فعاد السِّياق إلى عتاب المؤمنين مقرونًا بالتَّسلية، وجاء التَّعبير بالجملة الاستفهامية المفيدة للتَّقرير والإنْكار، جمعًا بين المعنيين، بتقريره أولًا ثمَّ إنكاره على جهة ما لا ينبغي وقوعه، ودخلت الهمزة على محذوفٍ[1] تقديره: أفعلتم مافعلتم مِن ترككم لأماكنكم وتفريطكم في أمر الرَّسول ﷺ؛ ولمَّا أصابتكم مصيبة قدْ أصبتم مثليها قلتم أنَّى هذا؟!، أو أنْ يكون المعطوف هو القول، فتكون الهمزة داخلة على الفعل والقول، وإنَّما قُدِّم الظَّرف لتأكيد التَّقرير والإنكار؛ لأنَّ فعل ما لا ينبغي في غير وقته، أو في الوقت المقتضي ضدَّه أشنع وأقبح وهو في الإنكار أبلغ[2].

أوْ أنْ يكـون المعطـوف عليـه عائـدًا إلى القصَّـة مِـن قولـه تعـالى: ﴿ وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ ﴾[آل عمران:١٥٢].[3]

---

(١) ينظر: الكشاف وإرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٨).

(٢) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٨) وحاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٩٣).

(٣) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٣٣).

والأثر التَّثقيفي للاستفهام فيه قرعُ النُّفوس للعودة والتَّأمل، والموازنة بين الأسباب والنَّتائج، فالاستفهام مِن الأساليب المثيرة للنَّفس لما في الاستفهام مِن معنى البحْث والطَّلب الذي يقود إلى التَّوبيخ والتَّقريع عند مواجهة النَّفس للحقيقة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ تذكيرٌ لهم في معرض العتاب الممزوج بالتَّسلية، بما أصابوه يوم بدْرٍ، وتذكيرٌ لهم بسنَّته الماضية في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فهو إنكارٌ ضمن الامتنان، ولذلك يشير إسناد الإصابة إلى المصيبة بالمجاز العقليِّ في يوم أُحُد، وإسناد الإصابة إليهم في يوم بدرٍ، ولمْ تُسند إلى المصيبة كما تقدَّم تذكيرًا بذلك الانتصار العظيم، فهو لزيادة الامتنان المفضي إلى تعظيم الإنكار عليهم(١).

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ وهذا السُّؤال واردٌ مِن المؤمنين على سبيل التَّعجُّب والدَّهشة، واستبعاد أنْ يُصابوا بذلك وهم يقاتلون في سبيل الله؛ والتَّعبير باسم الإشارة "لما أنَّ إشارتَهم ليست إلَّا إلى ما شاهدوه في المعركة مِن حيث هو هو مِن غير أنْ يَخطُر ببالهم تسميتُه باسمٍ ما فضلًا عن تسميته باسم المصيبةِ"(٢)، وجاء الجواب ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾ صريحًا لمواجهة تلك الأخطاء بالعودة إلى النُّفوس، وفيه تقرير مبدأ المحاسبة والمراقبة الفرديَّة، فكما أنَّ النَّصر يتحقَّق بالانتصار على النَّفس أوَّلًا، فكذلك تقع الهزيمة لاختلال علاقات النُّفوس بالله ﷻ، والله ﷻ حين يعرض في السِّياق مايُعالج به تلك المصيبة التي حلَّت بالمسلمين فإنَّ ميدان النَّفس الإنسانيَّة تحتلُّ جزءًا كبيرًا مِن الخطاب بمسؤوليتها الفرديَّة التي يتحصَّل الانتصار الجمعيُّ فيها بالبناء على انتصار الأفراد على نفوسهم.

وفيه أنَّ المنَّة أُسندت إلى الله ﷻ، والمصيبة أُسندت إلى النُّفوس، وذلك تقلُّبٌ

(١) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٣٢٨).
(٢) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٩).

للنَّفس بين فضله وعدله[١]. ثمَّ ذُيِّلت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفصلت تأكيدًا لما سَبَقَ لأنَّ قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أيْ ليس مِن جهة نقص القُدرة، ثمَّ جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تأكيدًا لذلك. وهو تأكيدٌ مِن جهة موقع الجملة، وتأكيدٌ مِن جهة البناء بتأكيد الجملة بـإنَّ واسميَّة الجملة، وتقديم المتعلق على الخبر، وفي ذلك تنويهٌ بقدرته التَّامَّة في تحقيق النَّصر ومنعه، وتحذيرٌ لهم مِن أنَّ ما أصابهم لمْ يكن إلَّا لوَهَنٍ في تمسُّكهم بما أمر به، وليس مِن ضَعْفِ قدرته، فهو القادر على كلِّ شيء[٢]. ويجوز أنْ يكون في الآية الكريمة تطييبٌ للنُّفوس بمزج التَّقريع بحلاوة الوعد بالنَّصر[٣]، وحينئذٍ لا تكون تذييلًا، بلْ يكون كلامًا مستأنفًا لبثِّ الأمل في النُّفوس بعد التَّقريع.

فنلحظ التنويع بين أساليب الخبر والإنشاء، إثارةً لشجون المخاطبين، وتقريرًا للحقائق، وحتَّى يدفع عن النُّفوس ما قدْ تتوهَّمه مِن خروج الأمر عن القدرة والسَّيطرة قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فبنيت الجملة على غرار جملة الشَّرط، ورُبِط بين السَّبب ومسبِّبه، فالمعنى أنَّ ما أذن الله فيه هو ماأصابكم، ولكنْ قدَّم ما دلَّ على الإصابة؛ لأنَّه الأقرب لحسِّهم، والأهمُّ في نفوسهم[٤]، فسياق الآيات فيه تأكيدٌ على الإيمان بأنَّ النَّصر والمصيبة كلاهما قَدَرُ الله ﷻ، وكلاهما داخلٌ في نظامه وسنَّته في الكون، ثمَّ عَطَفَ بالواو قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ليدلَّ على أنَّ الحِكَم عديدةٌ، ومِن أهمِّها تمييزُ أهل الإيمان مِن أهل النِّفاق.

ثمَّ أعاد الفعل في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ

(١) ينظر: زاد المعاد: (٣/ ٢٠٧).

(٢) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ١٠٨).

(٣) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٣٢٩).

(٤) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٩٠).

﴿بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ ويُوحي فصل الآيتين بمدى التَّفاوت بين المقامين، وفي هذا السِّياق يُعاد الفعل تأكيدًا للعلَّة مِن جهةٍ، ولتشريف المؤمنين بألَّا ينتظم المنافقون في سلك الحديث عن المؤمنين، تكريمًا لعباده المؤمنين مِن جهةٍ أُخرى، وذلك التَّشريف للمؤمنين ترغيبٌ لهم في التَّمسُّك بهديه، وتنفيرٌ لهم أنْ يتَّصفوا بصفات المنافقين، يقول البقاعيُّ: "ولمَّا كان تعليق العلم بالشَّيء على حدته أتمُّ وآكد مِن تعليقه به مع غيره أعاد العامل لذلك، وإشعارًا بأنَّ أهل النِّفاق أسفل رتبةً مِن أنْ يجتمعوا مع المؤمنين في شيءٍ"[(١)]، وجاء التَّعبير في وصف المؤمنين باسم الفاعل، وفي المنافقين جاء الفعل في حيِّز الصِّلة؛ إشعارًا بثبات المؤمنين بما يدلُّ عليه الاسم مِن الدَّيمومة والثَّبات، وإشارةً إلى صدور الفعل مِن المنافقين وحدوثه بدلالة الفعل على الحدوث[(٢)].

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ﴾ قيل معطوفٌ على الفعل قبله داخلٌ في حيِّز الصِّلة، ويجوز أنْ يكون استئنافًا[(٣)]، وبُني الفعل لما لمْ يُسمَّ فاعله اهتمامًا بشأن الفعل؛ لأنَّه مدار المحاجَّة عليهم، ولم يُعطف فعل الأمر (قاتِلوا) على (تعالوا) للاستئناف البيانيِّ كأنَّه إجابةٌ عن تعليل ذلك الإقبال، أو لما أنَّ المقصود بهما واحدٌ، والعطف يدلُّ على المغايرة، وإنَّما كان الأوَّل توطئةً للثَّاني للدَّلالة على التَّظاهر والتَّعاون[(٤)]؛ لما في الفعل (تَعَالوا) مِن التَّهيئة النَّفسيَّة والتَّلطُّف للأمر بعده. فدعاهم إلى القتال في سبيل الله، ومِن ثمَّ كان أمرهم بالقتال في سبيل الله أوالخروج للدِّفاع بتكثير سواد المسلمين، والتَّخيير هنا على سبيل التَّدلِّي؛ لأنَّ الخروج لغرض القتال لاشكَّ أنَّه أشرف، وقُدِّم القتال على الدِّفاع للدَّلالة على فضله وشرفه، ففيه"تصريحٌ

(١) نظم الدرر: (٢/ ١٧٩).

(٢) ينظر: مفاتيح الغيب: (٩/ ٨٧) وإرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٩).

(٣) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٣٤).

(٤) ينظر: التبيان في إعراب القرآن: (١/ ٢٤٣) و إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٠).

بأنَّهم قدَّموا طلب الدِّين على طلب الدُّنيا، وذلك يدلُّ على أنَّ المسلم لا بُدَّ وأنْ يُقدِّم الدِّين على الدُّنيا في كل المهمَّات"[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾ لَّما خُيِّروا بين القتال أوالدِّفاع، استدعى المقام إثارة سؤالٍ عن موقفهم مِن هذه الدَّعوة، كأنَّه قيل ماذا صنعوا حين خُيِّروا؟فجاء الجواب: ﴿قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ﴾، فالفصل للاستئناف البيانيِّ، وقولهم: ﴿لَوۡ نَعۡلَمُ﴾، عبَّر بالمضارع للدَّلالة على نفي العلم نفيًا مستمرًّا في الماضي والمضارع والمستقبل[2]، والقائل هو عبد الله بن أبيٍّ رأس النِّفاق حين عاد بثلث الجيش، ومعنى العلم هنا إمَّا أنْ يُحمل على إحسان القتال ومعرفته، قالوا ذلك استهزاءً، فيكون مِن حمل العلم على معنى القُدْرة؛ لأنَّ القدرة على الشَّيء تستلزم العلم بها[3]، ونكتة التَّعبير المبالغةُ في نفي القدرة على النُّصرة والمعاونة، أو أنْ يكون المعنى ما يصحُّ أنْ يُسمَّى قتالًا[4].

وجاء التَّعبير بتعليق الاتِّباع بوجود القتال، ولَّما انتفى العلم انتفى الاتِّباع على سبيل المكابرة بالاستهزاء أو التَّخطِئَة[5]، ونلحظ أنَّ التَّعبير لمْ يأتِ بالقتال، فلمْ يقُل: لو نعلم قتالًا لقاتلنا معكم، ولكن قالوا لاتَّبعناكم، وذلك دلالةً على غاية تثبُّطهم، وتقاعسهم عن النُّصرة[6]، فالآية الكريمة تكشف تقاعس المنافقين عن النُّصرة، وتُظهر في طوايا خطابهم ما يدلُّ على الخُذلان، ومخالفة أمر المؤمنين، ممَّا ينبغي للمسلم الحذر منه.

---

(١) مفاتيح الغيب: (٩/ ٨٧).

(٢) ينظر: حاشية القونوي على البيضاوي: (٦/ ٣٩٧).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٠).

(٤) ينظر: أنوار التنزيل: (٢/ ٤٧) وإرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٠).

(٥) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ١٠٩).

(٦) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٠).

وقوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ قُدِّم المتعلِّق (للكفر)؛ لأنَّه موضع الاهتمام في السِّياق، فكان تقديمه لتعظيم خطر المعتقد الذي يُبْطِنُونه، وأنَّه أوصلهم إلى الاقتراب مِن الكفر المناقض للإيمان. والتَّعبير بالقرب مع أنَّ امتناعهم عن الجهاد، وسعيهم لمخالفة أمر الرَّسول ﷺ عملٌ مِن أعمال الكفْر، مع سابق علمه بما يُبطنون مِن الكفْر "تأديبًا لهم عسى أنْ يتوب منهم مَن لمْ يتمكَّن الكُفر في قلبه، ومنعًا للنَّاس مِن الهُجوم على التَّكفير"[(١)].

قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ فُصِلتْ الجملة بعد أنْ ذَكَرَ الله ﷻ ميلهم للكفر، واستدعى ذلك الحُكم سؤالًا عن كيفيَّة جعلهم إلى الكفر أقرب؟، فأُجيب بما في هذه الجملة، فهي مِن الاستئناف البيانيِّ، ويرى الألوسيُّ أنَّ الفصل وقع لأنَّها جملةٌ مبيِّنةٌ لما سَبَقَ فهو مِن كمال الاتِّصال، والتَّعبير بالمضارع للدَّلالة على تجدُّد ذلك، لأنَّها صفةٌ مِن صفات المنافقين في كلِّ زمانٍ ومكانٍ تتجدَّد في المواقف والأزمات، والمنفيُّ عن القلوب هو ذاته المثبت بالأفواه، بوصفه بحالين مختلفين، وقوله: ﴿بِأَفْوَاهِهِم﴾ تأكيدٌ لصدور الكلام المخالف لما في القلوب، ودفعٌ للمجاز[(٢)].

والإخبار عن أولئك بمخالفة ألسنتهم لقلوبهم يعكس مظهرًا مِن مظاهر الاختلال النَّفسيِّ عند أولئك، ومدى التَّخبُّط في حمل شعاراتٍ لا تنبثق مِن عقيدةٍ، ولا قناعةٍ، وتلك صورةٌ منفِّرةٌ تحذِّر المؤمنين مِن الاتِّصاف بها، أو الانخداع بدعاواها.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ خُتمت الآية بالوعيد والتَّهديد المستفاد مِن تقرير علمه بما تُكنُّه الصُّدور، وما تخفيه القلوب، وصيغة التَّفضيل في (أَعْلَم) لأنَّ المؤمنين يعلمونه علمًا مُجملًا، والله ﷻ يعلمه علمًا مفصَّلًا[(٣)].

---

(١) تفسير المنار: (٤/ ٢٢٩).

(٢) ينظر: بحر العلوم: (١/ ٣١٤).

(٣) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١٠).

والتَّصريح بعلمه بما تكنُّه القلوب مِن الزَّيغ، وفساد الباطن، يجعل الإنسان وَجِلًا قَلِقًا مِن وعيد الله، فكأنَّ إبهام الجزاء هو جزءٌ مِن العذاب النَّفسيِّ الذي يزيدهم حيرةً إلى حيرتهم.

ويواصل السِّياق القرآنيُّ كشف شبهات المنافقين المثبِّطة، والرَّدَّ عليهم فيقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾، وجملة الصِّلة بدلٌ مِن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾ والتَّعبير به لأنَّ مضمون الصِّلة أشهر عند السَّامعين، فذُكروا به ليتميَّزوا في أذهان المخاطَبين[1]، وقوله تعالى: ﴿وَقَعَدُواْ﴾ وقعت اعتراضًا سواءٌ كانت حالًا بتقدير (قدْ) أو معطوفةً على الصِّلة، وجاءت الكلمة متمركزةً في موضعها فحقَّقت الانسجام الصَّوتيَّ المريح بين نهاية الجملتين (قعدوا) و (قُتِلوا)[2]، ومِن جهة المعنى والتَّركيب فإنَّ تقديم (وقعدوا) جاء تنبيهًا إلى أنَّ هذا القول صادرٌ مِن المثبِّطين القاعدين، فهو منسجمٌ في معناه مع القول؛ ليجمع إلى النِّفاق القوليِّ النِّفاق الفعليَّ.

إذنْ فالقول قول المنافقين، قالوه لأجل إخوانهم في النَّسب والصِّهر مِن الذين قُتلوا؛ تحسيرًا لذويهم، وتثبيطًا لبقية المؤمنين فقالوا: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ وهذا القول يحمل الاعتداد بأنفسهم وبرأيهم، واتِّهامًا مبطَّنًا إلى الرَّسول ﷺ، لأنَّه أعرض عنهم، وخرج مع أصحابه إلى الغزوة، ورُتِّب في هذه الجملة نفي القتل على طاعتهم نفيًا مؤكَّدًا بما تُفيده (ما) من تأكيد النَّفي، واستعمال الفعل المبني لما لمْ يُسمَّ فاعله للتَّركيز على الحَدَثِ.

فالشُّبهة الموجَّهة إذنْ أنَّ البقاء وعدم الخروج للقتال هو طريق النَّجاة بسلامة النَّفس مِن القتل، فجاء الجواب مِن الله تعالى آمرًا الرَّسول ﷺ بمخاطبتهم؛ لأنَّهم لا يستحقُّون

(١) ينظر: التحرير والتنوير: (٤/ ١٦٤).

(٢) ينظر: تأملات في سورة آل عمران: (٤٩٥).

شَرَفَ مخاطبة الله لهم فقال: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، والفصل هُنا للاستئناف البيانيِّ، والأمر في قوله تعالى: ﴿فَادْرَءُوا﴾ للاستهزاء والتَّحقير "أيْ إنْ كنتم رجالًا دفَّاعين لأسباب الموت، فادْرؤا جميع أسبابه حتَّى لاتموتوا"[1]، وتقديم ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾؛ لأنَّ الخطاب للمنافقين، ونفس المنافق أعزُّ عليه مِن كلِّ شيءٍ، فجاء تقديم المتعلِّق لما له مِن أهميَّةٍ عند المخاطَب، والفاء وقعت في جواب الشَّرط لفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه السِّياق، أو قدِّم جواب الشَّرط على فعله ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ بتعليق دفع الموت عن أنفسهم بصدقهم. وَرَدَّ الله شبهتم بالحجَّة القاصمة، فإنْ كنتم جعلتم القتال سببًا للموت، وقدَّمتم القعود على القتال لكي لا يتخطَّف الموت أرواحكم، فادفعوا عن أنفسكم سببًا آخر للفناء وهو الموت، لأنَّ الموت نهايةٌ حتميَّةٌ سواءٌ كان بالقتل أوبغيره، ومفهوم هذا الكلام أنَّ الموت سيحلُّ بكم، فليست سلامة مَن قَعَدَ لأجل تركه للقتال، بلْ لأنَّ الله لمْ يكتبْه له "فإن أسبابَ الموتِ في إمكان المدافعةِ بالحِيَل وامتناعِها سواءٌ، وأنفسُكم أعزُّ عليكم مِن إخوانكم، وأمرُها أهمُّ لديكم من أمْرِهم"[2]، وهذه الشُّبهة هنا مِن جنْس الشُّبهة هناك في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:١٥٤].

الآية الكريمة بمفهومها تحذِّر أهل الإيمان مِن زيف تلك الدَّعاوى، خاصَّةً أنَّها دعاوى تسير مع أهواء النَّفس وفطرتها في حبِّ البقاء، ولكنَّها في الوقت ذاته تضرب العقيدة في أساسها، وتهدم ما أُسِّس عليه التَّصوُّر الإسلاميُّ في حقِّ تسليم الأمور لله والتَّوكل عليه، والإيمان بقضائه وقدره، وتكشف عن فسادٍ عظيمٍ في العقل والمنطق الذي يقيس الأمور ويقدِّرها بمقاييس مادِّيَّةٍ لا ترى أيَّ معنًى سوى مافي الحياة، هذه المكاشفة الصَّريحة لما في نفوس المنافقين، يعرضه القرآن للمؤمنين؛ ليدركوا الضَّغينة التي تملأ قلوب أعدائهم "وكان مِن حكمة هذا التَّقدير تكلُّم المنافقين بما في نفوسهم،

(١) الكشاف: (١/ ٣٣٥).

(٢) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١١١).

فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدَّى النِّفاق وما يؤول إليه، وكيف يحرم صاحبه سعادة الدُّنيا والآخرة، فيعود عليه بفساد الدُّنيا والآخرة"(١).

---

(١) زاد المعاد: (٣/ ٢٠٨).

الفصل الرابع

أثرُ تخييل المعنى للسَّامع
في تحْقيقِ التَّثقيفِ النَّفسيِّ

وفيه مبحثان : -

- **المبحث الأوَّل**: التخييل بالزَّمن.
- **المبحث الثَّاني**: التَّخييل بالأساليب التَّصويريَّة.

* *   * ** *   * *

المبْحثُ الأوّل:
التَّخييل بالزَّمن

استهلّت آيات غزوة أُحُدٍ بإثارة عنصر الزَّمان لحمل السَّامع على تخيُّل أحداث تلك الغزوة، ليعيش أحداثها، بمافيها مِن دروسٍ وعبرٍ؛ ليكون أعظم وقعًا على النُّفوس فيقولُ اللهُ ﷻ: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٢١-١٢٢].

يبتدئُ السِّياقُ بتخييل الحَدَثِ باستحضارِ الزَّمنِ بالظَّرف (إذ) ليكون استحضار الزَّمن وسيلةً لاستحضار الأحداث الجارية فيه، ثمَّ بالفعلِ الماضي (غَدَوْتَ) وهو تحديدٌ لفعلِ الخُروجِ في زمنٍ معينٍ، وتحديدُ الزَّمن في القصَّةِ القرآنيةِ يعينُ على فَهْمِ القصَّةِ كأنَّها ماثلةٌ للعَيانِ(١).

ثمَّ ينتقلُ السِّياقُ نقلةً بصريةً باستحضارِ الفعلِ (تُبوِّئُ) بصيغته الحاضرةِ حتَّى كأنَّكَ تُبصرُ النبيَّ ﷺ، وهو يُنزِلُ صحابتَه المؤمنينَ منازِلَهم، ويُعرِّفُهم أماكنَهم، ويحثُّهم على البقاءَ فيها، والتزامَ تلك المواطنِ، ويرسُم لها خُطَّةَ المعركَةِ، ثمَّ تنتهي تلكَ الصُّورةُ الملآنةُ بهيبةِ أرضِ المعركةِ، وساعاتِ ما قبلَ القتالِ، لينتقلَ بنا السِّياقُ إلى صُورةٍ أخرى بالفعلِ الماضي (هَمَّتْ) مُصوِّرًا الفعلَ في دلالتِه الماضيةِ، ثمَّ ينتقلُ إلى الفعلِ الحاضرِ (تَفْشَلا) بكلِّ ما يُميِّزُ الفعلَ المضارعَ عن الاسمِ من تَوقُّد المعنى، وحَرَكتِهِ في النُّفوسِ.

وكأنَّ السِّياقَ يرسُمُ خطًّا مُحدَّدًا في التَّخييلِ يبتدئُ بالفعلِ الماضي انْطلاقًا مِن نُقطَةِ الحَدَثِ (غَدوتَ، همَّتْ)، ثمَّ ينْتَهي بالفعلِ الحاضرِ نُقطةِ الغايةِ (تُبوِّئُ، تَفْشَلا)، فهيَ صُورةٌ تَضعُ السَّامعَ في زمَنِ الحَدَثِ الماضي، ثمَّ تتخطَّى به تلكَ المشاهدَ والمواقفَ

(١) ينظر: الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم لنذير حمدان: (٨٩)، نشر دار المنارة، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

حتَّى تجعلَه حاضرًا سامعًا مُبصِرًا في قَلْبِ الحَدَثِ.

والانتقال مِن زمنٍ إلى زمنٍ، ومِن مكانٍ إلى مكانٍ ومِن حدثٍ إلى حدثٍ، والمكاشفة في ما كانت تكنُّه الضَّمائر وما يختلج في القلوب، واستحضار تلك الصُّور بحرارتها كأنَّها اللحظة؛ فيه إشعارٌ بأنَّ المولى ﷻ قريبٌ منهم، مطَّلعٌ على سرائرهم كما يطَّلع على العلانية، وهذا يدفعهم إلى الحرص على أنْ يقْصُروا توكُّلهم على الله وحده.

ومِن عناصر التَّخييل في الآية مايخيِّله الصَّوت في كلمة: ﴿هَمَّت﴾ بتشكيلِها من الحركةَ الخفيَّةَ في خَوَالج الشُّعورِ، وتلك مزيَّة من مزايا الكلمة المخيِّلة في القرآن، يقولُ الرافعيُّ :" وليسَ إلاَّ أنْ تَقْرَأهُ [أيْ القرآنَ] حتّى تُحسّ مِنْ حُروفِه وأصواتِها وحركاتِها، ومواقع كلماتِه وطريقةِ نظْمِها ومُداورتِها للمعنى بأنَّه كلامٌ يَخرُج مِن نَفْسِكَ، وبأَنَّ هذه النَّفسَ قدْ ذَهَبَتْ معَ التِّلاوةِ أصواتًا، واستحالَ كلُّ مافيكَ مِنْ قُوَّةِ الفكرِ والحِسِّ إليها، وجَرَى فيها مجرى البيَانِ، فصِرْتَ كأنَّكَ على الحقيقةِ مَطْوِيٌّ في لسانِكَ "(١).

وهُوَ بهذَا يُشيرُ إلى قُدْرَةِ البيانِ القُرآنيِّ على أنْ يَتمثَّلَ كُلَّ ما في النَّفسِ مِن خَطَراتٍ بِجَرْسِ الكَلِمَةِ وصوتِ حرُوفِها، حتَّى تُصبحَ الكلمةُ المسموعةُ صورةً مرئيَّةً في الذِّهنِ لتلكَ الخَلَجَاتِ والخَوَاطِرِ، فالفعلُ (هَمَّ) مُضَعَّفٌ ثُلاثيٌّ، و"الهاءُ والميمُ: أَصلٌ صحيحٌ يَدلُّ على ذَوْبٍ وجَرَيانٍ ودَبيبٍ وما أشبَهَ ذلكَ"(٢)، والتَّردُّدُ والتَّلَكُّؤُ وما أشبههما هي معَانٍ جاريةٌ مجرى الجَرَيانِ والذَوَبانِ والدَّبيبِ مِنْ حَيثُ اعتمادُها على الحركةِ في صُورتِهَا. وكلمة(هَمَّ) تتكوَّنُ مِن الهاءِ والميمِ المشدَّدةِ. والهاءُ حرفٌ لهُ صوتٌ ضعيفٌ خفيٌّ(٣)، ويحملُ دَلالةَ السُّكونِ والخَفَاءِ وهكذا تَلحظُهُ في بعضِ الألفاظِ مثلُ:

---

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية. : (١٧٥)، راجعه واعتنى به: أ. نجوى عباس نشر مؤسسة المختار، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م.

(٢) مُعجمُ المقاييسِ في الُّلغةِ: (هم).

(٣) ينظر:التمهيد في علم التجويد لابن الجزري: (١٤٦)، تحقيق: الدكتور علي حسين البواب، نشر مكتبة =

(هُدُوءٍ) و (هَـواءٍ)[1]، وهـو يُخيِّلُ الـتَّردُّدَ الـذي خَـالجَ نُفُوسَـهم، وتَـأتي المِيمُ المشـدَّدةُ مجهورةً بانْطباقِ الشَّفتينِ لتُصَوِّرَ كذلكَ شِدَّةَ الاضْطرابِ الذي تَمَوَّجَ في النُّفوسِ، فلعلَّ تركيبَ هذه الحروفِ يُقدِّمُ صُورةَ الاضْطرابِ والتَّردُّدِ في الخَفَاءِ، ثمَّ تَنْتَهي بتَاءِ التَّأْنيثِ الساكنةِ ليُصْبحَ مَقْطعًا مُقْفَل الصَّوتِ، يَنْتَهي بسكونٍ ينَقْطِعُ معَه الصَّـوتُ، وعـادةً مـا يسْـتخدِمُ القُـرآنُ السُّـكونَ الحـيَّ في التَّعبـيرِ عـنْ الانْفعـالاتِ الشَّـديدةِ، والحَرَكـاتِ العَنيفَةِ[2].

وهكذا تَجِدُ القُرآنَ " يُراعي.. التَّناسُـبَ بـينَ الإيقـاعِ الصَّـوتيِّ والمعـاني، ويُسَـخِّرُ هـذا الإيقـاعَ لرسـمِ صُـورِ المعـاني في الخَيـالِ، ولإثـارةِ الإحسـاسِ بهـا في نُفُـوسِ المُخاطَبينَ"[3].

ومن عناصر التَّخييل في الآيـة مانلحظه في قولـه تعـالى: ﴿تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، فيُفهمُ مِن السِّياقِ أنَّه بوَّأهُم أماكنَ لا يَبْرحونَهَا، فأنْزَلهم فيها، وطَلَـب منهم الثَّباتَ في تلك المواطنِ، وليُخيِّلَ القرآنُ هذا المعنى في ذِهـنِ السَّـامعِ جـاءَ إِطْـلاقُ لفـظِ (مقاعدِ) على الأماكِنِ والمواطنِ حتّى كأنَّهم مِن شدَّةِ مُكْثِهم وملازمتِهم لتلكَ الأماكنِ اتَّخذُوها مقاعدَ مُستقرينَ فيهـا لا يُغادرونهَـا، وحتَّـى لا يُفهـم مـنْ تلـك المقاعـدِ طَلَـبَ الدَّعةِ والرّكونَ والتخَّاذُلَ في الحربِ ميَّزها أنَّها ﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

= المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(١) يَذْهبُ العَلاّمةُ محمودُ شاكرٍ إلى إعطاءِ قِيَمٍ معنويَّةٍ لكُلِّ حَرْفٍ منْ حُروفِ اللُّغةِ، وذلكَ في مقالاتٍ نشرَها في مجلَّةِ الرِّسالةِ وأَطْلَق عليه (عِلْمُ معاني أصْواتِ الحرُوفِ) واكْتفَى فيه بِدَلالـةِ الهَمْـزَةِ. ينظر: جمهرة مقالات الأستاذ محمود شاكر: (٢/ ٧٠٨ - ٧٣٤)، جمع وقرأها وقدم لها: د. عادل سليمان جمال، نشر- مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى. ولعل تأصيل مثل هذه القضية يعود إلى ما نبَّه إليه ابن جني ومن سبقه في كتابه الخصائص، ينظر مثلا: باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني: (٢/ ١٥٢).

(٢) ينظر: التناسب البياني في القرآن " دراسة في النظم المعنوي والصوتي " للدكتور أحمد أبو زيد: (٣٢١ و ٣٢٣)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٢م.

(٣) السَّابق: (٣٠٩).

فالثَّبات في المعركة معنى يريد أن يؤصله القرآن في النُّفوس، فلـمَّا خُيِّل في ذهن السَّامع تلك الأماكن مقاعد كان تأكيده للمعنى أقوى وأبلغ من الحقيقة؛ لأنَّ الصُّورة القائمة في النَّفس استدعت المعاني اللازمة لها كالثَّبات والاستقرار.

ويكون التَّخييل الزَّمنيُّ عنصرًا فاعلًا في عقد المفارقة بين صورتين متضادتين كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣] فقوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾ جَعَلَنَا أمام صورتين نفسيتين، الصُّورة الأولى مفعمةٌ بالإقدام، وتمنِّي القتال، وانتظار ساعة النَّفير، والصُّورة الأخرى تعكس مِن خلال وصف الحواس الرَّهبةَ التي سيطرتْ على قلوب فريقٍ مِن المؤمنين، وتحول ذلك الإقدام إلى ضعفٍ وفشلٍ.

استحضار الصُّورة فيه مكاشفةٌ للنُّفوس التي لَمْ تقدِّر الفارق الكبير بين الكلمة والفعل، وبين الأماني والواقع الميدانيِّ العمليِّ، فهو يُرشد المؤمنين إلى ضرورة تحمُّل مسؤولية الكلمة، وحساب تبعاتها، ثمَّ إتْباع القول بالفعل.

ويمتزج تخييل المعنى في ذهن السَّامع بنبرة عتابٍ لها وقعها المؤثِّر في النُّفوس، وذلك بتخييل السَّاعات العصيبة في المعركة، والتحوُّلات السريعة، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران:١٥٢-١٥٣]، فيُخيَّل في ذهن السَّامع اللحظات الأولى في المعركة، حين كانت الغَلَبَة للمؤمنين، فأنفذ الله وعده لثباتهم، ويستحضر السِّياق هذه الصُّورة بالظَّرف الدَّال على الزَّمن، واللحظة الحاملة للحدث، ثمّ استعمال صيغة المضارع للفعل؛ لتخييل الحدث للسَّامع في لحظته

ومِن ثَمَّ يُخبر الله ﷻ عن امتداد هذا القتل والحَسِّ حتَّى حصول الفشل في النُّفوس، والنِّزاع بين الجيش، وعصيان أمر القائد. ويأتي استحضار الزَّمن على سبيل التَّعجيب والعَجَب مِن خلال صورةٍ ملآنةٍ بإيحاءات العتاب اللطيف فقال: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ﴾، ويفتح الإبهام بما تقدير ما حُبِّب إليهم، ثمَّ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ﴾، ولاستعمال حرف العطف (ثمَّ) أثره في التَّخييل؛ ليوحي باختلاف الأحوال وتبدُّلها وشدَّتها، كأنَّه ابتداء طوْرٍ جديدٍ مِن أطوار المعركة كما يُفيد الإشعار "بالتَّفاوت الكبير بين المقصد الأصليِّ الذي خرجوا مِن أجله، وهو النَّصر والحصول على الغنيمة، وبين النَّتيجة التي انتهوا إليها وهي العودة مقهورين"[(١)]، وهو يغرس في النُّفوس لطف الله ﷻ بهم، إذْ دبَّر الأمر بحكمته ولطفه بما يحقِّق فيه للمسلمين التَّربية والعبرة.

بعد ذلك يعرض الله ﷻ في هذا السِّياق مشهدًا آخر مِن أكثر المشاهد تأثيرًا فيقـــــول: ﴿إِذۡ تُصۡعِدُونَ وَلَا تَلۡوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٖ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ فِيٓ أُخۡرَىٰكُمۡ﴾ والتَّخييل هنا يحمل في طيَّاته العَتَب واللوم، مع اشتداد توتُّر الأحداث، وقوَّة التَّخييل "فبحيويَّة العرض في القصَّة، وقوة التَّخييل والتَّصوير فيها، وتهيئة اللحظة الحاسمة التي تبلغ فيها حرارة الانفعال النَّفسيِّ درجة الانصهار، يحصل مِن التَّأثير بالتَّوجيه التَّربويِّ ما لا يحصل عند إقحام ذلك التَّوجيه على النَّفس وهي في راحتها واسترخائها، أو في انطلاقها وتحرُّرها"[(٢)]

ويرحل السِّياق بالأذهان إلى اللحظة الزَّمنيَّة التي حملت الأحداث، وذلك بتعليق الظَّرف (إذ) بمقدَّرٍ قبله تقديره اذْكُروا، ويجوز أنْ يتعلَّق الظَّرف بفعلٍ مِن الأفعال المتقدِّمة، إلَّا أنَّ تلك الأفعال وقعت في جملةٍ مستقلَّةٍ يحسُن السُّكوت

---

(١) التفسير الوسيط: (١/ ٧٦٨).

(٢) الإعجاز القصصي في القرآن للأستاذ الدكتورسعيد عطية مطاوع: (١٢٩)، نشر دار الآفاق العربية، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

عليها[١]، ويتمُّ بها المعنى، فتقدير الفعل أولى.

ومِن أساليب التَّخييل في الآية توالي الأفعال بصيغتها الحاضرة الآنيَّة ﴿تُصْعِدُونَ﴾ و ﴿تَلْوُنَ﴾ و ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ حتَّى كأنَّ تلك الأحداث ماثلةٌ أمام السَّامع.

وتخييل الحدث جاء بإبراز ثلاث صُورٍ للموقف، صورةٍ متعلِّقةٍ بالأشخاص الذين أصعدوا وأخذوا في بطن الوادي فرارًا مِن الموت، وإمعانًا في الهزيمة، وصورةٍ تتعلَّق بحالهم مع الآخرين ﴿وَلَا تَلْوُنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾، ولَوَى الشَّيء إذا أمَالَه، فيُقال لَوَى يده يلويها، ولَوَى رأسه: أماله[٢]، والمعنى أنَّهم جدُّوا في السَّير والانهزام، فلا ينتظرون ولا يقفون؛ لأنَّ مِن شأن المنتظِر أنْ يَلْوِيَ عنقه، فهو إيذانٌ بمبالغتهم في الفرار، والجدِّ"في الهروب حتَّى إنّ الواحد ليدوس الآخر لو تعرَّض في طريقه"[٣]

ثمَّ تتناول الصُّورة الثَّالثة موقف الرَّسول ﷺ وهو ينادي أولئك ومنَ في الجيش إليّ عباد الله.. إليّ عباد الله[٤]، فقال تعالى: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ وتقديم ذِكْرِ الرَّسول ﷺ له أهميَّته في بناء التَّخييل؛ لأنَّ النُّفوس حين تتابع هذا المشهد تتشوَّق لمعرفة حاله وموقفه، كما أنَّ فيه تعظيمًا لشأنه وشأن الموقف، فإذا كان الرَّسول وهو الذي دعاكم فعاهدتم الله على نصرته تركتموه وهو يدعوكم في مؤخِّرة الجيش، وذِكْر المتعلِّق ﴿فِيٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ تخييلٌ لموقعه من الجيش، وفيه مدحٌ للنَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّه صامدٌ في موقف الأبطال الذين يتأخَّرون عن الجيش حتَّى إذا التحمت السُّيوف، واشتدَّ القتل والطَّعن أثخنوا في الأعداء مِن حيثُ ظنَّ عدوُّهم بلوغه المنتهى. فالتَّخييل

---

(١) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٨٢).

(٢) ينظر: معجم المقاييس في اللغة: (لوي).

(٣) التحرير والتنوير: (٤/ ١٣١).

(٤) ينظر: تاريخ الطبري: (٢/ ٥١٩ و ٥٢٠) و السيرة النبوية لابن كثير: (٣/ ٤٤)، تحقيق: د. مصطفى عبد الواحد، نشر مطبعة عيسى البابي، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

يعرض إذن هذه المشاهد؛ ليمثِّل حالة الذُّعر والشَّتات، كما يصوِّر ثبات الرَّسول ﷺ.

والتَّخييل هنا له أثره التَّثقيفيُّ العميق في نفس السَّامع؛ لأنَّه يعرض صورةً مؤلمةً كانت نتيجة مخالفة أمر الرَّسول ﷺ، ونتيجة الفشل والاختلاف، فكانت عاقبة ذلك الخوف والقلق والفرار، وهو يحمل المؤمن الصَّادق على الأسف والنَّدامة الشَّديدة، ويكون في تخييل هذا المعنى تربيةٌ لهم مِن خلال عرض نتائج الحادثة.

وفي سياق تسلية المؤمنين لما أصابهم يوم أُحدٍ، وردِّ القضيَّة إلى قدرة الله وإحاطته استحضرت تلك اللحظات في ذهن السَّامع بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٦٦] باستحضار البُعد الزَّمنيِّ بالظَّرفيَّة فقال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾، والالتقاءاسمٌ مستعملٌ في القتال، والجمعان هما جمع المؤمنين، وجمع المشركين، وعَدَل عن إضماره إلى ذكره لتهويل أحداث ذلك اليوم، وتقرير الوقت العصيب وبيانه، والإشارة التَّثقيفيَّة فيه تُفيد أنَّ ذلك اليوم على شدَّة ما فيه مِن الأحداث والمصائب فهو كائنٌ بإذنه تعالى، فلا ينبو شيءٌ عن علمه وقدرته وإذنه في حصوله. ليحصل مِن المخَاطَبين الإيمان بكمال قدرته، والتسليم له بحكمته وعلمه.

وفي سياق ذكر مآل الذين خرجوا مع الرَّسول ﷺ حين استنهض المسلمين في أعقاب غزوة أحد، وما كتبه الله لهم من الفضل، خيَّل للسَّامعين حالهم بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٧٢] فيُخيَّل في أذهان السَّامعين كيف استطاعت تلك النُّفوس العظيمة أنْ تتعالى على جراحاتها، وتستجيب لأمر الرَّسول ﷺ بقلوب يملؤها اليقين بما عند الله، والتَّوكُّل الصَّادق عليه، ويأتي في هذه الصُّورة المخيِّلة قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُ﴾؛ ليجعل المشهد في أقصى درجات التَّضحية، وسرعة التَّنفيذ، وتقديم أمر الله ورسوله على كلِّ شيءٍ. وهي صورةٌ لها أثرها التَّثقيفيُّ في حثِّ النَّفس على المبادرة بتلبية نداء الله، وحمل النَّفس على ما تكره، وتلقِّي أوامر الوحيين بالتَّنفيذ.

ثم قال في حقِّهم: ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٍ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ

﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران:١٧٤] وحُذِف المعطوف عليه في قوله تعالى: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾، ودلَّت عليه الفاء، فكان لهذا الحذف أثره التَّخييليُّ، وتقديره خرجوا فانقلبوا "فحُذف الخروج لأنَّ الانقلاب يدلُّ عليه"[١]، والذي يليق ببلاغة القرآن أنّ لهذه الفاء وظيفتها التَّخييليَّة؛ لأنَّ صورة الحَدَثِ أنَّ النَّاس نقلوا لهم تلك التَّهديدات القادمة مِن معسكر الكفر، فقال المؤمنون: حسبنا الله ونعم الوكيل، وخرجوا بعد ذلك مطمئنين ثابتين مفوِّضين أمورهم للعليِّ القدير، وبلغوا حمراء الأسد مستعدِّين للقتال، لكنَّهم لَمْ يجدوا أَحَدًا، فانقلبوا إلى ديارهم يحفُّهم الرِّضا، ونيل الفضل مِن الله، ولكنَّ السِّياق القرآنيَّ ينتقي مِن الأحداث ما هو أمسُّ بالسِّياق الذي جاء فيه التَّعقيب. والسِّياق جاء ليذكُر عاقبة المؤمنين المحمودة، فذكَر الشَّهادة والنَّعيم، ثمَّ ذكَر ماغَنِمه المؤمنون مِن الرِّضا والفضل بعد صبرهم وثباتهم فكان ذكر الخروج خارجٌ عن الغرض مع تضمُّن معنى الانقلاب الإشارة إلى الخروج، وفيه نكتةٌ أخرى وهو أنَّ هؤلاء الذين لهَجَتْ ألسنتهم بما يدلُّ على كمال توكُّلهم على الله سبحانه وتعالى، لَمْ يكن بين لهجهم بتلك الكلمات والرُّجوع إلَّا كما تدلُّ عليه الفاء مِن السُّرعة، وطيِّ الحدث. وذلك يغرس في النَّفس التَّرغيب في التَّوكُّل على الله عز وجل، والحثَّ على تفويض الأمور إليه كما غَنِمَ أولئك بتوكُّلهم على الله عز وجل، وتفويض أمورهم إليه.

---

(١) مفاتيح الغيب: (٩/ ١٠٤).

المبْحثُ الثَّاني:
التَّخييل بالأساليب التَّصويرية

التَّخييل بالحقيقة:

في مقابل جزع بعض المؤمنين الذين فرُّوا من المعركة، واضطربوا لخبر مقتل النَّبيِّ ﷺ، يضرب الله تعالى لهم مثلا بأتباع الأنبياء من الأمم السَّابقة، في مشهدٍ مخيِّلٍ لما كانوا عليه من نقاء الضَّمير، والثَّبات على الأرض فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧] فأخبر تعالى عنهم أنَّهم في ذلك الموقف الرهيب في أرض القتال لمْ يكنْ لهم قولٌ تلهج به ألسنتهم إلَّا سؤال الله مِن فضله، فجعل الصُّورة الظَّاهرة كما في الآية السَّابقة كفاحًا وقتالًا، دون استسلامٍ أو خضوعٍ، وجعل الصُّورة الباطنة أدبٌ مع الله ﷻ تلهج به نفوسٌ طاهرةٌ نقيَّةٌ مع شدَّة ما يلاقونه مِن خطرٍ مُحدِقٍ بهم "ولكنه لا يُذهل نفوس المؤمنين عن التَّوجه إلى الله.. لا لتطلب النَّصر أوَّل ما تطلب-وهو ما يتبادر عادة إلى النُّفوس-ولكن لتطلب العفو والمغفرة، ولتعترف بالذَّنب والخطيئة قبل أنْ تطلب الثَّبات والنَّصر على الأعداء"(١).

فالتَّخييل هُنا يغرس في النُّفوس صورةً يدعو المؤمن إلى التحلِّي بها، خاصة أولئك الذين فرَّطوا في الدِّفاع عن الرَّسول ﷺ، وتخلَّوا عنه، يغرس صورةً يلتحم فيها قوة المُناضل وبأسه، مع نقائه وإيمانه العميق.

وفي سياق مكاشفة المنافقين وفضحهم، وإقامة الحجة عليهم، جاء التَّخييل بالحقيقة مبرزًا صوت النِّفاق، فيقول الله ﷻ ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤٨٨).

ﭐلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ [آل عمران:١٥٤] فقوله تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ كشفٌ لحقيقة الموقف، وفضحٌ لما تُخفيه القلوب، فيخبر الله ﷻ عن تلك الفئة خبرًا مؤكَّدًا بأنَّ أنفسهم أوردتهم المهالك، وأوقعتهم في أوحال الظُّنون بالشَّكِّ والرِّيبة والقلق، فتلك الفئة لَمْ تَذُق أعينُها النَّعاس، بلْ باتت قلقةً خائفةً، والفعل (أَهَمَّ) دلَّت الهمزة فيه على أنَّ نفوسهم هي التي جلبت لهم الهمَّ، وذلك لأنَّهم قدَّموا رضا أنفسهم على طاعة الله ورسوله، فكانت النَّتيجة أنْ أوردتهم الهُموم والمهالك، فهم في التَّشاكي والتَّباثِّ[١].

ويبرز في تخييل هذا المشهد صوتُ النِّفاق الذي كان مغمورًا في طوايا النُّفوس في حوارٍ يعكس طبيعة النَّزق والضِّيق الذي استولى على قلوبهم عندما خرجوا لهذه الغزوة، ويأتي البيان الإلهيُّ داحِضًا للشُّبهة، ومُصحِّحًا للعقيدة، بنبْرةٍ عاليةٍ. والحوار مع المنافقين يمتاز "بالقوَّة والشِّدَّة في الخطاب، والقسْوة والتَّهديد في الرَّدِّ عليهم"[٢]، ويأتي المشهد في صيغته الآنيَّة لاستحضار تلك الواقعة في الأذهان، ويأتي التَّصدير بيقولون وقل لعرض هذا المشهد الفاضح، فالمنافقون يقولون: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ﴾ ليَطْفُوا ما في القلوب على الألسنة، ويستعيدوا مشهد الخُروج للقتال، وأنَّهم خرجوا مرغمين، ليس لهم مِن أمرهم شيء، والاستفهام هُنا معادلٌ نفسيٌّ لما تُضمره نفوسهم مِن الحَنَقِ العظيم، وعبد الله بن أُبيٍّ حينما عادَ بثُلث الجيش تَرَكَ في الثُّلثين ألسِنَةً وأتباعًا، كما للباطل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ أتباعٌ مغروسون في صفوف المؤمنين يستغلُّون النَّكبات والنَّكسات في نصرة أوهامهم، فالاستفهام هُنا يتَّسع لهذه الإيحاءات والدَّلالات التي دلَّ عليها بالإنكار.

---

(١) ينظر: الكشاف: (١/ ٣٢٧).

(٢) طرق العرض في القرآن " الأهداف والخصائص الأسلوبية " للدكتور بن عيسى با طاهر: (٥٤): بحث منشور في مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة (١٧٨) الحولية الثانية والعشرون، الكويت، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

ثمَّ يُخبر الله ﷻ عنهم: ﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ وتستمر مكاشفة هذه الطَّائفة المنافقة، وتبرز في صورتها الظَّاهرة مستلَّةً مِن السَّرائر؛ لتُفضح أمام السَّامعين. وذِكْرُ المتعلِّق ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾ فيه تخييلٌ لما تمتلئ به نفوسهم مِن الخُبث والكيد والضَّلال، فالصُّورة الحقيقيَّة لهؤلاء ليس مايتجمَّلون به أمام النَّاس مِن حسن المقاصد، والحرص على محارم الله، وقوله: ﴿مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ يخيِّل في ذهن المتلقِّي حرص هذه الفئة على التزام الكتمان والمضيِّ لتحقيق الأهداف في خفاءٍ، ولكن يأبى الله إلَّا أنْ يكشف أولئك في فلتات اللسان، وسَقَطَات الكلام.

وفي صورةٍ أُخرى يُظهرهم القرآن الكريم في صورة المنطق الأعوج، والنَّفسِ القلقة: ﴿يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ﴾، هذا المنطق يكشف عن سوء ظنِّهم بالله ﷻ، واعتراضهم على أقداره، ومحاولاتهم البائسة في تحسير المسلمين على خروجهم، وعدم اتِّباع رأيهم في البقاء في المدينة.

وهنا يأتي الجواب داحضًا للحجَّة، وقاصمًا للشُّبهة ﴿قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ﴾ فلو كانوا في البيوت بما يُظنُّ فيها مِن الأمان والاستقرار لخرج هؤلاء الذين كُتِبَ عليهم الموت وقُدِّر لهم إلى الموقع الذي كُتِبَ لهم أنْ يموتوا فيه استجابةً لقدر الله ﷻ، ولا ينجيه بقاؤه ومكثه في صرف القَدَرِ عنه. والتَّعبير بقوله: ﴿لَبَرَزَ﴾ دالٌّ على سوْقهم مِن الخَفيِّ إلى الجَلِيِّ البادي؛ مبالغةً في انسياقهم للقَدَرِ. والتَّعبير بقوله: ﴿مَضَاجِعِهِمۡ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شبَّه فيها مكان الموت بالمضجع بجامع السُّكون والاستقرار، ثمَّ طُوي ذكْر المشبَّه، وصُرِّح بالمشبَّه به، ومزيَّة التَّعبير تأكيد نفاذ الحكم ووقوعه، واستجابتهم للأقدار المكتوبة، إضافةً إلى أنَّ التَّعبير فيه مبالغةٌ أخرى مِن جهة تحديد مكان القتْل، فهو لمْ يقتصر على وقوع القتْل، بلْ أثبته، وأثبت مكانه، وهذا يستلزم تعيُّن الزَّمان كذلك(١).

فعرض الحوار بهذه الصُّورة الكاشفة لحقيقة ما تُكِنُّ صدور أهل النِّفاق، فيه

(١) ينظر: إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٢).

تحذيرٌ للمؤمنين مِن الانخداع بالدَّعاوى الباطلة، والالتفات إلى ما يبثُّونه في نفوس المؤمنين مِن تحسيرهم لخروجهم للقتال.

ويعرض الله سبحانه وتعالى من خلال حوارهم ضعف حججهم، وفساد تصوُّرهم في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران:١٦٧-١٦٨]

فيعرض السِّياق موقف المنافقين وحوارهم مع أهل الإيمان مخيِّلًا التَّخاذل الذي ملأ قلوب المنافقين، ويُلحظ في الحوار أنَّ الفاعل في خطاب المؤمنين يتوارى، كأنَّه صوت الجماعة الذي لا يُلتفت فيه لذكْر فاعلٍ بعينه، ويبرز في صوت المنافقين الإشارة إلى الفاعل المضمر.

وفي قوله تعالى: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ﴾ كشفٌ لحقيقة المعتقد، بتخييله بموقع عقائدهم مِن الكفر والإيمان، فالطَّاعة تجعلهم أقرب للإيمان، والنِّفاق والتَّخاذل يجعلهم أقرب للكفر، وفي هذا التَّخييل حفزٌ للنُّفوس المؤمنة لأنْ يأتوا بما يحقِّقون فيه الإيمان مخالفةً لمن دأبهم السَّعي للاقتراب مِن الكفر وأهله.

ومِن ثَمّ يُخيِّل معنى تمكُّن النِّفاق في قلوبهم بقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾، والصُّورة تدلُّ على أن إيمانهم موجودٌ في الأفواه، وليس له حظٌّ في القلوب، والقلوب مأوى الاعتقادات، ومنشأ الكلام، فإذا لَمْ يصدر عنها، كان تمثيلًا للكلام الذي يُخالف ظاهره باطنه، يقول الزَّمخشريُّ: "وذِكْرُ الأفواه مع القلوب تصويرٌ لنفاقهم، وأنَّ إيمانهم موجودٌ في أفواههم، معدومٌ في قلوبهم، خلاف صفة المؤمنين في مواطأة قلوبهم لأفواههم"[١]، فتقبيح صفة المنافقين منطوقُ الآية، وامتداح المؤمنين

(١) الكشاف: (١/ ٣٣٤).

مفهومٌ مِن الصُّورة؛ ولذلك يؤكِّد المنهج القرآنيُّ كثيرًا مسألة الموافقة بين المعتقد والقول، فهي صفةٌ مميِّزة تدلُّ على صدْق المؤمنين.

ويبرز الحوار طويَّة المنافقين، الذين امتلأت قلوبهم بالغيْظ والغلِّ، ويُخيَّل في أذهان المخاطَبين صورة أولئك المخذِّلين، الذين فتحوا أبواق الشَّرِّ؛ ليثبِّطوا الجيش المسلم، وليحسِّروهم على فقد إخوانهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، يُبرزهم القرآن في صورة ناصحٍ جاهلٍ يخشى على إخوانه، فيحثّهم على القعود اتِّقاء القتْل والموت، ، ويلفت إلى حالهم بقوله: ﴿وَقَعَدُواْ﴾، وهذه الصُّورة غنيَّةٌ عن كشف خبْث الطَّوايا، والخذلان الذي أقعدهم وثبَّطهم، فأرادوا أنْ يجرُّوا أولئك الصَّادقين إلى مشاركتهم في الخذلان.

وتخييل صورة المنافقين في هذا الموقف يكشف للمؤمنين موقف الفريق المنافق ليحذرهم مِن الانْخداع بتلك الدَّعاوى الباطلة.

وفي سياق الوعظ والتَّذكير بالمآل جاء قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [آل عمران:١٥٨]، وفي قوله تعالى: ﴿تُحْشَرُونَ﴾ تخييلٌ للمعنى يثير في الذِّهن منظر الحشْد العظيم في ذلك اليوم، والحاء والشِّين والرَّاء يدلُّ على الجمْع مع زيادةٍ في خصوصيَّة الجمع بطريقة السَّوق والبعْث والانْبعاث[(١)]، فالخلق في ذلك اليوم يُساقون سوقًا إلى ربِّهم، وبُنِيَ الفعل ﴿تُحْشَرُونَ﴾ لما لَمْ يُسَمَّ فاعله لتكون الصُّورة مسلطةً على منظر المحشورين، وما فيه مِن الهول والفزع. كذلك فالتَّعبير بالجمع يُسهم في تهويل الصُّورة؛ ليبقى المنظر الأخير الذي يرتسم في الذِّهن صورة تلك الحشود الغفيرة، وهي تُقاد منزوعة الإرادة إلى ربِّها ﷻ، بلا حولٍ ولا قوَّةٍ.

وتخييل المنظر بما يثيره من مشاعر الخوف والفزع مِن هذا اليوم العظيم للتَّرهيب

---

(١) ينظر: معجم المقاييس في اللغة: (حشر).

والوعظ؛ ليدفع الإنسان إلى المبادرة بالعمل الصَّالح، فالموت أو القتل نهاية كلِّ حيٍّ.

وفي سياق التَّهديد والزَّجر عن أخذ الغلول، وتبرئة جناب النَّبي ﷺ، يُخيِّل[1] في ذهن السَّامع العقوبة التي تنتظر مَن يغلُّ بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾[آل عمران:١٦١]، فعقوبته أنْ يأتي بالشَّيء الذي غلَّه يحمله؛ فضحًا له على رؤوس الأشهاد، لما في الغلول مِن معنى التَّخفِّي، والبُعد عن الأنظار[2]، فجاء الجزاء مقابلًا للعمل، وهذه الصُّورة الوجيزة جاءت في سياق التَّحذير في الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ قال: "قام فينا النَّبي ﷺ فذكر الغلول فعظَّمه، وعظَّم أمره، قال: لا ألفينَّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، على رقبته فرس له حمحمة، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، وعلى رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، وعلى رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، أو على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد بلَّغتك"[3] فما في هذا الحديث هو تمثيل للتَّخييل في الآية الكريمة، يقول ابن بطَّال[4]: "وهذا الحديث يفسِّر قوله: ﴿يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أنَّه يأتي يحمله على رقبته؛ ليكون أبلغ في فضيحته، وليتبيَّن للأشهاد جنايته، وحسبك بهذا

(١) أنبه هنا على ما مرّ تكرارا من أن مفهوم التخييل هنا لا يتعارض مع الحقيقة، فالقول بالتخييل ليس هو الخيال المقابل للواقع، بل هو إثارة الذهن لنقل صورة الحق الثابت بتفاصيلها إلى ذهن المتلقي.

(٢) ينظر: لسان العرب: (غلل).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب الغلول، حديث رقم: (٣٠٧٣) (٢/ ٣٧٩).

(٤) ابن بطال: هو أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطّال القرطبي، ثم البلنسي، يعرف بابن اللجام، من أهل العناية بالحديث، شرح صحيح البخاري، وتوفي سنة ٤٤٩هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي: (١٨/ ٤٧)، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م. والأعلام لخير الدين الزركلي: (٤/ ٢٨٥)، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

تعظيمًا لإثم الغلول، وتحذيرَ أمَّته"(١)، وفي التَّعبير بالإتيان تخييلٌ لسهولة ذلك الفعل وطواعيته لقدرة الله ﷻ؛ لأنَّ السِّياق ناطقٌ بكمال القدرة على العقاب، وعلى الحساب، وعلى كمال الإحاطة، وجمهرة أهل اللغة"على أنَّ الإتيان مجيءٌ بسهولةٍ، ويكون مرجع السُّهولة فيه إلى كون الحركة صادرة عن طواعيةٍ ورغبةٍ، أو لوقوع الفعل حال انقيادٍ وطاعةٍ، أو في معرض بيان التَّفضُّل به دون وجوبٍ أو إلزامٍ، أو في مقام بيان سهولته؛ لقدرة الفاعل عليه، أو لأنَّ الإتيان قد فارقه ما يجعله صعْبًا،وفي جميع المقامات والسِّياقات التي تدلُّ على سهولة المجيء"(٢).

والبُعد الآخر في التَّخييل هو الزَّمن، في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ﴾، فاستحضار الزَّمن هُنا له بُعدٌ في التَّخييل؛ لأنَّ الزَّمن هُنا يستحضر أهوال ذلك اليوم العصيب، وإذا كان إتيان كلِّ مَن يغلُّ شيئًا بما غلَّ عقابٌ، فكونه في ذلك اليوم العصيب لهو المشهد المخزي، والمنظر الفاضح، وهذا يغرس في النَّفس البُعد الشَّديد، والحذر الدَّقيق مِن أنْ يغلَّ الإنسان شيئًا.

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾، للتَّعبير بثُمَّ وظيفته التَّخييلية في هذا المشهد العصيب يوم الحشر، فالألوسيُّ يرجِّح دلالة (ثمَّ) على التَّفاوت الرُّتبيِّ لأنَّ جزاء الغالِّ وعقوبته أشدُّ فظاعةً مِن حمله ما غلَّ بين الأشهاد(٣)، ولكنَّ التَّفاوت الرُّتبيَّ معنًى مجازيٌّ، وينبغي ألَّا يُقال بالمجاز إلَّا عندما تدلُّ القرائن على امتناع الحقيقة. وحمْل (ثمَّ) على حقيقتها يدلُّ على التَّراخي الزَّمنيِّ، ويدلُّ على أنَّ الزَّمن هُنا يستطيل في هذا الموقف العصيب، حينما يأتي صاحب الغلول حاملًا ماغلَّ، يستطيل

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: (٥/ ٢٣٣ و ٢٣٤)، ضبط نصه وعلق عليه: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، نشر مكتبة الرشد، الرياض.

(٢) الإتيان والمجيء "فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم" للدكتور محمود موسى حمدان: (١٧)، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٣) ينظر: روح المعاني: (٢/ ٣٢٣).

زيادةً في الإذلال والتَّحقير، تفضيحًا لأمره، ليكون البقاء في هذه الصُّورة المزرية حتَّى يراه الخلق غاية التَّهكُّم والازدراء[1]، وإلى هذا المعنى أشار ابن عاشور بقوله: " وجيء وجيء بثمّ للدّلالة على طول مهلة التفضيح"[2]، وهذا التَّخييل له أثره التَّثقيفيُّ في التَّحذير مِن أخذ الغلول، ويدفع المؤمن إلى الاحتراز منه.

وفي سياق الثَّناء على المؤمنين الصَّابرين الذين استجابوا لنداء الله ورسوله، ولم يبالوا بالتَّهديد والوعيد وهم مثقلون بالجراح، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، فيُخيَّل في ذهن المتلقِّي صبر تلك الفئة المؤمنة التي خرجت بجراحها مستجيبةً لأمر الله ﷻ ورسوله ﷺ، فجاءهم بنو عبد قيس. والسِّياق هُنا يُخيِّل في أذهان السَّامعين وقع خبر إقبال الجيش حتَّى كأنَّه صادرٌ مِن النَّاس كلِّهم، وإعادة لفظ النَّاس مع اختلاف المدلول فيه تخييلٌ لوقع ذلك الخبر على النُّفوس، وحذف خبر (جمعوا) له أثره التَّخييليُّ في ذهاب النَّفس مع التَّقدير كلَّ مذهب، فالحذف هُنا أتاح للمخاطَب أنْ يتخيَّل حجم ذلك الجمع، وما أعدُّوه للقضاء على المؤمنين.

ذلك التَّضخيم للخبر قابلته النُّفوس المؤمنة بما يكشف عن ثباتها، وقوَّة عقيدتها وثقتها بالله ﷻ، ويكشف السِّياق هنا عن صورةِ الباطن﴿فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ وأخرى في الظَّاهر: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

والصُّورتان بمضمونيهما المتخالفين تعكسان صلابة وثبات تلك العقيدة، التي وفَّقت المؤمنين المستجيبين لأمر الله ورسوله ﷺ إلى الثَّبات في ذلك الموقف، وهو أمرٌ يحثُّ المؤمن على استحضار مثل هذه الصُّور مِن الثَّبات والطَّاعة ليقتدي بهم، وينهج طريقهم.

---

(١) ينظر: من أسرار حروف العطف: (١٨٠).

(٢) التحرير والتنوير: (٤/ ١٥٦).

التَّخييل بالتَّشبيه:

في قولـه تعـالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[آل عمران:١٦٩-١٧٠].

للطِّيبيِّ تأويلٌ أنقله على طوله؛ لأنَّ فيه توجيهًا للمعنى يترتَّب عليه مزيَّةٌ يقول: "في الآية تشبيهٌ؛ لأنَّ باب علمتُ وحسبتُ مِن دواخل المبتدأ والخبر، فالواجب حمل المفعول الثَّاني على الأوَّل، ولا يصحُّ ذلك في الآية إلَّا بالتَّشبيه، نحو حسبت زيدًا أسدًا على أنَّ بعض الأصحاب عدَّ هذا الباب مِن أداة التَّشبيه، كأنَّه قيل: لا تحسبنَّهم كالأموات، بلْ احسبنَّهم كالأحياء، ثمَّ بيَّن ما به شُبِّهوا به بقوله: ﴿يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ﴾ فيكون حديث الطَّير[١] بيانًا لكيفيَّة حياتهم، وإيصال الرِّزق إليهم... وممَّا يشدُّ مِن عضد أنَّ حكمهم خلاف حُكْم سائر الأموات ماروينا عن أبي داود والتِّرمذيِّ[٢] عن فضالة بن عبيد أنَّ رسول الله ﷺ قال: (كلُّ ميِّتٍ يُختم على عمله؛ إلَّا المرابط في سبيل الله، فإنَّه ينمى له عمله إلى يوم القيامة)"[٣].

وكلام الطِّيبي يُفيد أنَّ في الآية تشبيهين، الأوَّل منفيٌّ والآخر مثبتٌ، فالمنفيُّ هو تشبيه المقتولين في سبيل الله بالأموات، وهو تشبيهٌ بليغٌ طُويت فيه الأداة، وطُوِيَ وجه الشَّبه، للمبالغة في تمام مفارقة أحوال الشُّهداء لأحوال الموتى بما أُعدَّ لهم مِن النَّعيم.

---

(١) سبق تخريجه: ص(٤٢٠).

(٢) سنن أبي داود: كتاب الجهاد: باب في فضل الرباط: حديث رقم: (٢٤٩٢) (٣/ ٢١٢). ولفظه: (كل الميت يُختَم على عمله، إلا المرابط، فإنه ينمو له عمله إلى يوم القيامة ويُؤمَّن من فَتَّان القبر "، وفي صحيح سنن الترمذي: كتاب فضائل الجهاد: باب ما جاء في فضل من مات مرابطا: حديث رقم: (١٦٢١) (٢/ ٢٢٢)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، نشر مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م. قال الألباني: حسن صحيح.

(٣) فتوح الغيب: (٣٤٢ و ٣٤٣).

وفي هذا التَّقرير المستفاد مِن نفي المشابهة ترغيبٌ في الشَّهادة، وما أعدَّه الله للشُّهداء بالمقارنة بين حال الأموات والمقتولين في سبيل الله. أمَّا التَّشبيه الآخر المثبت فهو تشبيههم بالأحياء، ودلَّ على وجه الشَّبه المطويِّ قوله تعالى: ﴿يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ﴾ فلَهُم مِن الخصائص والشُّعور ما يكون مِن صفات الأحياء، وفي هذا تعريفٌ بالنَّعيم لمزيد التَّرغيب؛ لأنَّ النُّفوس بفطرتها تأنس إلى الحياة.

وفي الآية الكريمة تُخييل للحالة التي يتنعَّم فيها أولئك الشُّهداء، ونلحظ أنَّنا أمام صورتين مخيَّلتين في الأذهان، في قوله تعالى: ﴿فَرِحِينَ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾، والكلمتان تخيِّلان في الأذهان ما هم فيه مِن السُّرور والارتياح، فجاء التَّعبير في الأولى بالاسميَّة لتخيِّل حالة فرح دائمةٍ، وهي وصفٌ لحالتهم النَّفسيَّة المطمئنَّة، لايكدِّرها همٌّ ولا غمٌّ، والأخرى تُخيِّل حالتهم، وهُم يتقلَّبون في النَّعيم مابين خبرٍ سارٍّ، ورحمةٍ مِن الله وفضلٍ، فيستقبلون تلك النِّعم، ويعلو وجوههم بريقُ السُّرور، وانشراح القَسَمَات، ولذلك جاء التَّعبير بالفعل المضارع دالًّا على تجدُّده.

والصُّورة بشقَّيها تصف حالة النَّعيم النَّفسيِّ والبدنيِّ، بعثًا للنُّفوس المؤمنة على الجِّدِّ والاجتهاد في نيل النَّصر أوالشَّهادة طمعًا فيما عند الله ﷻ.

التَّخييل بالاستعارة:

يعاتب الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين الذين استجابوا لزعزعة الصفِّ للقتال، فنفروا عن أرض المعركة، أو دخل قلوبهم اليأس عند سماع خبر مقتل النبيِّ ﷺ فقال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ [آل عمران:١٤٤]، والانصراف عن الحقِّ إلى الباطل، سواءً كان بالرِّدة أوالفرار، أمرٌ ينفِّر منه القرآن الكريم أشدَّ تنفيرٍ، ولذلك وصف القرآن الكريم الرِّدة أوالانهزام، وهو أمرٌ نفسيٌّ بحركةٍ حسيَّةٍ مشاهدةٍ، فقال: ﴿ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ بطريقة الاستعارة التمثيليَّة، فالصُّورة هنا تتداخل فيها ثلاثةُ عناصر: حركة الانقلاب، والاستعلاء، والأعقاب. وهي صورةٌ حركيَّةٌ محسوسةٌ ممثِّلةٌ للأثر النَّفسيِّ، فأبرزت في هذه الصُّورة المشاهدة،

فشُبِّهت حال العودة إلى الباطل بمَن انْقلب على أعقابه، وإعادة الصُّورة مِن الماضي إلى المضارع بعناصرها فيه تأكيدٌ على بشاعة هذه الصُّورة، ونقلها مِن زمنٍ إلى زمنٍ لزيادة تمكينها في ذهن المخاطَب باستحضارها حيَّةً، وللدَّلالة على إمكان تجدُّدها "فهذه الحركة الحسيَّة في الانقلاب تجسِّم معنى الارتداد عن هذه العقيدة كأنَّه منظرٌ مشهودٌ. والمقصود أصلاً ليس حركة الارتداد الحسيَّة بالهزيمة في المعركة، ولكن حركة الارتداد النَّفسيَّة التي صاحبتها حينما هتف الهاتف: إنَّ محمدًا قدْ قُتِل، فأحسَّ بعض المسلمين أن لا جدوى إذن مِن قتال المشركين، وبموت محمدٍ انتهى أمر هذا الدِّين، وانتهى أمر الجهاد للمشركين! فهذه الحركة النَّفسيَّة يجسِّمها التَّعبير هنا، فيُصوِّرها حركة ارتدادٍ على الأعقاب كارتدادهم في المعركة على الأعقاب!"[1].

وبتوالي حرف القاف بما يحمله من صفات الشدة والجهر والتفخيم والاستعلاء تتجلى نبرةٌ إيقاعيَّةٌ صاخبةٌ في(قتل، انقلبتم، أعقابكم، ينقلب، عقبيه) فهي تخيِّل بوقعها الصَّوتي قوَّة الحركة، وخشونة الطَّبع، وشدَّة التَّوبيخ[2].

ومِن معالم التَّثقيف في هذه الصُّورة المخيِّلة تنفير صورة الارتداد والانهزام وإبرازها في هذه الحركة التي تشمئزُّ منها النَّفس وتستقبحها. تلك صورةٌ من صور التخييل الحسي النَّابض بالحركة[3].

. وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩]، جاء الخطاب هُنا للمؤمنين، وهو تخييل لمعنى عاقبة الانسياق والطَّاعة للكافرين، بأنَّ عاقبته الوبال والخسران، فشُبِّه دفعهم للذُّل، ورجوعهم لما كانوا عليه مِن الضَّلال بحركة الارتداد على الأعقاب بالاستعارة التَّمثيليَّة بتشبيه الصُّورة بالصُّورة، وطُوي ذكْر المشبَّه، وصُرِّح بذكر المشبَّه به؛ لتقريب

(١) في ظلال القرآن: (١/ ٤٨٦).

(٢) ينظر: جماليات المفردة القرآنية: (١٥٣).

(٣) ينظر أمثلة لهذا اللون من التخييل: التصوير الفني: (٧٥).

الصُّورة للأذهان، وإكساب الصُّورة النَّفسية ملمحًا بصريًّا مخيِّلا المعنى في الأذهان. وذكر الأعقاب مِن عناصر الصُّورة يَذهب بها إلى التَّقبيح؛ لأنَّها موضع الاتِّساخ عادةً، وجاء إسناد الارتداد إلى الكفَّار، ولمْ يأتِ إلى المؤمنين أنفسهم؛ ليظهر أن عاقبة استسلامهم وتخاذلهم وطاعتهم الوقوع في أيديهم وتمكُّنهم منهم. واصطفاء الارتداد على الرُّجوع؛ لما في فعل الارتداد مِن الإرغام والشِّدَّة"واستعمل القرآن الفعل (ردَّ) في الغالب للأمور الثَّقيلة والمستكرهة"(١) .

ثمَّ تأتي الفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ﴾ لتطوي المسافة بين التَّمكُّن منهم، وبين السُّقوط في أوحال الضَّلالة التي أنقذهم الله منها، والخسران في الآخرة، فيتلاشى مع هذه الفاء الزَّمن سريعًا. وفي ذلك تحذيرٌ للمؤمنين مِن عاقبة الخطو في هذا الطَّريق، وتنبيهٌ إلى الاعتصام بالثبات.

وفي سياق التَّهديد والوعيد للكفَّار جاء قوله تعالى: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗاۖ وَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران:١٥١]، والخطاب موجَّهٌ إلى الكفَّار الذين أشركوا بالله ﷻ، وخرجوا تحديًا لكلمة الله، وإسكاتًا لصوت الحقِّ، وإطفاءً لنور الهداية، أرادوا العودة للمؤمنين بعد أنْ تفرَّق الجمعان بعد أُحدٍ، فألقى الله في قلوبهم الرُّعب وفرُّوا، فيُخيَّل للسَّامع تلك اللحظات الحاسمة التي أصدر الله فيها أمره فقال: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾، والإلقاء أصله مستعملٌ في الأجرام(٢)، وعليه تكون الاستعارة تصريحيَّةً تبعيَّةً، بتشبيه الجَعْل والتَّكوين بالإلقاء في شدَّة تمكُّنه بتشبيه المعنويِّ بالحسِّيِّ لتقريب الصُّورة للأذهان، ثمَّ طُوي ذكر المشبَّه، وصرِّح بالمشبَّه به، ومزيَّة التَّعبير به المبالغة في وصف تمكُّن الخوف في القلوب.

---

(١) من أسرار البيان القرآني للدكتور فاضل السامرائي: (٤٧)، نشر دار الفكر، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩/ ١٤٣١هـ.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: (٣/ ٢٥٩) والبحر المحيط: (٣/ ٧٧).

وله وجهٌ آخر أنْ تكون الاستعارة مكنيَّةً، شبَّه فيه الرُّعب بالشَّيء الذي يُلقي في سرعةٍ تُمكِّنه مِن القلوب، وإصابته للنُّفوس، فطُوي لفظ المشبَّه به، وأُثبت لازم المشبه به للمشبَّه بالاستعارة التَّخييلية، فالتَّخييل يجوز أن يكون في طريقة الجعل والتَّكوين، ويجوز أن يكون في المُلقى.

وقوله: ﴿فِي قُلُوبِ﴾ دالٌّ على تمكُّن الرُّعب حتَّى أصاب أعماق القلوب، واختيار القلوب في هذا السِّياق دون الأفئدة لما يدلُّ عليه القلْب مِن التَّقلب والاضطراب[1].

ولهذا التَّخييل أثره في إثبات قدرة الله ﷻ على نصرة المؤمنين، وتدبيره الأمور، فتتوجَّه النُّفوس إليه بالتَّسليم والتَّوكُّل عليه، وفيه ترهيبٌ ووعيدٌ للكافرين بقدرة الله ﷻ على إهلاكهم، فهذا عذابه النَّفسي في الدنيا، وما ينتظرهم في الآخرة أشدُّ، ولذلك جاء تخييل عذابهم في الآخرة بقوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيتوعَّد الله ﷻ الكافرين بأنَّه أعدَّ لهم في الآخرة مِن العذاب ما لا تُطيق أنفسهم، ويخيَّل في أذهان السامعين ذلك الموقف الرهيب، حين ترتعد النُّفوس، وتضطرب القلوب، فتبحث لها عن المأوى، فيخبرهم الله أنَّه هيَّأ لهم النَّار مأوًى لينزلوا فيه، ثمَّ جعل مِن ذلك المأوى ذاته مثوًى فيه القرار والخلود، ومِن الملاحظ أنَّ الكلمتين المستعملتين (المأوى والمثوى) كلتاهما تدلَّان على المسكن، وكأنَّ في ذكْر العذاب في سياق عقوبة الخوف في الدُّنيا امتدادًا لهذا المعنى في الآخرة، فهم يبْحثون عن المكان الذي تقرُّ فيه نفوسهم، وتطمئن إليه أفئدتهم.

وفي ذلك تهديدٌ ووعيدٌ بمآل الكفار، وتثبيت للمؤمنين مِن جهة الانتصار لهم على أعدائهم في الدُّنيا والآخرة.

وفي سياق المنَّة والفضل والرَّحمة التي أحاطت بالمسلمين يقول تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾، وحرف العطف هُنا له وظيفته التَّخييليَّة، فالتَّراخي

(١) ينظر: لسان العرب: (قلب).

الزَّمني يُخيِّل كيف بَدَتْ هذه اللحظات ثقيلةً وبطيئةً، وكيف تأخَّر فَرَجُ الله ﷻ مدةً، احتبستْ فيه أنفاس المسلمين وهم يئنُّون تحت وطأة الغُموم والهزيمة[1]، فخُيِّل بأداة العطف الإحساس النَّفسيّ بالزَّمن، ولهذا التَّخييل أثره في استشعار تلك المنَّة، وذلك الفضل العظيم الذي غَشِيَهم في أشدِّ لحظات المؤمنين حاجةً إليه، يقول أبو السُّعود: "والتَّصريحُ بتأخُّر الإنزالِ عنه مع دَلالة﴿ثُمَّ﴾ عليه وعلى تراخيه عنه لزيادة البيانِ وتذكيرِ عِظَم النِّعمةِ"[2].

كانت ساعات القتال الحاسمة، والمصائب التي مُنِيَ بها الجيش المسلم آنذاك قد أنهكت القوى، وأثخنت الجراح، فأنزل الله ﷻ على تلك الأجساد النُّعاس أمنةً، لتشحن النُّفوس بالقوَّة والطمأنينة والثَّبات، والتَّعبير هنا يجوز حمله على الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّ الإنزال مِن خصائص الأجرام[3]، فشُبِّه إحلال النُّعاس على النُّفوس المؤمنة بالإنزال، بجامع كمال الرِّعاية وحسن التَّدبير الإلهيِّ[4] بتشبيه المعنويِّ بالحسِّيِّ؛ لقوَّة ظهوره في الحسِّيِّ.

ومزيَّة التَّعبير بالإنزال مناسبته لأجواء المعركة، فالمسلمون في ذلك الموقف كانوا في أصعب السَّاعات بعد أنْ تَوَالت عليهم النَّكبات، وبدأ الجيش يستعيد شيئًا فشيئًا قوَّته وتماسكه، فكانوا بحاجةٍ إلى الرَّاحة، وهم في ذلك الظَّرف الأليم، ولمَّا كان مِن هذه حاله تَجافى عن عينيه النُّعاس كان في التَّعبير بالإنزال دلالةً على الفضل، كونه مِن الله ﷻ "لأنَّه لمّا كان نعاسًا مقدَّرًا مِن الله لحكمةٍ خاصَّةٍ، كان كالنَّازل مِن العوالم المشرَّفة، كما يُقال: نَزَلَتْ السَّكينة"[5] وفي التَّعبير بالإنزال كذلك دلالةٌ على القوَّة

(١) ينظر: من أسرار حروف العطف: (١٦٩).

(٢) إرشاد العقل السليم: (٢/ ١٠٠).

(٣) ينظر: البحر المحيط: (٣/ ٨٦).

(٤) ينظر: التفسير البلاغي للاستفهام: (١/ ١٩١).

(٥) التحرير والتنوير: (٤/ ١٣٣).

والتَّمكُّن، فهو أكثر مبالغةً مِن التَّعبير بالتَّغشية كما جاء في آيات غزوة بدرٍ؛ لاختلاف المقام في كلٍّ.

ويجوز كذلك حمل الصُّورة على الاستعارة المكنيَّة بتشبيه الأَمَنَةِ أو النُّعاس بالشَّيء المنزَّل كالوحي أو المطر ونحوهما، فطُوي ذكر المشبَّه به، وأُثبت لازمه للمشبَّه، وهو الإنزال بالاستعارة التَّخييليَّة بجامع الرَّاحة والتَّثبيت.

ومزيَّة القول بالمكنيَّة التَّنبيه إلى أثر الأمن والنُّعاس في النُّفوس، وأنَّه روَّى تلك الأجساد فتجدَّدت هممهم، وتقوَّت عزائمهم؛ ليكرُّوا على أعدائهم، فهو بيان لامتنان الله ﷻ في أثر هذا الإنزال في عودتهم للقتال، بعد أنْ ذَكَرَ الفرار والهزيمة.

والمعلم التَّثقيفيُّ الذي يغرسه تخييل هذا المشهد في النُّفوس استشعار منَّة الله ﷻوفضله على عباده المؤمنين لما عَلِمه مِن صدق النِّيَّة، وعدم الإصرار على المعصيَّة، فيكون دافعًا إلى ندمهم واستغفارهم.

قال تعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾ ففي التَّعبير بقوله: ﴿يَغْشَىٰ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّهتْ فيه حماية النُّعاس لنفوسهم بالغشاء السَّاتر على العيون، بجامع الحجب والعزل بتشبيه المعنويِّ بالحسِّيِّ؛ لقوَّة ظهوره في الحسِّيِّ. ومزيَّة التَّعبير به التَّنبيه إلى لطف الله ﷻ في إمداد تلك النُّفوس بما يُعيد لها قوَّتها واستعدادها الجسميَّ والنَّفسيَّ.

وفي سياق نفي التَّساوي بين طاعة الله ﷻ، وبين مخالفة أمره، يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران:١٦٢]، يأتي التَّعبير عن الطَّاعة بقوله تعالى: ﴿ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ﴾ وفي التَّعبير استعارةٌ مكنيَّةٌ، شبَّه فيه رضوان الله ﷻ بالدَّليل الذي يَهدي إلى الطَّريق القويم، بجامع الهداية، والوصول إلى الغاية، ثمَّ طُويَ ذكر المشبَّه به، وأُثبت شيءٌ مِن لوازمه، وهو الاتِّباع للمشبَّه يقول أبو حيَّان: "وهذا مِن الاستعارة البديعية. جعل ما شرعه الله كالدَّليل الذي يتبعه مَن

يهتدي به"[1]، ومزيَّة التَّعبير به المبالغة في بيان تمام الهداية في سلوك طريق الطَّاعة وما يترتب عليه مِن ثمرات نوال الغاية، وصواب الطَّريق.

وتكون على الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في ﴿ٱتَّبَعَ﴾ بتشبيه تطلُّب رضا الله ﷻ بالاتِّباع بجامع الموافقة في كلٍّ، ثمَّ طُويَ ذكر المشبَّه، وصُرِّح بالمشبَّه به، ومزيَّة التَّعبير به المبالغة في بيان حاجة الوصول إلى رضوان الله ﷻ لتمام الموافقة والاهتمام، وهو الأعلى لأنَّ السِّياق يخيِّل في ذهن السَّامع اختلاف الجزاء باختلاف أحوال العاملين، ودلالة الاتِّباع على المجاهدة وجعلها في مقابل البوْء أقرب مِن القول بالاستعارة المكنيَّة في هذا السِّياق.

وفي قوله تعالى: ﴿بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شبَّه سوء مصير العاصي بالعودة بالخيبة واليأس والانتكاسة، بجامع عدم تحقيق المراد، ثمَّ طُوي ذكر المشبَّه، وصرِّح بالمشبَّه به، ومزيَّة التَّعبير به التَّحذير مِن عاقبة عصيان أمر الله ﷻ، وترهيب النَّفس مِن مخالفة أمره.

ثمَّ تخيِّل الآيات في ذهن السَّامع الجزاء بعد أن عاد مصطحبًا سخطًا مِن الله ﷻ، وهي حالةٌ معبِّرةٌ عن الخيبة والخسارة بأنَّ مأواه جهنَّم، وكأنَّ عودته بالسَّخط كانت بداية الرِّحلة عن البحث عن المأوى الذي يحقِّق له السَّكن والأمن بعد أنْ اضطربت القلوب، وارتعدت الفرائص، فلَمْ يكن له مأوى يلوذ به إلَّا قعْر النَّار في دَرَكَاتها، وجَعْلُ النَّارِ هي المأوى سخريةٌ واستهزاءٌ في حقِّ أولئك المعانِدين لأمر الله ﷻ. ثمَّ تختتم الصُّورة بأنَّ ذلك ليس منزلًا يُلاذ به فحسب، بل هي النِّهاية والمصير.

وهذا التَّخييل يهزُّ النُّفوس، وتخفق له القلوب، فيقودها ذلك إلى الحذر مِن مخالفة أمر الله ﷻ، والسَّعي إلى اتِّباع أمر الله وسنَّة رسوله ﷺ.

---

(١) البحر المحيط: (٣/ ١٠١).

الخاتمـــــة

الرسالة

الخاتمـــة

بعـد هـذا التِّطـواف المديـد في كتـاب الله ﷻ، عَرَضَـتْ الدِّراسـة لمعـالم التَّثقيـف النَّفسيِّ في آيات غزوتي بدرٍ وأُحدٍ، وعَرَضَتْ مفهوم التَّثقيف في اللغة وفي الإجراء في التَّحليل، ولفتت إلى انطلاق الفكرة مِن قضيَّة الإعجاز في التَّأثير النَّفسيِّ في القرآن، كما ذَكَرَتْ الدِّراسة أنَّ التَّثقيف النَّفسيَّ يدور غالبًا مع التَّرغيب والتَّرهيب.

وتناولتْ الدِّراسة أثرالسِّياق والموقع في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ مِن خلال النَّظر في موقع السُّورة مِن القرآن، وماله مِن أثرٍ تثقيفيٍّ، ومقصد السُّورة الكليِّ، وعلاقات المقاصد الجزئيَّة به، والسِّياقات الرئيسة، والسِّياقات المتفرِّعة عنها، وكان مِن نتائج هذا العرض:

- تمثِّل سورة الأنفال الواقع الحركيَّ لهذا الدِّين مِن خلال ماعرضته الآيات مِن ضوابط وأحكام؛ لإعداد جيلٍ قادرٍ على تحمُّل المسؤوليَّة، مع ثباته على العقيدة الصَّحيحة، بينما تحقِّق سورة آل عمران تصفية العقيدة مِن الشَّوائب والمعتقدات الخاطئة، ومِن ضمنها مايُروِّجه المنافقون في الصفِّ المسلم مِن شبهاتٍ ودعاوى لتثبيط المؤمنين عن القيام بفريضة القتال.
- يُهيمن على سورة الأنفال وآل عمران خطَّان لاينفصلان، الخطُّ الجهاديُّ اللصيق بالأحداث، والخطُّ العقديُّ اللصيق بالتَّعقيب الإلهيِّ على الأحداث.
- أولى السِّياق في آيات الغزوتين العناية بالجانب الرُّوحيِّ والنَّفسيِّ للفرد، والانطلاق مِن نقطة الإيمان لمعالجة المواقف، ثمَّ العناية بإصلاح الجوانب الاجتماعيَّة، وأخيرًا الإعداد العسكريِّ الجيِّد.
- يهيمن على السِّياق البدْريِّ الطمأنة وتسكين النُّفوس، مع التَّأكيد على قضيَّة التَّوكُّل على الله ﷻ، وضرورته في تحقيق النَّصر والظَّفر، بينما يُهيمن على السِّياق الأُحُديِّ التَّسلية والتعزية، والحثُّ على التَّصبر والتَّقوى.

ثمَّ عرضت الدِّراسة لأثر اختيار الكلمة في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ، وتناولته مِن جانب أثر اختيار مادَّة الكلمة، واصطفائها على المتقاربات الدَّلاليَّة، ثمَّ أثر هيئة الكلمة في تحقيق التَّثقيف بالنَّظر في بنية الكلمة واسميَّتها وفعليَّتها، ووزنها، واشتقاقها، وجمعها أو إفرادها، وخَلَصَتْ الدِّراسة إلى نتائج مِن أهمِّها:

- تآزر الأداء التَّرتيليِّ للكلمة وحروفها ودلالتها في إيقاع التَّثقيف.
- للسِّياق أثره الفاعل في اصطفاء الكلمة مادَّةً باختيار دلالةٍ بعينها منسجمةً مع السيِّاق، أو هيئةً معيَّنةً فَرَضَها السِّياق لتحقيق الأثر التَّثقيفي، ففي سياقات المنِّ والعطاء نلحظ اصطفاء الكلمات الدَّالة على المبالغة في المنِّ، والهيئات الدَّالة على التِّكرار، ونلحظ في سياقات الابتلاء والتَّمحيص الإشارة ببنية الكلمة كذلك إلى التِّكرار والتَّجدُّد والاستمرار. وفي سياقات العذاب الكلمات الدَّالة على الحسْم والقطْع ونحو ذلك.
- لتنوُّع القراءات القرآنيَّة أثرٌ في اختلاف المعالم التَّثقيفيَّة التي تنفرد كلُّ قراءةٍ فيها بمعنًى، فيعكس في النَّفس أثرًا وفق دلالة الكلمة وهيئتها في القراءة.

ثُمَّ عرضت الدِّراسة لأثر منهاج التَّركيب في تحقيق التَّثقيف النَّفسيِّ، فعرضتْ أساليب العطف والنَّفي والتَّقابل والتَّأكيد والنَّهي والذِّكر والحذف والتَّقديم والتَّأخير والأمْر والشَّرط، كما عرضتْ لاسميَّة الجملة وفعليَّتها، وتنوُّع أداء المعنى بين الخبر والإنشاء، وخلصت إلى النَّتائج الآتية:

- استجابة الأساليب التَّركيبية للوفاء بحاجات النَّفس الإنسانية للمخاطَبين وتطلعاتها مِن خلال انسجام معانيها، وتآخي دلالاتها، وتنوُّعها بين التَّصريح والتَّلميح، والدلالة بالمنطوق والمفهوم.
- يتحقَّق التَّثقيف بأسلوبٍ رئيسٍ في الآية أو المقطع، وتسنده أساليب مساعدة للتحفيز والتهييج وإثارة المخاطب للتَّنفيذ.
- هيمنة الأساليب التَّأكيديَّة على مستوى الغزوتين، ففي غزوة بدر يقوم التَّأكيد

بوظيفة الطمأنة وتسكين القلق، وفي سورة آل عمران يقوم بوظيفة تأكيد العفو والمغفرة عمَّا صدر مِن بعضهم، انسجامًا مع سياق التَّعزية والتَّسلية.

- البناء التَّعليلي سمةٌ ظاهرة في السُّورتين، لإثبات عدله ﷻ، وإرشاد العباد إلى النَّتائج وأسبابها.
- تعاقب الوعد والوعيد، والتَّرغيب والتَّرهيب لتحقيق الموازنة النفسيَّة.
- للوقف والابتداء أثرٌ في فهم الجانب التَّثقيفي، وفي تحبير الأساليب.

كما عرضت الدِّراسة لأساليب تخييل المعنى للسَّامع مِن خلال استحضار الزَّمن والمكان والحوار، وماله مِن أثرٍ على استحضار الأحداث، ثمَّ التَّخييل بالأساليب التَّصويرية، وخلصت الدِّراسة إلى النَّتائج الآتية:

- في إثارة المشهد للسَّامع، ووضعه في قلب الحدث، تحقيقٌ للغاية التَّثقيفية مِن خلال إثارة الجانب الوجدانيِّ والنَّفسيِّ.
- مِن مزايا التَّخييل إثارته للصُّورة النَّفسيَّة الكامنة، والتَّدبير الغيبيِّ وإبرازهما في صورةٍ حيَّةٍ متحرِّكةٍ.
- تتسارع اللحظة الزَّمنيَّة في الوعيد الدُّنيويِّ، بينما تتباطأ في الوعيد الأُخرويِّ، فالسُّرعة لما لها مِن معاني التَّرهيب في الدُّنيا، وأنَّها على وشك الوقوع، والبُطء لما فيه مِن التَّفضيح في الآخرة.
- إشراك الحواس في الصُّورة المخيِّلة كالضَّرْب والنَّظر والذَّوق.
- تخييل الصُّور المتناقضة في غزوة أحدٍ خاصةً لإثارة الجانب العقليِّ والإدْراكيِّ والوجدانيِّ عند المخاطَب.

وكانت أبرز المعالم التَّثقيفية في آيات غزوة بدر:

١ -الحثُّ على صدق التَّوكل على الله ﷻ وعلى الثَّبات على الأرض.

٢ -ضرورة الإعداد النَّفسي والإيمانيِّ للأمَّة، وأنَّه مقدَّمٌ على الإعداد العسكريِّ.

٣ -مسيرة الإصلاح تبدأ بالفرد وتنتهي بالأمَّة، وتتحقق مِن خلال ثلاثِ دوائر علاقة الفرد بنفسه، وعلاقة الفرد بالنَّاس وعلاقة الفرد بربِّه ﷻ.

٤ -الحثُّ على طاعة القائد، وولي الأمر في القتال؛ لأنَّ التَّشتُّت يقود للفشل والهزيمة.

وأبرز المعالم التَّثقيفية في آيات غزوة أحد:

١ -التَّأكيد على قضيَّة التَّوكل على الله ﷻ، وتفويض الأمور إليه مع الأخذ بالأسباب.

٢ -تطهير المجتمع مِن المعاملات الرِّبويَّة؛ لأنَّها تضرب في عمود النَّصر وهو بناء المجتمع التَّعاونيِّ.

٣ -الحثُّ على التَّواصل الاجتماعيِّ ونقاء السَّريرة والإنفاق في سبيل الله.

٤ -الحثُّ على التَّصبُّر، وإعداد النَّفس لما هو أقسى وأشدُّ.

٥ -أنَّ التَّعلُّق يكون بالمنهج ولا يكون بالأشخاص.

٦ -عدم الاغترار بدعاوى المثبِّطين والمنافقين الذين يُروِّجون للشُّبهات لثني عزائم المؤمنين.

٧ -ضرورة محاسبة النَّفس ومراجعتها، للوقوف على الأخطاء وتصحيحها.

وتوصي الدِّراسة بما يلي:

- العناية بالدِّراسات النَّفسيَّة للأساليب البلاغيَّة في القرآن خاصَّة.
- العناية بدراسة غزوات الرَّسول ﷺ في القرآن، وتلمُّس الأثر التَّثقيفيِّ فيها.
- دراسة التَّثقيف النَّفسيِّ في آيات الأحكام، وملاحظة التَّحفيز والحثِّ على التَّنفيذ مِن خلال الأساليب البلاغيَّة.

وفي الختام، أسأل الله العليَّ القدير أن يقلَّ العثْرة، وأن يعفو عن الزَّلَّة، هو حسبي، ونعم الوكيل. وصلى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحْبه وسلَّم.



الفهـــــــارس

- فهرس المصادر والمراجع.
- فهرس الموضوعات.

الرسالة

فهرس المصادر والمراجع[1]

أ. الكتب المطبوعة

(١) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر المكتبة العصرية، لبنان – صيدا، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٢) الإتيان والمجيء "فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم" للدكتور محمود موسى حمدان، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

(٣) أثر اختلاف القراء في الوقف والابتداء للدكتور الجيلي علي أحمد بلال، نشر دار القلم، دبي، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

(٤) إحصاء العلوم لأبي نصر الفارابي،قدّم له وشرحه وبوَّبه الدكتور علي بوملحم،نشر دار ومكتبة هلال،بيروت،الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

(٥) أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي، راجع أصوله وأحاديثه وعلق عليه : محمد عبد القادر عطا، نشر دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٦) أحكام القرآن لأبي بكر الجصاص، نشر دار الكتاب العربي، بيروت. دون ت.ط.

(٧) الإحكام في أصول الأحكام للإمام علي الآمدي علق عليه العلامة : عبد الرزاق عفيفي، نشر دار الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

(٨) أدوات التشبيه دلالاتها واستعمالاتها في القرآن الكريم للدكتور محمود موسى حمدان، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧ م

(١) رتَّبت المصادر والمراجع بالترتيب الهجائي،وأشرتُ إلى مالم يُدوَّن فيه رقم الطبعة والتاريخ بـ دون ط.ت.،ومالم أدوِّن فيه رقم الطبعة والتاريخ أو اعتراه نقص المعلومات فهو كذلك في أصله.

(٩) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي، نشر دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(١٠) أساس البلاغة لجار الله الزمخشري، تحقيق الأستاذ : عبد الحليم محمود، نشر مطبعة أولاد أورفاند، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ / ١٩٥٣م. (عن نسخة دار الكتب المصرية)

(١١) الأساس في التفسير للشيخ سعيد حوى، نشر دار السلام، مصر – القاهرة، الطبعة السادسة ٢٠٠٣م / ١٤٢٤هـ

(١٢) أساليب البيان والصورة القرآنية "دراسة تحليلية لعلم البيان" للدكتور محمد إبراهيم شادي،نشر دار والي،المنصورة،الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

(١٣) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية للدكتور صباح دراز،نشر مطبعة الأمانة،القاهرة،الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(١٤) أسباب النزول لأبي الحسن الواحدي، تخريج وتدقيق : عصام بن عبد المحسن الحميدان، نشر دار الإصلاح، السعودية – الدمام، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(١٥) أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه : محمود شاكر، نشر دار المدني، جدة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩١م

(١٦) أسرار الفصل والوصل للدكتور صباح دراز،نشر مطبعة الأمانة، القاهرة الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(١٧) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية للدكتور مجيد عبد الحميد ناجي، نشر المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.

(١٨) أسلوب الشرط بين النحويين والبلاغيين للدكتور فتحي حمودة، نشر دار البيان العربي، جدة، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

(١٩) أسماء الله الحسنى " دراسة في البنية والدلالة " للدكتور أحمد مختار عمر، نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(٢٠) الأشباه والنظائر في النحو لجلال الدين السيوطي، تحقيق : غازي مختار طليمات، نشر مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، طبعة ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢١) أَضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، نشر عالم الكتب، بيروت،دون ت.ط.

(٢٢) الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم لابن عربشاه عصام الدين : (١ / ٢٣١)، تحقيق وتعليق : د. عبد الحميد هنداوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٢٣) الإعجاز البياني في صيغ الألفاظ " دراسة تحليلية للإفراد والجمع في القرآن " للدكتور محمد الأمين الخضري، نشر مطبعة الحسين الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

(٢٤) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق " دراسة قرآنية لغوية وبيانية "، عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) نشر دار المعارف، الطبعة الثالثة.

(٢٥) الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم " دراسة نظرية تطبيقية للتوظيف البلاغي لصيغة الكلمة" للدكتور عبد الحميد هنداوي،نشر الكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(٢٦) إعجاز القرآن الكريم للدكتور فضل عباس و سناء فضل عباس، نشر دار الفرقان، عمان، الطبعة الأولى ١٩٩١م / ١٤١٢هـ.

(٢٧) الإعجاز القصصي في القرآن للأستاذ الدكتور : سعيد عطية مطاوع،نشر دار الآفاق العربية،القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٢٨) الإعجاز في نسق القرآن للدكتور محمد الأمين الخضري، نشر مكتبة زهراء الشرق، مصر – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م

(٢٩) الأعلام لخير الدين الزركلي، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشرة، ٢٠٠٢م.

(٣٠) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية، تحقيق : محمد حامد الفقي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(٣١) الإمام البقاعي " جهاده ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم " للدكتور محمود توفيق، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.

(٣٢) الانتصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال بذيل "الكشاف" لابن المنيِّر الاسكندري، ضبط وتوثيق : أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، نشر دار الكتاب العربي، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

(٣٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل لناصر الدين البيضاوي، إعداد وتقديم : محمد المرعشلي، نشر دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى،دون ت.

(٣٤) أهداف كل سورة من القرآن لفؤاد زيدان، نشر دار الحافظ، سوريا – حلب، ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(٣٥) إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لأبي بكر الأنباري، تحقيق : محي الدين عبد الرحمن رمضان،نشر مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م.

(٣٦) الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني : بشرح " البغية " لعبد المتعال الصعيدي، نشر مكتبة الآداب، مصر – القاهرة، طبعة ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

(٣٧) بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، تحقيق : علي معوض، عادل الموجود، زكريا النوتي، دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م.

(٣٨) البحر المحيط لأبي حيّان الأندلسي، نشر دار إحياء التراث العربي، لبنان – بيروت، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

(٣٩) بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، تحقيق : علي محمد العمران، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي نشر دار عالم الفوائد.

(٤٠) بديع القرآن لابن أبي الإصبع المصري، تحقيق : حفني محمد شرف، نشر مكتبة نهضة مصر، الطبعة الأولى ١٣٧٧هـ / ١٩٥٧ م

(٤١) البديع تأصيل وتجديد للدكتور منير سلطان، نشر منشأة المعارف، مصر – الاسكندرية، ١٩٨٦ م

(٤٢) البديع والتوازي للدكتور عبد الواحد حسن الشيخ، مكتبة الإشعاع الفنية، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م

(٤٣) البرهان في ترتيب سور القرآن لابن الزبير الغرناطي، دراسة وتحقيق : الأستاذ محمد شعباني، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في المملكة المغربية، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م.

(٤٤) البرهان في توجيه متشابه القرآن لمحمود الكرماني : (٩٧)، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا، نشر دار الفضيلة، القاهرة. دون ط.ت.

(٤٥) البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر مكتبة دار التراث، مصر – القاهرة.

(٤٦) البرهان في نظام القرآن في الفاتحة والبقرة و آل عمران للدكتور محمد عناية الله سبحاني،نشر دار عمار، عمّان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(٤٧) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز لمجد الدين الفيروزآبادي، تحقيق : الأستاذ محمد علي النجار، نشر لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالجمهورية العربية المتحدة – القاهرة، ١٣٨٧هـ

(٤٨) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد و منبع الفوائد لنور الدين الهيثمي، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش، نشر دار الفكر،لبنان – بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤ م

(٤٩) بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم للدكتور علي أبو القاسم عون، نشر دار المدار الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

(٥٠) البلاغة العربية أسسها وعلومها و فنونها لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، نشر دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٥١) البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور محمد أبو موسى، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(٥٢) بلاغة الكلمة في التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي، نشر دار عمار، عمان، الطبعة الرابعة ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

(٥٣) بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان الخطابي (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر الجرجاني).

(٥٤) البيان القرآني للدكتور محمد رجب بيومي، نشر الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(٥٥) البيان و التبيين لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق : عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، بيروت،دون ت.ط.

(٥٦) تاج العروس من جواهر القاموس لمرتضى الزبيدي،تحقيق : مصطفى حجازي، نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٥٧) تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر الطبري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار المعارف، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية.

(٥٨) تأملات في سورة آل عمران للدكتور حسن با جودة، نشر النادي الأدبي الثقافي بجدة، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٥٩) تأملات في سورة الأنفال للدكتور حسن باجودة،، نشر مكتبة مصر،دون ط.ت.

(٦٠) التبيان في إعراب القرآن لأبي البقاء العكبري، تحقيق : مركز البحوث والدراسات في دار الفكر، نشر دار الفكر، بيروت، طبعة سنة ١٤٢٥ – ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(٦١) تجريد التوحيد المفيد لتق الدين المقريزي، تحقيق : د. أحمد السايح و د. السيد الجميلي، نشر مركز الكتاب، القاهرة، دون ط.ت.

(٦٢) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، نشر الدار التونسية، تونس، ١٩٨٤م.

(٦٣) التخييل "مفهومه وموقف المفسرين منه قدامى ومحدثين" للدكتور مصطفى إبراهيم المشني،نشر دار الرازي،عمان،الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.

(٦٤) التصوير البياني " دراسة تحليليّة لمسائل البيان " للدكتور محمد محمد أبو موسى، نشر مكتبة وهبة مصر – القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤ م.

(٦٥) التصوير البياني في آيات الأمن والخوف لزينب الكردي، نشر غراس، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م.

(٦٦) التصوير الساخر في القرآن الكريم للدكتور عبد الحليم حفني، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.

(٦٧) التصوير الفني في القرآن الكريم "دراسة تحليلية" للدكتور جبير صالح حمادي،نشر مؤسسة المختار،القاهرة،الطبعة الأولى١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

(٦٨) التصوير الفني في القرآن لسيد قطب، نشر دار الشروق، القاهرة، الطبعة السادسة عشرة ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

(٦٩) التعبير القرآني للدكتور فاضل السامرائي، نشر دار عمار، عمان، الطبعة الخامسة،١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

(٧٠) التعريض في القرآن الكريم للدكتور إبراهيم الخولي، نشر دار البصائر، القاهرة،الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

(٧١) التعريفات لعلي بن محمد الشريف الجرجاني، تحقيق : غوسطافوس فلوجل، نشر مكتبة لبنان، بيروت ١٩٨٥م.

(٧٢) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم للدكتور عبد العظيم المطعني، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.

(٧٣) تفسير التبيان لمحمد بن الحسن الطوسي، تحقيق و تصحيح : أحمد حبيب العاملي، نشر مكتبة الأمين، النجف، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

(٧٤) تفسير الراغب الأصفهاني من أول سورة آل عمران وحتى نهاية الآية (١١٣) من سورة النساء، دراسة وتحقيق : د. عادل بن علي الشدي، نشر مدار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

(٧٥) تفسير الشعراوي.(دون أي بيان).

(٧٦) تفسير القرآن العظيم لا بن كثير، تحقيق : مصطفى السيد محمد وآخرون، نشر مؤسسة قرطبة، الجيزة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(٧٧) التفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب،نشر دار الفكر العربي،دون ت.ط.

(٧٨) تفسير المراغي،نشر مطبعة البابي، مصر، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ / ١٩٤٦م.

(٧٩) تفسير المنار لمحمد رشيد رضا ،نشر دار المنار، مصر، الطبعة الثانية ١٣٦٧هـ

(٨٠) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لمحمد سيد طنطاوي، نشر دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م.

(٨١) تفسير سورة الأنفال للدكتور محمد أبو فارس، نشر مكتبة المنار، الأردن – الزرقاء، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.

(٨٢) تقريب منهاج البلغاء لحازم القرطاجني للدكتور محمد أبو موسى،نشر مكتبة وهبة،القاهرة،الطبعة الأولى١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

(٨٣) التكرير بين المثير والتأثير للدكتور عز الدين علي السيد، نشر عالم الكتب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(٨٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي، تحقيق :د.علي محمود مقلد،نشر دار مكتبة الحياة،بيروت،دون ت.ط.

(٨٥) التمهيد في علم التجويد لابن الجزري، تحقيق : الدكتور علي حسين البواب،نشر مكتبة المعارف،الرياض،الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.

(٨٦) التناسب البياني في القرآن " دراسة في النظم المعنوي والصوتي " للدكتورأحمد أبو زيد، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ١٩٩٢م.

(٨٧) تناسق الدرر في تناسب السور لجلال الدين السيوطي، تحقيق : عبد القـادر أحمـد عطا، نشر دار الاعتصام، الطبعة الثانية ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(٨٨) التوجيـه البلاغـي للقـراءات القرآنيـة للـدكتور أحمـد سـعد محمـد، نشرـ مكتبـة الآداب، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(٨٩) تيسير الكريم الرحمن في تفسيركلام المنان لعبد الرحمن السعدي،اعتنى بـه تحقيقـا ومقابلة : عبد الرحمن بن معلا اللويحق، نشر مؤسسـة الرسـالة، بـيروت، الطبعـة الرابعة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(٩٠) التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الـداني،، تحقيـق : د. حـاتم الضـامن، نشرـ مكتبة الصحابة، الشارقة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(٩١) جامع البيان في تأويل القرآن لابن جرير الطـبري، تحقيـق : محمـود شـاكر و أحمـد شاكر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

(٩٢) جـامع العلـوم والحكـم في شرح خمسـين حـديثا مـن جوامـع الكلـم لابـن رجـب الحنبلي، تحقيق : شـعيب الأرنـاؤوط و إبـراهيم بـاجس، نشرـ مؤسسـة الرسـالة، بيروت، الطبعة السابعة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(٩٣) الجـامع لأحكـام القـرآن والمبـين لمـا تضـمنه مـن السـنة وآي القـرآن لأبي عبـد الله القرطبي، تحقيـق : د. عبـد الله بـن عبـد المحسـن التركـي وشـاركه في هـذا الجـزء آخـرون، نشرـ مؤسسـة الرسـالة، لبنـان – بـيروت، الطبعـة الأولى ١٤٢٧هــ / ٢٠٠٦م

(٩٤) الجانب النفسي من التفكير البلاغي عند عبد القاهر الجرجـاني للـدكتور إبـراهيم الخولي، نشر دار الأدب الإسلامي، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م.

(٩٥) جماليات المفردة القرآنية للدكتور أحمد ياسوف، نشرـ دار المكتبي،دمشـق، الطبعـة الثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(٩٦) جمهرة مقالات الأستاذ محمود شـاكر، جمـع وقرأهـا وقـدم لهـا : د. عـادل سـليمان جمال، نشر مكتبة الخانجي، مصر – القاهرة، الطبعة الأولى.

(٩٧) الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي، حققه وخرج أحادثيه ووثق أصوله : أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٩٨) حاشية ابن التمجيد على البيضاوي بذيل " حاشية القونوي على البيضاوي" ضبطه وصححه وخرج آياته : عبد الله محمود محمد عمر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة، الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٩٩) حاشية القونوي على البيضاوي، ضبطه وصححه وخرج آياته : عبد الله محمود محمد عمر، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة، الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(١٠٠) حاشية الكازروني على البيضاوي، نشر دار الكتب العربية الكبرى.، مصر.دون ط.ت.

(١٠١) حاشية سيد شريف على المطول لسعد الدين التفتازاني (بهامش المطول).

(١٠٢) حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول ضمن "فيض الفتاح على حواشي شرح تلخيص المفتاح " للشربيني نشر مطبعة مدرسة والدة عباس الأول، القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م.

(١٠٣) حجة القراءات لأبي زرعة بن زنجلة، حققه وعلق على حواشيه : سعيد الأفغاني، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الخامسة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م

(١٠٤) الحجة في القراءات السبع لابن خالويه، تحقيق : الدكتور عبد العال مكرم، نشر دار الشروق،بيروت، الطبعة الثالثة ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

(١٠٥) الحرب النفسية في ضوء القرآن الكريم وتطبيقاتها في العصر الحديث لفهد العايد، نشر الصميعي، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م.

(١٠٦) الحيوان لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق وشرح : عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، بيروت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(١٠٧) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر البغدادي، تحقيق : عبد السلام هارون، نشر مكتبة الخانجي،القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(١٠٨) خصائص التعبير القرآني للدكتور عبد العظيم المطعني، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(١٠٩) الخصائص لأبي الفتح ابن جني، تحقيق : محمد علي النجار، نشر دار الكتاب العربي، بيروت (مصورة عن دار الكتب المصرية).

(١١٠) الخطاب النفسي في القرآن الكريم " دراسة دلالية أسلوبية " للدكتور كريم الخالدي، نشر دار صفاء، عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

(١١١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي،تحقيق : د. أحمد الخراط، نشر دار القلم، دمشق، دون ط.ت.

(١١٢) دراسات جديدة في إعجاز القرآن للدكتور عبد العظيم المطعني، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

(١١٣) دراسات لأسلوب القرآن الكريم للدكتور محمد عبد الخالق عضيمة، نشر دار الحديث، القاهرة. د.ت ط.

(١١٤) دراسة في أسرار العدول في استعمال صيغ الفعل للدكتور ظافر بن غرمان العمري،نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ / ٢٠٠٨م.

(١١٥) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، نشر عالم الفوائد، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ

(١١٦) دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه : محمود شاكر، نشر مكتبة الخانجي، مصر – القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

(١١٧) دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة لأبي بكر البيهقي، وثق أُصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه : الدكتور عبد المعطي قلعجي، نشر دار الكتب العلمية ببيروت، ودار الريان للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(١١٨) دلالات التراكيب "دراسة بلاغية" للدكتور محمد محمد أبو موسى، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م

(١١٩) دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم للدكتور خالد بني دومي، نشر عالم الكتب الحديث، إربد، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م

(١٢٠) ديوان الكميت بن زيد الأسدي، جمع وشرح وتحقيق : د.محمد نبيل طريفي، نشر دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م.

(١٢١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي،ضبطه وصححه : علي عبد الباري عطية، نشر دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٤م.

(١٢٢) الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام للإمام عبد الرحمن السهيليّ، تحقيق وتعليق وشرح : عبد الرحمن الوكيل، نشر دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م.

(١٢٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه : أحمد شمس الدين، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(١٢٤) زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية، تحقيق وتعليق الشيخ عرفان العشا، نشر دار الفكر، بيروت، طبعة ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(١٢٥) سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي، تحقيق : إبراهيم الترزي و عبد الكريم العزباوي، نشر لجنة إحياء التراث الإسلامي بوزارة الأوقاف المصرية، القاهرة، ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م.

(١٢٦) سر الإعجاز في تنوع الصيغ المشتقة من أصل واحد، للدكتور عـودة الله القيسي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

(١٢٧) سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، تحقيق : عبـد المتعـال الصـعيدي، نشر مكتبـة محمد صبيح، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

(١٢٨) سنن أبي داود،تحقيـق : محمـد عوامـة، نشر دار القبلـة للثقافـة الإسـلامية، جـدة، الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(١٢٩) سير أعلام النبلاء لشمس الدين الـذهبي، حققـه وخـرج أحاديثـه وعلـق عليـه : شعيب الأرناؤوط و محمد نعيم العرقسوسي، نشر مؤسسـة الرسـالة، بـيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

(١٣٠) السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق : د. مصطفى عبـد الواحـد، نشر مطبعـة عيسـى البابي، القاهرة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

(١٣١) السيرة النبوية لابن هشام، حققـه وضـبطه وشرحـه ووضـع فهارسـه : مصـطفى السـقا و إبـراهيم الأبيـاري وعبـد الحفـيظ شـلبي، نشر دار المعرفـة،بيروت،دون ت.ط.

(١٣٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري " دراسة في سمت الكلام الأول " للـدكتور محمد محمـد أبـو موسـى، نشر مكتبـة وهبـة، القـاهرة، الطبعـة الأولى١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

(١٣٣) شرح الرضي على الكافية، تصحيح وتعليق : يوسـف حسـن عمـر، نشر جامعـة قاريونس، بنغازي، الطبعة الثانية ١٩٩٦م.

(١٣٤) شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي، تحقيق : محمد نور الحسـن و محمـد الزقـراف و محمـد محـي الـدين عبـد الحميـد، نشر دار الكتـب العلميـة، بيروت،طبعة سنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

(١٣٥) شرح صحيح البخاري لابن بطال، ضبط نصه وعلـق عليـه : أبـو تمـيم يـاسر بـن إبراهيم، نشر مكتبة الرشد، الرياض.

(١٣٦) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان لجلال الدين السيوطي، نشر مطبعة البابي ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.

(١٣٧) شعر زهير بن أبي سلمى " صنعة الأعلم الشنتمري "، تحقيق : فخر الدين قباوة، نشر دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(١٣٨) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبي الفضل عياض اليحصبي،نشر دار الكتب العلمية، بيروت. دوت ط.ت.

(١٣٩) صحيح البخاري،تحقيق : محب الدين الخطيب، وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

(١٤٠) صحيح سنن الترمذي، تحقيق : محمد ناصر الدين الألباني،نشر مكتبة المعارف، الرياض،الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

(١٤١) صحيح مسلم، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، نشر المكتبة الإسلامية، تركيا – استانبول.

(١٤٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي للدكتور جابر عصفور،نشر دار المعارف،القاهرة.دون ت.ط.

(١٤٣) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى العلوي، تحقيق : عبد الحميد هنداوي، نشر المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م

(١٤٤) الظاهرة الجمالية في القرآن الكريم لنذير حمدان، نشر دار المنارة، السعودية – جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩١ م.

(١٤٥) علم المناسبات في السور والآيات للدكتور محمد بن عمر بازمول، نشر المكتبة المكية، السعودية – مكة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

(١٤٦) علم النفس الحربي للدكتور عبد الرحمن العيسوي، نشر دار الراتب الجامعية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(١٤٧) علم النفس القرآني للدكتور عدنان الشريف، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السادسة ٢٠٠٧م.

(١٤٨) علم النفس اللغوي للدكتورة نوال محمد عطيّة، نشر المكتبة الأكاديمية، مصر- القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٥م.

(١٤٩) عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي، تحقيق : محمد باسل السود، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

(١٥٠) عناية القاضي وكفاية الراضي لشهاب الدين الخفاجي، ضبطه وخرج آياته وأحاديثه : الشيخ عبد الرزاق مهدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(١٥١) غرائب الإعجاز والنكات في مقامات أسباب النزول للدكتور : محمد إبراهيم شادي،نشر دار اليقين، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(١٥٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري،ضبطه وخرج آياته وأحاديثه : الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(١٥٣) غزوات الرسول "دروس وعبر وفوائد" للدكتور علي محمد الصلابي، نشر مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

(١٥٤) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير لأبي علي الشوكاني،نشر مطبعة البابي الحلبي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م.

(١٥٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية لسليمان العجيلي، مطبعة عيسى البابي.

(١٥٦) الفروسية لابن قيم الجوزية، هذبه وعلق عليه : سمير حسين حلبي، نشر دار الصحابة للتراث،طنطا، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(١٥٧) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، علق عليه ووضع حواشيه : محمد باسل السود، نشر دار الكتب العلمية، لبنان – بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(١٥٨) فقه اللغة و أسرار العربية لأبي منصور الثعالبي، ضبطه وعلق على حواشيه : الدكتور ياسين الأيوبي، نشر المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

(١٥٩) في إعجاز القرآن، دراسة تحليلية لسورة الأنفال المحتوى والبناء لأحمد البزرة، نشر مكتبة المأمون للتراث، سوريا – دمشق، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م.

(١٦٠) في ظلال القرآن لسيد قطب، نشر دار الشروق، مصر – القاهرة، الطبعة الخامسة عشرة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م

(١٦١) القرآن وعلم النفس " النفس في المنهج القرآني " للدكتور عبد العلي الجسماني، نشر الدار العربية للعلوم،بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ، ١٩٩٩م.

(١٦٢) القرآن وعلم النفس للدكتور عبد الوهاب حمودة، نشر مجلة الأزهر لشهر محرم ١٤٢٩هـ.

(١٦٣) القرآن وعلم النفس للدكتور محمد عثمان نجاتي، نشر دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤٢١هـ / ٢٠٠١م.

(١٦٤) قطف الأزهار في كشف الأسرار لجلال الدين السيوطي، تحقيق ودراسة : د. أحمد الحمادي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م

(١٦٥) الكتاب لسيبويه، تحقيق : عبد السلام هارون، نشر دار الجيل، لبنان –بيروت، الطبعة الأولى.

(١٦٦) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لمحمود الزمخشري، ضبط وتوثيق : أبي عبد الله الداني بن منير آل زهوي، نشر دار الكتاب العربي، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

(١٦٧) الكشف والبيان لأبي إسحاق الثعلبي، دراسة و تحقيق : أبي محمد بن عاشور، نشر دار إحياء التراث، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

(١٦٨) الكليات لأبي البقاء الكفوي، قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه : د. عدنان درويش ومحمد المصري، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

(١٦٩) لباب التأويل في معاني التنزيل لعلي بن محمد البغدادي،ضبطه وصححه : عبد السلام شاهين،نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(١٧٠) لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي، نشر مؤسسة الكتب الثقافية، لبنان – بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م

(١٧١) اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي، تحقيق وتعليق : الشيخ عادل عبد الموجود وعلي معوَّض، نشر دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.

(١٧٢) لسان العرب لابن منظور المصري، نشر دار صادر ودار بيروت، لبنان – بيروت، ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م.

(١٧٣) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير، تحقيق : محي الدين عبد الحميد، نشر المكتبة العصرية، صيدا، طبعة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

(١٧٤) مجاز القرآن لعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام، تحقيق : د.مصطفى الذهبي، نشر مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، طبعة ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

(١٧٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية الحراني، اعتنى به وخرج أحاديثه : عامر الجزار و أنور الباز، نشر دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثالثة ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

(١٧٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(١٧٧) المحرر في أسباب نزول القرآن من خلال الكتب التسعة للدكتور خالد المزيني، نشر دار ابن الجوزي، السعودية – الدمام، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ

(١٧٨) مدارك التنزيل وحقائق التأويل لعبد الله النسفيّ،ضبطه وخرّج أحاديثه : الشيخ زكريا عميرات، نشر دار الكتب العلمية،بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

(١٧٩) المستطرف في كل فن مستظرف لشهاب الدين الأبشيهي، مراجعة وتعليق : محمد سعيد، نشر دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١ م

(١٨٠) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق : أحمد شاكر، نشر دار الحديث، مصر – القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٥ م.

(١٨١) المصباح في المعاني والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك، تحقيق : الدكتور عبد الحميد هنداوي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م

(١٨٢) المطول في شرح تلخيص المفتاح لسعد الدين التفتازاني، نشر المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، دون ت.ط.

(١٨٣) معالم التنزيل لأبي محمد البغوي، حققه وخرج أحاديثه : محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة و سليمان الحرش، نشر دار طيبة، الرياض، الطبعة الرابعة ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م.

(١٨٤) معاني القرآن الكريم لأبي جعفر النحاس، تحقيق الشيخ : محمد علي الصابوني، نشر جامعة أم القرى، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م

(١٨٥) معاني القرآن لأبي الحسن الأخفش، تحقيق : الدكتورة هدى قراعة، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١١هـ / ١٩٩٠م.

(١٨٦) معاني القرآن لأبي زكريا الفراء، تحقيق : محمد علي النجار و محمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(١٨٧) معـاني النحـو للـدكتور فاضـل السـامرائي، نشر جامعـة بغـداد، بغـداد، الطبعـة الثانية، ١٩٩٠م.

(١٨٨) المعتزلة وأصولهم الخمسة وموقف أهل السنة منها لعواد بن عبد الله المعتق ، نشر دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ

(١٨٩) معجم البلدان لياقوت الحموي، نشر دار صادر، بيروت.

(١٩٠) معجم الفروق الدلالية في القـرآن الكـريم للـدكتور محمـد محمـد داود ، نشر دار غريب، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

(١٩١) المعجم الكبير للطبراني، حققه وأخرج أحاديثه : حمدي عبد المجيد السلفي، نشر مكتبة ابن تيمية، القاهرة

(١٩٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها للدكتور أحمد مطلوب،نشر الدار العربيـة للموسوعات،الحازمية، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م

(١٩٣) معجم المقاييس في اللغة، لأحمد بن فارس، تحقيق : شهاب الدين أبو عمـرو، دار الفكر، لبنان – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٨م.

(١٩٤) مغنـي اللبيـب عـن كتـب الأعاريـب لابـن هشـام الأنصـاري، تحقيـق وشرح : الـدكتور عبـد اللطيـف محمـد الخطيـب، نشر المجلس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م.

(١٩٥) مفـاتيح الغيـب لفخـر الـدين الـرازي، نشر دار الفكـر،بيروت، الطبعـة الأولى ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(١٩٦) مفتاح العلـوم لأبي يعقـوب السـكاكي،حققه وقـدم لـه وفهرسـه : الـدكتور عبـد الحميد هنداوي، نشر دار الكتـب العلميـة، بـيروت، الطبعـة الأولى ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م.

(١٩٧) مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق :صفوان عـدنان داودي، نشر دار القلم، سوريا – دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(١٩٨) مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني و البديع و إعجاز القرآن ، كشف عنه وعلق على حواشيه : د. زكريا سعيد علي، نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.

(١٩٩) المكتفى في الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل لأبي عمرو الداني، تحقيق : د. يوسف المرعشلي، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م.

(٢٠٠) ملاك التأويل. القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل لابن الزبير الغرناطي، تحقيق : سعيد الفلاح، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

(٢٠١) من أسرار البيان القرآني للدكتور فاضل السامرائي، نشر دار الفكر، عمان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩ / ١٤٣١هـ

(٢٠٢) من أسرار التعبير القرآني " دراسة تحليلية لسورة الأحزاب " للدكتور محمد محمد أبو موسى، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢٠٣) من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم للدكتور محمد الأمين الخضري، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.

(٢٠٤) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم " الفاء و ثم " للدكتور محمد الأمين الخضري، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٧م.

(٢٠٥) من بلاغة القرآن للدكتور أحمد بدوي، نشر دار نهضة مصر، مصر – القاهرة،٢٠٠٥ م.

(٢٠٦) من جماليات التصوير في القرآن الكريم لمحمد قطب عبد العال، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر – القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٦م.

(٢٠٧) من هدي سورة الأنفال لمحمد أمين المصري، نشر مكتبة دار الأرقم، الكويت.

(٢٠٨) منار الهدى في بيان الوقف والابتدا لأحمد الأشموني،نشر مطبعة البابي، مصر، الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م.

(٢٠٩) مناهل العرفان في علوم القرآن لمحمد بن عبد العظيم الزرقاني، اعتنى به : أمين الكردي، نشر دار إحياء التراث العربي، لبنان –بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م

(٢١٠) منهاج البلغاءوسراج الأدباء لحازم القرطاجني،تقديم وتحقيق :محمد الحبيب ابن الخوجة،نشر دار الغرب الإسلامي،بيروت،الطبعة الثانية،١٩٨١م.

(٢١١) المنهج التربوي للسيرة النبوية " التربية الجهادية" لمنير محمد الغضبان، نشر مكتبة المنار،الزرقاء، الطبعة الثانية، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م.

(٢١٢) الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم الشاطبي، تحقيق : مشهور آل سلمان، نشر دار ابن القيم، السعودية – الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م.

(٢١٣) النشر في القراءات العشر لابن الجزري، أشرف على تصحيحه ومراجعته : أ.علي محمد الضباع، نشر دار الكتب العملية، بيروت.

(٢١٤) نظرات في الجملة العربية للدكتور كريم حسين الخالدي، نشر دار صفاء،عمان،الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٢١٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي : خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه : عبد الرزاق المهدي، نشر دار الكتب العلمية لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.

(٢١٦) النظم القرآني في آيات الجهاد للدكتور ناصر الخنين، نشر مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

(٢١٧) النكت في إعجاز القرآن لأبي الحسن الرماني "ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن "، تحقيق : محمد خلف الله أحمد و الدكتور محمد زغلول سلام، نشر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الرابعة.

(٢١٨) النكت والعيون لأبي الحسن الماوردي، راجعه وعلق عليه : السيد عبد المقصود بن عبد الرحيم، نشر دار الكتب العلمية و مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م.

(٢١٩) نمو المعاني " دراسة تحليلية لسورة آل عمران " للدكتور عادل حسني شكري يوسف، نشر دار ابن حزم، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٤م.

(٢٢٠) هداية القاري إلى تجويد كلام الباري لعبد الفتاح المرصفي، طبعة خاصة على نفقة الشيخ محمد عوض بن لادن، السعودية الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.

ب.الرسائل العلمية:

(٢٢١) الاحتباك في القرآن الكريم " دراسة بلاغية " للباحث: عدنان عبد السلام أسعد،رسالة علمية بجامعة الموصل بالعراق لنيل درجة الماجستير بإشراف الأستاذ الدكتور : أحمد فتحي رمضان سنة ١٤٢٥هـ

(٢٢٢) أسلوب القرآن في عرض مواقف الحرب والسَّلام،للباحث:محمد علي حسن أحمد،رسالةٌ علميَّةٌ لدرجة الدكتوراة مقدَّمة إلى كليَّة اللغة العربيَّة بجامعة الأزهر بأسيوط، بإشراف الأستاذ الدُّكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م

(٢٢٣) التبيان في البيان للطيبي "تحقيقا ودراسة"للباحث : عبد الستار حسين زموط،رسالة علمية مقدمة لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر لنيل درجة الدكتوراة في البلاغة والنقد، إشراف الأستاذ الدكتور : كامل الخولي، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٢٢٤) تقييد النفي في القرآن الكريم " دراسة بلاغية " للباحث ياسر محمد بابطين، رسالة علمية لدرجة الماجستير مقدمة لجامعة أم القرى، قسم الدراسات العليا، بفرع البلاغة، بإشراف الأستاذ الدكتور / دخيل الله الصحفي ١٤٢٥هـ.

(٢٢٥) خصائص التَّراكيب اللغويَّة لآيات الحرب والسَّلام في القرآن الكريم، للباحث: رجب عبد القادر بدوي حجَّاج. رسالةٌ علميَّةٌ لدرجة الماجستير مقدَّمةٌ إلى قسم اللغة العربيَّة بكليَّة الآداب بجامعة طنْطا، ١٩٩٠م.

(٢٢٦) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب للحسين الطيبي، دراسة و تحقيق لسورة آل عمران : حسن بن أحمد العمري،رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في قسم التفسير بكلية القرآن الكريم والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، بإشراف الدكتور : حكمت بشير ياسين ١٤١٥هـ/ ١٤١٦هـ.

(٢٢٧) نصوص التَّرغيب والتَّرهيب في القرآن الحكيم من وجهةٍ بلاغيَّةٍ، للباحث: يوسف بن عبدالله الأنصاري، رسالةٌ علميَّةٌ لدرجة الدكتوارة مقدَّمة إلى قسم الدِّراسات العليا العربية بكليَّة اللغة العربية بجامعة أم القرى بمكَّة المكرَّمة، بإشراف الدُّكتورعبد العظيم المطعنيِّ،عام ١٤١٣هـ

ج.المخطوطات:

(٢٢٨) حاشية الطيبي على الكشاف، الجزء الثاني [مخطوطة مصورة بجامعة الملك عبد العزيز برقم (١٥٧١)].

(٢٢٩) حاشية لسعد الدين التفتازاني على الكشاف [مخطوطة بحوزة مكتبة الحرم النبوي الشريف، برقم تصنيف : ٢١١].

د. الدوريات:

(٢٣٠) أسلوب (إذ) في ضوء الدارسات القرآنية والنحوية للدكتور عبد العال سالم مكرم، بحث منشور في الحولية الرابعة لحوليات كلية الآداب بجامعة الكويت (الرسالة الخامسة عشرة) ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.

(٢٣١) تشابه الأطراف في القرآن الكريم:" سورة الأنفال نموذجا " لثناء عياش،بحث محكم في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، نشر المجلس العلمي بجامعة الكويت، العدد (٩١) السنة (٢٣) صيف ٢٠٠٥م.

(٢٣٢) تلوين الخطاب لابن كمال باشا، دراسة وتحقيق الدكتور : عبد الخالق الزهراني، بحث منشور في مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، العدد (١١٣) (١٤٢١هـ/ ٢٠٠١ م)

(٢٣٣) طرق العرض في القرآن " الأهداف والخصائص الأسلوبية " للدكتور بن عيسى با طاهر، بحث منشور في مجلة حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الرسالة (١٧٨) الحولية الثانية والعشرون، الكويت، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م.

هـ. المواقع الشبكية:

(٢٣٤) موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة على الشابكة :

Http://www.55a.net/firas/farisi/print_details.php?page=show_det&id=708



فهرس الموضوعات

